الدكتور عماد الدين خليل



الإمارات الأرتقية

في الجزيرة والشام

(٤٦٥ - ٨١٢ هـ / ١٠٧٢ - ١٤٠٩م)

أضواء جديدة

(على المقاومة الإسلامية للصليبيين والتتر)

مؤسسة الرسالة


الإمارات الأرتقية
في الجزيرة والشام
أضواء جديدة
(على المقاومة الإسلامية للصليبيين والتتر)
al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الطبعة الأولى

١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م





مؤسسة الرسالة – بيروت – شارع سوريا – بناية صمدي وصالحة
هاتف : ٢٩٥٥٠١ – ٢٤١٦٩٢ ص.ب : ٧٤٦٠ برقياً : بيوشران

الدكتور عماد الدين خليل

الإمارات الأرتقية

في الجزيرة والشام

(٤٦٥ - ٨١٢ هـ/ ١٠٧٢ - ١٤٠٩م)

أضواء جديدة

(على المقاومة الإسلامية للصليبيين والتتر)

مؤسسة الرسالة


بسم الله الرحمن الرحيم

يُقدم هذا البحث عن (الامارات الأرتقية) كرسالة للحصول على (الدكتوراه) في التاريخ الاسلامي من جامعة عين شمس في القاهرة ، نوقشت بتاريخ ٦/٣/١٩٦٨ من قبل اللجنة المؤلفة من : الأستاذ الدكتور حسن حبشي : رئيساً ، وعضوية كل من : الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة والأستاذ الدكتور إبراهيم أحمد العدوي ، ومُنحت مرتبة الشرف الأولى.



المقدّمة

نطاق البحث - تحليل المصادر والمراجع

١- نطاق البحث

لم تحظ الجهات الشمالية من المنطقة التي تضم اليوم إيران والعراق وبلاد الشام باهتمام كبير في الدراسات التاريخية طيلة العصور الاسلامية ، فقد وجه معظم المعنيين بتلك الدراسات جهودهم لدراسة مناطق معينة كمصر والشام وبغداد وبلاد فارس وما وراء النهر ، في الوقت الذي بقيت فيه منطقة الموصل والجزيرة والجهات الشمالية من بلاد الشام وجنوبي آسيا الصغرى وأذربيجان دون اهتمام كبير ، وهكذا بينما أشبعت المناطق الأولى بحثاً ودراسة ، نجد أن المناطق الأخرى ظلّت تعاني فجوات واسعة من الناحيتين السياسية والحضارية ، رغم أن هذه المناطق تميزت في بعض الفترات بحيوية كبيرة في هاتين الناحيتين كان لها نتائجها الخطيرة في التأريخ الاسلامي ، نظراً للموقع الذي كانت تحتله ، والذي أتاح لها أن تكون مناطق اتصال وتفاعل بين العالم الاسلامي والشعوب الأخرى في الحرب والسلام .

وتعد منطقة الجزيرة ، وبضمنها الموصل ، مجالاً واسعاً لقيام دراسات عديدة توضح الدور الذي لعبته هذه المنطقة في سير الأحداث وتطور الحضارة وفي تحديد علاقات المسلمين بعضهم ببعض ومع جيرانهم ، فضلاً عن أن هذه المنطقة كانت مسرحاً لظهور عدد من الإمارات الاسلامية التي عاشت فترات

طويلة من الزمن وتميزت بفعالية وحيوية بالفتين (كالإمارة الحمدانية ، العقيلية ، المرداسية ، المروانية الكردية ، الأتابكية في الموصل ، الأرتقيـــة ، الخروف الأسود والأبيض) . وإذ حظي الحمدانيون باهتمام لا بـــأس به ، لقيت بعض الإمارات الأخرى إهمالاً يكاد يكون تاماً في بعض الأحيـان ، فضلاً عن أن المنطقة فقدت الاهتمام نفسه طيلة الفترة السابقة التي خضعت فيها للحكم المركزي في المدينـــة والكوفة في عهد الراشدين ، وفي دمشق في عصر الأمويين ، وفي بغداد في العصور العباسية الأولى .

وقد ازدادت أهمية المنطقة بمرور الزمن ، وبخاصة في الفترات التي كان العالم الإسلامي يتعرض خلالهـا لتغيرات سياسية وحضارية وبشرية ، إثر التحركات التي كانت تقوم بها القبائل الكبرى في آسيا الوسطى صوب الغرب كالديالمة والغز والسلاجقة والخوارزميين والتتر والقوى التي تفرعت عنهم . إذ كانت الجزيرة تغدو – خلال ذلك – هدفاً سياسياً واستراتيجياً لتثبيت نفوذ تلك القوى في المنطقة ، فضلاً عن اتخاذها مجالاً للاستقرار ، وما كان يتبع ذلك كله من تغيرات بشرية وحضارية واسعة النطاق ، لم يشهد العالم الإسلامي لها مثيلاً في كثير من الجهات الأخرى .

فإذا ما التفتنا صوب الغرب لنرى أهمية المنطقة بالنسبة لعلاقـــات العالم الإسلامي بالشعوب المسيحية ، اتضح لنا الدور الهام الذي لعبته هذه المنطقة ، كحدٍّ حاجز إزاء هذه المسألة التي لا تقل أهمية عمـــا تمخضت عنه الهجرات الكبرى من الشرق . ذلك أن منطقة الجزيرة كانت تقع على تخوم المنـــاطق المسيحية البيزنطيـة والأرمنية ، فضلاً عن وجود عدد كبير من المسيحيين في الداخـل ، وقد أدّت هذه (الوضعيّة) بطبيعة الحال إلى قيـام سلسلة متصلة الحلقات من العلاقات السلمية والحربية بين الطرفين. ويمكن – على سبيل المثال–

أن نجد طرفاً منهـا في الدراسات التي قامت حول علاقات المسلمين بالبيزنطيين منذ عهد الراشدين وحتى قيام الإمارة الحمدانية، ومن ثم جاء تأريخ هذه الإمارة ليعطي صورة مركزة كثيفة عن علاقات المنطقة بالبيزنطيين والأرمن والمسيحيين الداخليين على السواء .

وقامت الحروب الصليبية، وكانت المواقع الجزرية إحدى الأهداف المتقدمة للحرب الصليبية الأولى ، نظراً لقربها من المنافذ المسيحية الشماليـة من جهة ، ولموقعها الحيوي المشرف على ناصية العراق والشام من جهة أخرى . وقد تمكن الصليبيون بالفعل من إنشاء أولى إماراتهم الأربع الكبرى في الجزيرة ، حيث غدت إمارة الرها لا تقل خطورة عن شقيقاتها الثلاث في أنطاكية وبيت المقدس وطرابلس اللواتي أسّسْن بعدها. وهكذا وضعت الجزيرة ، وبضمنها الموصل، وجهاً لوجه أمـــام مسؤولياتها العقائدية والتأريخيـة بشكل أشد خطورة من السابق، مما كان له نتائجه الهامة في المجال المحلي والإسلامي والعالمي على السواء، نظـراً للدور الذي لعبته هذه المنطقة طيلة أدوار الحركة الصليبية عـــامة ، والأدوار الأولى منها بشكل خاص .

ونظراً لمـــا تعرّض له العالم الإسلامي من ازدواج في السلطة ، وبخاصة منذ قيام الخلافة الفاطمية في مصر كقوة مجابهة للخلافة العباسية ، وما رافق ذلك وأعقبه من صراع بين القوى السنية والشيعية في المنطقة ، فإن الجزيرة غـدت عرضة لهذا الصراع أسوة بالمناطق المجاورة الأخرى ، وفاقت غيرها ، أحياناً ، في تحسسها لنتائج ومستلزمات ذلك الصراع ، إثر قيـــام تشكيلات سياسية مذهبية متطرفة فيهـا مالأت هذا الجانب دون ذاك ، ممـــا كان له نتائجه على تطـور الأحداث في المنطقة ، وعـــلى صبغتها الفكرية والاجتماعية والحضارية .

ولم ينجُ العالم الاسلامي من ازدواج السلطة التي حكمته ، بسقوط الخلافة الفاطمية ، بل استمر فيما بعد وتمثل بالمنافسة والاحتكاك والصراع بين الأيوبيين والخوارزميين ، ثم بين المماليك والتتر بعد ذلك ، وكانت الجزيرة ، خلال ذلك كله ، تمثل إحدى نقاط التماس والاحتكاك والصدام بين هذه السلطات جميعاً ، مما كان له أثره الخطير على مجريات الأحداث السياسية والحضارية في المنطقة .

وكانت الجزيرة، طيلة عهودها، تتمتع بإمكانيات اقتصادية واسعة النطاق، تشهد بذلك كافة المصادر الجغرافية والرحالة الذين زاروا المنطقة في فترات متفاوتة. وكانت تلك الإمكانيات، تنصب على كافة النواحي الزراعية والصناعية والمواد الخام ، فضلاً عما كانت تتمتع به من نشاط تجاري ، أتاحه لها موقعها الممتاز على خطوط المواصلات، بين جهات عديدة من العالم الإسلامي والبيزنطي. كما أن تعرض المنطقة لاحتكاك ونفوذ دول وحكومات عديدة ، هيأ لها نمواً مطرداً في أجهزتها الإدارية وأنظمة حكمها . أما النواحي الاجتماعية والعقيدية والثقافية *فلم تكن بأقل نمواً وحيوية عن النواحي السالفة ، بفضل العوامل السياسية والعسكرية والبشرية والحضارية الآنفة الذكر . وبهذا هيأت للمنطقة كافة المستلزمات التي مكنتها من صنع حضارة على درجة كبيرة من النضج ، ومن التفاعل الإيجابي مع سائر النظم والإمكانيات الحضارية المجاورة .

وهكذا نجد أن بإمكان الجزيرة أن تقدم مجالات واسعة للدارسين ، لتغطية نواحٍ واسعة من تأريخها السياسي والحضاري ، لم تكن قد لقيت اهتماماً كبيراً. ومن هنا انصبّ اهتمامي – وبفضل التوجيهات القيمة لأساتذتي المشرفين – على

تقديم بعض الدراسات في هذا المجال ، كانت أولاها عن (عماد الدين زنكي) ، مؤسس إمارة أتابكية الموصل ٥٢١ - ٥٤١ هـ = (١١٢٧ - ١١٤٦ م) والتي لم أنحُ فيها منحى الترجمة الشخصية محدودة الأبعاد ، وإنما حاولت أن أحدد ظروف قيام تلك الإمارة وعلاقاتها الخارجية ونظمها العسكرية والمدنية والدور الذي لعبته تجاه الصليبيين ، مما تم على يد مؤسسها زنكي ، الذي قام - بحق - بتشكيل نواة دولة إسلامية موحدة، امتدت فيما بعد فشملت مناطق واسعة من قلب العالم الاسلامي وقامت بدور حاسم في الحركة الصليبية ، وكان نور الدين محمود والناصر صلاح الدين من أبرز قادتها.

ثم كانت هذه الدراسة عن إمارات بني أرتق (٤٦٥ - ٨١٢هـ = ١٠٧٢ - ١٤٠٩ م) والتي غطت فترة زمنية تبدأ مع مطلع الدولة السلجوقية وتنتهي باضمحلال إمبراطورية تيمورلنك ، وظهور إمارتي الخروف الأبيض والأسود ، مجتازة فترة عاصرت فيها الخلافتين العباسية والفاطمية . والسلاجقة والأيوبيين والصليبيين والمماليك والتتر والجلائريين ، فضلاً عن عدد كبير من الإمـــارات المحلية الصغيرة المنتشرة في المنطقة والجهات المحيطة. وهكذا فقد عاصرت هذه الإمارات - طويلة النفس - فترة من أهم فترات التأريخ الإسلامي ، وأعطت مثالاً (نموذجياً) لدور الإمــارات الإسلامية ، في تلك الفترة ، وسياستهـــا المتناقضة تجاه القوى والأحـداث ، تارة بالخضوع ، وتارة بالتمرد والعصيان ، وتارة بالتآمر ، وتارة بتشكيل الأحلاف أو الانضمام إلى التكتلات ، لتحطيم منافس أو للحصول على مكاسب معينة ، وأحياناً أخرى بتسلّم مركز القيادة في بعض الفترات التي كان يُدهم فيها المنطقة عدو جديد .

عاصر الأراتقة الفترة التي تعرض فيهـا العالم الإسلامي لغزو مشترك ، على تبـــاينه الزمني ، من الغـرب والشرق ، وهي فترة قلق سياسي وعسكري

وحضاري ، بدا واضحاً بشكل خاص في المنطقة التي كانت إمارات الأراتقة تحتل إحدى جوانبها . فقد كانت هناك تغيرات سريعة على مستوى القيادة السياسية والقوى العسكرية والقاعدة البشرية والتشكيلات الدينية . وكانت المنطقة تنشد حيناً إلى قيادة واحدة ، وتدخل حيناً آخر تحت حماية دولة كبرى ، وتعود أحياناً إلى ما كانت عليه : إمارات صغيرة متناحرة تستهلك القوى السياسية والعسكرية والبشرية والاقتصادية ، وتمكن للخطر القادم من الغرب والشرق على السواء . كما كانت هذه الفترة مرحلة نمو للنظم والمؤسسات الإدارية والعسكرية والاقتصادية والدينية والاجتماعية والثقافية ، بلغت قمة تطورها وتعقيدها في العصر المملوكي الذي أعقب الأيوبيين ، وكانت جذوره تمتد إلى الاصلاحات التي حققها السلاجقة منذ عهد (نظام الملك) في هذه المجالات. ولا شك أن نظم الأراتقة كانت، أسوة بغيرها من الإمارات المجاورة، عرضة لهذا النمو والتعقيد الذي كانت تستمده من مراكز الثقل في بلاد فارس وبغداد أولاً ، وفي القاهرة ودمشق بعد ذلك . وهكذا فإن دراسة الأراتقة تعطي صورة واضحة عن التيارات التي شهدتها الفترة ، والتي تمخضت عن أحداث ونتائج أثرت في سير تأريخ العالم بشكل عام، والعالم الاسلامي بشكل خاص .



يشمل نطاق البحث ، الذي تتضمنه هذه الرسالة ، دراسة لظروف نشوء الإمارات الأرتقية وعوامل سقوطها ، وتحديد طبيعة علاقاتها الخارجية بالدول والإمارات التي عاصرتها ، وتحليل حضارتها ونظمها الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . ويعود الفضل في ظهور الأراتقة على المسرح السياسي

والعسكري لجدهم أرتق بن أكسك الذي لعب دوراً مهماً في المراحل الأولى من قيام الدولة السلجوقية ، وقد أهله هذا الدور للحصول على مناصب قيادية ، وإقطاعات عديدة في العراق والشام وفلسطين تعد النواة الأولى لكيان الأراتقة السياسي ، وما أن توفي أرتق حتى تعرض أبناؤه ، بعد فترة قصيرة ، لفقدان إقطاعهم في القدس ، وتفرقوا في البلاد . ولكنهم تمكنوا بطموحهم ومهارتهم الفردية ورغبتهم في المغامرة ، فضلاً عن ولاء عدد كبير من مقاتلي التركمان لهم ، من تحقيق مكاسب عديدة للعائلة الأرتقية ، وتأسيس أولى إماراتهم في ديار بكر ، والتي شملت عدداً من أهم حصون المنطقة . ولكن هذه الإمارة سرعان ما تعرضت للانقسام إثر وفاة مؤسسها سقمان بن أرتق عام (٤٩٨ هـ = ١١٠٤ م) ، ومن ثم تبلور الكيان السياسي للأراتقة في إمارتين ، إحداهما في ماردين والأخرى في حصن كيفا . وقد كان للأراتقة ، طيلة هذه المرحلة من حياتهم السياسية ، علاقات فعلية ورسمية بالسلاجقة ، إذ كانوا مدينين لهؤلاء إلى حد كبير في فترة نشوئهم ، التي استغرقت عدة عقود ، بما أتاحوا لهم من فرص واسعة للحصول على مزيد من المواقع والإقطاعات ، فضلاً عن قيام إيلغازي بن أرتق بتولي منصب الشحنكية للسلاجقة في بغداد (٤٩٥ — ٤٩٨ هـ = ١١٠١ — ١١٠٤ م)، الأمر الذي أتاح له أن يلعب دوراً هاماً في الأحداث التي شهدتها منطقة العراق وبلاد فارس ، خلال أزمة الصراع بين السلطانين السلجوقيين محمد وبركياروق ، والتي تمخضت عن نتائج خطيرة في كيان الدولة السلجوقية .

وما أن أسس عماد الدين زنكي إمارته في الموصل عام (٥٢١ هـ = ١١٢٧م)، حتى انصبت اهتمامات الأراتقة الخارجية على تحديد موقفهم من مشاريعه التوحيدية في المنطقة ، فانتقلوا بذلك إلى مرحلة جديدة من حياتهم السياسية

وعلاقاتهم الخارجية ونشاطهم العسكري ، تختلف إلى حـــد كبير عن مرحلة التأسيس التي سبقتهـا . إذ غدا مركز الأراتقة في وضع خطر إزاء مشاريع زنكي في العمل على توحيد المواقع الجزرية، عن طريق الاستيلاء عليها أو كسب طاعتها وولائهـا ، لغرض مجابهة الصليبيين بإمارة موحدة . وهكذا كان على الأراتقة ، خلال هذه الفترة ، أن يتخذوا في معظم الأحيان موقفاً دفاعياً إزاء هذه المشاريع ، وأن يحدوا من مطامحهم الهجومية لتوسيع إمـاراتهم كالذي حدث في مرحلة التأسيس . وقد حاول عدد من أمراء الأراتقة التصدي لهذه المشاريع ، ممـــا أدى إلى انقسام خطير في سياسة الإمارات الأرتقية ، كان له أكبر الأثر على إضعافها ، ومن ثم سقوط عدد من مواقعها في يد زنكي .

والروايات في هذا المجال محدودة ، يعتريها التناقض في كثير من الأحيان ، وقد حاولت أن أوفق بينهـــا قدر الإمكان ، لاستخراج صورة واضحة عن العلاقات الخارجية للأراتقة مع زنكي ، والتي تميزت بقيام سلسلة من المحالفات، استهدف زنكي من جرائهـــا تمزيق الأراتقة ، وإثارة الشحناء بينهم ، ومن ثم إضعافهم لكي يسهل توجيه الضربات إليهم . أما نور الدين محمود ، الذي أعقب أباه في حكم الجهات الشامية من إمـــارته ، فلم تكن سياسته تختلف عن سياسة أبيه في الهدف ، ولكنها اختلفت معه في الأسلوب ، إذ اتبع سياسة أكثر ليناً وتسامحاً إزاء الأراتقة ، مما أدى إلى خروج هؤلاء من العزلة التي فرضها عليهم زنكي ، وتحـــالفهم معه في عملياته ضد الصليبيين ، أو ضد الأمراء المحليين ؛ وبالرغم من أن موقف إمارة ماردين لم يكن ودياً من نور الدين ، إلا أنه لم يصل إلى درجة العداء يوماً .

وعندما قامت الدولة الأيوبية على يد صلاح الدين، كان على الأراتقة أن يحددوا

موقفهم من سياسته ومشاريعه التوحيدية المشابهة لتلك التي عمل زنكي ونور الدين على تحقيقها ، ومن ثم كان القسم التالي من علاقات الأراتقة بالزنكيين والأيوبيين، ينصبّ على استعراض وتحليل المواقف التي جعلت الأراتقة يحالفون الأيوبيين حيناً ، فتغدو إماراتهم أشبه بولايات شبه مستقلة ، في نظام (اتحادي) ، تتركز سياسته الخارجية والعسكرية في تجميع القوى الإسلامية لقتال الصليبيين، ويتمردون عليهم حيناً آخر ، حيث كانوا ينضمون إلى أحلاف وتكتلات معادية للأيوبيين ، كانت تستهدف القضاء على أطماعهم ، بعد وفاة صلاح الدين ، في منطقة الموصل والجزيرة وأرمينية . ولم يكن موقف الإمارات الأرتقية خلال هذه الفترة متشابهاً ، بل كان يتميز بالتناقض في معظم الأحيان ، فعندما تتخذ بعض إماراتهم موقفاً ودياً من الأيوبيين، تكون الأخرى قد نحت منحى عدائياً. وقد عمل الأيوبيون على توسيع هذا الشقاق لإضعاف قوى الأراتقة واستمالة بعضهم على حساب البعض الآخر . ولذا ما لبث الأراتقة أن فقدوا خلال هذه المرحلة اثنتين من إماراتهم الرئيسة الثلاث وهما : إمارة حصن كيفا وإمارة خرتبرت .

وتشكل علاقات الأراتقة بالصليبيين أخطر حلقة في تأريخهم السياسي والعسكري ، بما تميزت به من تنوع خلال المراحل المختلفة ، وقد اتضح ، بعد التمحيص الدقيق للروايات المختلفة في هذا المجال ، عربيها وغربيها ، قديمها وحديثها ، أن هذه العلاقات اجتازت خمس مراحل كانت تنبثق وتتحدد بناء على طبيعة الظروف الخارجية والداخلية للأراتقة . وقد أطلقتُ على المرحلة الأولى اسم (مرحلة المحالفات مع القوى الإسلامية) ، حيث كان قادة الأراتقة يعملون على الانضمام الى الأحلاف والتكتلات الاسلامية ، التي كان السلاجقة يقومون بالإشراف على تنظيمها وتوجيهها لقتال الصليبيين . وأطلقت على المرحلة

الثانية اسم (مرحلة التحـالف مع الصليبيين) ، حيث اضطر الأراتقة إزاء ضغط السلاجقة وبعض الأمـراء المحليين ، إلى اللجوء إلى الصليبيين والتحـالف معهم ضد الخطر المشترك . والمرحلة الثـالثة هي (مرحلة القيادة) ، حيث تولى بعض أمراء الأراتقة قيادة حركة الجهاد ضد الصليبيين. أما المرحلة الرابعة، وهي مرحلة (الانعزال) ، فقد انكمش الأراتقة خلالها على أنفسهم ، بسبب ظهور زنـكي وتوليه أمر العمليات ضد الصليبيين ، مما أدى إلى عزلة الأراتقة ، وقد أوضحت بالتفصيل العوامل التي دفعت هؤلاء إلى التخلي عن مركز القيادة واللجوء إلى العزلة . ومن ثم جاءت المرحلة الأخيرة من علاقـاتهم بالصليبيين ، إثر مقتـل زنـكي ، وطيلة الفترة التي أعقبت ذلك ، وقد أطلقت عليهـا اسم (مرحلة الإمدادات) ، حيث سعى الأراتقة خلالهـا إلى إمداد نور الدين ، والأيوبيين من بعده ، بما لديهم من قوات في عملياتهم ضد الصليبيين . ذلك أن الإمارات المحلية ، وبضمنهـا الأرتقية ، كانت قد تحولت إلى ما يشبه النظام الاتحادي (الفدرالي) لمجابهة الصليبيين . وقـد تحقق ذلك بفضل ظهور شخصيتين قويتين ، هما نور الدين محمود وصلاح الدين ، حيث تمكنا من إقامـة هذا النوع من النظـام بالقوة حينـاً ، وبالإقناع والمداراة حيناً آخر ، وغدا بإمكانها – بموجبه – أن يطلبـا المعونات العسكرية والمادية من مختلف الإمارات الاسلامية ليقوما بدور توجيههـا وجهة قيادية موحدة ضد الخطر المشترك .

وقد تبين بعد دراسة هذه المراحل جميعاً ، أن الأراتقة حققوا في عدد منها نتـائج مهمة في ميدان الصراع الإسلامي الصليبي في الجزيرة والشام ، مـا كان يمكن أن تصل إلى ما وصلت إليه ، لولا الدور الذي لعبه الأراتقة في هـذا المجال . فقد كان هؤلاء في مرحلة التحالف مع الأمراء المحليين ، يشكلون إحدى

القوى الرئيسية في تلك المحالفـات ، التي مثلت طلائع التجمع الإسلامي ضد الغزو الصليبي ، والتي حققت في بعض المعارك نتـائج حاسمة ضد الصليبيين ، كالذي حدث في معركة البليخ عام (٤٩٧ هـ = ١١٠٣ م) ، على يد سقمان وحليفه جكرمش أمير الموصل . وفي مرحلة القيـادة لعب الأراتقـة الدور الرئيسي في الصراع ضد الصليبيين ، حيث قادوا قواتهم التركمانية الحاشدة ، وقوات حلفائهم ، في عدد كبير من المعارك ضد الصليبيين كان لبعضهـا نتائج حـاسمة على الوجود الصليبي في الجزيرة والشام كذلك الذي حدث في معركة ساحة الدم عام (٥١٣ هـ = ١١١٩ م) ، على يد إيلغازي وفي معارك سروج (٥١٦ هـ = ١١٢٢ م) وكركر وخرتبرت (٥١٧ هـ = ١١٢٣ م) ومنبـج (٥١٨ هـ = ١١٢٤ م) ، على يد بلك بن بهرام . وقد مثل الأراتقة في هـذه المرحلة ، حلقة من أهم حلقات القيادة الإسلامية الموحدة ضد الصليبيين ، والتي بدأت بمولود أمير الموصل عام (٥٠٣ هـ = ١١٠٩ م) ، وانتهت بصلاح الدين . أما في مرحلة الإمدادات التي قدمها الأراتقة لنور الدين وصلاح الدين في جهادهما للصليبيين ، فقد لعبوا خلالهـا دوراً هاماً في تكوين الجيوش الإسلامية ، التي حقق بها هذان القائدان انتصارات حاسمة ضد الصليبيين كالذي حدث في معركة حـارم (٥٥٩ هـ = ١١٦٣ م) ، على يد نور الدين ، وفي معركة حطين عـام (٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م) ، على يد صلاح الدين . وقد شهد للأراتقة بهذا الدور كل من نور الدين وصلاح الدين ، فضلاً عن عدد من المؤرخين المعاصرين كالعماد الأصفهاني وابن شداد .

ومع ذلك ، فقد كان للأراتقـة آثار سيئة على مجـرى الصراع بين المسلمين والصليبيين ، خلال المراحل التي اتخذوا فيها موقفاً سلبياً إزاء هذا الصراع ، وبخاصة ذلك التحـالف الذي تم بين إيلغـازي وصليبيي أنطاكية عام (٥٠٨ هـ

= ١١١٤ م) ، والذي مكن هؤلاء من تحقيق انتصار حاسم في معركة تل دانث على آخر محاولة مباشرة ، قام بها سلاجقة العراق وبلاد فارس ضد الصليبيين . وربما كانت هذه المعركة سبباً من أسباب توقف السلاجقة عن القيام بمحاولات جديدة لتوجيه أمراء المسلمين إلى الشام لقتال الصليبيين ، الأمر الذي هيأ للإمارات والقوى المحلية القريبة من مواقع الصليبيين كالأراتقة ، والزنكيين والأيوبيين فيما بعد ، أن تتحمل مسؤوليتها كاملة في هذا الصراع ، وأن تتولى قيادة حركات الجهاد بما تمتلكه من إمكانيات بشرية وعسكرية واستراتيجية ومن قيادة موحدة ، لم تتهيأ للسلاجقة ، وأن تحقق نتائج خطيرة ضد الوجود الصليبي في المنطقة .

وما أن أخذ الأيوبيون طريقهم إلى الزوال ، حتى كان على الأراتقة أن يحددوا موقفهم إزاء القوى الجديدة ، التي أخذت تتحكم بمصير المنطقة وهما التتر والمماليك . فلقد تعرضت ديار بكر ، في مطلع هذه المرحلة ، إلى هجمات شديدة من قبل التتر اضطرتها إلى الخضوع والدخول في طاعتهم ، ومن ثم غدت هذه المنطقة مجالاً دائماً للاحتكاك والصدام بين التتر والمماليك اللذين لم يتوقف العداء والقتال بينهما إلا في القليل النادر . وكان على الأراتقة أن يتخذوا ، في البدء ، جانب التتر ضد المماليك والإمارات الإسلامية المحلية المستقلة ، وتطورت علاقاتهم بعد ذلك ، إثر توازن قوى التتر والمماليك في المنطقة ، فالتزموا سياسة الولاء المزدوج تجاه الطرفين ، في سبيل الحفاظ على استقلالهم الداخلي ومصالحهم الذاتية . وما أن أخذ الكيان التتري يتعرض للتدهور حتى استغل الأراتقة الفرصة وأنهوا ما تبقى من ولاء تقليدي لهم ولجأوا صوب المماليك . ولكن ظهور تيمورلنك ، كقوة جديدة في المنطقة ، أدى إلى تغيير ميزان القوى فيها ، إلا أن الأراتقة تمكنوا بالرغم من ذلك ، من الصمود إزاء الهجوم الجديد ،

والمحافظة على استقلالهم. ولكن إمارتهم الأخيرة كانت ــ آنذاك ــ قد أنهكت تماماً ، وضعفت إمكانياتها العسكرية والاقتصادية والبشرية ، في الوقت الذي كان حلفاء تيمورلنك يكيلون لها الضربات ، مما أدى بها أخيراً إلى السقوط . ولذا فقد شمل هذا القسم من البحث فضلاً عما سبق ، دراسة الظروف والعوامل التي أدت إلى سقوط آخر إمـــارة أرتقية في ديار بكر بعد صراع طويل إزاء قوى تفوقها بكثير .

وكما أسهم الأراتقــة بدور خطير في النواحي السياسية والعسكرية ، طيلة الفترة بين منتصف القرن الخامس ومطلع القرن التاسع الهجري ، فإنهم قدموا كذلك معطيات حضارية ، في شتى المجالات مما لا يمكن الاستغناء عن دراستها وتحليلها ، إذا ما أريد إعطاء صورة متكاملة عن الدور التأريخي لبني أرتق . وهكذا كان لا بد من دراسة مستفيضة لنظم الأراتقة الإدارية والاقتصادية ، ولطبيعة الحيـــاة الاجتماعية والثقافية في عهدهم . وتبدو أهمية هذه الدراسة بتوضيحها للجانب السلمي من حياة الأراتقة ، وفعاليـــات الأقوام العديدة التي حكموها . وقد جابهتني صعوبات عديدة في ذلك ، أبرزها قلة الروايات في هذا المجال إلى حد كبير ، بسبب تأكيد المصادر على الجــانب العسكري والسياسي فحسب ، فضلاً عن تفرق هذه الروايات في عدد كبير من المصادر ، مما دفعني إلى تتبع هذه المصادر واحداً إثر واحد لاصطياد تلك النصوص . كما أن عدداً من تلك النصوص والروايات لا يخص الأراتقة بقدر مــا يخص الدول الكبرى التي عاصرها هؤلاء كالسلاجقة والأيوبيين والتتر والمماليك ، والتي كان لها تأثير مباشر ، أو غير مباشر ، على الحضارة والنظم الأرتقية . ولذا كان من الضروري ــ كذلك ــ دراسة الخطوط الأساسية لتلك النظم ومقارنتها بالإشارات الواردة عن الأراتقة ، لاستخلاص بعض النتائج المهمة في هذا المجال . كما كان من الضروري

تتبع جذور النظم الأرتقية في المنطقة ، والتي تمتد إلى الفترات التي سبقتهم ، حيث اتضح أنهم اعتمدوا ، إلى حد كبير ، على النظم التي كانت سائدة في المنطقة قبيل قيام إماراتهم فيها .

تبدأ الدراسة آنفة الذكر باستعراض الاعتبارات التي يجب استيعابها لدى التطرق لموضوع كهذا ، والتي تؤكد ضرورة تناول الحضارة الأرتقية كوحدة صغيرة متجانسة ضمن وحدة حضارية أكبر ، تعود في جذورها إلى العهد السلجوقي وتمتد لتؤتي أنضج ثمارها في العصر المملوكي . كما تؤكد ضرورة اعتبار النظم الأرتقية استمراراً لما كان سائداً من قبل ، وامتداداً للنظم المعاصرة لدى الأيوبيين والمماليك . ثم تأتي بعد ذلك دراسة النظم الإدارية والاقتصادية، بجوانبها الزراعية والصناعية والتجارية والمواد الخام ، وموارد الإمارات الأرتقية وأوجه مصارفها ، والأجهزة التي تقوم بالإشراف على هذه الأمور . ويتلو ذلك استعراض للحياة الاجتماعية ، مما يتعلق بدراسة الأقوام والمذاهب والأديان التي كانت منتشرة في ديار بكر طيلة عهد الأراتقة، فضلاً عن الجوانب الاجتماعية الأخرى، كالاحتفالات ووسائل اللهو.....الخ . ثم تختتم باستعراض وتحليل الجوانب الثقافية التي بلغت شأواً بعيداً في عهد الأراتقة، بفضل تشجيع هؤلاء للعلوم والآداب ، مما أدى إلى أن تغدو ديار بكر مدرسة كبيرة لتخريج واستقبال عدد من كبار العلماء والأدباء والمفكرين. وقد اتضح – خلال ذلك – أن طابع الثقافة الأرتقية كان عربياً ، بدليل الازدهار الكبير الذي لقيته الآداب والتقاليد العربية الأصيلة هناك .

وقد حاولت أن أتجنب كل ما ليس له علاقة بموضوع البحث ، مما يخرج به عن نطاقه العام ، كما تعمدت أن أتجنب حشر تراجم غير مجدية لسلسلة

طويلة من أمراء الأراتقة لاستعراض أخلاقهم وسِيَرِهم ، مما لا يخدم الهدف العام للموضوع . كما أني اعتمدت – إلى حد ما – على أسلوب وحدة الحدث وتطوره لكي أعطي صورة واضحة – قدر الإمكان – عن حدوده وأبعاده ، مما دفعني في كثير من الأحيان إلى تجاهل الإشارة إلى عدد كبير من أمراء الأراتقة الذين استغرقهم ذلك الحدث الذي يعد أكثر عمومية وشمولاً من دور الأفراد . ولكني لم أغفل ، من جهة أخرى ، التركيز على دور بعض أولئك الأمراء ممن كانت أدوارهم التأريخية تتسم بالتأثير الفردي في توجيه الأحداث .



٢ ـ تحليل المصادر والمراجع

عاشت الإمارات الأرتقية عهداً طويلاً من الزمن بلغ ما يقرب من ثلاثة قرون ونصف (٤٦٥ – ٨١٢ هـ = ١٠٧٢ – ١٤٠٩ م) ، وعاصرت الفترة الـتي شهدت ازدهاراً في الكتابات التأريخية المحلية والعامة ، وتلك الـتي تناولت دولاً وإمارات ظهرت خلال هذه الفترة، فضلاً عن المؤلفات الكثيرة التي تناول أصحابها الخطط والمسائل الحضارية والجغرافية والرحلات، والتراجم التي قدمت للمكتبة التأريخية عشرات الآلاف من رجـال الفكر والسياسة والثقافة الإسلامية .

وكان عليّ ، إزاء طول الفترة الـتي عاشها الأراتقة ، وعدم وجود تواريخ خاصة بهم ، أن أعتمد على جل هذه المصادر المنشورة منها والمخطوطة ، والتي تناولت الفترة بين منتصف القرن الخامس ومطلع القرن التاسع الهجري ، حيث ظهر عدد كبير من التآليف عن السلاجقة والعباسيين والفاطميين والصليبيين والزنكيين والأيوبيين والتتر والمماليك، فضلاً عن العدد الكبير من الإمارات المحلية التي شهدتها هذه الفترة ، والتأثيرات الحضارية بين جميع هذه الدول والإمارات التي كان للأراتقة معها علاقات مختلفة ، مما حتم الرجوع الى معظم هذه المصادر لمعرفة ابعاد تلك العلاقات وتحديد طبيعتها ، وأسباب تطورها بالشكل الذي صارت اليه .

ولست هنا بصدد تحليل العلاقات بين هذه المراجع من الناحية الموضوعية ، وأيها أعتمد على الآخر ، ومن منها قدم بصوره عامة روايات أصيلة ؟ فقد أشبعت هذه الناحية درساً وتحليلاً[1] ، وإنما بصدد معرفة أصالة هذه المراجع فيما يتعلق بمدى ما قدمته من روايات عن بني أرتق في الفترات والمجالات المختلفة ، فهي محاولة لفحص الموارد الأساسية لمادة هذه الرسالة .

١ - المخطوطات :

هنالك عدد من المخطوطات قدمت روايات أساسية[2] مفصلة عن بعض

---

(١) يمكن الرجوع في هذا المجال الى :

المقالات الثلاث التي نشرت في كتاب The Historians of the Middle East, ed. by B. Lewis, oxford-1962 :

1 — The Historiography of the seljuqide period, c. cahen, p. 59.

2 — Some notes on Arabic Historiograph during the Zengid and Ayyubid periods (521—648) , M. Hilmy M. Ahmad, p. 79.

3 — The origin and Development of the locat Histories of Surya, S. Dahan, p. 108.

والفصل التحليلي القيم الذي كتبه كاهين في كتابه La Syrie do Nord

بعنوان : Las Sources Arabes, pp. 33—73.

وكتاب جب بعنوان : The Arabic sources for the life of Saladin.

والتحليل الذي كتبه رنسمان لمصادر كتابه : A History of the Crusades

ورسالة محمد حلمي محمد أحمد التي قدمها للدكتوراه بعنوان :

Studies on the works of Abu Shama, 1951.

ومقدمته لكتاب (الروضتين في أخبار الدولتين) لأبي شامة (١٩٥٦ م). وكذلك مقدمة جمال الدين الشيال لكتاب (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) لابن واصل (١٩٥٣ م) ، ودراسات عبد القادر أحمد طليمات لكتابي الباهر والكامل لابن الأثير .

(٢) أعني بالروايات الأساسية أو الأولية تلك التي قدمها المؤرخ لأول مرة وسبق بها غيره من المؤرخين ، اعتماداً على المشاهدة أو على المصادر التي لم يتسن الآخرين الاطلاع عليها ، ولذا عول هؤلاء عليه في هذه الروايات .

جوانب البحث ، ومما يزيد في قيمة هذه المخطوطات ، أن بعضها يكاد يكمل البعض الآخر في المادة التي قدمتها عن بني أرتق . فبينما يلقي بعضها ضوءاً على ظهور الأراتقة وعلاقتهم بالسلاجقة ، نجد البعض الآخر يركز على علاقاتهم بالصليبيين أو الزنكيين والأيوبيين، وهنالك مخطوطات أخرى قدمت معلومات لا بأس بها عن علاقات الأراتقة بالمماليك والتتر ، وعن عوامل وظروف سقوط إماراتهم ، كما نجد في بعضها الآخر معلومات عن الجوانب الحضارية للأراتقة .

ففي القسم الذي لم ينشر من كتاب (تأريخ آمد وميافارقين) لابن الأزرق الفارقي (ت ٥٧٢ هـ)[١] ، روايات أولية مفصلة عن علاقات الأراتقة بالزنكيين في الفترة التي عاصر المؤلف أحداثها ، أو كان قريباً منها ، وهي روايات تتسم بتقديم تفاصيل دقيقة على درجة كبيرة من الأهمية[٢] ، تلقي ضوءاً على العوامل التي أدت إلى عدم الاستقرار في العلاقات السياسية بين الأراتقة والزنكيين . فضلاً عن أن المؤلف يقدم، باعتباره أحد الرجال الرسميين في حكومة الأراتقة ، عدداً من الروايات عن النواحي الحضارية لدى هؤلاء ، وبخاصة الجوانب الإدارية . وقد اعتمد على الفارقي ، فيما يتعلق بالأراتقة ، عدد من المؤرخين الذين أعقبوه ، وعلى رأسهم ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) في الكامل والباهر ، وعز الدين

---

(١) تحاشياً للتكرار سأكتفي هنا بإيراد اسم المؤلف وكتابه مختصرين ، وأحيل القارىء الى قائمة المراجع للاطلاع على الاسم الكامل للمؤلف والكتاب ، وموضعه إن كان مخطوطاً ، وناشره ومكان طبعه وعدد أجزائه إن كان مطبوعاً .

(٢) تحاشياً للتكرار والإطناب ، أعرضت عن إيراد شواهد من النصوص في هذا المجال ، ويمكن للقارىء أن يجد تلك الشواهد بوضوح ، لدى قراءته فصول الرسالة واطلاعه على هوامشها .

ابن شداد في الأعـلاق الخطيرة (قسم الجزيرة) . وإذ يتصرف ابن الأثير في الروايات التي قدمها الفارقي ويهذب فيها ويضيف إليها مصادر أخرى ، نجد ابن شداد ، على العكس ، يكاد ينقل نقلاً حرفياً عن الفارقي . ولكن قيمة ابن شداد تبدو فيما قدمه من روايات مفصلة عن الأراتقة في الفترة التي أعقبت نهاية (تأريخ آمد وميافارقين) ، فما قدمه المؤرخ المذكور منذ النصف الثاني من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) وحتى الربع الثالث من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) يكاد يتفرد به ، حيث يعطي مادة أساسية عن عدد من المواضيع ، ولا سيما علاقـات الأراتقة بالأيوبيين والتتر ، وتزداد أهمية هذه الروايات في الفترة التي عاصر ابن شداد أحداثها ولعب فيها دوراً مباشراً ، باعتباره أحد موظفي صاحب حلب الأيوبي ، وواحـداً من كبار سفرائه إلى التتر والأمراء المحليين في الجزيرة . وهكذا ، فإن مـا قدمه ابن شداد عن الظروف التي مكنت للتتر في الجزيرة وعلاقـات الأراتقة بهم ومهاجمتهم لماردين ودخولهـا تحت طاعتهم ، لم يتطرق إليه أي مصدر آخر . وقد نشرت لابن شداد أقسام أخرى من مخطوطته هـذه تتعلق ببلاد الشام ، تتضاءل أهميتهـا بالنسبة لموضوع الأراتقة إزاء قسم الجزيرة الذي لم ينشر . ويشابه ابن شداد زميله الفـارقي في إلقـاء الضوء على الجوانب الحضارية للأراتقة .

ويقدم سبـط ابن الجوزي (ت ٦٥٤ هـ) ، في القسم الذي لم ينشر من مخطوطته (مرآة الزمان) ، عدداً من الروايات الأولية التي يتفرد بهـا دون غيره ، عن ظهور الأراتقة وعلاقاتهم بالسلاجقة والفاطميين وأمراء الجزيرة في الفترة بين (٤٧٧ – ٤٩٥ = هـ ١٠٨٤ – ١١٠١ م) . وتبدو أهميـة هذه الروايات ، فضلاً عن تفردهـا ، في أنها تلقي ضوءاً على طموح أرتق وأسباب

انفصاله عن سلاجقة العراق ، والمحاولة التي قرر القيام بها ، بالتعاون مع الفاطميين والعقيليين ، لضرب النفوذ السلجوقي في الجزيرة والشام والعراق وإحلال النفوذ الفاطمي محله .

وتبدو أهمية الأقسام التي لم تنشر من تأريخ ابن الفرات (ت ٩٠٧ هـ) ، في أنه يقدم روايات أولية عن علاقات الأراتقة بالصليبيين، في الفترة بين (٤٩٨– ٥١٨ هـ = ١١٠٤ – ١١٢٤ م) ، وهي من أكثر الفترات حيوية في تأريخ العلاقات الأرتقية الصليبية ، فضلاً عن أنه يلقي ، في عدد من رواياته ، ضوءاً على الجوانب الحضارية للأراتقة وبخاصة فيما يتعلق بفترة حكمهم لحلب . ويعتمد ابن الفرات في رواياته السالفة على عدد من المؤرخين وعلى رأسهم ابن أبي طي الحلبي . أما الماريني (ت ١٢٥٩) فيقدم ، في (تأريخ ماردين) ، روايات مفصلة واسعة عن ظهور الأراتقة وعلاقاتهم بالسلاجقة ، والأحداث التي مرت ببني أرتق إثر وفاة جدهم . وتتميز هذه الروايات جميعاً بالطابع القصصي ، الذي يعتمد على الخيال ، دون أية محاولة للقيام بتمحيص جدي للحقائق . فما أورده المؤلف المذكور لا يؤيده أي مصدر موثوق آخر على الإطلاق ، وما وقع فيه من أخطاء لا يحتاج إلى نقاش لشدة بعده عن الحقائق الأساسية والمسلمات في تأريخ الأراتقة ، فضلاً عن أنه حوّر في بعض الأسماء ، وحشر أسماء جديدة لا نصيب لها من الواقع[1] .

---

(١) يقدم الماريني – على سبيل المثال – رواية مطولة عن ظهور الأراتقة ودور جدهم أرتق جاء فيها : « أولهم أرتق بن إيلغازي بن داود ، وكان جندياً من أوفى جنود السلطان ألب أرسلان ، فشاهد منه هذا شجاعة في بعض غزواته فأعجبته شجاعته ورفع منزلته وجعله رئيساً على بعض الجند . وكان كلما أرسله لغزوة عاد منها مؤيداً منصوراً . فوقع عند السلطان موقعاً حسناً، ولم يزل مرتقياً من رتبة الى رتبة حتى جعله من أعظم وزرائه وفوض اليه أكثر الأمور، =

وتعد مخطوطة ابن شاهنشاه الأيوبي (توفي أواخر ق ٦) ، المسماة (مضمار الحقائق) ، ذات أهمية فيما يخص علاقات الأراتقة بالأيوبيين ، بسبب كون المؤلف أحد كبار الأمراء الأيوبيين ومعاصراً للأحداث التي أرّخها ، مما أتاح له تقديم روايات مهمة في هذا المجال . ولا يقل أهمية عنه القسم غير المنشور لابن واصل (ت ٦٩٧) من (مفرج الكروب) ، إذ أنه يتفرد أحياناً بتقديم روايات مفصلة عن علاقات الأراتقة بالأيوبيين والقوى المجاورة ، التي كانت تقف إلى جانب الأيوبيين أو تعمل ضدهم ، كالخوارزميين وحكام الموصل والإمارات المحلية المجاورة للأراتقة .



فإذا ما انتقلنا إلى علاقات الأراتقة بالمماليك والتتر ، وظروف وملابسات

=ثم زوجه بابنته ونصب له عرساً فاخراً، وأظهر جميع زينته سبع ليال بأيامها. وولد لأرتق من ابنة السلطان ثلاثة أولاد : نجم الدين وأمين الدين وسنقور ... وأبو أرتق كان راعي غنم، وقيل كان من أمراء الدولة السلجوقية ، وولد سنة ٤٠٠ هـ. وعاش من العمر ٧٨ سنة » . وبعد أن يكيل المارديني صفات المديح لأرتق يقول بأن سبب مجيئه الى ديار بكر هو أن السلطان ألب أرسلان أرسله لاستخلاص ممالك ديار بكر من بيربدر بن بيرموس (؟) صاحب أكّل (؟) ، الذي عصي عل السلاجقة في عهد ألب أرسلان ، فأرسلوا لتأديبه أرتق ، فانهزم بيربدر الى ميافارقين ، فحاصره أرتق وتمكن من فتح المدينة بالسيف وقتل بير بدر وأولاده واستولى عل ميافارقين سنة ٤٦٩ هـ (؟) . ولما شاهد السلطان ألب أرسلان منه هذه الفتوح ، فوض اليه حكومة هذه البلاد بأسرها ، ولم تزل دولته ترتقي حتى استولى عل ماردين وممالك ديار بكر بأسرها ... واستولى أولاده من بعده عل ممالك أذربيجان وعراق العرب وحلب وبعض مدائن الشام ، ثم إن أرتق توجه لافتتاح بعض ممالك أذربيجان ، فافتتح بعضها وأدركه الموت سنة ٤٧٨ هـ... (تأريخ ماردين ص ١٢٠ - ١٢١) . وواضح أن رغبة المؤلف في تمجيد حكام ماردين عامة والأراتقة خاصة ، دفعته إلى هذا الإغراق في مديح هذه العائلة . وانظر نفس المصدر ، الصفحات ١٢٢-١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٣٢ .

سقوط آخر إمارة أرتقية ، نجد أمامنا أربع مخطوطات مهمة ، قدم أصحابها معلومات أساسية مهمة عن هذا الموضوع ، بسبب معاصرتهم للأحداث التي ذكروها أو قربهم منها على الأقل . فالمقريزي (ت ٨٤٥) يقدم ، في القسم الذي لم ينشر من (السلوك)، عدداً لا بأس به من الروايات عن علاقات الأراتقة بالمماليك في القرن الثامن الهجري . وابن تغري بردي (ت ٨٧٤) يقدم ، في القسم الذي لم ينشر من (المنهل الصافي) ، عدداً من التراجم تناول فيها أمراء ماردين المتأخرين ، الذين تعرضت الإمارة في عهدهم للانهيار والسقوط ، ويوضح طبيعة علاقاتهم بتيمورلنك والقوى التركمانية ، التي ظهرت في المنطقة كدولتي الخروف الأسود والأبيض. أما الغياث (حوالي ٨٩٠ هـ) والجزري (ت٧٣٩) فيتوسعان في تأريخهما في هذا الموضوع ، فيقدم الأول رواية مطولة عن سقوط ماردين ، ويقدم الثاني عدداً من الروايات عن علاقات الأراتقة الخارجية طيلة القرن الثامن الهجري ، فضلاً عن أنه يلقي ضوءاً جديداً على ظهور الأراتقة وأصلهم ، لم يرد لدى غيره من المؤرخين .

أما الأقسام التي لم تنشر من مخطوطتي العمري (ت٧٤٩) (مسالك الأبصار) والنويري (ت ٧٣٣ هـ) (نهاية الأرب) ، فتتضمن تواريخاً عامة تميزت بالسرعة والإيجاز ومحاولة إعطاء الخطوط الأساسية فحسب لأحداث التأريخ الإسلامي . وبسبب انهماكهما في إخراج موسوعات تتناول شتى جوانب المعرفة في عصرهما ، لم يهتما اهتماماً كبيراً في القسم التأريخي من تأليفهم ، ويظهر أنهما اعتمدا في كتابته ، الى حد كبير ، على من سبقهم من المؤرخين ، ولذا لم ترد فيما كتبوه أية رواية أصيلة عن الأراتقة .

هذا وقد اعتمدت ، بشكل ثانوي ، على عدد من المخطوطات الأخرى تناول بعضها تواريخاً عامة كعقد الجمان للعيني (ت ٨٥٥) ونزهة الأنام في

تأريخ الإسلام والأعلام بتأريخ أهـل الإسلام لابن قاضي شهبة (ت ٨٥١) ، ودول الإسلام للقدسي (ت ٨٩٣) ، وتناول بعضها الآخر جوانب من تأريخ الشام، وأهمها الكواكب الدرية في السيرة النورية لابن قاضي شهبة (ت ٨٧٤)، ولا يكاد مؤلفه يقدم فيه شيئاً جديداً عن علاقات الأراتقة بالزنكيين ، إذ أنه ينقل عمن سبقوه في هذا المجال وبخاصة أبي شامة . وهناك عدد من المخطوطات قليلة الأهمية ، تناولت جوانب من تأريخ مصر في الفترات المتأخرة ، كالجوهر الثمين لابن دقماق (ت ٨٠٩) ، وفتوح النصر لابن بهـادر (ت ٨٧٧) . وجميع هذه المخطوطات لا تقدم أية مـادة جديدة عن الأراتقة ، لأنها تنقل أساساً عما سبقها من تواريخ .

وتعد مخطوطتـا تاج التراجم لابن قطلوبغا (ت ٦٢٦) وإنسان العيون في مشاهير سادس القرون لمؤلف مجهول ، ذات أهمية في تقديم بعض التراجم التي تلقي ضوءاً على جوانب الحياة الثقافية في ديار بكر ، في عهـد الأراتقة شأن معظم كتب التراجم .

٢ – المصادر المطبوعة :

آ – كتب التأريخ : تختلف المراجع التأريخية من حيث الشكل الذي قدم به مؤلفوهـا مادتهم التأريخية . وهـا نحن نستعرض أهم تلك الأشكال بالنسبة لموضوع البحث :

(١) التواريخ العامة : تناولت هذه التواريخ أحداث العالم كله، واقتصرت في كثير من الأحيان على التأريخ الإسلامي أو بعض جوانبه فحسب . وقد اتبع بعضهـا طريقة العرض الزمني للأحداث (أي (الحوليات) كالكامـل لابن الأثير ، واتبع البعض الآخر طريقـة العرض الموضوعي ، أي تقسيم التـأريخ

الإسلامي إلى عدد من الدول والإمارات ، ومن ثم عرض كل مجموعة منـــها في إطار زمني ومكاني واحد ، كما فعل ابن خلدون في تأريخه (العبر) . وهنـاك من مزج بين الأحداث والتراجم كما فعل ابن الجوزي في (المنتظم)

يقف كتـاب الكامل لابن الأثير (ت ٦٣٠) على رأس المصادر التـأريخية العامة ، بما قدمه من عدد كبير من الروايات الأصيلة منذ ظهور الأراتقة وحتى تعرض إمـاراتهم في ديار بكر لطلائع الهجمات التترية في عشرينات القرن السابع الهجري . وتتميز روايات الكامل بأنهـا تتبـع الحادث الذي تتناوله بالتفاصيل الدقيقة ، بسبب إحاطة ابن الأثير بمعظم المواضيع التي كان يعالجها ، هذا إلا أنه انفرد أحياناً بتقديم روايات مطولة لم يشر إليها أي مصدر آخر ، أو ، على الأقل ، تناولها باختصار . وكما أن ابن الأثير يدين في عبدمن رواياته للفارقي وابن القلانسي وابن الجوزي ، والعماد الأصفهاني إلى حد ما ، فإن عدداً كبيراً من المؤرخين الذين أعقبوه يدينون له بمعظم ما كتبوه عن الأراتقة ، لا سيما أبو الفدا وابن الوردي وابن كثير وابن خلدون فضلاً عن أبي شامـــة وابن واصل .

وتـكاد روايات « الكامل » عن الأراتقة تغطي معظم فصول الرسالة ، فيما عدا فصل النظم والحضـارة ، بما عرف عن ابن الأثير من تأكيد على النواحي السياسية والعسكرية فحسب ، فضلاً عن الفصل الذي تنـاولت فيه علاقـات الأراتقة بالمماليك والتتر ، مما يخرج معظمه زمنياً عن نهاية الكامل (٦٢٦ هـ) . وهكذا نجد روايات الكامـــل تلقي ضوءاً على ظهور الأراتقة ، ودور أرتق وعلاقاته مع السلاجقة وحروبه في ديار بكر ، وانتقــاله إلى الشام واقطاعه القدس وحروبه مع تتش ووفـاته ، ودور ابنيه سقمان وإيلغـازي في الصراع الذي شهدته بلاد الشام آنذاك ، وسقوط القدس وذهاب إيلغـازي إلى بغداد

وتوليه (شحنكيتها) ودوره في الأحداث التي شهدها العراق آنذاك . ودور سقمان في تأسيس الإمارة الأرتقية في ديار بكر ووفاته وانقسام الامارة التي أنشأها ، ثم دور إيلغازي في توسيع ممتلكات الأراتقة . ومن ثم يستمر ابن الأثير في الكامل بتغطية أحداث الفصل الثاني حول علاقات الأراتقة بالزنكيين والأيوبيين ، فيقدم روايات دقيقة مفصلة عن معظم جوانبها . كما أن ما يقدمه عن علاقات الأراتقة بالصليبيين لا يقل أهمية عما قدمه ابن العديم في (زبدة الحلب) ، بسبب ما اتصفت به روايات الكامل في هذا المجال ، من طول نفس وإحاطة بكل أبعاد العلاقات الصليبية . أما الروايات الأخيرة التي يقدمها ابن الأثير عن علاقات الأراتقة بالتتر والخوارزميين والأيوبيين ، فتعد ذات أهمية بالغة بسبب معاصرته للأحداث واطلاعه على بعض الوثائق التي مكنته من سبر أغوار الظروف القلقة التي كانت تسود المنطقة آنذاك .

وإذا كانت الروايات التي قدمتها التواريخ المحلية عن الأراتقة تتميز بكثرة التفاصيل التي تتناول منطقة معينة أو فترة معينة ، فإن أهمية روايات الكامل تبدو ، فضلاً عن ذلك ، بتغطيتها لكافة المناطق والفترات بحيث لم تدع حادثاً رئيسياً إلا أوردته . وهكذا ساعدت على ملء معظم الفجوات التي ما كان يمكن ملؤها لولا الكامل.

أما المنتظم لابن الجوزي (ت ٥٩٧) ، فإن أهميته تبدو ، فيما قدمه من روايات مفصلة، عن دور إيلغازي الشحنة في بغداد وظروف توليه هذا المنصب المهم ، والأعمال التي قام بها هناك ، والدور الذي لعبه خلال الصراع الذي شهده العراق وبلاد فارس بين سلاطين السلاجقة في أواخر القرن الخامس الهجري .

ويعتمد سبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤) ، على جده ابن الجوزي ، وغيره

من التواريخ العامة ، في الأقسام الأولى من كتابه (مرآة الزمان) ولكنه ، منذ النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، يقدم روايات أصيلة لا نجدها في المصادر الأخرى . والقسم الذي نشر من كتابه يتناول الفترة بين ٥١٠ – ٦٥٤هـ = (١١١٦ – ١٢٥٦م) ، وفيه عدد من الروايات المهمة التي ينفرد بها سبط ابن الجوزي والتي تلقي ضوءاً على علاقات الأراتقة بالأيوبيين والصليبيين والتتر . وقد قام اليونيني (ت ٧٢٦) بالتذييل على مرآة الزمان ، وغطى الفترة بين ٦٥٤ – ٦٨٦ هـ = (١٢٥٦ – ١٢٨٧ م) بروايات أساسية مفصلة عن علاقات الأراتقة بالتتر والمماليك في مصر والشام . هذا الى أن كلاً من ابن الجوزي وسبطه واليونيني أعطوا بعض اللمحات عن الجوانب الحضارية للأراتقة .

وبالرغم من قيام كل من ابن العبري (٦٨٥) في تأريخ مختصر الدول ، وابن الفوطي (ت ٧٢٣) في الحوادث الجامعة ، بتقديم روايات أساسية في مواضيع شتى ، إلا أنهما لا يتطرقان للأراتقة إلا عرضاً . أما أبو الفدا (ت ٧٣٢) فإنه اختصر في كتابه المختصر في أخبار البشر ما جاء به ابن الأثير في الكامل ، ونقل عنه حرفياً في كثير من الأحيان ، إلا أنه قدم إثر نهاية (الكامل) عدداً من الروايات الأساسية عن علاقات الأراتقة بالتتر والمماليك . وقد كتب ابن الوردي (ت ٧٤٩) تتمة لتأريخ أبي الفدا ، إلا أنه اعتمد على ابن الأثير وأبي الفدا إلى حد كبير وتميزت رواياته بالإيجاز الشديد . وما يقال عن ابن الوردي يمكن أن يقال عن ابن كثير (ت ٧٧٤) في البداية والنهاية . وابن العماد (ت ١٠٨٩) في شذرات الذهب .

أما ابن خلدون (ت ٨٠٨) فبالرغم من طول نفسه في الروايات التي قدمها في (العبر) وتغطيته لمعظم تأريخ الأراتقة ، وإفراده أبواباً خاصة بهم ، إلا أنه لم يأت بجديد ، لأنه اعتمد إلى حد كبير على غيره من المؤرخين ، ونقل في

كثير من الأعيان عن الكامل نقلاً حرفياً .

وتبدو أهمية النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (ت ٨٧٤) ، في أنه قدم بعض الروايات الأساسية عن الأراتقة لم يذكرها أحد سواه ، ولعله اعتمد على مصادر لم تتيسر لغيره من المؤرخين ، فقد أورد رواية عن دور أرتق في القضاء على قرامطة البحرين (٤٧٠ هـ = ١٠٧٧ م) ، كما قدم رواية أخرى عن سقوط القدس بيد الأفضل وزير الفاطميين ، فضلاً عن أنه أسهم في إلقاء الضوء على علاقات الأراتقة بالمماليك ، مما أتاحه له وجوده في حلب وتولي أبيه منصباً خطيراً هناك ، لا ريب ، وأنه يسر لابن تغري بردي الاطلاع على عدد من الوثائق الرسميه . وبالرغم من أن كتابه الآخر (المنهل الصافي) يعد من كتب التراجم، إلا أنه قدم فيه سير بعض أمراء الأراتقة في فترة السقوط، مما أوضح بعض الأحداث التي شهدها الأراتقة قبيل سقوطهم . وما يقال عن (المنهل الصافي) يمكن أن يقال عن (الدرر الكامنة) لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢) الذي قدم بعض المعلومات عن علاقة الأراتقة بالمماليك . أما الأقسام المنشورة من تأريخ ابن الفرات (ت ٩٠٧) ، فإنها تقدم عدداً من الروايات المهمة عن علاقات الأراتقة بالتتر والمماليك ، إلا أن بعضها مشابه لما أورده ابن تغري بردي والمقريزي ، مما يقطع بأن ابن الفرات نقل هذه الروايات عنهما .

وهناك عدد من التواريخ العامة ، ذات أهمية ثانوية ، لأنها اعتمدت إلى حد كبير على المراجع آنفة الذكر ، لذا كان اعتمادي عليها محدوداً ، وأهمها: الجامع والمختصر لابن الساعي (ت ٦٧٤) ، ودول الإسلام والعبر في خبر من غبر للذهبي (ت ٧٤٨) والفخري لابن الطقطقي (ت ٧٠٩) ، ومرآة الجنان لليافعي (ت ٧٦٨) ومآثر الاناقة للقلقشندي، (ت ٨٢١) ، وتأريخ الخلفاء للسيوطي (ت ٩١١) ، وأخبار الدول للقرماني (ت ١٠١٩) ، والخميس

للديار بكري (ت ٩٨٢)، والفتوحات الإسلامية لزيني دحلان (ت ١٣٠٤هـ).

(٢) تواريخ الدول والإمارات : تناولت هذه التواريخ الدول والإمارات التي ظهرت خلال هذه الفترة كالسلاجقة والأيوبيين والمماليك والتتر وأتابكة الموصل وغيرها ، وقد اقتصرت هذه التواريخ في تقديم مادتها ، في معظم الأحيان ، على الإطار التأريخي لتلك الدول والإمارات ، وقدمت عدداً من الروايات المهمة عن علاقات الأراتقة ببعضها مما ساعد على إيضاح طبيعة تلك العلاقات .

من أهم هذه التواريخ تلك التي تناولت الدولة السلجوقية ، كزبدة النصرة للعماد الأصفهاني (ت ٥٩٧) ، وتأريخ دولة آل سلجوق الذي اختصره البنداري (ت ٦٤٣) عن الأصفهاني ، وأخبار الدولة السلجوقية للحسيني (ت ٦٢٢) . وقد ورد في هذه التواريخ عدد من الروايات عن دور أرتق كقائد خطير من قواد السلاجقة ، والخدمات التي قدمها لهم ، والحروب التي خاضها في ديار بكر والشام تحت قيادتهم ، وهذه الروايات ، على قلتها ، تعد ذات أهمية خاصة بسبب تمرس المؤرخين المذكورين بتأريخ السلاجقة واطلاعهم على دقائقه وتفاصيله .

ويقدم ابن الأثير في الباهر تاريخاً لأتابكة الموصل وحلب حتى عام ٦١٤ هـ فيه الكثير من التفاصيل مما لم يرد في الكامل . وعلى الرغم مما فيه من تحيز لحكام الموصل باعتباره مقدماً من المؤرخ كهدية لأحد أمرائها ، فضلاً عن عدم تمحيص ابن الأثير في هذا الكتاب لتواريخ الأحداث ، إلا أن فيه عدداً من الروايات الأساسية عن علاقات الأراتقة بالزنكيين والأيوبيين لم ترد في المصادر الأخرى . وقد اعتمد أبو شامة (ت ٦٦٥) في كتاب الروضتين على الكامل

والباهر إلى حد كبير ، إلا انه نقل في الوقت نفسه عن عدد آخر من المصادر كابن أبي طي الحلبي والعماد الأصفهاني والقاضي الفاضل (ت ٥٩٦) مما أتاح له تقديم روايات أساسية ، لم ترد في الكامل أو الباهر ، عن علاقات الأراتقة بالزنكيين والأيوبيين ، وبخاصة في عهد صلاح الدين . وقد ذيل أبو شامة على الروضتين بكتاب (تراجم رجال القرنين السادس والسابع) ، استعرض فيه الأحداث والوفيات خلال هذه الفترة ، وهو لا يقل أهمية عن سابقه لاعتماده على نفس المصادر ، فضلاً عن مشاهدات أبي شامة نفسه التي تعد مادة أساسية في كتابه المذكور . وما يقال عن أبي شامة يمكن أن يقال عن ابن واصل في (مفرج الكروب) إذ أنه اعتمد هو الآخر على ابن الأثير إلى حد كبير ، إلا أن اطلاعه على مصادر أخرى ، ومشاهداته ، مكنته من تقديم روايات جديدة عن علاقات الأراتقة بالأيوبيين



فإذا ما انتقلنا الى دولة المماليك في مصر والشام ، فسوف نجد عدداً كبيراً من التواريخ كتبت عن هذا الموضوع ، يقف على رأسها كتاب السلوك للمقريزي (ت ٨٤٥) ، بتقديمه عدداً لا بأس به من الروايات الأساسية عن علاقات الأراتقة بالمماليك ، والتتر إلى حد ما . ولا شك أن هذه الروايات توضح وجهة النظر المملوكية تجاه علاقات الأراتقة بالتتر والمماليك ، والتي كان يسودها الازدواج حيناً والانضمام إلى هذا الجانب دون ذاك حيناً آخر ، وتبدو أهمية روايات المقريزي بمقارنتها بالروايات التي قدمها مؤرخو التتر الذين كانوا يؤرخون للعلاقات الأرتقية ، من وجهة النظر التترية المخالفة للاتجاه السابق . ويعتمد المقريزي في الأقسام الأولى من كتابه ، والتي تطرق فيها للأيوبيين ، على المصادر التي سبقته ولا يقدم جديداً في هذا المجال . ولا يقل القسم المنشور من كتاب

(كنز الدرر) للدواداري (ت حوالي ٧٣٩) أهميــة عن (السلوك) ، لأنه يكشف عن علاقات الأراتقة بالمماليك والتتر في فترة مهمة وهي أواخر القرن السابع ومطلع القرن الثامن الهجري، حيث شهدت العلاقات الأرتقية الخارجية نشاطاً ملحوظاً إزاء التتر والمماليك ، وقد قدم الدواداري عدداً من الروايات المفصلة في هذا المجال لم ترد في المصادر الأخرى .

أما العدد الكبير الآخر من المصادر التي تناولت تأريخ المماليك ، وتراجم بعض سلاطينهم ، فتلي المصدرين السابقين في الأهمية ، ومـــا تقدمه من روايات أساسية عن علاقات الأراتقة في هذه الفترة لا يكاد يذكر ، وأهم هذه المصادر : أخبــار مصر لابن ميسر (ت ٦٧٧ هـ) ، وتشريف الأيام والعصور والروض الزاهر والألطاف الخفية لابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢ هـ) ، والدرة المضنية لابن صصري (ت ٨٠٠ هـ) ، والروض الزاهـــر للعيني (ت ٨٥٥ هـ) ، ومورد اللطافـــة لابن تغري بردي (ت ٨٧٤ هـ) وبدائــع الزهـــور لابن إياس (ت ٩٣٠ هـ) .

ويعد كتاب (جامع التواريخ) لرشيد الدين فضل الله الهمذاني (ت ٧١٨) ، ذا أهميـــة كبيرة لسببين رئيسيين ، أولهما أنه يقدم روايات أساسية مفصلة عن علاقات الأراتقة بالتتر وعن التطورات الخارجية والداخلية، الحربية والسلمية، التي شهدتهـــا ديار بكر خلال الغزو التتري وفي أعقابـه ، تلك الروايات التي لم ترد في المصادر الأخرى . وثانيهما أن هذه الروايات تمثل وجهة النظر الرسميـــة التترية لهذه الأحداث ، ممـــا يعطي الباحث مجالاً للمقارنة بين وجهتي النظر المملوكية والتترية إزاء موقف الأراتقة من الطرفين ، يمكن بواسطتها استخلاص الحقائق الأساسية في هذا المجال . ويعد كتاب (حبيب السير) لمؤلفه الفارسي خواندمير (ت ٩٤٢ هـ) ، أقل أهمية من جامع التواريخ لأنه لم يقدم روايات

أساسية عن الأراتقة ، حيث أعاد ذكر ما جاء به من سبقه من المؤرخين .

أما كتاب (عجائب المقدور في أخبار تيمور) لابن عربشاه (ت ٨٥٤) فلا يقلّ أهمية عن (جامع التواريخ) ، لانه يغطي فترة من أهم الفترات بالنسبة لعلاقات الأراتقة الخارجية ، وهي الفترة التي شهدت فيها ديار بكر غزواً جديداً بقيادة تيمورلنك ، وتعرضت إمارة ماردين خلالها لهجمات شديدة من قواته أثرت على سقوطها ، فيما بعد ، إلى حد كبير . ويقدم ابن عربشاه عن هذه الاحداث روايات مفصلة لم ترد في المصادر الاخرى بهذه السعة ، ومما يزيد في قيمتها معاصرة المؤرخ لها ، لولا أنه جانب الاعتدال أحياناً وتحامل على تيمورلنك ، وهو تحامل يمكن أن يكون في موضعه إزاء أعمال العنف والتخريب والإرهاب التي مارسها هذا القائد خلال غزواته ، وإزاء إطراء المؤرخ في بعض الاحيان له والاعتراف ببعض مزاياه .

(٣) تواريخ المدن : ازدهرت التواريخ المحلية خلال هذه الفترة ، وتناولت عرضاً لتأريخ بعض المدن في الجزيرة والشام وغيرهما من مناطق العالم الإسلامي . ولا تقلّ هذه التواريخ أهمية عما سبقها ، بل على العكس ، نجدها تقدم أحياناً تفاصيل دقيقة لا نجدها في غيرها من التواريخ ، بسبب تركيز المؤرخ المحلي على وحدة مكانية صغيرة ، مما يدفعه إلى محاولة البحث عن كل التفاصيل . وتبدو أهمية هذه التواريخ ، كذلك ، في أن أصحابها لم يقتصروا في كثير من الأحيان على تأريخ مدنهم فحسب ، بل تطرقوا – بحكم تشابك الاحداث والعلاقات – إلى سرد تفاصيل الاحداث التي شهدتها الجهات المجاورة أيضاً . فضلاً عن قيام المؤرخين المذكورين بإعطاء صورة عن خطط المدن التي أرّخوا لها ، قلما نجدها في سائر التواريخ ، بسبب اهتمام الاخيرة بالعلاقات العسكرية والسياسية العامة .

يقدم ابن القلانسي (ت ٥٥٥) في (ذيل تأريخ دمشق) ، بعض الروايات الاساسية عن الأراتقة ، وبخاصة فيما يتعلق بفعالياتهم السياسية والحربيـــة في الشام منذ عهـــد أرتق إلى مطلع عهد تمرتاش في نهاية العقد الثاني من القـرن السادس الهجري ، كما يلقي ضوءاً على علاقات إيلغازي بطغتكين حاكم دمشق وسعيهما لتنسيق خططهما إزاء الصليبيين . وبالرغم من أن روايات ابن القلانسي تتميز بالإيجاز ، إلا أنهـــا ، بتفردها وأسبقيتها الزمنية وتركيزها ، تعد ذات أهمية كبيرة ، خاصة وأن المؤرخ تولى منصباً رسميـاً في دمشق وعاصر معظم الاحداث التي دونها في الاقسام الاخيرة من كتابه .

أمـــا القسم المنشور من (تأريخ آمد وميافارقين) لابن الازرق الفارقي (ت ٥٧٢) فيقدم تفاصيل مفيدة عن خطط ديار بكر قبيل ظهور الاراتقة ، وبخاصة ما يتعلق بالإدارة والاقتصاد ، وقد مكنتني هذه الروايات من تتبع بعض جوانب التطور الحضاري في ديار بكر ، وعقد مقارنة بين النظم الارتقية وتلك التي سبقتهم لمعرفة ما أتوا به من جديد في هذا المجال .

ويعد كتاب (زبدة الحلب من تأريخ حلب) لابن العديم (ت ٦٦٠) من أهم المصادر عن الاراتقة ، بل أهمهـــا على الإطلاق ، فـيما قدمه من تفاصيل عن علاقاتهم بالصليبيين وأعمالهم في حلب والجهات المجـاورة . وقد غطى ابن العديم برواياته هذه فترة من أهم فترات العلاقات الارتقية الصليبية ، تبدأ مع مهاجمة الصليبيين لأنطاكية عام (٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م) ، وتنتهي بوفاة نورالدين محمود عام (٥٦٩ هـ = ١١٧٣ م) ، وألقى ضوءاً على دور الاراتقة في قيادة حركة الجهاد ضد الصليبيين في عهود إيلغازي وبلك ، وقدم تفاصيل دقيقة عن الحروب الجانبيـة بين الحلبيين والصليبيين المجاورين ، ممـــا لم تأبه له المصادر الاخرى ، فضلاً عن أنه أعطى صورة لا بأس بها لخطط حلب وتطوراتهـــا

الإدارية والاقتصادية في عهد الاراتقة .

والجانب الآخر الذي أسهم فيه ابن العديم بروايات مهمة، هو دور الاراتقة في الشام في عهد أرتق ، ومن بعده سقمان وإيلغازي . في الصراع الذي دار هناك بين عدد من الامراء لأغراض توسعية، كما أنه ألقى ، في إحدى الروايات، ضوءاً على تصميم سقمان على اتخاذ ديار بكر قاعدة للأراتقة . وقد حاول عدد من المؤرخين الذين اعقبوا ابن العديم ، كتابة تواريخ محلية لحلب ، على غرار ما كتبه ابن العديم ، إلا أن تركيزهم على خطط حلب في العهود المختلفة واعتمادهم في الجانب السياسي والعسكري على ابن العديم إلى درجة كبيرة ، قلل من أهمية ما كتبوه . وأشهر هذه التواريخ (قسم حلب) من كتاب (الاعلاق) لابن شداد ، والدر المنتخب لابن الشحنة (ت ٩٢١هـ) ، ونهر الذهب للغزي (ت ١٢٧١ هـ) وغيرها .

ومن الجدير بالذكر أن هناك عدداً من تواريخ المدن التي لم تصلنا بنصوصها الاصلية ، فيما عدا تأريخ العظيمي (ت ٥٥٦) ، وإنما وردت رواياتها متفرقة في المصادر التالية التي اعتمدت عليها وبخاصة زبدة الحلب لابن العديم ، وهذه الروايات تشكل المادة الاساسية الاولى عن المواضيع آنفة الذكر ، وأهم تلك المصادر : تأريخ ابن أبي طي الحلبي وابن أبي جرادة .

(٤) **السير والمذكرات** : وهي المؤلفات التأريخية التي كتبها المؤرخون عن أنفسهم ، كالاعتبار لأسامة بن منقذ ، أو عن غيرهم من كبار المسؤولين كسيرة صلاح الدين لبهاء الدين بن شداد . وتبدو أهمية هذه التواريخ في أن مؤلفيها عاصروا الاحداث التي أرخوا لها وشهدوا بعضها بأعينهم ، مما يجعلها أشد وثوقاً من التواريخ الاخرى ، رغم وجوب الحذر إزاء بعض رواياتها وعدم

التسليم المطلق بهـا ، بسبب وجود الدافع الشخصي الذي يدفع المؤرخ أحياناً إلى التحيز وعدم الموضوعية لكونه أسهم في الاحداث واتخذ موقفاً ما إزاءها .

ولكن ما يجعل هذه التواريخ ذات أهمية خاصة ، فضلاً عمـا سبق ، هو كثرة التفاصيل التي تقدمها وإلقاؤها ضوءاً على بعض الجوانب الحضارية كالذي نجده لدى ابن منقذ بسبب اضطلاع كتابها ببعض المسؤوليات الرسمية .

يقدم ابن منقذ (ت ٥٨٤) في كتابه (الاعتبار) عدداً من الروايات عن الاراتقة شهد أحداثهـا بنفسه ، ألقت ضوءاً على بعض الجوانب التي لم يتطرق إليهـا غيره من المؤرخين . وقد شملت رواياته هذه بعض جوانب العلاقـات الارتقية بالصليبيين ، والصراع الذي كان يدور في ديار بكر بين الاراتقة وبقية أمراء المنطقة لاغراض توسعية ، كما أنه قدم بعض اللمحات عن الخطط . وقد ساعده على ذلك بقاؤه فترة طويلة في حصن كيفا، تحت رعاية أميرها الارتقي، دامت حوالي العشر سنوات (٥٦٠ - ٥٧٠ هـ = ١١٦٤ - ١١٧٤ م) .

أما (النوادر السلطانية) لبهاء الدين بن شداد (ت ٦٣٢)، فتبدو قيمتها فيما يقدمه مؤلفهامن أخبار أساسية ومشاهدات عن دور الاراتقة في الإمدادات العسكرية والبشرية ، التي كان صلاح الدين يعتمد عليهـا في قتاله للصليبيين ، وعما كان يجري داخل معسكرات صلاح الدين من تقاليد عسكرية واحتفالات أكدت مدى طاعة الاراتقة ، وبخاصة أمراء حصن كيفـا ، لصلاح الدين ، ومدى عطف هذا عليهم وتقديره لخدماتهم . هذا فضلاً عن أن ابن شداد يقدم في كتابه هذا بعض الروايات الاساسية عن علاقـات الاراتقة بالايوبيين داخل منطقة ديار بكر ، مما يلقي ضوءاً جديداً على الموضوع. وما يقال عن (النوادر

السلطانية) لابن شداد ، يمكن أن يقال عن (الفتح القدسي) للعماد الاصفهاني، ولكنه يزيد على ابن شداد بتقديمه لنصوص بعض الرسائل التي وجهها صلاح الدين لأمراء ديار بكر يدعوهم فيها للجهاد . وقد اعتمد على كل من ابن شداد والاصفهاني عدد من المؤرخين الذين أعقبوهم وبخاصة أبو شامة وابن واصل .

وتعد (سيرة جلال الدين منكبرتي) للنسوي (ت حوالي ٦٣٩) ذات أهمية بالغة ، بتوضيحها لمساحة واسعة من علاقات الاراتقة بالخوارزميين إبان تراجع هؤلاء أمام التتر في أرمينية وديار بكر، ومحاولات سلطانهم خوارزمشاه إعادة تنظيمهم ، وتعزيز موقفه بعقد محالفات مع أمراء المنطقة من الاراتقة والايوبيين . وقد أوضح النسوي في إحدى رواياته اقتراحاً قدمه أمير كيفا وآمد للتحالف مع خوارزمشاه ضد سلاجقة الروم ، من اجل الاستعداد لقتال التتر بعد القضاء على أولئك السلاجقة ، وكيف أنه نكل بعد ذلك بالتزاماته تجاه الخوارزميين ، مما أدى الى مصرع سلطانهم ، وبالتالي إلى تغيير ميزان القوى في المنطقة . ومما يزيد من قيمة الكتاب المذكور أنه غطى أحداث الفترة التي أعقبت نهاية تأريخ (الكامل) لابن الاثير فيما بعد عام (٦٢٦ هـ = ١٢٢٨ م) وهي فترة مهمة ، فضلاً عن أن المؤلف نفسه كان شاهد عيان لتلك الاحداث .

ب – كتب التراجم :

تبدو أهمية كتب التراجم في أنها تلقي ضوءاً على الجوانب الفكرية والثقافية في ديار بكر إبان عهد الاراتقة ، وتتطرق أحياناً ، خلال ترجمتها للأشخاص ، إلى تقديم بعض اللمحات عن النواحي الحضارية الاخرى، الإدارية والاقتصادية

والاجتماعية ، فضلاً عن الجوانب السياسية ، لدى ترجمتها لأمـراء الاراتقة أو كبار المسؤولين في إماراتهم . ومما يزيد في قيمة كتب التراجم، أنها تكاد تغطي كل الفترة التي عاشها الاراتقة ، فهي تتكامل من الناحية الزمنية ، فبعضهـا يتناول تراجم القرن الخامس وبعضها الآخر القرن السادس أو السابع وهكذا.. كما أن هناك تكامل شبه موضوعي بين هذه الكتب بسبب تناول كل منهـا لصنف معين من الرجال ، فبعضها يختص بتراجم الساسة والقادة العسكريين ، وبعضها الآخر بالعلماء أو الادباء والشعراء ، وثالث يختص بالقضاة او الأطباء أو المحدثين ، وهكذا تقدم صورة واضحة عن النشاط الثقـاقي في ديار بكر ، بعرضهـا لعدد كبير من العلماء والادباء الذين أنجبتهم هذه المنطقـة فتفرقوا في أنحاء العالم الإسلامي ، أو الذين جاؤوها من الخارج فاحتضنتهم . كما تبرز دور الاراتقـة أنفسهم في تشجيع الحركة العلمية والادبية برعاية العلمـاء والادباء وتشجيعهم المادي والادبي . هذا إلى أن هذه الكتب تقدم روايات مفصلة عن عدد من قضاة الاراتقة وإدارييهم ، ممـا يساعد على توضيح النواحي الإدارية لدى الاراتقة ، ثم إن هناك عدداً من كتب التراجم تناولت سير بعض أمراء الاراتقة وقدمت روايات أساسية عنهم قلما نجدها في كتب التواريخ كوفيات الاعيان لابن خلكان ، (ت ٦٨١) وذيل الروضتين لابي شامـة ، وفوات الوفيات للكتبي (ت ٧٦٤) ، والوافي بالوفيـات للصفدي (ت ٧٦٤) ، والدرر الكامنة لابن حجر (ت ٨٥٢) ، والمنهل الصافي لابن تغري بردي . وقد ساعدت هـذه الروايات على سد بعض الثغرات التي لم تعالجهـا كتب التأريخ .

وأهم كتب التراجم التي اعتمدت عليها، فضلاً عما سبق : الانساب للسمعاني (ت ٥٧٢ هـ) ، والتأريخ الكبير لابن عساكر (ت ٥٧١ هـ) ، واللبـاب لابن

الأثير (ت ٦٣٠ هـ) ، والمختصر لابن الدبيثي (ت ٦٣٧ هـ) ، وأخبار العلماء للقفطي (ت ٦٤٦ هـ) ، وعيون الانباء لابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨ هـ)، ونكت الهميان للصفدي (ت ٧٦٤ هـ) ، وطبقات الشافعية للسبكي (ت ٧٧١ هـ) ، والجواهر المضية للقرشي (ت ٧٧٥ هـ) ، وقضاة دمشق لابن طولون (ت ٩٥٣ هـ) ، والقلائد الجوهرية للصالحي (ت ٩٥٣ هـ) والبدر الطالع للشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) . ويقف على رأس هذه التراجم كتابا الخريدة للأصفهاني ومعجم الأدباء لياقوت (ت ٦٢٦ هـ) ، بما يقدماه من تراجم مفصلة لعدد من مشاهير الادباء والشعراء ، الذين شهدتهم ديار بكر في عهد الأراتقة . ويجدر أن أشير هنا إلى بعض المصادر الأدبية التي اعتمدت عليها لأنها تشترك مع كتب التراجم في توضيح النشاط الثقافي لدى الأراتقة ، وأخص بالذكر منها رسائل ضياء الدين بن الأثير (٦٣٧) ، وديوان صفي الدين الحلي (ت ٧٥٢) الذي عاش مؤلفه ردحاً من الزمن تحت رعاية الاراتقة وتشجيعهم ، فكتب عدداً من القصائد في مدحهم ونظم بديعية سماها (الأرتقيات) نسبة إليهم .

جـ – كتب الجغرافيا والرحلات :

قدمت كتب الجغرافيا والرحلات معلومات قيمة عن الجوانب الحضارية لهذا البحث ، فضلاً عن بعض اللمحات المتعلقة بالنواحي السياسية والعسكرية. وتكاد المعلومات التي تقدمها هذه الكتب أن تكون مكملة لما قدمته كتب التأريخ والتراجم . فبينما تركز الأولى على النواحي السياسية والعسكرية ، وبينما تركز الثانية على النواحي الثقافية والدينية ، نجد الأخيرة تركز على النواحي الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والمذهبية والعمرانية فضلاً عن النواحي الجغرافية . ومما يزيد في قيمة هذه الكتب أن عدداً من مؤلفيها ،

وبخاصة الرحالة ، كتبوا عما شاهدوه فجاءت كتاباتهم صورة صادقة لما كانت عليه الجوانب التي وصفوها . هذا إلى أن هذه الكتب لم تسلط أضواءها جميعاً على زاوية واحدة ، وإنما اهتم كل منها بناحية من النواحي. فالتطيلي (٥٦١ – ٥٦٩ هـ) مثلاً ، يقدم في رحلته إحصائيـات عن عدد اليهود في ديار بكـر في عهد الاراتقة، وابن جبير (ت ٦١٤) يعطي صورة حية عن الأسواق والنشاط التجاري في المنطقة وإمكانياتهـا الزراعية ، وابن بطوطة (ت ٧٧٩) يقدم وصفاً للنشاط الثقافي والأدبي في بلاط الأراتقة ، والعمري (ت ٧٤٩) يتكلم في مسالك الأبصار عن المنتجات الزراعية للمنطقة ، وعن النصارى والمناطق التي يتركزون فيها، ونشاطهم الاقتصادي والاجتماعي، وابن حوقل (ت٣٦٧)، الذي أضاف إليه ناسخ كتابه (صورة الأرض)، تعليقات قيمة عن مشاهداته في عصر الاراتقة ، يقدم روايات مفصلة عن التجارة والصناعة واهتمام الاراتقة بالنواحي العمرانية ، وشيخ الربوة (ت ٧٢٧) يقدم في (نخبة الدهر) وصفاً لأحد قصور الاراتقة يعطي مثلاً على مدى ما بلغه الفن المعماري والإمكانيـات المادية لدى هؤلاء ، وياقوت في (معجم البلدان) يقدم روايات شتى عن هـذه النواحي جميعاً ، فضلاً عن أنه يفيد الباحث بتحديده لمعظم المواقع الصغيرة على خارطة ديار بكر والمناطق الأخرى ، ممـا لا تعنى به المصادر الجغرافيـة الاخرى .

أما بقية الكتب الجغرافية التي اعتمدت عليها في هذا المجال ، والتي لا تقل أهمية عما سبقهـا ، فأهمها المسالك والممالك لابن خرداذبه (ت ٣٠٠ هـ) ، ومسالك الممالك للأصطخري (ت ٣٤٦ هـ) ، ومختصر كتـاب البلدان لابن الفقيـه (ت ٣٦٥ هـ) ، وأحسن التقاسيم للبشاري (ت ٣٧٥ هـ) ، وآثار البلاد للقزويني (ت ٦٨٢ هـ) ، وتقويم البلدان لأبي الفـدا (ت ٧٣٢ هـ) ، وخريدة العجائب لابن الوردي (ت ٧٤٩ هـ) . وبالرغم من أن عدداً من المصادر

السابقة يعود في تأليفه إلى فترة سبقت ظهور الاراتقة ، إلا أن ما تقدمه من معلومات عن النواحي الاقتصادية والاجتماعية ، يعد ضرورياً لمعرفة التطورات التي حدثت في المنطقة في عهد الاراتقة ، هـذا إلى أن كثيراً من الجوانب الحضارية لا تتعرض لمؤثرات الزمن السريع كالجوانب السياسية والعسكرية ، بل تستمر لفترات طويلة تحمل نفس السمات وتؤتي ذات الثمار ، مما يجعل روايات تلك المصادر تحافظ على أهميتها في هذا المجال .

وتجدر الإشارة هنا إلى كتاب (نزهة الاذهان في تأريخ دير الزعفران) ، للأب أفرام برصوم ، فبالرغم من أنه ألف في مطلع هذا القرن ، إلا أن مؤلفه أورد فيه روايات هامة عن تأريخ المسيحيين الديني والاجتماعي والثقافي في ديار بكر في عهد الاراتقة ، وعن تطور التنظيمات الكنسية هناك ، اعتمد فيها على ما توفر له من مصادر سريانية ولاتينية أتاحت له تقديم تفاصيل دقيقة عن هذا الموضوع .

د ـ كتب الخطط :

إن ما يلاحظ على معظم كتب الخطط اهتمامها بالإمارات والدول الكبرى فحسب ، وعدم الالتفات ، ولو بلمحات موجزة ، إلى الإمارات الصغيرة ، ولذا نجدها تقدم تفاصيل كثيرة وروايات لا يحصيها العد عن خطط الفاطميين والسلاجقة والايوبيين والمماليك ، ولا تتطرق ، إلا نادراً ، إلى خطط إمارات محدودة كالإمارات الارتقية. ولكن أهمية هذه الكتب تبدو في نواحي عديدة، منها أنها تقدم تحليلاً موسعاً لمعظم المصطلحات الإدارية والعمرانية والاقتصادية والاجتماعية ، مما يمكن الاعتماد عليه في إيضاح ما ورد من تلك المصطلحات لدى الاراتقة . كما أن معظم هذه الكتب يتكلم عن خطط دول معاصرة للأراتقة ، ونحن نعلم أن هناك تأثيرات حضارية متبادلة في نطاق العصر

الواحد ، وأن الخطط التي تسود دولة من الدول في عصر ما لا بد وأن تكون مشابهة ، على الأقل في خطوطها الرئيسية ، لتلك التي تعمل بها إمارة معاصرة لتلك الدولة . وهذا ما يبدو واضحاً في وجود عدد كبير من المصطلحات المتشابهة بين الأراتقة والسلاجقة والايوبيين والمماليك ، وقد أكد القلقشندي على هذا التأثير الحضاري المتبادل بين دول وإمارات ذلك العصر . وهكذا أتيح لي الاعتماد على ما أوردته كتب الخطط هذه ، والقيام بعقد مقارنة بينها وبين الإشارات المقتضبة عن خطط الأراتقة ، ومن ثم تمكنت من الوصول إلى بعض النتائج الدقيقة في هذا المجال .

ومن أهم كتب الخطط التي اعتمدت عليها : قوانين الدواوين لابن مماتي (ت ٦٠٦ هـ) ، ولمع القوانين للنابلسي (ت حوالي سنة ٦٣٢ هـ) ، ونهاية الإرب للنويري) ت ٧٣٣ هـ) ، والتعريف بالمصطلح الشريف للعمري (ت ٧٤٩ هـ) ومعيد النعم للسبكي (ت ٧٧١ هـ) وزبدة كشف الممالك للظاهري (ت ٨٧٣ هـ) ، والدارس في أنباء المدارس للنعيمي (ت ٩٢٧) . ويقف على رأس هذه الكتب كتابا صبح الأعشى للقلقشندي (ت ٨٢١) ، والمواعظ والاعتبار للمقريزي ، بما يقدماه من تحليل واسع النطاق لخطط مصر والشام في العصر الذي نتكلم عنه .

٣ – المراجع الأجنبية والعربية والدوريات :

لم يحظ الاراتقة بأية دراسة حديثة فيما عدا المقالين اللذين كتبهما C. Cahen في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الجديدة) وفي مجلة J. A. (1935) ، والمقالة التي كتبها Ostronofsky في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الاولى) ، والبحث الموجز S. Lane—poole في كتاب The Mohammadan Dynasties ، والجدول الذي وضعه زامباور في كتاب معجم الانساب والأسرات الحاكمة . وفيما عدا ذلك لا

نجد أي اهتمام محدث خاص بالاراتقة ، بل نرد نتفـــاً من أخبارهم وعلاقاتهم عرضاً ، في ثنايا الابحاث الحديثة العربية والاجنبية . وقد كان الدافع الاساسي لرجوعي إلى هذه المراجع ، هو الرغبة في الاطلاع على وجهـــات النظر في الاحداث التي كان الاراتقة طرفاً فيهـا ، أو الوصول ، بصورة غير مباشرة ، إلى المصادر الاساسية التي اعتمد عليها هؤلاء المحدثون، والتي لم يتيسر لي الاطلاع عليهـــا . وهكذا رجعت إلى أهم الابحاث الحديثة عن السلاجقة والصليبيين والايوبيين والمماليك والاكراد والاتراك والتتر ، والإمارات التركمانية المتأخرة كإمارتي الخروف الاسود والابيض ، كما رجعت إلى بعض المقالات والابحاث التي تناولت جوانب حضارية من الفترة التي عاصرها الاراتقة ، فضـلاً عن معاجم المؤلفين والمؤرخين والاسر الحاكمة وبعض المراجع الجغرافية الحديثة .

وأحب أن أشير هنا إلى بعض المراجع ، التي اعتمدت عليهـا بشكل واسع النطاق وبخاصة فيما يتعلق بعلاقات الاراتقة بالصليبيين ، لما لذلك من أهميـة في تفحص وجهات النظر المختلفة حول هذا الموضوع الهام ، وأهم هذه المراجع :

La Syrie do Nord, by C. Cahen.
The Damascus chronicle of the Crusades, by Gibb.
Histoire des Croisades, by R. Grousset.
A History of the crusades, by S. Runciman.
A History of the crusades, by Setton.

والكتاب الأخير يتضمن عدداً من المقالات القيمة حـــول هذا الموضوع بأقلام كبـار المتخصصين ، ثم كتاب .The crusades in the East, by stevenson فضلاً عن مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية (R. H. C. Occ.) التي تقدم عرضــاً لوجهة النظر اللاتينية في الحروب الصليبية ، والتي يمكن بمقارنتهـــا بالروايات الإسلامية، التزام الموضوعية وتجنب التطرف . وأحب ان أشير هنا ، كذلك، إلى كتاب (أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس) الذي ترجمه حسن حبشي عن

مؤرخ افرنجي مجهـــول ويعرف الكتاب باسم الجستا (Gesta) ، ويشير إلى دور الاراتقة في معارك أنطاكية ، وإلى كتابَيْ الشرق الاوسط والحروب الصليبية للعريني ، والحركة الصليبية لعاشور ، اللذين يعدان أوسع المؤلفات العربية عن الحروب الصليبية ، وقد اعتمد مؤلفاهما عــلى عدد كبير من المصادر الفرنسية والإنكليزية ، وقدما ملاحظات قيمة وغنية عن دور الاراتقة إزاء الصليبيين ، أعانتني إلى حد كبير في هذا البحث . هذا فضلاً عن عدد آخر من المراجع التي رجعت إليها عن هذا الموضوع مما هو مثبت في قائمة المصادر والمراجع .

وليس لي – قبل الدخول في الموضوع – إلا أن أرفع حمــدي العميق لله .. فهو وحده صاحب المنّة ، وإليه وحده يصعد الكلم الطيب ويرفع الثناء .

جامعة الموصل

عماد الدين خليل



شكر وتقدير

مما أفتخر به أن أسجل شكري وتقديري العميقين لأستاذي الدكتور حسن حبشي رئيس قسم التاريخ في كليـــة آداب جامعة عين شمس ، الذي تمت هـــذه الرسالة تحت إشرافه ، وأخذت سماتها الأخيرة بتوجيهه وإرشاده . ولقد كان لتتبعه وملاحظاته وما أنفق من جهد ووقت كبيرين الأثر الواضح في إخراجها .

كما أتقدم بشكري الى كل من الأستاذين : الدكتور شعيرة والدكتور العدوي ، لما قدماه خـلال المناقشة من آراء قيّمة وتوجيهات سديدة ، والى الأخ الدكتور عبد القادر طليمات ، الذي اطلع على بعض فصول الرسالة وأبدى ملاحظاته حولها، والى الأخوة الذين قرأوا مسوداتها وصححوا أخطاءها اللغوية.

ولا يفوتني أن أقدم خالص امتناني للمعاملة الطيبة ، التي لمستها من موظفي المكتبة العامة ومكتبة المتحف في الموصـل ودار الكتب في القاهرة .

والحمد – أولاً وآخراً – لله القدير الذي علـم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم .

الفصل الأول

ظهور بني أرتق وعلاقاتهم بالسلاجقة
٤٦٥-٥٢١ هـ (= ١٠٧٢-١١٢٧م)

أصل الأراتقة ودور أرتق :

ينتمي أرتق بن أكسك[1] ويلقب بظهير الدين[2]، إلى قبيلة الدقر (Doger) التركمانية[3] ، وهي إحدى البيوت الكبيرة التي تنتمي إلى الغز[4] ، والتي كانت زعامتها قد انتهت إلى أرتق . وكانت هذه القبيلة من جملة القبائل التركمانية ، التي انتظمت في صفوف القوات السلجوقية ، التي عمل سلاطينها على استمالة

---

(١) يشير ابن خلكان (وفيات الأعيان ٦١/١) ، الى أن أبا أرتق هو أكسب وأنه يدعى أحياناً أكسك ، ويشير ابن خلدون (العبر ٤٦١/٥) ، الى أن أكسك هو الأرجح ، وكذلك يؤكد كل من العيني (عقد الجمان، مخطوطة ٤٤٠/٤٥)، وابن حجر العسقلاني (الدرر الكامنة ٩٦/٢) . ويسميه ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة ١٠٦/٥) (أرتق بك) ، وكذلك يفعل كل من سبط ابن الجوزي (مرآة الزمان ، مخطوطة ١/ ٢ / ١٨٣ - ١٨٤) ، وابن الفرات (تأريخ ، مخطوطة ٨/٢) ، والمرجح أن كلمة (بك) تحريف لأكسك . وانظر ابن تغري بردي (المنهل الصافي ، مخطوطة ٢ / ٤٩٦) . ومما يؤكد اسم (أكسك) ما أورده الماردبني (تأريخ ماردين : مخطوطة ، ورقة ١٢٠) ، من أن ابا أرتق يدعى أكسوك ومعناه الناقص .

ويجمع عدد آخر من المؤرخين على تسميته بأكسب ، على الرغم من خطأ هذه التسمية . انظر ابن الأثير (الكامل ٤٨/١٠ - ٤٩) ، ابن الفرات (تأريخ ، مخطوطة ٨/٢) .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب من تأريخ حلب ٩٩/٢ .

(٣) C. cahen, the turkish invation, in setton : A History of the crusades, vol, 1, P. 158.

Enc. Isl. art : Artukids, by c. cahen (New ed.),

(٤) Tamara Rice, the seljuks in Asia Minor, P. 54.

Enc. Isl art : Doger by F. Sumer (الجزري ، تأريخ (مخطوطة ٢٩/٢

زعماء هذه القبائل ، بمنحهم الإقطاعات والاستقلال الذاتي داخل نطاقها ، كما سعوا إلى جذبهم إليهم بمختلف الوسائل كتفويضهم قيادة بعض الحملات العسكرية ، وتعليم أبنائهم الاضطلاع بالوظائف العسكرية والإدارية[1] . ومن المؤكد إذاً أن قبيلة (الدقر) كانت من ضمن القبائل التركمانية العديدة التي اشتركت في الزحف السلجوقي وبناء كيان الدولة السلجوقية[2] .

كان أرتق من مماليك السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان ، ثالث سلاطين السلاجقة ، والذي حكم بين سنتي (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ = ١٠٧٢ - ١٠٩٢)[3] ، وقد قدم أرتق لسلطانه خدمات عسكرية جليلة في فجر حياته السياسية ، كان لها أثر كبير في إبرازه على المسرح السياسي والعسكري . ففي عام ٤٦٥هـ = ١٠٧٢ م حارب في آسيا الصغرى ضد البيزنطيين ، ثم عمل طيلة السنوات الخمس التالية في مهام إدارية لدى حكومة السلطان ملكشاه[4] . وفي عام (٤٧٠ هـ = ١٠٧٧ م) ، أرسل على رأس حملة عسكرية لقتال قرامطة البحرين والمناطق المجاورة ، وإخضاعهم للسلاجقة ، فتم له النجاح في ذلك وأرسل كتاباً إلى بغداد ، في نفس العام ، باستيلائه على بلادهم[5] . وبعد عامين من

---

(١) Cahen, the turkish invation, 1/158.
حسين أمين ، نظام الحكم في العصر السلجوقي ، مجلة سومر ، المجلد العشرون سنة ١٩٦٤ .

(٢) انظر ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢ / ٨) Enc. Isl. art: Doger by F. Sumer.

(٣) ابن خلدون ، العبر ٥/٤٦١ ، ابن حجر ، الدرر ٢/٩٦ ، ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (مخطوطة ٢/٩٦؛) .

(٤) Enc. Isl. art: Artukids, by C. cahen (New ed.)
C. cahen, the Turkish Invation, 1/158.

(٥) انظر الهامش السابق وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٥/١٠٦ .

ذلك ، أي في عام (٤٧٢ هـ = ١٠٧٩ م) جعله ملكشاه تحت إمرة أخيه تاج الدولة تتش في الحملة السلجوقيـــة التي توجهت إلى بلاد الشام[١] . وكان أرتق خلال هذه الفترة قد قام بالاستيلاء على منطقة (حلوان والجبل)[٢]، وضمها إلى أملاك الدولة السلجوقية[٣] . وقد أدت هذه الجهود التي بذلها أرتق للسلاجقة إلى توليته على « حلوان وما إليها من أعمال العراق »[٤] .

بقي أرتق عاملاً على حلوان والمناطق المجاورة ، من قبل السلاجقـة حتى عام (٤٧٧ هـ = ١٠٨٤ م) . وقد خلت المصادر من الإشارة إلى الدور الذي قام به خلال ولايته على هذه المنطقة وما حققه من أعمال ، سوى أن السلطان ملكشاه أرسله في عام (٤٧٧ هـ = ١٠٨٤ م) على رأس عدد كبير من التركمان ، لمساعدة فخر الدولة بن جهير في حملته العسكرية على ديار بكر حين طلب من السلطان إنجاده لاستكمال مهمته[٥]. وكان ابن مروان الكردي صاحب الإمارة

---

(١) Enc. Isl. art: Artukids, by C. cahen (New ed.)

(٢) إقليم يقع جنوبي كردستان على الحدود بين العراق وبلاد فارس ، وحلوان مدينة عامرة تتوسط الإقليم . انظر ياقوت ، معجم البلدان ٣١٧/٢ .

(٣) ابن خلكان ، وفيات ٦١/١ .

(٤) المصدر السابق ، نفس الصفحة ، البنداري، تأريخ الدولة السلجوقية ، ص ٧٠ ، ابن خلدون ، العبر ٤٦٢/٥ ، القرماني، تأريخ ص ٢٧٨ ، ابن تغري بردي، المنهل الصافي (مخطوطة ٤٩٦/٢) Cahen, Turkish Invation, 1/158

وهناك رواية مطولة يقدمها المارديني (تأريخ ماردين ، مخطوطة ، ورقة ١٢٠ - ١٢٢) عن أصل الأراتقة ودور أرتق تتسم بالطابع الخيالي القصصي ، وما ذكرته من احداث لا يؤيده أي مصدر موثوق على الإطلاق . لذا أعرضنا عنها .

(٥) ابن الأزرق الفارقي ، تأريخ آمد وميافارقين ، القسم المنشور ص ١١٠ ، ابن الاثير ، الكامل ٤٨/١٠ - ٤٩، ابن واصل ، مفرج الكروب في اخبار بني أيوب ١١/١ - ١٤ ،=

المروانية في ديار بكر قد مضى إلى شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي امير الموصل (٤٥٣ هـ – ٤٧٨ هـ = ١٠٦١ م – ١٠٨٥ م) ، وطلب نجدته مقابل إعطائه آمد . فتم الاتفاق بينهما على ذلك وسارا إلى آمد ، وكان ابن جهير قد نزل بنواحيها فلما رأى تحالفهما مال إلى الصلح ، إلا أن أرتق أصر على القتال وقال « أنا لا أرد رايات السلطان على عقبها »[1] ، وعندما علم أتباعه من التركمان بقيام ابن جهير بمفاوضة أعدائه لعقد الصلح قرروا الإسراع بإشعال نار الحرب للحصول على الغنائم قبل أن يتم الصلح ، فقاموا بهجوم مباغت في ربيع الاول من السنة على قوات شرف الدولة العربية ، دون علم أرتق، وكان التركمان أضعاف العرب فهزموهم وغنموا أسلابهم وبالغوا في إهانتهم[2] .

تراجع شرف الدولة العقيلي إثر هذه المعركة واحتمى بسور آمد، أما حليفه المرواني فيظهر أنه ابتعد عن ميدان القتال خوفاً من الهزيمة ومن تعرض إمارته للخطر. وإذ أدرك شرف الدولة عدم جدوى المقاومة وخاف على نفسه، راسل الامير أرتق – الذي كان مكلفاً بحفظ الطرق ومراقبة الحصار – وبذل له مالاً وسأله أن يمنّ عليه بنفسه ويمكنه من الخروج من آمد ، فقبل أرتق العرض

=أبو الفدا ، المختصر في اخبار البشر ٢/٢٠٤ – ٢٠٥ البنداري، الدولة السلجوقية ص ٧٠ ، الاصفهاني ، زبدة النصرة ص ٧٥ – ٧٦ ، ابن خلدون ، العبر ١٣/٥ ، العيني ، عقد الجمان (مخطوطة جزء ٤٥ ورقة ٣٧١ – ٣٧٢) ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، (مخطوطة ١ / ٢ / ١٨٣ أ) ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢ / ٨) ، G. cahen The Turkish Invation 1/158

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان (مخطوطة ١/٢/١٨٤ أ) .

(٢) المصدر السابق ١/٢/١٨٣ آ – ١٨٤ آ ، العيني ، عقد الجمان (مخطوطة ٤٥/٣٧١–٣٧٢) ، الاصفهاني ، زبدة النصرة ص ٧٥ – ٧٦ . وينفرد ابن خلدون (العبر ١٣/٥) في الإشارة الى أن أرتق اشترك في هذه المعركة فهزم العرب والاكراد وغنم معسكرهم . وهي رواية ضعيفة .

طمعاً في المال وأذن لشرف الدولة في الخروج ، فتسلل هذا من آمد في الحادي والعشرين من ربيع الاول واتجه إلى الرقة[1] ، وأرسل إلى أرتق – فيما بعد – ما كانا قد اتفقا عليه[2] وحدثت في الوقت نفسه بعض الخلافات بين أرتق وابن جهير ، حيث رفض أرتق تسليمه الاسرى العرب الذين هزمهم جنده من التركمان وقال « هذا أمر ما إليك منه قليل ، وأنا صاحب الحرب » « وكانت نية أرتق مع السلطان – ملكشاه – غير مستقيمة »[3] الامر الذي دفعه إلى مغادرة معسكر ابن جهير بعد ثلاثة أيام من الموقعة آنفة الذكر ، حيث تبعه أكثر التركمان[4] . وعند ذلك اتجه فخر الدولة ابن جهير لحصار ميافارقين في ديار بكر ، ولكنه سرعان ما غادرها إلى خلاط بسبب عدم تمكنه من الصمود بوجه أعدائه دون مساعدة أرتق الذي قرر التوجه لمقابلة السلطان والقيام بما يراه ، وربما استهدف طلب رضاه عنه بسبب تآمره مع شرف الدولة ، والشكوى التي قام ابن جهير بتقديمها إلى السلطان ضده[5] .

---

(١) الرقة : مدينة على الفرات من الجانب الشرقي ، بينها وبين حران ثلاثة ايام . (ياقوت معجم البلدان ٢/٨٠٢) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٠ – ٤٨ – ٤٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ١/١١ – ١٤ ، البنداري . الدولة السلجوقية ص ٧٠ – ٧١ ، الأصفهاني ، زبدة النصرة ص ٧٥ – ٧٦ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢/٨) ، العيني ، عقد الجمان (مخطوطة ٥/٤٧١ – ٣٧٢) ، ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (مخطوطة ٢/٤٩٦) ، ابو الفدا : المختصر ٢/٢٠٤ – ٢٠٥ ، ابن خلدون . العبر ٥ / ٦٣ ؛ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، (مخطوطة ١ / ٢ / ١٨٣ آ – ١٨٤ آ) ، Cahen, Turkish Invation, 1/158

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، (مخطوطة ١/٢/١٨٣ آ – ١٨٤ آ) .

(٤) المصدر السابق ، نفس الأوراق .

(٥) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، (مخطوطة ١/٢/ ١٨٤ آ و ١/ ٢ / ١٨٨ ب – ١٨٩ آ) .

ولكن أرتق ما لبث أن تلقى من السلطان أمراً بمساعدة قوة ثالثة كان ملكشاه قد أرسلها بقيادة عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير ، وعدد من كبار القادة للاستيلاء على الموصل ، فانضم أرتق بقواته التركمانية الكبيرة إليهم واتجهوا جميعاً إلى الموصل حيث فرضوا عليها الحصار ، وأرسل أرتق إلى أصحابها يشير عليهم بالتخلي عن العصيان والدخول في طاعة السلطان ، وخوّفهم عاقبة إصرارهم على المقاومة[1] ، كما أرسل إليهم عميد الدولة كذلك يحضّهم على الاستسلام ، فأذعن حكام الموصل للقوات السلجوقية ووافقوا على تسليم بلدهم بشرط حضور السلطان بنفسه ، فلما حضر هذا سلمت إليه المدينة[2] .

ومن ثم تقدم أرتق وقواته بصحبة السلطان ملكشاه إلى مرو الروذ – في بلاد فارس – للقضاء على تمرد تكش أخي السلطان ملكشاه هناك عام ٤٧٧ هـ = ١٠٨٤ م ، حيث لعب أرتق دوراً رئيسياً في مساعدة ملكشاه في هذا المجال ، بحيث تمكن من القضاء على هذا التمرد[3] .

إلّا أن أرتق ، رغم دوره في فتح الموصل وفي قتال تكش ، كان خائفاً من

---

(١) ابن الأثير : الباهر ص ٥ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ٤٩/١٠ – ٥٠ ، الباهر ص ٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ١١/١ – ١٤ ، ابو شامة ، الروضتين في أخبار الدولتين ٢٤/١ ، البنداري، الدولة السلجوقية ص ٧٠ – ٧١ ، أبو الفدا ، المختصر ٢٠٤/٢ – ٣٠٥ ، ابن خلدون ، العبر ١٤/٥ ، الأصفهاني ، زبدة النصرة ص ٧٦ – ٧٧ ، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ، (مخطوطة ١٨٤/٢/١ آ) وانظر ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٨/٢) ، العيني، عقد الجمان (مخطوطة ٣٧١/٤٥ – ٣٧٢) ، ابن تغري بردي، المنهل الصافي (مخطوطة ٤٩٦/٢).

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان، (مخطوطة ١٨٥/٢/١ آ – ١٨٦ ب) . وانظر ابن الاثير ، الكامل ١٣٦/٨ (مطبعة الاستقامة بالقاهرة) .

انتقام السلطان ملكشاه منه بسبب تواطئه مع شرف الدولة العقيلي وخلافه مع ابن جهير ، وكان السلطان قد حقد عليه فعلاً بسبب ذلك ، وقيل إنه أرسل إليه يتوعده ، مما اضطره إلى مفارقته والتوجه صوب الجزيرة ، حيث قام في طريقه بنهب السواد والضياع العائدة للسلطان ، ثم عطف إلى الموصل وأعمل في أطرافها النهب والسلب ، وما لبث أن اتخذ طريقه إلى الجزيرة ، فاضطر ابن جهير إلى التحصن بأسوار آمد خوفاً منه[1] .

كان أرتق، خلال هذه الفترة ، قد أجرى اتصالات مع شرف الدولةالعقيلي وتم الاتفاق بينهما على التوجه معاً إلى حلب ومراسلة الفاطميين للانتماء إليهم ، ومحاولة إقناع تاج الدولة تتش السلجوقي سلطان الشام بالانضمام إلى حركتهم .

وكان شرف الدولة قد أرسل ، إثر خروجه من آمد ، عمه مقبل بن بدران إلى مصر ليعلن انتماءه إليهم ، وسعيه للاستيلاء على بعض المناطق في العراق والجزيرة والشام وانتزاعها من السلاجقة ، ويلتمس منهم إرسال قواتهم للاتفاق معاً على خطة عسكرية مشتركة. فأرسل بدر الجمالي - الوزير الفاطمي - وفداً مصرياً بصحبة مقبل بن بدران للتفاهم مع مسلم بهذا الصدد، فوصلوا إلى دمشق وتوجه مقبل من هناك ليعلم شرف الدولة وأرتق بوصولهم ، ولكنه ما أن اقترب من حلب حتى علم بمقتل شرف الدولة في المعركة التي دارت بينه وبين قتلمش سلطان سلاجقة الروم (٤٧٠ هـ - ٤٧٩ هـ = ١٠٧٧ م - ١٠٨٦ م) ، في مطلع عام (٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م) ، بالقرب من أنطاكية ، فاضطر إلى التوجه الى قرقيسيا[2] حيث اجتمع بأرتق، فوعده هذا ببث جنده من التركان

---

(١) ابن الفرات ، تأريخ ، (مخطوطة ٨/٢) .

(٢) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ، (مخطوطة ١٨٨/٢/١ ب - ١٨٩ آ). وتقع قرقيسيا على نهر الخابور قرب الرحبة (ياقوت ، بلدان ٦٦/٤) .

للإفساد والتخريب في المناطق التابعة للسلطان ملكشاه ، والتوجه بعد ذلك إلى الشام[1] .

ولكن أرتق ما لبث أن وجد نفسه مضطراً على البقاء في الجزيرة ، إذ أن مقتل شرف الدولة فتّ في عضده . وقام السلطان ملكشاه بمحاولة استرضائه إزاء ما بلغه عنه من اتصالات سياسية وعمليات تخريبية ، فأرسل إليه خلعاً وذهباً رفض أرتق قبولها، كما قام جماعة من قواد السلطان ملكشاه في ديار بكر بمراسلته ومحاولة استمالته تارة بالإغراء وتارة أخرى بالوعيد وقالوا له « إن كنت عاصياً سرنا إليك ، وإن كنت طائعاً فيجب أن تجتمع معنا على خدمة السلطان »[2] فاضطر أرتق ازاء ذلك ، وبعد أن انفضّ عنه عدد من أتباعه التركمان ، إلى الاستجابة لنداء قادة السلطان بالكف عن النهب والتخريب ، ولكنه أعلمهم بأنه لا يستطيع الانضمام إلى السلطان ملكشاه ، بسبب ما قام به ابن جهير من إفساد نيته عليه ، وأنه لهذا السبب لا يأمن على نفسه منه ، كما أعلمهم بأنه قد عزم على التوجه صوب حلب وأنه سيعمل هناك على الحد من أطماع أعداء السلطان ملكشاه ، وبخاصة سليمان بن قتلمش الذي كان على وشك الاستيلاء على حلب[3] .

تمكن أرتق بهذه الوسيلة من التخلص من ضغط قادة السلطان ، وانفتح الطريق أمامه للتوجه صوب الشام . ولم تتمخّض عن محاولات الاتصال مع الفاطميين - بعد ذلك - أية نتيجة تذكر ، بسبب مقتل شرف الدولة مسلم

---

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ، (مخطوطة ١٨٨/٢/١ ب - ١٨٩ آ) .
(٢) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ، (مخطوطة ١٨٨/٢/١ ب - ١٨٩ آ) .
(٣) المصدر السابق ، نفس الاوراق .

الذي يمثل رأس تلك الاتصالات ، وبسبب انهماك أرتق – لدى دخوله الشام – بمساعدة تتش السلجوقي في عملياته ضد أعدائه ، كي يحصل من ثم على عطفه وحمايته بعد أن قطع صلته بالسلطان ملكشاه . وبذلك أخفقت محاولة التعاون مع الفاطميين مما كان سيؤدي إلى نتائج خطيرة في منطقة العراق والشام ، وفي تغيير ميزان القوى السياسية هناك .

الأراتقة في القدس :

تنقلت الأحوال بأرتق لدى انضمامه إلى تتش ، وما لبث هذا أن أقطعه القدس عام (٤٧٩ هـ = ١٠٨٦ م)[١] ، تمهيداً للاعتماد على مقدرته العسكرية ، إذ كان « منصوراً لم يشهد حرباً إلا وكان الظفر له »[٢] ، وللاستفادة كذلك من العدد الكبير من التركمان الذين كانوا تحت إمرته والذين عرفوا بإجلالهم له

---

(١) يذكر كل من كلود كاهن في Enc. Isl. art. Artukids, (New ed.) ورنسمان في A History of the crasades 1/265 بأن فلسطين ، لا القدس وحدها ، أقطعت لأرتق ، ولكن أياً من المصادر العربية لم تشر الى ذلك وإنما ذكرت ان القدس هي التي أقطعت لأرتق وهو ما يذهب اليه كاهن نفسه في The Turkish Invation, 1/158 وتمارا رايس في The seljuks, p. 54 وجب في The caliphate and the Arabstates in, setton, 1/95 وسبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ، (مخطوطة ١/٢/١٩٣ آ ب) . وانظر ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، (مخطوطة ٢/٤٩٦) . كما أنه لم يرد في تفاصيل الروايات ما يشير الى ان أرتق وأبناءه من بعده كانوا يتمتعون بأية سلطة خارج القدس ، مما يرجح بأن الأخيرة فقط كانت اقطاعهم . ولا بد من الإشارة الى الخطأ الذي وقعت فيه (تمارا رايس) (المصدر السابق) في القول بأن إقطاع القدس لأرتق جاء بسبب تقدير تتش له على الشهامة التي اظهرها قبل عامين ، لدى مساعدته ملكشاه في حصاره آمد . وهذا الخطأ ، يتضح من سياق الأحداث .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٠/٥٤ .

واعتدادهم به[١] فضلاً عن إمكان اتخاذه حاجـزاً بينه وبين الفاطميين في مصر[٢] .

وكانت أولى المعارك التي اشترك فيهـا أرتق إلى جانب تتش ، تلك التي خاضها الأخير ضد سليمان بن قتلمش حاكم سلاجقة الروم ، الذي كان قد انتصر على شرف الدولة العقيلي صاحب حلب ، وأخذ يعمل على الاستيلاء عليها ويلح على أهاليهـا بتسليم مدينتهم ، فأرسل مقدمهم ابن الحتيتي العباسي إلى تتش يعده بتسليم حلب إليه ويطلب منه الحضور . فسار هـذا إلى هناك والتقى بسليمان بن قتلمش في الثامن عشر من صفر عام (٤٧٩ هـ = ١٠٨٦ م) ، حيث دارت معركة « أبلى فيها أرتق بـلاء حسناً وحرض العرب على القتال »[٣] ، فانهزم أصحاب سليمان وقاتل هو حتى قتل ، ومن ثم تقدم تتش إلى حلب وطلب من ابن الحتيتي تسليمها له فأجابه هذا بأنه سيكاتب السلطان ملكشاه ويتلقى أوامره في هذا الشأن فما كان من تتش إلا أن هاجم حلب وضيق على أهلها ، فاستجار ابن الحتيتي بأرتق وطلب الأمان فشفع فيه هذا وآمنه[٤] ثم ما لبث أن أرسله بماله وأهله الى القدس حيث أقام هناك[٥] .

استمرت قلعة حلب على المقاومة بقيادة سالم بن مالك بن بدران العقيلي ، واستمر تتش محاصراً لها سبعة عشر يوماً ، ثم ما لبث أن رجع عنهـا ، حين

---

(١) ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢/٨) .

(٢) زكي النقاش ، العلاقـات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية ص ١٦ – ١٧ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ١٠/٥٤ .

(٤) المصدر السـابق ، نفس الصفحة ، الغزي ، نهر الذهب في تأريخ حلب ٣/٧٦ .

(٥) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٩٩ .

بلغه خبر وصول أخيه ملكشاه [١] . وقـــد أشار عليه أرتق بمهاجمة قوات السلطان وهون الأمر عليه بأن التعب قـــد أنهكهم وأن الظفر بهم يسير ، إلا أن تتش لم يشأ مجابهة أخيه ملكشاه خوفاً من عواقب الأمور ، وقفل عائداً إلى دمشق [٢] . وما لبث السلطان أن وصل إلى حلب واستولى عليها بعد قتال قصير [٣]

ويظهر أن أرتق حاول بعد ذلك بقليل التقرب من السلطـــان ملكشاه وكسب رضاه، إذ أنه سافر إلى بغداد في المحرم من عام (٤٨٠ هـ = ١٠٨٧ م)، واشترك مع شحنة السلاجقة هناك وعدد من الأمراء في المسير ، بين يدي جهاز ابنه ملكشاه إلى الخليفة العباسي (المقتدي)[٤] .

ومنذ عام (٤٨٠ هـ = ١٠٨٧) وحتى وفاة أرتق عام (٤٨٤ هـ = ١٠٩١)، لم يرد أي خبر عنه . والمرجح أنه استقر خلال سنواته الأخيرة في إقطاعـه في القدس ؛ وابتعد عن التدخل في المنازعـــات والحروب التوسعية . ومع ذلك فيظهر أن علاقته بسلطانه تتش ، خلال هذه الفترة ، كانت طيبة ، إذ لم يرد ما يشير الى خلاف ذلك .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠/٥٤ – ٥٥ ، الباهر ص ٧ – ٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٩٦ – ٩٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ١/١٦ – ١٧ ، أبو الفداء ، المختصر ٢/٢٠٦– ٢٠٧ ، ابن خلدون ، العبر ٥/١٥ – ١٦ ، ٤٦١ – ٤٦٣ ، ابن الشحنة ، المنتخب ص ٢١١ – ٢١٢ ، القرماني ، تأريخ ص ٢٧٨ ، العيني ، عقد الجمان (مخطوطة ٤٥/٣٨٩ – ٣٩٠) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٠/٥٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ١/١٨ .

(٣) ابن الأثير ، الباهر ص ٨ .

(٤) ابن خلدون ، العبر ٥/١٨ – ١٩ .

وفاة أرتق ودور أبنائه في الصراع بين سلاجقة الشام :

وفي عام (٤٨٤ هـ = ١٠٩١ م) ، توفي أرتق في القدس[١] مخلفاً إياهـا لولديه سقمان[٢] وإيلغازي[٣] ، بعد أن قدم للسلاجقة خدمات عسكرية كبيرة في جهات عديدة خلال حركتهم التوسعية في عهد السلطان ملكشاه (٤٦٥ – ٤٨٥ هـ = ١٠٧٢ – ١٠٩٢ م) . فقـد حارب في الأناضول ، كما استطاع أن يضيف إلى دولة السلاجقة حلوان وما جاورها شرقي العراق ، والبحرين ومـا يحيطها ، وأن يشارك في حملة السلاجقة الثانيـــة على بلاد الشام وديار بكر ، وأن يلعب دوراً مهمـــاً في فتح الموصل . ومن ثم نقل خدماته إلى الشام تحت ولاية السلطان تاج الدولة تتش الذي أقطعه القدس ، لما لها من أهمية لوقوعهـا على الخطوط الأمامية في الصراع بين السلاجقة والفاطميين .

ومن الممكن اعتبار أرتق واضع الكيان السياسي للأراتقة ، فعلى الرغم من أن القدس لم تبق بأيدي أبنائه مدة طويلة بعد وفاته ، وأنهم أسسوا إماراتهم

---

(١) يشير كلود كاهن في Enc. Isl. art: Artukids, New ed. إلا أن تأريخ وفاة أرتق بقي مجهولاً ، في الوقت الذي تذكر فيه المصادر بوضوح أنه توفي عام ٤٨٤ هـ . وانظر سامي ، قاموس الأعلام التركي ، ٨٢٢/٢ – ٨٢٣ ، أما القرماني فيذكر أنه توفي عام ٤٨٣ هـ (= ١٠٩٠ م)(تأريخ ص ٢٧٨) ، وكذلك يشير ابن خلدون ، العبر ٤٦٣/٥ .

(٢) يرد اسم سقمان في مختلف المصادر ، وأحياناً في المصدر الواحد ، تارة بالكاف وأخرى بالقاف ، إلا أنه يرسم في الغالب بالحرف الأخير . انظر العيني ، عقد الجمان ، حوادث سنة ٤٠٥ د من المخطوطة .

(٣) أبو الفدا ، المختصر ٢١٢/٢ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر في تأريخ البشر ٥/٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ١٣٨/١٢ ، ابن خلدون ، العبر ٤٦٣/٥ ، ابن الشحنة ، روضة المناظر ١٨١/٨ ، ابن الفـــرات ، تأريخ ، (مخطوطة ٨/٢) ، ابن تغري بردي ، المنهـــل الصافي (مخطوطة ٤٩٦/٢) ، T. Rice: the seljuks, p. 54.

ـ بعد ذلك ـ في ديار بكر بعيداً عن موطنهم الأول ، إلا أن القدس ، تعتبر ولا شك مركز تجمع الأراتقــة وحجر الزاوية لنشاطهم السياسي والعسكري كأصحاب إمارة لها شخصيتها المستقلة . فبعد وفاة أرتق بقي أبناؤه في القدس طيلة سبع سنوات (٤٨٤ - ٤٩١هـ = ١٠٩١ - ١٠٩٧ م) لعبوا خلالها دوراً أساسيــاً في الصراع الذي شهدته بلاد الشام ، وحصلوا خلال ذلك على بعض المكاسب .

ذلك أن منافسة شديدة حدثت على السلطنة ، إثر وفاة ملكشاه عام ٤٨٥ = ١٠٩٢ م بين تتش وابن أخيه بركياروق ، الذي خلف أباه ملكشاه والذي أيده كل من آق سنقر وبزان ـ وهما من كبار الامراء المعتمدين لدى السلاجقة في الشام ـ ولكن تتش استطاع القضاء عام (٤٨٦ هـ = ١٠٩٣ م) على هذين الأميرين، واسترد منهما ما كان بأيديهما من المدن والقلاع وأقطع إحدى أملاكهما وهي سروج[1] لسقمان بن أرتق . وهذا يشير إلى أن أبنــاء أرتق قد اتبعوا سياسة أبيهم في تأييد تتش ضد السلاطين السلاجقة ، ولهذا كافأهم الأخير بهذا

---

(١) عز الدين بن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، (مخطوطة ورقة ٣٢ آ) . وهناك خطأ يقع فيه ابن الأثير (الكامل ١٠/١٠٥) والذين نقلوا عنــه كابن شداد ، (المصدر السابق ، نفس الورقة) وهو أن الرها أقطعت هي الأخرى لسقمان ، فضلاً عن سروج . ذلك أن الرها كانت حتى عام ٤٨٧ هـ = ١٠٩٤ م ، تحت سيطرة الأمير التركي بوزان ، ثم استولى عليهــا تتش في هذا العام وأقر في حكمها الأمير الأرمني توروس الذي كان بوزان يعتمد عليه في إدارتها انظر

Chalandon, Hitoire de La Premiere croisade, P. 175

Runciman, The crasades, 1/75.

ويذكر ابن الأثير (الكامل ١٠/٩٢) أن رضوان استولى - بعد ذلك - على الرها عـــام ٤٨٨ = ١٠٩٥ م ، من هذا الامير الأرمني الذي سماه (الفارقليط) ، ووهبها لياغسيان أمير أنطاكية ، فتسلمها هذا وحصنها . وربما كان سبب خلط ابن الأثير ومن نقل عنه ، أن كلا من الرها وسروج كانتا تحت إمرة بوزان ، قبل أن يقتله تتش . كما أنه لم ترد في المصادر الموثوقة الأخرى ، إشارة إلى أن الرها أقطعت لسقمان .

الإقطاع . ومما يؤيد ذلك أن تتش خلال زحفه على بلاد فارس لقتال ابن أخيه السلطان بركياروق ، كتب إلى ابنه الملك رضوان في حلب يأمره بالمسير إلى العراق فيمن بقي من الاجناد في الشام ، وأن يقيم في دار المملكة في بغداد للتمهيد له فيها . فاتجه رضوان إلى بغداد وسار معه بعض الامراء وعلى رأسهم الامير إيلغازي بن أرتق[1]. وكان هذا قد توجه قبيل ذلك لمعاضدة تتش فتركه عند ابنه رضوان في حلب[2] للاعتماد عليه عند الحاجة .

وقبل أن يصل رضوان وإيلغازي بغداد ، أتاهما الخبر بانكسار تتش في حربه مع بركياروق ومقتله (٤٨٨ هـ = ١٠٩٥ م) ، فاضطرب رضوان وخاف من ملاحقة أنصار بركياروق له ، فأسرع عائداً إلى حلب ودخلها بعد صعوبة بالغة[3] ، وخطب فيها لبركياروق . وقد أشار عليه ياغيسيان بن محمد التركاني صاحب أنطاكية ، بالتوجه إلى حصون ديار بكر لعدم وجود من يدافع عنها ، فاستجاب رضوان لرأيه وتقدم صوب المنطقة يصحبه عدد من أمراء الاطراف ممن كان تتش قد استعملهم عليها. ويظهر أن إيلغازي كان قد انسحب من قوات رضوان ، بدليل أن الهدف الاول لزحف الاخير على ديار بكر كانت سروج ، التي كان تتش قد أقطعها سقمان . فلما سمع هذا بذلك سبقهم إليها وقوى دفاعها ، واستبسل في صدّ قوات رضوان عنها حين بلوغهم إياها ،

---

(١) ابن القلانسي، ذيل تأريخ دمشق ص ١٢٧، ابن الأثير ، الكامل ٩١/١٠ ، أبو الفدا ، المختصر ٢١٦/٢ – ٢١٧ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ٧/٢ ، ابن خلدون ، العبر ٣١٢/٥ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان (مخطوطة ٢٢/٣/١ آ).

(٢) ابن الاثير ، الكامل ٩١/١٠ .

(٣) ابن القلانسي ، دمشق ص ١٣٠ ، ابن الأثير ، الكامل ٩١/١٠ – ٩٢ ، أبو الفدا المختصر ٢١٦/٢ – ٢١٧ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ٧/٢ ، ابن خلدون ، العبر ٣١٢/٥– ٣١٤ .

واتبع خطة سلمية حكيمة ، إذ أمر أهل البلد بالخروج إلى رضوان والتظلم إليه من جنده وإفسادهم في غلاتهم وأن يلتمسوا منه الرحيل ، فأجابهم رضوان إلى ذلك وغادر سروج[1] .

وأغلب الظن أن سبب استجابة رضوان لهـــذا الطلب يعود إلى موقف الأراتقة المساند له ولأبيه من قبل ، وإلى محاولته كسب الزمن والاستيلاء على ما يمكنه من مدن ديار بكر وقلاعهـا ، قبل أن يبرز أمامه منافس جديد في المنطقـة . وقد استطاع رضوان أن يضم إلى أملاكه مدينة الرهـــا ثم حاول الاستيـلاء على حران[2] ، لولا حدوث انشقاق بين أمرائه اضطـره للعودة إلى حلب[3] .

ما لبث سقمان وإيلغازي أن وجدا نفسيهما مدفوعين ، دفعـاً إلى الاسهام في أحداث الصراع الذي نشب بين رضوان ودقاق أبناء تتش السلجوقي[4] ، ذلك الصراع الذي بدأ في أواخر عام (٤٨٨ هـ = ١٠٩٥ م) ، إثر المحاولة التي قام بها رضوان للاستيلاء على دمشق ، التي كان شديد الرغبة في ضمها إلى إمارته ، ربما لأنه أدرك أهمية موقعها الاستراتيجي بالنسبة للشام . فجمع قواته واستنجد

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ٩١/١٠ – ٩٢ ، أبو الفدا ، المختصر ٢١٦/٢ – ٢١٧ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ٧/٢ ، ابن خلدون ، العبر ٣١٢/٥ – ٣١٤ .

(٢) حران : قصبة ديار مضر على طريق الموصل والشام والروم (ياقوت البلدان ٢٣٠/٢ – ٢٣١) .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ٩١/١٠ – ٩٢ ، ابن خلدون ، العبر ٣١٢/٥ – ٣١٤ .

(٤) يشير كاهن في Enc. Isl. art: Artukids, New ed. إلى أن كلاً من سقمان وإيلغازي اشتركا ، بعد وفاة تتش ، في مساندة رضوان ضد أخيه دقاق . وهذا كما سيتضح مخالف لما أجمع عليه المؤرخون كما يخطىء رنسمان في A history of the Crusades 11/11 في القول بأن الأراتقة ساندوا دقاق في صراعه ضد أخيه رضوان .

بالأمير سقمان ليسير معه إلى دمشق منتهزاً فرصة غياب دقاق وقواته وكبار امرائه مثل إيلغازي وياغسيان عنها[١]. ومن أجل أن يعزز رضوان تحالفه مع سقمان ، أقطعه معرة النعمان[٢] وأعمالها ، ومن ثم توجها صوب دمشق[٣] .

نزل رضوان وحليفه في ظاهر البلد (٤٨٩ هـ = ١٠٩٥) ، وزحفا من هناك للقتال ، فأغلق أهالي دمشق الأبواب وصدوهما[٤] . وسرعان ما بلغهما أن دقاقاً قبض على إيلغازي واعتقله لتهمة نسبت إليه[٥] ، وأنه عائد إلى دمشق على رأس قواته . فغادر رضوان المنطقة بعد أن قام بأعمال تخريبية في جهات حوران[٦] أما سقمان فقد انفصل عنه واتجه إلى القدس واستقر هناك[٧] .

---

(١) ابن القلانسي ، دمشق ص ١٣١ - ١٣٢ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، (مخطوطة ٢٢٢/٣/١ آب) .

(٢) معرة النعمان : مدينة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة (ياقوت البلدان ٥٧٥/٤) .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٢٣/٢ - ١٢٤ ، بغية الطلب في تأريخ حلب (مخطوطة ٨٨/٨ ظ) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان (مخطوطة ٢٢٢/٣/١ آب) .

(٤) ابن القلانسي ، دمشق ص ١٣١ - ١٣٢ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان مخطوطة ٢٢٢/٣/١ آب) .

(٥) ابن العديم ، زبدة حلب ١٢٤/٢ ، بغية الطلب (مخطوطة ٨٨/٨ ظ) . ولم يوضح ابن العديم طبيعة هذه التهمة ، وربما كانت بسبب قيام إيلغازي كعادته في إثارة المشاغبات والانقسامات في صفوف قوات دقاق .

(٦) ابن القلانسي ، دمشق ص ١٣٢ ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان (مخطوطة ٢٢٢/٣/١ آب). وحوران: كورة واسعة من أعمال دمشق ذات قرى ومزارع كثيرة (ياقوت، بلدان ٣٥٨/٢) .

(٧) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٢٤/٢ ، بغية الطلب (مخطوطة ٨٨/٨ ظ) .

لم يتمكن رضوان من العودة مباشرة الى حلب[1] ، خوفاً من أن يتصدى له دقاق وحلفاؤه في الطريق فرحـل إلى نابلس على نية التوجه إلى القدس[2] ليحتمي بحليفه سقمان . ولكن تخلي العساكر عنه[3] ، وملاحقة دقاق وأنصاره له[4] وإشراف جيشه على التلف ، اضطره للعودة إلى حلب رغم ما في ذلك من مغامرة ، فوصلها في آخر ذي الحجة عام (٤٨٩ هـ = ١٠٩٦ م)[5] .

غادر سقمان القدس، بعد فترة قصيرة، عائداً إلى حلب عن طريق الصحراء خوفاً من مجابهة قوات دقاق ، فوصلها في المحرم سنة (٤٩٠ هـ = ١٠٩٦ م) واجتمع بجناح الدولة ، مدير شؤون حلب ، واتفقا على مهاجمة بلاد ياغيسيان صاحب أنطاكية وحليفه دقاق[6] . وكان ياغيسيان قد حسن للأخير محاصرة أخيه في حلب كردّ على مهاجمته لدمشق ، فأخذ دقاق يجمع قواته للتوجه إلى هناك مما اضطر رضوان إلى الاستنجاد بسقمان ، الذي سرعان ما قدم على رأس

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٢٥ .

(٢) يذكر ابن الاثير في (الكامل ١٠/١٠٠) أن قصد رضوان من التوجه الى القدس هو الاستيلاء عليها . وهذا الرأي خاطىء لأن القدس كانت آنذاك تابعة لحليفه سقمان ، فضلاً عن أن رضوان كان في حالة هروب من أعدائه اضطره إلى التوجه إلى منطقة حليفه للاحتماء بها لا لمهاجمتها . كما أن المؤرخين الأكثر وثوقاً في أحداث الشام كابن القلانسي (دمشق ص ١٣٢) ، وابن العديم (زبدة الحلب ٢/١٢٥) يخالفان ابن الأثير في وجهة نظره ولا يذهبان إلى ما ذهب إليه .

(٣) ابن الأثير الكامل ١٠/١٠٠ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٢٥ .

(٥) المصدر السابق ، نفس الصفحة ابن القلانسي ، دمشق ص ١٣٢ ، ابن الأثير الكامل ١٠/١٠٠ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٣١٥ — ٣١٦ .

(٦) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٢٥ .

عدد كبير من التركمان[1] .

خرج دقاق من دمشق والتقى بحليفه ياغيسيان عند حماة في ربيع الأول عام ٤٩٠ هـ (= ١٠٩٧ م) وما أن توجها صوب المعرة حتى هرب منها أتباع سقمان ، فتقدم إليها ياغيسيان واستولى عليها . ومن ثم توجه ودقاق صوب حلب وأغارا على أعمالها . ويظهر أن رضوان لم يكفه ما لديه ولدى حلفائه — وبخاصة سقمان — من حشود كبيرة من التركمان ، ولذا استنجد بسليمان بن إيلغازي الذي كان مقيماً آنذاك في إقطاعه بسميساط [2] ، فوصل إلى حلب على رأس جيش كبير . ومن ثم توجه رضوان وحلفاؤه للقاء دقاق ، فنزلوا في قنسرين[3] ، وتم الاتفاق بين الطرفين على الاجتماع على نهر قويق ، وإجراء محادثات هناك للوصول إلى حل سلمي يجنبهم القتال . إلا أن المفاوضات لم تسفر عن نتيجة . وقال ياغيسيان لسقمان « هؤلاء الملوك يقتتلون على ملكهم .. أنت دخولك معهم لأي صفة ؟ » فأجاب سقمان : « غداً تبصر إيش أنا »[4]!! وكان اللقاء في صبيحة اليوم التالي ، الخامس من ربيع الآخر ، حيث أبلى سقمان بلاء حسناً واستمرت المعركة إلى آخر النهار . وأسفرت عن هزيمة قوات أنطاكية ودمشق وهروب قادتها[5] وعودة رضوان وحلفائه إلى حلب . ولم

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠/١٠٠ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٣١٥ — ٣١٦ .

(٢) سميساط : مدينة على شاطىء الفرات الغربي في طرف بلاد الروم ولها قلعة يسكنها الأرمن (ياقوت ، بلدان ٣/١٥١ — ١٥٢) .

(٣) قنسرين : مدينة قريبة من حلب على الطريق الى حمص (ياقوت ، بلدان ٤/١٨٥) .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٢٥ — ١٢٦ .

(٥) المصدر السابق ، نفس الصفحة ، ابن الأثير ، الكامل ١٠/١٠٠ (اكتفى بالإشارة) ، النويري ، نهاية الإرب ، (مخطوطة جزء ٢٥ ورقة ٢٤) .

يمض طويل وقت حتى تم عقد اتفاق بين الأخوين، ينص على أن يخطب لرضوان بدمشق وأنطاكية قبل دقاق(1) .



بعد الدور المهم الذي لعبـــه سقمان في معركة القويق ، أصبحت له كلمة نافذة في سياسة رضوان ، حتى فيما يتعلق بالأمور المهمـة كالخطبة . إذ ورد إلى رضوان عام (٤٩٠ ﻫ = ١٠٩٦ م) كتاب من المستعلي الفاطمي ، يلتمس فيه الدخول في طاعته ، فأجابه رضوان إلى ذلك وأقـام الخطبة له ، على أمـــل التحالف مع الجيش الفاطمي ومهاجمة دمشق وانتزاعها من دقـــاق(2) . وقد استمرت خطبة رضوان للفاطميين أربعة أسابيـع(3) وعند ذلك حضر لديه عدد من الأمراء على رأسهم سقمان وأنكروا عليه ذلك واستعظموه ، فاستجاب لهم وأعاد الخطبة للخليفة العباسي(4) ، وأرسل إلى بغداد يعتذر عما صدر منه(5) وبهذا لم يعد الفاطميون ملزمين بتنفيذ التعهدات المالية والعسكرية لرضوان .

ظل سقمان سنداً قوياً لرضوان ، وحليفاً من أبرز حلفائه ، وقد سار معه

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠/١٠٠ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٣١٥ — ٣١٦ .

(٢) ابن القلانسي ، دمشق ص ١٣٣ ، الطباخ ، تأريخ حلب ١/٣٧٨، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ، (مخطوطة ١/٣/٢٢٧ آ) ، النويري ، نهاية الإرب ، (مخطوطة ٢٥/٢٤) . ابن ميسر ، أخبار مصر ص ٣٨ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ١٠/١٠٠ ، النويري نهاية الإرب ، (مخطوطة ٢٥/٢٤) .

(٤) ابن القلانسي ، دمشق ص ١٣٣ ، ابن الاثـير ، الكامل ١٠/١٠٠ ، ابن ميسر ، أخبار مصر ص ٣٨ ، الطباخ ، تأريخ حلب ١/٣٧٨ ، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ، (مخطوطة ١/٣/٢٢٧) . النويري، نهاية الإرب ، (مخطوطة ٢٥/٢٤)، Gibb, Damascus chronicle, P. 25.

(٥) ابن الأثير ، الكامل ١٠/١٠٠ .

عندما توجه إلى حمص لقتال جناح الدولة الذي انشقّ عن رضوان وخالفه . إلا أنهم ما أن اقتربوا منها حتى وردت الأخبار بتقدم قوة من الصليبيين إلى أنطاكية ، فطلب ياغيسيان الذي كان قد تحالف مع رضوان أخيراً ، أن يتجهوا إلى هناك للقاء الصليبيين ، لكن سقمان عارضه في ذلك وقال : مسيرنا إلى ديار بكر وأخذها من المتغلبين عليها ، ونتقوى بها وأنزل اهلي بها ونعود إلى حمص ، أولى[1] فاختلفوا وعاد رضوان إلى حلب مغاضباً لهما (٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م) ، وكان ذلك سبباً في انشقاق سقمان عن الأخير وانضمامه إلى دقاق[2] .

وهكذا أعرب سقمان لحلفائه عن رغبته الملحة في الاستيلاء على ديار بكر ، واتخاذها قاعدة عسكرية له في حروبه ضد أعدائه من جهة ، ومكاناً اميناً لاستقرار بني أرتق من جهة أخرى . وتمثل هذه الرغبة البادرة الأولى في سياسة بني أرتق تجاه ديار بكر ، من حيث اتخاذها قاعدة لهم ومركزاً لعملياتهم الحربية في المستقبل ، الأمر الذي تحقق لهم في مدة وجيزة . وربما أدرك سقمان ، وهو كبير العائلة ، عدم جدوى الاعتماد على القدس كمقر ثابت ، نظراً لوقوعها قريباً من أطماع الفاطميين ، وقد تبين ذلك بوضوح بعد أشهر قلائل .

وبعد موقعة أنطاكية ضد الصليبيين عام (٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م) واندحار الأمراء المسلمين[3]،عاد سقمان إلى القدس ولحق بأخيه إيلغازي هناك، ويظهر أن

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٢٩/٢ - ١٣٣ .
(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحات ، الطباخ ، تأريخ حلب ٣٧٧/١ .
(٣) انظر الفصل الثالث .

هذا كان قد أطلق سراحه من قبل دقاق الذي كان قد اعتقله في العام الماضي ، وأنه توجه إلى القدس إثر ذلك .

سقوط القدس :

لم تبق القدس بيد بني أرتق ، بعد ذلك ، سوى أشهر معدودات ، إذ كان الفاطميون في مصر يطمعون لإعادة الاستيلاء عليها باعتبارها قاعدة فلسطين ونقطة ارتكاز لمحاولة استرداد ما افقدهم السلاجقة إياه . وسرعان ما استغلوا فرصة ضعف الأتراك وتخاذل أمرائهم ، إثر اندحارهم أمام الصليبيين عند انطاكية ومقتل عدد كبير منهم فسار أمير الجيوش المصرية ، الأفضل بن بدر الجمالي في شعبان (٤٩١ هـ = ١٠٩٨ م)، على رأس قواته إلى القدس . وأدرك الأراتقة أنه ليس بإمكان حليفهم دقاق تقديم المساعدة الفورية لهم ، ولكنهم اعتقدوا بأن تحصينات القدس المظيمة ، والمقدرة الحربية لقبائلهم التركمانية ، ستمكنهم من الصمود حتى تأتيهم النجدة من دقاق[١] ، أو أي من أمراء الشام السلاجقة أو الأتراك .

كان في القدس آنذاك معظم أمراء بني أرتق : سقمان وإيلغازي وابن عمهما سونج وابن أخيهما ياقوتي[٢] ، وجماعة من أقاربهما ورجالهما وخلق كثير من الأتراك . وحاول الأفضل ، في البداية ، أن يتبع الأساليب السلمية لتحقيق غرضه فراسل كلاً من سقمان وإيلغازي يلتمس منهما تسليم القدس من غير

---

(١) Runciman, Crusades, 1/265—267.

(٢) ابن الأثير، الكامل ١٠/١٠٥ ، ابن العبري مختصر أخبار البشر ص٣٤٢ ، أبو الفداء، المختصر ٢/٢٢١ ، ابن الوردي، تتمة المختصر ٢/١١ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٤٣ — ٤٤ ، ٣٨٨ .

حرب ولا سفك دماء ، فلم يجيباه[1] . وعند ذلك بدأ بقتال البلد ونصب عليه عدداً كبيراً من المنجنيقـــات تمكنت من هدم مواضع من سوره[2] ، واستمر الحصار نيفا وأربعين يوماً[3] ويظهر أن التركان قرروا الاستمرار في القتال ، لولا أن أهــل القدس لم يكونوا يجانبهم ، إذ أرسلوا إلى الأفضل وواطئوه على فتح الباب وطلبوا منه الأمان ، فاستجاب لهم[4] ومن ثم دخل وقواته القدس بالأمــــان حيث أحسن إلى سقمان وإيلغازي وأصحابهما وأجـزل لهم العطاء وأطلقهم، فـساروا إلى دمشق في العاشر من شوال سنة (٤٩١هـ = ١٠٩٨م)[5]،

---

(١) ابن القلانـسي ، دمشق ص ١٣٥ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة ، ابن الأثير ، الكامل ١٠٥/١٠ ، Runciman, Op. cit., 1/267 .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ١٠٥/١٠ ، Rumciman, Op. cit., 1/267 .

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ١٥٩/٥ .

(٥) ابن القلانسي ، دمشق ص ١٣٥ ، ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ١٠٥ ، ابن العبري ، المختصر ص ٣٤٢ أبو الفدا ، المختصر ٢٢١/٢ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ١١/٢، ابن خلكان (وفيات ٦١/١) ، الذهبي ، دول الإسلام ١٥/٢ ، ابن خلدون، العبر ٤٣/٥ – ٣٨٨،٤٤، ٤٦٣ – ٤٦٤ ، ابن ميسر ، أخبـــار مصر ص ٣٨ ، القرماني ، تأريخ ص ٢٧٨ ، ابن الشحنة، روضة ١٨١/٨، سبط ابن الجوزي مرآة الزمان، (مخطوطة ٢٢٧/٣/١ آ) ، النويري ، نهاية الإرب ، (مخطوطة ٧٣/٢٦) . ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (مخطوطة ٤٩٦/٢)، العيني ، عقد الجمان (مخطوطة ٥٠٥/٤٦ – ٥٠٦) ، Inc, Isl. art : Sukman

Ibn ortok, by Zett ersteen, setton, A History of the crusades 1/31, Gibb, the caliphate, in setton 1/95, Grousset, Histoires des croisades 1/83—85.

بركلمان ، تأريخ الشعوب الإسلامية ١٠٧/٢ (ترجمة البعلبكي وفارس) ، حسن حبشي. الحرب الصليبية الأولى ص ٣٨. ويخطىء ابن الأثير والذين نقلوا عنه، في إيراد هذه الحادثة عام ٤٨٩هـ، ذلك أنها حدثت بعد معركة أنطاكية عام ٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م. وابن الأثير نفسه يشير الى أن الفاطميين طمعوا في القدس بعد اندحار الأتراك على انطاكية، وكذلك يخطىء ابن العبري في جعل الحادثة عام ٤٩٢ هـ . ويذكر ابن تغري بردي ، (النجوم الزاهرة ١٥٩/٥) أن سقمان وإيلغازي خرجا بعد استـلام القدس ، من باب آخر واتجه كل منهما الى جهة . وهذا يخالف ما أجمع عليـه المؤرخون من لقاء الأفضل لهما وإحسانه إليهما .

ثم ما لبثوا أن غادروها واتجهوا شرقاً ، فسار إيلغازي إلى بغداد[1] وأقام سقمان بصحبة أبناء عمومته في سروج والمقاطعات المحيطة بديار بكر[2] ، حيث يشكل التركمان القوة التي انبثقت عنها العائلة الأرتقية[3] .

إيلغازي في بغداد :

غادر إيلغازي دمشق إلى بغداد ، ويظهر أنه كأمير مغامر ، فقد سائر إقطاعه ، كان يطمح في ذهابه إلى هناك للحصول على بعض المكاسب لقاء خدمته لسلاطين السلاجقة وكبار أمرائهم ، ومساندته بعضهم ضد البعض الآخر . وما أن وصل بغداد حتى كان الصراع بين السلطانين السلجوقيين المتنافسين : محمد وبركياروق ، ابني ملكشاه ، قد بلغ حداً بعيداً ، وظل يتسع ويزداد تعقيداً حتى صفر عام (٤٩٣ هـ = ١٠٩٩م) حينما تمكن بركياروق من دخول بغداد وإعادة الخطبة له في أنحاء العراق . وهنا كان على إيلغازي أن يحدد موقفه إزاء هذا الصراع ، سيما بعد أن كان السلطان محمد قد أعاد إليه عام ٤٩٢ هـ إقطاع أبيه السابق في حلوان شرقي العراق ، فرأى أن يقف إلى جانب السلطان الذي أنعم عليه ، وأعلن انضمامه إلى كوهرايين شحنة[4] محمد

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠/١٠٥ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان، (مخطوطة ١/٣/٢٢٧ آ) ، ابن تغري بردي، المنهل الصافي ، (مخطوطة ٢/٤٩٦) .

(٢) Runciman, Op. cit. 1/267.

(٣) Inc. Isl art: Artukids, by c. cahen (New ed.)

(٤) الشحنة : وظيفة استحدثها السلاجقة وهي أشبه ما تكون بالحكمدار (أو المحافظ) في عصرنا الحاضر ، يعين صاحبها من قبل السلطان مباشرة ، ويتمتع بسلطات بوليسية وإدارية ، وهو المسؤول عن إدارة البلد وملاحظة الخارجين على النظام (حسين أمين : نظام الحكم في العصر السلجوقي ، مجلة سومر ، مجلد ٢٠ ، سنة ١٩٦٤) .

في العراق ، وما لبث أن انضم إلى هذا التحالف عدد من كبار أمراء الدولة السلجوقية ، وأرسلوا إلى محمد يستحثونه على التوجه صوب بغداد ، لكي يعملوا سوية على استعادة سلطنته على العراق ، فأسرع هذا بتعزيزهم بعدد من ولاته في شمال العراق ، وعلى رأسهم كربوقا حاكم الموصل . إلا أن تأخر محمد عن التقدم إلى بغداد ، وتسويفه في الاستجابة لنداء أنصاره دفع هؤلاء إلى أن يقلبوا له ظهر المجن وأن يعلنوا طاعتهم للسلطان بركياروق ، وتم الاتفاق بين كوهراين وإيلغازي وبقية الأمراء على أن يصدروا في مواقفهم وانتماءاتهم السياسية عن رأي واحد وألا يختلفوا ، وكتبوا إلى بركياروق أن يخرج إليهم ، فليس ثمة من يقاتله منهم بعد إذ لم يظفروا من أخيه بطائل . وكان بركياروق ينتظر فرصة كهذه فأسرع بالتوجه إليهم حيث ترجلوا أمامه ، وقبلوا الارض بين يديه ، وعادوا سوية إلى مقر السلطنة في بغداد[1] . وقد تمكن إيلغازي ، بعد وقت قصير ، من إنقاذ وزير بركياروق من محاولة لاغتياله قام بها أحد أنصار السلطان محمد[2] .

استمر الصراع بين الأخوين ، ولم يمض سوى وقت قصير على استتباب الامر في العراق لبركياروق ، حتى بدأت الكفة ترجح لصالح أخيه ، وكأن إيلغازي كان ينتظر أن تأخذ الاحداث هذا الاتجاه ، بعد إذ لم يحصل من بركياروق على أي مكسب نتيجة انتمائه إليه وطاعته له، ولذلك فإنه سرعان ما عاد ثانية إلى تأييد السلطان محمد ، وخرج من إقطاعه في حلوان في ذي الحجة من عام (٤٩٤هـ= ١١٠١م) ، على رأس قواته لاستقبال السلطان وعمه سنجر لدى مرورهما في المنطقة في طريقهما إلى بغداد ، حيث أحسن خدمتهما

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ١٠/١٠٩ ، الفارقي ، تاريخ ميافارقين (مخطوطة ١٥١ أ ب).
(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٠/١١١ .

وأكد لهما طاعته. وفي بغداد جرت مناوشات بين الطرفين المتنازعين ، أسفرت عن انسحاب بركياروق إلى واسط ودخول محمد وأنصاره بغداد حيث رحب به الخليفـــة وخطب له فيهـــا بعد أن كان قد عانى الامرين من سوء سيرة بركياروق[1] .

وما لبث الاخوان أن وقعا صلحاً – بحضور عمهمـــا – يقضي أن يكون العراق ضمن سلطنة بركياروق ، وأن يكون لمحمد من البلاد شمـــالي فارس وأذربيجان والموصل والجزيرة ، وأن يمده بركياروق بالعساكر كلمـــا احتاج إليها ، ومن ثم غادر محمد وعمه بغداد في مطلع ربيع الاول من عام (٤٩٥ هـ = ١١٠٢ م) ، بعد أن كان قد عيّن إيلغازي شحنة على العراق[2] .

لم يقم إيلغازي بمهام منصبه الجديد على الوجه المطلوب ، وبدلاً من أن يسعى إلى نشر الامن والاستقرار في مناطق شحنكيته ، واجتثاث أسبـاب الفتنة والفساد في انحائها ، صرنا نجده يبذل جهده لاستغلال هـذه الفتن وذلك الفساد من أجل مصالحه ورغباته الشخصية ، الامـــر الذي زاد من تدهور الاوضاع ، وعرض بغداد والمناطق الوسطى من العـراق إلى سلسلة طويلة من المشاكل والاضطرابات السياسية والعسكرية والاقتصادية والطائفية ، وافتقد الامن ، وغدت المنطقة مجالاً لتجول واستغلال القوى والجماعات القادرة على حمل السلاح واستخدام العنف .

وابرز تلك الفتن تلك التي شهدتها بغداد في رجب من نفس العام ، أي بعد أشهر

---

(١) المصدر السابق ١١٥/١٠ ، ابن خلدون ، العبر ٥٣/٥ – ٥٤ .
(٢) ابن الاثير ، الكامل ١٢٢/١٠ – ١٢٣ ، ويشير ابن خلدون ، (العبر ٥٦/٥ – ٥٧) خطأ الى أن بركياروق عين أبا المعالي شحنة في بغداد .

قلائل من تولي إيلغازي منصب الشحنكية ، والتي نشبت بين قوات إيلغازي وبين أهالي بغداد إثر مقتل أحدهم ، وذهب ضحيتها عدد كبير من القتلى ، حتى إن الرغبة بالانتقام دفعت إيلغازي إلى أن يجمع أنصاره من التركمان ، ويتقدم لنهب الجانب الغربي من بغداد ، لولا توسط الخليفة و كبار الموظفين لديه[1]. كما قام في نفس العام بإلقاء القبض على أحد كبار موظفي بركياروق[2]، الامر الذي دفع هذا إلى إرسال كمشتكين القيصري ، أحد اتباعه ، في مطلع عام (٤٩٦ هـ = ١١٠٢ م) ، ليحل محل إيلغازي في منصب الشحنكية ، فلما سمع هذا بذلك أرسل الى أخيه سقمان بديار بكر يستدعيه وقواته ليعتضد به في مجابهة الشحنة الجديد ، ثم ما لبث أن توجه إلى الحلّة ، جنوبي بغداد ، والتقى بأميرها المزيدي سيف الدولة صدقة حيث عقد معه حلفاً ثنائياً ، غرضه العمل المشترك في مقاومة كل من يسعى إلى دخول بغداد. وقفل إيلغازي عائداً بعد نجاح مهمته[3] .

تقدم سقمان على رأس قواته وعسكر في منطقة الرملة شمالي بغداد ، أما كمشتكين (الشحنة الجديد) فقد وصل قرميسين ، جنوبي بغداد ، في مطلع ربيع الاول (٤٩٦ هـ) وأرسل من هناك إلى أنصار بركياروق يعلمهم بقرب وصوله ، فتوجه إليه جماعة منهم واطلعوه على أوضاع بغداد وأشاروا عليه بضرورة الإسراع ، فأغذّ السير وتمكن من دخول بغداد في منتصف الشهر نفسه ، وكردّ انتقامي على ذلك قام إيلغازي وأخوه سقمان بنهب المناطق الشمالية من بغداد ، فتعقبتهما قوات كمشتكين ثم قفلت عائدة دون حدوث

---

(١) الكامل ١٢٦/١٠ .
(٢) الكامل ١٣١/١٠ .
(٣) الكامل ١٣٢/١٠ - ١٣٣ .

أي اشتباك بين الطرفين . وأرسل كمشتكين إلى أمير الحلة يطلب منه الدخول في طاعة بركياروق ، فرفض هذا طلبه ، وأسرع بالتقدم صوب بغداد على رأس قواته ، تنفيذاً لما نصّ عليه تحالفه مع إيلغازي ، وأرسل إلى هذا وأخيه يعلمهما بتقدمه لنصرتهما ، وما أن تم اجتماع الطرفين حتى قاما بعمليات نهب وتخريب شملت مناطق واسعة من بغداد ، وألقت الرعب في قلوب أنصار بركياروق وشحنته الجديد ، « وبطلت معايش الناس وارتفعت الأسعار إلى ثلاثة أضعافها » ، الأمر الذي دفع الخليفة إلى أن يرسل كبار رجالاته إلى أمير الحلة يأمره بالكف عن عبثه ويطلعه على مدى تذمر الأهالي من انتشار الفتنة والخراب ، فاستجاب هذا لطلب الخليفة شرط أن يتم إبعاد كمشتكين عن بغداد « وإلا فليس غير السيف » !! (١)

وفي الثاني عشر من ربيع الآخر غادر كمشتكين بغداد ، فعاد أمير الحلة إلى بلده ، وأعيدت الخطبة للسلطان محمد ، بعد أن كانت قد اوقفت طيلة أيام الفتنة ، وما لبث إيلغازي وحليفه المزيدي أن قضيا على محاولة قام بها كمشتكين ، لدى انسحابه للسيطرة على واسط ، وأعادا الخطبة فيها للسلطان محمد ، وأناب كل منهما أحد ابنائه فيها ثم قفلا عائدين ، حيث وجه أمير الحلة ابنه الأصغر بصحبة إيلغازي كي يسأل الخليفة الرضا عنه بعد الفتنة التي كان قد أثارها في بغداد ، فأجابه الخليفة إلى سؤاله (٢) .

* * *

بعد جولة أخرى من الصراع على السلطة بين السلطانين بركياروق ومحمد ،

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ١٣٢ - ١٣٤ .
(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحات .

تم عقد صلح بينهما في ربيع الآخـــر عام (٤٩٧ هـ = ١١٠٤ م) ، وكانت بنوده شبيهة بتلك التي تم الاتفاق عليهـا قبل سنتين . وما أن وصلت رسل بركيـاروق إلى الخليفـــة (المستظهر) لتخبره بالصلح وبنوده ، حتى حضر إيلغازي إلى ديوان الخلافة وطالب بضرورة الاسراع باقامة الخطبة لبركياروق، الذي تأكدت سلطنتـه على العراق بموجب الصلح الأخير ، فأجيب إلى ذلـك وأعلنت الخطبة للسلطان المذكور في التاسع عشر من جمادى الأولى ؛ وعندما علم أمير الحلة بذلك أرسل إلى الخليفة يقول « كان أمير المؤمنين ينسب إلى كل ما يتجدد من إيلغازي ، من إخلال بواجب الخدمة وشرط الطاعـــة ، ومن إطراح المراقبة ، والآن فقد أبدى صفحته لسلطاني (محمد) الذي استنـابه ، وأنا غير صابر على ذلك ، بل سأسير لإخراجه عن بغداد » . فلما سمع إيلغازي ذلك شرع في جمع أتباعه من التركمان ، وما أن وصل أمير الحلة بغداد وأعلن طاعته للخليفة ، حتى فارق إيلغـازي بغداد شرقاً ، خوفاً من حدوث صدام بين الطرفين ، وأرسل من هناك يعتذر لأمير الحلة عن طاعته لبركيـاروق ، ويعلمه بأن الصلح قد تم بين هذا وأخيه وأن اقطاعه في حلوان هو ضمن أملاك بركيـــاروق ، هذا فضلاً عن أنه كشحنة في بغداد حتّم عليه اتخـاذ هذا الموقف ، فاقتنع أمير الحلة بوجهـــة نظر حليفه وقفـــل عائـداً إلى مقـر إمارته[1] .

* * *

حدثت ، خلال فترة شحنكية إيلغازي ، فتن ومشاكل داخلية عديدة ، دون أن يتخذ إزاءها أي إجـراء صارم . وأبرزها ذلك الحريق الذي شهدته

(١) المصدر السابق ١٠/١٣٨ - ١٣٩ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٦٨ - ٦٩ .

بغداد عام (٤٩٥ هـ = ١١٠١ م) ، والذي أتى على أسواق عديدة وأتلف أموالاً عظيمة[١] والغلاء الذي عم بغداد من جراء الاضطرابات التي شهدتها في العام التالي[٢] ، وأعمال السلب والنهب التي قام بها أهالي العاصمة للمزارع والبيوت، ، بحيث اضطر عدد من السكان إلى الانتقال من الجانب الغربي إلى الجانب الآخر ، والالتجاء إلى دار الخلافة[٣] ، والفتنة التي اثارها ينال بن أنوشتكين ، أحد أمراء التركمان (٤٩٦ هـ = ١١٠٢ م) ، حيث أفسد القرى وفرض عليها أتاوات إجبارية ، واحتجز سفناً تابعة للخليفة وفرض عليها الضرائب ، وهدم عدداً من الأسواق التي كان السلاجقة قد عمروها وأنفقوا عليها الأموال الجمة[٤] .

وفي العام التالي اضطرت الشرطة إلى الانسحاب من الجانب الغربي لبغداد ، بسبب استيلاء العيارين عليه ، ولم يتمكن الشحنة من إيقاف هؤلاء عند حدهم ، فكانوا يدهمون الضعفاء فيسلبونهم ويحرقون بيوتهم . ولم يكتف إيلغازي الشحنة باتخاذ موقف سلبي تجاه هذه الفتنة ، بل قرر استغلال ما أحدثته من اضطرابات في القيام بنهب الناس والحصول على الثروة ، ولما علم اغنياء بغداد بما يبيته إيلغازي ، تقدموا بشكوى إلى ديوان الخليفة وتم الاتفاق على تقسيط مبلغ من المال على الأهالي بدفع للشحنة « فأهلك ذلك الضعفاء وقصدوا الأماكن يستجبون الناس[٥] » .

---

(١) المصدر السابق ٩/١٣١ - ١٣٢ .

(٢) المصدر السابق ٩/١٣٤ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٤) المصدر السابق ٩/١٣٥ .

(٥) المصدر السابق ٩/١٣٧ - ١٣٨ ، ابن الاثير ، الكامل ١٠/١٤١ .

وهكذا نجد أن إيلغازي لم يقم بتنفيذ الالتزامات التي ألقتها على عاتقه وظيفته كشحنة ، وراح يشارك في إثارة الفتن ونشر الظلم حتى أن الناس « تأذوا به » كما ذكر ابن الجوزي[1] .

ويظهر أن إيلغازي غيّر سياسته السلبية هذه منذ أن أعلن ولاءه للسلطان بركياروق ، الذي غدا العراق ضمن سلطنته ، وبهذا عادت وظيفة إيلغازي إلى وضعها الطبيعي . ففي عام (٤٩٨ هـ = ١١٠٤ م) ، عظم فساد التركمان في جهات العراق الشرقية ، وكانوا قد اعتادوا نهب الأموال وقطع الطريق . وما أن دخلت السنة المذكورة حتى جاوزوا في أعمالهم كل حد ، فقام إيلغازي بإجراء صارم لإيقافهم عند حدهم ، إذ عين ابن أخيه القوي (بلك بن بهرام) على تلك المنطقة وأمره « بحفظها وحياطتها ومنع الفساد عنها » ، فأدى بلك واجبه على أحسن ما يكون وحمى المنطقة وكف عنها الأيدي المتطاولة[2] .



بذل إيلغازي جهده في مساندة سلطانه بركياروق ، وتوجه في مطلع عام (٤٩٨ هـ = ١١٠٤ م) الى أصفهان ، لمقابلته وحثه على التوجه الى بغداد ، ربما لأنه شعر بأن هنالك من يدبر شيئاً ضده ، واستجاب السلطان له وتوجه بصحبته إلى هناك ، ولكنه ما لبث أن توفي في الطريق ، فظل إيلغازي بعد ذلك مخلصاً لولده ملكشاه ، حيث سار معه حتى قدموا بغداد ، على رأس خمسة آلاف فارس ، وخرج لاستقبالهم الوزير أبو القاسم بن جهير ، وما لبث إيلغازي أن توجه إلى ديوان الخلافة وطلب إقامة الخطبة لملكشاه بن بركياروق ،

---

(١) المنتظم ٩/١٣٧ - ١٣٨ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٠/١٤٨ .

فأجيب الى ذلك وخطب للأمير السلجوقي المذكور[1] .

ولكن السلطان محمد سرعان ما تقدم على رأس قواته الى بغداد ، وبعد مقاومة غير مجدية من أمرائها تم عقد الصلح وخطب له بموجبه هناك[2] ، ثم ما لبث أن غادر بغداد بعد أن عزل إيلغازي عن شحنكيتها وعيّن بدله آق سنقر البرسقي[3] ، فترك إيلغازي العراق متوجهاً صوب ديار بكر . وبهذا أنهى مرحلة مهمة من حياته السياسية والعسكرية ، أوضحت الى حد كبير طبيعة التكوين النفسي لكثير من أمراء ذلك العهد ، الذين كانوا يخوضون الفتن ويقودون المغامرات بالحق والباطل، للحصول على مكسب سياسي وعسكري، أو لتوسيع أملاكهم وإقطاعاتهم . وعلى أية حال فمن الإنصاف لإيلغازي القول بأنه بقي مخلصاً منذ بداية عمله في بغداد للسلطان محمد رغم المخاطر التي تعرض لها منصبه ، وأنه عندما أعلن ولاءه لبركياروق ، أخلص له هو الآخر ولابنه من بعده ، وقد كلفه ذلك منصبه في بغداد وإقطاعاته في العراق كحلوان وغيرها فور إقالته ومغادرته العراق إلى ديار بكر .

سقمان مؤسس أولى الامارات الأرتقية في ديار بكر :

أما سقمان بن أرتق – أخو إيلغازي – الذي كان قد اتجه الى سروج بعد احتلال الفاطميين للقدس عام (٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م) ، فقد بدأ من هناك نشاطاً عسكرياً وسياسياً واسع النطاق استطاع بواسطته أن يحقق هدفه الرئيسي ، وهو اتخاذ بعض المراكز الرئيسية في ديار بكر نقاطاً للاستقرار والتجمع ،

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠/١٤٢ – ١٤٣ ، ابن خلدون ، العبر ٧١ – ٧٢ .
(٢) ابن الاثير ، الكامل ١٠/١٤٤ – ١٤٥ .
(٣) ابن الجوزي، المنتظم ٩/١٤٣ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٤٦٨ – ٤٦٩ .

وتوجيه الضربات ضد منافسيه ، فضلاً عن أنه استطاع بهذا النشاط أن يسهم في تشكيل أحلاف وتكتلات إسلامية تعد بحق المواجهات المنظمة الأولى للصليبيين[1] . وكان سقمان يعتمد في كل ذلك على قابليته الشخصية ومهارته العسكرية الفائقة ، إذ كان « حازماً داهياً ذا رأي »[2] ، كما كان يعتمد على العدد الضخم من أتباعه التركمان ، هذا العدد الذي كانت تمونه دائماً القوى التركمانية ، في مناطق ديار بكر والفرات وشمالي الشام وجنوبي الأناضول ، باعتبار أن سقمان - وأباه من قبله - كانا زعيمين كبيرين من زعماء التركمان في هذه المناطق .

حاول سقمان منذ البدء أن يؤمن ظهره ويستند إلى حليف قوي كي يتفرغ لتوجيه ضرباته في ديار بكر ، فحالف حكام دمشق وقدم لهم خدماته[3] طيلة السنين التي أعقبت خروجه من القدس (٤٩١ - ٤٩٥هـ= ١٠٩٧ - ١١٠١ م)، وكان خلال هذه الفترة ينتهز الفرص للتدخل في أحداث ديار بكر . وفي عام (٤٩٥ هـ = ١١٠١ م) ، توفي كربوقا حاكم الموصل في (خوى) في بلاد فارس ، بعيداً عن إماراته ، فسار (سنقرجة) كبير أمرائه على رأس القسم الأكبر من قواته إلى الموصل لتسلمها ، ولكن أعيان البلد كاتبوا موسى التركماني، وكان آنذاك نائباً عن كربوقا في حصن كيفا ، ودعوه ليسلموا إليه البلد ، وسرعان ما تمكن هذا من القضاء على سنقرجة ودخول الموصل . وما أن سمع شمس الدولة جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر بذلك ، حتى زحف على نصيبين واستولى عليها فتقدم موسى إليه لكي يضطره إلى الانسحاب ، فلما تقارب

---

(١) انظر الفصل الثالث .
(٢) ابن الاثير الكامل ١٤٦/١٠ .
(٣) ابن شداد ، الأعلاق ، (مخطوطة ، ورقة ١٠٠ آ) .

العسكران غدر جنده به وانضموا الى جكرمش فهرب موسى الى الموصل وتحصن بها ، وهناك حاصره جكرمش فترة طويلة ، فاضطر الى الاستعانة بسقمان الذي كان حينذاك في ديار بكر وعرض عليه إعطاءه حصن « كيفا » وعشرة آلاف دينار مقابل إنجاده فأجابه سقمان وتوجه إليه ، مما اضطر جكرمش الى الانسحاب عن الموصل ، فخرج موسى لاستقبال سقمان ولكن بعض غلمانه ما لبثوا أن اغتالوه في الطريق فتشتت أصحابه ، وانقلب سقمان مسرعاً إلى حصن « كيفا » فاستولى عليه ، بينما تقدم جكرمش إلى الموصل ودخلها وسط ترحيب أهاليها[1] ، وهكذا تم لسقمان الحصول على أحد المراكز الحصينة في ديار بكر لاتخاذها قاعدة لتوسيع ممتلكاته هناك ، وما لبث أن أضاف إليها بعد قليل حصن دارا القريب منها[2] وسيطر على بعض المقاطعات في أقصى الشمال[3] .

في السنة التالية (٤٩٦ هـ = ١١٠٢ م) ، ساعدت الظروف سقمان على الاستيلاء على مدينة أخرى من أهم مدن ديار بكر وهي : ماردين ، إذ كان كربوقا حاكم الموصل قد قصد آمد - قبيل وفاته - وحارب صاحبها ينال التركماني ، فاستنجد هذا بسقمان فأنجده ، والتقى بكربوقا حيث أسفر القتال عن هزيمة سقمان وأسر ابن أخيه (ياقوتي) الذي اعتقله كربوقا بقلعة ماردين ،

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠/١٢٧ - ١٢٨ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ٢/١٣-١٤ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٦١ - ٦٢ و ٤٦٣ - ٤٦٤ ، ابن شداد ، الأعلاق (ورقة ١٢٧ ب - ١٢٨ آ) ، أبو الفدا ، المختصر ٢ / ٢٢٦ ، (باختصار) ، الصائغ ، تأريخ الموصل ص ١٥٥ .

(٢) ابن شداد ورقة ٤١ ب .

(٣) Inc, Isl. art : Artukids. By C. cahen (New ed.)

وكان صاحبها (ويدعى لجا كسرى) مغنياً للسلطان بركياروق فطلب منه ماردين واعمالها فأقطعه إياها ، وبقي ياقوتي في حبسه فترة من الوقت ، فمضت زوجة أرتق إلى كربوقا وسألته إطلاقه فأجابها إلى ذلك ، ورأى ياقوتي أن ينزل قريباً من ماردين ، إذ كانت قد استهوته ، ويسعى من هناك وبشتى الطرق للاستيلاء عليها بما عنده من التركمان .

وكان الأكراد المنتشرون في أطراف ماردين ؛ قد طمعوا في صاحبها المغني وأغاروا على أعمالها مراراً عديدة ، فراسله ياقوتي يقول: « قد صار بيننا مودة وصداقة ، وأريد أن أعمر بلدك بأن أمنع عنه الأكراد وأغير على الأماكن وآخذ الأموال وأنفقها في بلدك ، وأقيم في الربض » فأذن له المغني في ذلك ، ومن ثم أخذ ياقوتي يقوم بإغارات مستمرة في أماكن واسعة من ديار بكر ، وراح ينضم اليه بعض أجناد قلعة ماردين طلباً للغنيمة فأخذ هو يكرمهم ويمنيهم ولا يعترضهم بشيء ، فاطمأنوا إليه . واتفق في إحدى الغارات أن انضم اليه عدد من جند القلعة ، فلما عادوا أمر ياقوتي بالقبض عليهم وتقييدهم ، ثم سبقهم إلى القلعة ونادى أهليهم أن يفتحوا له الأبواب وإلا ضرب أعناقهم ، فلم يجيبوه ، فقتل أحدهم ، وحينذاك خافوا تنفيذ تهديده وفتحوا له الأبواب ، فدخلها واستولى عليها ، وأخذ من هناك يجمع الجموع ويغير على المناطق المجاورة ، إلا أنه لم يلبث أن قتل في إحدى غاراته على جزيرة ابن عمر التابعة لجكرمش ، فمضت زوجة أرتق الى ابنها سقمان وجمعت التركمان وطالبت بثأر حفيدها ، فتوجه سقمان الى نصيبين التابعة لجكرمش وحاصرها ، فبعث اليه هذا سراً مبلغاً ضخماً من المال ليرحل عن نصيبين ، فاستلمه سقمان وغادر المكان مبرراً ذلك بأن ياقوتي قتل في الحرب ولا يعرف قاتله . وكان (علي) أخو ياقوتي قد تولى ماردين بعد مقتل شقيقه ، وأعلن طاعته لجكرمش ، وما لبث أن غادرها

مستخلفاً فيها أميراً اسمه (علي) أيضاً ، فأرسل هذا الى سقمان يقول له : « إن ابن أخيك يريد أن يسلم ماردين الى جكرمش » . فأسرع سقمان بالتوجه اليها وتمكن بسهولة من الاستيلاء عليها عام (٤٩٦ هـ = ١١٠٢ م) ، وحينذاك تقدم اليه (علي) ابن أخيه طالباً إعادة القلعة ، فأجابه سقمان بأنه استولى عليها تقوية للإمارة الأرتقية ، وأقطعه إقليم جبل الجور الذي كان قد استولى عليه قبيل ذلك ، ونقله إليه [١] .

وكان ياقوتي قد استولى على رأس العين [٢] خلال غاراته على بلاد جكرمش عام (٤٩٦ هـ = ١١٠٢ م) ، وبقيت في يده إلى أن قتل فانتقلت إلى سقمان [٣] .

★ ★ ★

وهكذا استطاع سقمان خلال سنتين فقط ، أن يستولي على عدد من أهم المراكز العسكرية والاقتصادية في ديار بكر وبخاصة حصن (كيفا وماردين) اللذين أصبحا فيما بعد قاعدتين لإمارتي ماردين وحصن كيفا ، حيث حكم كلا منهما فرع من فروع البيت الأرتقي . وعلى ذلك يعتبر سقمان مؤسس الكيان

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠/١٤٦ - ١٤٧ ، أبو الفدا ، المختصر ٢/ ٢٢٩ - ٢٣٠ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ٢/١٦ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٧٥ - ٧٧ ، ٤٦٦ - ٤٦٧ ، ابن شداد ، الأعلاق (قسم الجزيرة ، مخطوطة ، ورقة ٤٣ ب) ،

Cahen. Syrie du Nord 1/237.

وجبل جور : كورة كبيرة بين ديار بكر وأرمينيا (ياقوت ، بلدان ٢/٢٠) .

(٢) رأس العين : مدينة كبيرة في ديار بكر قريبة من نصيبين ، تكثر فيها مياه العيون (ياقوت ، بلدان ٢/٧٣١) .

(٢) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ٤٣ ب) .

الأرتقي في ديار بكر ، بما بذله من نشاط في هذا المجـــال ، وباعتباره أول من أكد على أهمية هذه المنطقة كقاعدة لاستقرار بني أرتق[1] فضلاً عن أن الأراتقة لم يشهدوا وحدة إماراتهم في ديار بكر إلا في الفترة القصيرة التي حكم فيهـــا سقمان (٤٩٦ – ٤٩٨ هـ = ١١٠٢ – ١١٠٤ م) ، وما أن توفي حتى انقسمت ممتلكاتهم هناك إلى إمارتي ماردين وحصن كيفا كما سيتضح عما قليل .

وبعد أن ضم سقمان عدداً من أهم مدن ديار بكر ، رأى أن يتبع سياسة ودية تجاه الأمراء هناك كي يثبت مركزه في المنقطة ، فحينما استولى قلج أرسلان ، سلطان سلاجقة الروم ، على ميافارقين عام (٤٩٨ هـ = ١١٠٥ م) ، بدعوة من أهاليها ، حضر لديه ، لتقديم الطاعة ، معظم أمراء ديار بكر وكان سقمان من بينهم[2] .

لم يستمر سقمان في الحكم ، بعد ذلك طويلاً ، إذ توفي في صفر من نفس العام (٤٩٨ هـ = ١١٠٤ م) ، في القريتين على طريق دمشق ، وكان على رأس حملة اتجه بها لنجدة صاحب طرابلس ضـــد الصليبيين ، فمرض في الطريق وأشار أصحابه عليه مراراً ، بالعودة إلى حصن كيفا – مقر إمارته – ولكنه رفض طلبهم ، وبعد وفاته حمله ابنه ابراهيم وعاد به بصحبة قواته ، إلى كيفا[3] .

---

(١) انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ١٢٩/٢ – ١٣٣ .

(٢) الفارقي ، تأريخ ميافارقين (القسم المنشور ص ٢٧٢) ، ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٠٠ آ – ب) .

(٣) ابن القلانسي ، دمشق ص ١٤٦ – ١٤٧ ، ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ١٤٥ – ١٤٦ ، أبو الفـــدا ، المختصر ٢٢٩/٢ – ٢٣٠ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ٢ / ١٦ ، ابن خلدون ، العبر ٧٥/٥ – ٧٧ و ٤٦٨ ، وانظر سامي ، قاموس الأعلام التركي ٢٢٨٥/٤ – ٢٥٨٦ ، القرماني ، تأريخ ص ٢٧٨ ، سبط ، (مخطوطة ، ٢٥٣/٣/١ ب) .

انقسام الأراتقة ودور إيلغازي :

وكان إيلغازي – الذي خلع ذلك العام من شحنكية بغداد – قد وصل إلى ديار بكر في هذه الفترة، واستطاع أن يضع يده على ماردين[١] وبعض الحصون الأرتقية الأخرى كرأس العين[٢] ، أما حصن كيفا فصار لإبراهيم بن سقمان ، وما لبث هذا أن توفي فملكه بعده أخوه داود[٣] .

ومنذ هذه الفترة انقسمت إمارة الأراتقة في ديار بكر الى قسمين ، غـدت ماردين قاعدة أولاهما حيث حكم إيلغازي بن أرتـق وأبناؤه من بعده ، وغدا حصن كيفا قاعدة أخراهما وحكم فيه أبناء سقمان بن أرتق ، وكان يتبع كلا من هاتين الإمارتين عدد من الحصون والقرى ، التي كانت تتسع وتتقلص حسب قوة الأراتقة وضعفهم من جهة ، وحسب الظروف العامـــة في المنطقة من جهة أخرى . ولم يحاول أي من الطرفين في البداية أن يسعى لتوحيـد الإمارتين في إمارة واحدة لمجابهة الأخطار المحدقة بها ، وللقيام بمحاولات توسعية ، بل على العكس كثيراً ما كانت العلاقات بين الإمارتين تبلغ حـداً كبيراً من التدهور يصل إلى درجة الحرب والتخريب . ولا بد من الإشارة هنـا إلى أنه لولا خلع إيلغازي من شحنكية بغداد في هـذه السنة بالذات ، ومغادرته العراق إلى ديار بكر ، لكان من المحتمل أن تبقى الإمارة التي أنشأها سقمان موحـدة بأيدي أبنائه .

---

(١) أبو الفدا ، المختصر ٢/٢٣٠ .

(٢) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ٤٣ ب) .

(٣) المصدر السـابق ، ورقة ١٢٨ آ ، أبو الفدا ، المختصر ٢ / ٢٢٠ ، القرماني ، تأريخ ص ٢٧٨ .

وقد سار إيلغازي أمير ماردين على سياسة أخيه سقمان ، في استغلال الأحداث السياسية والعسكرية في ديار بكر ، وفي الانضمام إلى بعض الأمراء ضد البعض الآخر ، وتشكيل الأحلاف والتكتلات من أجل توسيع ممتلكاته في المنطقة ، فاجتمع في رمضان من السنة التالية (٤٩٩ هـ = ١١٠٦ م) بالملك رضوان بن تتش صاحب حلب وانضم إليهما عدد من كبار الأمراء ، كألبي بن أرسلان تاش صاحب سنجار ، والأصبهذ صباوه أحد أمراء فارس وغيرهما بنية محاربة الصليبيين . وقد عرض إيلغازي عليهم أو يقوموا أولاً بمهاجمة بلاد جكرمش صاحب الموصل في محاولة للاستيلاء عليها ، وتقوية أنفسهم بقواتها وأموالها ، ومن ثم يتوجهون لقتال الصليبيين ، فوافق حلفاؤه على ذلك ، وتقدموا في رمضان على رأس عشرة آلاف فارس إلى نصيبين التابعة لجكرمش. وكان هذا قد أناب فيها أميرين من أصحابه مع بعض القوات، فتحصنوا بالبلد وقاتلوا المهاجمين ، وما لبث صاحب سنجار أن عاد إلى بلده إثر جرح أصابه في القتال . وعندما علم جكرمش بالهجوم الذي قام به رضوان وحلفاؤه على نصيبين، قرر التوجه لقتالهم ، إلا أنه حاول أن يستخدم أولاً أسلوب الخداع، فأرسل إلى قواد رضوان واستمالهم وأفسدهم ضد أميرهم ومن جهة أخرى طلب من قواته في نصيبين أن يظهروا الطاعة لرضوان ويقدموا ما يحتاج اليه – مع اتخاذ الحيطة – كما أرسل الى رضوان نفسه يبذل له الطاعة لقاء انسحابه وعقد الصلح معه . ويقول : « إن قبضت على إيلغازي ، الذي عرفت أنت وغيرك فساده وشره ، فأنا معك ومعينك بالرجال والأموال والسلاح (١) . وقد جاء هذا في الوقت الذي كانت فيه العلاقات بين رضوان وإيلغازي قد سادها الشك والتوتر ، فأمر جماعة من أتباعه فقبضوا على إيلغازي ، ولكن الأخير ما لبث

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠/١٥١ – ١٥٢ .

أن هرب – بعد قليل – من معتقله في قلعة نصيبين بمعاونة جندهـــا ، وقام أتباعه التركمان إثر ذلك بنهب معسكرات رضوان ، فاضطر هذا الى الانسحاب والعودة الى حلب[1] .

وبهذا يكون إيلغازي قد أخفق في محاولته الأولى للتوسع اعتماداً عـلى عقد أحلاف وإقامة تكتلات في المنطقة . ولكن هذا الفشل لم يثنه عن عزمه ، إذ ما لبث في العام التالي (٥٠٠ هـ = ١١٠٧ م) أن أدلى بدلوه في مجرى الأحداث السياسية والعسكرية هناك .

ففي ذلك العام توفي جكرمش صاحب الموصل، فطمع فيها عدد من الأمراء على رأسهم جاولي سقاو . فأرسل أهلها الى قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم يستدعونه ليسلموا اليه البلد ، فسار هذا على رأس قواته حتى وصـل نصيبين ، فأقام هناك ريثما يتم تعزيز قواته ، حيث اتصل به إيلغازي وعـدد من الأمراء وبعض قوات جكرمش . وما ان سمع جاولي بذلك حتى رحـــل الى سنجار ليكون على أهبة الاستعداد ضد تحركات قلج أرسلان وحلفائه . وإزاء إلحاح أهل الموصل على قلج أرسلان بالإسراع لتسلم مدينتهم ، توجه هذا اليها ودخلها في أواخر رجب حيث أعاد الأمور إلى نصابها ، ثم مـــا لبث أن غادرها على رأس قواته للقاء جاولي، وما أن سمع هؤلاء بقوة عدوهم حتى اختلفوا ، ففارقه صاحب آمد عائداً الى بلده ، وكذلك فعـــل آخرون ، وكان جاولي قد عقد حلفاً مع رضوان ضد أعدائه فزاده ذلك قوة . وكان اللقاء في العشرين من ذي القعدة حيث أسفر عن انهزام قلج ومقتله ، ثم مـــا لبث جاولي أن تقدم الى

---

(١) المصدر السابق ، نفس الصفحة ، ابن خلدون . العبر ٥ / ٣١٩ – ٣٢٠ ،
Cahen, Syrie du Nord P. 247.

الموصل وملكها ، وأعاد خطبة السلطان محمد السلجوقي فيها [1] .

وكان إيلغازي قد سار بعيد المعركة إلى نصيبين واستولى عليها ، مستغلاً فرصة انهماك الامير جاولي بالاستيلاء على الموصل ، ثم أناب فيها ابنه [2] .

غدا إيلغازي منذ ذلك الوقت حليفاً لجاولي ، وحاول الاثنـــان ان يثيرا الفتن والمشاكل بوجه السلطان السلجوقي محمد كما ساندا (صدقة بن مزيد) أمير الحلة في صراعه مع السلطان ، وأرسلا اليه يخبرانه عن موافقتهما له على موقفه ذاك ، وأنهما مستعدان للوصول إليه على رأس قواتهما متى طلبهما ، ممـا أدى بالسلطان الى أن يسرع في القضاء على مصدر الفتن قبل أن يتسع ، فأعلن الحرب على صدقة وتمكن من قتله في رجب [3] . وربما اتخذ إيلغازي وحليفه جاولي هذا الموقف من السلطان ليتخلصا من نفوذه عليهما فيما يتعلق بإطاعة أوامره ، التي كان يصدرها الى الأمراء المحليين ، بالتوجه لقتال الصليبيين [4] ، ومما يؤيد هذا أن السلطان محمد اضطر في العام التالي (٥٠٢ هـ = ١١٠٨ م) إلى إرسال أحد أمرائه ، وهو مودود بن التونتكين ، إلى الموصل ليحـــل في ولايتها بدل جاولي الذي كان يعصي السلطان في أحيان كثيرة ، فانسحب جاولي دون مقاومة تذكر واتجه إلى نصيبين التابعة لإيلغازي ، وأرسل أميرهـــا من هناك وطلب الاجتماع به ، وأعلمه أن خوفهما من السلطان وعداءهما له ينبغي أن يجمعهما على الاحتماء منه ، فلم يجبه إيلغازي إلى ذلـك وغادر نصيبين ، بعد أن

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ١٦٠ – ١٦١ ، ابن القلانسي ، دمشق ص ١٥٧ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٧٩–٨١ . سبط ، مرآة الزمان، (مخطوطة ١/٣/٢٥٧ب – ٢٥٨ب) .

(٢) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ٣٩ آ) .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ١٠/١٦٥ – ١٦٩ .

(٤) سترد تفاصيل ذلك في فصل (الأراتقة والصليبيون) .

أوصى ابنه بالدفاع عنها ضد جاولي ، واتجه الى ماردين. فلما عرف جاولي ذلك عدل عن نصيبين وأرسل الى إيلغازي ثانية يطلب منه ما طلبه في المرة الأولى ، وسار بنفسه على إثر الرسول ، فما أن وصل هذا واجتمع بإيلغازي في ماردين حتى فوجىء الأخير بدخول جاولي الى القلعة وحده ، مستهدفاً من وراء ذلك استمالته إليه وتأليف قلبه ، فلما رآه إيلغازي قام إليه وخدمه وحين رأى أن حليفه محسن الظن فيه ، غير متوجس منه ، ولم يجد الى دفعه سبيلاً ، نزل معه وعسكرا في ظاهر نصيبين وزحفا من هنـــاك على سنجار وحاصراها فترة من الوقت ، فلم يجبها صاحبها إلى الصلح ، فتركاها وسارا نحو الرحبـــة ، وكان إيلغازي خلال ذلك يظهر لجاولي المساعدة ويبطن له الخـلاف ويتحين الفرص لينصرف عنه . وما ان وصلا عرابان من أعمال الخابور حتى هرب إيلغازي ليلاً واتجه الى نصيبين ثانية ، الأمر الذي اضطر جاولي الى إطـلاق ما في يده من أسرى الصليبيين ومحالفتهم لحمايته (١) .

وواضح أن الدافع الذي أدى بإيلغازي الى اتخاذ هذا الموقف المتردد تجـاه حليفه السابق جاولي ، هو عدم رغبته في زج نفسه في مزيد من المشاكل مـع نواب السلاجقة في الموصل، وعدم التمادي في مخاصمة السلطان خوفاً من أن ينزل به عقابه ، فضلاً عن أن جاولي لم يكن يملك من المواقع والحصون ما يغري إيلغازي بالتضحية في سبيله ، من أجـــل الحصول على مزيد من المكاسب ، لذا حاول التهرب من السياسة العدائية التي حاول جاولي أن يجره إليها . وقد نجح في ذلك فعلاً ولو الى فترة محدودة من الزمن .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠/١٧٣ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٨٤ و ٤٠٤–٤٠٥و٤٨٣ . وانظر الفصل الثالث .

وما ان استقر مودود في الموصل حتى عمل على الاستيلاء على كل ما كان تابعاً لولاتها السابقين في المنطقة وكانت نصيبين من جملة ذلك[1]. وهكذا خسر إيلغازي هذه المدينة الهامة التي لم تبق في يده سوى أقل من سنتين. وقد حاول مودود بعد ذلـــك مباشرة استمالة إيلغازي بأن أقطعه حران (٥٠٢ هـ = ١١٠٨م)[2]، تحقيقاً لهدفه الأساسي في تجميع الأمراء المحليين لمجابهة الصليبيين.

وفي السنوات التي أعقبت عـــام (٥٠٢ هـ = ١١٠٨ م) ، وحتى عام ٥٠٩ هـ = ١١١٥ م) كادت محاولات إيلغازي لتوسيع إمارته في ديار بكر أن تتوقف ، حيث وجه معظم نشاطه خلال هذه الفترة في ميدان الملاقات الاسلامية الصليبية في الجزيرة والشام ، سواء كان هذا النشاط ضد الصليبيين أو لصالحهم كما سيتضح في فصل آخر . ولذا بقيت إمارته - طيلة هذه الفترة - على حدودهـــا السابقة دونما توسع . ولكنه ما لبث أن عـــاد في عامي (٥٠٩ هـ = ١١١٥ م) ، (٥١٠ هـ = ١١١٦ م) ، وبعد أن أتيح له بعض الوقت للعمل في ديار بكر ثانية على توسيع إمارته عـــلى حساب جيرانه ، واستطاع في هذه الفترة أن يقتطع من مدينة ميافارقين التي كان يحكمها آنذاك أحد نواب السلاجقة ، حوالي ثمانين ضيعة خصبة الإنتاج مستغلاً في ذلك اختلاف ولاة السلاجقة على ميافارقين ، وسرعة تبدلهم وضعف المدينة وعجز من يليها وقله المدافعين عنها[3].

وفي السنة التالية ٥١١ هـ ساعدت الظروف إيلغازي على أن يضيف إلى إمارته مدينة من أهم مدن شمالي الشام ألا وهي حلب ، فضلاً عن المناطق

---

(١) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ٣٩ أ) .

(٢) المصدر السابق ورقة ١٧ أ .

(٣) الفارقي ، تأريخ ميافارقين ، القسم المنشور ص ٢٨٣ - ٢٨٤ ، ابن شداد ، ورقـــة ١٠١ أ - ب .

والحصون الملحقة بها إذ راسله أهلها وكبار أمرائها طالبين منه توليها ، بعد أن أيقنوا عجز أمرائها من أحفاد رضوان بن تتش وأوصيائهم عن حمايتها ضد الطامعين فيها من الصليبيين والأمراء الذين كان يرسلهم السلاجقة إلى المنطقة لتثبيت نفوذهم المباشر فيها (١) ، فأجابهم إيلغازي إلى دعوتهم وتقدم بسرعة إلى حلب ، وبعد مفاوضات قصيرة الأمد بين الطرفين تم الاتفاق على تسليمه المدينة لقاء تعويض بعض أمرائها عدداً من المواقع والحصون المجاورة كبالس والقليعة (٢) . ولكن إيلغازي ما أن استقر في حلب حتى اتبع سياسة القسر والاغتصاب ، مما أدى إلى تنفير أهاليها منه ، حيث قبض على بعض أمرائها ، وإذ لم يجد فيها المال الذي كان يبتغيه قصر ما كان يدفعه الحلبيون من ضرائب عليه شخصياً وعلى أتباعه من التركمان « ولم ينتظم له حال واستوحش من أهل حلب وجندها » (٣) ، هذا فضلاً عن أن خوفه على بلاده من الطامعين (٤) ، جاء دافعاً آخر على الإسراع بمغادرة البلد ، بعد شهر واحد من دخوله ، والعودة إلى ماردين ، بعد أن أناب في حلب ابنه حسام الدين تمرتاش (٥) . ويظهر أن

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٧٩/٢ ، ابن الأثير ، الكامل ٢٠٠/١٠ أبو الفدا ، المختصر ٢٤١/٢ ، ابن الوردي ، تتمة ٢٤/٢ ، ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة قسم حلب ، ورقة ١٣٠ ب) ، ابن خلدون ، العبر ٣٢٦/٥ - ٣٢٧ .

(٢) ابن شداد ، قسم حلب ، ورقة ١٣٠ ب .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٨٠/٢ .

(٤) ابن شداد ، قسم حلب (ورقة ١٣٠ ب) .

(٥) ابن القلانسي ، دمشق ص ١٩٩ ، الكامل ٢٠٠/١٠ ، ابو الفدا ، المختصر ٢٤١/٢ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٦٩/٨ ، ابن الوردي ، تتمة ٢٤/٢ ، ابن خلدون ، العبر ٥/ ٣٢٦ - ٣٢٧ و ٤٨٦ ، الطباخ ، تأريخ حلب ٤٢٣/١ - ٤٢٨ ، القرماني ، تأريخ ص ٢٧٧ - ٢٧٨ ، القلقشندي ، مآثر الأنافة ٢٠/٢ .

يذكر ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٣٢/٢) أن أول من استنابه إيلغازي على حلب هو ابنه الآخر صارم الدين قزل ، وأنه أحسن السيرة في الحلبيين ثم توفي عام ٥١٣ هـ . فحزن عليه الحلبيون حزناً شديداً ، وأعقبه في الحكم أخوه حسام الدين تمرتاش .

إيلغازي أدرك عدم جدوى تشبثه بحلب في هـذه الفترة بالذات ، لعدم تثبيت أقدامه في ديار بكر من جهة، ولأن حلب كانت عرضة آنذاك لهجمات الصليبيين القوية المتكررة من جهة أخرى ، لذا نجده يغادرها بعد أسابيع فحسب دون أن يتخذ الاجراءات العسكرية والإدارية الكفيلة بتقوية مركزها ضد الأعداء .

وقد حاول في الفترة التي أعقبت ذلـك أن يعمل على توسيع إمارته وضم مدن جديدة إليها ، واستطاع ، خلال عـام واحد (٥١٢ هـ = ١١١٨ م) ، أن يعيد السيطرة على مدينة حران ، بعد أن كان البرسقي – أمير الموصل – قد انتزعها من الأراتقة عام (٥٠٨ هـ = ١١٠٤ م) . فلما كان هـذا العام ، استغل إيلغازي فرصة انشغال أمراء الموصل بالفتن والمؤامرات ضد السلاجقة ، فتقدم إليها واستولى عليها وقبض على رئيس البلد (جعفر بن ابي الفهم)، واعطاه مالاً ثم حمله إلى ماردين ، وعين نوابه في حران وقفل عائداً إلى مقر إمارته[1]. وفي نفس العام استطاع أن يستعيد من البرسقي مدينة نصيبين[2]، وهي واحدة من أهم مدن ديار بكر .



وطيلة هذة الفترة ظلت علاقة إيلغازي بالسلطان السلجوقي، وكذا بالخليفة، غير ودية بسبب موقفـه المعادي للسلطان عام (٥٠٨ هـ = ١١١٤ م)[3]، لذا نجده يستقبل عام (٥١٤ هـ = ١١٢٠ م) أمير الحلة دبيس بن صدقة ، الذي

---

(١) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٧ ب) .

(٢) المصدر السابق ، ورقة ٣٩ ب ، وفي رواية أخرى (ورقة ١٠٢ أ) يشير ابن شداد الى أن استيلاء إيلغازي على نصيبين كان سنة (٥١٤ هـ = ١١٢٠ م).. وأن جماعة من أكابر ميافارقين قابلوه وهنؤوه بفتحها . ولكن سياق الأحداث يرجح الرواية الأولى وإن لم نستطع الجزم بذلك .

(٣) انظر التفاصيل في الفصل الثالث .

كان قـــد هرب من العراق ذلك العـام خوفاً من السلطان والخليفة بعد فتن طويلة أثارها ضدهما ، والتجأ إلى ماردين فأجاره أميرها وقدم له كل مـــا يحتاجه[1] . وكان دبيس قد تزوج في مطلع هذا العام بابنة إيلغازي[2] ، فكان ذلك عاملاً آخر في تقوية العلاقات بينهما . وقـــد توالت على إيلغازي كتب السلطان ورسلهما يأمرانه بإبعاد دبيس[3] ، خوفاً من أن يتقوى بالتركمان ويثير ضدهما مشاكل جديدة ، فوجد إيلغازي حينذاك أن الفرصة قـــد سنحت للإعراب عن رغبته في العودة الى طاعة السلطان والخليفة فأرسل ابنه (تمرتاش) إلى السلطان (محمود) ليشفع في دبيس ويبذل عنـــه الطاعة ويلتمس السماح له بالعودة إلى مقر إمارته في الحلة مقابل ألف دينار يدفعها للسلطان يومياً . وقد سيّر إيلغازي مع ابنه الأموال والهدايا للسلطان ، وجعل القاضي بهـــاء الدين الشهرزوري المتحدث بلسانه . وقد قـــام الوفد بمقابلة السلطان (٥١٥ هـ = ١١٢١ م) وحلف له وللخليفة على طاعـــة إيلغازي[4] ، وجرت مفاوضات - بشأن دبيس - لم تسفر عن اتفاق ، إلا أن السلطان أعلن عن إقطاعه مدينة ميافارقين لإيلغازي استمالة له وتقديراً لموقفه الودي منـه[5] . وبذلك أضاف هذا الأمير الأرتقي إلى إمارته مدينة أخرى من أهم مدن ديار بكر . ثم مـــا لبث دبيس أن غادر ماردين عائداً إلى العراق في العام نفسه بعد أن تصالح

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٩٧ - ١٩٨ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٠/٢١٢ - ٢١٣ ، ابن الجوزي ، المنتظم ٩ / ٢١٧ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ٨/٨٩ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ١٠/٢١٥ ، ابن الجوزي ، المنتظم ٩/٢٢٧ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة د/٢٢١ ، ابن خلدون ، العـــبر ٥/٤٨٧ - ٤٨٨ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢/٣٨) .

(٤) ابن الجوزي ، المنتظم ٩/٢٢٧ .

(٥) ابن الاثير ، الكامل ١٠/٢٢٥ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٤٨٩ ، وهناك رواية أوردها ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ورقة ص ١٠١ ب - ١٠٢ أ)، يسودها الاضطراب وتكثر=

مع السلطان والخليفة [١] . ويظهر أن تسوية هذه المشكلة حسنت العلاقات بين إيلغازي والسلطان بعد التوتر الذي سادها طيلة السنوات السابقة ، سيما بعد أن أقطعه الأخير مدينة ميافارقين المهمة في ديار بكر [٢] .



وما أن أنهى إيلغازي مشكلته مع السلطان حتى جابه عصياناً قام به ابنه سليمان بحلب (٥١٥ هـ = ١١٢١ م) ، ويظهر أن هذا كان قد حل محل تمرتاش هناك بدليل أن الأخير تولى في العام نفسه رئاسة الوفد الأرتقي إلى بغداد للتوسط في قضية دبيس . وكان سبب عصيان سليمان أن والده طلب منه أموراً لم تطب نفسه لتنفيذها ، ربما كانت تتعلق بقضايا مالية ، فضلاً عن تشجيع بعض الأمراء المحيطين به على العصيان . وما أن أعلن انفصاله عن أبيه حتى قام بإبعاد أحفاد رضوان بن تتش وبعض الأمراء عن حلب ، واتبع أساليب الظلم والمصادرة ضد أهاليها ، ونشر الفساد ، كما قام بإلقاء القبض على حجاب أبيه وإهانتهم . وعندما بلغ إيلغازي إصرار ولده على العصيان « ضاقت عليه الأرض » ، وتجهز للتقدم إلى حلب ، فكاتبه أنصاره وأبلغوه عن استعداد المتمردين لقتاله ، لكنه لم يأبه لذلك وتقدم حتى وصل قلعة جعبر على

= فيها الاخطاء إذ يذكر أن إيلغازي بقي في شحنكية بغداد حتى عام٥١٢ ثم وقع له السلطان محمد بميافارقين وكتب إلى زنكي (يقصد الرزبيكي) أن يسلمها اليه ، فسار إيلغازي في منتصف جمادى الآخرة من ذلك العام واستولى عليها ، وخرج زنكي (يقصد الرزبيكي عامل السلاجقة على المدينة) فأقام قريباً منها ، فلما كان اليوم الرابع وصله رسول من السلطان محمد يأمره أن لا يسلمها فوجد عامله أن الامر قد فات واستقر إيلغازي بميافارقين ، ويخطىء كاهين في القول بأن إيلغازي استولى على ميافارقين عام ٥١٢ إثر وفاة السلطان محمد. Enc, Isl, Art: Artukids.

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ٢٢٧/٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ١٨٥/١٢ ، ابن خلدون ، العبر ٤٨٧/٥ - ٤٨٨ .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ٢٢٧/٩ .

الفرات [١] ، وحينذاك ضعفت نفس ابنه عن العصيان وأرسل إليه يستحلفه على العفو عنه والإحسان إليه وإلى أنصاره من أمراء حلب فأجابه إيلغازي الى ذلك ، وما لبث أن دخل البلد في أول رمضان (٥١٥ هـ = ١١٢٢ م) وسط مظاهر الحفاوة والإكرام ، حيث أحسن إلى أهل حلب وسامحهم بشيء من الضرائب وأقال الشحنة الذي كان يمارس الظلم معهم [٢] ، كما قام بمعاقبة الأمراء الذين حسنوا لابنه العصيان وأعاد جميع المبعدين إلى حلب ، وولى رئاستها سليمان بن عبد الرزاق العجلاني البالسي ، كما أناب فيها ابن أخيه بدر الدولة سليمان ابن عبد الجبار بن أرتق ، ثم غادرها في المحرم (٥١٦ هـ = ١١٢٢ م) عائداً إلى ماردين [٣] .

ويظهر أن البرسقي نائب السلاجقة في الموصل ، استغل فرصة انشغال إيلغازي في إخماد عصيان ابنه تمرتاش فاستولى على نصيبين [٤] ، وهكذا خسر

---

(١) يشير ابن الأثير في الكامل ١٠/٢٢٥ ، والذين نقلوا عنه كابن العبري ، مختصر ص ٣٥١ ، وأبي الفدا ، المختصر ٢ / ٢٤٦ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٤٨٨ – ٤٨٩ ، وغيرهم أن إيلغازي سار مباشرة الى حلب فلم يشعر سليمان الا وقد هوجم على حين غرة ، فخرج معتذراً فعفى أبوه عنه . والروايتان تلتقيان عند هدف واحد غير أن ابن العديم أكثر وثوقاً في الاخبار المتعلقة بحلب .

(٢) ابن العديم زبدة الحلب ٢/٢٠٠ – ٢٠٣ ، ويورد المؤرخ المذكور رواية أخرى عن ظروف العصيان مفادها أن دبيس بن صدقة لما سار مع إيلغازي لقتال الكرج سأله أن يهبه حلب مقابل ان يحمل اليه مائة ألف دينار وأن يعاضده لفتح أنطاكية ، فأجابه إيلغازي إلى ذلك ، فلما وقعت الهزيمة ، كرر دبيس طلبه فأنفذ إيلغازي الى ولده سليمان وقال له : « أظهر أنك قد عصيت حتى يبطل ما بيني وبين دبيس» ، فحمله الجهل على أن عصى وخالف أباه ووافقه على ذلك جماعة من الامراء ، ولكن مهما حدث من خلاف بين الروايات فإنها تجتمع عند هدف واحد هو العصيان .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢ / ٢٠٠ – ٢٠٣ ، ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ٢٢٥ ، ابن العبري ، مختصر ص ٣٥١ ، أبو الفدا ، المختصر ٢/٢٤٦ ، ابن الوردي ، تتمة ٢/٢٨ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٤٨٨ – ٤٨٩ ، النويري ، (مخطوطة ٢٥/٢٦) .

(٤) ابن شداد ، الأعلاق ، ٣٩ ب .

إيلغازي في خضم مشاكله هذه المدينة المهمة التي كان قد استعادها قبل أقل من ثلاث سنين .

ما لبث المرض أن ألم بإيلغازي في رمضان من العام نفسه وهو في طريقه الى ميافارقين ، وأخذ يزداد حدة ، وقيل كان سببه ما أصابه في معركة الكرج (٥١٤ هـ = ١١٢٠ م) [١] ، وسرعان ما توفي في إحدى قرى ميافارقين يوم الخميس السابع عشر من رمضان [٢] ، فحمل ليلا إلى هناك بصحبة ولده شمس الدولة سليمان ، وعندما اقتربوا من القلعة سألهم واليها عن الأمر فأجابوه بأن السلطان (أي إيلغازي) مريض ، وكانوا قد أركبوه على فرس وأمسك به أحدهم ، وما أن فتحت الأبواب ودخل شمس الدولة القصر واستتب الامر له حتى كشف عن حقيقة وفاة أبيه الذي تم دفنه في ميافارقين [٣] .

انقسام إمارة ماردين وإعادة توحيدها :

استقرّ شمس الدولة سليمان بميافارقين ، وكان أخوه حسام الدين تمرتاش في ماردين آنذاك ، ففرض سيطرته عليها وعلى المدن القريبة منها كرأس عين [٤].

---

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٨/١٠٣، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ٥/٢٢٣، وانظر التفاصيل في الفصل الثالث .

(٢) ابن القلانسي ، دمشق ص ٢٠٨، ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٠٢ ب ، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ٨/١٠٢ - ١٠٣ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٠٦ . ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ٥/٢٢٣ - ٢٢٤ ، وتختلف المصادر في تحديد يوم وفاة إيلغازي والأصح ما أورده ابن شداد وسبط ابن الجوزي .

(٣) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٠٢ ب) ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ١٠٣ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢/٦٦) . وانظر سامي ، قاموس الأعلام التركي ٢ / ١١٥٩ . ويخطىء ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (مخطوطة ٢ / ٤٩٦) في القول بأن وفاة إيلغازي كانت سنة ٥١٠ هـ ولعل ذلك جاء خطأ من الناسخ .

(٤) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ٤٣ ب).

ويذكر ابن الفرات أن كلا من سليمان وتمرتاش اتفقا في البدء علـى الاشتراك في حكم إمارة أبيهما وأنهما بقيا في ماردين يديران دفة الحكم ، ولكن الخلافات مـا لبثت أن فرقت بينهما ودفعتهما الى الانفصال [1] . أما في حلب فقد بقي بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق[2] وقام بتحليف وجوه الحلبيين لنفسه[3]، وتقدم بلك بن بهرام بن أرتق الى حران فاستولى عليها في ربيـع الأول من العام نفسه [4] .

وهكذا تعرضت لخطر الانقسام ، الإمارة التي وجـــه إيلغازي جل همه للحفاظ عليها وتوسيـع رقعتها ، إذ أنه ما أن توفي حتى اقتسم أبناؤه وأقرباؤه البلاد الواسعة الموحدة التي كان يحكمهـــا ، وغدت تحت سيطرة أربعة أمراء اتخذوا مراكزهم في كل من ماردين وميافارقين وحلب وخرتبرت [5] (المقر الرئيسي لبلك) . ولمـــا كان أميرا حلب وخرتبرت بعيدين نسبياً عن مركز الإمارة في ديار بكر ، فإن مكمن الخطر على وحدتها تمثـــل بوجود أميرين في المنطقة هما سليمان وتمرتاش .

ولكي يقوّي سليمان مركزه ، أسرع في تنظيم شؤون إمارته وخطب ابنة

---

(١) تأريخ (مخطوطة ٢/٦٦) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ٢٣٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٠٩ ، ابن العبري ، مختصر ص ٣٥١ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٨/١٠٣ ، أبو الفدا ، المختصر ٢/٢٤٧ - ٢٤٨ ، ابن الوردي ، تتمة ٢ / ٣١ ، الذهبي ، دول ٢/٣١ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٥/٢٢٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ١٢/١٩١ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٤٨٩ - ٤٩٠ ، Cahen, Syrie du Nord. P. 295.

(٣) ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢/٦٦) .

(٤) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٧ ب) ويذكر ابن الأثير (الكامل ١٠ / ٢٣٢) أن ذلك حدث عام ٥١٧ ، وانظر Cahen. Syrie, P. 295.

(٥) خرتبرت : وتسمى أيضاً (حصن زياد) في اقصى ديار بكر يفصلها الفرات عن مدينة ملطية (ياقوت ، بلدان ٢/٤١٧) .

قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم، وأرسل أحد قضاته إلى ملطية لإحضارها[١] كما قام تمرتاش هو الآخر بتنظيم شؤون إمارته[٢] وقد كانت العلاقات بين الأخوين ودية في البداية ولكن الخلاف سرعان ما دب بينهما ، واستمر[٣] حتى وفاة سليمان عام (٥١٨ هـ = ١١٢٤ م) .

وفي صفر من عام (٥١٨ هـ = ١١٢٤ م) قتل بلك بن بهرام أثناء حصاره لقلعة منبج، وكان قد ملك حلب قبيل ذلك[٤]، فاستغل تمرتاش الموقف وتوجه إلى حلب وسيطر عليها في ربيع الأول ، كما تمكن من وضع يده على حران ، التي كانت هي الأخرى من ممتلكات بلك إلا أن البرسقي ، حاكم الموصل ، ما لبث أن انتزعها منه في نفس العام[٥] وتقدم سليمان بن إيلغازي من ميافارقين فاستولى على خرتبرت وبعض ما يحيط بها من حصون بلك بن بهرام ، كما استولى سلاجقة الروم على بعضها الآخر[٦] .

أما داود بن سقمان أمير حصن كيفا ، فقد حصل هو الآخر على حصته من أسلاب بلك وسيطر على حصن بالو[٧] التابع للأمير المذكور[٨] .

وهكذا انحصر الصراع ، بالنسبة لأبناء إيلغازي ، بين تمرتاش في ماردين

---

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ١٠٣/٨ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٣) ابن القلانسي ، دمشق ص ٢٠٨ .

(٤) انظر التفاصيل في الفصل الثالث .

(٥) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٧ ب) .

(٦) T. Rise, the Seljuks, P. 60.

(٧) حصن بالو : قلعة من نواحي أرمينية بين أرزن وخلاط (ياقوت ، بلدان ٤٨٠/١) .

(٨) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢٢٠/٢ .

وسليمان في ميافارقين ، وأصبح تحت حكم كل منهما عـــدد كبير من الحصون والقرى والضياع ، وكان هذا فضلاً عن تجاور إمارتيهما ، سبباً في إثارة المنافسة والخلاف بينهما[١] . إلّا أن سليمان مـــا لبث أن توفي بعد ذلك بفترة قصيرة (رمضان عام ٥١٨ = ١١٢٤ م) ، فانتهت بذلك المشاكل ، وأتيح لإمـارة ماردين أن تعيد وحدتها كما كانت على عهد إيلغازي . إذ ما أن سمع تمرتاش بوفاة أخيه حتى اتجه إلى ميافارقين ونزل عليها وراسل واليها وأفهمه الحال وسرعان ما تم الإتفاق بينهما وسلم إليه البلد في شوال[٢] . وأعاد تمرتاش تنظيم أمورها الداخلية واستمال أهلها بإحسانه إليهم[٣] ، ومن ثم سيطر على بقيـــة الحصون التابعة لها[٤] . وبهذا أصبح تمرتاش الحاكم الوحيد في إمارة ماردين ، واستطاع في عام (٥٢٠ هـ = ١١٢٦ م) ، أن يعيد السيطرة على نصيبين مستغـلاً فرصة وفاة البرسقي صاحب الموصل الذي كان قد أخذها من الأراتقة عام (٥١٥ هـ= ١١٢١ م)[٥] .

وليس بين يدينا ما يلقي ضوءاً على طبيعة العلاقات بين إمارة مـــاردين وإمارة حصن كيفـــا ، منذ انفصالهما عن بعضهما إثر وفاة سقمان بن أرتق مؤسس الإمارة عام (٤٩٨ هـ = ١١٠٤م) ، وحتى عام (٥٢١ هـ ١١٢٧م) حيث

---

(١) ابن القلانسي ، دمشق ص ٢٠٨ .

(٢) ابن شداد ، الأعلاق ، مخطوطة ورقة ١٠٣ آ ، ابن الاثير ، الكامل ٢٣٨/١٠ ، ويخطىء كل من سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ١١٧/٨ ، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ٢٣٠/٥ ، في جعل وفاة سليمان عام ٥١٩ .

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ١١٧ ، وابن تغري بردي ، النجـــوم الزاهرة ٢٣٠/٥ .

(٤) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٠٣ آ .

(٥) المصدر السابق، ورقة ٣٩ ب .

تنتهي المرحلة الأولى من تأريخ الأراتقة السياسي . ولا نستطيع الجزم عما اذا كانت العلاقة بينهما قد سادتهـــا المنافسة والعداء أم التعاون والتكاتف ضد الأخطار المشتركة ، وأغلب الظن أن اتبـــاع الأمير داود بن سقمان صاحب إمارة كيفا سياسة انعزالية ، وعدم إسهامه في الأحداث العامة سواء في ديار بكر أم في شمالي الشام ، كانا من العوامل الأساسية في عدم ورود مـا يوضح طبيعة علاقاته بإمارة أعمامه في ماردين. وعلى أية حال فلم يحدث بين الإمارتين ما يشير إلى وقوع صدام بينهما سوى قيام داود بالسيطرة على أحـــد حصون بلك إثر وفاة الأخير عام (٥١٨ هـ = ١١٢٤م) ،[١] دون أن يعترضه أصحاب ماردين .

ولا بد من الإشارة أخيراً إلى أن علاقات الأراتقة الرسمية بالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية ، طيلة هذه الفترة ، أي منذ تأسيس الإمارة عام (٤٩٥هـ = ١١٠١م) وحتى عام (٥٢١ هـ = ١١٢٧م)، كانت ودية طيبة فيما عدا الفترات القصيرة التي عصى فيها إيلغازي على السلاجقة والخلفـــاء[٢] ، إذ كان أمــراء الأراتقة يخطبون للخلفاء العباسيين وللسلاطين السلاجقة معاً ويضربون السكة باسمهم ويعلنون لهم الطاعة والخضوع الاسمي[٣]، فضلاً عن وضع قواتهم – ولو اسمياً – تحت تصرف السلاجقة[٤] وربما دفعوا لهم ضريبـة نقدية سنوية كما هو

(١) ابن العديم ٢/٢٢٠ وهو حصن بالو شمالي ديار بكر .

(٢) ستَرد تفاصيل ذلك في فصل (الأراتقة والصليبيون) .

(٣) الحسيني ، آل سلجوق ص ٩٢ – ٩٣ و ١١٠ – ١١١ ، البنداري، الدولة السلجوقية ص ١٢١ ، ابن القلانسي ، دمشق ص ١٤٧ ، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ٥/١٨٧ – ١٨٨ ، ابن الجوزي، المنتظم ٩/١٣١ .

(٤) البنداري، الدولة السلجوقية ص ١٢١ .

السائد في النظام الاقطاعي في تلك الفترة[1] .

وبتسلم عمـــاد الدين زنكي إمارة الموصل عام (٥٢١ هـ = ١١٢٧ م) تغير ميزان القوى في الموصل وديار بكر والشام ، سواء من ناحية الصلات الداخلية بين الأمراء المحليين أو من حيث علاقات القوى الإسلاميـــة بالصليبيين ولذا دخل الأراتقة مرحلة جديدة من حياتهم السياسية وعلاقاتهم الخارجية ونشاطهم العسكري ، مرحلة تختلف في ميزاتها واتجاهاتها وسياسة أمرائها عن مرحلة (التأسيس) التي سبقتها .

(١) انظر ابن الجوزي ، المنتظم ٩/١٣١ حيث يشير الى أنه عندما تم الصلح بين السلطانين محمد وبركياروق ، غدت ديار بكر ضمن حكم محمد ، وأنها كانت تؤدي ، مع بقية البلاد التي خضعت له مليون وثلاثمائة وبضعة عشر ألف دينار .

الفصل الثاني

علاقات بني أرتق بالزنكيين والأيوبيين

٥٢١-٦٥٣هـ (= ١١٢٧- ١٢٥٥م)

كانت نصيبين[١] التابعة لإمارة ماردين الهدف الأول لهجوم زنكي ، لكونها أقرب المواقع الأرتقية إلى الجهات التي سيطر عليها ، فتوجه إليها عام (٥٢٣ هـ = ١١٢٨ م) وحاصرها . وعندئذ استنجد حسام الدين تمرتاش أمير ماردين بابن عمه ركن الدولة داود أمير حصن كيفا لصد زنكي عن نصيبين وحمله على فك الحصار عنها ، ثم ما لبث أن أرسل رسالة مستعجلة على جناح طائر إلى أهالي نصيبين ونوابه وأجناده فيها يطلب منهم الثبات في الدفاع مدة لا تتجاوز الخمسة أيام حيث ستصلهم النجدة قبل هذه المدة . إلا أن هذه الرسالة سقطت بيد زنكي واطلع على ما فيها ، ومن ثم قام بتدبير خدعة للاستيلاء على نصيبين بأيسر طريق فأمر بكتابة رسالة أخرى إلى أهاليها جاء فيها : (من حسام الدين تمرتاش : إنني قد قصدت ابن عمي داود وقد وعدني بالنجدة والتوجه على رأس قواته لهذا الغرض وسوف لا يتأخر وصوله إلينا بأكثر من عشرين يوماً ، وأطلب منكم الثبات طيلة هذه المدة !) ثم أرسل الرسالة إلى نصيبين على جناح طائر آخر ، فلما اطلع النصيبيون عليها خافوا على نفوسهم وأيقنوا بعجزهم عن الدفاع عن البلد طيلة هذه المدة فأرسلوا إلى زنكي وصانعوه وسلموا إليه القلعة . وبذلك بطل على حسام الدين وداود ما كانا قد عزما عليه[٢] .

وبفتح نصيبين تمهد لزنكي الطريق لتحقيق أهدافه ضد إمارات ديار بكر ،

---

(١) نصيبين : مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل الى الشام ، قريبة من سنجار (ياقوت ، بلدان ٧٨٧/٤) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ٢٤٦/١٠ – ٢٤٧ ، الباهر ص ٣٦ – ٣٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٣٥/١ – ٣٦ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٥ – ٦ ، وقد أشار الى الحدث باختصار كل من أبي شامة ، الروضتين ٧٧/١ ، (الطبعة الجديدة) ، وابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ٣٩ ب ، ٤٨ آ) وانظر ، Lane — pool, Saladin, P. 49.

أهداف زنكي في ديار بكر :

في سنة (٥٢١ هـ = ١١٢٧ م) ، ولي عماد الدين زنكي حكم الموصل من قبل السلطان السلجوقي محمود بن ملكشاه . وقد وضع هذا الأمير الطموح نصب عينيه منذ البداية تحقيق برنامج على مرحلتين، تستهدف أولاهما الاستيلاء على المدن والإمارات المحلية في الجزيرة والشام وتوحيدها مع إمارة الموصل ، وتستهدف ثانيتهما مجابهة الصليبيين في الجزيرة والشام ، اعتماداً على قاعدة عسكرية وسياسية وبشرية واسعة النطاق ، تتمثل في الإمارة الموحدة التي قرر انشاءها [١] . وقد تمكن زنكي في السنة التالية لحكمه من الاستيلاء على حلب وبهذا حصل على موقع استراتيجي هام لإنجاح برنامجه ، إلا أنه كان عليه آنذاك أن يؤمن الجسر الواصل بينها وبين الموصل ، وكانت إمارات الأراتقة في منطقة ديار بكر تمثل قلب ذلك الجسر وعائقاً رئيسياً في مواصلات زنكي مع الشام في حالات اصطدامه مع الصليبيين [٢] . وهكذا غدا مركز الأراتقة في وضع خطر وكان عليهم أن يتخذوا موقفاً دفاعياً إزاء هذا الخطر المشترك ، وأن يحدوا من مطامحهم وخططهم الهجومية لتوسيع إماراتهم كما حدث في مرحلة التأسيس [٣].

---

(١) في الفصل الثالث تحليل أوسع لخطط زنكي ونتائجها على الأراتقة .

(٢) انظر ابن الأثير ، الباهر ص ٣٩ .

(٣) انظر الفصل السابق .

إذ غدا هذا الموقع قاعدته العسكرية في المنطقة. وأدرك أمراء ديار بكر وعلى رأسهم الأراتقة مدى خطورة زنكي على ممتلكاتهم فعقدوا تحالفاً بينهم في العام التالي (٥٢٤ هـ = ١١٢٩ م) للقضاء عليه ، اشترك فيه أمراء بني أرتق : حسام الدين تمرتاش وابن عمه ركن الدولة داود ، وانضم إليه سعد الدولة أبو منصور إيكلدي صاحب آمد ، فضلاً عن عدد كبير من التركمان الذين كانوا يكنون الطاعة والإخلاص لداود ، وكان هذا بعيد الصوت فيهم وبخاصة القادرين منهم على حمل السلاح[1] ، إذ ما أن استدعاهم مستنجداً بهم حتى جاؤوه بأعداد كبيرة ، فشكل الحلفاء جيشاً قوامه عشرون ألف مقاتل . وعندما سمع زنكي بذلك اتجه إليهم على رأس أربعة آلاف فارس[2]، والتقى بهم بالقرب من دارا[3] ، التابعة لتمرتاش وهناك اشتبك الطرفان في قتال شديد صبر فيه الفريقان واستبسل جند زنكي وانتهت المعركة بهزيمة قوات ديار بكر ، واستيلاء زنكي على بلدتي سرجى[4] ودارا[5] .

اتجه داود عقب المعركة ، على رأس عدد كبير من التركمان ، إلى جزيرة ابن عمر التابعة لزنكي ، فنهب المنطقة وخربها كإجراء انتقامي ضد عدوه وكمحاولة منه لصرفه عن تحقيق انتصارات أخرى في ديار بكر وجره إلى

---

(١) ابن الأثير ، الباهر ص ٨١ .

(٢) ربما كان في هذين الرقمين شيء من المبالغة لإظهار قدرة زنكي على التغلب على أقوى الأعداء . والذي يدعو الى الشك ورود الرواية على لسان ابن الأثير .

(٣) دارا : بلدة تقع على سفح جبل بين نصيبين وماردين (ياقوت، بلدان ٢/٥١٦).

(٤) سرجى : حصن بين نصيبين ودارا (ياقوت ، بلدان ٣/٧٠) .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ١٠/٢٤٦ ، الباهر ص ٣٨ – ٣٩ ابو شامة ، الروضتين ١/٧٨ (ط. جديدة) ، ابن الفرات ، تاريخ (مخطوطة ٣/١٤)، Grousset, croisades, 1/670.

القتال في مناطق بعيدة . وقد حاول زنكي ملاحقة داود في منطقة جزيرة ابن عمر إلا أنه لم يستطع ذلك بسبب ضيق المالك ووعورة الطريق ، وانتشار أتباع داود من التركمان في المنطقة ، ومن ثم اكتفى باستمالة سكان الجهات التي تمكن من الوصول إليها ثم قفل عائداً[1] .

سياسة الاحلاف بين زنكي والاراتقة :

وحين أدرك زنكي مدى خطورة التحالف بين أمراء الأراتقة لجأ إلى الأساليب السياسية كي يحدث الانشقاق في صفوف أولئك الأمراء ليسهل عليه من ثم اقتطاع ممتلكاتهم ، وأدرك أن خير وسيلة لتحقيق أغراضه هي إيجاد تحالف متين مع أحد هؤلاء الأمراء والاستعانة به ضد الآخرين . ولم يكن هنالك مجال للتحالف مع داود أمير حصن كيفا الذي كان يتصف بالصلابة والحقد على زنكي وكان يتحين الفرص لضربه بدليل أنه ما أن سمع بتوجه زنكي إلى بغداد عام (٥٢٦ هـ = ١١٣١ م) ، لمساندة السلطان ضد الخليفة المسترشد حتى خرج من حصن كيفا وأغار على نصيبين[2] ، ولذلك كان من الصعب على زنكي التحالف معه ، فلجأ الى تمرتاش الذي كان أكثر مرونة ورغبة في المسالمة من ابن عمه داود ، وراح يعمل على التقرب منه وأوقف مهاجمته لممتلكاته ، وإذ أحس تمرتاش باتجاه زنكي الودي منه رأى هو الآخر أن التحالف معه يخلصه من الأخطار التي تحيق بإمارته من جهة زنكي نفسه ، وأن التضحية بابن عمه لا بد منها في سبيل كسب حليفه الجديد وائتمان

---

(١) انظر الهامش السابق .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ١/٥٢ (وهو يطلق على داود اسم إبراهيم والصحيح داود) .

جانبه[1] .

كان أول عمل مشترك قام به زنكي وحليفه هو محاولة الاستيلاء على مدينة آمد ، فتوجها إليها وضربا عليها الحصار ، فأرسل صاحبها سعد الدولة إيكلدي (٥٠٣ – ٥٣٦ هـ = ١١٠٩ – ١١٤١ م) ، إلى داود يطلب منه النجدة ، فجمع هذا جيوشه ومتطوعيه من التركمان واتجه إلى آمد لرفع الحصار عنها ، فالتقى الطرفان على باب آمد في آخر جمادى الآخرة عام (٥٢٨ هـ = ١١٣٤م)[2] ، وتقدم داود إلى زنكي يطلب تأجيل القتال بعض الوقت فأجابه الاخير إلى ذلك . وكان داود يؤمل أن يتمكن خلال ذلك من إجراء مفاوضات لعقد الصلح ، إلا أن زنكي ما لبث أن أمر قواته بمباغتة معسكر داود ، وكان أتباعه قد اطمأنوا إلى السلم ، فأطبق عليهم جند زنكي من كل جانب وشتتوهم وقتلوا منهم عدداً كبيراً وأسروا معظم أمرائهم ، وغنموا معسكرهم ، وفر داود والآخرون عبر المرتفعات[3] .

استمر حصار زنكي وحليفه تمرتاش لآمد ، وقاما خلال ذلك بعمليات تخريبية في المنطقة فقطعا الأشجار وخربا بعض الجهات المكشوفة ، ولكن المدينة صمدت لما كانت تتمتع به من حصانة ، إذ كان يحيط بها سوران[4] الأمر الذي اضطرهما إلى رفع الحصار عنها بعد أن صالح صاحبها زنكي ، لقاء

---

(١) انظر الفارقي ، تأريخ آمد (مخطوطة ١٢١ آ) .

(٢) المصدر السابق ، ورقة ١٢٠ ب – ١٢١ آ ، ابن القلانسي ، دمشق ص ٢٤٣ ، ابن الاثير ، الكامل ١١/٥ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٥٣ – ٢٥٤ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٣/٥٥ – ٥٦) .

(٣) ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٣/ ٥٥ – ٥٦) .

(٤) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ٦٦ آ – ١٢٢ ب) .

مبلغ من المال دفع له[١] . ومن ثم اتجه زنكي وحليفه إلى قلعة الصور العائدة لداود والتي تقع في نفس المنطقة من ديار بكر وحاصراها وشددا عليها . وفي رجب من عام (٥٢٨ هـ = ١١٣٤ م) تم الاستيلاء على القلعة بعد دفاع شديد من قبل حاميتها[٢] التي كان يقودها الأمير فخر الدين قرا ارسلان بن داود نائباً عن أبيه[٣] وقد قتل في هذه المعركة الأمير حمدان بن أسلم والي القلعة[٤] .

تسلم زنكي قلعة الصور وسلم مفاتيحها لحسام الدين واهباً إياها له[٥] ، تقديراً لمساعداته لهوتأكيداً لتحالفهما الذي كان لا بد لهمن وسائل تقويه وتقيّمه على أساس من المصالح المتبادلة ، حتى يضمن بقاءه ليجابه أعداءه في المنطقة ويحقق مكاسب أخرى ويعيد الكرة على إمارتي آمد وحصن كيفا .

وفي عام (٥٣٠ هـ = ١١٣٥ م) ، اتسعت شقة الخلاف بين حسام الدين

---

(١) ينفرد ابن منقذ ، الاعتبار (ص ١٥٥) ، بالقول بأن زنكي وحليفه انسحبا إثر هزيمتهم عند اسوار آمد ، والارجح ما أوردته بقية الروايات . انظر الهامش التالي .

(٢) ابن القلانسي ، دمشق ص ٢٤٣ . الفارقي، تاريخ آمد (مخطوطة ١٢٠ب—١٢١ آ). ابن الأثير ، الكامل ١١ / ٥ ، الباهر ص ٤٨ (يشير الى آمد فقط) ، أبو شامة ، الروضتين ٧٩/١ (ط. جديدة) مكتفياً بالإشارة ، جاعلاً الحادثة عام ٥٢٩ وهو مخطىء ، ابن العديم ، زبدة الحلب ٢٥٣/٢ – ٢٥٤ ، ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٠٣ آ) جاعلاً الحادثة عام ٥٢٧ وهو مخطىء ، والأصح عام ٥٢٨ كما هو واضح من سياق الأحداث ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٥٥/٣ – ٥٦) .

(٣) ابن منقذ ، الاعتبار ص ١٥٥ – ١٥٦ .

(٤) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٠٣ آ) .

(٥) ابن منقذ ، الاعتبار ص ١٥٥ – ١٥٦ ، الفارقي ، تأريخ آمد (مخطوطة ١٢٠ ب – ١٢١ آ) ، ابن العديم ، زبدة الحلب ٢٥٣/٢ – ٢٥٤ ، ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٠٣ آ – ١٠٣ ب و ١٣٤آ).

Gibb, Zengi and the Fall of Edessa, in Setton, 1/457.

وابن عمه وهددت بالحرب بحيث اضطر حسام الدين إلى نقض بعض الأجـزاء التي لا تحتمل المقاومة من عاصمته ماردين ، وأمر سكانها بالانسحاب في الوقت الذي ازداد فيه تحالفه مع زنكي قوة عن ذي قبل وقامـا بشن هجماتها على جبل جور والسيوان واستوليـا عليها حيث وهبها زنكي لحليفه[١] وعلى إثر هذه المعـــارك هرب قرا أرسلان بن داود إلى أبيه معرضـــاً مناطق ولايته للخطر[٢] ، وحاول حسام الدين الإفادة من تحالفه مع زنـكي في توسيـع إمارته بضم بعض المواضع القريبة ، وتمكن عام (٥٣٠ هـ = ١١٣٥ م) من الاستيلاء على قلعة الهتاخ[٣] وهي آخر حصون الإمارة المروانية في ديار بكر ، وكانت على غاية من الحصانـــة ، إلا أن ظروف المروانيين ساعدت حسام الدين على الاستيلاء عليها والقضاء نهائياً على بقايا الإمارة المروانية في المنطقة . وذلك أن ابن أحمد المرواني (أمير الحصن) تمرد على أبيه أثناء تغيبه عن الهتـــاخ عام (٥٢٨ هـ = ١١٣٣ م) ، فلجأ الأمير أحمد إلى حسام الدين وأقام في خدمته فترة من الزمن ، استطاع خلالهـــا الابن الآخر لأحمد (وهو عيسى) ، أن يطرد أخاه بهرام في مطلع عام (٥٢٩ هـ = ١١٣٤ م) ، ويستولي على مقاليد الحكم في القلعة ، فأرسل إليه أبوه يطلب منه أن يسلم (الهتاخ) إليه فرفض هذا طلبه ، وعند ذلك تقدم الأمير أحمد إلى حسام الدين وأعلن تنـازله عن

---

(١) وربما فتحت البارعية أيضاً في هذه الجولة وأعطيت لحسام الدين ، كما يشير ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٥٤ ، وهـــو المصدر الوحيد الذي يذكر ذلك ، كما أنه ينفرد (٢/٢٧١) بالإشارة الى استيلاء زنكي على رأس العين وجبل جور أثناء تأزم العلاقة بينه وبين حسام الدين عام ٥٣٣ هـ. ويشير الفارقي (مخطوطة ١٢٠ ب) الى أن زنكي وحليفه استوليا هـذا العام ٥٣١ كذلك على بالمرقتين في ديار بكر .

(٢) الفارقي ، (مخطوطة ١٢٠ ب - ١٢١ أ) ، ابن شداد ، ورقة ١٠٣ ب ،

(٣) الهتاخ : قلعة حصينة قرب ميافارقين (ياقوت ، بلدان ٤/٩٥٢) .

القلعة له وطلب منه أن يهاجمها ، فهاجمهـــا هذا عام ٥٣٠ ، على اختلاف في المصادر ، وتمكن من الاستيلاء عليها وضمها إلى إمارته[١]. وبالرغم من استيلاء الأراتقة على معظم حصون المروانيين ، فإن أبنـــاء هؤلاء وأحفادهم وأمراءهم اتخذوا من بلدان الأراتقة مجالاً لنشاطهم الاعتيادي وأماكن لسكناهم ، وقد رحب بهم الأراتقة وأعدّوهم مناصب إدارية عالية[٢] .

لم يلبث التحالف ، الذي كان قائمـــاً بين حسام الدين وزنكي ، أن بدأ يضعف ، وكان السبب الرئيسي لذلك هو قيام الأمير أبو بكر نائب زنكي في نصيبين بالالتجاء إلى حسام الدين ، فلم يقم هـــذا بتسليمه إلى زنكي ، فألحّ الأخير على تسليمه إليه فرفض ، وجرت بينهما منازعـات طويلة بسببه اضطر حسام الدين ، على إثرها ، إلى تسليم أبي بكر إلى السلطان مسعود الذي سلمه بدوره إلى زنكي لينال عقابه[٣] .

---

(١) الفارقي ، القسم المنشور ص ٢٥٣ - ٢٥٤ ، وتختلف بقيـة المصادر في تحديد تأريخ استيلاء حسام الدين على هذه القلعة ، فيجعلها كل من ابن القلانسي ، دمشق ص ٢٦٢ - ٢٦٣ ، وسبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ١٦١/٨ ، عام ٥٣١ هـ. ويجعلها كل من ابن الاثير، الكامل ٢٧/١١ ، وأبو الفـدا ، المختصر ٣ / ١٤ ، وابن خلدون ، العبر ٥ / ٤٩١ ، وابن العبري، المختصر ص ٣٥٨ عام ٥٣٢ ولا شك أن الفارقي يرجح غـيره في هذا المجال لتخصصه في تاريخ المنطقة .

(٢) الفارقي ، القسم المنشور ص ٢٥٢ - ٢٦٣ .

(٣) الفارقي ، تأريخ آمد (مخطوطة ١٣٦ آ ، ب) . ولم يشر الفارقي - ولا غـيره من المؤرخين - الى السبب الذي دفع نائب نصيبين الى الالتجاء الى حسام الدين . وربمـا كان ذلك يرجع لقضايا إدارية ، أما سبب تشبث حسام الدين بهذا الامير رغم طلب حليفه زنكي تسليمه إياه فينسبه الفارقي الى صفات حسام الدين في الكرم والجـود « وأنه كان له من الذمة وحسن الجوار ما لم يكن للعرب » ، ورقة ١٣٦ آ ، ب.

غير أنه لم يحـــدث أي اصطدام بين الطرفين[1] ، لأن زنكي رأى أن من مصلحته المحافظة على هذا الحلف وتماسكه ليعينه على فرض سيطرته التدريجية على المنطقة ، ولكي لا يتجه حسام الدين إلى التحالف مع ابن عمه وصاحب آمد فيغدو منعزلاً بالتالي ، كما حدثت في العام نفسه حادثـة أدت إلى تدهور العلاقات بين حسام الدين وابن عمه داود وزادت من تماسك الحلف بين زنكي وصاحبه الأرتقي . حيث يشير الفارقي إلى أن داودا غزا أرزن[2] وسبا أهلها واستباح عسكره الناس ، ففر أميرهـــا حسام الدولة قرتي بن الأحدب الى ميافارقين ملتجأ لدى تمرتاش[3] .

وهكذا بدا أن الظروف حتمت التقارب بين الطرفين من جديد ، فأرسل زنكي حاجبه صلاح الدين الياغسياني إلى ماردين للتفـاوض مع تمرتاش حول عقد الصلح (٥٣٣ هـ = ١١٣٨م)، ونجح الياغسياني في مهمته بعد أن سلم حصن دارا إلى تمرتاش ، ورغب زنكي في توثيق عرى هذا التحالف ، ووجد الزواج خير وسيلة ، فخطب لنفسه (صفية خاتون) ابنة حسام الدين تمرتاش[4].

أدت هذه الظروف الجديدة إلى اتساع شقة الخلاف بين تمرتاش وابن عمه ، وبالتالي إلى اتساع نطاق العمليات الحربية والنشاط التخريبي بينهما فأغار داود

---

(١) يذكر ابن واصل، مفرج الكروب ٨٣/١ أن زنكي نازل في هذا العام ٥٣٣ قلعة دارا التابعة لحسام الدين فلم ينل منها طائلاً فرحل عنها الى حران ، ولم تؤيد المصادر الاخرى هـذه الرواية .

(٢) أرزن : مدينة مشهورة قرب خلاط من نواحي أرمينية (ياقوت ، بلدان ٢٠٥/١ – ٢٠٦) .

(٣) تأريخ آمد (مخطوطة ١٢١ب).

(٤) المصدر السابق ، نفس الورقة ، ابن شداد ، الاعلاق (مخطوطة ١٠٣ ب) .

في عام (٥٣٥ هـ = ١١٤٠ م) على ميافارقين ونهب أطرافها وحاصر المدينة طيلة ثمانية أيام ثم رحل إلى (تل شيح) القريبة منها فاستولى عليها ، وأقطع ما استولى عليه لأمرائه ، وقام بشن هجمات يومية منظمة على ميافارقين ، وفرض سيطرته على المنطقة كما أخذ يقوم باختطاف السكان الذين كانوا يغادرون المدينة لقضاء حاجياتهم[١]. وكان بميافارقين آنذاك كل من شرف الدين حبشي وزير تمرتاش والحاجب يوسف بن ينال « فدبرا الأمر وساسا البلد » واستطاعا أن يصمدا بميافارقين أمام ضغط وهجمات داود[٢] .

أسرع زنكي خلال ذلك بمهاجمة ممتلكات داود ليشغله عن التضييق على ميافارقين ، وليستغل الفرصة للحصول على بعض المغانم ، فتصدت له قوات الأخير بقيادة ابنه قرا أرسلان بالقرب من قلعة بهمرد[٣] ودارت بين الطرفين معركة عنيفة انتصر فيها زنكي وانهزم قرا أرسلان تاركاً قلعة بهمرد تحت رحمة عدوه فاتجه هذا إليها واستولى عليها دون مقاومة تذكر ، واكتفى بهذه الغنيمة[٤] لدخول الشتاء واشتداد البرد في المنطقة وقفل عائداً الى الموصل[٥] .



(١) الفارقي ، تاريخ آمد (مخطوطة ١٢٢ آ)، ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٠٣ب).
(٢) المصادر السابقة ، نفس الاوراق .
(٣) بهمرد : يرجح أنها قريبة من حصن كيفا في ديار بكر لكونها من ممتلكات الامير داود.
(٤) يذكر ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ورقة ١٢١ب)، أن زنكي اخذ من الاراتقة هذا العام حصن الموزّر ، ولم يحدد تبعية هذا الحصن لأي من الإمارتين . ولا شك - إن صح الخبر- أنه كان ضمن إمارة داود التي تعرضت لهجمات زنكي هذا العام .
(٥) ابن الأثير ، الكامل ٣٢/١١ ويجعل ابن الأثير هنا داوداً نفسه قائداً لجيوش كيفا . والارجح أن القيادة كانت لابنه كما ذكر ابن العديم ، زبدة الحلب ٢٧٦/٢ ، إذ ان الاب كان مشغولاً في هذه الفترة بشن الهجمات على ميافارقين. ويخطىء ابن الأثير في الباهر ص ٤٧ في جعل الحادثة عام ٥٢٦ وهذا شأن (الباهر) في ضبط التواريخ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٨٩/١ .

أدرك كل من حسام الدين وداود أن هذا الخلاف الذي اشتد بينهما واتسع إلى درجة الحرب والتخريب ، لن يفيد أحداً منهما بقدر ما يفيد زنكي الذي قد يستغله بصورة دائمة من أجل الحصول على مكاسب أخرى في المنطقة وإخضاع الأراتقة لطاعته . وفي بداية عام (٥٣٦ هـ = ١١٤١ م) تبادل الطرفان الرسل ودارت بينهما المفاوضات التي انتهت باقرار الصلح ، واتجه داود إلى ميافارقين حيث اجتمع بابن عمه بعد سنوات من العداء(١) .

وأدرك زنكي أن الصلح الذي تم بين الاميرين الأرتقيين سيكون على حسابه للحد من مطامحه في المنطقة ، فاتخذ إجراءات سياسية تكفل عدم انعزاله من جهة واكتساب حليف جديد يهدد به دائماً حليفهُ السابق حسام الدين إذا ما حاول التراجع أو معاداة زنكي من جهة أخرى ، كما يكفل له عزل صاحب آمد ومن ثم يسهل عليه تحقيق أهدافه في ديار بكر . وقد استطاع زنكي أن يحقق هذه الخطوات الثلاث في أقل من عام ، إذ تم الصلح بينه وبين داود الذي سرعان ما بعث أولاده لتقديم الطاعة لغريمه القديم (٢) . وبذلك ضمن زنكي لنفسه حليفاً جديداً قوي الشكيمة ، كان من قبل أشد أعدائه في المنطقة ، وكان زنكي – خلال ذلك – قد أرسل إلى صاحب آمد يطلب منه الانفصال عن موافقة داود والسير في فلك سياسته ، ويدعوه الى الدخول في طاعته والخطبة له ، وهدده ، إذا لم يستجب له ، بالتوجه إلى آمد وحصارها ، فاضطر صاحب آمد إلى إجابة مطالبه وأعلن الطاعة والخطبة له (٣) . وكان

---

(١) الفارقي ، تأريخ آمد ورقة ١٢٢ آ ، ب ، ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٠٤ آ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٧٦ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ١١/٣٦ – ٣٧ ، الباهر ص ٦٤ ، ونقل عنه ابو شامة ، الروضتين ١/٩٢ (ط. جديدة) ، وابن واصل ، مفرج الكروب ١/٩٠ .

صاحب آمد من قبل حليفاً لداود ضـد زنكي ، والراجح أن إجابته لمطالب الأخير كانت نتيجة لعقد الصلح بين زنكي وداود ، فغدا هـو منعزلاً واضطر إلى إعلان الطاعة ، هذا فضلاً عن تخوفه من قوة زنكي العسكرية [١] .

التمهيد للقضاء على الأراتقة :

راح زنكي إثر ذلك يعد العدة للاستيلاء على ميافارقين التابعة لتمرتاش ، فقرر التواطؤ مع شرف الدين حبشي وزير حسام الدين الذي كانت علاقته قـد ساءت مع صاحبه تمرتاش [٢] ، فأرسل في أواخر عام (٥٣٦ هـ = ١١٤٢ م) ، يطلب من تمرتاش إرسال وفد للمفاوضة إلى الموصل برئاسة شرف الدين حبشي، وأعلمه بأن هذا يتمكن دون غيره من التفاهم معه والتوصل إلى اتفـاق لصالح الطرفين، فأجابه حسام الدين تمرتاش وأرسل وفداً برئاسة حبشي إلى الموصل، فاستقبلهم زنكي بإكرام بالغ وأبقاهم عنده ثلاثة أيام عاد أعضاء الوفـد بعدها وبقي حبشي في الموصل [٣]، فقدم إليه زنكي هدايا ثمينة لاستمالته وجرت بينهما مباحثات سرية انتهت بعزم حبشي على خيانة صاحبه ، حيث اتفق مع زنكي على تسليمه ميافارقين ، وحلف له على ذلك [٤] .

ويظهر أن السياسة الإدارية الظالمة التي اتبعها حبشي إزاء الأهالي ألبت عليه تمرتاش فأخذ يتحين الفرص لضرب وزيره الذي غدا يتمتع بمركز قوي في الحكم ، لذا فما أن غادر حبشي إمارة ماردين هذا العام إلى الموصل حتى اتخذ

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١١/٣٧ .
(٢) انظر الفصل الخامس .
(٣) الفارقي ، تأريخ آمد (مخطوطة ١٢٢ ب) .
(٤) المصدر السابق، ورقة ١٢٢ ب – ١٢٣ آ ، ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٠٤ أ).

تمرتاش بعض الإجراءات الإدارية ضده وأطلق أحد مناوئيه من المعتقل ورد إليه جميع الأمور[1] وربما كان هذا هو الدافع الاساسي للمؤامرة التي دبرهـا حبشي مع زنكي . وكان استيلاء الأخير على ميافارقين يعد ذا أهميـة كبيرة لأنه يعطيه المجال للحصول على قاعدة للهجوم على بقية ممتلكات تمرتاش .

وإزاء هذه الخطوات السياسية التي اتخذها زنكي خلال عامي (٥٣٦ – ٥٣٧ = ١١٤١ – ١١٤٢ م) استطـاع أن يحصل على مركز قوي في المنطقة ، وأن يستغل هذا المركز لمدّ نفوذه في ديار بكر ، والسيطرة على عـدد آخر من المواقع يمكنه بعد ذلك ، من القيـام بخطوته الحاسمة ، وهي الانقضاض لإسقاط حكم بني أرتق .

وفي أواخر عام (٥٣٧ = ١١٤٣ م) وأوائل العام التالي قام زنكي بحملة واسعة على حصون ديار بكر الشمالية ، مستغـلاً صلحه مع داود وخضوع صاحب آمد لسلطته رسمياً ، وانعزال تمرتاش وعدم استطاعته القيـام بعمل ضده ، وقد تمكن زنكي من الاستيلاء في هذه الجولة على عدد من القـلاع والحصون الواقعـة في أقصى شمـالي ديار بكر ضمن ولاية أمير محلي يدعى (يعقوب بن السبع الأحمـر)[2] ، فضلاً عن فرض سيطرته على حصن جملين التابع للأراتقة ، ومن ثم قام بترتيب أوضاع هذه الحصون ووضع في كل منها حامية عسكرية لتحميها من هجمات الأعداء[3] . وقد أدت هذه العمليات إلى

---

(١) الفارقي ، تأريخ آمد (مخطوطة ورقة ١٢٢ ب – ١٢٣ آ) ، وانظر الفصل الخامس.

(٢) واهم تلك الحصون الدوق وفطليس وباتاسا وذي القرنين وطنزة واسعرد وحيزان (انظر الهامش التالي) .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ١١ / ٣٩ ، الباهر ص ٦٦ ، ونقل عنه أبو شامة ، الروضتين =

تخوف تمرتاش من نوايا زنكي فقام بهدم قلعة الأمراة القريبة من ماردين وعدد من المواقع المحيطة بها كي لا تكون أهدافاً سهلة المنال لزنكي[1] ربما استغلها كمواقع للهجوم على ماردين .

اتجه زنكي إثر ذلك مباشرة لتصفية الإمارات الأرتقية ، فرأى أن يتقدم أولاً إلى ميافارقين لتنفيذ الخطة التي رسمها مع شرف الدين حبشي ، فزحف إليها على رأس قواته ونزل في إحدى ضواحيها القريبة المسماة (تل بسمى) أملاً في أن يقوم حبشي المقيم في ميافارقين بتنفيذ ما اتفقا عليه من تسليم البلد إليه . ولكن المؤامرة اكتشفت واتفق رجلان من كبار أعيان البلد والمسؤولين فيها وهما (مؤمل الشاقصي) و (محمد بن ابي المكارم الحلبي) على اغتيال حبشي ليلاً وإنهاء الخطر الذي تعرضت له ميافارقين[2] ، فدخلا إلى مخدعه وضرباه بالسيوف وأخذا رأسه واتجها بها إلى حسام الدين تمرتاش في

= ٩٣/١ - ٩٤ (ط. جديدة)، وابن واصل، مفرج الكروب ٩٢/١، وأبو الفدا ، المختصر ٢٥/٥ ، وابن الوردي ، تتمة ٤٤/٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ٢٧٧/٢ ، العظيمي تاريخ (مخطوطة ، حاشية ابن العديم ، زبدة الحلب ٢ / ٢٧٧) ، الفارقي ، تاريخ آمد (مخطوطة ١٢٣ آ ، ١٢٩ آ) ، وينقل عنه ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٠٤ آ ، وانظر ورقة ٢١ ب) ، ابن قاضي شهبة ، السيرة النورية (مخطوطة ٨٠ - ٨١) ، العمري تاريخ الموصل ، ص ٥٧ .

(١) الاب أفرام برصوم ، نزهة الاذهان في تاريخ دير الزعفران ، هامش رقم ١ صفحة ١٣ - ١٤ .

(٢) كانت ميافارقين في هذه الفترة تحت ولاية يوسف بن ينال ، ولم تشر المصادر الى الدور الذي لعبه هذا الوالي تجاه هذه الأحداث سوى انه استمر في منصبه الى رجب سنة (٥٣٩ هـ = ١١٤٤ م) حيث توفي ودفن بها ، ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٠٤ آ - ١٠٥ آ) ، والراجح ان ابن ينال هذا هو الذي أشرف على عملية اغتيال حبشي ولذا استمر في منصبه كوال على ميافارقين بعد فشل المؤامرة التي دبرها الاخير .

ماردين . وسرعان ما انتشر خبر الاغتيال فاضطرب جيش زنكي وعمته الفوضى ، مما اضطره للانسحاب والعودة إلى نصيبين ، إذ أن مقتل حبشي غير المتوقع جعل من الصعوبة عليه السيطرة على ميافارقين[١] .

وفي مطلع العام التالي (٥٣٩ هـ = ١١٤٤ م) ، توفي داود بن سقمان أمير حصن كيفا مخلفة ابنه فخر الدين قرا أرسلان [٢] ورأى هذا أن خير وسيلة للحد من أطماع زنكي وإيقاف خطره على الوجود الأرتقي في ديار بكر ، هي إنهاء الخلافات التي أحدثها زنكي بين إمارتي حصن كيفا وماردين وإعادة التحالف القديم بينهما ، وقام بالخطوة الأولى في هذا السبيل وذلك بمصاهرته لتمرتاش في نفس العام[٣] .

إلا أن ما اتصف به قرا أرسلان من ضعف في تسيير شؤون إمارته هيأ لزنكي الفرصة لاستغلال هذا الضعف فاتجه إلى بلاده واستولى على مدينة حاني بعد حصار قصير الأمد [٤] ثم ما لبث أن استولى على أرقتين وحيرموك وبالمرقتين ، وبذلك استطاع أن يفرض سيطرته على مناطق مهمة من إمارة

---

(١) الفارقي ، تاريخ آمد (مخطوطة ١٢٣ آ ، ب) ، ونقل عنه ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٠٤ آ) . ويذكر ابن الأثير في الباهر ص ٦٦ أن زنكي استولى في هذه الجولة على عدة مواضع من أعمال ماردين ، ولم تؤيد ذلك المصادر الأخرى وبضمنها الكامل مما يضعف هذه الرواية ويرجح عدم الاخذ بها .

(٢) الفارقي ، تاريخ آمد (مخطوطة ١٢٣ ب - ١٢٤ آ ، ١٣٠ ب) ، ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٠٤ أ - ١٠٥ آ) .

(٣) الفارقي ، تاريخ آمد (مخطوطة ١٢٣ب - ١٢٤ أ) .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ١١/٣٩ ، الباهر ص ٦٦ ، ونقل عنه أبو شامة ، الروضتين ١/ ٩٣ - ٩٤ (ط. جديدة) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٠٤ أ) .

حصن كيفا[1] .

أدت هذه العمليات العسكرية التي قام بها زنكي سواء مؤامرة في ميافارقين أم في مهاجمة أملاك قرا أرسلان، الى عودة الخلاف بينه وبين حسام الدين خاصة بعد مهاجمته لجور والسيوان واستيلائه عليها بعد أن كان قد وهبها للأخير عام (٥٣٠ هـ = ١١٣٥ م)[2] .

لم يأبه زنكي لضياع حلفه القديم مع حسام الدين لأنه كان قد ثبت مركزه في ديار بكر وسيطر على مناطق استراتيجية هامة فيها واستولى على قلاع حصينة في شتى جهاتها ، كما كان داود بن سقمان قد توفي وخلفه ابنه الضعيف ، فلم تعد لزنكي حاجة إلى قيام المحالفات العدائية ضد أبناء العم من بني أرتق ، ولكن انهماكه في نفس العام (٥٣٩ هـ = ١١٤٤ م) بفتح الرها الصليبية، أنقذ حسام الدين من قيامه بهجوم جديد ضد ممتلكاته .

وراح حسام الدين خلال السنوات التالية يوثق علاقاته بالإمارات المحلية المجاورة كخلاط وأرزن وبدليس وآمد عن طريق سلسلة من المصاهرات بين أفراد العائلة الأرتقية وبين حكام هذه الإمارات[3] ، فقوي بذلك مركزه في المنطقة ، كما حاول استغلال وفاة داود أمير كيفا عام (٥٣٩ هـ = ١١٤٤ م)،

---

(١) الفارقي ، تاريخ آمد (مخطوطة ١٢٨ ب – ١٢٩ آ ، ١٢٣ ب) . وينقل عنه ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٠٤ أ – ١٠٤ ب) . وتقع البلاد آنفة الذكر في الجهات الشمالية من ديار بكر .

(٢) المصادر السابقة ، نفس الاوراق .

(٣) انظر الفارقي ، تاريخ آمد (مخطوطة ١٢٣ ب – ١٢٤ آ ، ١٢٦ آ – ب ، ١٣٠ آ – ب ، ١٣١ آ) ، ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٢٢ آ) .

فقام في العام التالي (٥٤٠ هـ = ١١٤٥ م) بمهاجمة ممتلكات فخر الدين قــرا أرسلان بن داود وهزم قواته عند رأس عين[١] .

وعندما توجه زنكي عام (٥٤١ هـ = ١١٤٦ م) لحصار قلعة جعبر العائــدة لسالم بن مالك العقيلي ، كان جمال الدين بن حسام الدين في خدمته . والراجح أن حسام الدين كان قد بعث ابنه استمالة لزنكي ، ولكن ما لبث هذا أن قبض عليه واعتقله في معسكره[٢] . وربما كان هــذا الإجراء استعداداً من زنكي لمهاجمة حسام الدين نفسه ، ولكن مقتله أثناء حصــار جعبر سنة (٥٤١ هـ = ١١٤٦ م) أنقذ الأراتقة من خطره بشكل نهائي .

هجوم الأراتقة إثر مقتل زنكي :

وما أن سمع الأراتقة بمقتله عام (٥٤١ هـ = ١١٤٦ م) حتى هاجموا المواقع التي كان قد استولى عليها في ديار بكر وتمكنوا من استرداد معظمها ، أمــا حسام الدين فإنه ركب من ليلته وتوجــه إلى حاني فنازلها واستولى عليها يوم الأربعاء الثالث عشر ربيع الآخر سنة (٥٤١ هـ = ١١٤٦) ، ثم مــا لبث أن استولى بعدها على جبل جور والسيوان وبالمرقتين، ثم انحدر جنوباً واستولى على إقليم شبختان في ديار بكر وعــلى الموزر وتل موزن وجملين ورأس عين ، واكتفى بهذه الفتوحات وقفل عائداً إلى بلاده . وسار فخر الدين قرا أرسلان فاستولى على أرقتين وحيرموك وجميع البلاد التي كان زنكي قد استولى عليهــا بعيد وفاة داود أمير كيفا ، كما تمكن من الاستيلاء على حصن الدوق وفطليس

---

(١) الفارقي ، تاريخ آمد (مخطوطة ١٢٥ آ - ب) .

(٢) الفارقي ، تاريخ آمد (مخطوطة ١٢٧ آ) .

وبلد صاف وقلعة الهيثم واسعرد وياهمرد وطنزى وباتاسا [1] . وقد استفز ذلك سيف الدين غازي ، أمير الموصل ، الذي ورث هذه المناطق عن أبيه زنكي ، فضلاً عما بلغه عن تمرتاش من أنه أظهر سروراً وفرحاً بقتل أبيه [2] ، فتقدم على رأس قواته لاستعادة ما استولى عليه الأراتقة إثر مقتل زنكي والانتقام منهم ، وتمكن من الاستيلاء على قلعة دارا وعدد من المواقع القريبة من ماردين، ثم سار صوب إقليم شبختان[3] التابع لتمرتاش فنهبه وسبى عدداً من سكانه[4]، وتقدم - بعد ذلك - إلى ماردين نفسها فحاصرها وخرب بلدها ونهبه « وفعل به الأفاعيل العظيمة » [5] . فلما رأى تمرتاش ما فعل سيف الدين غازي ببلده قال : « كنا نشكو من زنكي . وأين أيامه ؟ لقد كانت أعياداً ، قد قصدها غير مرة فلم يأخذ هو ولا أحد من عسكره مخلاة تبن بغير ثمن ، ولا تعدى هو وعسكره حاصل السلطان ، وأرى هذا ينهب البلاد ويخربها » [6].

---

(١) المصدر السابق ، ورقة ١٢٨ ب - ١٢٩ آ ، وتناول هذه الاحداث باختصار كل من ابن الاثير الباهر ص ٨٦ وأبو شامة ، الروضتين ٤٧/١ ، وابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ٢١ ب) . ويخطىء ابن الأثير وأبو شامة في الاشارة الى ان الاراتقة استولوا في هذه الجولة - كذلك - على موقعي المعدن وحيزان .

فالواقع ان هذين الموقعين ، وما جاورهما من ممتلكات ولاية يعقوب بن السبع الاحمر في ديار بكر ، كان قد تم الاستيلاء عليها من قبل صاحب خلاط الذي استغل هو الآخر فرصة مقتل زنكي . انظر الفارقي ، ورقة ١٢٩ أ .

وانظر Gibb, zengi and the full of Edessa, P. 513.

(٢) ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٦٣/٣ - ٦٤) .

(٣) شبختان : كورة تمتد الى الجنوب من ديار بكر ، تضم عدداً من المواقع مثل تل بسمى (ياقوت ، بلدان ٨٦٤/١) وتل قراد (المصدر السابق ٨٦٩/١) وغيرها .

(٤) ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٣/ ٦٣ - ٦٤) .

(٥) ابن الاثير الكامل ٥٠/١١ .

(٦) المصدر السابق ، نفس الصفحة ، الباهر ص ٩١ ، أبو شامة ، الروضتين ٦٤/١

اضطر تمرتاش إلى مراسلة سيف الدين غازي ، يطلب منـــه الصلح ويعده بتزويجه ابنته ، فأجابه سيف الدين الى ذلك وقفل عائداً الى الموصل . ومن ثم جرت مراسيم تجهيز ابنـــة تمرتاش [1] ، حيث حضر الشيخ ابن عصرون الى ميافارقين وعقد عليها على عشرين ألف دينار ، وكان بصحبته جماعة من أمراء الموصل [2] .

بعد أن اطمأن حسام الدين تمرتاش من جانب حكام الموصل ، قـــام بمهاجمة ممتلكات إمارة حصن كيفا ، مستغلاً ضعف حاكمها قرا أرسلان ، فنازل أسعرد عام (٥٤٣ هـ = ١١٤٨ م) ، واستولى عليها ، ثم استولى على باتاسا ، وقـــد صحبه في هـــذه الحملة جمال الدين صاحب آمد وابن نيسان كبير أمرائها[3] . وقد تمكن قرا أرسلان من التعويض عن خسائره في نفس العام ، بأن ضم قلعة ملا زكرد إلى إمارته ، بعـــد أن كانت مستقلة عنها تحت حكم أخيه أرسلان تغمش [4] .

وعندما توفي سيف الدين غازي أمير الموصل عام (٥٤٤ هـ = ١١٤٩ م) ،

---

(١) المصادر السابقة ، نفس الصفحات ، وسبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ٨ / ٢٠٣ – ٢٠٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ١٢ / ٢٢٢ ، ابن خلدون . العبر ٥ / ٥٣٣ – ٥٣٤ . ويخطىء ابن الأثير في الباهر (ص ٩١) في جعل هذه الأحداث عام ٥٤٤ ، كعادته في عـــدم ضبط التواريخ ، وينقل عنه ذلك ابن واصل ، مفرج الكروب ١/١١٥ .

(٢) الفارقي : تأريخ آمد (مخطوطة ١٢٩ ب) .

(٣) المصدر السابق ، ورقة ١٣٠ آ . وقد بقيت هذه المواقع بيد تمرتاش فترة من الوقت ثم ما لبث أن أعادها الى امير حصن كيفا (المصدر السابق ، نفس الورقة) ربما لرغبته في استمالة ابن عمه ، أو لتخوفه منه بعد انضمامه الى نور الدين محمود .

(٤) الفارقي ، تاريخ آمد (مخطوطة ١٣٠ آ) .

وخلفه أخوه قطب الدين مودود ، أرسل إلى تمرتاش في قضيـــة ابنته التي لم يدخل بها سيف الدين ، فتم الاتفاق بين الطرفين على تزويجها قطب الدين على أن تكون مدينة دارا التابعة للموصل مهراً لها . وعندما تم الزواج لم يف أمـــير الموصل بتعهده فاضطر تمرتاش إلى منازلة دارا والاستيلاء عليها في ذي الحجة سنة (٥٤٤ هـ = ١١٥٠ م) [١] .

موقف الاراتقة من سياسة نور الدين :

اتضح في نفس العـام (٥٤٤ هـ = ١١٥٠ م) موقف كل من إمارتي ماردين وحصن كيفا الأرتقيتين من سياسة نور الدين محمود تجاه الموصل ، فعندما تقدم هذا إلى سنجار التابعة للموصل واستولى عليها ، أرسل من هناك الى قرا أرسلان أمير حصن كيفا يستدعيه إليه ، تقوية له على أخيه قطب الدين مودود ، لمـا بين الطرفين من علاقة ودية ، فاستجاب له قرا أرسلان وسار عـلى رأس قواته إلى سنجار . فلما سمع قطب الدين – أمير الموصل – بذلك جمع قواته وتوجه إلى سنجار وترددت الرسل – إثر ذلك – بينه وبين أخيه وانتهى الأمر بعقد صلح بينهما نص على احتفاظ نور الدين بالجهات الشامية من إمارة زنكي ، بينما بقيت الجهات الجزرية في حوزة قطب الدين [٢] .

وقف أمير ماردين إزاء هذه الأحداث موقفاً محايداً ، التزاماً بالصلح الذي عقده مع الموصل عام (٥٤٢ هـ = ١١٤٧ م)، وقد أفاد من خلو الجو امامه من

---

(١) المصدر السابق ورقة ١٣٢ آ ب .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ٥٧/١١ ، الباهر ص ٩٥ – ٩٧ ، أبو شامة ، الروضتين ٦٧/١ – ٦٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ١١٨/١ – ١٢٠ ، وابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ٤٨ آ) ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ١٠/٥ – ١٢) .

المشاكل ، فتمكن في العام التالي (٥٤٥ هـ = ١١٥٠ م) ، من انتزاع سميساط من أيدي الروم وضمها إلى إمارته [١] .

بلغ مركز ماردين السياسي في هذه الفترة درجة كبيرة من القوة ، بفضل سياسة حسام الدين إزاء الأمراء المحليين ، الذين غدوا يصدرون عن رأيه في تصريف أمورهم[٢] ، واستغل حسام الدين مركزه القوي هذا وقام في العام التالي ٥٤٦ = ١١٥١م بمحاولة للاستيلاء على آمد ، بحجة مطالبة أميرها بصداق ابنته ، فتوجه إليها ونازلها وسيطر على المناطق المحيطة بها واقطعها لأتباعه ، كما استولى على غلال ذلك الموسم ، فعالج أميرها جمال الدين محمود الأمور بحكمة وأرسل أولاده ومؤيد الدين بن نيسان ، كبير المتنفذين في إمارته ، لإعلان الطاعة لحسام الدين كما قدموا إليه مبلغاً من المال وأصلحوا أمرهم معه ، ومن ثم رحل حسام الدين عن آمد عائداً إلى ماردين[٣]. واتفق إثر ذلك أن اغتيل زين الدين وزير حسام الدين واتهم ابن نيسان باغتياله، مما دفع حسام الدين إلى منازلة آمد ثانية فضرب عليها الحصار وضايقها ، فتوسط لديه إبراهيم بهاء الدين وزير خلاط ، واجتمع به عند أسوار آمد وتحدث معه في شأن الصلح ، ثم دخل إلى آمد واجتمع بابن نيسان وبحث الموضوع معه، ومن ثم خرج إلى حسام الدين وتم على يديه عقد الصلح بين الطرفين ، وفي اليوم التالي خرج الى حسام الدين كل من

---

(١) الفارقي ، تاريخ آمد (مخطوطة ١٣٣ آ) ، ابن الشحنة ، المنتخب ص ١٩٩ . وقد بقيت سميساط ضمن ممتلكات ماردين الى ان استولى عليها مظفر الدين كوكبوري خلال إمارته على حران (انظر المصادر السابقة) . ولم تحدد هذه المصادر السنة التي تم فيها ذلك (من العقد السابع من القرن المذكور) .

(٢) الفارقي ، تاريخ آمد (مخطوطة ١٣٢ ب – ١٣٣ آ) .

(٣) المصدر السابق ، ورقة ١٣٤ ب – ١٣٥ آ ، ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٢٢ آ) .

أمير آمد وزوجته وأولاده وأولاد ابن نيسان ، فقرر حسام الدين معهم قواعد الصلح وقفل عائداً إلى بلاده[1] .

وفي عام (٥٤٧ هـ = ١١٥٢ م) توفي حسام الدين تمرتاش بماردين[2] وتولى الإمارة بعده ابنه نجم الدين البي[3] دون أن تنفسخ عليه حال ، وملك جميع ولاية أبيه ولم يختلف عليه أحد من إخوته ولا غيرهم ، ولم يعص عليه موضع ، وراسل جميع الجوانب واستحلفهم ، وراسلوه وعزوه في أبيه[4]. ولم يطرأ على سياسة ماردين الخارجية في عهده أي تغيير ، إذ التزم بالحياد الذي سار عليه أبوه تجاه الصراع بين نور الدين والإمارات المحلية المجاورة ، في الوقت الذي استمر فيه حكام كيفا على مساندتهم لنور الدين ، وحصلوا مقابل ذلك على مكاسب عديدة .

وقد استغل أمير حصن كيفا قوة مركزه ، بمحالفته لنور الدين ، وقام بعدة محاولات لتوسيع إمارته ، وتمكن عام (٥٥٦ هـ = ١١٦٠ م) من الاستيلاء على قلعة شاتان[5] العائدة لطائفة من الأمراء تدعى (الجوبية) وقد

---

(١) الفارقي ، المصدر السابق ، ورقة ١٣٥ آ - ب .

(٢) يذكر ابن شداد ، المصدر السابق ورقة ٣٦ ب أن نور الدين محمود انتزع من ممتلكات ماردين - قبل وفاة تمرتاش - قلعة البيرة وسلمها لشهاب الدين محمد بن إلياس بن إيلغازي بن أرتق. ولم يحدد ابن شداد ولا غيره من المؤرخين السنة التي تم فيها ذلك، وهي على أية حال فيما بين ٥٤١ - ٥٤٧ هـ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ٧١/١١ ، ابن شداد ١٠٥ أ ، أبو الفدا ، المختصر ٢٧/٣ ، ابن الوردي ، تتمة ٥٣/٢ .

(٤) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٠٥ آ) .

(٥) لم تحدد المصادر الجغرافية موقعها في ديار بكر .

خربها بعد استيلائه عليها وأضاف ولايتها إلى حصن طالب[1] كما قـام بعدة محاولات للاستيلاء على آمد ، وكانت المحاولة الأخيرة تلك التي راسل فيها جماعة من الأمراء الأكراد في آمد ، واتفق معهم على أن يقوم بتوجيه قواته إلى آمد ليلاً ليتسلقوا بالحبال ويستولوا على آمد بمساعدة هؤلاء الأكراد ، وقد عين أمير حصن كيفا لقيادة ذلك الجيش خادماً له ، كان الجند يمقتونه لسوء أخلاقه ، فتقدم هذا الخادم على رأس قوات كيفا ، وإذ توانى في سيره سبقه بقية الأمراء إلى آمد ، حيث مد لهم الأكراد الحبال وطلبوا منهم الصعود فرفض هؤلاء نداءهم،فكسر الأكراد الأبواب وعرضوا عليهم الدخول فتخوفوا، « كل ذلك لاعتماد فخر الدين على صبي جاهل في هذا المهم العظيم دون الأمراء الكبار » ، وعندما علم أمراء آمد وجندها بما يدور عند الأسوار باغتوا المهاجمين وقتلوا بعضهم ولاذ الآخرون بالفرار ، ومن ثم قبض صاحب آمد على المتآمرين وأعدمهم[2] .

وفي عام (٥٦٠ = ١١٦٤ م) ، قبل نور الدين محمود شفاعة حليفه فخر الدين في أخيه (أمير ميران) الذي استجار بأمير كيفا إثر انهزامه من نور الدين في إحدى المعارك التي جرت بينهما[3] .

وعندما اشتد مرض قرا أرسلان عام (٥٦٢ هـ = ١١٦٦ م) ، أرسل إلى حليفه نور الدين محمود يقول له « بيننا صحبة في جهاد الكفار - يقصد الصليبيين

(١) ابن الأثير ، الكامل ١١ / ١١٣ ، أبو الفدا ، المختصر ٣ / ٤١ ، ابن الوردي ، تتمة ٢/٦٤ .

(٢) ابن منقذ ، الاعتبار ص ٨٣ - ٨٤ ، ولم يحدد هـذا المصدر الفترة التي وقعت فيها الأحداث المذكورة .

(٣) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ٨/٢٥٢ .

ـ أريد أن ترعى بها ولدي[1] » وما لبث أن توفي وخلفه ابنه محمد ، فقام نور الدين بنصرته والدفاع عنه . وعندما حاول قطب الدين مودود، أمير الموصل ، مهاجمة إمارة حصن كيفا ليثأر من موقفها المعادي للموصل ، أرسل إليـه نور الدين يمنعه مِن ذلك ويقول له : إن قصدته أو تعرضت لبلاده منعتك قهـراً ، فاضطر قطب الدين إلى التراجع عن محاولته[2] .

وقف أراتقة حصن كيفا إلى جانب نور الدين عندما توجه في سنة (٥٦٦ هـ = ١١٧٠ م) ، لتصفية مشاكل الموصل وإخضاعها لطاعتـه . حيث تقدم في مطلع ذلك العام ، فاستولى على الرقة والخابور ونصيبين وأقام هناك جيشاً له من أبناء المنطقة لأن معظم قواته كانت مرابطة في الشام لمجابهـــة الصليبيين ، ووعد أمير حصن كيفا بأن يهبه قلعة الهيثم[3] لقاء مساعداته[4] ، فتوجه إليه هذا على رأس قواته ، فكثر جمع نور الدين به ومن ثم سار إلى الموصل وضرب الحصار عليها ، فاضطر أمراؤها إلى طلب الصلح وإعلان الطاعة ، وقفل نور الدين عائداً إلى حلب في شعبان ، واتجه حليفه أمير حصن كيفا إلى بلاده[5] .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١١ / ١٣٣ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة ، ابن واصل ، مفرج الكروب ١٥٣/١ - ١٥٤ .

(٣) لم تحدد المصادر الجغرافية موقعها في ديار بكر .

(٤) أبو شامة ، الروضتين ٣٨/٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ١٣٢/٢ ، وكلاهما نقـل هذه الرواية عن العماد الاصفهاني ، ويخطىء ابن الأثير ، في الباهر (ص ٩٦ - ٩٧) في القول بأن وعد نور الدين لأمير حصن كيفا بمنحه الموقع المذكور حدث عام ٥٤٤ هـ. لدى توجـه نور الدين الى الموصل لأول مرة .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ١٤٦/١١ - ١٤٧ ، الباهر ص ١٥٢ - ١٥٤ ، أبو شامـة ، الروضتين ١٨٧/١ - ١٨٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ٣٣١/٢ - ٣٣٣ .

ومن ثم وفي له نور الدين بوعده وسلمه قلعة الهيثم[1] .

وعند وفاة نور الدين محمود عام (٥٦٩ هـ = ١١٧٣ م) ، تعرضت المواقع القريبة من ماردين لهجمات أمير الموصل إلا أنه لم يتعرض لممتلكات ماردين نفسها[2] ، بسبب الموقف المحايد الذي التزمته هذه الإمارة إزاء الصراع بين نور الدين والموصل .

وبالرغم من اختلاف موقف كل من إمارتي ماردين وحصن كيفا من تحركات نور الدين تجاه الإمارات المحلية في المنطقة ، فإن كلتيهما دخلتا في طاعته من الناحية الرسمية ، أي من ناحية الخطبة والسكة ، وقد تأكد ذلك بشكل نهائي عام (٥٦٨ هـ = ١١٧٢ م) ، عندما أرسل نور الدين محمود إلى الخليفة العباسي رسالة يطلب منه فيها تقليداً بما بيده من البلاد ... وما في طاعته كديار بكر فأجابه الخليفة إلى طلبه[3] . هذا بينما استمرت خطبة الأراتقة لسلاطين السلاجقة، وضربت السكة باسمهم ، طيلة الفترة التي حكم فيها زنكي ونور الدين[4] .

* * *

تضاءلت العلاقات بين الأراتقة والزنكيين إلى حد كبير إثر وفاة نور الدين

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ٢/٣٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٢/١٣٢ ، وكلاهما نقل الرواية عن العماد الاصفهاني .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ١١/١٦٥ ، الباهر ص ١٧٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٢/ ٥ – ٦ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٥٦٥ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ١١/١٦٠ ، الباهر ص ١٦٢ ، أبو شامة ، الروضتين ١/٢٢٩ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٣٥٠ – ٥٦٢ – ٥٦٣ .

(٤) الحسيني ، الدولة السلجوقية ص ١١٠ – ١١١ ، ١٦٤ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ١/٢١٧ .

محمود . ففي الشام ومصر وبعض أنحاء الجزيرة وأرمينية حلت الدولة الايوبية محل الدولة التي أنشأهـا نور الدين محمود ، وفي الموصل انشغل الزنكيون في الصراع ضد الأيوبيين. واتخذ الأراتقة تجاه الأيوبيين بصورة عامة أحد موقفين ، أولهما مساندة الأيوبيين ضد الإمارات المحلية وبضمنها الموصل ، وثانيهما التحالف مع الإمارات المحلية ، وبضمنها الموصل، للتخلص من النفوذ الأيوبي في الجزيرة، وهكذا غدت علاقات الأراتقـة بالزنكيين أمراً ثانويـاً إزاء علاقاتهم مع الأيوبيين .

الأراتقة وصلاح الدين :

ما إن تولى صلاح الدين بن أيوب مقاليد الأمور في مصر والشام بعد وفـاة نور الدين محمود عام (٥٦٩ هـ = ١١٧٤ م) ، حتى بدأ العمل في تنفيذ خطـة تستهدف توحيد الإمارات الإسلاميـة في الجزيرة والشام ، في نظام اتحادي ليتسنى له بعد ذلك إعلان الجهاد ضد الصليبيين ، بعد أن يكون قد أمـن الخطوط الخلفية لنشاطه العسكري وضمن موارد عسكرية ، بشرية وتموينية ، في قتاله لهؤلاء الأعداء .

وقد وقف الأراتقة في البدء إلى جانب الأمـراء المحليين في المنطقة لإيقـاف نشاط صلاح الدين وتقدمه هناك ، إلا أن ما أحرزه هذا من انتصارات مبدئية على أمراء المنطقة ، اضطر معظم الأراتقة إلى التخلي عن موقفهم العدائي منه حيث لجأوا إلى مداراته وإعلان الطاعة له لينقذوا إماراتهم من هجماتـه ، وليحصلوا من ناحية أخرى على بعض المكاسب لقاء وقوفهم إلى جانبه .

بدأ صلاح الدين خطته بمحاولة الاستيلاء على أهم معقل في شمالي الشام وهو حلب ، فتقدم اليها عام (٥٧١ هـ = ١١٧٥ م) ، ومنذ ذلك الوقت بدأ يتضح

موقف الأراتقة ، إذ سرعان ما أعلنوا تأييدهم لأمراء الموصل والجزيرة وشمالي الشام الذين شكلوا فيما بينهم تحالفاً عسكرياً وسياسياً للدفاع عن ممتلكاتهم ضد صلاح الدين . وانضوى أميرا حصن كيفا وماردين تحت قيادة سيف الدين غازي صاحب الموصل ، والتحق بهذا التحالف عدد آخر من أمراء المنطقة ، وقد بلغ عدد قواتهم ستة آلاف فارس [1] بدأوا تحركهم في ربيع الأول ، وعسكروا في نصيبين منتظرين خروج الشتاء ، ولكن هذا الانتظار أدى إلى نفاد أقواتهم وانتشار الملل بينهم فغدت العودة إلى بيوتهم مع الهزيمة أحب إليهم من الظفر [2] ، ثم اتجهوا إلى حلب وتقدم صلاح الدين بقوات دون جندهم عدداً ، وكان اللقاء في شوال عند تل السلطان قرب حلب حيث أسفر عن هزيمة سيف الدين وحلفائه ، وانفتح الطريق أمام صلاح الدين فسيطر على عدد من الحصون المحيطة بحلب ، ثم حاصر حلب نفسها وجرت مفاوضات بين الطرفين ، أسفرت عن عقد الصلح في العشرين من محرم سنة (٥٧٢هـ=١١٧٦م) وقد دخل فيه جميع أمراء المنطقة وبضمنهم أميرا ماردين وكيفا ، واتفقوا على أن يكونوا جميعاً يداً واحدة على الناكث الغادر [3] .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ١١/١٧٤ - ١٧٥ . ويضيف قائلاً أن العماد الاصفهاني ذكر بأن قوات سيف الدين وحلفائه بلغت عشرين ألف فارس ، ولم يكن الامر كذلك ، « إنما كانوا على التحقيق يزيدون على ستة آلاف فارس بقليل . فإنني وقفت على جريدة العرض وترتيب العسكر المصاف ميمنة وميسرة وقلباً .. وكان المتولي لذلك والكاتب له مجد الدين بن الاثير » .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١١/١٧٤ .

(٣) المصدر السابق ١١/١٧٥ - ١٧٦ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ص ٣١ - ٣٤ ، أبو شامة، الروضتين ١/٢٥٤ ، ابن واصل، مفرج الكروب ٢/٣٧ - ٤٦ ، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ٨/٣٣٢ - ٣٣٤ ، أبو الفدا ، المختصر ٣ / ٦١ - ٦٢ ، ابن الوردي ، تتمة ٢/٨٦ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٥٧١ - ٥٧٢ ، العمري، تاريخ الموصل ص ٦٢ - ٦٣ ، =

وربما كان الدافع الاساسي لانضمام الاراتقة إلى أمراء المنطقةضد صلاح الدين، هو رغبتهم في الخروج من العزلة التي فرضت عليهم طيلة حكم زنكي وبعض فترات حكم نور الدين، وبخاصة أمير ماردين، ومحاولة منهم للحصول على مزيد من المكاسب عن طريق التحالف مع الأمراء المجاورين، فضلاً عن أنهم ربما اضطروا إلى هذا التحالف لوقوعهم في قلب المنطقة المعادية لصلاح الدين. وعلى أية حال فإن هذه البادرة العدائية سرعان ما أوقفت عند حدها بعد معركة تل السلطان، واتخذ موقف الأراتقة من صلاح الدين اتجاهاً آخر.

وتأكيداً للصلح الذي تم في المحرم سنة (٥٧٢ هـ = ١١٧٦ م)، اتجه وفد مكون من رسل صاحب الموصل وأميري ماردين وكيفا إلى دمشق، واستوثقوا بتحليف أخي السلطان شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، وقدموا هدايا عديدة ثم غادروا دمشق إلى مصر للاجتماع بصلاح الدين[1].

* * *

لم يحدث طيلة السنوات التي تلت ذلك ما يؤدي الى نقض هذاالصلح من قبل الأراتقة، بل ظلوا على العهد مستفيدين منه في الحفاظ على ممتلكاتهم والحصول على معونة صلاح الدين ضد أعدائهم. ففي عام (٥٧٦ هـ = ١١٨٠ م)، ساءت العلاقات بين نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب إمارة كيفا وبين قلج أرسلان بن مسعود سلطان سلاجقة الروم. وكان سبب ذلك أن نور الدين كان

= ابن بهادر، فتوح النصر (مخطوطة ١ / ١٨)، العمري، مسالك الابصار (مخطوطة ١/ ٢٧ - ٦٦)،

Gibb, The Rise of saladin, in setton 1/570,
Lane — Poole, saladin, P. 146.

(١) أبو شامة، الروضتين ٢٦٩/١، ابن واصل، مفرج الكروب ٥٧/٢ .

قد تزوج ابنة قلج ارسلان، وبعد مضي فترة من الوقت أحب أمير كيفا إحدى المغنيات فتزوجها ومال إليها وحكمها في بلاده وخزائنه وأعرض عن ابنة قلج أرسلان وأهملها ، فبلغ أباها الخبر فعزم على إعلان الحرب ضد نور الدين محمود والاستيلاء على بلاده ، فأرسل الأخير إلى صلاح الدين يستنجد به ويسأله كف قلج أرسلان عنه[1] . وكان صلاح الدين بانتظار فرص من هذا النوع ، إذ كان عليه أن يقوم بعزل كبار الأمراء الموالين للموصل ليتسنى له بعد ذلك فرض سيطرته عليها[2] ومن ثم أرسل إلى قلج أرسلان يطلب منه التخلي عن محاولته ضد إمارة كيفا ، فأجابه هذا بأنه كان قد أعطى نور الدين محمد عدة حصون مجاورة لبلاده عندما زوجه ابنته ، وبما أن صهره قد سلك مع ابنته هذا السلوك، فإنه قد قرر استعادة ما أعطاه اياه من الحصون. ومن ثم ترددت الرسل بين صلاح الدين وقلج أرسلان دون أن تسفر عن نتيجة. فاضطر صلاح الدين الى التوجه على رأس قواته لإيقاف قلج أرسلان عند حده ، والتحق به نور الدين محمد فلما سمع قلج أرسلان بقرب قوات صلاح الدين منه أرسل إليه أحد كبار أمرائه لطلب الصلح . وانتهت المفاوضات بين الأطراف الثلاثة بعقد اتفاق كان على أمير كيفا بموجبه أن يخرج المغنية من بلده خلال مدة لا تزيد عن سنة ، فإن لم يفعل يتخلى صلاح الدين عن مساعدته ويتفق مع قلج أرسلان ضده ، ومن ثم عاد صلاح الدين إلى بلاده ، وقام نور الدين محمد بإخراج المغنية من بلاده حيث اتجهت إلى بغداد[3] .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ١١/١٩٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٢/٩٦ - ٩٨ .

(٢) Gibb, The Rise of saladin, in setton 1/574 — 575.

(٣) ابن الأثير ، الكامل ١١/١٩٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٢ / ٩٦ - ٩٨ ، أبو شامة ، الروضتين ٢/١٦ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٨/٣٦٠- ٣٦١ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٣٥١ - ٣٥٢ .

Gibb. op. cit, 1/574 — 575.

ما لبث قلج أرسلان أن أرسل إلى صلاح الدين يلتمس عقـــد صلح بين أمراء المنطقة جميعاً ، فتم ذلك في العاشر من جمادى الأولى سنة (٥٧٦ هـ = ١١٨٠م)، ودخل فيه جميع أمراء الموصل وديار بكر والأراتقة[١] وهكذا جاء هذا الصلح ليؤكد الصلح السابق الذي عقد عـــام (٥٧٢ هـ = ١١٧٦ م) ، وغدا الأراتقة بموجبه في سلام تام مع جميع الأمراء المحليين في المنــاطق المحيطة بهم ، فضلاً عن تمتعهم بالحماية الكاملة من قبـــل صلاح الدين الذي كان يضطر أحياناً إلى استخدام القوة في فض المشاكل القائمة بين الأراتقة وجيرانهم[٢] .

الخلاف بين الاراتقة :-

ولكن إذا كان الأراتقة قد أمنوا جانب صلاح الدين وجيرانهم من أمــراء المنطقة ، إلا أن النزاعات الأسرية التي نشبت بينهم بسبب الرغبــة في التوسع الإقليمي كل على حساب قريبه قد أوهنت من قوتهــم . ذلك أن قطب الدين إيلغازي بن البي صاحب ماردين طمع في الاستيلاء على قلعة البيرة[٣] ، التــابعة لأحد أبناء عمه ، وكان هذا تحت حمـــاية عز الدين مسعود صاحب الموصل . فأرسل صاحب ماردين إلى صاحب الموصل عام (٥٧٧ هـ =١١٨١ م) ، يطلب منه أن يأذن له في حصار البيرة والاستيلاء عليها فأذن له ، فتوجــه عـــلى رأس قواته إلى قلعة سميساط التابعة له ونزل بهـــا ووجه عسكره إلى البيرة لحصارها ، وقد استمرّ الحصار دون الحصول على نتيجة فأرسل صاحب البيرة

---

(١) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ص ٣٥-٣٦ ، ونقل عنه أبو شامة، الروضتين ٢/١٧،
Gibb, op. cit, 1/574 — 575. Runciman, A History of the crusades 11/422, Grousset, Histoiredes croisa des 11/683.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ٢/٢٢ .

(٣) البيرة : قرب سميساط على الفرات بين حلب والثغور الرومية (ياقوت، بلدان ١/٧٨٧).

إلى صلاح الدين يطلب منه إنجاده وإجلاء قوات ماردين عن مدينته لقاء الدخول في خدمته والاستظلال بحمايته ، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك وبعث رسولاً إلى صاحب ماردين يشفع فيه ويطلب منه أن يسحب قواته عن البيرة ، فلم يقبل صاحب ماردين شفاعته واستغل انشغال صلاح الدين مع الصليبيين فأمر عسكره أن يطيل الحصار . وإذ لم يحصلوا على غرضهم أمرهم بالرحيل عنها وقفل عائداً إلى ماردين ، ومن ثم اتجه صاحب البيرة للالتحاق بصلاح الدين خلال تحركاته في المنطقة تنفيذاً للاتفاق الذي تم بينهما[١] .

ومنذ هذه الحادثة وطيلة السنوات التالية ، دب الشقاق بين الإمارات الأرتقية بسبب تضارب المصالح والأهداف ، فقد اتبعت إمارة حصن كيفا سياسة متعارضة مع سياسة ماردين تجاه خطط صلاح الدين في المنطقة ، إذ استمر أمير حصن كيفا على ولائه له ، وحصل من جراء ذلك على مكاسب هامة ، بينما حاول صاحب ماردين الانضمام إلى الأحلاف المعادية لصلاح الدين .

ففي عام (٥٧٨ هـ = ١١٨٢ م) ، توجه صلاح الدين إلى الجزيرة بدعوة من بعض الأمراء الموالين له للاستيلاء على المناطق التي لم تخضع لنفوذه . فتقدم إلى البيرة حيث يقيم حليفه شهاب الدين محمد بن إلياس الأرتقي ، فنزل إليه وأعلن طاعته له ، وسأله الدخول إلى قلعة البيرة وقدم له مفاتيحها تأكيداً لولائه المطلق له ، فردها صلاح الدين إليه ووعده باسترداد المناطق التي انتزعها منه صاحب ماردين وإعادتها إليه ، وما لبث أن أرسل إلى الأخير يأمره

(١) ابن الأثير ، الكامل ١١/١٩٣ – ١٩٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٢/١١٦ – ١١٧ ؛ أبو شامة ، الروضتين ٢/٣٠ – ٣١ .

بالتنازل عن تلك المناطق فاضطر هذا إلى إجابة طلبه[1] .

عبر صلاح الدين وحلفاؤه الجسر القريب من البيرة صوب الشرق . وكان صاحب الموصل قد سار – إثر ذلك – إلى نصيبين على رأس قواته استعداداً لتحركات صلاح الدين ، فكاتب هذا أصحاب الأطراف وبذل لهم الوعود على نصرته[2] ، وأعلن أن من قدم الطاعة منهم سلمت بلاده ومن أبى عرض نفسه للهجوم[3] ، فأجابه نور الدين محمد صاحب كيفا بموجب اتفاق تم بينهما سابقاً ، وهو أن يقوم صلاح الدين بالاستيلاء على آمد وتسليمها إليه[1] ، فضلاً عما كان صاحب كيفا يكنه من ولاء لصلاح الدين لوقوفه إلى جانبه في صراعـه ضد سلطان سلاجقة الروم[5] .

وبعد أن استولى صلاح الدين على عدد من المدن الجزرية ، تقدم إلى الموصل ونازلها في رجب ، ولعب أمير كيفا دوراً مهماً في حصارها إذ كلف بالمرابطة على باب الجسر ، إلى الجهة الجنوبية الشرقية من الموصل ، وجرت مناوشات بين الطرفين لم تسفر عن نتيجة . ولم تفلح الجهود التي بذلهـا الخليفـة العباسي وأمراء أذربيجان وأرمينية من أجـل الصلح ، وإذ رأى صلاح الدين حصانة

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ٢/٣٠ – ٣١ . ولم يحدد هـذا المصدر المواقع التي تم التنازل عنها ، وفي رواية ابن شاهنشاه (مضمار الحقائق مخطوطة ص ١٢١) إن جند صاحب ماردين انهزموا من تلك المواضع إثر تقدم صلاح الدين الى المنطقة ومن ثم أعادها الأخير الى حليفه شهاب الدين الأرتقي .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١١/١٩٧ – ١٩٨ ، أبو شامة ، الروضتين ٢/٣٠ – ٣٣ .

(٣) ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق (مخطوطة ١٢١) .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ١١/١٩٧ – ١٩٨ ، أبو شامة ، الروضتين ٢/٣٠ – ٣٣ .

(٥) ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق (مخطوطة ١٢٢) .

الموصل وعدم جدوى الاستمرار في حصارها غادرها إلى سنجار واستولى عليها في شعبان[1] ، ثم اتجه إلى نصيبين ومنها إلى دارا ، حيث تقدم أميرها صمصام الدين بهرام الأرتقي للقائه والترحيب به ، فأكرمه صلاح الدين ولم يعترضه وغادر دارا إلى حران عائداً إلى بلاده في مطلع ذي القعدة[2] وقد استطاع أمير كيفا أن يحصل لقاء موقفه هذا على عدد من الحصون المهمة في ديار بكر وهبها إياه صلاح الدين كقلعة الهيثم وقلعة الجديدة القريبة من نصيبين ، فضلاً عن وعد الأخير بالاستيلاء على آمد وتسليمها إليه[3] .

وخلال هذه الفترة كانت قد جرت مراسلات بين الأمراء المعادين لصلاح الدين شكلوا على إثرها تحالفاً ضم صاحب الموصل وصاحب خلاط وتبعهما أصحابه بدليس وإرزن وحلب وماردين . وقد استهدف هذا التحالف مجابهة صلاح الدين بالطرق السلمية أولاً ، فأرسلوا إليه وهو على حصار سنجار يطلبون منه الانسحاب وإلا أعلنوا عليه الحرب فلم يجبهم إلى ذلك ، فتقدم كل من أميرَيْ خلاط وبدليس إلى ماردين حيث اجتمعا بقطب الدين بن نجم الدين البي

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٩٧/١١ - ١٩٨ ، أبو شامة ، الروضتين ٢ / ٣٠ - ٣٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٢ / ١١٧ - ١٢٤ ، ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق (مخطوطة ١٣٠ - ١٣١) ، ابن بهادر ، فتوح النصر (مخطوطة ٢١/١) ، العمري ، مسالك الابصار (مخطوطة ١ / ٢٧ / ٧٧ - ٧٨) Lane — Poole, saladin, P. 171, Gibb, The Rise of saladin, in setton 1/576 — 77.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ٣٣/٢ (عن العماد) ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٢ / ١٢٤ (عن العماد) ، ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق (مخطوطة ١٣١) ، Gibb, op. cp. cit, 1/577.

(٣) أبو شامة ، الروضتين ٣٧/٢ - ٣٨ (عن العماد) ، ابن واصل ، مفرج الكروب ١٣٢/٢ (عن العماد).

الأرتقي ، كما تقدم عز الدين صاحب الموصل بقواته على جناح السرعة للاجتماع بهم ، وكانت تربط صاحب ماردين بكل من أميري خـــلاط والموصل صلات قرابة ساعدت على وقوفه إلى جانبهم ، وكان صلاح الدين آنذاك قد استولى على سنجار وسار إلى حران وفرق عساكره هناك فلما سمع باجتماع هؤلاء الأمراء ، أرسل إلى تقي الدين ابن اخيه بحماة يستدعيه ، فوصل إليه مسرعاً وأشار على صلاح الدين بالتقدم لمجابهة المتحالفين ، بينما حذره من التسرع آخرون ، واستقر رأي صلاح الدين على التقدم فتوجه إلى رأس عين ، فلما سمع المتحالفون بتقدمه تفرقوا ، فعاد شاه أرمن إلى خلاط محتجاً بالعمل على جمع قواته هناك ورجع عز الدين إلى الموصل ، بينما بقي قطب الدين بماردين ، فتقدم صلاح الدين إليها وعسكر بقرية حرزم التابعة لها ، بعد أن فرض سيطرته عليها ، ولما لم يسفر بقاؤه هناك عن نتيجة تقدم إلى آمد ، بعد أن استأذن الخليفة الناصر بمهاجمتها فأذن له ، وكان نور الدين محمد صاحب كيفا يكرر طلبه على صلاح الدين دائماً بمهاجمتها والاستيلاء عليها وتسليمها إليه ، وفقاً للاتفاق الذي تم بينهما . فوصل الأخير إلى آمد في السابع عشر من ذي الحجة (٥٧٨ هـ = ١١٨٣م) ، وضرب عليها الحصار ، وكان حاكمها الفعلي آنذاك بهـاء الدين بن نيسان ، ولم يكن لصاحبها محمد بن إيكلدي أية سلطة ، فلما حاصرها صلاح الدين أساء ابن نيسان التدبير ، ولم يعط الناس شيئاً من الذخائر أو النقود ، وقال لأهل البلد « قاتلوا عن نفوسكم » فقـــال له بعض أصحابه « ليس العدو بكافر حتى يقاتلوا عن نفوسهم » !! وبدأ صلاح الدين بقتالهم ونصب المناجيق وشدد ضرباته لشدة حصانة القلعة . ولكن سوء سيرة ابن نيسان في أهالي آمد ، وكراهية هؤلاء لحكمه ورغبتهم في زواله ، فضلاً عن قيـــام صلاح الدين بإرسال الرسائل إلى كبار أمرائهم يعدهم ويمنيهم ، ويتهددهم إن أصروا على القتال ، أدى إلى انتشار التخاذل بينهم وعدم الجد في الدفاع مما اضطر ابن نيسان إلى طلب الأمان له

ولأهله وأن يؤجله صلاح الدين ثلاثة أيام لنقل الأموال العظيمة التي يمتلكها فأجابه السلطان إلى ذلك ، وانقضت الأيام الثلاث قبل أن يفرغ ابن نيسان من نقل امواله ، فمنع من نقل الباقي ، وكانت أبراج المدينة مليئة بأنواع الذخائر فاضطر ابن نيسان إلى تركها فتسلمها صلاح الدين في العاشر من محرم سنة ٥٧٩، وسلمها وأعمالها إلى نور الدين صاحب كيفا ، فقيل له قبل تسليمها « إن هذه المدينة فيها من الذخائر ما يزيد على ألف ألف دينار فلو أخذت ذلك وأعطيته لجندك وسلمت البلد إلى نور الدين فارغاً لكان راضياً ، فانه لا يطمع في غيره » فقال : « لا أضن عليه بما فيها من الأموال فإنه قد صار من أصحابنا وأتباعنا »[1] وقال: « ما كنت لأعطيه الأصل وأبخل بالفرع » ، فلما تسلم نور الدين البلد ، أقام دعوة عظيمة لصلاح الدين وأمرائه وقدم لهم الكثير من التحف والهدايا[2] أما محمود بن إيكلدي أمير آمد ، فقد كان شيخاً كبيراً ،

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ٣٩/٢ (عن العماد) ، ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق (مخطوطة ١٦٩) .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ٢٠٠/١١ – ٢٠١ ، أبو شامة ، الروضتين ٣٧/٢ – ٤٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ١٣٢/٢ – ١٣٩ ، ابن شداد ، سيرة ص ٣٨ ، ابن العبري، مختصر ص ٣٨٠ – ٣٨١ ، ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٢٢ آ – ١٢٣ ب) . (نقلاً عن الكامل) ، سبط ، مرآة الزمان ٨ / ٣٧٥ ، وأبو الفدا ، المختصر ٣ / ٦٩ ، ابن الوردي ، تتمة ٩٣/٢ ، ابن كثير ، البداية ٣١٣/١٢ ، ابن خلدون ، العبر ٣٧٤/٥ – ٣٧٥ ، ٥٧٨ ، المقريزي ، السلوك ٨٠/١/١ — ٨١ ، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ٦ / ٩٤ ، ابن بهادر ، فتوح النصر (مخطوطة ١ / ٢٢ باختصار) ، العمري ، مسالك الأبصار (مخطوطة ٢٧/١ – ٧٩) ، النويري، نهاية الإرب (مخطوطة ١١٦/٢٦) ، عيون الاخبار (مخطوطة ١٦١) ، ابن الشحنة ، روضة ٢٠/٩ ، تقي الدين عمر ، مضمار الحقائق (مخطوطة ١٣٢ – ١٣٣ ، ١٦٦ – ١٧٠) ، الصائغ ، تاريخ الموصل ص ١٨٨ ، Gibb, The Rise of saladin, in setton, 1/577,
M. W Baladwin, The Decline and Fall of Jerusalem, setton 1/599, Lane - poole, Saladin, p.172.

ولذا أكرمه صلاح الدين وأحسن إليه وأمر نور الدين أن لا يسيء إليه وأن يقدم له ولأصحابه سائر مـــا يحتاجونه ، فأجابه نور الدين إلى ذلك ولم يزل إيكلدي عنده حتى وفاته[1] . ودخل صلاح الدين مدينة آمـد وجلس في دار الإمارة واستحلف نور الدين على إقامة العدل وقمع الجور وأن يكون « سامعاً مطيعاً للسلطان من معاداة الأعداء ومصافاة الخلان في كل وقت وأنه متى استمد من آمد لقتال الفرنج وجده لذلك يقظان »[2] . ومنذ ذلك الحين – فما بعد – أصبحت آمد – بدلاً من كيفا – مركزاً لهـذه الأسرة الأرتقية[3] ، بسبب الحصانة التي كانت تتمتع بها .

وبعد هذا النجاح الذي حققه صلاح الدين في ديار بكر ، والمكاسب التي حصل عليها أمير كيفـــا نتيجة موقفه الودي منه ، أدرك أمير ماردين عدم جدوى المقاومة أو اتخاذ موقف سلبي تجاه صلاح الدين ، خوفاً من نتائج عدائه ورغبة في الحصول على مكاسب كالتي حصل عليها صاحب كيفـــا ، فأرسل رسوله إلى صلاح الدين بُعيد عودته يطلب لصاحبه الأمان ويعلن دخوله تحت طاعته وحمايته فأجابه السلطان إلى ذلك ، واقتدى بصاحب ماردين عدد من أمراء المنطقة[4] . ومن المرجح أن الأراتقـــة اشتركوا مع صلاح الدين – إثر

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ٢/١٣٣ – ١٣٥ ، أما سبط (مرآة الزمان ٨/٣٧٥) فيذكر أن إيكلدي غادر آمد إلى الموصل بمساعدة صلاح الدين .

(٢) أبو شامة ، الروضتين ٢ / ٤١ – ٤٢ (عن العماد) ، ابن واصـل ، مفرج الكروب ٢/١٣٣ – ١٣٥ ، ابن شاهنشاه مضمار الحقائق (مخطوطة ١٦٩ – ١٧٠) .

(٣) Enc. Isl. art: Artukids, By c. Cahen (New Ed).

(٤) أبو شامة ، الروضتين ٢/ ٤٢ (عن العماد) ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٢ / ١٣٩ (عن العماد) المقريزي ، السلوك ١/١/٨٠ وانظر :

Gibb, The Ries of saladin, in setton, 1/578.

ذلك – في فتح حلب ، إذ تشير المصادر إلى أنه عند توجهه إليها استدعى العساكر من الأطراف فاجتمع لديه خلق عظيم واستطاع أن يدخل حلب في الثالث من ربيع الأول (٥٧٩ هـ = ١١٨٣م)، ومن ثم أعطى العساكر الإذن في العودة إلى بلادهم[١] .

* * *

بقي الأراتقة طيلة سنتين على عهدهم مع صلاح الدين ، ولكن الأحداث التي شهدتها الجزيرة في مطلع عام (٥٨١ هـ = ١١٨٥ م) ، أثرت إلى حد كبير على هذه العلاقات ، ذلك أن زين الدين يوسف صاحب إربل استنجد بصلاح الدين بسبب قيام صاحب الموصل وبعض حلفائه في أذربيجان بمهاجمة إربل[٢] فغادر صلاح الدين دمشق على رأس قواته وتقدم إلى حران فوصلها في الثاني عشر من محرم (٥٨١ هـ = ١١٨٥ م)، وغادرها إلى ديار بكر فوصلها في ربيع الأول ، واجتمع به هناك رسول قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم وأخبره أن ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصده إن لم يبعد عن الموصل وماردين وأنهم على عزم مقاتلته إن أصر على ذلك[٣] فلم يأبه صلاح الدين لذلك وواصل تقدمه إلى رأس عين ثم دنيسر فدارا، حيث استقبله أمراؤها بالحفاوة والإكرام، وقدم إليه هناك عماد الدين أبو بكر بن قرا أرسلان على رأس قواته نيابة عن أخيه نور الدين أمير كيفا وآمد الذي كان مريضاً آنذاك ، ومن ثم تقدم السلطان إلى نصيبين بعد أن كثرت جموعه حيث لحق به هناك صاحب جزيرة

---

(١) ابن شداد ، سيرة ص ٣٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٢/١٤١ – ١٤٢ ، ١٤٧.

(٢) ابن شداد ، سيرة ص ٤٤ – ٤٥ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ٢/١٦٥ – ١٦٦ ، المقريزي ، السلوك ١/١/٨٩ .

الدين ورغبه في الاستسلام ونهاه عن الاستمرار على العصيان . وكان في المدينة آنذاك خاتون ابنة قرا أرسلان وأخت نور الدين محمد صاحب حصن كيفا، فأحال أسد الدين الأمر عليها ، فراسلها السلطان ورغبها وضمن لها كل ما تطلبه منه ، ووعدها أن يزوج بنيه من بناتها [١] . ويقال إن صلاح الدين أرسل إلى الخاتون يقول لها : « إن أسد الدين قد مال إلينا في تسليم البلد ونحن نرعى حق أخيك نور الدين فيك بعد وفاته ، ونريد أن يكون لك في هذا الأمر نصيب وأنا أزوج بناتك بأولادي وتكون ميافارقين وغيرها لك وبحكمك » ، كما أرسل إلى أسد الدين يعرفه أن الخاتون قد مالت إليه وأن من بخلاط قد كاتبوه ليسلموا إليه البلد[٢] . واتفق أن رسولاً وصل إلى معسكر صلاح الدين من خلاط ، وأعلمه عن بذل أهل خلاط طاعتهم له وأنهم يستدعونه إليهم ليسلموا إليه البلد ، فأمر صلاح الدين الرسول فدخل ميافارقين وأعلم أسد الدين بموقف أهالي خلاط ، فأسقط في يده وضعفت معنويته وأرسل إلى صلاح الدين يقترح منحه إقطاعاً ومالاً لقاء تنازله عن ميافارقين فأجابه إلى ذلك[٣] ، ومنحه جبل جور[٤] ، كما منح الخاتون كل ما كانت تملكه ، فضلاً عن حصن

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ٢ / ٦٣ – ٦٤ (عن العماد) ، ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق (مخطوطة ٢٨٨ – ٢٩١) .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ٢٠٩/١١ – ٢١٠ ، ونقل عنه ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٠٦آ – ب) .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ٢٠٩/١١ – ٢١٠ ، أبو الفداء ، المختصر ٣ / ٧٣ ، ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٠٦ آ – ب) ، العمري ، مسالك الأبصار (مخطوطة ٢٧/١ – ٨٥)، ابن بهادر ، فتوح النصر (مخطوطة ورقة ٢٣/١) .

(٤) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٣٨٤/٨ ، ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق (مخطوطة ٢٩٠ – ٢٩١) .

المتاخ ليكون مقراً لها ولأبنائها ، ومن ثم تمَّ إبرام الصلح بين الطرفين[1] وتسلم السلطان البلد في مطلع جمادى الأولى ، واجتمع به هناك قطب الدين سقمان بن نور الدين صاحب آمد وكيفا ، فأكرمه وأعاده إلى بلاده دون أن يعترضها بأذى ، وكان قطب الدين خائفاً من أن يسترد صلاح الدين منه مدينة آمد[2] . وقد شرط صلاح الدين على الأراتقـــة أن يراجعوه فيما يفعلونه ويصدروا عن أمره ونهيه ، ورتب مع قطب الدين أحـــد أمرائه[3] ليراقب مدى تنفيذ التزاماته تجاه صلاح الدين ، وولى على منطقة ديار بكر مملوكـــه حسام الدين سنقر الخلاطي[4] .

وصل صلاح الدين – آنذاك – كتاب من الخليفة العباسي ، بتقليده النظر في أمر ديار بكر ومصالح أيتام ملوكها ، فخطب له في الولايات الأرتقيـــة وضربت باسمه النقود[5]، ومن ثم قفل عائداً إلى الموصل وعقد الصلح مع صاحبها بموجب شروط معينة . وفي الكتاب الذي وجهه العماد الاصفهـــاني إلى أخي صلاح الدين في اليمن ، إيضاح للقواعد التي استقرت عليها الأوضاع في المنطقة بين صلاح الدين والأمراء المحليين ، وبضمنهم الأراتقة ، جاء فيه « .... وقد حصل لنا من صاحب الموصل ومن جميع من بالجزيرة وديار بكر الطاعـــة

---

(١) أبو شامـــة ، الروضتين ٢/ ٦٣ – ٦٤ (عن العماد) ، ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق (مخطوطة ٢٩١ – ٢٩٢) ، النويري، نهاية الإرب (مخطوطة ٢٦/١١٧) .

(٢) أبو شامة ، الروضتين ٢/٦٣ - ٦٤ (عن العماد) ،

(٣) ابن الاثير ، الكامل ١١/٢٠٩ . ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٢٣ ب) .

(٤) أبو شامة ، الروضتين ٢/٦٣ (عن العماد) .

(٥) المصدر السابق ، نفس الصفحة ، ويرد في نفس المصدر (٢ / ٦٨) أن الخليفة أرسل آنذاك كتاباً بتفويض صلاح الدين ولاية ماردين وحصن كيفا وانظر :

Runciman, crusades, 1/445.

ابن عمر ، فسار إلى الموصل* وحاصرها – بعد استئذان الخليفـــة – وجرت مناوشات بين الطرفين لم تسفر عن شيء ، فاضطر الطرفان إلى إجراء مفاوضات استمرت طيلة ربيع الآخر ، انسحب صلاح الدين بعدهــا عن الموصل بسبب وفاة شاه أرمن صاحب خلاط في التاسع من ربيع الآخر ، ورغبته في استغلال هذه الفرصة للسيطرة على بلاده ، فتقدم إلى ميافارقين العائدة لأمير ماردين ، وجرت من هناك مفاوضات بينه وبين أهالي خلاط انتهت بالصلح(١) .

أحس الأراتقة بالخوف إزاء تحركات صلاح الدين في ديار بكر ، وكان قطب الدين إيلغازي بن البي أمير ماردين قد توفي في جمادى الآخرة (٥٨٠ هـ = ١١٨٥ م) ، وخلفه حسام الدين يولق أكبر أولاده وله من العمر عشر سنين ، كما توفي أيضاً نور الدين محمد بن قرا أرسلان أمير كيفا وآمد في منتصف ربيع الأول (٥٨١ هـ = ١١٨٥ م) ، وخلفه ابنه قطب الدين سقمان ، فخاف هذا أن يسترد صلاح الدين منه مدينة آمد . وكان السلطان قد أرسل من جهتـه أحد رسله ليتأكد من موقفهم تجاهه ، فوجدهم لا زالوا على الطاعة له والرغبة في الإنتماء إليه (٢) . وعندما رأى عدم خروج أمراء ميافارقين للقائه بسبب دخول أسد الدين يرنقش أحد أمراء صاحب ماردين إليها وعصيانه فيها ، اضطر إلى حصار المدينة(٣) وضربها بالمجانيق ، وحين أدرك عدم جدوى القتال راسل أسد

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ٢٠٨/١١ – ٢٠٩ ، ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق (مخطوطة ٢٨٠ – ٢٨١) Lane — pool, saladin, PP. 192 — 193.
Gibb, The Rise of saladin, in setton 1/580.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ٦٣/٢ (عن العماد) ، ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق (مخطوطة ٢٨٨) .

(٣) كان حكم ميافارقين قد غدا لشاه أرمن أمير خلاط بسبب قرابته من أراتقة ماردين ، وكان قد وضع قواته فيها (ابن الأثير ، الكامل ٢٠٩/١١ – ٢١٠) .

والسكة والخطبة ، وعمت الهيبة والرهبة والعزائم ، إلى الجهاد في سبيل الله ، وقد زالت العوائق وارتفعت الموانع[1]. وهكذا تمكن صلاح الدين من إخضاع كافة أمراء الجزيرة لطاعته، وغدا بإمكانه الاعتماد على المنطقة كمورد بشري عسكري دائم في حروبه ضد الصليبيين[2] .

ظهور إمارة خرتبرت :

وفي غمرة هذه الأحداث التي اجتاحت ديار بكر ، ظهرت إلى الوجود إمارة أرتقية جديدة في خرتبرت في أقصى شمالي ديار بكر، أسسها أحد أشقاء نور الدين محمد أمير كيفا وآمد الذي توفي هذا العام (٥٨١ هـ = ١١٨٥ م) ، ذلك أن نور الدين محمد كان قد أناب – بسبب مرضه – أخاه عماد الدين بن قرا أرسلان على قوات إمارة كيفا في النجدة التي ساندت صلاح الدين خلال تحركاته في المنطقة بناء على التحالف القديم بين الطرفين . وعندما كان عماد الدين يتقدم صوب الموصل بصحبة صلاح الدين ورده نبأ وفاة أخيه فطلب الإذن من السلطان بمغادرة عسكره لتدارك الأمر في إمارة كيفا ، خاصة وأن أبناء أخيه لم يبلغوا من العمر مرحلة تؤهلهم لتحمل مسؤولية الحكم ، فأذن له صلاح الدين[3] .

تقدم عماد الدين على رأس قواته إلى إمارة كيفا، فوجد أن الأمر قد استتب

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ٢/٦٤ ، وانظر ابن الأثير ، الكامل ١١/٢٠٨ – ٢١٠ ، ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٠٦ آ – ١٠٦ ب) .

(٢) انظر الفصل الثالث .

(٣) ابن شداد ، سيرة ص ٤٥ ، ويشير ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق (مخطوطة ٢٨١) الى ان صلاح الدين هو الذي أمره بالعودة الى إمارة كيفا لتدارك أمرها .

أقوى من ذي قبل .. وقدم الأصفهاني وصفاً لهذا الحدث جاء فيه : « وسار – صاحب كيفا – بالمسار مصحوباً ، وعاد وذيله بالفخار مسحوباً ، وقال له– أي السلطان – قد وجدت الحزن فلا تحزن ، واشتد ركنك فإلى سواه لا تركن ، وما من كبير أو أمير الا وقد وصل منه أكبر أمرائه لينتظم بعهد السلطان في زمرة أوليائه »[1] .

تجدد الفتن في ديار بكر :

ولكن هذا السلم الذي تمتعت به ديار بكر والمناطق المجاورة كنتيجة لعهدها مع صلاح الدين ، لم يستمر طويلاً . ففي عام (٥٨٧ هـ = ١١٩١ م) جدت أحداث في المنطقة أثارت الفتن والحروب وأجرت بعض التغييرات على الخارطة السياسية للإمارات الأرتقية. ذلك أن صلاح الدين أناب عنه ابن اخيه الملك المظفر تقي الدين عمر في كل المناطق الواقعة شرقي الفرات والتابعة للأيوبيين فرحل تقي الدين في مطلع صفر بعد أن اشترط عليه السلطان المحافظة على عهد أميري كيفا وماردين ، وأعلمه أن ليس ثمة سبيل إلى قصد أحد او انتزاع بلد من ديار بكر « لأن أكثرهم لنا– أي لصلاح الدين– معاهد وفي شغلنا مساعد، أما المتقاعد فما هذا أوان معاقبته لانشغالنا بالفرنج وما نريد الانشغال بالمسلم دونهم »، فوعده تقي الدين بتنفيذ تعليماته والالتزام بشروطه وتوجه إلى هناك. وكان صلاح الدين في الفترة التي سبقت ذلك ، يتخوف من إنابة تقي الدين أو أحد أبنائه على ما وراء الفرات، لأن هؤلاء كانوا يطلبون منه مقدماً العمل على ضم ديار بكر[2] ، أما الآن فإن ضرورة الجهاد حتمت عليه إرسال تقي الدين

---

(١) الأصفهاني ، الفتح القدسي ص ٩٢ – ٩٣ .

(٢) الأصفهاني ، الفتح القدسي ص ٢٣٤ – ٢٣٥ .

لقطب الدين سقمان أكبر أبناء نور الدين ، معتمداً في حكمه على بعض الأمراء ذوي الخبرة ، فتعذر على عماد الدين القيام بعمل مـــا ضد هؤلاء ، فضلاً عما كانت تتمتع به كل من آمد وحصن كيفـــا من حصانة . ومن ثم قرر اقتطاع المناطق السهلة من إمارة كيفا ، فتقدم إلى خرتبرت التابعة لهذه الإمارة[1] ، وتمكن من الاستيلاء عليها دون مقاومة تذكر ، وأقام فيهـــا إمارة أرتقيــة جديدة[2] . وقد ظلت هذه الإمارة تحكم خرتبرت والمناطق المجاورة لها حتى عام (٦٣١ هـ = ١٢٣٣ م) .

بقي الأراتقة على ولائهم لصلاح الدين ، وأخذوا يقدمون إليه الإمدادات العسكرية في جهاده ضد الصليبيين[3] . وفي عـــام (٥٨٤ هـ = ١١٨٨ م) حاول قطب الدين سقمان أمير كيفا أن يطمئن على أملاكه تجاه صلاح الدين ، وبخاصة آمد التي تعتبر أساساً هبة من الأخير لأمير كيفـــا ، فاستغل وسيلة المصاهرة لتحقيق ذلك ، إذ أرسل رسوله إلى صلاح الدين، مع وفد من القضاة والشهود ، وكان آنذاك في فلسطين إزاء الصليبيين ، ليخطبوا له ابنـــة الملك العادل شقيق صلاح الدين ، وليؤكدوا له من جهـــة أخرى تصميم أميرهم على الالتزام بالعهد الذي قطعه على نفسه له ، فأجيب الوفد إلى ذلك ، وتم عقـــد الزواج في حفل حضره كبار الأمراء والأعيـــان وناب عن العادل فيه العماد الأصفهاني، وعاد الوفد إلى ديار بكر بعد أن حصل على تأكيدات بعدم التعرض لإمارة كيفا[4] ، فضلاً عن أن أمير كيفا غدا – بتأكيد لحماية صلاح الدين –

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ٢/٦٠ .

(٢) ابن الاثير الكامل ١١/٢٠٩ .

(٣) ستَرد تفاصيل ذلك في فصل (الأراتقة والصليبيون) .

(٤) الاصفهاني ، الفتح القديسي ص ٩٢ – ٩٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٢/٢٥٣ .

لجمع العساكر من هناك والعودة بها إلى مناطق القتال [1] . ولكن ما أن وصل تقي الدين إلى هناك حتى طمع في الاستيلاء على بعض مدن ديار بكر ، فتوجه إلى ميافارقين واستصحب معه عسكر ماردين ، التي كان أمراؤها دائمـــاً في علاقات قلقة مع صلاح الدين بلغت درجة الحرب في أحيان كثيرة . تقدم تقي الدين بعد ذلك إلى السويداء واستولى عليها وعلى أملاكهـا ، ثم حاصر مدينة حاني واستولى عليها ، ومن ثم هاجم إمارة كيفـــا وآمد واستولى على بعض ممتلكاتها وأقطعها لقواته . ويصور العماد الأصفهاني الحالة التي انتابت ديار بكر آنذاك فيقول : « وأرعب القلوب – أي تقي الدين – بما ابتدأ به وابتدعه ، وروعها ، وتأخرت بسبب ذلك عساكر ديار بكر وحصلت منه على عـــذر وذعر وراعت هيبته .. ودبت إلى الخاطر مخافة أخطاره وبليت تلك البلاد ببلائه[2] . اتجه تقي الدين بعد ذلك إلى خلاط فلم يستطع فتحها فتقدم إلى ملازكرد . وحاصرها ولكنه توفي قبل أن يتمكن من الاستيلاء عليها ، فقام ولده ناصر الدين محمد بوضع يده على بـلاد الجزيرة وأرسل إلى صلاح الدين يطلب تقريره عليها فرفض تسليمها إليه ، فأعلن هذا العصيان مستغلاً فرصة انشغال صلاح الدين مع الصليبيين . وحينذاك أرسل صلاح الدين ابنه (الأفضل علي) إلى تلك المناطق وطلب منه التقدم إلى حلب واتخاذها قاعدة لتوجيـــه ضربته ضد ناصر الدين ، وكتب إلى حلفائه في ديار بكر والموصل وسنجار والجزيرة إرسال قواتهم لإسناد ابنه ، فلما رأى ناصر الدين ذلك أدرك أن لا طاقة له بهم فأعلن استسلامه مقابل أن يقطع بعض الأملاك في الشام ، فأجيب

(١) المصدر السابق ، ص ٢٩٠ ، ابن الأثير ، الكامل ١٢/٢٧ ، أبو شامة ، الروضتين ٢/١٩٤ .

(٢) الأصفهاني ، الفتح القدسي ص ٢٩٠ ، أبو شامة ، الروضتين ٢/١٩٤ .

إلى ذلك وحل العادل أخو صلاح الدين محله في حكم المناطق الجزرية وذلك في جمادى الآخرة سنة (٥٨٨ هـ = ١١٩٢م)[١]. وقد أوضح هـذا الحادث الموقف المتناقض الذي اتخذه الأراتقة تجاه صلاح الدين ، فبينما بقي أمير كيفا وآمد (قطب الدين سقمان) مخلصاً لعهده معه ملتزماً بشروطه مقدماً له القوة والإمدادات في تحركاته ، منفذاً لأوامره ، راح امير ماردين (حسام الدين يولق أرسلان) يتحين الفرص لنقض العهد وتوجيـه الضربات ضد الأيوبيين في المنطقة .

وما أن توفي صلاح الدين في السنة التالية (٥٨٩هـ = ١١٩٣ م)، حتى كان صاحب ماردين ، أحد الرؤوس الكبيرة في المؤامرة التي دبرها أمراء الجزيرة وأرمينية للإطاحة بالنفوذ الأيوبي في تلك المناطق. وكان بكتمر صاحب خلاط، قد استبشر خيراً ، لدى سماعه بنبأ وفاة صلاح الدين وراسل أمـراء الموصل وسنجار وماردين للاتفاق على قتال العادل ، والعمل على استرداد البلاد التي يحكمها هناك ، فكانت قوات ماردين أول الخارجين ضد العادل ، وعسكرت في الموزر[٢] ، وتقـدم أمير الموصل على رأس قواته إلى نصيبين ، حيث انضم إليه اخوه عماد الدين أمير سنجار . وبعث المتحالفون إلى العادل يطلبون منه الخروج من المنطقة وإعادة البلاد إليهم فاستنجد هذا بأبناء أخيه ، ثم تقدم إلى حران ليراقب الأحداث من هناك ، ولكن مرض صاحب الموصل اضطره إلى العودة إلى إمارته وأعقبه أخوه عائداً الى سنجار ، فضلاً عن أن العادل أرسل

---

(١) ابن الأثير، الكامل ٣٥/١٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٣٧٩/٣٧٥ ، ابن كثير، البداية والنهاية ١٢ / ٣٤٦ باختصار .

(٢) كانت هذه المنطقة تابعة لإمارة ماردين فاقتطعها صلاح الدين وأضافها الى نائبه في الرها ، أنظر الاصفهاني ، الفتح القدسي ص ٣٣٢ .

إليهم يقول بأن بلاد صلاح الدين قد استقرت لولده الأفضل ، وأنه وجه إلى ماردين على رأس قوات ضخمة بسبب تعرض صاحبها لبعض القرى العائدة له ، وإزاء ذلك اضطر صاحب ماردين إلى مراسلة العادل طالباً منه الصلح متضرعاً إليه أن يرضى عنه [١] فصفح العادل عنه وعقد معه صلحاً نص على نفس الشروط التي حددت في عهد صلاح الدين ، ثم تقدم العادل فاستولى على عدد من مدن الجزيرة ، وعندما وصل دارا العائدة لأحد الأراتقة المشتركين في المؤامرة اعتذر هذا له، فقبل عذره، وبعد فترة قصيرة تم عقد الصلح مع صاحبي الموصل وسنجار [٢] ، كما أن بكتمر صاحب خلاط كان قد اغتيل خلال هذه الفترة ، فاستتبت الأمور للعادل في المنطقة[٣] .



من خلال استعراض علاقات الأراتقة بالأيوبيين في هذه المرحلة ، يتضح أن إمارتي كيفا وماردين الأرتقيتين اتخذتا موقفاً متناقضاً تجاه صلاح الدين ، فبينما كانت الأولى محالفة له داخلة في اتحاد سياسي وعسكري معه ، ظلت الأخرى تعمل ضده جهراً[٤] وسراً منفردة تارة ، ومشتركة في أحلاف معادية تارة

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ٣/١٦ - ٢٠ ، الاصفهاني ، الفتح القدسي ص ٣٣٢ - ٣٣٣ ، ابن الاثير ، الكامل ١٢ / ٤١ - ٤٢ ، أبو شامة ، الروضتين ٢ / ٢٢٦ - ٢٢٨ ، أبو الفدا ، المختصر ٣ / ٩٢ - ٩٣ ، ابن الوردي ، تتمة ٢ / ١٠٨ - ١٠٩ ، سبط ، مرآة الزمان ٨ /٤٣٥ - ٤٣٦ ، هذا ويتناول كل من ابن الأثير والذين نقلوا عنه ، كأبي الفدا وابن خلدون، هذه الحادثة باختصار .

(٢) الاصفهاني ، الفتح القدسي ص ٣٣٣ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ٣/١٩ - ٢٠ .

(٤) فيما عدا تقديمها قواتها الى صلاح الدين في جهاده ضد الصليبيين كما سيرد ذكره في فصل آخر .

أخرى ، وما أن توفي صلاح الدين حتى كان صاحب ماردين على رأس المتآمرين ضد الأيوبيين في المنطقة كما رأينا . وقد ترتب على هذا الموقف المتناقض للأراتقة نتائج مختلفة ، فبينما حصلت إمارة كيفا على مزيد من المدن والقلاع بفضل مساندتها للأيوبيين ، راحت الأخرى تتعرض لضغطهم وضرباتهم المستمرة حتى تم الصلح عام (٥٨٩ هـ = ١١٩٣ م) بين جميع الأطراف .

الأراتقة بعد وفاة صلاح الدين :

وطيلة السنوات التالية (٥٨٩ هـ - ٥٩٤ هـ = ١١٩٣ م - ١١٩٧ م) ، انهمك كل من الطرفين - الأراتقة والأيوبيون - بمشاكله الداخلية . ولكن ما أن دخل عام ٥٩٤ هـ حتى عاد الصراع من جديد بين الأيوبيين وإمارة ماردين. ويذكر ابن واصل أن (النظام) مدبر مملكة حسام الدين يولق أرسلان صاحب ماردين أرسل إلى الملك العادل كتاباً يستدعيه ليسلم إليه ماردين مقابل تعويضه عنها ، فتقدم العادل شرقاً ، ولما وصل البلاد لم يف له النظام بوعده وندم على مراسلته السرّية له ، فأرسل العادل إلى بعض أقاربه في مصر والشام يستنجد بهم ، فوصله عسكر من مصر يقدر بألفي فارس وآخر من الشام بنفس العدد[1]، كما استطاع أن يكسب مساعدة أصحاب الأطراف حيث أكدوا طاعتهم له[2]، ومن ثم بدأ بمهاجمة أطراف ماردين في رمضان واستطاع الاستيلاء على عدد من مدنها وولاياتها[3] ، وعين ولاته في رأس عين ودنيسر[4] ، كما تمكن ، بمساعدة

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ٣ / ٨٠ .

(٢) أبو شامة ، الروضتين ٢/٢٣٤ (عن العماد) .

(٣) المصدر السابق ٢/٢٣٤ (عن العماد) .

(٤) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ورقة ٤٣ ب).

بعض الأهالي ، من السيطرة على ربض ماردين الذي قام عسكره بنهبه والإفساد فيه بكل الأساليب[1] . وما أن سيطر العادل على الربض حتى شدد حصاره على القلعة وقطع التموين عنها[2] ، واستمر الحصار أحد عشر شهراً ، فانعدمت الأقوات فيها، وأصاب معظم جندها مرض أقعدهم عن الدفاع، ولم يبق سوى أن تستسلم . وحينذاك ورد الخبر إلى العادل بوفاة العزيز صاحب مصر في العشرين من محرم سنة (٥٩٥ هـ = ١١٩٨ م) ، وتولية الأفضل بن صلاح الدين بعده ، ولم تكن العلاقات طيبة بين هذا وبين عمه العادل ، فأمر قواته ، التي كانت تعمل مع العادل في حصار ماردين ، بالعودة إلى مصر ، فانسحب هؤلاء ، وفتّ ذلك في عضد العادل ، لولا أن ماردين كانت قد بلغت من الضعف درجة كبيرة أطمعت الأخير بالاستمرار على حصارها[3] .

ولكن تقدم الأفضل إلى دمشق لاستردادها من العادل، وتحالفه مع صاحب الموصل لهذا الغرض، وقيام أنصار العادل بمراسلة صاحبهم يدعونه للتوجه إليهم لتسليمه مصر ، كل هذه العوامل دفعت العادل لمغادرة ماردين إلى دمشق في الخامس والعشرين من رجب عام (٥٩٥ هـ = ١١٩٩) ، تاركاً ابنه الكامل لإتمام العملية[4] . فاستغل نور الدين أمير الموصل فرصة تحالفه مع الأفضل لإنهاء الحصار الأيوبي على ماردين وتخليص المنطقة من نتائجه ، وسرعان ما

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٢ / ٥٨ .

(٢) المصدر السابق ١٢ / ٥٨ ، ابن بهادر ، فتوح النصر (مخطوطة ١ / ٣٨ باختصار) ، العمري ، مسالك الابصار (مخطوطة ٢/٢٧ - ١٢٧) .

(٣) ابن الأثير ، الباهر ص ١٩٤ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ١٢/٥٨ - ٦٢ ، الباهر ص ١٩٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٣/٩٢ - ٩٥ ، أبو شامة ، الروضتين ٢/٢٣٤ - ٢٣٥ (عن العماد)، ابن بهادر ، فتوح النصر (مخطوطة ١/٣٩) ، العمري ، مالك الابصار(مخطوطة ٢/٢٧/١٢٩).

انضم إليه أصحاب الأطراف لوجود هدف مشترك ، إذ كان « عجزهم عن منع العادل قد حملهم على طاعته »[١] .

وما أن انسحب العادل تاركاً ابنه على حصار ماردين ، حتى تقدم صاحب الموصل في الثاني من شعبان ، إلى دنيسر واجتمع به هناك ابنا عمه ، وطب الدين محمد صاحب سنجار وسنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر ، ليكونوا يداً واحدة ضد القوة الأيوبية ، ثم غادروا دنيسر في السادس من شوال ونزلوا بحرزم القريبة من ماردين . وزحف العسكر نحو سفح الجبل للبحث عن موضع للنزول . وكان جند ماردين قبيل ذلك قد بلغوا حداً كبيراً من الإعياء بسبب الجوع والمرض ، مما دفع النظام ، وهو المتنفذ في الإمارة ، إلى مراسلة الكامل يعلن موافقته على تسليم القلعة في أجل معلوم بشرط أن يسمح لهم بإدخال ما يقيتهم من الميرة دون التزود بأي احتياطي منها . فأجابهم الكامل إلى ذلك ، وتم الاتفاق بين الطرفين ، ورفعت أعلام الأيوبيين على القلعة وكلف الكامل أحد أمرائه بمهمة حراسة أبوابها ، وعدم السماح لأهالي ماردين بإدخال ما يزيد عن حاجتهم من الأقوات يوماً بيوم حسب الاتفاق ، ولكن الأمير المذكور قبل رشوة من بعض مسؤولي ماردين وسمح لهم بإدخال الذخائر الكثيرة ، وبينا هم كذلك إذ بلغهم خبر وصول صاحب الموصل وحلفائه لإجلاء الأيوبيين ، فقويت نفوسهم وقرروا الاستمرار على الدفاع[٢] . وما أن تقدمت قوات صاحب الموصل للبحث عن معسكر في سفوح ماردين للقيام بقتال قوات الكامل ، حتى أخطأ هذا وغادر ربض ماردين شديد التحصين للقاء عدوه ، ولو أقام هناك لما أمكن لصاحب الموصل وحلفائه الصعود لقتاله أو إجلائه بسبب ارتفاع المنطقة . وعندما رأى

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٢/٦٢ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٢/٦٢ .

نور الدين ذلك راح يستدرج قوات عدوه بعيداً عن الجبل ، وكان قطب الدين صاحب سنجار قد واعد قوات الكامل سراً بأنه سيتقهقر عندما يتم اللقاء لإحباط معنويات قوات الموصل ، ولكن ما أن بدأ القتال حتى ألجىء قطب الدين إلى عدم تنفيذ خطته بسبب كثرة الزحام وعدم وجود منفذ أو طريق للهروب باتجاه قوات الكامل ، فوقف في سفح الجبل بعيداً عن القتال الدائر الذي استمر طيلة ذلك اليوم وانتهى بهزيمة القوات الأيوبية وتراجعها صوب الربض حيث جوبهت بهجوم آخر من حامية ماردين أسفر عن تشتت هذه القوات وأسر عدد كبير من أفرادها ، فاضطر الكامل إلى الانسحاب من الربض ليلاً ، ومغادرة المنطقة في السابع من شوال تاركاً الكثير من آلات القتال . ومن ثم نزل صاحب ماردين للقاء أمير الموصل ، حيث توجه هذا بعدها إلى دنيسر ومنها إلى رأس عين، عازماً على مهاجمة حران التابعة للعادل، ولكن مرضه ألجأه إلى العودة إلى الموصل[١] .

كان بعض أصحاب أمير الموصل قد عرضوا عليه – إثر انسحاب الكامل– الاستيلاء على ماردين لشدة ضعف قواتها وسهولة السيطرة عليها ، ولكنه أنكر عليهم ذلك لئلا يوصف بالغدر في جماعة استنصروه . ومن ثم ارسل إلى صاحب ماردين يطلب منه اعادة نوابه وعماله إلى القرى والأعمال الزراعية التي كان صاحب الموصل قد وزع قواته فيها ليتمونوا منها خلال القتال . فتسلم صاحب ماردين بلاده وارسل إليها نوابه[٢] .

---

(١) المصدر السابق ، ١٢/٦٢ ، الباهر ص ١٩٤ – ١٩٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٣/١٠٢ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٥٨٨ – ٥٩٠ ، ابن الفرات ، تاريخ (مخطوطة ٨ / ٦٥ – ٦٦) .

(٢) ابن الاثير ، الباهر ص ١٩٥ – ١٩٦ ، ونقل عنه ابن واصل ، مفرج الكروب ٣/٢٤ – ٢٥ .

وطيلة هذا الصراع بين ماردين والأيوبيين ، وقف أمير كيفا على الحياد ولم ينضم إلى أحد الجانبين المتنازعين ، ولعله كان ينتظر مـا يتمخض عنه هـذا الصراع . وقد كان لرغبته في مهادنة الأيوبيين والتزامـه بعهودهم أثر كبير في اتخاذ هذا الموقف . وكان من المحتمل تقديم مساعدته إليهم لو كان الصراع بين طرف واحد منهم وبين ماردين ولكن الأمر لم يكن كذلك إذ اشتركت فيه – كما رأينا – أطراف أيوبية عديدة مما دفع أمير كيفا إلى التريث حتى تنجلي الأمور .

* * *

ظل صاحب ماردين على عدائه للأيوبيين، ينتظر الفرصة للعمل ضد مصالحهم وممتلكاتهم في المنطقـة ، ولم ينقض على تخلصه من حصار عـام (٥٩٥ هـ = ١١٩٨ م) ، سوى أقل من سنتين حتى دخل في تكتل جديد يضم بعض الأمراء المحليين وعدداً من الأمراء الأيوبيين المنافسين للعادل الذي كان قد استولى على مقاليد الأمور في مصر . فقد اتفق أميرا الموصل وماردين والظاهـر الأيوبي صاحب حلب وأمراء آخرون على أن يكونوا يداً واحـدة بوجه أية محاولة يقوم بها العادل ضد أحدهم . وما لبث أن انضم إليهم الأفضل الذي أزاحـه العادل عن الحكم . وتقدم نور الدين أرسلان شاه أمير الموصل في شعبان سنة (٥٩٧ هـ = ١٢٠١ م) إلى البلاد الجزرية ، حيث انضم إليه هناك ابن عمـه صاحب سنجار ونصيبين ، وكذلك صاحب ماردين ، ومن ثم توجهوا إلى رأس عين ، مستهدفين الاستيلاء على حران التي كان يحكمها الفائز بن العادل نائباً عن أبيه ، فخاف هذا عاقبة الأمـر وأرسل إلى المتحالفين يطلب الصلح ، وكان هؤلاء قد تلقوا أنباء عن قرب عقد صلح بين الأمراء الأيوبيين المتنازعين ، فضلاً عن اشتداد الحر وانتشار الأمراض في صفوف قواتهم التي بلغت حداً كبيراً من

الإرهاق فاضطروا إلى إجابة الفائز إلى الصلح، وأكدوا ذلك مع أبيه السلطان العادل « فاستقرت القاعدة وأمنت البلاد » وتفرق الحلفاء في ذي القعدة (٥٩٧هـ = ١٢٠١ م)[١] .

وفي الصلح الذي تم في العام التالي (٥٩٨ هـ = ١٢٠١ م) ، بين العادل وبقية الأمراء الأيوبيين المتنافسين في الشام ، اتضح ما يشير إلى مدى رغبة الأيوبيين في إضعاف صاحب ماردين والاستيلاء على أملاكه ، بسبب موقفه العدائي منهم ، إذ تقرر في ذلك الصلح أن يقوم أحد الأمراء الأيوبيين بانتزاع رأس عين من صاحب ماردين وإضافتها إلى أملاكهم هناك[٢] .

ثم ما لبث العادل أن سير في المحرم (سنة ٥٩٩ هـ = ١٢٠٢ م) قواته إلى ماردين بقيادة ولده الأشرف موسى ، مستغلاً اتفاقه مع بقية الأيوبيين لمهاجمة إمارة ماردين والحصول على بعض المكاسب ، فقام الأشرف بمحاصرة ماردين ، وتمكن من الاستيلاء على بعض المناطق المحيطة بها ، وانضمت إلى الاشرف هناك قوات الموصل وسنجار وغيرهما من البلاد طمعاً في الحصول على المغانم . وعسكر الأيوبيون وحلفاؤهم في حرزم أسفل ماردين ، ونزلت قوة من قلعة البارعية التابعة لماردين لقطع المؤونة عن المهاجمين ، فتصدت لهم طائفة من القوات الأيوبية وهزمتهم . وثار التركمان في المنطقة ، وقطعوا الطرق وأكثروا الفساد ، مستغلين عدم استتباب الأمن ، فتعذرت بأعمالهم تحركات القوات المهاجمة خلا القادرون منهم على حمل السلاح[٣] . وحينذاك توجهت قوة

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ٧٠/١٢ ، ونقل عنه ابن واصل ، مفرج الكروب ٣ / ١٢٦ - ١٢٧ ، وابن خلدون ، العبر ٥٩٠/٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ٢٧/١٣ .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ١٣٢/٣ - ١٣٣ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ٧٤/١٢ .

من العسكر الأيوبي إلى رأس عين لإصلاح الطرق وإيقاف الفساد الذي يقوم به التركمان . واستمر الأشرف على حصار ماردين دون جدوى بسبب مـــا كانت تتمتع به من حصانة ، فارتأى الظاهر غازي صاحب حلب أن يسعى في الصلح بينهم ، وأرسل الى عمه العادل في ذلك ، فأجابه هذا بشرط أن يحمل إليه صاحب ماردين مائة وخمسين ألف دينار وأن يخطب له في بلاده ويضرب اسمه على السكة ، وأن تكون قواته في خدمته في أي وقت يطلبها فيه . فوافق صاحب ماردين على هذه الشروط ، وحصل الظاهر لقـاء سعيه في الصلح على جزء من المبلغ قدره عشرون ألف دينار[1] ، وضيعة القرادي من أعمال شبختان في ديار بكر ، ومن ثم رحل الأشرف عن ماردين وتفرقت العساكر[2] ، ووفى صاحب ماردين بالشروط[3] .



وخلال ذلك كله كان صاحب كيفـــا وآمد يلتزم بسياسته الودية التقليدية للأيوبيين ، وقد تأكد هـــذا الالتزام في الأحداث التي جرت في العــام التالي

---

(١) المصدر السابق ، نفس الصفحة ، بينما يجعل ابن واصل (مفرج الكروب ٣ / ١٤٠) المبلغ الذي قبضه الظاهر عشرة آلاف دينار فقط .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ١٢ / ٧٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٣ / ١٣٩ - ١٤٠ ، ابن الساعي ، المختصر ٩ / ٩٩ - ١٠٠ ، ويذكر هذه الاحداث باختصار كل من أبي الفدا ، المختصر ٣/١٠٨ ، وابن العبري ، مختصر ص ٣٩٣-٣٩٤ ، وابن الوردي ، تتمة ٢/١٢٠ . وابن كثير ، البداية ١٣ / ٣٤ ، المقريزي ، السلوك ١ / ١ / ١٦١ ، ابن بهادر ، فتوح النصر (مخطوطة ١/٢٤) .

(٣) ابن الساعي ، المختصر ٩/ ٩٩ - ١٠٠ ، ابن الفرات ، تاريخ (مخطوطة ٨/١٠٠- ١٠١) .

(٦٠٠ هـ = ١٢٠٣ م) ، حيث انضم إلى الحلف الذي شكله الملك الأشرف موسى بن العادل وبعض الأمراء المحليين، كمظفر الدين كوكبوري صاحب أربل وقطب الدين محمد صاحب سنجار ونصيبين والأوحد أخي الأشرف صاحب ميافارقين وصاحب جزيرة بن عمر وصاحب دارا الأرتقي والملك الظاهر صاحب حلب ، وكان هدف هذا التحالف مساندة صاحب سنجار ونصيبين ضد أطماع ابن عمه نور الدين أرسلان شاه أمير الموصل بسبب تدهور العلاقات بينهما إثر قيام قطب الدين بالخطبة للعادل الأيوبي . وقد بدأ أمير الموصل أعماله ضد ابن عمه بمهاجمة نصيبين في مطلع شعبان ، وما كاد أن يستولي عليها حتى أتاه خبر قيام أربل بمهاجمة بلاده ، فاضطر إلى الانسحاب للدفاع عنها ، وكان الأشرف وحلفاؤه قد تقدموا خلال ذلك من حران إلى رأس عين للتصدي لنور الدين ، إلا ان تخوفهم منه منعهم من مجابهته ، ولكن ما أن انسحب نور الدين إثر هجوم أربل حتى اجتمع الحلفاء وتقدموا إلى نصيبين ، ولكن أمير الموصل ما لبث أن كرّ عائداً ، بعد أن أنهى مهمته ، واستولى على تل أعفر التابعة لابن عمه قطب الدين ومن ثم تقدم إلى منطقة كفر زمار مصمماً على المطاولة لحين تفرق الحلفاء ، فأتاه هناك كتاب من أحد جواسيسه يخبره بقلة عدد جند الحلفاء ويطمعه فيهم ، فتقدم مسرعاً إلى نصيبين فوصلها في اليوم التالي وخيم بالقرب من أعدائه وتم اللقاء بين الطرفين في التاسع عشر من شعبان لكنه لم يدم طويلاً ، إذ سرعان ما انهزمت قوات أمير الموصل بسبب الإرهاق الذي أصابها خلال تحركاتها السريعة ، وعند ذاك تقدم الأشرف وحلفاؤه إلى كفر زمار[1] ، فنهبوا الجهات المحيطة بها ودمروا مزارعها وانتقلوا إلى بلد

---

(١) كفر زمار : قرية تقع الى الشمال الغربي من الموصل (انظر ياقوت ، معجم البلدان ٢٨٨/٤) .

القريبة من الموصل ليفعلوا بها مـا فعلوه بالأولى ، فترددت الرسل بين الطرفين وانتهت المفاوضات بعقد الصلح ، واشترط على أمير الموصل إعادة تل أعفر إلى صاحب سنجار ، فسلمها إليه ، وتفرقت العساكر في أوائل سنة (٦٠١ هـ = ١٢٠٤ م)[١] .

وقف صاحب ماردين موقفاً محايداً من هذا الصراع وكان من المرجح أن ينضم ، حسب سياسته التقليدية ، إلى أمير الموصل للعمـل على الحـد من نفوذ الأيوبيين في المنطقة ، ولكن انعزال الأمير المذكور وتكتل معظم الأمـــراء المحليين والأراتقة إلى جانب الأيوبيين ضده ، منع صاحب ماردين من القيـــام بمساندة أمير الموصل خوفاً من عواقب الأمور .

وقد حاول أمير كيفا وآمد ، كعادته ، استغلال خدماته للأيوبيين وطاعته لهم وتحالفه معهم ضد أعدائهم في الحصول على مكاسب جديدة ، إذ اشترط على الاشرف بن العادل ، إثر اشتراكه معه ضد أمير الموصل ، أن يمده بقواتـــه للاستيلاء على خرتبرت التابعة لنظام الدين أبي بكر بن عمـاد الدين الأرتقي ، الذي كان قد التجأ إلى سلاجقة الروم . وكان أمير كيفا قد طمع بخرتبرت إثر وفاة ركن الدولة بن قلج أرسلان السلجوقي حامي أميرها ، فلما تم عقد الصلح مع صاحب الموصل عام (٦٠١ هـ = ١٢٠٤ م) ، طلب من الأشرف تنفيذ ما تم الاتفاق عليه مسبقاً . فسار الاشرف معه ، وساندتها قوات من سنجـــار وجزيرة بن عمر والموصل وغيرها ، ونزلوا على خرتبرت في شعبـــان وتم لهم

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٢ / ٨٠ - ٨١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٣/ ١٥٥ - ١٥٩ ، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ٥١٨/٨ ، ابن خلدون ، العبر ٥ /٥٩٠ - ٥٩٢ ، الصائغ ، تاريخ الموصل ص ١٩٧ .

الاستيلاء على ربضها في الشهر التالي (رمضان) . وكان صاحبها قد اجتمع بكيخسرو سلطان سلاجقة الروم وغدا في طاعته بعد وفاة أخيه ، فلما حوصرت خرتبرت طلب صاحبها من سلطان سلاجقة الروم أن ينجده بقواته ليجليهم عنها ، فجهز هذا عسكراً ضخماً قوامه ستة آلاف فارس ، وسيرهم مع حليفه الملك الأفضل صاحب سميساط ، فلما وصل هذا إلى ملطية ، ابتعد أمير كيفا وحلفاؤه عن خرتبرت وعسكروا في صحراء قريبة ، خوفاً من وقوعهم بين عدويهم ، وحماية لظهورهم في حالة اشتباكهم مع قوات سلاجقة الروم ، ومن ثم تقدموا صوب بحيرة سهنين ، التي تضم حصنين أحدهما لصاحب كيفا والآخر لصاحب خرتبرت ، فحوصر الأخير وتم فتحه في مطلع ذي الحجة سنة (٦٠١ هـ = ١٢٠٥ م) ، وخلال ذلك وصل إلى خرتبرت صاحبها بمعية قوات سلاجقة الروم ، وترددت الرسل بين الطرفين ، واشترطت قوات السلاجقة إعادة الحصن المفتوح الى صاحبه ، فامتنع أمير كيفا عن ذلك ، ولما طالت المفاوضات ولم تسفر عن شيء ، انفصل العسكران وعاد كل فريق إلى بلاده وبقي الحصن بيد أمير كيفا[١] .

عودة النزاع مع ماردين :

وبعد سنتين من ذلك (٦٠٣ هـ = ١٢٠٦ م) ، تهيأت الفرصة لناصر الدين أرتق بن إيلغازي صاحب ماردين لضم خلاط عاصمة أتابكة أرمينية إلى إمارته ، إذ كتب إليه أهلوها وبعض جندها يستدعونه لتسلمها ، بسبب سيرة أميرها ابن بكتمر الذي كان صبياً جاهلاً منهمكاً باللهب واللعب وإدمان الشرب ، وكانت مكاتبتهم لأرتق بن إيلغازي دون غيره من الملوك بسبب صلات القربى

(١) ابن الأثير ، الكامل ٨٤/١٢ .

التي تربطه بالعائلة الحاكمة في خلاط ، وكان شاه أرمن قد حلف رعيته لصاحب ماردين لعدم إنجابه ولداً ، فلما تجددت بعده هذه الأحداث تذكروا الإيمان ، فكاتبوه واستدعوه ، ولكن بلبان – أحد مماليك شاه أرمن – كان قد جاهر ابن بكتمر – أمير خلاط – بالعداء والعصيان وسار من خلاط إلى ملازكرد واستولى عليها ، واجتمع الأجناد عليه وكثر جمعه ومن ثم توجه إلى خلاط ، واتفق آنذاك وصول صاحب ماردين إليها ، ظاناً بأنه لا يوجد من يقاومه وأنهم سيسلمون إليه المدينة .. ونزل قريباً عدة أيام ، فأرسل إليه بلبان يقول : « إن اهل خلاط قد اتهموني بالميل إليك ، والرأي أن ترحل عائداً مرحلة واحدة وتعسكر هناك ، فإذا تسلمت البلد سلمته إليك لأنه ليس بإمكاني أن أغدو أميراً عليه » ، فخدع صاحب ماردين بحيلته وابتعد عن خلاط . ثم أرسل إليه بلبان يقول: « عد إلى بلدك وإلا جئت اليك وأوقعت بك وبمن معك » !! وكان صاحب ماردين في قلة من قواته فاضطر إلى العودة إلى بلده . وفضلاً عن ذلك كان الملك الأشرف بن العادل صاحب حران قد أرسل إليه عندما سمح بتوجهه إلى خلاط يقول له « إن سرت إلى خلاط ، قصدت بلدك » ، وكان الأشرف خائفاً من أن يستولي صاحب ماردين على خلاط فيقوي مركزه ، فلما لم يجبه هذا إلى طلبه ، جمع الأشرف قواته وسار إلى ولاية ماردين فاستولى على بعض المناطق المحيطة بها وأقام هناك حتى تجبى الضرائب إليه ، فلما فرغ من ذلك عاد إلى حران ، بعد أن غرم صاحب ماردين لقاء انسحابه مائة ألف دينار ، فكان هذا الهجوم عاملاً آخر دفع صاحب ماردين إلى عدم مقاومة بلبان والرجوع سريعاً إلى بلاده . ويعلق ابن الأثير على محاولة صاحب ماردين هذه ساخراً « فكان – كما قيل – كالنعامة خرجت تطلب قرنين فعادت بلا أذنين »[1] .

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٢ / ١٠٦ ، ابن خلدون . العبر ٥ / ٣٧٨ – ٣٧٩ . وأشار الى الحادث باختصار كل من سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٨/ ٥٢٦ ، وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ١٨٩/٦ ، وابن الساعي ، المختصر ٢٠٦/٩ .

وفي عام (٦٠٦ هـ = ١٢٠٩ م) جرت أحداث مهمة في المنطقة ، أكدت تشبث كل من الإمارتين الأرتقيتين بسياستيها التقليديتين تجاه الأيوبيين ، فكان صاحب كيفا وآمد يساندهم بكل قواه للحصول على مزيد من المكاسب ، بينما كان صاحب ماردين يعمل ضدهم مستغلاً كل فرصة للحد من نفوذهم التوسعي في المنطقة . ففي هذه السنة أرسل الأوحد الأيوبي صاحب خلاط في أرمينية (وكانت هذه المدينة قد غدت تحت سيطرة الأيوبيين سنة (٦٠٤هـ =١٢٠٧م) إلى السلطان العادل يستصرخه ضد الكرج ، الذين تكررت هجماتهم على المنطقة خلال السنتين الأخيرتين ، فغادر العادل دمشق وعبر الفرات وكتب إلى البلاد يستنفر عساكرها معلناً عزمه على مجابهة الكرج ، فوصل إليه عدد من الامراء الايوبيين بصحبة قواتهم لدى نزوله بحران ، كما وصل إليه الملك الصالح محمود ابن محمد الارتقي صاحب كيفا وآمد وعدد من الأمراء الأراتقة الموالين له كصاحب السويداء وصاحب دارا . فلما تكاملت العساكر لدى العادل حاول استغلال الفرصة للحصول على مكاسب جديدة في المنطقة ، خاصة وأنه كان قد اتفق مع أمير الموصل على اقتسام بلاد قطب الدين صاحب سنجار ونصيبين ، فأرسل إلى الأخير يطلب منه تسليمه بلاده مقابل تعويضه عنها بمكان آخر ، لم يحدده ، فلم يجبه هذا إلى ذلك ، فغادر العادل حران، وكان قد بلغه أن الكرج لما علموا بتقدمه خافوا وتراجعوا إلى بلادهم ، فاستولى على نصيبين والخابور ثم تقدم إلى سنجار وحاصرها ، فاستنجد صاحبها ببعض أمراء الاطراف ، وجرت مراسلات بهذا الصدد تشكل على إثرها حلف ضم أميرا الموصل وأربل والظاهر الأيوبي صاحب حلب وسلطان سلاجقة الروم وأخاه صاحب أرزن الروم وأمير ماردين . وكان غرض هذا الحلف هو إيقاف مطامع العادل في المنطقة ، وفي ذلك تحقيق هدف مشترك لهؤلاء الأمراء جميعاً ، وهو الحفاظ على ممتلكاتهم من أطماع العادل والأمراء الأيوبيين الموالين له .. وكان للظاهر صاحب

حلب ضيعة من أعمال ماردين تدعى (القرادى) ؛ كان أمير ماردين قد وهبه إياها عندما سعى للصلح بينه وبين العادل عام (٥٩٩ هـ = ١٢٠٢ م) وغدت تحت تصرف الظاهر منذ ذلك الوقت . فلما كانت هذه السنة (٦٠٦ هـ = ١٢٠٩ م) ، وحاصر العادل سنجار ، أمر من هناك بإقطاع القرادى لحليفه الصالح محمود صاحب كيفا ، فجعل الظاهر ذلك وسيلة في نقض ما بينه وبين العادل ، وأحضر فقهاء حلب عنده واستفتاهم قائلاً « ما تقولون في رجل حلف لرجل يميناً على أشياء فخان أحد الرجلين في بعض تلك الأشياء ، أينحل عقد تلك اليمين بتلك الأشياء أم لا ؟ فأجابوا بأنه ينحل اليمين ويبطل حكمها ، فأظهر لهم صورة الحال فأفتوه بأن اليمين قد بطلت » ، وكان ذلك هو السبب في انضمام صاحب حلب إلى الحلف المضاد للعادل . بدأ زعماء هذا الحلف نشاطهم بأن بعثوا إلى الخليفة يطلبون منه إرسال رسوله ليسعى في الصلح ، وليبعد العادل عن سنجار ، كما أرسل الظاهر إلى العادل يطلب منه الرحيل عن سنجار ، وقال لرسله: إن لم يقبل الشفاعة فأعلموه أني خارج إلى بلاده ، وطلب منهم أن يبلغوا عسكر حلب المرافق للعادل بالانسحاب في حالة رفضه ، فلما رفض هذا انسحب هؤلاء ، الأمر الذي أدى الى إضعاف العادل . وتقدم رسل الخليفة في طلب عقد الصلح بين الاطراف المتنازعة ، وقد رفض العادل في البدء قبول الصلح ، ولكنه حين أدرك عدم جدوى الاستمرار في الحصار أجاب إليه محتفظاً بحقه في نصيبين والخابور وكل المناطق التي استولى عليها خلال حركته الأخيرة ، ومن ثم غادر المنطقة وتفرق بقية الحلفاء[١] . بعد أن

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ٣/١٩٠ - ١٩٧ ، أبو شامة ، ذيل الروضتين ص٦٧ ، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ، ٨/١/٥٤٠ ، أبو الفدا ، المختصر ٣/١١٨، ابن الوردي ، تتمة ٢/١٢٧ ، ابن بهادر ، فتوح النصر (مخطوطة ١ / ٤٤) ، ابن الفرات ، تاريخ (مخطوطة ٩/٣٤ - ٣٨) .

دخل في الصلح منهم كل من أمراء ماردين وأربل والموصل والجزيرة وحلب[1].

وفي السنة التالية (٦٠٧ هـ = ١٢١٠ م) ، نقض هؤلاء الحلفاء وأنصارهم الصلح مع العادل واتفقوا على إعلان العصيان ضده وتحويل الخطبة لسلطان سلاجقة الروم ، وخسرو شاه بن قلج أرسلان كما راسلوا الكرج بالخروج إلى أطراف خلاط ، في الوقت الذي خرج كل أمير من الحلفاء على رأس قواته إلى حدود بلاده للاجتماع بالآخرين ، ومن ثم التقدم لقتال العادل الذي كان مقيماً آنذاك في حران بصحبة صهره صاحب كيفا . ونفذ الكرج الاتفاق مستهدفين استغلال هذا التحالف للحصول على مناطق جديدة ، وتقدموا إلى خلاط فتصدى لهم صاحبها الأوحد بن العادل وأسر مقدمهم ، فاضطروا إلى عقد هدنة معه وآثروا الانسحاب . وعندما علم الحلفاء بذلك ضعفت هممهم ، وبادر كل منهم إلى مراسلة العادل ملقياً مسؤولية العصيان على غيره باذلاً له الطاعة ، فقبل العادل أعذارهم وعقد معهم صلحاً في جمادى الأولى[2] .

★ ★ ★

ساد الأمن والهدوء السياسي منطقة الجزيرة طيلة السنوات التالية ، ولم يحاول أي من الأمراء الأراتقة نقض الصلح الذي تم عام (٦٠٧ هـ=١٢١٠م) ، أو العمل على إثارة المشاكل ضد الأيوبيين أو ضد منافسيهم على السواء .

توحيد سياسة الأراتقة :

ولكن هذا الاستقرار السياسي ما لبث ان انتهى عام(٦١٥= هـ ١٢١٨م)،

---

(١) ذيل الروضتين ص ٦٧ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٥٤١/٨ .

(٢) ذيل الروضتين ص ٧٥ .

وتعد تلك السنة نقطة انتقال في سياسة الأراتقة تشير لفترة جديدة ذات سمة تغاير ما سبق حتى ذلك الوقت في مجال العلاقات بين الأراتقة والأيوبيين ، فلأول مرة ، منذ عام (٥٧١ هـ = ١١٧٥ م) يتحد الموقف السياسي للإمارتين الأرتقيتين في كيفا وماردين ضد بعض الأمراء الأيوبيين .

فقد حدثت ، خلال هذا العام منازعات على بعض المدن والقلاع بين بدر الدين لؤلؤ- المتنفذ في الموصل باسم حاكمها نور الدين بن القاهر- وبين عماد الدين زنكي صاحب العقر والشوش[١] . وانضم مظفر الدين كوكبوري صاحب أربل إلى جانب صهره زنكي ضد حاكم الموصل ، فاضطر هذا إلى طلب مساندة الأشرف الأيوبي[٢] ، مقابل الانتماء إليه والخطبة له . فأجابه الأشرف إلى طلبه وأرسل إلى كوكبوري يتهدده ويطلب منه الالتزام بالصلح الذي تم بين جميع الأمراء عام (٦٠٧ هـ = ١٢١٠ م) . وكان ناصر الدين محمود أمير كيفا وآمد قد أعلن العصيان ضد الأشرف وهاجم بعض بلاده ونهبها واتفق مع صاحب ماردين ، ومن ثم انضما إلى كوكبوري وحلفائه ، فلما علم الأشرف بذلك جهز عسكراً وجهه إلى نصيبين ليكون في نجدة حاكم الموصل لدى احتياجه إليه . ولكن هذه النجدة لم تحقق غرضاً يذكر ، واستمرت الحروب بين صاحب حاكم وأعدائه ، مما اضطر الحاكم المذكور إلى الاستنجاد ثانية بالأشرف ، فعبر هذا الفرات إلى حران تلبية لطلب حليفه ، ولكن الصعوبات التي جابهته منعته من الإسراع بالمسير . ذلك أن صاحب أربل كان يراسل أمراء

---

(١) العقر : قلعة حصينة في الجبال الممتدة شرقي الموصل (ياقوت ، بلدان ٣ / ٦٩٦) ، والشوش قلعة عظيمة بالقرب من العقر (المصدر السابق ٣/٣٣٤) .

(٢) صاحب البلاد الجزرية التابعة للأيوبيين، وخلاط وما جاورها في أرمينية، انظر الكامل ٩/٣٢١ (طبعة الاستقامة - القاهرة) .

الأطراف ، يستميلهم ويحسن لهم الخروج على الأشرف ويخوفهم منه إذا ما خلا لهم وجهه فأكد أميرا كيفا وماردين وقوفهم إلى جانبه ، وانضم إليهم عز الدين كيكاوس سلطان سلاجقة الروم ، وتم الاتفاق بينهم على إعلان الطاعة لكيكاوس والخطبة له في بلادهم وضرب السكة باسمه(١) .

ولكن وفاة كيكاوس عام (٦١٦ هـ = ١٢١٩ م) أنقذت الأشرف وأمراء الموصل من خطر محقق . وكان صاحب أربل قد راسل جماعة من كبار أمراء الأشرف واستمالهم فاستجابوا إليه ، وانشقوا على سيدهم ونزلوا بدنيسر قريباً من ماردين ليجتمعوا بصاحب آمد وكيفا ويمنعوا الأشرف من التقدم إلى الموصل لمساندة حليفه . فلما اجتمعوا هناك انقلب صاحب كيفا وآمد عليهم وعاد إلى سياسته التقليدية في موافقة القوى الأيوبية ضد أعدائها في المنطقة طمعاً في الحصول على بعض المكاسب ، فعقد صلحاً مع الأشرف حصل بموجبه على حاني وجبل جور ، كما ضمن له الأخير الاستيلاء على دارا (٢)

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٢/١٣٨ - ١٤٣ ، ١٤٦ ، ابن الفرات ، تاريخ (مخطوطة ١٠/١٠) .

(٢) كانت دارا آنذاك تحت حكم عماد الدين الأرتقي ابن عم الملك الصالح صاحب كيفا وآمد، فلما انتهت الاحداث المشار اليها شكا صاحب كيفا للأشرف سوء مجاورة ابن عمه في دارا ، وطالبه بتنفيذ وعده بالاستيلاء عليها وتسليمها اليه . ولم يشأ الأشرف إثارة مشاكل جديدة في المنطقة وقال لصاحب كيفا : « لا أدخل بينكما » ، وربما كان يلمح بذلك الى أن لصاحب كيفا الحرية في مهاجمة دارا والاستيلاء عليها ، إذ ما لبث هذا أن هاجمها فعلا وسيطر عليها عام (٦١٧ هـ = ١٢٢٠ م) . وبقيت تحت سيطرته الى أن توفي فانتقلت الى ولده المسعود، الا أن الأشرف سرعان ما استولى عليها لكونها مجاورة لنصيبين ووهبها لمملوكه عز الدين إيبك المعروف بصاحب دارا . انظر ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ٢٤ آ) .

وتسليمها إليه[1] .

كان لموقف صاحب كيفا وآمد نتائج مهمة ، إذ أنه مـــا أن فارق أعداء الأشرف حتى انحل أمرهم واضطر بعضهم إلى العودة إلى طاعة الحاكم الأيوبي ، الأمر الذي مكنه من التقدم إلى دنيسر والاستيلاء على المناطق المحيطة بماردين وإقطاعها لأصحابه . ومن ثم فرض حصاراً اقتصادياً على ماردين لإضعافهـــا والتمهيد لمهاجمتها ، وساعده أمير كيفا وآمد على ذلك ، فاضطر صاحب ماردين إلى طلب الصلح ، فأجابه الأشرف وشرط عليه تسليمه رأس عين التي كان — الأشرف — قد أقطعه إياها في فترة سابقة ، فضلاً عن قيامه بدفع مبلغ ثلاثين ألف دينار والتنازل لصاحب كيفا وآمد عن إقليم الموزر[2] .

ما أن تم الصلح حتى غادر الأشرف دنيسر إلى نصيبين بصحبة صاحب كيفا لإنجاد حاكم الموصل ، واستولى في طريقه على سنجار بعد أن تنازل له صاحبها لقاء تعويضه عنها بالرقة ، ثم تقدم إلى الموصل فوصلهـــا في جمادى الأولى سنة (٦١٧ هـ = ١٢٢٠ م) . وسعى الخليفـــة وصاحب أربل في طلب الصلح فلم يجبهم الأشرف إلى ذلك ، إلا أن ما أصاب قواته من إرهاق طيلة هذه المدة وميل صاحب كيفا إلى كوكبوري وإلحاحه ، وبقية الأمراء ، عليـــه بقبول الصلح ، دفع الأشرف إلى الاستجابة اليه وتسوية المشاكل المعلقـــة بين حاكم الموصل وصاحب العقر والشوش اللذين ثارت هذه المنازعات بسبب تنافسهما على المدن والقلاع . ومن ثم غادر الأشرف وحلفاؤه الموصل إلى سنجار في مطلع

---

(١) ابن الأثير، الكامل ١٢/١٣٨ — ١٤٣، ١٤٦، ابن خلدون، العبره/٥٩٧ — ٦٠٣، ابن الفرات ، تاريخ (مخطوطة ١٠ — ١٠) .

(٢) المصادر السابقة ، نفس الصفحات .

رمضان سنة (٦١٧ هـ = ١٢٢٠ م)[١] .

وهكذا عادت إمارة كيفا إلى سياستها التقليدية فساندت الأيوبيين ضد أعدائهم بعد فترة قصيرة من التمرد عليهم ، واشتركت معهم في مهاجمة أراتقة ماردين ، وكان هدف أمرائها الرئيسي من اتباع هذه السياسة - كما سبق وأن ذكرنا - هو الحصول على مزيد من المكاسب كنتيجة لهذا التأييد والإسناد . واستطاعوا فعلاً أن يحصلوا على موقعي دارا والموزر . ويذكر أبو شامة أن الأشرف كان يحب أمير كيفا وأن هذا جاء لزيارة الأشرف مراراً عديدة[٢] . هذا في الوقت الذي كانت فيه ماردين ملجأ لكبار الأمراء المنشقين على الدولة الأيوبية . ففي عام (٦١٨ هـ = ١٢٢١ م) كان الأمير مبارز الدين سنقر الصلاحي قد استقر في ماردين بعد اختلافه مع الأيوبيين ، وكان قبيل ذلك مقيماً بحلب فخاف الأشرف من وجوده في ماردين قريباً من ممتلكاته في المنطقة ، وأرسل الى المعظم الأيوبي صاحب دمشق قائلاً : ما دام المبارز في الشرق ما آمن على نفسي ، فأرسل المعظم إلى المبارز يعده بإقطاعه ما يشاء في الشام إبعاداً لخطره ، فاستجاب المبارز إليه ، رغم تحذير أمير ماردين إياه من الوقوع في المكيدة التي دبرت له ، وأنه لاقى قبل ذلك الذل والهوان على أيدي الأيوبيين ،

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٢ / ١٣٨ - ١٤٣ و ١٤٦ ، ابن خلدون ، العبر ٥٩٧ - ٦٠٣ ، وأشار الى الحادث باختصار كل من ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ٢٥ب - ٢٦ آ ، ٤٤ آ/٥٣ ب) ، وسبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ٦٠٨/٨ - ٦٠٩ ، واليونيني، ذيل المرآة ٢٢٦/٢ ، وأبو شامة ، ذيل الروضتين ص١٢١ . ويشير المقريزي (السلوك ٢٠٥/١/١) الى أن الأشرف ملك ماردين هذه السنة (٦١٧) ولعله يقصد ربض ماردين وضياعها ، الصائغ ، الموصل ص٢٠٤ - ٢٠٥ ، ابن الفرات ، تاريخ (مخطوطة ١٠ - ١٠).

(٢) ذيل الروضتين ص ١٢٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ٩٣/١٣ .

وغادر ماردين إلى دمشق ، حيث لم يف المعظم بوعوده [١] .

دلت هذه السياسة التي اتبعها صاحب ماردين تجاه الأيوبيين على فشلها من حيث تحقيق نتائج إيجابية ، وأدرك من سياق الأحداث أن لا جدوى من جراء عدائه المستمر للأيوبيين ، بل إن ذلك غدا يعرضه لخسائر فادحة في ممتلكاته ، ويشجع أراتقة كيفا على التعرض لإمارته بمساعدة الأيوبيين ، ومن ثم عزم على تغيير سياسته ، وبخاصة بعد صلح عام (٦١٧ = ١٢٢٠ م) ، فأرسل في العام التالي إلى الأشرف يطلب منه أن يصعد المعظم - الذي أرسله الأيوبيون لطلب نجدة من الجزيرة ضد الصليبيين[٢] - إلى قلعته في ماردين لكي يؤكد لهم صدق تجاوبه معهم ، وعمق ثقته بهم ، فأبلغ الأشرف المعظم طلب صاحب ماردين ، فتوجه المعظم إلى هناك ، حيث نزل صاحب ماردين لاستقبـــاله وأصعده إلى القلعة « وخدمه خدمة عظيمة وقدم له التحف والجواهر وتحالفا واتفقا »[٣] ، وزوجه المعظم إحدى بناته وقام هو بتزويج ابنته للمعظـــم وخلع على جميع أصحابه وأعطاهم الأموال ، ومن ثم عاد الامير الأيوبي إلى حران[٤] .

إلا أن هذا التجاوب في سياسة الأراتقة تجاه الأيوبيين لم يكن صادراً عن إخلاص ، فقد حاولت إمارتا ماردين وكيفا - في الخفاء - استغلال أية حركة تستهدف إضعاف نفوذ الأيوبيين المباشر في المنطقة ، فراحوا يسهمون في تعزيز

---

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ٦٢٦/٨ . ونقل عنه ابو شامة ، ذيل الروضتين ص ١٣٤ ، الصالحي ، القلائد الجوهرية ص ٢٢١ .

(٢) انظر التفاصيل في الفصل الثالث .

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ٦١٨ - ٦١٩ .

(٤) المصدر السابق ، نفس الصفحات ، ونقل عنه أبو شامة ، ذيل الروضتين ١٢٨ ، ابن العبري ، المختصر ٤١٣ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٢٣٩/٦ - ٢٤٠ .

تلك الحركات ومساندتها . ففي عام (٦٢٠ هـ = ١١٢٣ م) ، قام شهاب الدين غازي الأيوبي ، الذي استنابه أخوه الأشرف في خلاط ، بحركة عصيان ضد أخيه ، ولم توضح المصادر دور الأراتقة في ذلك الحدث ، إلا أن سبط بن الجوزي يشير إلى العصيان قائلاً « وأعانه عليه قوم آخرون وهم صاحب أربل والمشارقة ... وقالوا نحن وراءك[1] » ، وربما قصد بالمشارقة الأمراء المحليين في الجزيرة وفي جملتهم الأراتقة ، ولكننا لا نستطيع الجزم بذلك . وعلى أية حال فقد انتهت الحركة بالفشل .

ومما يشير إلى أن تعاون الأراتقة مع الأيوبيين وطاعتهم لهم لم تكن صادرة عن حسن نية ما حدث بعد ثلاثة أعوام (٦٢٣ هـ = ١٢٢٦ م) ، إذ اشترك كل من فرعي الأراتقة في كيفا وماردين في حركة واسعة النطاق استهدفت القضاء على نفوذ الأشرف في الجزيرة واقتسام ممتلكاته هناك . فقد تم الاتفاق بين أميري كيفا وماردين ومظفر الدين كوكبوري صاحب أربل والملك المعظم صاحب دمشق ، فضلاً عن دخول قوة جديدة في الصراع في هذه المنطقة منذ ذلك الوقت ألا وهي الخوارزميون بقيادة السلطان جلال الدين خوارزمشاه ، بعد الضغوط التي جابهوها في بلادهم الأصلية . وقد تم التفاهم ، مسبقاً ، بين هؤلاء جميعاً على حصة كل منهم في أملاك الأشرف ، وأرسل كل من أميري ماردين وكيفا رسالة إلى جلال الدين خوارزمشاه يعلنان فيها طاعتهما له ، فبعث هذا إليهما يأمرهما بالخطبة له في بلادهما لاختبار صدق نيتهما في هذه الدعوة[2] .

---

(١) مرآة الزمان ٦٢٥/٨ .

(٢) النسوي ، سيرة جلال الدين منكوبرتي ص ٣١٠ ، وانظر ابن الأثير ، الكامل ١٢ / ١٨٧ .

وتحرك صاحب أربل في جمادى الآخـــرة (٦٢٣ هـ = ١٢٢٦ م) نحو الموصل ، وتقدم خوارزمشاه من تفليس يريد خلاط ، إلا أن عصيان أحـــد أمرائه عليه في إحدى مناطق دولته اضطره للعودة إلى هنـــاك بعد أن نهب مناطق خلاط وخرّب كثيراً منها . وقد أثرت عودته في معنويات حلفائه الى حد كبير « فانفسخ جميع ما كانوا قد عزموا عليه »[1]، إلا أن صاحب أربـل واصل تقدمه إلى الموصل ونزل على جانب الزاب ، شرقيهـــا ، فأرسل بدر الدين لولو يستنجد بالأشرف ، وكان آنذاك في الرقة ، ويطلب منه أن يحضر بنفسه لإجلاء صاحب أربل عن الموصل ، فسار الأشرف إلى حـــران ثم إلى دنيسر حيث خرب أطراف ماردين ونهبها [2] ، وأرسل من هناك إلى حليفه كيقباذ بن كيخسرو سلطان سلاجقة الروم يطلب أن يتقدم إلى إمارة كيفـا ويشن هجومه عليها ، فسار سلطان سلاجقة الروم إلى ملطية ونزل عندها ، وسير العساكر من هناك إلى إمارة كيفا حيث استطاعت أن تفتح قلعتي منصور وشمكازاد وعدداً من الحصون الصغيرة الأخرى . فلما رأى أمير كيفا أن ليس من مصلحته الاستمرار في معاداة الأشرف وحلفائه أرسل إليه وانضوى تحت لوائه ، فأرسل هذا إلى سلطان سلاجقة الروم يعرفه بذلك ويطلب منه إعادة ما استولى عليه إلى أمير كيفا ، ولكن كيقباذ لم يجبه إلى ذلك وقال « لم أكن نائباً للأشرف يأمرني وينهاني »[3] .

قام المعظم – صاحب دمشق – خلال ذلك بالتحرك إلى حمص وحماه وأرسل

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ١٢/١٨٧ . ويخطىء المقريزي (السلوك ١/١/٢١٥) في القول بأن خوارزمشاه ، استولى في هذه الحادثة على ماردين.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٢/١٨٧ ، وانظر ابن واصل ، مفرج الكروب (القسم المخطوط ٢/٢٤٠) .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ١٢/١٨٩ – ١٩٠ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٣٥٨ – ٣٥٩ .

إلى الأشرف من هناك يطلب منه إنهاء القتال وأن يعود كل طرف إلى بلده ، وقد أدى هذا إلى إنقاذ ماردين من خطر محقق ، إذ استجـــاب له الأشرف وبقية الأطراف ، ورجع كل إلى بلده بعد أن خربت أعمـــال الموصل وماردين وبخاصة الأخيرة التي كان الغلاء قد انتابها مدة طويلة وجلى عنها أكثر أهلها ، فصادفتها هذه الحادثة فازدادت خراباً[1] . وما أن أنهى الأشرف مهاجمتـــه لماردين حتى عاد إلى دمشق للقاء المعظم ، وأمر قواته في الجزيرة بمساعـــدة أمير كيفا في حالة اصرار سلطان سلاجقة الروم على مهاجمته . فتقدمت هذه القوات للانضواء تحت لواء أمير كيفا الذي كان قد استنفر كل قادر على حمل السلاح في بلاده ، ومن ثم توجهوا سوية لمجابهة قوات صاحب الروم التي كانت تحاصر آنذاك قلعة الكختا ، فالتقوا هناك في شوال حيث انهزم أمير كيفـــا وقواته هزيمة نكراء وجرح وأسر عدد كبير من جنده ومن ثم استولت قوات سلاجقة الروم على قلعة الكختا التي تعد من أمنع الحصون وانسحبت بعد ذلك إلى بلادها[2] .

وهكذا ألجأت الظروف ، صاحب كيفا ، إلى التشبث بسياسته القديمـــة القائمة على التنصّل بسرعة من معاداته للأيوبيين والعودة إلى الدخول في طاعتهم

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٢/١٨٧ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٣٥٨ - ٣٥٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب (القسم المخطوط ٢ / ٢٤٤ - ٢٤٥) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٢/١٨٩ - ١٩٠ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٣٥٨ - ٣٥٩ . وأشار الى الحادثة باختصار كل من ابي الفدا ، المختصر ٣/١٤٤ ، ابن الوردي ، تتمة ٢/١٤٨ ، الذهبي ، دول الإسلام ٢ / ٩٦ ، الديا بكري ، الخميس ص ٣٦٩ ، ابن واصـــل ، مفرج الكروب (القسم المخطوط ٢ / ٢٤٤ - ٢٤٥) ، ابن الفـــرات ، تاريخ (المخطوطة ١٠/٨١) .

وحمايتهم، في الوقت الذي لحقت الخسائر بصاحب ماردين الذي كان يقف دوماً إلى صف أعدائهم في المنطقة .



ساد الاستقرار ديار بكر طيلة السنوات التالية ، بعد إذ أدرك الأراتقة عدم جدوى الدخول في نزاع مستمر مع نواب الأيوبيين هناك ، وبعد ما لحقهم من خسائر من جراء ذلك . لذا فإنهم سرعان ما أعلنوا عن طاعتهم للسلطان الكامل الذي غدت الجزيرة ضمن ممتلكاته . وقد تقدم هذا إلى الجزيرة وتوجه إلى حران والرها وقوى حامياتها فقدمت عليه هناك رسل صاحب ماردين وكيفا والموصل وأربل ، كما حضر عنده عدد من الملوك وأعلن صاحب ماردين الخطبة له وضرب السكة باسمه تأكيداً لطاعته للسلطان الأيوبي[1] .

وفي الخلف الذي عقده الأشرف – الذي غدا الآن نائباً لدمشق – وبين كيقباذ سلطان سلاجقة الروم عام (٦٢٧ هـ = ١٢٢٩ م) لاسترداد خلاط من الخوارزميين ، يذكر سبط ابن الجوزي أن عساكر الجزيرة لبت نداء الأشرف واشتركت في المعركة التي انتهت بهزيمة الخوارزمية واسترداد خلاط[2] ، وربما كانت قوات الأراتقة ضمن عساكر الجزيرة المذكورة، ومما يحمل على القول بذلك تعرض خرتبرت الأرتقية لهجوم الخوارزميين ، حيث اتفق جلال الدين خوارزمشاه مع حليفه صاحب إرزن على أن يتجها إلى نواحي خرتبرت ليراقبا من هناك تحركات القوات المعادية ، وكتب خوارزمشاه لحليفه توقيعاً بناحيتي

---

(١) المقريزي ، السلوك ١/١/٢٣٦ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ٦٦٠ – ٦٦٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ١٢٧/٣١ .

كنعين وخريشين (من أعمال خرتبرت)ومن ثم اتجه خوارزمشاه إلى خرتبرت وهاجم قواتها وهزمها[1] ، فإما أن يكون قد استولى سابقاً على ناحيتي كنعين وخريشين ، وإما أنه قرر أخذهما بعد انتصاره على أعدائه وإعطائها لحليفه .

سقوط إمارة كيفا وآمد :

وبالرغم من أن صاحبي ماردين وكيفا الأرتقيتين اختلفا منذ البدء في سياستها تجاه الايوبيين ، حيث كان الأول يسعى لتقويض نفوذهم في الجزيرة بينما أخذ الثاني يساندهم ويعلن طاعته لهم ، فإن الذي حدث في أواخر العشرينات أن إمارة كيفا وآمد هي التي تعرضت للضربة الأيوبية القاضية التي أسقطتها نهائياً ، بينما استمرت إمارة ماردين بعد ذلك ما يقرب من القرنين . وثمة أسباب عديدة أدت بالسلطان الكامل إلى توجيه ضربته إلى إمارة كيفا وآمد ، وعلى رأس تلك الأسباب أن حاكم هذه الإمارة الملك المسعود ركن الدولة مودود الذي تولى الحكم عام (٦١٩ هـ = ١٢٢٢ م) ، كان ظالماً قبيح السيرة شبيهاً بأبيه ، وكان يسعى لاتباع شهواته وارتكاب ما لا يليق ، فضلاً عن أنه بدرت منه بوادر تشير إلى خروجه عن طاعة الأيوبيين ، منها انتماؤه إلى جلال الدين خوارزمشاه وخطبته له في بلاده ، كما أنه أساء جوار المظفر شهاب الدين غازي الأيوبي نائب ميافارقين وراح يتخطف بلاده ، وجاهر كلاً من الكامل الأيوبي وسلطان سلاجقة الروم بالعداء ، وأوكد الأسباب – كما يشير ابن شداد – أنه كان كلفاً بالنساء منهمكاً في ذلك[2] ، وكان كما ذكر أبو

---

(١) النسوي ، سيرة جلال الدين ص ٣٢٩ – ٣٣٠ .

(٢) الأعلاق (مخطوطة ورقة ١٢٤ آ). وانظر ابن الشحنة ، روضة ٨٩/٩، وابن دقماق، نزهة الأنام (مخطوطة ص ٤ – ٥).

الفدا ، يتعرض لحريم الناس وكانت له عجوز قوادة يقال لها (الازا) كانت تؤلف بينه وبين نساء أكابر الناس والملوك والأمراء[١]. وذكر سبط بن الجوزي كيف أن الأيوبيين وجدوا في قصره خمسمائة حرة من بنات الناس للفراش[٢] . وكان والده متزوجاً بابنة السلطان العادل ، فلما مات أساء إليها مسعود إساءة كثيرة ، وبدا منه في حقها أمور لا يليق ذكرها ، فخرجت من عنده وقصدت أخاها الملك المظفر شهاب الدين غازي بميافارقين وشكت إليه ، فكتب إلى أخويه ، الكامل والأشرف وعرفهما بذلك فكتب الكامل إلى الخليفة المستنصر بالله يشكوه إليه ويذكر معايبه وتعرضه لحرم رعيته ، واستأذنه في مهاجمته فأذن له الخليفة[٣] ثم إن الكامل استهدف توسيع نفوذه في الجزيرة والعمل على توحيدها للصمود أمام طلائع الضربات التترية ، حيث استغل فرصة خروجه من مصر لدفع التتار ، ثم عرج بعد انسحابهم على آمد[٤] وهذا يعد من أشد الأسباب أهمية ، فضلاً عن أن آمد كانت أساساً ، ملكاً للأيوبيين وأن صلاح الدين منحها للأراتقة عام (٥٨٠ هـ = ١١٨٤ م) ، كهدية منه لأمير كيفا .

عسكر الكامل في سلمية واجتمع معه هناك معظم الملوك والأمراء الأيوبيين[٥] ومن ثم تقدم إلى آمد ونزل عليها في العشرين من ذي الحجة (٦٢٩هـ = ١٢٣٢ م)، فبعث إليه صاحبها يستعطفه ويبذل له مائة ألف دينار،

---

(١) أبو الفدا ، المختصر ٣ / ١٥٩ .

(٢) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٦٧٦/٨ .

(٣) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٢٤ آ ــ ١٢٤ ب) ، وانظر ابن واصل ، مفرج الكروب (القسم المخطوط ٢٧٧/٢ - ٢٧٨) .

(٤) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ /٦٧٣ .

(٥) أبو الفدا ، المختصر ٣ / ١٥٩ .

وللأشرف عشرين ألف دينـــار فلم يقبل[1] ، وضربها بالمجانيق[2] وضيق على أهلها ، وأضعفهم بالمقاطعة الاقتصادية ومنع الأقوات من الدخول إليهـــا[3] وأنذر صاحبها وأعلن أنه سيتنازل له عن إقطاعـــات كثيرة إذا سلم آمد فلم يلتفت إليه[4] . وفي الخامس والعشرين من ذي الحجة رتب الكامــــل قواته للهجوم ، ثم ما لبثوا أن زحفوا « زحفة رجل واحد » فلما رآهم صاحب آمد هاله ذلك وطلب الأمان فأمنه الكامل على أموالــه وأهله وأقطعه إحـــدى المناطق بمصر ، ومن ثم تسلم آمد[5] ، ودخـــل البلد وقبض على أولاد مسعود واستولى على ذخائره وأمواله[6] . ووصل إليه آنذاك رسول الخليفة المستنصر ليقلده الملك وهو مسرور بما نال من ملكها[7] ، كما وردتـــه هدية من صاحب ماردين[8] مصانعة له وتقرباً إليه ، وقد تمكن الكامل بعد قليل من السيطرة على معظم الحصون العائدة لإمارة مسعود دون مقاومة تذكر ، ما عدا حصن

---

(١) المقريزي ، السلوك ١/١/٣٤٣ ، ابن دقماق ، نزهة الانام (مخطوطة ٤ – ٥) .

(٢) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨/٦٧٥، الذهبي، دول الإسلام ٢/١٠٢ ، المقريزي ، السلوك ١/١/٢٤٣ ، ابن العماد ، شذرات ٥ / ١٣٤ – ١٣٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب (القسم المخطوط ٢/٢٧٧ – ٢٧٩) .

(٣) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ص ٤٢ .

(٤) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ٦٧٦ .

(٥) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٢٥ آ) ، العمري ، مسالك الابصار (مخطوطة ٣/٢٧/٢٢٥ – ٢٢٦) ، عيون الاخبار ، (مخطوطة ١٦٤) ، ابن دقماق ، الجوهر الثمين (مخطوطة ٩٩) .

(٦) سبط بن الجوزي ٨/٦٧٦، العمري، مسالك الابصار (مخطوطة ٣/٢٧/٢٢٥–٢٢٦)، ابن دقماق ، نزهة الانام (مخطوطة ٤ – ٥) .

(٧) ابن كثير ، البداية والنهاية ١٣ /١٣٥ .

(٨) المقريزي ، السلوك ١/١/٢٤٣ .

كيفا حيث إن نائبه أبى تسليمه إياه ، فاتبع الكامل سبيل الخداع للسيطرة عليه ، إذ تقدم بالمسعود إلى أسفل الحصن وطلب منه أن يظهر لمن فيه أنه يعذّب بسبب عدم تسليمه ، فاضطر نائبه إلى التنازل عن البلد في المحرم سنة (٦٣٠ هـ = ١٢٣٢ م)[١] ثم سلمت القلعة في صفر[٢] وكانت في غاية الحصانة[٣] .

رتب الكامل نوابه في آمد وكيفا وبلادهما وعين ابنه الصالح أيوب نائباً عنه في جميع المنطقة[٤] ، وأحسن إلى المسعود واستصحبه معه الى مصر[٥] . ولم يمض وقت قصير حتى بدت من الأخير امور اعتقله الكامل بسببها ، إذ كاتب سلاجقة الروم وسعى في هلاك الكامل[٦] ولم يزل المسعود معتقلاً إلى أن توفي الكامل سنة (٦٣٥ هـ = ١٢٣٧ م) ، فأطلق من السجن وتوجه إلى حماة حيث أحسن صاحبها اليه ثم سافر إلى الشرق واتصل بالتتر فقتلوه طمعاً في

---

(١) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٢٤ ب ١٢٥ آ) ، وفي رواية سبط بن الجوزي ، (مرآة الزمان ٨/٦٧٦) إن الكامل بعث الأشرف وشهاب الدين غازي ومعهما المسعود مخفوراً الى كيفا فلم تسلم اليهم فعذبه الأشرف عذاباً عظيماً « وكان يبغضه » ، وانظر ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/١٣٥ ، وابن العماد ، شذرات الذهب ٥/١٣٥ .

(٢) نزهة الانام ، (مخطوطة ٤ – ٥) ،

(٣) أبو الفدا ، المختصر ٣/١٥٩ .

(٤) المصدر السابق ٣/١٦٠ ، الذهبي ، دول الإسلام ٢/١٠٢ ، الديار بكري ، الخميس ص ٣٧١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب (القسم المخطوط ٢/٢٧٨ – ٢٧٩) .

(٥) يخطىء ابن العبري ، مختصر ص٤٣٥ ، في القول بأن الكامل عوضه عن إمارته قرى بالشام .

(٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ٦/٢٥٠، وانظر ابن واصل ، مفرج الكروب (القسم المخطوط ٢/٢٧٨ – ٢٧٩) .

أمواله[1] .

وهكذا سقطت إحدى إمارتي الأراتقة بعد أن حكمت ما يقرب من قرن ونصف (٤٩٨ - ٦٣٠ هـ = ١١٠٤ - ١٢٣٢ م) ، وكان العامل الرئيسي في سقوطها -كما رأينا- هو ضعف آخر أمرائها الملك المسعود وانغماسه في الملذات، واتباعه سياسة الاستفزاز للأيوبيين سواء في علاقاته الخارجية أم العائلية ، مما دفع هؤلاء أخيراً الى توجيه ضربتهم المشتركة ضد هذا الأمير الأرتقي،مستغلين فرصة تعرض المنطقة لهجمات قوى التتر الدائمة ، وأذن الخليفة العباسي بالهجوم على هذه الإمارة[2] ، وقد هدم الملك المسعود بسلوكه هذا وسياسته تلك ما سعى أسلافه لبنائه طيلة ما يقرب من قرن ونصف باتباعهم سياسة التحالف والطاعة للأيوبيين ، مما أدى إلى حصولهم على ممتلكات جديدة باستمرار بحيث اتسعت إمارتهم فشملت عدداً كبيراً من المدن والقرى والضياع ، بفضل عطف الأيوبيين عليهم . وربما كان بإمكان إمارة كيفا وآمد أن تصمد لأقوى الضربات لولا ما اتصف به أميرها المسعود من تهافت في أخلاقه وعدم رغبة في التعرض للمشاكل في حالة إصراره على الوقوف بوجه الحصار الأيوبي ، وبالرغم من أن اكبر مدينتين في إمارته ، وهما كيفا وآمد ، تميزتا بحصانتها الشديدة واستعدادهما للمقاومة طويلة المدى لأي هجوم .

---

(١) أبو الفدا ، المختصر ٣/١٥٩ - ١٦٠ ، ابن الوردي ، تتمة ٢ / ١٥٨ (نقلاً عن أبي الفدا ، المختصر ٣ / ١٥٩ - ١٦٠) ، ابن الوردي ، تتمة ١٥٨/٢ ، (نقلاً عن أبي الفدا) وانظر سبط بن الجوزي، مرآة الزمان ٦٧٣/٨ - ٦٧٤ ، وأبو شامة ، ذيل الروضتين ص ١٢٤ ، والعمري، مسالك الأبصار (مخطوطة ٢٢٥/٢٧/٣ - ٢٢٦) .

(٢) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٢٤ آ - ١٢٤ ب) .

سقوط خرتبرت :

لم يؤد سقوط إمارة كيفا وآمد إلى إضعاف الإمارة الأرتقية الأخرى في ماردين ، بل على العكس ، ربما أتاح لها المجال للتمكن في المنطقة وتوسيع نفوذها فيها ، خاصة وأن العلاقات بين الإمارتين لم تكن ودية في معظم الأحيان ولم يحدث بينهما تعاون في سياستها الخارجية ، بل على العكس اتبع أمراؤهما سياستين مختلفتين تماماً – كما اتضح من استعراض علاقاتها الخارجية – وكثيراً ما كانتا تتنافسان على الحدود وبعض الممتلكات ويصل التنافس إلى حد القتال واللجوء إلى قوى خارجية لاقتطاع بعض أجزاء إحدى الإمارتين وضمها إلى الأخرى . وهذا هو الذي جعل إمارة ماردين لا تتأثر البتة بسقوط شقيقتها الأرتقية في كيفا وآمد ، خاصة وأن الأمير الذي أنابه الكامل في المنطقة ، وهو الملك الصالح أيوب ، كان صبياً بعد ولم يتصف بالقوة والدراية . لذا نجد صاحب ماردين يغير سياسته ويقف منهم موقف العداء محاولاً الاستزادة من قوته والتوسع الاقليمي على حساب الأملاك الأيوبية سواء عن طريق التحالف مع جيرانه أو بمفرده ، ولم يتمهل في تحقيق أهدافه تلك ، وإنما بادر في نفس العام الذي سقطت فيه إمارة كيفا إلى التحالف مع كيقباذ سلطان سلاجقة الروم ، وقاما بهجوم شديد على حران والرها والرقة « وفعلا بالجزيرة ما لا تفعله التتر[1] » فكان رد الكامل على هذا الهجوم ، أن قام في السنة التالية (٦٣١ هـ = ١٢٣٤ م) ، يساعده الأمراء الأيوبيون ، بالتقدم إلى بلاد سلاجقة الروم لإيقاف كيقباذ عند حده ، بسبب تعرضه لبلاد خلاط العائدة للأشرف الأيوبي ، وكان كيقباذ قد حفظ الممرات الجبلية بالمقاتلين فلم يتمكن الكامل

---

(١) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ٦٧٧ ، ونقل عنه ابن كثير ، البداية والنهاية ١٣/١٣٥ .

من الدخول إلى بـلاد الروم ، واكتفى بإرسال بعض قواته إلى حصن منصور العائد لكيقباذ حيث تمكنت من هدمه ، ومن ثم رحل الكامل عائداً وعسكر في السويدا القريبة من آمد[١] بسبب الاختلاف والتنازع الذي وقع بينه وبين الأمراء الأيوبيين ، وجاءه هناك صاحب خرتبرت الأرتقي وأعلمه بأنه يعرف طريقاً سهلاً للدخول إلى بلاد الروم ، فجهز الكامل عسكراً بقيـادة بعض الأمراء الأيوبيين تقدموا باتجاه خرتبرت ، فالتقى بهم علاء الدين كيقباذ بقواته وهزمهم[٢] ووجد المظفر الأيوبي صاحب حماة نفسه محصوراً مع بعض قواته في خرتبرت ، يحيط بهم جند كيقباذ من كل مكان . ولم يتمكن الكامـل من التقدم لإنجاده بسبب الاختلافات التي دبت في صفوف أمرائه ، واستمر الحصار على خرتبرت ، واستولى سلاجقة الروم على ربضها عنوة وأسروا أكثر من كان فيه ، ونصبوا على القلعة عدداً من المجانيق ، ومن ثم دام الحصار أربعة وعشرين يوماً وأخذ الماء والقوت يتناقصان في قلعة خرتبرت[٣] . وأدرك المظفر عدم جدوى المقاومة فطلب الأمان فأمنه كيقباذ وأكرمه ، ومن ثم تسلم خرتبرت يوم الأحد الثالث والعشرين من ذي القعدة[٤] ، ثم ما لبث أن استولى على ست قلاع أخرى كانت تابعة للأراتقة فاشتد حنق الكامل لمـا حصل على أمرائه

---

(١) أبو الفدا ، المختصر ٣ / ١٦٢ – ١٦٣ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٣٦٠ – ٣٦١ ، الصابوني ، تاريخ حماة ص ٦٦ .

(٢) سبط بن الجوزي ٨ / ٦٨٤ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ١ / ١٣١ – ١٣٢ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٦/٢٨٢ – ٢٨٣ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٣٦٠ – ٣٦١ .

(٣) اليونيني، ذيل مرآة الزمان ١/١٣١ – ١٣٢ .

(٤) أبو الفدا ، المختصر ٣/١٦٢ – ١٦٣ ، ونقـل عنه ابن الوردي ، تتمة ٢/١٥٩ – ١٦٠ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٣٦٠ – ٣٦١ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمـان ١/ ١٣١ – ١٣٢ ، المقريزي ، السلوك ١/١/٢٤٧ – ٢٤٩ .

وعساكره من سلطان سلاجقة الروم في قلاع خرتبرت ، ونسب ذلك إلى أهله من الملوك فتنكر ما بينه وبينهم[1] .

وهكذا سقطت إمارة أخرى من إمـــارات الأراتقة ، كانت تحكم في خرتبرت والحصون المجاورة منذ عام (٥٨١ هـ = ١١٨٥ م) ، تلك الإمارة التي أسسها عماد الدين أبو بكر قرا أرسلان شقيق حاكم كيفا آنذاك . وبالرغم من أن هذه الإمارة لم تقم بدور يذكر في الأحداث التي جرت في المنطقة طيلة الفترات السابقة بسبب صغرها وتطرف موقعها إلى الشمال ، إلا أنها كانت على أية حال كإمارة حاجزة في أقصى شمالي ديار بكر ، ربما أفادت بقية الإمارات الأرتقية في الجنوب . ولم يسع صاحب ماردين لمساعدة هذه الإمارة في ساعاتها الحرجة ، بل على العكس كان آنذاك حليفاً قوياً لسلطان سلاجقة الروم الذي أسقط هذه الإمارة. وربما كان هدف صاحب ماردين هو التخلص من الإمارات الأرتقية في ديار بكر لكي يصفو له الجو ومن ثم يستطيع أن يوسع أملاكه دونما معارض أو رقيب من أقربائه . وهكذا سقطت إمارتا كيفـا وخرتبرت دون أن يتخذ صاحب ماردين أي إجراء لمساعدتها .

تحالف ماردين مع سلاجقة الروم والخوارزميين :

وعندما انسحب الكامل وبقية القادة الأيوبيين من المنطقة في مطلع العام التالي (٦٣٢ هـ = ١٢٣٤ م) تاركين نوابهم هناك ، استغل صاحب سلاجقـة الروم هذه الفرصة فتوجه نحو آمد وحاصرها أيامـاً ثم نازل السـويداء القريبة منها واستولى عليها ، ومن ثم تقدم إلى بعض المواقع الأيوبية الأخرى في المنطقة

---

(٣) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ١/١٣١ – ١٣٢ ، المقريزي ، السلوك ١ / ١ / ٢٤٧ – ٢٤٩ .

فاستولى على الرها وحران والرقة ، ونزل إليه صاحب ماردين واشترك معه في بعض عملياته واستطاع أن يحصل وحليفه على أموال لا تحصى[1] .

وفي السنة التالية (٦٣٣ هـ = ١٢٣٥ م) أعاد الكامل ، يصحبه الأشرف. الكرة على بلاد الجزيرة لاسترجاع ما اغتصبه منه سلطان سلاجقة الروم وحليفه الأرتقي ، وما أن سمعت قوات سلاجقة الروم بذلك حتى انسحبت من المنطقة تاركة صاحب ماردين وحيداً أمام القوات الأيوبية التي تمكنت من استعادة حران والرها ، ومن ثم نزلت على دنيسر القريبة من ماردين فخربت معظمها واستباحت النهب والفتك ،.وقفلت عائدة إلى دمشق ففسحت بذلك المجال كرة اخرى لحدوث الاضطرابات في المنطقة . فأعادت قوات سلاجقة الروم الكرة ، كما جاء الخوارزمية[2] إلى صاحب ماردين فنزل إليهم واشترك معهم في أعمال التخريب والنهب حيث أحرقوا نصيبين وفعلوا فيها أعظم مما فعل الكامل بدنيسر[3] .



(١) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ٦٩٤ ، وانظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ٦ / ٢٨٧ .

(٢) وهم القوات التي رافقت السلطان جلال الدين خوارزمشاه خلال عملياته العسكرية في منطقة الجزيرة وأرمينية ، بعد تراجعه أمام هجمات التتر على بلاده – خوارزم– وقد ظل هؤلاء في الجزيرة بعد مقتل سلطانهم عام ٦٢٨ هـ. على أيدي التتر ، وأخذوا « يغيرون على البلاد ويعيشون بقائم سيفهم ، ولهم أمراء كبار » : الذهبي ، دول الإسلام ٢/١٠٩ . وقد أقطعهم بعض النواب الأيوبيين في المنطقة عدداً من المواقع ليكفوا غاراتهم وإفسادهم. ابن العبري، مختصر ص ٤٣٧ – ٤٣٨ .

(٣) سبط، مرآة الزمان ٨/٦٩٥ – ٦٩٦ . ويذكر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة =

وما أن توفي الكامل عام (٦٣٥ هـ = ١٢٣٧ م) ، حتى تمادى صاحب ماردين وحلفاؤه من الخوارزمية في مهاجمة المواقع الأيوبية في المنطقة ونازلوا حران فأجفل أهلها ، وكانت حران آنذاك تحت إمرة الملك المغيث بن الملك الصالح صاحب الجزيرة فخاف منهم وهرب خفية إلى قلعة جعبر على الفرات فلحقه الخوارزمية ونهبوا ما معه واستطاع المغيث أن يفلت في شرذمة من أصحابه عائداً إلى حران وهناك ورده كتاب أبيه يأمره بموافقة الخوارزمية وإرضائهم بسبب تعرضه للخطر من جهة بدر الدين لولو حاكم الموصل . فاجتمع المغيث بهم وكتب لهم إقطاعا بحران والرها وغيرهما من البلاد الجزرية وكسبهم بذلك إلى جانب أبيه ضد صاحب الموصل الذي كان آنذاك يحاصر الصالح في سنجار[1] . وخلال ذلك كان صاحب ماردين قد دخل تحالفاً مع غياث الدين سلطان سلاجقة الروم وبعض الأمراء الأيوبيين كصاحب ميافارقين وصاحب حلب وصاحب حمص ، حيث أقطعهم سلطان سلاجقة الروم بعض بلاد الجزيرة ووعد صاحب ماردين بإقطاعه سنجار ونصيبين التابعتين للصالح وذلك بعد مهاجمتهما والاستيلاء عليهما ، ولكن تحالف الأخير مع الخوارزمية وقيام هؤلاء بإجلاء قوات سلاجقة الروم عن آمد[2] أدى إلى تفكك هذا الحلف ، ثم ما لبث أن تم الاتفاق بين الأطراف المتنازعة في المنطقة [3] ، وخمدت الفتنة

= ٢٩٣/٦ ، إن صاحب ماردين نزل الى الخوارزمية وقاتلهم ، وربما [illegible] كلمة (وقاتلهم) الى نص سبط بن الجوزي فانعكست الفكرة تماماً ، إذ أن صاحب ماردين كان في [illegible] للخوارزمية ضد الايوبيين . وانظر ابن دقماق ، نزهة الأنام (مخطوطة ٢٠) .

(١) المقريزي ، السلوك ٢/١/ ٢٦٩ — ٢٧٢ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان [illegible] / ٣٣٢ — ٣٣٣ .

(٢) المقريزي ، السلوك ٢/١/٢٦٩ — ٢٧٢ .

(٣) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ٥٤ آ — ب) ، المقريزي ، السلوك ٢/ ١ / ٢٦٩ — ٢٧٢ .

هناك فترة من الزمن حيث استتب الأمن والهدوء طيلة مـــا يقرب من الخمس سنوات .

ولكن قيام الخوارزمية بالتحالف مع صاحب ماردين عـــام (٦٤٠ هـ = ١٢٤٢ م) ، أدى إلى عودة الحروب والاضطرابات في المنطقة من جديد . وقد انضم شهاب الدين غازي الأيوبي صاحب ميافارقين الى هذا التحالف وقامـــوا بتخريب مناطق عديدة في الجزيرة . فتقدمت قوات حلب لقتالهم وكان اللقاء في أواخر محرم وانتهى بهزيمة ساحقة لقوات المتحالفين وقتل وأسر الكثيرين منهم ؛ ومن ثم تقدمت قوات حلب فنهبت نصيبين بعد ان كانت هـــذه قد تعرضت حوالي سبع عشرة مرة للنهب من قبل قوات الخوارزميـــة وماردين وغيرهم . وتفرق الخوارزمية إثر هذه المعركة ، ولكنهم مـا لبثوا أن تجمعوا وأغاروا على رأس عين فقتلوا أهلهـــا ونهبوا الأموال وسبوا النساء ، وفعلوا بالخابور ما فعلوه في البلاد الجزرية الأخرى[1] .

محاولات التوفيق إزاء الخطر التتري :

ولما رأى صاحب حلب عدم جدوى الاستمرار في النزاع والخطر التتري على الابواب ، قرر الاتفاق مع الخوارزمية وصاحب ماردين ، على أن تعطى رأس عين للاخير وتعطى نصيبين للخوارزمية . ولكن هؤلاء مـا لبثوا أن انهزموا أمام التتر تاركين نصيبين وراءهم ، فأقطعها الملك الناصر صاحب حلب لكل من أمـــير ماردين وحاكم الموصل والملك المعظم ابن الصالح صاحب كيفا ،

(١) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ٧٣٨ ، الذهبي ، دول الإسلام ٢ / ١٠٩ . ابن كثير ، البداية ١٣ / ١٦١ ، المقريزي ، السلوك ٢ / ١ / ٣١١ ، ابن دقماق ، نزهـــة الانام (مخطوطة ٥٦) .

وولى عليها من قبله[١] . وكان هدفه من ذلك استمالة كل الأمـــراء المحليين في المنطقة لتشكيل جبهة إسلامية متحدة ضد هجمات التتر على المنطقة . إلّا أن أمير ماردين سرعان ما استغل فرصة قيام التتر بهجمات مستمرة على المنطقة فتقدم إلى نصيبين عام (٦٤٣هـ = ١٢٤٥ م) واستولى عليها وبقيت تحت سيطرته حتى عام (٦٤٥ هـ = ١٢٤٧ م) حيث وصل رسول الخليفة المستعصم لعقد الصلح بين أمير ماردين وحاكم الموصل الذي كانت له حصة الثلث في نصيبين . وقد تم الصلح على نفس القاعدة التي قررها صاحب حلب قبل أربعة اعوام . إلا أن بدر الدين لولو حاكم الموصل ما لبث أن نقض بنود الصلح وتقدم إلى نصيبين عام (٦٤٦ هـ = ١٢٤٨م) ، واستولى عليها وأسر عـــدداً من قوات أمير ماردين المرابطين هناك . ومن ثم قام ، بالاتفـــاق مع الملك الصالح نجم الدين أيوب سلطان مصر ، بالتوجه إلى دنيسر ورأس العين العائدتين للأراتقـــة ونهبها فاستنجد أمير ماردين بالناصر في حلب[٢] ، فسير هذا عسكراً بقيادة الملك المعظم صاحب كيفا الذي كان مقيماً بحلب آنذاك اجتمع بالأمير الأرتقي وتم لقاؤهما ببدر الدين لولو في السابع من ربيع الآخر (٦٤٧هـ = ١٢٤٩ م) ، واستطاعا أن يهزماه وأن يتسلما نصيبين من نائبه فيها . فأناب فيها الناصر أحد أتباعه ، وأقطع صاحب ماردين سبعين قرية من ضياعها مكافأة على جهوده . وما لبث هذا أن ساند المعظم الأيوبي في سعيه لاسترجاع دارا من بدر الدين لولو ، حيث خرب المعظم قلعتها كي لا تصبح موضعـــاً للتنازع ، ومن ثم سلم

---

(١) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ٤٠ ب) .

(٢) المصدر السابق ، ورقة ٤٢ ب . ويذكر ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ص ٢٣٩ ، أن صاحب الموصل هاجم ماردين واستولى على ربضها ونهبه وأسر جماعة من أهله ، وانظر مفرج الكروب (القسم المخطوط ٢/٣٦٩) .

بلدها إلى حليفه صاحب ماردين[1] . وما لبث حاكم الموصل أن توسط بالخليفة المستعصم لدى الملك الناصر في نصيبين فتنازل له هذا عنها مقابل قيامه بتقديم مبلغ سنوي من المال . وقد قام بدر الدين بتعويض صاحب ماردين عن سهمه الذي كان له في ضياعها بماكسين والمجدل وبعض قرى الخابور . وبقيت نصيبين في يد بدر الدين إلى أن تقدم إليها أمير ماردين عام (٦٥١ هـ = ١٢٥٣ م) ، واستطاع أن يستولي عليها ، ولكن رسول الخليفة قدم بعد عامين للإصلاح بين الأمير الأرتقي وبين حاكم الموصل على أن تكون نصيبين من حصة الأخير[2] .

وهكذا انحصر الصراع طيلة مـــا يقرب من العقد والنصف للحصول على نصيبين ، وكانت كفتا صاحبي الموصل وماردين متوازنتين ، لولا تدخل صاحب حلب ورسل الخليفة في هذا الصراع . وكان هدف الأخيرين هو القضـــاء على المنازعات الجانبية بين الأمـــراء المسلمين في الموصل والجزيرة ، كي يستطيعوا بوحدتهم أن يصمدوا أمام هجمات التتر المتكررة على المنطقة .

ولكن هذه المحاولات لم تجد نفعاً إزاء أطماع أمراء المنطقة وسعي كل منهم إلى ضرب الآخر والحصول على اسلابه ، بغض النظر عمـــا ينتج عن ذلك من فتح الطريق أمام التتر . وبالرغم من الصلح الذي تم بين صاحب ماردين وحاكم الموصل عام (٦٥٣ هـ = ١٢٥٥ م) ، إلا أن الأمير الأرتقي ظل يحقد على غريمه لحصوله على نصيبين بموجب ذلك الصلح ، وأخذ ينتهز الفرص لإضعاف نفوذه في المنطقة ، فقام بعد عامين من ذلك (٦٥٥ هـ = ١٢٥٧ م) بتقديم مساعدته

---

(١) ابن شداد ، ورقة ٤٢ ب ، الغزي ، نهر الذهب ١٥٥/٣ – ١٥٦ . وانظر مجلة بغداد ص ٥٣ (عدد ٢٥ ، سنة ١٩٦٦) .

(٢) ابن شداد ، الاعلاق (مخطوطة ٤٠ ب) ، وانظر مجلة بغداد ص ٥٣ ، (عدد ٢٥ سنة ١٩٦٦) .

للكامل الأيوبي صاحب ميافارقين ، في محاولته للاستيلاء على آمد من سلطان سلاجقة الروم قبل أن يتمكن حاكم الموصل من أخذهـا ، إذ كان الأخير قد عزم على الزحف عليها في تلك السنة . واستطاع الكامل بذلك أن يستولي على آمد في ربيع الأول من هذه السنة وأن يقطع الطريق على حاكم الموصل[١] .

ولم يستجب صاحب ماردين ، ولا بقية الأمراء المحليين ، لسياسة الناصر ، الذي غدا سلطاناً على الشام كلـه ، بتوحيد جبهتهم ضد التتر ، بالرغم من أن الأمير الأرتقي كان خلال الخمسينيات في طاعة الناصر [٢] . ولكن طبيعة الظروف في الجزيرة واستمرار التنافس الذي استحوذ على جميع الأمراء هناك ، اضطرت أمير ماردين على الاستمـرار في سياسة الانضمام الى التكتـلات والأحلاف لتحقيق أطماعه ، وقد فتح هذا الصراع الباب على مصراعيه لقيام التتر بتثبيت أقدامهم في الجزيرة وتغيير الخارطة السياسية هناك .

---

(١) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١١٣ ب - ١١٤ آ) .
(٢) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ٤٦٢/١ .

الفصل الثالث

بَنو أرتَق والصَّليبيُّون

٤٩١-٦١٨ هـ (= ١٠٩٧-١٢٢١م)

تشكل علاقة الأراتقة بالصليبيين حلقة خطيرة في تأريخهم السياسي، إذ أن أمراءهم قدموا في هذا المجال نماذج مختلفة في موقفهم إزاء الصليبيين، فتارة كانوا يدخلون في أحلاف وتكتلات إسلامية لمجابهة خطرهم، وتارة كانوا يقودون حركة الجهاد ضدهم، وتارة ثالثة كانت الظروف تدفعهم إلى الانضمام إليهم والتحالف معهم ضد القوى الإسلامية، ثم يعودون فيدخلون في مرحلة من الانعزال إثر ظهور شخصية إسلامية قوية في جهاد الصليبيين، ويبرزون ثانية ليقدموا قواتهم الحاشدة كي تعمل تحت قيادة نور الدين وصلاح الدين في حركتها الشاملة ضد الصليبيين.

ولا اعتقد أن ثمة إمارة إسلامية قدمت أساليب شتى من العلاقات المتباينة في هذا المجال مثلما قدم الأراتقة، لذا فان دراسة علاقاتهم بالصليبيين تقدم صورة واضحة وكاملة عن موقف كافة الإمارات الإسلامية المبعثرة في المنطقة والتي كانت تحدد موقفها إزاء الصليبيين استناداً إلى طبيعة الظروف التي كانت تسود المنطقة، فتتخذ مركز القيادة حيناً والتبعية حيناً آخر، وتتحالف مع المسلمين حيناً وتلجأ إلى العزلة والابتعاد عن ميدان الصراع حيناً ثالثاً ...

ومن خلال دراسة النصوص المختلفة في هذا المجال نستطيع أن نقسم علاقات الأراتقة بالصليبيين إلى خمسة أقسام هي :

(١) مرحلة المحالفات مع القوى الإسلامية .

(٢) « « « الصليبية .

(٣) « القيادة

(٤) « الانعزال

(٥) « الإمدادات

١ - مرحلة المحالفات مع القوى الاسلامية (٤٩١ - ٥٠٧ هـ = ١٠٩٧ - ١١١٣ م)

تتميز هذه المرحلة بانضمام الأراتقة إلى الأحلاف الإسلامية التي شكلها السلاجقة ، لمجابهة الخطر الصليبي منذ تهديده لأنطاكية وطيلة العقدين التاليين ، وكانت هذه الأحلاف تضم عدداً من الأمراء المحليين في الموصل والجزيرة والشام ، وبعض أمراء بلاد فارس ، وكان أمراء الموصل يتولون قيادتها في معظم الأحيان بأمر من السلاجقة . كما شهدت هذه المرحلة محاولات عديدة قام بها الأراتقة ضد الصليبيين منفردين أو بالاشتراك مع بعض الأمراء دون صدور أوامر اليهم من السلاجقة ، وفي كلتا الحالتين لعب الأراتقة دوراً مهماً في مقاومة الخطر الصليبي الزاحف .

جابهت الطلائع الصليبية الأولى في الشام والجزيرة ظروفاً محلية قلقة مضطربة ، كان لها الدور الأساسي في انتصار الصليبيين على المسلمين والتمكين لهم هناك ، وتأسيس إماراتهم الأربع في الرها وأنطاكية والقدس وطرابلس في فترة قصيرة من الزمن . ولو أن الصليبيين جابهوا القوى التي وحدها تتش السلجوقي في بلاد الشام ، لتغير مجرى الأحداث في المنطقة ، ولكن هذه الوحدة ما لبثت أن تمزقت بسبب الصراع الذي نشب بين ولديه رضوان ودقاق

وعدد آخر من الامراء المحليين ، الذين كانوا يتصفون جميعاً بالحسد والتباغض ، واتباع كل الوسائل التي تمكنهم من تحقيق مصالحهم الخاصة[1] .

وكان قدوم أعداد كبيرة من التركمان الى منطقة الجزيرة ، خلال التوسع السلجوقي ، من العوامل الأساسية في الاضطراب الذي ساد المنطقة بسبب ما اشتهر به هؤلاء من رغبة في المخاطرات والمهالك ، وما عرف عن قواتهم من التهور وعدم الاستقرار والمطامع السياسية . إلا أن شدة ملكشاه وتتش السلجوقيين كانت كفيلة بإيقاف مطامع هؤلاء فترة من الزمن . ولكن التمزق الذي أصاب الشام بعد مقتل تتش عام (٤٨٨ هـ = ١٠٩٥ م) ، أتاح لزعماء التركمان حرية واسعة وأعادهم إلى ما كانوا عليه سابقاً من تنافس وعدم استقرار ، ولم تمض سنتان أو ثلاثة حتى استطاع الكثيرون منهم تأسيس إمارات مستقلة[2] . وقد أفادوا الى حد كبير من انشغال سلاطين السلاجقة بصراع لا تنتهي حلقاته ، وبخاصة ذلك الذي حدث بين بركياروق ومحمد ، مما أدى الى إضعاف سلطتهم الفعلية على الامراء المحليين ، ولم يغب ذلك عن الصليبيين الذين رأوا « انشغال عساكر الإسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضاً » إلى الحد الذي « تفرقت – فيه – بالمسلمين الآراء واختلفت الأهواء وتمزقت الأحوال »[3] ومن ثم استغل هؤلاء الصليبيون الفرصة لتحقيق أهدافهم .

وكما كان التركمان وقادتهم ، وعلى رأسهم الأراتقة ، عاملاً في إثارة الفوضى

---

(١) انظر Gibb, Damascus chronicle of crusades, P. 22.

(٢) السيد الباز العريني ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية جـزء ١ ص ٢٢ – ٢٣ ،
Ibid, P. 23.

(٣) ابن الأثير ، الكامل ٢٢١/٨ (طبعة الاستقامة – القاهرة) .

والانقسام في المنطقة[١] ، فإنهم كانوا من جهة أخرى ، من القوى الرئيسية التي سعت لمجابهة الصليبيين والقضاء عليهم ، منذ أن وطأت أقدامهم بلاد الشام ، وذلك باستجابتهم لنداءات بعض الأمراء المسلمين والتحالف معهم لمجابهة الخطر الصليبي . وكان سقمان بن أرتق أول من استجاب لياغي‌سيان صاحب أنطاكية في الايام الاولى من حصار الصليبيين لها . إذ توجه بصحبة قوات حلب صوب أنطاكية ، فلقيتهم قوه من الصليبيين وهزمتهم إلى حارم في أواخر صفر عام (٤٩١ هـ = ١٠٩٨ م) ، على الرغم من استبسال كل من رضوان أمير حلب وسقمان ، وبراعتهما التي شهد بها أعداؤهم[٢] . ومن ثم تراجع هؤلاء إلى حلب إثر سقوط حارم بيد الصليبيين بمساعدة سكان المنطقة من الأرمن ، وهكذا تمكن المغيرون من تطويق أنطاكية[٣] . وكان ذلك إيذاناً للأمراء المحليين بحقيقة الخطر الذي تتعرض له المنطقة ، فشكلوا حلفاً بقيادة كربوقا والي

---

(١) انظر الفصل الاول .

(٢) حسن حبشي ، الحروب الصليبية الاولى ص ١٢٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٥ - ١٢٦ . أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، مؤلف مجهول . ترجمة حسن حبشي ، ص ٥٨ - ٥٩ .

R. Grousset, Histoire des croisades, 1/86,
Stevenson, The crusaders in the East, P. 27.

ويذكر العريني ، (الحروب الصليبية ١/٤٣) أن سقمان اتخذ في البدء موقفاً سلبياً إزاء الغزو الصليبي لأنطاكية ، إذ كان متجهاً مع رضوان وياغي سيان لمحاصرة شيزر ، ولكنهم ما أن سمعوا بوصول الصليبيين الى مشارف أنطاكية حتى دب الاضطراب في صفوفهم وعدلوا عن المضي الى هدفهم ، فعاد رضوان الى حلب وياغي سيان الى أنطاكية للدفاع عنها ، ووجه سقمان أطماعه للاستيلاء على ديار بكر ، بل أكثر من ذلك ، حاول تحريض رضوان وياغي سيان على أن يصحباه وألا يحفلا بأمر المغيرين من الصليبيين . وقد أوضحت في الفصل الأول ، لماذا سعى سقمان لتحقيق هذا الهدف رغم حرصه على قتال الصليبيين .

الموصل السلجوقي ، ضمّ سقمان بن أرتق ، ودقاق بن تتش ، وأتابكة طغتكين ، وجناح الدولة حسين صاحب حمص ، وارسلان شاه صاحب سنجار ، فضلاً عن ياغي سيان صاحب أنطاكية . وعندما وصلت القوات المتحالفة إلى أنطاكية ، كان الصليبيون قد تمكنوا من الاستيلاء عليها ، فحاصرتهم القوات الإسلامية وكاد هذا الحصار أن يؤتي ثماره إذ قلّت الأقوات والاموال لدى الصليبيين ، فأرسلوا إلى كربوقا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من البلد ، فلم يجبهم إلى طلبهم وقال : « لا تخرجون إلا بالسيف »[1] .

إلا أن سوء سيرة هذا الأمير تجاه حلفائه وتكبره عليهم أدت الى إغضابهم ، فأضمروا في انفسهم التخلي عنه عند بدء القتال[2] . ومن جهة أخرى راح (بوهيمند) يقدم النصائح للقوات الصليبية التي استطاعت بفضل توجيهاته أن تحبط الهجوم الذي قام به المسلمون ، وكذلك المحاولة التي قام بها نائب كربوقا من داخل أنطاكية لمهاجمة معسكرهم[3] ، وبينما ارتفعت روح الصليبيين المعنوية ، فشل كربوقا في محاولة الإبقاء على تماسك حلفه وشعر بالحاجة إلى مساعدة رضوان أمير حلب ، فترددت الرسل بينهما مما أدى بدقاق أمير دمشق الى أن تساوره الشكوك لما كان يكنه من العداء لأخيه رضوان ، فضلاً عن أن

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠/١٠٢ – ١٠٣ ، ابن العبري ، مختصر ص ٣٤١–٣٤٢ ، أعمال الفرنجة ص ٧١ – ٧٢ .

Cambridge Medieval Histiory, vol. 5, P. 272,

S. Runciman, A. History of the Crusades, Vol. I, P. 238.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ١٠٢ – ١٠٣ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٤١ – ٤٢ ، ٣٨٧ ، حبشي ، الحروب الصليبية الاولى ص ١٤٢

(٣) العريني ، الحروب الصليبية ١/٢٤١ عن :

Histoire Anonyme, trad. Brehier, P. 80 — 86.

أمير حمص (جناح الدولة) كان يكره الأراتقـــة وأحس أنه ليس بإمكانه التعاون معهم[١] ، كما رغب دقـــاق في العودة الى دمشق ليراقب عن كثب تحركات الفاطميين في فلسطين والتي سببت له قلقاً كبيراً[٢] .

وخلال ذلك تمكن الصليبيون من التسلل الى خارج أسوار أنطاكية حيث تجمعوا هناك والتقوا بالقوات الإسلامية التي سرعان ما انهزم معظم قوادهـــا وبقي سقمان وجناح الدولة وكربوقا يقاتلون حتى لم يبق ثمة مجـــال للمقاومة فآثروا الانسحاب[٣] .

وبهذا أظهر سقمان مدى حرصه على مجابهة الخطر الصليبي قبل استفحاله ورغبته في الإبقاء على تماسك التحالف الإسلامي باعتباره الوسيلة الوحيدة التي يستطيع المسلمون بها التصدي للخطر الجديد . ولكن فشل قيادة كربوقا لهذا التحالف ، وأحقاد الامراء الشخصية ، أصابته بالتمزق وفتحت الطريق أمام

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٣٦ ، Grousset op. cit., 1/104. حبشي ، الحروب الصليبية الاولى ص ١٤٢ .

(٢) Runciman, op. cit., vol. I. P. 246.

(٣) ابن الأثير ، الكامل ١٠/١٠٢ - ١٠٣ ، ابن العبري ، مختصر ص ٣٤١ - ٣٤٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٣٣ - ١٣٨ ، ابن شداد ، الأعلاق (القسم المخطوط) ورقة 258 A - 259 B ، ابن القلانسي ، ذيل تأريخ دمشق ص ١٣٤ ، ونقل عنه ابن الشحنة ، المنتخب ص ٢١٥ - ٢١٦ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٤١ - ٤٢ ، ٣٨٧ ، ٤٦٣ - ٤٦٤ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٥/١٤٧ - ١٤٨ ، الطباخ ، تاريخ حلب ١/٣٧٨ - ٣٨٤ ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمـان (مخطوطة ١/٣/٢٣٢ آ) ، العيني ، عقد الجمان (مخطوطة ٤٦/٥٣ - ٥٤) ،
Runciman, op. cit., 1/284,
Cambridge Med. Hist., vol. v, PP. 284 — 294.

الصليبيين ليثبتوا نفوذهم في الشام قبل أن يتمكن الامراء المسلمون من تشكيل تحالف جديد للوقوف بوجه تقدمهم السريع .

خسر الاراتقة في موجة الانتصارات الصليبية الاولى في الشام والجزيرة ، إحدى معاقلهم المهمة ، وهي سروج ، التي استولى عليها بلدوين لي بور وأقام بها حامية عسكرية[١] . وكان يحكمها آنذاك بلك بن بهرام الارتقي الذي أساء التدبير وظلم الرعية ، الامر الذي دفع أهلها إلى مكاتبة أمير الرها وتمكينه من الاستيلاء عليها[٢] . ويبدو أن بلك لم يدرك طبيعة الإمارة الصليبية الجديدة التي قامت في الرها واعتقد أن بلدوين ليس سوى أحد المغامرين ، فأرسل إليه يطلب منه المساعدة ضد محكوميه من العرب الذين أبوا دفع الضرائب المفروضة عليهم . ومن ثم زحف بلدوين على سروج مع عدد الحصار ، فخاف أهلها وأرسلوا إليه يعلمونه عن رغبتهم في تسليم المدينة واستعدادهم لدفع الجزية . وهكذا استولى بلدوين على هذا الموقع وأضافه إلى إمارته[٣] ، ولا شك في أن الاستيلاء على سروج جاء متمماً لفتح الرها ومؤمناً لهذه الإمارة الجديدة[٤] .

ثم ما لبث هذا القائد الصليبي أن فرض سيطرته على بعض الحصون المجاورة ، وبذا غدا بإمكانه أن يتصل بالحملة الصليبية الرئيسية التي اتخذت طريقها الى القدس[٥] . وسرعان ما أخذ الأرمن في الرها يستأوون من حكم الصليبيين الذي

---

(١) Runciman, op. cit., 1/209, cl. Cahen, la syrie du Nord, P. 230.

(٢) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ٣٢ آ) .

(٣) Albert d'Aix, Hist. occid. 1. v, pp. 356 — 357, 444 — 45,

سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ١/١٨٦ .

(٤) انظر الهامش السابق .

(٥) Runciman, op. cit., 1/209, Cahen, op. cit., P. /230.

ويذكر عاشور (الحركة الصليبية ١ / ١٨٦) أن ابن الأثير أورد رواية تختلف عن =

فرض عليهم نظماً جديدة غير مألوفة لديهم ، ممـــا دفعهم الى تدبير مؤامرة للتخلص من ذلك الحكم ، ووجدوا أن الأراتقة أقرب إليهم من سائر القوى المعادية الأخرى ، فاتصلوا سراً للحصول على المساعدة . ولكن هذه المؤامرة أحبطت وعوقب زعماؤها عقاباً قاسياً عام (٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م)[١] .

❋ ❋ ❋

كانت الحملة الصليبية الرئيسية قد اتجهت خلال ذلك إلى القدس وتمكنت من الاستيلاء عليه في العام التالي (٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م) . ولنا أن نتساءل ، هنا ، هل كان لسياسة الأراتقة الداخلية إزاء المسيحيين في القدس والمنـاطق المحيطة بها ، قبيل استردادها من قبل الفاطميين ، تأثيرات مبـــاشرة أو غير مباشرة في سير الحركة الصليبية ، باعتبار أن القدس هي هدف تلك الحركة ؟ الحقيقة أن مسيحيي القدس لم يلاقوا أي اضطهاد في عهـد أرتق الذي تمكن ، بمساعدة سلطانه تتش السلجوقي ، من تشكيل حكومـــة منتظمة في القدس تجنبت عداء المسيحيين، وكان الهدوء يسود المنطقة. وخلال ذلك كان بطريرك أرثوذكس الروم قد ترك القدس وأخذ يقضي معظم أوقاته في القسطنطينية ،

= الروايات السابقة وهي أن الصراع على سروج لم يكن بين بلدوين وبلك ، وإنمـــا بينه وبين سقمان ، وأن هذا حاول غزو الرها بجيش كبير من التركمان ولكنه هزم واستولى الصليبيون إثر ذلك على سروج ... ولكن الواقع أن رواية ابن الأثير هذه تأتي منسجمة مـع الروايات السالفة لأنه لم يتعرض فيها الى المرحلة الاولى من الصراع، والتي انتهت بانتزاع سروج من بلك، وإنما يشير الى أن سقمان حاول أن يسترد سروج – بعدئذ – من الصليبيين ، دون أن يفكر في مهاجمة الرها ، ولكن محاولته باءت بالفشل . وانظر ص ١٥١ – ١٥٢ .

(١) Albert d' Aix, op. cit., P. 443,
Guillaume de tyr, (Recueil des Historiens des croisades, occidll) P. 285.

وحل محله رفيقه في أنطاكية[١] مما يشير إلى اطمئنان البطريرك على أوضاع المسيحيين في القدس ، بحيث تسنى له الانتقال إلى القسطنطينية . وكذا كان موقف الحكام السلاجقة في الشام عامة ، وأرتق خاصة ، من الحجاج المسيحيين ، فقد تمتع هؤلاء الحكام بدراية واسعة أتاحت لهم الاستفادة من الموارد المالية السهلة التي كانت تدرها عليهم زيارات الحجاج دونما صعوبة ، ولذا لم تبد منهم أية رغبة في إيقاف هذه الموارد[٢] . ومن ثم فإن القدس لم تشهد إثر احتلال الأتراك لها ، وطيلة العقود التالية ، أي استفزاز للمسيحيين ، على العكس مما شهدته أنطاكية لدى احتلال الإغريق لها عام (٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م)[٣] ، وأن ما أصاب مسيحيي الشام وآسيا الصغرى من مشاكل ، في تلك الفترة ، كان بسبب الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين ، ولا يوجد أيما دليل على اضطهاد السلاجقة للمسيحيين الخاضعين لهم[٤] .

وما أن توفي أرتق ، وتسلم ابناه سقمان وإيلغازي حكم القدس حتى أحسا بوجود مؤامرة يحيكها المسيحيون من أجل إعادة المدينة الى الفاطميين ، ولذا ما لبثا أن قاما بنفي عدد كبير من القسس خارج القدس[٥] ، وحينذاك انسحب سيمون (سمعان) بطريرك الأرثوذكس ومجلسه الأعلى من القدس نهائياً واتخذوا قبرص مقراً لهم[٦] . وعلى الرغم من أن هذا البطريرك لم يعترف

---

(١) Runciman, op. cit., 1/76, 78 — 79.

(٢) Runciman, The pilgrimages, setton, A. History of the crusades 1/78.

(٣) Cambridge Med. Hist. vol. v. p, 269

(٤) Thompson, Economic and social history of middle ages, vol, lp. 391.

(٥) Runciman, The pilgrimages, setton 1/78.

(٦) Runciman, The crusades. 1/78 — 79, 222.

اعترافاً كاملاً بتقاليد الكنيسة الكاثوليكية ، إلا أنه وافق على التعاون معها ، فبعث بالاشتراك مع بعض القادة الصليبيين ، تقريراً عن الحملة الصليبية ، كما أنه ما كاد يسمع بما تعرضت له القوات الصليبية من مجاعة ، حتى بعث من قبرص بكل ما يفيض عن حاجتها من المؤن[1] . وأغلب الظن أن انسحاب سيمون ومجلسه الأعلى من القدس ، واتخاذ قبرص مقراً له بحجة الاضطهاد الذي لحق بالمسيحيين ، لم يكن سوى حيلة لإضفاء الصفة الشرعية الكنسية على التحركات الصليبية الأولى . ويجب أن نلاحظ أن الأذى الذي لحق الحجاج المسيحيين ، والذي اتخذ ذريعة لإشعال الحروب الصليبية لم يكن مصدره ، بالدرجة الاولى ، سياسة أبناء أرتق في القدس بقدر مـــا كان صادراً عن ظروف الصراع بين الأتراك والبيزنطيين في آسيا الصغرى ، بحيث أن القليل من الحجاج استطاع الوصول الى الأرض المقدسة . هذا إلى أنه لم يستطع الوصول الى هذه الأرض – فى بعض الفترات – إلا الجماعـــات المسلحـــة ، كحملة روبرت الأول (الفلاندري) عام (٤٨٢ هـ = ١٠٨٩ م) ، وقد اضطر الكثيرون الى العودة قبل أن يبلغوا غايتهم[2] ، مما يشير إلى أن احتكاك الأراتقة بالحجاج المسيحيين لم يكن واسع النطاق ، بل كان أمراً ثانوياً[3] .

★ ★ ★

(١) Runciman, op. cit., 1/222.

(٢) Runciman, The pilgrimages, setton 1/78.

(٣) عن الحجاج بصفة عامة . انظر : قدري قلعجي ، الناصر صلاح الدين ص ٢٦ – ٢٧ وهوامشها ، وحسن حبشي ، الحروب الصليبية الاولى ص ١٦ – ٣٢ ، و
H. Hagenmeyer: la vraiet
le faux sur Pierre l'hermite pp. 64—74,
وستيفنس ، الحروب الصليبية (تاريخ العالم) إعداد ج. م. هامرتن، الجزء الخامس ص١٨٥ – ١٨٦ .
ومقالة Runciman أعلاه .

كان الأراتقة من أوائل القوى الإسلامية التي تعرضت للخسارة الفادحة بسبب الحركة الصليبية . وذلك أن الفاطميين كانوا يطمحون لاسترداد الاجزاء التي فقدوها في الشام ، وبخاصة فلسطين ، ولذلك استغلوا الهجوم الصليبي على سواحل الشام ، وحاولوا التحالف مع المغيرين لتحقيق أهدافهم المشتركة ، فأرسلوا سفارة إلى معسكر الصليبيين أمام أنطاكية عام (٤٩٢ هـ=١٠٩٨ م)، عرضت عليهم اقتراحاً يتضمن العمل على اقتسام أملاك السلاجقة في الشام ، فيكون للصليبيين أنطاكية وشمالي الشام ، ويكون للفاطميين فلسطين وبضمنها القدس . وقد استقبل الوفد الفاطمي بحفاوة بالغة من قبل الصليبيين وأرسل هؤلاء بدورهم وفداً الى مصر ، إلا أنه لم يتم أي اتفاق رسمي بين الطرفين[١] . وعلى أية حال فقد استغل الفاطميون الاضطراب الذي سببته الحرب الصليبية وأرسلوا قواتهم، بقيادة الأفضل، الذي تمكن من انتزاع القدس من الأراتقة[٢]. ومن المرجح أنه لولا الحملة الصليبية الاولى لكان من المستبعد أن يفكر الفاطميون في الإقدام على استرداد فلسطين ، ذلك أن القوى التركمانية في شمال بلاد الشام انشغلت بالغزو الصليبي وبمحاولة إقامة جبهة ضد الغزاة ، ولذا لم يتمكنوا من إرسال نجدة إلى أبناء عمهم في القدس لمجابهة الفاطميين . كما أن الصليبيين استغلوا من جهتهم ما فعله الأفضل في هجومه على القدس ، بسبب

---

(١) Grousset, op. cit., 1/83 — 85, Runciman, op. cit., 1/230, Stevenson, The crusaders 1/26.

العريني ، الحروب الصليبية ١/٢٤٣ – ٢٤٤ ، حبشي ، أعمال الفرنجة ص ٥٩ ، وانظر ابن القلانسي ، دمشق ص ١٣٥ .

(٢) Grousset, op. cit., 1/83 — 85, Runciman. op. cit., 1/230, c. Cahen, The Turkish invation, settan, 1/166.

عاشور ، الحركة الصليبية ١/٢٣٦ – ٢٣٧ .

وانظر الفصل الاول للاطلاع على تفاصيل استرداد القدس .

ولم يسلم إلا من مضى منهزماً[١] .

وبعد ذلك بعامين (٤٩٦ هـ = ١١٠٢ م) أغار بلدوين لي بور على إمارة ماردين الأرتقية ، وأسر أحد أمرائها ، وسبى وغنم عدداً من الماشية والأغنام والخيل والإبل[٢] . وأغلب الظن أن هدف بلدوين من هذا الهجوم هو إرهاب الأراتقة والحد من نشاطهم وإجبارهم على اتخاذ موقف دفاعي بدلاً من الهجوم، فضلاً عن العمل على تعزيز صلته بالمواقع الصليبية في آسيا الصغرى .

ولكن سقمان ما لبث ، في العام التالي (٤٩٧ = ١١٠٣ م) ، أن اشترك مع شمس الدولة جكرمش حاكم الموصل ، بتشكيل حلف قوي لمجابهة الصليبيين ، وهو التحالف الثاني للأراتقة منذ دخول الصليبيين الشام . وكان للانتصارات السريعة التي أحرزها الصليبيون ، وعزمهم الاستيلاء على حران الواقعة على مفرق الطرق الى العراق والجزيرة والشام ، مستغلين فرصة الصراع بين أمراء المسلمين[٣] ، فضلاً عما يعنيه الاستيلاء على هذا الموقع من قطع الصلة بين المسلمين في بلاد فارس والعراق والشام ، وإعطاء الصليبيين فرصة لمهاجمة الموصل ، وتأمين الرها ، والسيطرة على إقليم الجزيرة[٤] ، كان لهذه العوامل جميعاً الأثر الحاسم في تناسي كل من سقمان وجكرمش خلافاتهما القديمة والعمل

---

(١) ابن القلانسي ، دمشق ص ١٣٨ ، ابن الاثير ، الكامل ١٠/١٢١ ، الطباخ ، تاريخ حلب ١/٣٨٩ .

Matthieu D'Edesse, (Recueil des historiens des croisades, Doc. Arm.) pp. 53 — 54.

(٢) Grousset, op. cit., 1/393. Cahen, la Syrie du Nord, p. 32, Matthieu D' Edesse, op. cit., P. 70,

(٣) H. S. Fink, The Fondation of the latin states. in setton, A. History of the crusades, 1/389.

(٤) Runciman, op. cit., 11/40—42.

سوية لإيقاف تقدم الصليبيين . فأرسل كل منهما إلى صاحبه يدعوه الى الاجتماع به « ويعلمه أنه قد بذل نفسه لله تعالى وثوابه » ، فأجاب كل منهما صاحبه واجتمعا على الخابور عند رأس العين ، حيث عززا تحالفهما ، ومن ثم توجها لمهاجمة الرها ، وكان مع سقمان سبعة آلاف فارس من التركمان ومع حليفه ثلاثة آلاف فارس[١] من الترك والعرب والأكراد[٢] . وإزاء ذلك دعم الصليبيون وحدتهم وتقدموا صوب حران بقيادة عدد من أمرائهم وعلى رأسهم بوهيمند أمير أنطاكية وابن اخته (تانكرد) ، وجوسلين حاكم تل باشر ، وبينهم بطريرك أنطاكية ، وجيش ضم فرسان الصليبيين وأمراءهم وعدداً كبيراً من الأرمن ورجال الدين . وكاد الصليبيون أن يستولوا على حران بعد وقت قصير من حصارها إلا أن الخلاف الذي نشب بين بلدوين لي بور – الذي انضم إلى القوات الصليبية – وبوهيمند ، وإصرار كل منهما على رفع رايته على المدينة بعد الاستيلاء عليها ، ساعد على صمود حران . ومن ثم تم اللقاء بين المسلمين والصليبيين على نهر البليخ في التاسع من شعبان ، حيث أظهر المسلمون الهزيمة ، فتبعهم الصليبيون نحو فرسخين ، فأعاد المسلمون الكرة عليهم وهزموهم وأبادوا معظم قواتهم وغنموا مقادير كبيرة من الأموال والممتلكات[٣] .

---

(١) يلاحظ أن المصادر الصليبية قدرت عدد قوات المسلمين بثلاثين ألف رجل ، وهو رقم مبالغ فيه ، ربما قصد به تبرير الهزيمة التي حلت بالجيوش الصليبية . عاشور ، الحركة الصليبية ، حاشية رقم ١/١ – ٤٠٤ ،

وانظر .Albert d'Aix, (Hist. occid, 1.v), p. 615

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٣٩/١٠ – ١٤٠ .

(٣) ابن القلانسي ، دمشق ص ١٤٣ ، ابن الاثير ، الكامل ١٠ / ١٣٩ – ١٤٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ١٤٨/٢ – ١٤٩ ، الفارقي ، تاريخ آمد (القسم المنشور ص٢٧١)، ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٦ ب ١٧ آ)، أبو الفدا ، المختصر ٢/ ٢٢٧ – ٢٢٨)، =

ما أدى إليه هذا الهجوم من إرباك للسلاجقة في أصعب الاوقات وأحرجها[١].

وفي السنوات التالية ، كان الاراتقة أولى القوى الإسلامية التي اشتبكت مع الصليبيين شمالي الشام والجزيرة . إذ قام سقمان بن أرتق عـــام (٤٩٤ هـ = ١١٠٠ م) ، بمحاولة لاسترجاع سروج ، التي كان يحكمها آنذاك (فوشيه دي شارتر) أحد فرسان بلدوين لي بور أمير الرها ، وحشد قواته المنتشرة في ديار بكر وبدأ هجومه في ربيع الاول ، فتصدى لقتاله بلدوين وفوشيه دي شارتر بقواتها المؤلفة من الارمن والصليبيين ، فهزمها سقمان ولقي فوشيه مصرعه ، وانسحب بلدوين إلى الرها ، واتجه من ثم الى أنطاكية ليطلب المساعـــدة من تانكرد ، وخلال ذلك فرض الاراتقة حصارهم على سروج التي احتمى بها مسيحيو المنطقة ، وتولى الدفاع عنهـــا رئيس أساقفة اللاتين فصمدت للحصـــار فترة طويلة[٢] ، استطاع بلدوين خلالهـــا أن يعود بمـــا حصل عليـــه من نجدة من أنطاكيـــة ، وأن يلحق الهزيمة بالاراتقة ، بعد أن كاد هؤلاء أن يهزمـــوا الصليبيين ، لولا هرب جماعة من التركمان ، ومن ثم قام بلدوين بالقضاء على ثورة الأهالي العرب في المدينة[٣] ، فقتل كثيراً من أهلها وسبى حريمهم ونهب أموالهم

---

(١) Grousset, op. cit., 1/84—85.

عاشور ، الحركة الصليبية ١/١٩٨ – ١٩٩ .

(٢) أشار ابن القلانسي (دمشق ص ١٣٨) الى ان سقمان تمكن من الاستيلاء على سروج ومن ثم هزمه الصليبيون . والواقع أنه لم يستول الا على المدينة وبقيت القلعة بأيدي أعدائه . وانظر سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان (مخطوطة ١/٣ – ٢٤٣ آ) .

(٣) Grousset, op. cit., 1/393, Runciman, op. cit., 11/37.

ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ١٢١ ، ابن القلانسي ، دمشق ص ١٣٨ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٣٩٤ ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان (مخطوطة ١/٣ – ٢٤٣ آ) . العريني ، الحروب الصليبية ١/٤١٦ – ٤١٧ .

وكان بوهيمند أمير انطاكية وابن اخته تانكرد قد كمنا خلف أحد الجبال ليأتيا المسلمين من وراء ظهورهم اذا اشتد القتال ، فلما خرجا شاهدا هزيمة رفاقهم ونهب معسكرهم فأقاما إلى الليل حيث تسللا هاربين فتبعهما المسلمون وقتلوا وأسروا من أصحابهما عدداً كبيراً ، بينما تمكنا هما من الفرار إلى الرها أما بلدوين وجوسلين فأسرا ، وكان بلدوين قد انهزم مع جماعة من قواده وخاضوا نهر البليخ فأعاقتهم الأوحال ، فلحقهم قائد تركماني من قوات سقمان وأسرهم وحمل بلدوين الى سقمان . وعندما رأى أصحاب جكرمش أن قوات سقمان قد استولت على حصة الأسد من غنائم الصليبيين قالوا لجكرمش : « أي منزلة تكون لنا عند الناس وعند التركمان إذا انصرفوا بالغنائم دوننا » وحسنوا له اختطاف بلدوين ، فأرسل جكرمش بعض أصحابه واختطفوا الأمير الصليبي من معسكر سقمان ، فلما علم هذا بما حدث ، وكان غائباً عن المعسكر خلال ذلك ، شق عليه الأمر وركب أصحابه للقتال ، فردهم وقال لهم : « لا أوثر شفاء غيظي بشماتة الأعداء بالمسلمين[1] » . ومن ثم رحل بقواته ، وأخذ سلاح الصليبيين وراياتهم ، وألبس أصحابه ألبستهم وأركبهم خيلهم ، وجعل يأتي حصون إقليم شبختان من ديار بكر فيخرج الصليبيون منها ظناً منهم أن أصحابهم قد انتصروا فيقضي عليهم سقمان ويستولي على حصونهم ، وقد تمكن

=ابن خلدون ، العبر ٦٩/٥ – ٧٠ ، ٣٩٨ – ٣٩٩ ، ٤٦٥ – ٤٦٦ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٥ / ١٨٨ ، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان ٨ / ٩ ، الطباخ ، تاريخ حلب ١/ ٣٩٢ – ٣٩٣ ، العريني ، الحروب الصليبية ٣٨٥/١ .

Grousset, op. cit., 1/404—406, Runciman, op. cit.. 11/40—43, Albert d'Aix, op. cit., p. 715, Guillaume de Tyr, op. cit., pp. 445—446.
Fink. The Latin states, setton 1/389.

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ١٣٩ – ١٤٠ .

بذلك من وضع يده على عدد من حصون المنطقة أمــــا جكرمش فقد سار إلى حران وأناب فيها أحد أصحابه ومن ثم توجه إلى الرها وحاصرها خمسة عشر يوماً ، عاد بعدهــا الى الموصل ومعــه بلدوين . وبعد فترة من الزمن فــــاداه جكرمش بمبلغ من المال ومائة وستين أسيراً من المسلمين(١) .

تمخضت معركة (البليخ) عن نتائج على مستوى كبير من الأهميـــة ، فقد أوقفت زحف الصليبيين صوب الشرق ، وقضت على آمالهـم في التقـدم نحو العراق ، وإتمام سيطرتهم على إقليم الجزيرة ، كما خيبت مطامـــح بوهيمند في السيطرة على حلب وتحويل إمارة أنطاكية الى دولة كبيرة(٢) . كما شجعت — هذه النتيجة — رضوان ، الذي كان على رأس جيشه قرب الفرات. يتابـع سير المعركة ، على القيام بسلسلة من الهجمات على مراكز الصليبيين المحيطة بحلب ، استطاع خلالها أن يجلوهم عنها بمساعدة أهاليهـا من المسلمين الذين انقضوا على حكامهم الصليبيين(٣) ، فأمنت أعمال حلب ، وعاد أهلها إليها وقوي جـأش رضوان وامتدت غارات قواته إلى أنطاكية(٤) .

ولم تقف نتائج هذه المعركة الحاسمة عند هذه الحدود، بل تعدتها إلى داخل

---

(١) المصدر السابق ١٣٩/١٠ — ١٤٠ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٦٩— ٧٠ ، ٣٩٨ — ٣٩٩ ،

Runciman, op. cit., 11/43, Grousset, op. cit., 1/403—409, Fink, op. cit., 1/389, Guillaum de tyr, op. cit., pp. 456 –9, Cahen, op. cit., 237—238.

(٢) Runciman, op. cit., 11/44, Grousset, op. cit., 1/403—407, Fink, op. cit., 1/389.

(٣) Brehier, vieet Mort de Byzance, P. 315.

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٤٨/٢ — ١٤٩ وانظر :

Stevenson, op. cit., P. 78.

التشكيلات السياسية والعسكرية للإمارات الصليبية . فبعد أسر بلدوين غدا تانكرد وصياً على الرها ، كما أصبح بوهيمند أقوى الأمراء الصليبيين في الشمال ، ولذا أهمل كلاهما مسألة افتداء بلدوين بالرغم من إثارة المسلمين لهذه المسألة ، وهكذا بقي بلدوين في الأسر طيلة أربع سنوات[١] .

كما أن الامبراطور البيزنطي الكسيوس استغل فرصة ضعف مركز بوهيمند إثر تعرضه للانتقاد ، بسبب عدم افتدائه لبلدوين ، فضلاً عن أنه لم يلتزم بالمعاهدات التي عقدها مع الامبراطور البيزنطي الكسيوس ، فاستغل هذا الانتفاضات التي قام بها سكان قلقية ضد (النورمان) والتي حظيت بتشجيع البيزنطيين والأرمن[٢] ، ومن ثم قامت القوات البيزنطية بالاستيلاء على عدد من المدن التي كان تانكرد قد استولى عليها من قبل ، كما أسهم الأسطول البيزنطي في السيطرة على بعض المدن الساحلية بين اللاذقية وانطرطوس[٣] يضاف إلى ذلك أن البيزنطيين تمكنوا من استغلال قواعدهم البحرية في قبرص لتقديم المساعدات لريموند الصنجيلي - عدو بوهيمند الشديد - الذي كان يسعى لتأسيس إمارة حول طرابلس تحادد أنطاكية من الجنوب[٤] في الوقت الذي لم يتقدم فيه أحد من القدس لنصرة بوهيمند ومساعدته في هذه المحنة .

وكنتيجة للضربات التي تلقاها بوهيمند من المسلمين والبيزنطيين ، ضعف مركزه فضلاً عن أن معركة البليخ أدت إلى فقدانه لعدد كبير من قواته ،

---

(١) Fink, op, cit., 1/389.

(٢) Grousset, op. cit,, 1/413 - 414.

(٣) Ibid, 1/413 - 414, Runciman, op. cit., 11/46, Camb. Med. Hist. vol. lv. P. 341. Brehier, op. cit., P. 314, Stevenson, op. cit., pp. 78 - 79.

(٤) العريني ، الحروب الصليبية ١/٣٨٦ - ٨٧ Fink, op. cit., 1/390,

وانهيار روحهم المعنوية ، ولم يكن باستطاعته إعادة تنظيم جيشه من جديد ، بالسرعة التي يتمكن بها من ملاحقة الأحداث ، فوجب عليه أن يختار أحد طريقين : فهو إما أن يبقى وسط الأخطار المحدقة به من كل جانب ويعرض إمارته للسقوط والتمزق على يد أعدائه وبخاصة البيزنطيين ، وإما أن يعود إلى أوربا للقيام بدعوة صليبية جديدة قد تعود عليه بالنصر . وقد اختار اتباع الحل الثاني ، ومن ثم أناب عنه تانكرد في حكم أنطاكية واتجه الى إيطاليا[1] ، واستطاع هناك أن يقنع البابا (باسكال) بأن العدو الرئيسي لصليبيي الشرق إنما هو الإمبراطور البيزنطي ، فأصدر البابا أمره بالدعوة إلى حرب صليبية جديدة ضد بيزنطة ، وأعلن أن القضاء عليها هو الضمان الوحيد لاستقرار الصليبيين في الشام[2] ، مما يعتبر نقطة تحول في تأريخ الحركة الصليبية ، إذ ضحى بأهداف ومصالح العالم المسيحي بأجمعه في سبيل المصالح الخاصة لمغامري الفرنج، وتأكد البيزنطيون من أن مخاوفهم أصبحت حقيقة واقعة ، وذلك بتحول الحرب الصليبية الى وسيلة لتحقيق أطماع الغربيين الاستعمارية[3] ، وهكذا يمكن اعتبار هذه المحاولة أساساً للحملة الصليبية الرابعة التي أسقطت القسطنطينية فيما بعد (٦٠١ هـ = ١٢٠٤ م)[4] .

وكان لمعركة البليخ نتائج خطيرة بالنسبة لإمارة الرها كذلك ، إذ أنها أوضحت احتمال سقوطها على أيدي المسلمين ، نظراً للضعف الذي أصابها إثر

---

(١) Runciman, op. cit., 11/47, Grousset, op. cit., 1/415 - 416.
ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٤٩ .

(٢) Vasiliev, Byzantine Empire. 11/410 - 411.

(٣) Runciman. op. cit., 11/49, Grousset, op. cit., 1/416, Fink, op. cit., 1/391.

(٤) Ostrogorsky, History of the Byzcntine state p. 324.

تلك المعركة ولتعرضها لكثير من المتاعب الداخلية ، وبخاصة من جانب الأرمن الذين سرعان ما أبدوا تذمرهم من الحكم الصليبي ، ويعلل متى الرهاوي موقف الأرمن هذا بتعسف الصليبيين الغربيين مع الكنيسة الأرمنية وإهمالها ، با اضطهاد رجالها في كثير من الأحيان ، مما دفع الأرمن الى الاتصال سر ا بالأتراك[1] .

وأخيراً فقد أدت معركة البليخ الى القضاء على حلم الصليبيين بقطع الاتصال بين القوى الإسلامية في الشام والجزيرة وآسيا الصغرى ، عن طريق الاستيلاء على حلب[2] فضلاً عن أن الظروف التي مهدت لها هذه المعركة أدت الى زيادة التقارب بين القوى الإسلامية والبيزنطيين ضد عدوهم المشترك الذي وضع بين شقي الرحى . وقد أوضح ابن القلانسي خطورة النتائج التي تمخضت عنها معركة البليخ قائلاً : « وكان نصراً حسناً للمسلمين لم يتهيأ مثله ، وبه ضعفت نفوس الإفرنج وقلت عدتهم وفلت شوكتهم وقويت نفوس المسلمين وأرهفت عزائمهم في نصرة الدين ومجاهدة الملحدين ، وتباشر الناس بالنصر عليهم وأيقنوا بالنكاية فيهم والإدالة منهم »[3] .

وهكذا قدر لسقمان ، بتحالفه مع جكرمش ، أن يلعب دوراً خطيراً في تأريخ الحروب الصليبية ، وأن يقدم ، وحليفه ، للعالم الإسلامي أول نصر

---

(١) عاشور ، الحركة الصليبية ١/٤٤٥ ،

Mathieu d'Edesse, op. cit., P. 80 - 81.

(٢) Runciman, op. cit., 11/44.

(٣) ذيل تأريخ دمشق ص ١٤٣ . وانظر بشأن النتائج غير المباشرة لهذه المعركة :

Vasiliev, op. cit., 11/410 - 411, Runciman, op. cit.. 11/49 - 51. Chalandon, Alexis Comnene, P. 246, Grousset, op. cit., 1/418.

حاسم على الصليبيين ، فتح به الطريق لظهور قيـــادات وأحلاف إسلامية ، وجهت الضربات المتتاليـــة للقوى الصليبية ، تلك القيادات التي بدأت بمودود حاكم الموصل السلجوقي وانتهت بصلاح الدين ، عبر إيلغازي وبلك الأرتقيين ، وآق سنقر البرسقي ، وعماد الدين ونور الدين الزنكيين .

وقد استطاع سقمان ، في نفس العام (٤٩٧ هـ = ١١٠٣ م) ، أن يسحق قوة صليبية خرجت من الرها واستهدفت الرقة . إذ مـــا أن سمع بتحرك هذه القوة نحو هدفها حتى اتجه إلى رأس العين ، قرب ماردين ، حيث اجتمع بسالم ابن بدر العقيلي وقواته من بني عقيل ، واتجهوا جميعـاً بقيادة سقمان ، للقـــاء الصليبيين ، حيث جرى قتال شديد بين الطرفين ، أسر خلاله سالم بن بدر ثم انقلبت دائرة السوء على الصليبيين فانهزموا وقتل منهم خلق كثير[1] .

استمر سقمان على سياسة الأحلاف الإسلامية التي حقق بواسطتها انتصارات حاسمة ضد الصليبيين، ولذا فما أن تلقى دعوة من فخر الملك بن عمار ، صاحب طرابلس ، عام (٤٩٨ هـ = ١١٠٤ م) ، لنجدته ضد الصليبيين ، الذين قاموا بهجوم ضد طرابلس ، حتى خف سقمان ، لمعونته ، وبينما هو يتجهز أتاه كتاب من طغتكين ، أمير دمشق ، يخبره فيـه أنه مريض وقد أشرف على الموت ، وأنه يخاف إن مات وليس في دمشق من يحميها ، أن يستولي عليها الصليبيون ، ويستدعيه ليوصي إليه ، وبما يعتمده في أمر الدفاع عن المدينة . فلمـــا اطلع سقمان على الكتاب أسرع في زحفه عازماً على تسلم دمشق ، ومن ثم التوجه إلى

---

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ١٠/٨ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ١٧٨/٥ - ١٧٩ .

طرابلس لاجلاء الصليبيين عنها . ولكن وفاته في الطريق حالت دون تنفيذ هذه المشاريع التي كان من المرجح أن تحدث تأثيرات بالغة الأهمية في العلاقات بين المسلمين والصليبيين ، وتعطي لسقمان مركزاً قيادياً هاماً . وعندما مرض سقمان في الطريق ، أشار عليه أصحابه بالعودة إلى ديار بكر ، فامتنع وقال : « بل أسير .. فإن عوفيت تمت ما عزمت عليه ، ولا يراني ان تثاقلت عن قتال الكفار خوفاً من الموت ، وإن أدركني أجلي كنت شهيداً سائراً في جهاد»[1] ، ومن ثم تقدم في سيره وتوفي بعد يومين، في صفر (٤٩٨هـ = ١١٠٤م)، فحمله ابنه إبراهيم عائداً بصحبة القوات الأرتقية إلى ديار بكر[2].



انقسمت إمارة الأراتقة بعد وفاة سقمان الى قسمين تولى أحدهما إيلغازي متخذاً ماردين قاعدة له ، وتولى داود بن سقمان القسم الآخر متخذاً حصن كيفا قاعدة له[3] . وقد اتبع الأخير سياسة انعزالية تجاه الصليبيين ، أما إيلغازي فكانت له إزاءهم مواقف خطيرة كان لها أثرها الحاسم على مصير الوجود الصليبي في الشرق . وقد تميزت سياسة هذا الأمير بأنها كانت تتأرجح بين النقيضين فتارة كان يقف إلى جانب الأمراء المسلمين في أحلافهم التي شكلوها

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠/١٤٥ - ١٤٦) .

(٢) المصدر السابق ١٠/ ١٤٥ - ١٤٦ ، ابن القلانسي ، دمشق ١٤٦ - ١٤٧ ، أبو الفدا ، المختصر ٢/٢٢٩ - ٢٣٠ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٧٥ - ٧٧ ، ٤٦٨ ، القرماني ، تأريخ ص ٢٧٨ ، Cahen, op. cit., pp. 241 - 242 وانظر سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان (مخطوطة ١/٣/١/٢٥١ ب) ، حيث يشير الى أن طغتكين سرعان ما تراجع عن دعوته لسقمان وأرسل اليه يطلب منه الرجوع ، ولكن وفاة سقمان أنهت المشكلة .

(٣) انظر الفصل الاول .

لمجابهة الصليبيين ، وتارة أخرى يقف إلى جانب هـؤلاء ضد المسلمين بسبب الضغط الذي تعرض له من قبل السلاجقة ، وتارة ثالثة يتولى بنفسه قيادة الأمراء المحليين ضد الصليبيين .

بدأ إيلغازي عام (٤٩٨ – ٥١٦ هـ = ١١٠٤ – ١١٢٢ م) حكمه بالتزام نفس السياسة التي اتبعها أخوه سقمان تجاه الصليبيين وذلك بالانضمام إلى بقية الأمراء المسلمين في أحلاف جماعية . وشهد رمضان سنة (٤٩٩ هـ = ١١٠٦ م) أولى تلك الأحلاف ، إذ اجتمع إيلغازي ورضوان أمير حلب والي بن تمرتاش صاحب سنجار والأصبهذ صباوا ، أحد كبار أمراء فارس ، لغرض إعلان الحرب على الصليبيين ، ولكن وجهة نظر إيلغازي أعاقت هذه الخطـة ، إذ طلب من بقية الحلفاء أن يبدؤوا حملتهم ضد جكرمش حاكم الموصل للاستيلاء عليها ومن ثم الاستفادة من قواتها وإمكانياتها المالية ضد الصليبيين . وقد وافقه زملاؤه على ذلك ، ولكن الخلافات التي نشبت بينهم بعد ذلك أعاقت هـذا الهدف وبالتالي صرفت النظر ، موقتاً ، عن قتال الصليبيين[1] .

وفي العام التالي (٥٠٠ هـ = ١١٠٦ م) اتصل إيلغازي بجـاولي سقاوة أحد كبار أمراء بلاد فارس ، الذي أرسله السلاجقة للقضاء على جكرمش في الموصل ، والذي اضطر الى الانسحاب الى سنجار ، وهناك اتفق مع إيلغازي على طرد قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم الذي استولى على الموصل إثر وفاة جكرمش ، ومن ثم التوجه لمهاجمة أنطاكية . ولكن ما أن تم القضاء على قلج أرسلان ودخل جاولي الموصل ، حتى انصرف الى إعلان العصيان ضد السلاجقة

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠/١٥١ – ١٥٢ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٣١٩ – ٣٢٠ . وانظر الفصل الاول .

ونسي اتفاقه مع إيلغازي للعمل على مهاجمة أنطاكية[1] .

وفي عام (٥٠٣ هـ = ١١٠٩ م) تم تشكيل حلف إسلامي آخر بقيادة مودود بن التونتكين حاكم الموصل السلجوقي ، الذي حل محل جاولي ، بناء على أمر من محمد بن ملكشاه سلطان السلاجقة . وقد ضم هذا الحلف ، الأمير إيلغازي الذي تقدم على رأس قواته الضخمة من التركمان ، وسكمان القطبي أمير أرمينية ، وعدداً كبيراً من المتطوعين ، وهكذا « اجتمع المسلمون في عدد لا يقوم بلقائه جميع الإفرنج »[2] ، واتفقت آراؤهم على بدء عملياتهم بمهاجمة الرها والاستيلاء عليها ، فاتجهوا إليها ونزلوا عليها في شوال (٥٠٣ هـ = ١١٠٩ م) وشددوا عليها الحصار[3] . وما أن وصلت أنباء احتشاد القوات الإسلامية الى الصليبيين حتى أرسل بلدوين لي بور ، أمير الرها ، يستنجد بملك بيت المقدس ، إذ كان يشك بنوايا تانكرد أمير أنطاكية ، وبأنه تآمر مع المسلمين ضد الرها[4] . إلا أن بلدوين لم يتوجه لمساعدة أمير الرها إلا بعد الانتهاء من احتلال بيروت . وتوحيد أمراء الصليبيين في جبهة واحدة ، انضم إليها كثير من العناصر المسيحية[5] كما أرسل الى أنطاكية يستدعي تانكرد وقواته

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠/١٤٩ (المطبعة الكبرى) ،

Runciman, op. cit., 11/110.

(٢) ابن القلانسي ، دمشق ص ١٦٩ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة ، ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٥٤ - ١٥٥ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٥/١٩٩ ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان (مخطوطة ١/٣ - ٢٦٥ ب) ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ١/٤٠ - ٤١) .

(٤) Albert d'Aix, op. cit., P. 670.

(٥) Runciman, op. cit., 11/116, Grousset. op. cit., 1/453, Stevenson, op. cit., 1/88.

للمشاركة في المعركة الفاصلة ضد المسلمين[1] فاضطر هذا ، حفاظاً على سمعته ، الى التوجه على رأس ألف وخمسمائة فارس للاجتماع برفاقه[2] ، ومن ثم شخص الجميع صوب الرها . ووصلت الأخبار الى طغتكين أمير دمشق ، فتحرك من هناك ، على رأس قوات كبيرة نحو الفـــرات الذي لم يتمكن الصليبيون من عبوره ، لانتشار طلائع القوات الإسلامية في سائر المنافذ المؤدية إليه . ولمـــا عرف المسلمون قرب الصليبيين منهم ، قرروا فتح الطريق أمامهم ليتمكنوا من لقائهم في السهول الممتدة شرقي الفرات . فغادروا الرها في أواخر ذي الحجة سنة (٥٠٣ هـ = ١١١٠م) ، وعسكروا في أرض حران ، خدعة للصليبيين ، وكانت حران آنذاك تابعـــة لإيلغازي . وإذ أدرك الصليبيون الهـدف من هذه الحركة[3] ، ووردتهم أخبار تشير إلى تحرك رضوان لمهاجمة المواقع التابعة لأنطاكية ، وتحرك المصريين لمهاجمة فلسطين ، أيقنوا عدم جدوى مهاجمـــة المسلمين وقرروا الانسحاب من الجهات الواقعة شرقي الفرات ، وإخلاءهـا من المسيحيين (الأرمن واليعاقبة) إلى الجهات الغربية التابعة للصليبيين ، وتقوية الإمكانيات الدفاعية للرها[4] . ولكن مـــا أن بدأ الصليبيون بالانسحاب ، وإتمام نقل المسيحيين المدنيين[5] ، حتى نهض المسلمون في إثرهم ، وأدركتهـم طلائع القوات الإسلامية فغنموا سوادهم وأثقالهـــم وقتلوا وأغرقوا وأسروا

---

(١) Fink, op. cit., 1/399.

(٢) Stevenson, op. cit., 1/88.

(٣) ابن القلانسي ، دمشق ص ١٦٩ – ١٧٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ٢ / ١٥٤ – ١٥٦ ،

Mathieu de Edesse, op. cit., p. 93.

(٤) Runciman, op. cit., 11/117. Grousset, op. cit., 1/454 — 455, Guillaume de tyr, op. cit.. p. 463.

(٥) Stevenson, op. cit., 1/88.

عدداً كبيراً منهم ، ومن ثم اتجهت القوات الإسلامية ثانية لحصار الرها . إلا أن حصانة هذه المدينة واهتمام الصليبيين بتموينها أعجزت المسلمين عن فتحها ، فتركوا عليها قوة إسلامية لمراقبتها ، ومن ثم عاد كل الى بلده(١) . وحدثت خلال ذلك مشاحنات بين إيلغازي وسكمان القطبي ، أمير أرمينية ، فتخوف إيلغازي من سكمان وهرب الى ماردين ، فقبض الأخير على ابن اخيه بلك بن بهرام وحمله معه الى بلده مقيداً(٢) . وهكذا لم يخل هذا التحالف من إثارة الأحقاد بين إيلغازي وبعض أمراء المسلمين ، مما كان له أثره السيء على سير العمليات الحربية ضد الصليبيين .

وبعد أقل من عامين (٥٠٥ هـ = ١١١١) م قام الأمير مودود حاكم الموصل السلجوقي بتكوين حلف إسلامي آخر للجهاد ضد الصليبيين بناء على أمر من السلطان محمد بن ملكشاه . وقد انضم الى هذا التحالف عدد كبير من الأمراء كان بينهم سكمان القطبي وابنا حاكم همذان والأمير أحمديل الكردي صاحب مراغه وأبو الهيجاء صاحب إربل ، أما إيلغازي فقد أناب عنه ولده الأمير (إياز) لانشغاله بالأمور الداخلية لإمارته . وقد بدأ هذا التحالف عملياته العسكرية بالاستيلاء على عدة مواقع صليبية شرقي الفرات ، ومن ثم اتجهوا الى الرها لحصارها فلما أعيتهم ، بسبب تحصينها السابق ، تحولوا عنها الى تل باشر(٣) ليطمع الصليبيون ويعبروا الفرات فيتمكن المسلمون منهم ، وكان هذا

---

(١) ابن القلانسي ، دمشق ص ١٧٠ – ١٧١ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ١ / ٤٠ – ٤١) .

(٢) انظر الهامش السابق .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ١٠/١٨٣ – ١٨٤ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٨٧ – ٨٨ ، ٤١٢ – ٤١٣ ، Stevenson, op, cit., 1/91.

خطـــأ من المسلمين ، لأن الصليبيين لدى عبورهم الفرات جاؤوا بالميرة والقوت للرها ، فقويت بعد ضعف ، وبعد أن كاد المسلمون أن يستولوا عليها[1] . وقد تمكن جوسلين صاحب تل باشر من رشوة القـائد الكردي أحمديل ، وكانت معظم القوات معه ، فانسحب عن الحصن بالرغم من معارضة بقية الأمراء[2] . وصادف أن مرض سكمان القطبي صاحب أرمينيـــة وطمع أحمديل ببلاده ، فاضطر بقية الأمـــراء الى ترك تل باشر والتوجه الى حلب بعد أن استنجد رضوان بهم . وما أن ابتعدوا عن تل باشر حتى خرج اليهم جوسلين على رأس قوة من فرسانه وتمكن من مهاجمة مؤخرة المسلمين وقتل مـا يقرب من ألف رجل ، ثم عاد الى بلده مثقلاً بالغنائم[3] . وعندما وصل المسلمون حلب أقفل رضوان أبوابها في وجوههم ، وبعد مـا يزيد على الأسبوعين اتجه الأمـــراء المتحالفون لمهاجمة بعض المواقع التي استولى عليها تانكرد في إقليم معرة النعمان ، وهناك اجتمع بهم طغتكين ، إلا أنهم لم يحققوا نتيجة تذكر بـسبب الخلافات . وحمل المرض سكمان على العودة ، وتبعه برسق وأحمديل ، ولم يبق الى جانب مودود سوى إياز بن إيلغازي وطغتكين. وإزاء ذلك اجتمعت الجيوش الصليبية بقيادة أمراء الرها وأنطاكية وطرابلس وملك بيت المقدس وعسكروا تجاه المسلمين عند أفاميه ، على الضفة المقابلة لنهر العاصي ، فقام ابن منقذ ، صاحب شيزر ، بالاجتماع بالمسلمين وتحريضهم على الجهاد ، فدارت بين الطرفين مناوشات انسحب المسلمون بعدها إلى بلادهم ، وتوفي سكمان القطبي في الطريق[4] فحمله

---

(١) الغزي، نهر الذهب ٣/٨٢ .

(٢) ابن القلانسي ، دمشق ص ١٧٥ ،سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ، ٨/٣٥ – ٣٦ ،
Crousset, op. cit., 1/465, Runciman, op. cit., 11/122.

(٣) Albert d' Aix, op. cit., P. 681.

(٤) ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ١٨٣ – ١٨٤ ، الباهر ص ١٧ – ١٨ ، سبط ابن =

أصحابه عائدين الى بلادهم ، فلحقهم إيلغازي ، لدى مرورهم بديار بكر كي يستنقذ ابن أخيه بلك بن بهرام الذي كان سكمان قد أسره بسبب خلافه مع إيلغازي . لكن هؤلاء استطاعوا ان يهزموا غريمهم وأن يستولوا على ما معه ، ومن ثم استأنفوا مسيرهم إلى أرمينية(١) .

وللمرة الثالثة تبدو من إيلغازي بوادر سلبية تجاه المحاولات الإسلامية ضد الصليبيين ، فعلى الرغم من أنه أرسل ابنه إياز على رأس قوة من التركمان لينوب عنه في قتال هؤلاء ، إلا أن أطماعه الشخصية دفعته - أخيراً - إلى مهاجمة قوات أرمينية ، مستغلاً وفاة أميرها ، للحصول على الغنائم . وقد كان لهذه البوادر السيئة من قبل بعض الأمراء أثرها المباشر على عدم إمكان تحقيق نصر

= الجوزي ، مرآة الزمان ٨/ ٣٥ - ٣٦ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٨٧ - ٨٨ ، ٤١٢ - ٤١٣ ، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ٥/٢٠١ ، الغزي، نهر الذهب ٣/٨٢ ، الطباخ ، تأريخ حلب ١ / ٤٠٦ - ٤١٢ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ١ / ٤٠ - ٤١) ، Grousset op. cit., 1/469, Fink, op. cit., 1/400.

ويخطىء ابن كثير، البداية (١٢/١٧٣) في القول بأن إيلغازي حضر بنفسه العمليات العسكرية لهذا التحالف .

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ١٨٣ - ١٨٤ ، ابن خلدون . العبر ٥ / ٨٧ - ٨٨ . ٤١٢ - ٤١٣ ،

Runciman, op. cit., 11/123, Grousset, op. cit., 1/467, cahen op. cit., pp. 261 — 263.

ويخطىء كل من سبط بن الجوزي ، (مرآة الزمان ٨/٣٧) وابن تغري بردي الذي نقل عنه (النجوم الزاهرة ٥/٢٠١) في إيراد معلومات مضطربة عند التطرق لوفاة سكمان القطبي وعرض سيرته، بسبب عدم تفريقهما بينه وبين سقمان بن ارتق ، فهما يذكران «ان الذي توفى هذه السنة هو سكمان بن ارتق صاحب خلاط وديار بكر وأبوه أرتق مات بالقدس » وواضح أن سقمان توفي عام ٤٩٨ كما سلف .

حاسم ضد الصليبيين كذلك الذي حققه سقمان وحليفه جكرمش في معركة البليخ وقد أظهرت هذه الأحداث تفكك المسلمين وعدم وحدتهم ، في الوقت الذي تجمعت فيه القوى الصليبية في شمالي الشام وجنوبه ، وحققت لبلدوين ملك بيت المقدس نوعاً من الزعامة على سائر أمراء الصليبيين(١) .

وفي مطلع عام) ٥٠٧ هـ = ١١١٣ م) تحرك مودود للمرة الثالثة على رأس تحالف إسلامي آخر ، بناء على استنجاد طغتكين أمير دمشق الذي تعرضت إمارته لهجمات شديدة من قبل صليبيي بيت المقدس ، ولذا كانت فلسطين هدف الجهاد هذه المرة . وقد اشترك في هذا الحلف أمير سنجار وطغتكين ، أما إيلغازي فقد أناب عنه ابنه إياز . وفي الثالث عشر من المحرم كان اللقاء عند طبرية وانتهى بهزيمة الصليبيين بعد قتال شديد ، أعقبته سلسلة من الانتصارات ضدهم ، أسفرت عن مقتل ما يقرب من ألف ومائتين وخمسين منهم . ومن ثم أذن مودود لحلفائه بالعودة إلى بلادهم لحلول الشتاء كي يأخذوا فترة من الراحة ، ويجتمعوا به في الربيع القادم . إلا أن الباطنية ما لبثوا أن اغتالوه إثر دخوله دمشق بصحبة طغتكين(٢) .

---

(١) Fink, op. cit., 1/400.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٠/١٨٦ – ١٨٧ ، ابن القلانسي، دمشق ص ١٨٤ – ١٨٥، أبو الفدا ، المختصر ٢/٢٣٧ – ٢٣٨ ، ابن الوردي ، تتمة ٢ / ٢١ – ٢٢ ، ابن خلدون ، العبر ٥ /٨٨ – ٨٩ ، ٤١٥ – ٤١٦ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ١ / ٦٦ – ٦٧).
Runciman, op. cit., 11/126 — 127.
Grousset, op. cit., 1/484 — 485,
Cahen, op. cit., pp. 266—267,
Guillaume de tyr, op. cit., 1/485—486,
Matthieu D'Edesse, op. cit., pp. 107—108.
ويخطىء ابن كثير (البداية والنهاية ١٢/١٧٦) في الإشارة ثانية الى أن إيلغازى حضر بنفسه هذه المعارك .

مرحلة التحالف مع الصليبيين (٥٠٨ هـ = ١١١٤ م):

دخل الأراتقة إثر مقتل مودود مرحلة جديدة في علاقتهم بالصليبيين تميزت بالتحالف معهم والعمل سوية على مقاومة الأمراء المسلمين الذين عملوا على مجابهة أعدائهم . وعلى الرغم من أن السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه عين الأمير آق سنقر البرسقي ليتولى قيادة المسلمين في حركة الجهاد ، بعد مقتل مودود ، إلا أن الأراتقة بزعامة إيلغازي لم يتعاونوا معه كما كان شأنهم في السابق ، بل اتجهوا وجهة جديدة في موقفهم من الصليبيين ، إذ راحوا يناوئون الأمراء المسلمين في جهادهم ضد هؤلاء ويقفون في طريقهم ، بل يسعون لسحقهم ، وتطرفوا في موقفهم فانضموا الى الصليبيين وساندوهم في حروبهم ضد المسلمين. وبالرغم من ظهور بوادر سلبية من إيلغازي في المرحلة السابقة ، إلا أنه – على أية حال – كان يقدم قواته الى جانب المسلمين ، وينيب عنه ابنه في قيادة هذه القوات .

ويعزى سبب هذا التحول في سياسة إيلغازي إلى العداء الذي نشب بينه وبين البرسقي ، الذي عينه السلاجقة لقيادة حركة الجهاد والذي بدأ عملياته بالتحرش بممتلكات الأراتقة قبل مهاجمة المواقع الصليبية ، والى اتباع هذا القائد سياسة الإرغام تجاه إيلغازي كي يمده بقواته من التركمان ، فضلاً عن اعتقاله لإياز ابن إيلغازي ، الذي أنابه أبوه عنه في قتال الصليبيين[1] . كما أن إيلغازي وجد سنداً له في سياسته الجديدة ، ألا وهو طغتكين أمير دمشق الذي اتهمه السلاجقة بقتل مودود عام (٥٠٧ هـ = ١١١٣ م) ، فخاف عاقبة انتقامهم

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠/١٨٩ ، ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٧ آ - ب) ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٨٩ – ٩٠ .

والتجأ الى الصليبيين[١] .

تحرك البرسقي عام (٥٠٨ هـ = ١١١٤ م) على رأس قوات كثيرة ، وكان يصحبه الملك مسعود بن السلطان محمد ، وانضم اليهما عدد من أمـراء المسلمين . وبعد أن سيطر على الأقاليم التي كانت تابعـة للموصل ، هاجم حران فاستنجد نائب إيلغازي بصليبيي الرها يدعوهم لمساعدته ضد البرسقي ، فلما أحس أهالي البلد وبعض المسؤولين بذلك ، راسلوا البرسقي واستحثوه على الوصول اليهم ، فتقدم الى حران واستولى عليها بمساعدة الأهالي[٢] ، ومن ثم اتجـه الى ماردين فنازلها حتى أذعن له أميرها إيلغازي وسير معـه عسكراً مع ابنه إياز . وقد حاول إيلغازي في البدء الامتناع عن إرسال قواته مع البرسقي مما اضطر هذا إلى مهاجمته وإرغامه على الاشتراك في قتال الصليبيين[٣]. ومن ثم غادر البرسقي ماردين إلى الرها على رأس خمسة عشر ألف رجل ونازلها في ذي الحجة، وضيق عليها ، إلا أن الدفاع المستميت الذي بذله جندها وتناقص الأقوات في معسكر المسلمين اضطرت البرسقي إلى ترك الرها ، بعد أن قام بتخريب بلدها ، وبعض المواقع الصليبية القريبة منها[٤] ، مما حمـل بعض أمراء هذه المناطق على إعلان الطاعة له ، وعلى رأسهم أرملة كواسيل صاحبة مرعش وكيسوم ورعبان ، كما

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠/١٨٩ ،
Grousset, op. cit., 1/494, Guillaume de tyr, op. cit., P. 493.

(٢) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٧ آ – ب) .

(٣) انظر ابن خلدون ، العـبر ٥ / ٤٨٤ ، وابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ١ / ٧٩ – ٨٠) .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ١٠/١٨٩ – ١٩٠ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٨٩ – ٩٠ ،
Fink, op. cit., 1/403, Runciman, op. cit., 11/128, Grousset, op. cit., 1/491 —492, Cahen, op. cit., P. 270.

أعلن الأرمن عن رغبتهم في التحالف معه(١) .

وبعد أن حقق البرسقي هذه الانتصارات توجه إلى منطقة شبختان جنوبي ديار بكر واعتقل إياز بن إيلغازي انتقاماً منه لعدم حضور أبيه، وأعقب ذلك القيام بنهب المناطق الزراعية المحيطة بماردين . فأسرع إيلغازي في التوجه الى حصن كيفا للاستنجاد بابن أخيه ركن الدولة داود بن سقمان ، فاستدعى هذا قوات ضخمة من التركمان وسار مع عمه للقاء البرسقي . وفي أواخر السنة التقى الطرفان وجرى قتال شديد صبر فيه الفريقان وانتهى بهزيمة البرسقي وتفرق قواته ونجاة إياز من الاعتقال . فلما علم السلطان السلجوقي بذلك ، أرسل الى إيلغازي يتهدده ، فخاف هذا عاقبة التهديد وتوجه الى دمشق للالتقاء بحليفه وحميه طغتكين ، الذي كان هو الآخر قد تدهورت علاقته بالسلطان السلجوقي بسبب اتهامه بقتل مودود . وأقام إيلغازي في دمشق عدة أيام اتفق فيها مع طغتكين على إعلان العصيان ضد السلاجقة والالتجاء الى الصليبيين للاحتماء بهم . فراسلا روجر صاحب أنطاكية وطلبا محالفته، وكان من البديهي أن يستجيب هذا لطلبهما ، ومن ثم اجتمع الأمراء الثلاثة بالقرب من حمص ، وأقروا شروط التحالف ، وعاد كل من روجر وطغتكين الى بلده ، وقرر إيلغازي التوجه الى ديار بكر لجمع التركمان والعودة ثانية للالتقاء بحلفائه . ولكنه ما أن ابتعد عن حمص مسافة قصيرة حتى لحقه صاحبها (خير خان بن قراجا) ، وقد تفرق عن إيلغازي أصحابه، فأسره وبعض خواص أمرائه، وأرسل الى السلطان يعلمه

---

(١) Grousset, op. cit., 1/492, Runciman, op. cit., 11/129, Cahen, op. cit., 270—271, Fink, op. cit., 1/403.

ومرعش وكيسوم ورعبان : من مدن الثغور بين الشام وبلاد الروم (ياقوت ، ٢/٧٩١، ٤/٣٣٣ - ٤٩٨) .

بذلك ويطلب منه الإسراع بإرسال القوات قبل أن يتمكن طغتكين من تخليص حليفه . ولما بلغ طغتكين الخبر عاد الى حمص وأرسل الى خيرخان يطلب منه إطلاق سراح حليفه ، فرفض خيرخان طلبه وهدد بقتل إيلغاري إن لم يرجع طغتكين عن حمص ، فأرسل إيلغازي الى طغتكين قائلاً : « إن الملاجة تؤذيني وتسفك دمي والمصلحة عودك إلى دمشق[1] » . فاضطر طغتكين الى الرجوع . وانتظر خيرخان وصول قوات السلطان السلجوقي فتأخرت عن الوصول ، فخاف أن يباغته أصحابه ويسلموا حمص إلى طغتكين ، فعدل الى الصلح مع إيلغازي ، وأطلقه ، مقابل أخذ ابنه إياز رهينة ، كما تمت المصاهرة بين الطرفين ، والاتفاق على قيام إيلغازي بالدفاع عن خيرخان في حالة مهاجمة طغتكين له . ومن ثم غادر إيلغازي حمص واتجه شمالاً حيث حشد التركمان وقفل راجعاً إلى حمص وطالب خيرخان بإطلاق سراح ولده إياز ، فلما رفض خيرخان طلبه حاصره إيلغازي ليرغمه على تسليم ابنه[2] .

ولما اتصل بالسلطان السلجوقي خبر عصيان إيلغازي وطغتكين وتحالفهما مع الصليبيين للاحتماء بهم ضد السلاجقة ، جهز عسكراً ضخماً وأعطى قيادته لبرسق بن برسق حاكم همذان (في بلاد فارس) ، والتحق به بعض كبار أمراء بلاد فارس وقوات الموصل والجزيرة ، وأمرهم السلطان بأن يبدأوا

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ١٠/١٩٠ .

(٢) المصدر السابق ١٠ / ١٨٩ - ١٩٠ ، ابن القلانسي ، دمشق ص ١٩١ ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ٥٢ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٨٩ - ٩٠ ، ٣٢٤ - ٣٢٥ ، ٤٨٣ - ٤٨٥ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٥ / ٢٠٨ ، ابن كثير ، البداية ١٢/١٧٨ ، الطباخ ، تأريخ حلب ١ /٤١٩ - ٤٢٣ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ١/ ٧٩ - ٨٢) ،

Cahen, op. cit., pp. 270—272.

عملياتهم بالقضاء على إيلغـازي وطغتكين ومن ثم التوجه لقتـال الصليبيين ومهاجمة مواقعهم . وكان لؤلؤ الخادم ، الوصي على حلب ، قد انضم الى المنشقين للحصول على بعض المكاسب ، وهكذا لم يبق موالياً للسلاجقة من أمراء الشام سوى بني منقذ في شيزر وخيرخان صاحب حمص . وقد تحركت قوات برسق الكبيرة في رمضان سنة (٥٠٨ هـ = ١١١٤ م)، وعبروا الفرات – في أواخر السنة – عند الرقة واتجهوا الى حلب لاتخاذها قاعدة لعملياتهم الحربية، وأرسل برسق الى لؤلؤ الخادم وشمس الخواص (مقدم عسكر حلب) يأمرهما بتسليم حلب بناء على أمر السلطان ، وعرض عليهما كتب السلطان حول هذا الموضوع فراوغا في الجواب وأرسلا الى إيلغازي وطغتكين يستنجدانهما ، فتقدمـا على رأس ألفي فارس ودخلا حلب وعززا – بذلك – مقاومتها لقوات السلطان السلجوقي . فاضطر برسق الى ترك حلب والتوجه الى حماة – العائدة لطغتكين وهي مركز تموينه وأثقاله – فحاصرها وفتحها عنوة ، ومن ثم سلمها الى الأمير خيرخان بن قراجا صاحب حمص ، بينما كانت أوامر السلطان تقضي بتسليمه كل مدينة أو موقع يتم إخضاعه من قبل قواته . وقد أدت هذه المخالفـة من قبل برسق إلى إضعاف معنويات قواته . وبعد أن تسلم خيرخان حماة سلم إياز بن إيلغازي الى قوات برسق ليبقى رهينة لديهـم . وخـلال ذلك كان إيلغازي وطغتكين وشمس الخواص قد اتجهوا الى أنطاكية ، واستجاروا بصاحبهـا وطلبوا منه مساعدتهم على الدفاع عن مدينة حماة ، فلمـا بلغهم نبأ الاستيلاء عليهـا ، واجتمع بهم في أنطاكيـة بلدوين ملك بيت المقدس وبونز كونت طرابلس وبلدوين أمير الرهـا ، اتفق رأيهم على مناورة قوات برسق وتجنب الاشتباك معها بسبب ضخامة عددها ، والانتظار الى الشتاء الذي سيضطرهـا الى التفرق والعودة كل الى بلاده . ومن ثم اجتمع الصليبيون وحلفاؤهم في قلعة

أفامية بانتظار مـــا سيحدث ، وكانت قواتهم تضم عشرة آلاف من المسلمين وألفين من الصليبيين ، أما قوات برسق فقد عسكرت في قلعة شيزر متخـذة منها قاعدة لعملياتها العسكرية ، بسبب ولاء أصحابها من بني منقذ للسلاجقة ، وبسبب فشل تلك القوات في اتخـــاذ حلب قاعدة لهـــا . وقد بقي المسلمون والصليبيون في معسكراتهم هذه طيلة شهرين ، وجـــرت بين الطرفين بعض المناوشات الخفيفة[1] . فلمـــا بدأ فصل الشتاء ، ورأى الصليبيون وحلفاؤهم انسحاب قوات برسق صوب الجزيرة ، تفرقوا ، فعـاد إيلغازي الى ماردين ، وطغتكين الى دمشق ، وانسحب الصليبيون الى بعض المواقع القريبة . ومن ثم تقدمت قوات برسق ، التي كان انسحابها خدعة ناجحة ، الى كفرطاب العائدة للصليبيين واستولت عليهـا عنوة ، ثم زحفت الى أفامية فامتنعت عليهـــا ، فاتجهت الى المعرة ومنها الى حلب ، فتصدى لها في الطريق صليبيو انطاكية بقيادة روجر ونشب القتال عند تل دانث فحلت الهزيمة بقوات برسق ، وقتل الصليبيون وأسروا عـــدداً كبيراً منهم ، كما أحرقوا ونهبوا ميرتهم ، فاضطر برسق الى العودة الى بلاد فارس بينما تفرقت القوات الصليبية[2] . وقد ثـــار

---

(١) ابن منقذ ، الاعتبار ص ٩٠ – ٩٢ ، ويذكر ابن العديم (زبدة الحلب ٢/١٧٤ – ١٧٥) أن طغتكين كان « يريّث الفرنج عن اللقاء خوفاً من أن يكسروا العساكر السلطانية فيأخذوا الشام جميعه ، أو ينكسر ـ الفرنج ـ فتستولي العساكر السلطانية على ما في يده » .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ١٩٢ – ١٩٣ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ٢ / ١٧٤ – ١٧٦ ، ابن منقذ ، الاعتبار ص ٩٠ – ٩٢ ، أبو الفدا ، المختصر ٢/٢٣٩ – ٢٤٠ ، ابن كثير ، البداية ١٢/ ١٧٨ – ١٧٩ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٩٠ – ٩٢ ، ٤٨٥ – ٤٨٦ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ١/٨٣ – ٨٨) .

Cahen, op. cit., pp. 271—272, Fink, op. cit,, 1/404, Grousset, op. cit., 1/506—508, Guillaume de Tyr, op. cit., P. 498.

ويرى Fink أنه بالرغم من العداء والقتال المستمر بين الأتراك والصليبيين في الشام، فإنه كان=

برسق من إيلغازي بقتل ابنه إياز الذي كان محتجزاً عنده[1] .

لقنت هذه التجربة كلاً من إيلغازي وطغتكين درساً قاسياً ، إذ أنها لم تحقق لأي منهما أي مكسب ، في الوقت الذي مكنت فيه صليبيي أنطاكية من توجيه ضربة حاسمة ضد القوات الإسلامية شلتها عن العمل ، وأنهت المحاولة الأخيرة التي قام بها سلاطين السلاجقة لاستعادة الشام[2] . وقوي مركز روجر إثر الانتصار الذي أحرزه في تل دانث[3] ، وتمكن به من تخليص الإمارات الصليبية جميعاً من خطر أكيد ، وبلغت الإمارات الصليبية الشمالية ، إثر هذه الموقعة قمة مجدها[4] ، ووجدت الفرصة سانحة لتحقيق انتصارات أخرى ضد القوى الإسلامية المفككة[5] وهكذا أدرك طغتكين وإيلغازي خطأ موقفهما ، فعمل الأول على كسب رضا السلطـــان محمد بن ملكشاه ، وسافر الى بغداد فوصلها في رجب من عام (٥٠٩ هـ = ١١١٥ م) ، وسأل الرضا من السلطان فأعلن هذا رضاه وأعاده الى دمشق[6] . أما إيلغازي فقد بذل جهده – طيلة

= بوسعهم أن يتحالفوا لمواجهة الأعداء القادمين من وراء بلاد الشام. إلا أن ما حدث ينفي هذه الفكرة ، ذلك أن القوات الإسلامية التي حالفت صليبيي الشام لم تكن من الشام فقط ، فإيلغازي كان يحكم منطقة ديار بكر فيما وراء حدود الشام، كما أن قوات السلطان ضمت عناصر من مسلمي الشام مثل خير خان وبني منقذ. فلم يكن الصراع في هذه التجربة إذاً ذا مسحة إقليمية كما يرى Fink وإنما كان سياسياً محضاً .

(١) ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ١/٨٧).

(٢) Runciman, op. cit., 11/133.

(٣) Grousset, op. cit,, 1/510, Fink, op. cit., 1/404.

(٤) Runciman. op. cit., 11/126.

(٥) Stevenson, op. cit.. pp. 100-101.

(٦) ابن الأثير ، الكامل ١٠/١٩٤ ، ابن كثير ، البداية ١٢/١٧٩ .
Grousset, op. cit., 1/511.

السنوات القادمة – في توجيه أقسى الضربات للصليبيين بالاشتراك مع حليفه طغتكين ، تلك الضربات التي أهلته لأن يستلم مركز القيادة الإسلامية في حركة الجهاد ضد الصليبيين . كما أن توقف المحاولات السلجوقية لقتال الصليبيين في الشام ، أدى إلى أن غدا هؤلاء يجابهون أسرات محلية كالأراتقة والزنكيين ، والأيوبيين فيما بعد ، ركزت جل اهتمامها على أمور الشام ، وفاقت في خطورتها وشدتها سلاطين السلاجقة أنفسهم[1] .

مرحلة القيادة (٥١٣ – ٥١٨ هـ = ١١١٩ – ١١٢٤ م) :

وهي المرحلة التي تبوأ الأراتقة خلالها مركز الزعامة في قتال الصليبيين في الجزيرة وشمالي الشام ، وعمل فيها تحت إمرتهم عدد من أمراء هذه المناطق ، فتمكنوا من توجيه ضربات حاسمة لصليبيي الجزيرة والشام ، وقد ساعدهم الاستيلاء على حلب الى حد كبير على الانتقال الى هذه المرحلة .

تعتبر حلب ذات أهمية بالغة بالنسبة لأية قيادة عسكرية وسياسية تسعى لمجابهة الصليبيين ، وذلك لما كانت تتمتع به من مركز استراتيجي حيوي من النواحي البشرية والعسكرية والسياسية والاقتصادية وخطوط المواصلات ، فهي تقع في مركز وسط حصين بين إمارتين صليبيتين هما الرها وأنطاكية ، في نفس الوقت الذي يمكنها فيه الاتصال بالقوى الإسلامية التركمانية المنتشرة في الجزيرة والفرات والأناضول وشمالي الشام وأواسطه مما يعد أساساً حيوياً لاستمرار حركة الجهاد وتحقيق أهداف حاسمة ضد الصليبيين.لذا كان الاستيلاء

---

(١) العريني ، الحروب الصليبية ١/٣٢٩ .

Grousset, op. cit., 1/550.

على حلب ، من قبل أي قائد إسلامي ، بمثابة فتح الطريق أمامه لتبوء مركز القيادة في حركة الجهاد . وذلك ما حدث بالنسبة لإيلغازي وابن اخيه بلك بن بهرام ، أولاً ، والبرسقي وزنكي ونور الدين فيما بعد . فبحصول إيلغازي على حلب عام (٥١١ هـ = ١١١٧ م) ، تغير ميزان القوى في المنطقة ، وتمكن من توجيه ضربات حاسمة ضد الصليبيين في شمالي الشام، وعندما توفي عام (٥١٦ هـ = ١١٢٢ م) تابع ابن أخيه بلك بن بهرام توجيه هذه الضربات حتى مقتله عام (٥١٨ هـ = ١١٢٤ م). وهكذا تبوأ الأراتقة مركز القيادة في حركة الجهاد طيلة تلك السنوات .

بلغت حلب درجة كبيرة من الضعف منذ أن توفي رضوان بن تتش عام (٥٠٧ هـ = ١١١٣ م) وأعقبه في حكمها أبناؤه الضعفاء، وتحكم فيهم أوصياؤهم وخدامهم من التركمان ، وعند مقتل لؤلؤ ، غلام رضوان والحاكم الفعلي في حلب ، على أيدي الجند سنة (٥١١ هـ = ١١١٧ م) ، تدهورت الأمور فيها، وأصبحت سهلة المنال ، فتحالف روجر أمير أنطاكية مع كبار مسؤوليها كي يدفع عنها إيلغازي الذي كان يطمح للاستيلاء عليها(١) ، والمرجح أن روجر أدرك خطورة استيلاء إيلغازي على حلب بالنسبة لوجود الصليبيين شمالي الشام، ولذا قام بمساعدة بعض المسؤولين فيها ، بالاستيلاء على الجهات الشرقية من أعمالها(٢) . وعندما سيطر يار قتاش الأرمني على مقدرات حلب، هادن روجر وبذل له الأموال وتنازل له عن بعض المواقع ، كما منحه الحق في استيفاء رسوم

---

(١) Fink, op. cit., 1/405.

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٧٩ – ١٨٠ .

Grousset, op. cit., 1/511.

محددة على القوافل[1] ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل غدت حلب تعتمد على روجر في رد الطامعين للاستيلاء عليها ، أمثـــال طغتكين والبرسقي ، حيث رفض أهالي حلب الاستجابة لهما عام (٥١١ هـ = ١١١٧ م) ، وقالوا « ما نريد أحداً من الشرق »[2] ، واستنجدوا بروجر ، فعـــاد البرسقي الى الرحبــة ، طغتكين الى دمشق[3] .

وإذ أدرك الحلبيون عدم جدوى بقـــاء حلب على هذه الأوضاع القلقة ، وضرورة تسليمها لأمير قوي أرسلوا الى إيلغازي يطلبون منه القدوم لتسليمها إياه ، فتقدم هذا الى حلب عام (٥١١ هـ = ١١١٧ م) ، وتولى مقاليد الأمور فيها وفرض سيطرته على المواقع التابعة لها كبالس والقليعة[4] وعندمـــا وجد خلو خزائن البلد من الأموال ، التي فرقها الحكام السابقون، اضطر الى مصادرة جماعة من الخدم للحصول على مبلغ من المـــال هادن به الصليبيين مدة يسيرة تمكنه من الاتجاه الى ماردين وحشد قواته والعودة ثانية . فلمـــا تم له ذلك استخلف ابنه تمرتاش في حلب وقفل عائداً الى ماردين[5] ولكنه مـــا أن غادر

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٧٩ – ١٨٠ ، ابن القلانسي ، دمشق ص ١٩٩ ،
Runciman, op. cit., 11/138 . Grousset, op. cit., 1/511 - 512.

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٨٠ .

(٣) المصدر السابق ٢/١٨٠ – ١٨١ .
Runciman, op. cit., 11/134, Grousset, op. cit., 1/512.

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٨٠ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢ – ٩) . وبالس مدينة بين حلب والرقة (ياقوت ، ١/٤٧٧) .

(٥) ابن الاثير ، الكامل ١٠/ ٢٠٠ ، ابن شداد ، الأعلاق (قسم حلب) ورقة 230B ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ٦٩ ، أبو الفدا ، المختصر ٢ / ٢٤١ ، ابن الوردي ، تتمة ٢/٢٤ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٣٢٦ – ٣٢٧ ، ٤٨٦ .

المكان ، حتى قام الجند المقيمون في بالس بالإفساد في أعمال حلب ، بسبب الغلاء الذي عم موقعهم ، كما استدعوا الصليبيين ليسهموا معهم في النهب والتخريب وليتسلموا بالس من حاميتها التركمانية[١] . فخرجت بعض قوات حلب ، تساندها قوة من الصليبيين ، وفرضوا الحصار على بالس ، فاضطر إيلغازي الى العودة على رأس قوة من التركمان ، وحينذاك انسحب الصليبيون وحلفاؤهم عن بالس ، فباعها إيلغازي لابن مالك وعاد الى ماردين[٢] .

غدت حلب ، ثانية ، بدون حماية ، فاشتد طمع الصليبيين بها ونقضوا الهدنة التي عقدوها مع إيلغازي ، وأغاروا على مواقع حلب بقواتهم التي حشدها روجر أمير أنطاكية وحليفه ليو الأرمني ، ونهبوا أموالاً كثيرة . فاضطر أهالي حلب الى الاستنجاد بطغتكين ، فتقدم هذا باتجاه حلب ولكن قوات جوسلين دحرته قبيل وصوله ، فراسل أهالي حلب (جيوش بك) حاكم الموصل ، دون جدوى ، كما استدعوا خيرخان بن قراجا صاحب حمص ، فتقدم هذا الى حلب ولكنه لم يستطع أن يقوم بالدور الملقى على عاتقه بسبب تخوفه من إيلغازي[٣] ، وهجوم طغتكين على حمص[٤] . وعادت قوات الصليبيين ، بعد هزيمة طغتكين ، الى عزاز وضايقتها ، فأرسل إليهم إيلغازي يعلمهم أنه مستعد لتقديم مبلغ من المال لقاء انسحابهم عنها ، فلم يستجيبوا له « لقوة أطماعهم في أمر الإسلام ... وكان إيلغازي يعجز عن قوت الدواب ، وحلب

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٨٠ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢/١٠) .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٨٠ ، ابن شداد ، الأعلاق (قسم حلب) ورقة 130B ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢/١٠) ,Cahen, op. cit., pp. 277 — 278

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٨١ .

(٤) ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢/١٠ — ١١) .

على حد التلف »[1] . فلما عرف أهالي عزاز ذلك ويئسوا من جلاء الصليبيين تنازلوا لهم عن عزاز وطلبوا عقد هدنة معهم ، فاشترط هؤلاء عليهم تسليمهم تل هراق[2] ، والمبلغ النقدي المفروض على حلب منذ أربعة أشهر ، فضلاً عن التنازل عن الجهات الشمالية والغربية من حلب، فلم يتوصل الطرفان الى اتفاق. وقام الصليبيون إثر ذلك بزراعة أعمال عزاز الغنية واستغلالها لصالحهم ، ومن ثم عادوا الى أنطاكية بعد أن استولوا على بعض المواقع الأخرى مثل بزاعة[3]. هذا بينما أخذت المؤونة الداخلة الى حلب بالتناقص ، وصار لا يدخل اليهم إلا ما يتبلغون به من القوت، بسبب سيطرة الصليبيين على معظم المناطق الزراعية التي كانت تمون حلب وبخاصة عزاز ، المركز التمويني الرئيسي لها ، وبسبب ما أصاب الجهات الشرقية من خراب ودمار نتيجة للعمليات الحربية المستمرة في المنطقة[4] .

لم يأل الحلبيون جهداً في البحث عن وسيلة لإنقاذهم من أطماع الصليبيين وهجماتهم ، فأرسلوا الى بغداد يستغيثون ويطلبون النجدة ، فلم يغاثوا لانشغال السلاجقة بالمنازعات فيما بينهم[5] . وحين يئسوا من نجدة تصلهم من أحد

---

(١) المصدر السابق ١٨٦/٢ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢٥/٢) .
وانظر Grousset, op. cit., P. 1/548 - 549.

(٢) تل هراق : من حصون حلب الغربية (ياقوت ، ٨٧٢/١) .

(٣) بزاعة : بلدة من أعمال حلب في الطريق الى منبج وفي وادي يدعى بطنان (ياقوت ، ٦٠٣/١) .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٨١/٢ - ١٨٦ ، ابن الأثير ، الكامل ١٠/ ٢٠٩ ، ابن خلدون ، العبر ٤٢٠/٥ - ٤٢١ ، ابن الفرات تأريخ (مخطوطة ٢٥/٢) .
Runciman, op. cit., 11/134, Grousset, op. cit., 1/512 - 513, Cahen op. cit., PP. 276- 281.

(٥) ابن الأثير الكامل ٢٠٩/١٠ ، ابن خلدون ، العبر ٤٨٧/٥ ،
Grousset, op. cit., 1/549.

الأمراء المحليين ، اتفق رأيهم على استدعـــاء إيلغازي – ثانية – فأرسلوا اليه الأعيان والمقدمين ليطلبوا منه القدوم الى حلب لدفع الصليبيين عنهم ، وظنوا أنه سيصل اليهم بقوات يتمكن بها من إجلاء الصليبيين، فضمنوا لهمالاً يقسطونه على حلب ليصرفه على قواته ، ولكن إيلغازي ما لبث أن قدم الى حلب بجند يسير لعدم تهيئه لهذا الموقف[1] .

كان المدبر لأمر حلب آنذاك جماعـــة من الخدم والقـاضي أبو الفضل بن الخشاب ، وهو المرجوع اليه في حفظ المدينة والنظر في مصالحها[2] وإذ رأى الحلبيون قلة ما بصحبة إيلغازي من القوات ، أدركوا عـــدم جدوى دخوله حلب وحاولوا الامتناع عليـــه ، واختلفت الآراء في قضية السماح له بالدخول فقفل إيلغازي عائداً ، ولكن ابن الخشاب وبعض المقدمين لحقوا به ، وألحوا عليه حتى أقنعوه بالرجوع ، فدخل حلب « ونادى الناس بشعاره » ، ولكنه لم يستطع أن ينجز سوى بعض الإجراءات الداخلية حيث أخرج من القلعـة سائر جند رضوان واتباعه ، كما احتجز سلطان شاه بن رضوان وأخواتـه في إحدى الدور ، وصادر أموال الخدم الذين كانوا قد سيطروا على أمـور حلب

---

(١) يبدو أن إيلغازي لم يملك – اول الامر – دافعاً شديداً لضم حلب الى ممتلكاته بسبب المشاكل العسكرية والاقتصادية التي كانت تعانيها حلب من جهة ، وبسبب البوادر السلبية التي عرفت عن هذا الامير تجاه الصليبيين في السنوات السابقة ، من جهة أخرى . فربما كانت هذه (السلبية) صفة نفسية لإيلغازي في المرحلة الاولى من حياته السياسية ، وأن موقفه المتردد إزاء دعوة الحلبيين له ، يمثل استمراراً لهذا الدافع النفسي . على الرغم من أهمية حلب الكبرى بالنسبة لإمارة تقبع في ديار بكر وتنتظر الفرصة لضرب الصليبيين ، وهذا ما يفسر الرسالة التي بعثها الى طغتكين يعلمه فيها أن حلب صارت اليه وأنه إذا رغب فيهـا سلمها له « فإن نفسه تطيب لذلك » (ابن الفرات، ٢/١٠– ١١).

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٨٥ – ١٨٦ .

طيلة الفترة السابقة[١] . ويبدو أن هدف إيلغازي من هـــذه الإجراءات هو تأمين سيطرته على حلب والقضاء على منافسيه من حكامها القدماء ، فضلاً عن جمع مبلغ من المال يتمكن به من حشد قواته من التركمان لمجابهـــة الصليبيين . وهكذا أدى تضييق هؤلاء على حلب الى ارتمائها نهائياً في أحضان الأراتقة مما كان له أسوأ الأثر على مصير الوجود الصليبي في الشام والجزيرة .

* * *

كانت دمشق قد تعرضت – خلال هذه الفترة – لهجمات الصليبيين مما دفع طغتكين إلى توحيد العمل مع إيلغازي[٢] لمجابهة الخطر الصليبي على كل من حلب ودمشق فقدم إيلغازي الى دمشق بصحبة كبار امرائـــه واجتمع بطغتكين ، وكان الغرض من هذا الاجتماع – في البدء – مهاجمة صليبيي بيت المقدس الذين تكررت غاراتهم على إقليم حوران[٣] ، ولكن ما لبث لقاؤهمـــا أن أسفر عن عقد اتفاق ثنائي يقضي بحشد قواتهما والبدء بمهاجمة أنطاكية . فعاد إيلغازي الى ديار بكر (في رمضان عـــام ٥١٢ هـ = ١١١٨ م) ، ليحشد قواته ، وسار طغتكين برفقته الى حلب ليشرف معه على عملية استدعاء التركمان ، ومن ثم عاد الى دمشق على أمل اللقاء بحليفه ، بعد أن يتم كل منهما حشد قواته كي يبـــدآ

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٨٥/٢ – ١٨٦ ، العظيمي ، تأريخ ورقـــة ١٩٧ ظ ، (حاشية الزبدة ١٨٥/٢) ، القرماني ، تأريخ ٢٧٧ – ٢٧٨ ، الغزي ، نهر الذهب ٨٤/٣ ، الطباخ ، تأريخ حلب ٤٢٣/١ – ٤٢٨ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٩/٢ – ١١) .

(٢) Grousset, op. cit., 1/550, Cahen, op. cit., 284, Nicholson, The grouth of the Latin States, in setton 1/412.

وانظر سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ٨٠ – ٨١ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٨١/٢ . وحوران كورة واسعة من أعمال دمشق ، (ياقوت بلدان ٣٥٨/٢) .

عملياتهما ضد صليبيي أنطاكية ، وحدد شهر صفر ، من عام (٥١٣هـ=١١١٩م)، موعداً للاجتماع[١] .

حشد إيلغازي ما يزيد على عشرين ألف[٢] من مقاتلي التركمان ومتطوعيهم، وأرسل رسوله الى بغداد ليطلب إعلان النفير على الصليبيين ، وليذكرهم بما فعلوا بالمسلمين في الديار الجزرية ، وأنهم ملكوا قلعة عند الرها وقتلوا أميرها ، فسيرت الكتب بذلك الى السلطان محمود[٣] . وتوجه إيلغازي من ثم الى الرها ورعى زرعها وما يحيط بها من أراض خصبة لتقوية خيله ، خاصة وأن ذلك العام كان شديد الجدب . وقد تخوف صليبيو الرها من تحركات إيلغازي بقواته الضخمة فأرسلوا اليه يلتمسون مصالحته ، لقاء تنازلهم عن الأسرى المسلمين الذين بحوزتهم ، فأجابهم إيلغازي الى الصلح وشرط عليهم البقاء في بلدهم وعدم التوجه لمساعدة أمير أنطاكية في حالة حدوث قتال معه[٤] وقد كانت هذه خطوة صائبة من إيلغازي تمكن بموجبها من عزل إحدى قوى الصليبيين المهمة. ومن ثم عبر الفرات وكان يصحبه أسامة بن مبارك بن شبل الكلابي والأمير

---

(١) ابن القلانسي ، دمشق ص ١٩٩ – ٢٠١ ، ابن الاثير ، الكامل ١٠ / ٢٠٥ ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٧٢/٨ – ٧٣ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٩/٢) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ٢٠٩ ، ابن خلدون ، العبر ٤٨٧/٥ ، ويذكر ابن العديم، (زبدة الحلب ١٨٧/٢)، أن قوات إيلغازي تجاوزت الأربعين ألفاً ولعل في هذا مبالغة واضحة. وانظر ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢٥/٢) .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ٢٠٦/١٠ . ومن الواضح أن إيلغازي ، بتأكيده على الخطر المحيق بالجزيرة ، أراد أن يفتح أذهان السلاجقة على أن الزحف الصليبي أخذ يدق أبواب العراق السلجوقي نفسه ، والرسالة ، بناء على ذلك ، توضح بعد نظر إيلغازى .

(٤) ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢٥/٢) .

طغان أرسلان صاحب بدليس وإرزن[١] .

انطلقت قوات إيلغازي وحلفائه في أراضي تل باشر وتل خالد والمناطق المحيطة بها تقتل وتأسر وتنهب ، وغنمت كل ما قدرت عليه . ووصل إيلغازي آنذاك رسل من حلب يستحثونه على الوصول ، لاستمرار غارات الصليبيين من جهة حصن الأثارب ، واستيلاء اليأس على نفوس أهاليها . فتقدم إيلغازي الى مرج دابق ثم الى المسلمية فقنسرين في أواخر صفر سنة (٥١٣ هـ = ١١١٩ م) ، وانتشرت سراياه في الأعمال الصليبية هناك ، تقتل وتأسر ، وتمكنت من الاستيلاء على حصن قسطون في الروج[٢] . وقد اتخذ إيلغازي من قنسرين قاعدة لشن الهجمات على خارم وجبل السماق[٣] .

استنجد روجر بجوسلين أمير الرها وبونز أمير طرابلس وبلدوين الثاني ملك بيت المقدس ، وعسكر عند أرتاح على الطريق الرئيسي الذاهب الى أنطاكية لحماية المدينة من جهة ، ولمراقبة القوات المتجهة الى حلب من جهة أخرى ، الى أن يصل اليه رفاقه الأمراء الصليبيون[٤] .

لم يصبر روجر لحين وصول النجدات ، بل تقدم صوب القوات الإسلامية

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠/٢٠٩ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٨٧ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢/٢٥-٢٦)، Grousset, op. cit., 1/550.

(٣) ابن الفرات ٢/٢٥ - ٢٦ .

Ibid, 1/550 Cahen, op. cit., 284—285, Nicholson, op. cit., 1/412.

وانظر خارطة رقم ٢ للاطلاع على أماكن المواقع آنفة الذكر .

(٤) Grousset op. cit., 1/552—553.

على رأس ثلاثة آلاف فارس وتسعة آلاف راجل[١] وعسكر في تـــل عفرين الواقع في منطقة استراتيجية بالقرب من البلاط[٢] ، إذ كان يحده جبلان يجعلان من الصعب على المهاجمين اختراق الموقع ، وكان ذلك يوم الجمعة التاسع من ربيع الأول سنة (٥١٣ هـ = ١١١٩ م) . واعتقد الصليبيون أن حصانة هذا الموقع ستحميهم من هجمات المسلمين لحين وصول ملك بيت المقدس ورفاقـــه ، إذ لم يكن لذلك الموقــع طريق الا من جهة ضيقة واحــدة « فأخلدوا الى المطاولة ، وكانت هذه عادة لهم إذ رأوا قوة من المسلمين ، وأرسلوا إلى إيلغازي يقولون له : لا تتعب نفسك بالمسير إلينا ، فنحن واصلون إليك »[٣] .

قام إيلغازي ببث جواسيسه ، الذين تزيوا بزي التجـــار في المعسكـر الصليبي[٤] للحصول على المعلومات اللازمة . وإذ طال انتظاره لحليفه طغتكين كي يتفقا على خطة موحدة للهجوم ، ضجر أمراؤه من طول المقــام فاجتمعوا وحثوه على قتال العدو ، فجدد إيلغازي الأيمــان على الأمراء والمقدمين أن يناصحوا في حربهم ويصبروا في قتال العدو ، وألا ينكلوا عن القتال ، وأن

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠/٢٠٩ ، الذهبي ، دول الإسلام ٢ / ٢٩ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٤٨٧ ، أما ابن القلانسي (دمشق ص ٢٠٠) فيذكر أن عدد القوات الصليبية بلغ عشرون ألفاً من الفرسان والرجالة سوى الأتباع وأنهم كانوا في أتم عدة (ونقـــل عنه ذلك سبط بن الجوزي، مرآة الزمان ٨/٧٩) ، ويظهر أن ابن القلانسي بالغ في عـــدد قوات الأعداء لكي يضفي على النصر الإسلامي قيمة أكبر ، او انه اضاف الى قوات روجر تلك التي كانت في الطريق ولم تسهم في المعركة .

(٢) البلاط : مدينة عتيقة بين مرعش وانطاكية من أعمال حلب (ياقوت ، معجم البلدان ١/٧٠٩) .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ١٠/٢١٠ .

(٤) Guillaume de tyr op. cit., 1/528—531.

يبذلوا مهجهم في الجهاد ، فحلفوا على ذلك بنفوس طيبة[١] .

تقدم المسلمون على جناح السرعة ، وخلفوا خيامهم في قنسرين ، وذلك يوم الجمعة السادس عشر من ربيع الأول ، وعسكروا بالقرب من الصليبيين . وكان هؤلاء قد شرعوا في عمارة حصن مطـــل على تل عفرين معتقدين أن المسلمين ينازلون آنذاك الأثارب أو زردنا ، فما شعروا في الصباح ، إلا ورايات المسلمين قد أقبلت وأحاطت بهم من ثلاث جهات. وأقبل القاضي أبو الفضل بن الخشاب يحرض الناس على القتـــال « وخطبهم خطبة بليغة استنهض فيها عزائمهـــم واسترهف هممهم ... فأبكى الناس وعظم في أعينهم »[٢] ومن جهة أخرى راح بطرس رئيس أساقفة أفاميه يلقي موعظته في روجر وقواته[٣] . بـــدأ هجوم المسلمين الخاطف يوم السبت ظهراً ، بأن دار طغان أرسلان بن دلمـــاج (أمير ارزن) من وراء الصليبيين وهاجم خيامهم وقتل من فيها ونهبها ، بينما أطبقت بقية القوات على الصليبيين من الجهات الأخرى ، فاضطرب الصليبيون لشدة وطأة الهجوم ، وقتل كل من تراجع منهم باتجاه الخيـــام « وحمل الترك بأسرهم حملة واحدة من جميع الجهات ، صدوهم فيها ، وكانت السهام كالجراد ولكثرة ما وقع في الخيل والسواد من السهام عادت منهزمة ، وغلبت فرسانها ، وطحنت الرجالة والأتباع والغلمان بالسهام »[٤] ، وأسر معظـــم الصليبيين ، وقتل روجر في المعركة ، ولم يقتل من المسلمين سوى عـــدد قليل[٥] . لذا

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٨٨/٢ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢٦/٢ - ٢٧).

(٢) المصدر السابق ١٨٨/٢ - ١٨٩ ، وانظر ابن الفرات ٢٧/٢ .

(٣) Guillaume de tyr, op. cit., 1/530—531.

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٨٩/٢ .

(٥) المصدر السابق ، نفس الصفحة ، العظيمي، تأريخ ورقة ١٨٩ و (حاشية الزبدة ٢/ =

اشتهرت هذه المعركـــة لدى مؤرخي الصليبيين باسم معركة (ساحـــة الدم Ager Sanguinis وفضلاً عن القتلى ، فقد وقع في أيـــدي المسلمين من السبي والغنائم والدواب ما يربو عن العد[1] . ويشير المؤرخ ولیم الصوري الى « أنه لم يفلت من الألوف الكثيرة التي تبعت سيدها من يروي سيرة القتال ، ولذلك بسبب ما ارتكبناه من الذنوب على حين لم يلق مصرعه من العدو إلا عـــدد قليل[2] .

= ١٨٩) ، ابن الأثير، الكامل ٢١٠/١٠ ، ابن القلانسي ، دمشق ص ٢٠٠ – ٢٠١ ، ابن شداد ، الأعلاق (قسم حلب) ورقه 260B ابن منقذ ، الاعتبار ص ٤٠ – ١١٩ ، الذهبي ، دول الإسلام ٢٩/٢ ، ابن كثير ، البداية ١٨٤/١٢ ، ابن خلدون ، العبر ٤٢٠/٥ – ٤٢١ . ٤٨٧ ، الذهبي ، العبر ٤ / ٢٨ ، ابن الشحنة ، المنتخب ص ٢١٧ – ٢١٨ ، الغزى ، نهـر الذهب ٨٤/٣ ، الطباخ ، تأريخ حلب ٤٢٩/١ – ٤٣٥ ، ابن قاضي شهبة ، السيرة النورية ، (مخطوطة ٥٥ – ٥٦) ، ابن الفرات ، (مخطوطة ٢ / ٢٧) .

Runciman, op. cit., 11/150, Grousset, op. cit., 1/552—60, Cahen, op. cit., 287—88, Nicholson, op. cit., 1/413, Guillaume de tyr op. cit., 1/529—530.
Lane-pool, Saladin, pp. 47—48.

ولا بد من الإشارة هنا الى التناقض الذى وقع فيه ابن القلانسي ، (دمشق ص ٢٠٠) حول اشتراك طغتكين في هذه المعركة ، فهو من جهة يذكر أن طغتكين قدم على رأس قواته الى حلب للاجتماع بإيلغازي والبدء بالجهاد تنفيذاً للوعد الذي قطعاه على نفسيهما في السنة السابقة ، وأن طغتكين وجد التركمان قد اجتمعوا على حليفه « من كل فج وصوب في الاعداد الدثرة الوافرة » . ويعود (نفس المصدر ص ٢٠١) ليقرر أن طغتكين كان غائباً عن هـــذه المعركة . وتجمع المصادر اللاتينية والعربية وعلى رأسها ابن العديم على عدم اشتراك طغتكين في المعركة المذكورة ، مما يجعلنا نشك في أن ابن القلانسي (الموظف الدمشقي) أورد الرواية الاولى لكي يبرر ذمة طغتكين من الوعد الذي قطعه على نفسه . وانظر سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ٧٩ .

(١) Grousset op. cit., 1/558—59, Guillaume de tyr, op. cit., 1/525—531.

(٢) العريني ، الحروب الصليبية ٣٣٠/١ ،

Guillaume de tyr, op. cit., 1/528—31.

وقد نتج عن تدمير قوة الفرسان النرمان في هذه المعركة أن ضعف النفوذ النرماني في الشام بينما قوي نفوذ البروفنساليين والفرنجة القادمين من أواسط فرنسا وشرقيها[١] ، لأنهم حلوا محلهم في القيادات العسكرية والإقطاعات كما أدت هذه المعركة إلى ابتعاد الخطر الصليبي الذي كان يحدق بحلب ، فضلاً عن أن مقتل روجر وتحطيم القوة العسكرية للصليبيين في شمالي الشام يعتبر ذا أهمية كبيرة بالنسبة للمسلمين[٢] ويصف ابن العديم استقبال أهالي حلب لبشرى النصر قائلاً « فوصل البشير الى حلب بالنصر ، والمصاف قائم والناس يصلون صلاة الظهر بجامع حلب ، فسمعوا صيحة عظيمة بذلك من نحو الغرب ، ولم يصل أحد من المعسكر الى نحو صلاة العصر[٣] » . أما ابن القلانسي فيصف هذا النصر بأنه « من أحسن الفتوح ، ولم يتفق مثله للإسلام في سالف الأعوام »[٤] .

نزل إيلغازي ، عقب المعركة في خيمة روجر وحمل إليه المسلمون ما غنموه فلم يأخذ منهم إلا سلاحاً يهديه لملوك الإسلام ، وزد عليهم ما حملوه بأسره[٥] . وكتب إلى سائر أمراء المسلمين يبشرهم بانتصاراته ، فأرسل اليه الخليفة المسترشد خلعة التشريف[٦] . وقام عدد من الشعراء المعاصرين بمدحه بقصائد تعد من

---

(١) Runciman, op. cit., 11/151, Nicholson, op. cit.. pp. 1/413.

(٢) Nicholson, op. cit., 1/414.

(٣) زبدة الحلب ٢/١٨٩ – ١٩٠ ، ابن الفرات ، تاريخ (مخطوطة ٢/٢٧) .

(٤) دمشق ص ٢٠١ .

(٥) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٩٠ ، ابن الفرات ، تاريخ (مخطوطة ٢/٢٩) .

(٦) ابن الاثير ، الكامل ١٠ / ٢١٥ ، وقد ورد في بعض المراجع الأوربية (انظر : Runciman, op. cit., 11/151.) أن الخليفة العباسي منح إيلغازي لقب (نجم الدين) ، ولم تذكر المصادر العربية ذلك ، والواقع أن هذا اللقب هو الذي اشتهر به إيلغازي وتكرر ذكره في المصادر العربية . وانظر : العريني ، الحروب الصليبية ، حاشية الجزء الاول ، صفحة ٤٧٤ ، حسن حبشي ، نور الدين والصليبيون ص ١٩ ، وابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٩٢ .

أروع ما قيل في أدب الحروب الصليبية ، منها قصيدة العظيمي المؤرخ :

قل ما تشاء فقولك المقبول　　　وعليك بعد الخالق التعويل

واستنصر القرآن حين نصرته　　　وبكى لفقد رجاله الإنجيل

أخطأ إيلغازي بعدم التوجه مباشرة الى أنطاكية ، ولم يحاول استغلال قلة حماتها وهزيمة الصليبيين ، وأنها غدت فجأة بلا أمير ولا فرسان ولا جيش ، في الوقت الذي أخذ فيه المسيحيون المحليون - السريان والأرمن والأرثوذكس - يتآمرون للخلاص من حكم الصليبيين الغربيين[1] وكان من المرجح أن تسقط أنطاكية بيده دون مقاومة تذكر[2] . ولكن ، كما ذكر ابن القلانسي « وقع التغافل عنها بإحراز الغنائم »[3] وقام إيلغازي بتفريق قواته في بلاد أنطاكية ، لتحقيق انتصارات جانبيـــة عن طريق القتل والنهب والأسر . وكانت تلك البلاد مطمئنة ، ولم يصلها بعد ، خبر هزيمة الصليبيين ، فأخذهم المسلمون على حين غرة ، وحصلوا من السبي والغنائم والدواب ما يفوق الإحصاء « ولم يبق أحد من الترك إلا امتلأ صدره ويداه بالغنائم والسبي »[4] . ولقيت بعض سرايا المسلمين الأميرين بلدوين الرويس وابن صنجيل على رأس قوة من الفرسان ، في طريقها لنجدة روجر ، فأوقع المسلمون بها وقتلوا بعض فرسانها وغنموا مـا قدروا عليه ، وانهزم بلدوين وابن صنجيل واعتصما بالجبـــال المجاورة[5] وقد

---

(١) Stevenson, op. cit., P. 104.

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٩٠ - ١٩١ .

(٣) دمشق ص٢٠١ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٩٠ ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢/٢٩) .

(٥) المصدر السابق ٢/١٩٠ - ١٩١ ، ابن الفرات ٢/٢٩ .

اشترك أمراء بني شيزر في هذه الهجمات ضد المواقع الصليبية ، فقام أسامة بن منقذ على رأس قوة من التركان والعرب بمهاجمة مزارع أفاميه[1] ونهبها ، فتصدت لهم قوة من الصليبيين اضطرتهم الى الانسحاب ، كما توجه أبو العساكر سلطان أمير شيزر للاجتماع بإيلغازي[2] .

عاد إيلغازي ، إثر هذه العمليات الى ارتاح ، وبادر بلدوين فدخل أنطاكية لينظم أمورها ، فسلمت أرملة روجر إليه مقاليد الأمور ، فأخذ أموال القتلى ، وزوج نساءهم بمن بقي ، ونظم قوة عسكرية جديدة ، وزع عليها الإقطاعات وسيطر بواسطتها على الأوضاع في أنطاكية[3] كما أعاد توزيع إقطاعات الرها وأقر جوسلين على حكمها[4] . وكان البطريرك برنارد ، قد تولى أعباء ادارة أنطاكية إثر مقتل روجر ، فقام بتجريد مواطني المدينة من المسيحيين من السلاح ، وفرض منع التجول ليلاً ، ووزع الأسلحة على رجال الدين والتجار من الصليبيين لحراسة أسوار المدينة وأرسل الى بلدوين الثاني يستحثه على القدوم[5] .

وهكذا ضيع إيلغازي فرصة نادرة للاستيلاء على أنطاكية[6] ، وإسقاط

---

(١) أفاميه : مدينة حصينة من إقليم حمص (ياقوت ١/٣٢٢) .

(٢) ابن منقذ ، الاعتبار ص ٤٠ – ٤١ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٩١/٢ .

Runciman, op. cit., 11/152,
Grousset, op. cit., 1/564.

(٤) Nicholson, op. cit., 1/414.

(٥) Runciman, op. cit., 11/151, Grousset. op. cit., 1/561.

(٦) يقدم ابن القلانسي (دمشق ص٢٠١) بعض الاسباب التي تبرر عدم مهاجمة أنطاكية، منها غيبة طغتكين عن المعركة ، وتسرع التركان للمعركة السابقة من غير تأهب .

إحدى الإمارات الصليبية الأربع ، التي قدر لها أن تبقى بعد ذلك حوالي القرنين من الزمن . ولو قدر لإيلغازي تحقيق هذا الهدف ، لتغيرت ، تبعاً لذلك ، وجهة الصراع بين المسلمين والصليبيين ، ولاحتل هذا القائد مركزاً أرسخ وأكثر شهرة في تاريخ الحروب الصليبية ، كذلك الذي احتله زنكي بإسقاطه الرها ، وصلاح الدين بإسقاطه بيت المقدس . ولكن إيلغازي – على أية حال – حقق في معركة (ساحة الدم) نصراً حاسماً على الصليبيين وبه ارتفع الى مركز القيادة في حركة الجهاد ضد الصليبيين ، كما أنه أعقب ذلك بتحقيق سلسلة من الانتصارات الأخرى هيأت للمسلمين في شمال الشام جواً من الهدوء والاستقرار والإنتاج .

وفي ارتاح اجتمع طغتكين بحليفه إيلغازي ، فعاد هذا وتقدم الى الأثارب وهاجم ربضها ونهبه وقتل من قدر عليه . وخرج بعض أحداث[1] حلب واشتركوا في هذه العمليات ، فاضطر أهل الأثارب الى طلب الأمان ، فأمنهم إيلغازي وسيرهم الى مأمنهم واستولى على الأثارب ومن ثم رحل الى زردنا ، وكان الصليبيون قد حصنوها وأحكموا عمارتها فهاجمها إيلغازي . وما أن سمع صاحبها بذلك ، وكان غائباً عنها ، حتى أرسل الى بلدوين الثاني يطلب منه الخروج لإنقاذها ، وانتهاز فرصة تفرق التركمان بالغنائم وعودة أكثرهم الى أهليهم ، وأعلمه أن إيلغازي في عدة قليلة . فلما سمع إيلغازي بذلك جد في قتالها ، فاضطر أهلها الى طلب الأمان ، فأمنهم وسيرهم الى أنطاكية ، ورتب أصحابه في زردنا ، وتوجه بمن بقي معه الى دانيث ، تصحبه قوات طغتكين وطغان أرسلان بن دملاج (أمير إرزن) ، وأعاد الأثقال والخيام الى قنسرين ،

---

(١) انظر الفصل الخامس .

ليكونوا أخف حركة وأكثر إفادة من عامل الزمن . وقد وصل إيلغـــازي وحلفاؤه الى دانيث في نفس اليوم ، فعلم أن الصليبيين كانوا قد عززوها ، إثر فتحه زردنا ، بعدد كبير من الرجالة وما يزيد على أربعمائة فارس وتم اللقاء في الرابع من جمادى الأولى ، فحمل صاحب زردنا ومعظم فرسان الصليبيين على قوات دمشق وحمص فانهزم هؤلاء بين أيديهم ، وحاول صاحب زردنا استغلال الفرصة وانقاذ موقعه والاستيلاء على معدات إيلغازي هناك ولكنه سرعان ما علم بخبر الاستيلاء عليها قبلئذ ، وأن إيلغازي قد أرسل معداته الى قنسرين ، فاضطر الى العودة . وحملت بقية القولت الإسلاميـــة على بلدوين والقوات التي كانت تحت إمرته ، فهزموهم وقتلوا عدداً كبيراً منهم، وحينذاك حمل إيلغازي وحلفاؤه على قلب الصليبيين فكسروهم وقتلوا معظم رجالتهـــم وعدداً من فرسانهم ، وطاردوهم حتى دخلوا حصن هاب للاحتماء به ، فغنم المسلمون أكثر ذخائرهم[١] .

عاد إيلغازي وحلفـــاؤه الى دانيث والتقوا في الطريق بالكونت روبير الأبرص صاحب زردنا[٢] ، تصحبه قوة من الصليبيين كانت قد تغلبت بقيادته على جماعة من العساكر الإسلامية ، فهاجمتهم قوات إيلغازي وهزمتهم وقتلت عدداً منهم بينما لجأ الباقون الى حصن هاب ، وسقط صاحب زردنا عن فرسه ،

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢ / ١٩١ - ١٩٢ ، ابن الفـــرات ، تأريخ (مخطوطة ٢٩/٢) .

Cahen, op. cit., pp. 289—290, Grousset, op. cit., 1/565—570, Nichloson, op. cit., 1/414. Guillaume de Tyr, op. cit., 1/532 — 535.

وانظر خارطة رقم (٢) للاطلاع على المواقع آنفة الذكر .

(٢) وكان يحكم . فضلاً عن زردنا ، صهيون - بين اللاذقية وحماة - ، وبلاطنس - جنوبي صهيون - والمناطق المجاورة . ابن منقذ ، الاعتبار ص ١١٩ .

فأدركه قوم من أهل جبل السماق وقبضوا عليه وحملوه الى إيلغازي بظاهر حلب فأنفذه الى طغتكين حيث قتله صبراً[1] . ويظهر أنه فعل ذلك مجاملة لحليفه طغتكين بسبب العداء المتحكم بينه وبين الامير روبير .

دخل إيلغازي حلب – بعد أن عاد حلفاؤه الى بلادهم – وأحضر الأسرى فافتدى من كان معه مال مثل بعض أصحاب القلاع وابن بوهيمند صاحب أنطاكية وغيرهم ، وبقي من الأسرى نيف وثلاثون رجلاً لم يكن لديهم المال الكافي لافتدائهم ، فقتلهم جميعاً . وتوجه الى ماردين في جمادى الأولى (٥١٣هـ = ١١١٩ م) ، ليحشد التركمان ويعود ثانية الى حلب[2] .

استغل الصليبيون فرصة غياب إيلغازي وتفرق قواته ، ولم تكن في حلب القوة الكافية لردعهم ، فخرجوا الى بلدة المعرة وسبوا بعض أهلها ، ولكن تصدي قوة من الترك لهم اضطرتهم الى الانسحاب[3] . وخرج بلدوين من أنطاكية على رأس قواته واستولى على بعض المواقع العائدة لأمراء شيزر من بني منقذ ، واتجه الى سرمين ومعرة مصرين فاستولى عليهما بالأمان ، ثم هاجم زردنا وقفل عائداً الى أنطاكية . واكتفت قوات حلب طيلة هذه الفترة بشن هجمات متقطعة على القوات الصليبية وحققت بعض الانتصارات كما حصلت على بعض الغنائم . ووصل جوسلين الى خاله بلدوين لدى استيلائه على سرمين ، فسيره هذا الى الرها وتل باشر ، فاتجه جوسلين الى وادي بطنان والجهات

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٩٢–١٩٣ ، ابن منقذ ، الاعتبار ص ١١٩–١٢٠ ، ابن الفرات تأريخ ، (مخطوطة ٢/٢٩) .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٩٣ .

Cahen, Iasyrie do Nord, pp. 289—290.

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢ / ١٩٣ .

الواقعة غربي الفرات فقتل وسبي ما يقرب من ألف رجل ، كما هاجم النقـرة وأعمال حلب الشرقية وغنم ما وجده من الدواب ، وأسر عدداً من الرجال والنساء ، ومن ثم اتجه الى الراوندان ، ليطارد قوة من التركمان كانت قد قطعت الفرات ، ولكن هؤلاء تمكنوا من هزيمة الصليبيين وقتلوا عدداً منهم[١] .

استمر القتال بين المسلمين والصليبيين في شمالي الشام حتى مطلع العـام التالي (٥١٤ هـ = ١١٢٠ م) وحدثت في صفر من هذا العام مشاحنة بين (بلاق ابن اسحق) والي إيلغازي على الأثارب وبين الصليبيين ، فتقدم بلاق على رأس قوة من عسكر حلب الى أنطاكية ، فلقيتهم قواتها وهزمتهم وظلت تطاردهم مسافة بعيدة[٢] .

جمع إيلغازي ، خلال ذلك ، حشداً كبيراً من التركمان ، وقطع الفرات في الخامس والعشرين من صفر وتوجه الى تل باشر وأقام عليها أيامـاً دون أن يقاتلها[٣] ، ومن ثم رحل الى عزاز للاستيلاء عليها، ولم يسمح لأحد من جنده باستغلال ضياعها أو تخريبها ، ولكنه ما لبث أن ابتعد عنها وراح يتنقـل في أعمال الروج ، وهرب كثير من أهـالي المواقع التابعة لأنطاكية وأرسلوا الى

---

(١) المصدر السابق ٢/ ١٩٣ – ١٩٤ ، ابن الشحنة ، المنتخب ص ٢١٨ ، ابن الفرات، تأريخ (مخطوطة ٢ / ٢٩ – ٣٠) .

Cahen, op. cit., pp. 290 — 291.

وانظر الخارطة رقم (٢) للاطلاع على أماكن المواقع آنفة الذكر .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٩٤ – ١٩٥ ، ابن الشحنة المنتخب ص ٢١٨ ،

Runciman, op. cit., 11/158. Cahen op. cit., P. 291.

(٣) في Matthieu D'Edesse, P. 127 انه اجتاح المنطقة بين تل باشر وكيسوم حيث قتل عدداً كبيراً من الصليبيين ، وخرب ضياعهم وقراهم، رغم المقاومة الشديدة التي أبداها جوسلين . عن عاشور ، الحركة الصليبية ١/٥٠٨ .

بلدوين الثـــاني ملك بيت المقدس يطلبون منه نجدة سريعـــة ، فخف الملك لنجدتهم[١] . فكرّ إيلغازي عائداً الى قنسرين وانتشر القلق بين قواتـه من التركان لعدم حصولهم على ما كانوا يؤملونه من الغنائم كتلك التي حصلوا عليها في السنة الماضية ، بسبب عدم اشتباكهم مع الصليبيين . وجرت من إيلغازي إساءة الى بعض التركمان على شيء أنكره عليهم – ربما لإلحاحهـم في الحصول على الغنائم – حيث عاقبهـــم وبالغ في إهانتهم ممـــا دفع الكثيرين منهم الى الانصراف ، وبقي إيلغازي في نفر يسير تفرقوا في أعمـــال حلب ، فاستغل الصليبيون هذه الفرصة ، وتقدموا من دانيث للحصول على بعض المكاسب ، رافضين دعوة إيلغازي الى عقد الصلح معهـــم . ولكن وصول طغتكين على رأس قواته واجتماعه بحليفه ، عزز مركز الأخـير ، فتقدما صوب الصليبيين على رأس ألف فارس وعدد كبير من الرجالة ، وقاما بتطويقهم فلم يخرج إليهما أحد ، بسبب خوف الصليبيين من العودة على أعقابهم فتكون بذلك هزيمتهم ، وأشار طغتكين بالإفراج عنهم كيلا يحملهم الخوف على مجابهة المسلمين والاستماتة في القتال حتى النصر ، فوافقه إيلغازي على ذلك وأتاح لهم الطريق والحركـة بحرية تامة دون أية مضايقة[٢] فسار الصليبيون نحو معـــرة مصرين مجتمعين لا لا ينفرد عنهم فارس ولا راجل ، وأشرف المسلمون على أخذهم ، وراحـــوا يقتلون كل من خرج عن القوات الصليبية او تخلف عنها ، وعندما وصل هؤلاء معرة مصرين واستقروا بها ، عـــاد المسلمون الى حلب ، وأعقب ذلك توجه

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٩٥ – ١٩٦ ، عاشور ، الحركة الصليبية ١/٥٠٨ ، عن Foucher de chaters, op. cit., pp. 445—446.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ٢١٥ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٤٨٨ ، ابن الفرات ، تاريخ (مخطوطة ٢/٣٩) .

الصليبيين الى أنطاكية[1] . وكان لقدوم بلدوين الثاني لنجدة صليبيي أنطاكية أثر كبير في عدم مهاجمة المسلمين لهم[2] .

ونظراً لعدم استقرار إيلغازي في الشام ، وما أصاب قواته من قلق وتذمر ، عقد صلحاً مع بلدوين الثاني ، أمده نهاية عام (٥١٤ هـ = ١١٢١ م) ، تنازل له بموجبه عن مواقعه شرقي العاصي وهي المعرة وكفرطاب والجبل والبارة ، وضياع من جبل السماق وليلون ، ومن بلد عزاز[3] . ومن ثم توجه الى ماردين ليستغل فترة الهدنة في حشد قواته من جديد[4] وأقام بلدوين الثاني في أنطاكية فترة قصيرة نظم خلالها أمورها باعتباره وصياً عليها ، وأولاها اهتماماً بالغاً[5] .

ما لبث إيلغازي أن أمر بهدم زردنا - في شهر ربيع الأول- كي لا يتخذها

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٩٥ - ١٩٦ ، ابن الأثير ، الكامل ١٠/ ٢١٥ ، أبو الفدا ، المختصر ٢ / ٢٤٣ ، ابن الوردي ، تتمة ٢/٢٦ ، الغزي ، نهر الذهب ٣/٨٤ ، الطباخ، تأريخ حلب ١ /٤٣٥ - ٤٣٨ ،

Grousset, op. cit., 1/576, Cahen op. cit., pp. 291—292.

(٢) Runciman, op. cit., 11/158,

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢ / ١٩٦ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢ / ٣٩) ، ابن الشحنة ، المنتخب ص ٢١٨ ، أما ابن القلانسي (دمشق ص ٢٠٢) وسبط بن الجوزي، (مرآة الزمان ٨ / ٩١) فيكتفيان بمجرد الإشارة الى الصلح ، وانظر:

Cahen, op. cit., pp. 291—292. Nicholson, op. cit., 1/415—416, Grousset, op. cit., 1/577.

وانظر خارطة رقم (٢) للاطلاع على أماكن المواقع آنفة الذكر .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢ / ١٩٦ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢ /٣٩) .

(٥) Grousset, op. cit., 1/577, Guillaume de tyr, op. cit.. 1/537.

الصليبيون مركزاً لتهديد حلب[١] ، وكإجراء احتياطي لما قام به الصليبيون من نقض بنود الهدنة ، إذ قبضوا على الفلاحين في المناطق التي آلت اليهم وعاقبوهم وصادروهم وأخذوا منهم من الأموال والغلال ما تقووا به . وكانت الضياع التي بأيدي المسلمين قد عمرت ، لاطمئنان فلاحيها بالصلح ، ولكن جوسلين أمير الرها خرج بقواته في شوال ، وأغار على النقرة والأحص ، وبرر ذلك بقيام والي منبج بأسر أحد أتباعه ، وأنه كاتبه في إطلاقه فلم يجبه الوالي. وراح جوسلين يقتل ويسبي ، وأحرق مناطق واسعة من النقرة والأحص ، ونزل وادي بطنان وعاث فيه ، وأسر المشايخ والعجائز والضعفاء ، ونزع عنهم ثيابهم وتركهم في البرد عراة ، فهلكوا بأجمعهم . ثم سار الى تل باشر وقفل من هناك عائداً إلى إمارته ، حيث حشد قواته وخرج من جديد ليفعل ما فعله في المرة الاولى . فاحتج سليمان بن إيلغازي والي حلب لدى بلدوين الثاني، وأرسل اليه يقول : « إن إيلغازي لم يترك هذه البلاد خالية من العساكر إلا ثقة بالصلح » فأجابه بلدوين الثاني بأن لا حكم له على جوسلين[٢] وأن الأخير لم يدخل في شروط الهدنة[٣] . وتتابعت غارات جوسلين ، وخرج صليبيو أنطاكية ، إثر ذلك ، وأغاروا على بلد شيزر وغنموا شيئاً كثيراً وأسروا جماعة من المسلمين ، وطالبوا ابن منقذ ، أمير شيزر ببعض المناطق ، فاضطر

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٩٦ ، ابن القلانسي ، دمشق ص ٢٠٢ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢ / ٣٩).

Nicholson, op. cit., 1/400. 1/415—16, Grousset, op. cit., 1/577.

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٩٦ – ١٩٧ ،

Cahen, op. cit., P. 292.

(٣) Grousset, op. cit., 1/577.

هذا الى مصالحتهم بمبلغ من المال[١] .

* * *

لم يتمكن إيلغـــازي من العودة الى الشام خـلال هذه السنة (٥١٤ هـ = ١١٢٠ م) ، لمجابهة الصليبيين وتخفيف الضغط عن حلب بسبب انشغـاله مع عدد من أمراء المسلمين في قتال الكرج والقفجاق[٢] ، وكان هؤلاء قد تقدموا بقوات ضخمة ، عبر أرمينية ، للإغارة على المناطق الإسلامية المتاخمة ، فاضطر الأمير طغرل بن السلطان محمد السلجوقي ، حاكم شمالي بلاد فارس الى الاتصال مع الأمراء المجاورين وتم الاتفاق على التقدم لمجابهـة المغيرين ، وكان على رأس هؤلاء الأمراء إيلغازي ودبيس بن صدقة أمير بني مزيد الذي كان ملتجأ عنده. وتوجه هؤلاء الأمراء صوب تفليس[٣] على رأس قوات ضخمة تزيد على الثلاثين ألفاً ، فلما قاربوا تفليس التقوا بقوات الأعداء ، فتولى إيلغازي قيادة الميسرة ودبيس الميمنة وتولى طغرل قيادة القلب .

وقبل أن ينشب القتال خرج من الكرج مائتا رجل حيلة ، فظن المسلمون أن هؤلاء مستأمنون فلم يحذَرُوهم فدخلوا في صفوف المسلمين ورموا بالنشاب ، فاضطربت قواتهم وظن من في الصفوف الخلفية أنهـا الهزيمة فانهزموا ، وتبع الناس بعضهم بعضاً ، واشتد الزحام فقتل عدد كبير من المسلمين ، وتبعهـــم

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٩٧ .

Grousset, op. cit., 1/578.

ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢/٣٩) . وانظر خارطة رقم (٢) .

(٢) الكرج والقفجاق : جماعـــة من معتنقي النصرانية كانوا يسكنون جبال القبق من بلاد أرمينية ولهم ملك (ياقوت ، بلدان ٤/٢٥١ - ٢٥٢) .

(٣) تفليس : بلد بأرمينية وهي قديمة ، تعد قصبة ناحية جرزان (ياقوت ١/٨٥٧) .

الكرج مسافة طويلة يعملون فيهم القتل والأسر الى أن أبادوا أكثرهم وأسروا أربعة آلاف رجل ، وتعرض إيلغازي للقتل أو الأسر لولا استماتة دبيس في الدفاع عنه . ومن ثم عاد إيلغازي ودبيس وبقية الأمراء بما تبقى من قواتهم الى بلادهم، واتجه الكرج لنهب المناطق المجاورة لتفليس، وحاصروها وفتحوها عنوة في مطلع العام التالي (٥١٥ هـ = ١١٢١ م)[١] .

وهكذا أسهم إيلغازي في هذه الحرب التي كادت أن تقضي عليه، ذلك أنه أدرك أن زحف العدو لم يكن يشكل خطراً على إمارة إسلامية دون الأخرى وإنما هو خطر مشترك على كل الإمارات المتاخمة ، ولذا بادر بالنجدة على رأس قواته مستصحباً معه حليفه دبيس ، وقد كلفه ذلك كثيراً من قواته ، ولكنه أوضح مدى استعداده لتحمل مسؤوليته في الدفاع عن المناطق الإسلامية .

وقدر السلطان السلجوقي والخليفة العباسي دوره هذا وأرسلا اليه يهنئانه على سلامته من المعركة[٢] .

تمادى الصليبيون في أعمالهم، مستغلين فرصة غياب إيلغازي في ديار بكر،

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ١٠/٥١٥ ، ابن العبري ، مختصر ص ٣٥٠ – ٣٥١ ، الذهبي، دول الإسلام ٢/٢٩ ، العبر ٤/٣١ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ١٠٤ – ١٠٥ ، ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٠٢) ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢ / ٣٧ – ٣٨) ، ويذكر ابن العديم (زبدة الحلب ٢/١٩٩ – ٢٠٠) أن المسلمين انتصروا في البدء ودخلوا المضايق وراء أعدائهم ، وما لبث أن كر عليهم هؤلاء وهزموهم . وكذلك يرد في ابن القلانسي (دمشق ص ٢٠٤ – ٢٠٥) ، ويخطىء سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ١٠١ – ١٠٢) في جعل هذه الحادثة عام ٥١٦ هـ وانظر :

Cahen, Iasyrie do Nord, pp. 292—293.

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ٩/٢٢٧ .

وانهماكه في حربه ضد الكرج والقفجاق ، فخربوا المناطق المحيطة بحلب واستولوا على معظمها . وأغار جوسلين على صفين وسبى المسلمين ، ونزل على بزاعة وقاتلها وأحرق بعض جهاتها ، فصونع بمبلغ من المال وعاد الى بلاده. وفي صفر في العام التالي (٥١٥ هـ = ١١٢١ م) ، شن هجوماً على الأثارب فقتل عدداً كبيراً من المسلمين ، وأحرق البلد وأسر من لم يستطع اللجوء الى القلعة . وفي ربيع الآخر زحف الصليبيون على الأثارب - ثانية - وأحرقوا الدور والفلال[١].وسار بلدوين وأغار على حلب وغنم أشياء كثيرة من أطرافها وأسر نحواً من خمسين أسيراً ، فتصدت له قوة من الحلبيين استنقذت ما غنمه من مواشي ، واضطرته الى التراجع[٢] .

ما أن علم الصليبيون بهزيمة إيلغازي حتى شددوا قبضتهم على حلب ، فشن بلدوين الثاني هجوماً على أطرافها مما اضطر إيلغازي إلى أن يكتب الى ابنه سليمان - نائبه في حلب - وبقية الأمراء هناك ، يأمرهم بصلح الصليبيين على ما يريدون . فعقد الصلح ، وحصل الصليبيون بموجبه على سرمين والجزر وليلون وأعمال الشمال ونصف الجهات الزراعية المحيطة بحلب ، ونصت بنود الصلح على القيام بهدم تل هراق بحيث لا يبقى للطرفين فيه حكم . وطالب الصليبيون - كذلك - بالأثارب ، فأجابهم إيلغازي الى ذلك ولكن سكانها

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢ / ١٩٧ - ١٩٨ ، ابن الفرات ، تاريخ (مخطوطة ٣/ ٤٨ - ٤٩) .

Cahen, op. cit., p. 292. Grousset, op. cit., 1/578.

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢ / ١٩٨ - ١٩٩ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢/ ٤٨ - ٤٩ . Cahen, op. cit,, P. 292,

رفضوا تسليمها لأعدائهم فبقيت بأيدي المسلمين[1] وقد تولى جوسلين أمير الرها عقد الصلح من جهة الصليبيين ، أما بلدوين الثاني فكان غائباً ، وقد أقر بشروط الصلح لدى وصوله ، وشرع في عمارة دير قديم بالقرب من سرمدا ، كان قد أصابه الخراب ووهبه لسير الان دمسخين[2] .

★ ★ ★

وعندما عصى سليمان على أبيه (في نفس العام) ، وأعلن الاستقلال[3] قام بالتقرب من الصليبيين للاحتماء بهم ضد أبيه ، فطمع هؤلاء واستغلوا الفرصة ، فعمروا زردنا التابعة لهم ليتخذوها نقطة انطلاق ضد حلب ، ثم تقدموا صوب حلب وهاجموا في طريقهم خيام قبيلة طي ، فتصدت لهم قوات حلب وهزمتهم وقتلت منهم جماعة . وخرج بلدوين في جمادى الآخرة فنازل خناصرة واستولى عليها وخربها ، وكذلك فعل بعدد من المواقع الأخرى وأحرق ونهب . وعاد فنزل في صلدع على نهر قويق ، فخرج اليه أحد أمراء حلب طالباً منه عقد الصلح مع سليمان بن إيلغازي ، فأجابه بلدوين قائلا : « على شرط أن يعطيني سليمان الأثارب حتى أحفظه ، وأنا أذب عنه وأقاتل دونه ، فقال له مندوب سليمان : ما يجوز أن نسلم ثغراً من ثغور حلب .. بل التمس غير هذا مما يمكن ليوافقك عليه . فقال له : الأثارب لا يقدر صاحب حلب على حفظها فإني قد عمرت عليها الحصون من - جميع جهاتها - » . ولم تسفر المفاوضة عن نتيجة لإصرار بلدوين على أخذ الأثارب ، لذلك توجه اليها

---

(١) ابن العديم ، المصدر السابق ٢ / ١٩٨ - ١٩٩ ، ابن الفرات ٢/٤٨ - ٤٩ .
Runciman, op. cit., 11/159—161 , Grousset, op. cit., 1/578.

(٢) ابن العديم ، المصدر السابق ١٩٩/٢ ، وانظر خارطة رقم (٢) .

(٣) انظر التفاصيل في الفصل الاول .

وحاصرها ثلاثة أيام ، ولكن أموراً حدثت في أنطاكية أوجبت رحيله عنها[١] .

قدم إيلغازي الى حلب للقضاء على عصيان ابنه ، وبعد أن تم له ذلك ، نظم أمور الإدارة والمالية هناك ، ثم عقد صلحاً جديداً مع الصليبيين ، أمده سنة كاملة ، تنازل لهم بموجبه عن عدد من المواقع الإسلامية[٢] .

وكان غرض إيلغازي من هذه الهدنة هو كسب الوقت كيما يعود الى ديار بكر ويحشد قواته ليعيد الكرة على الصليبيين وقد تم له ذلك في مطلع سنة (٥١٦ هـ = ١١٢٢ م)[٣] .

لم يلبث إيلغازي أن حشد عدداً كبيراً من القوات التركمانية ، واستدعى ابن اخيه (بلك بن بهرام) من إمارته في بلاد الروم - خرتبرت وما جاورها « دون ما جرت به عادته باستصحابه[٤] » ومن ثم عبر الفرات في السابع عشر من ربيع الآخر سنة (٥١٦ هـ = ١١٢٢ م) ، ونازل زردنا في جمادى الأولى مستغلاً فرصة خروج بونز أمير طرابلس عن طاعة ملك بيت المقدس وتوجه هذا الى طرابلس لانتزاع يمين الولاء من غريمه[٥] . واستمر حصار إيلغازي

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٠٠ - ٢٠٢ .Cahen, op. cit., P. 293

(٢) زبدة الحلب ٢/٢٠٣ .

ويخطىء عاشور ، الحركة الصليبية ١/٥٠٩ ، في القول بأن سليمان تنازل للصليبيين أثناء عصيانه عن زردنا والأثارب لدى عقده الصلح معهم . اذ أن الاولى كانت بيد الصليبيين من قبل والثانية سلمت اليهم بعد وفاة إيلغازي ، وانظر خارطة رقم (٢) .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٠٣ .

(٤) المصدر السابق ٢/٢٠٣ .

(٥) Nicholson, op. cit., 1/417.

لزردنا عدة أيام استولى خلالها على بعض مناطق بلدها ، وكان أميرها قد عرف لدى عبور إيلغازي الفرات ، أن موقعه سيكون الهدف الأول لهـذا التحرك .

فجمع أصحابه واستحلفهم على الصبر مدة خمسة عشر يومـاً ، وحلف هو لهم على التزامه بنجدتهم ومغادرة المدينة لحشد الصليبيين « فإن جازت هذه المدة ولم يصلهم فانه يبتاع دماءهم بكل مـا يملكه . وقال لهم : والله لكم علي مـن الشاهدين لئـــن لم يخلصكم إلا إسلامي إن قبله – يعني إيلغازي – أسلمت على يديه لخلاصكم » ، وخرج حتى التقى ببلدوين، وهو في أطراف طرابلس يتفاوض مع صاحبها ، فأخبره بقصد إيلغازي لزردنا ، فقال : قد حلفنا له وحلف لنا ، ما نكثنا ، وحفظنا بلده في غيبته ، ونحن شيوخ ، وما أظنه يغدر ، بل ربما قصد طرابلس أو قصدني في القدس لأنني ما صالحته إلا على أنطاكية وأعمالها ، بل يجب أن تعود الى أفاميـه وكفرطاب وتكشف مـــا يتجدد[1] » . فعاد صاحب زردنا واستطلع تحركات إيلغازي ، ومن ثم أرسل الى بلدوين وأعلمـــه بنزول إيلغازي على زردنا ، فاضطر بلدوين لمصالحة أمير طرابلس وشرط عليه الاشتراك معه لدى نشوب القتال ، ومن ثم توجه الى أنطاكيـــة ، واستدعى جوسلين ، وتقدم من هناك صوب زردنا ، فلما بلغ إيلغازي ذلك، ترك الحصار وتوجه نحوهم، فنزل منطقة تدعى نواز وطلب من الصليبيين أن يخرجـوا من المضيق الذي عسكروا فيه الى الأرض المكشوفة ، فلم يستجيبوا له، فرحل الى تل السلطان ، وكان طغتكين قد التحق به ، فخرج الصليبيون وهاجموا ربض الأثارب وأحرقوا بيادرها وهدموا جدرانها ، واحتمى صاحبهـــا يوسف بن ميرخان بقلعتها ، فتركها الصليبيون ، ونزلوا على دانيث وأقاموا هنـاك ، فلم يتقدم اليهم أحد من المسلمين ، فغادروها الى أنطاكية، إذ شعروا بعدم جدوى

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٠٣ – ٢٠٥ .

بقائهم . فعاد إيلغازي ونازل زردنا ثانية وقتل جماعة من جندها ، وإزاء ذلك تجمع الصليبيون ثانية وتوجهوا للقاء إيلغازي ، فرحل إلى نواز وأقـــام هناك ثلاثة أيام يزاحف الصليبيين دون أن يخرج هؤلاء الى الصحراء ، وحدث أن أصيب إيلغازي بمرض في معدتــه آنذاك فاضطر الى العودة الى حلب ، بينما عاد كل من بلك وطغتكين إلى بلادهما . وإذ كان إيلغازي يعالـــج مرضه في حلب ، خرجت قوة من الحلبيين قوامها ألف فارس الى أعمـــال عزاز ونهبوا المنطقة ثم عادوا « فهاجمهـــم صاحب عزاز ، وبصحبته أربعون فارساً ، على حين غفلة فانهزم المسلمون وقتل منهم جماعة . وفي شعبان خرجت قـــوة من الصليبيين من تل باشر وهاجمت تل قباسين ، فتصدى لها نائب بزاعة وأهاليها ، ولكن المسلمين انهزموا وقتل منهم تسعون رجلاً . وإذ أحس إيلغازي بتحسن صحته غادر حلب عائداً الى ميافارقين ، لكن المرض ما لبث أن اشتد به في الطريق فتوفي في إحـدى قرى ميافارقين في أول رمضان سنة (٥١٦ هـ = ١٢٢٢ م)[(١)] .

فقد المسلمون بوفاة إيلغازي قائداً شديد المراس وعسكريـاً بعيد النظر ، استطاع بإمكانياته الشخصية ، وبالعدد الكبير الذي يواليه من التركمان ، أن يقود حركة الجهاد طيلة خمس سنوات ، ويذكر ابن الفرات أن الحلبيين عندما علموا بوفاته « عظم عليهم مصابه وأغلقوا الأبواب ، وأيقنوا بتوالي الشدائد

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٠٣ – ٢٠٦ ، الطباخ، تأريخ حلب ١/٤٤٢–٤٤٥، واكتفى ابن القلانسي (دمشق ص ٢٠٧) بالإشارة الى تحركات إيلغازي .

Guillaume de Tyr, op. cit., 1/537, Cahen, op. cit., pp. 294—95, Crousset, op. cit., 1/581—83, Runciman, op. cit., 11/161, Nicholson, op. cit., 1/417—418.

وانظر خارطة رقم (٢) .

عليهم ، لأن إيلغازي كان قد حسم مادة الفرنج عن حلب وقطع أطماعهم فيها ...»[1] ، ولولا قيام نور الدولة بلك بن بهرام بإتمام الدور الذي بدأه إيلغازي لكان من المحتمل أن تنتهي مرحلة قيادة الأراتقة للجهاد بوفاة إيلغازي ، ولكن بلك ، الذي كان يمتلك نفس الأسباب الشخصية والعسكرية التي كان يمتلكها سلفه ، استطاع أن يمضي في توجيه الضربات للصليبيين . وكان لاصطحاب إيلغازي له في هجومه الأخير على معاقل أعدائه أثر بالغ في تسلمه القيادة العسكرية للأراتقة بعد وفاة عمه ، إذ كان اصطحابه بمثابة توصية من إيلغازي في أن تكون القيادة لبلك من بعده .

حاول الصليبيون استغلال فرصة وفاة إيلغازي ، وانقسام إمارته بين أبنائه ، وانعزال حلب عن القوى التركمانية في ديار بكر ، لتحقيق انتصارات سريعة على المسلمين في شمالي الشام ، فحشد أمير أنطاكية قواته وجماعة من الأرمن ، ونزل وادي بزاعة شمال شرقي حلب ، وعاث فيه وأفسد ، فقدم إليه أهاليه مبلغاً من المال ، فرحل الى بالس ، جنوبي شرقي حلب ، وهاجمها بالمناجيق ، وطلب من أهلها دفع مبلغ من المال اليه وأسرف في الطلب ، فتصدت له قوة مشتركة من التركمان وفرسان حلب كانوا مرابطين في بالس أرغمته على الانسحاب ، حيث توجه إلى البيرة وحاصرها واستولى عليها ، بعد أن أمن أهلها ، إلا أنه ما لبث أن أخذهم أسرى الى أنطاكية . وتتابعت غارات الفرنج حول حلب الى آخر سنة ٥١٦ هـ = ١١٢٢ م)[2] ، وبذلك غدت شبه محاصرة بممتلكات الصليبيين وقواتهم[3] وكانت – حلب – قد انتقلت

(١) ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٦٦/٢) .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢٠٩/٢ ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٦٧/٢) .

(٣) Cahen, op. cit., p, 295, Nicholson. op. cit., 1/418.

بعد وفاة إيلغازي الى ابن اخيه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق[١] .

استطاع بلك أن يشل تحركات الصليبيين ويفقدهم القدرة على توجيه ضربة حاسمة ضد المسلمين ، وذلك بالانتصار الذي حققه على قوات الرهـا في رجب سنة (٥١٦ هـ = ١١٢٢ م) - خلال مرض عمه إيلغازي - ، فقد تقدم ، إثر عودته من زردنا الى الرهـا وفرض الحصار عليهـا ، مستغلاً فرصة انشغال الصليبيين بتحركات إيلغازي في شمال الشام ، ولكنه لقي مقاومـة عنيفة من حاميتها الصليبية ، فاضطر الى الانسحاب بعد فترة طويلة من الحصـار[٢] . ولكن صليبيي الرها لم يطمأنوا لانسحاب بلك ، واعتقدوا بأنه لا بد أن يعيد الكرة عليهم فأرسلوا الى جوسلين ، الذي كان آنذاك في البيرة يلهو مع أميرها جاليران لي بوازيه ، يخبرونه بما حدث ، فخـاف جاليران من قرب بلك من حدود أمارته وأخذ يحث جوسلين على القيام سوية لمجابهة عدوهما[٣] . وتقدم أحد أتبـاع بلك وأخبر سيده بأن جوسلين قد جمع قواتـه من الصليبيين وهو عازم على مهاجمته . وكانت قوات بلك قد تفرقت عنه ، وبقي هو في أربعمائة فارس ، فاستعد للقائهم بالقرب من سروج[٤] ، بعد أن اطلع على خطتهـم ، ونصب لهم كميناً في أرض موحلة مشبعة بمياه الأمطار. وما أن تقدم الصليبيون نحوه حتى غاصت قوائم خيولهـم في تلك الأرض ، ولم تتمكن من الإسراع

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٠٩ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢/٦٧) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ٢٢٥ ، أبو الفدا ، المختصر ٢/٢٤٦ ، ابن الوردي ، تتمة ٢/٢٨ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٤٢٢ ، الطباخ ، تاريخ حلب ١/٤٤٢ .

(٣) Grousset, op. cit., 1/583 — 584, Runciman, op. cit., 11/161, Nicholson op. cit., 1/418.

(٤) ابن الأثير ، الكامل ١٠/٢٢٥ - ٢٢٦ .

بسبب ثقل الأسلحة والفرسان ، فسلط عليهم بلك وابلاً من السهام ، فلم يفلت منهم إلا القليل ، وأسر جوسلين . وعرض عليهم بلك إطلاق سراحهم مقابل التنازل عن الرها وبعض المواقع المجاورة فرفضوا وقالوا : « نحن والبلاد كالجمال والحدج – الحمل – متى عقر بعير حُوّل رحله الى آخر ، والذي بأيدينا قد صار بيد غيرنا[١] » . وطلب جوسلين منه افتداء نفسه بمبلغ كبير من المال وعدد من الأسرى ، فرفض بلك ، وحمل أسراه الى خرتبرت حيث اعتقلهم هناك[٢] ، وغدت الرها تحت وصاية بلدوين الثاني ملك بيت المقدس أسوة بأنطاكية . وقد قام بلدوين بتعيين جفري الراهب صاحب مرعش أميراً على الرها على أن يتضح مصير جوسلين[٣] .

شدد بلدوين الثاني هجماته على حلب وأعمالها ، وأكثر فيها التخريب والتحريق مما اضطر أميرها سليمان الأرتقي الى طلب الصلح من بلدوين « إذ لم يكن له بالفرنج قوة »[٤] ، مقابل التنازل للصليبيين عن حصن الأثارب القريب من حلب ، وتوقف هؤلاء عن مهاجمة بلاده ، فوافق بلدوين الثاني على ذلك وتم عقد الصلح في العاشر من صفر سنة (٥١٧ هـ = ١١٢٣ م) حيث تسلم

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٠٦ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢/٤٨) .

(٢) المصدر السابق ٢/٢٠٦ ، ابن الأثير ، الكامل ١٠/٢٢٥ – ٢٢٦ ، (وهو يخطىء في جعل هذه الحادثة عام ٥١٥ هـ ، ويكرر هذا الخطأ في ١٠/٢٣٤) وانظر ابن القلانسي (دمشق ص ٢٠٨) أبو الفدا ، المختصر ٢/٢١٦ ، ابن الوردي ، تتمة ٢ / ٢٨ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٤٢٢ – ٤٨٩ ، ابن كثير ، البداية ١٢/ ١٨٨ .

Runciman, op. cit., 11/161, Grousset, op. cit., 11/583—584, Nicholson, op. cit., 1/418.

(٣) Nicholson, op. cit., 1/418.

(٤) ابن الاثير ، الكامل ١٠/٢٣٢ .

الصليبيون الأثارب[1] وعينوا عليها سير آلان دمسخين[2] ، ومن ثم استقامت أحوال الرعية بأعمال حلب وجلبت اليها الأقوات[3] .

قوي مركز بلدوين الثاني إثر الصلح الذي عقده مــع أمير حلب والذي مكنه من إعادة حدود إمارة أنطاكية الى ما كانت عليه قبل عام (٥١٢ هـ = ١١١٨ م) ، فقرر التحرك لقتال بلك وتخليص قلعة كركر[4] التي كان الأخير يحاصرها آنذاك والتابعة لإمارة الرهــا ، وتقع على نهر الفرات بالقرب من خرتبرت ، ولدى وصول قوات بلدوين الثاني الى المنطقة عسكرت على الضفة الشرقية لنهر سنجة - أحد فروع الفرات - تجاه معسكر بلك ، ودار القتال بين الطرفين ، يوم الأربعاء التــاسع عشر من صفر ، (٥١٧ هـ = ١١٢٣ م) ، فانهزم الصليبيون بالرغم من أن عدد قوات بلك كان أقل منهم ، وأسر بلدوين الثاني ، وقتل عدد كبير من قواته ومقدميه ، كما نهبت خيامه ، ومن ثم تقدم بلك وفتح حصن كركر ، واعتقــل بلدوين في قلعة خرتبرت ، بمعيّة جوسلين وجاليران وبقيــة الفرسان الصليبيين الذين أسروا عــام (٥١٦ هـ = ١١٢٢ م)[5] .

★ ★ ★

---

(١) المصدر السابق ١٠ / ٢٣٢ - ، ابن القلانسي ، دمشق ص ٢٠٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢١٠ ، أبو الفدا ، المختصر ٢ / ٢٤٨ ، ابن الوردي ، تتمة ٢/٣١ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢/٧٦) .

Grousset, op. cit,, 1/585.

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢١٠ .

(٣) ابن القلانسي ، دمشق ص ٢٠٩ ، ابن الأثير ، الكامل ١٠/٢٣٢ .

(٤) كركر : حصن بين سميساط وخرتبرت (ياقوت ٤/٢٩٢) .

(٥) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢١٠ - ٢١١ ، الاثير ، الكامل ١٠/٢٣٣ - ٢٣٤ ، =

اضطرب وضع الصليبيين إثر هذه الهزيمة إلى حد كبير ، لأن بلدوين الثاني لم يكن ملك القدس فحسب وإنما كان وصياً على إمارتي الرها وأنطاكية كذلك ، ومع ذلك فإن الكيـــان الصليبي لم يهو بمجرد أسره ، فاستمر الأمير جفري الراهب قائماً بإدارة شؤون الرها ، وقـــام البطريرك برناردي فالنس بتسيير أمور أنطاكية ، بينما قام الكند ستابل يوستاس جارنييـــة ، صاحب طبريا وصيدا ، بتسيير أمور بيت المقدس ، وعندما توفي حل محله وليم دي بور[1] .

عمل بلك ، طيلة الأشهر التالية، على تقوية إمارته وإضافته حصون جديدة اليها ، كي يتمكن من مجابهـــة الصليبيين وتحويل المعركة الى الشام . فتقدم الى حران وحاصرها واستولى عليها في ربيـع الأول[2] ، ومن ثم طمح للاستيلاء على حلب . وكان قد بلغه أن صاحبها – بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار – قد سلم قلعة الأثارب الى الفرنج فعظم ذلك عليه وعلم عجزه – أي سليمان – عن حفظ بلاده ، فاشتدت رغبته في الاستيلاء عليها[3] ، وتوجه اليها في ربيـع الأول إثر

= ابن القلانسي، دمشق ص ٢٠٩، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان ١١١/٨، ابن خلدون، العبر ٤٢٢/٥ – ٤٢٣ .

Runciman, op. cit.. 11/165, Grousset, op. cit., 1/587—588, Guillaume de Tyr, op. cit., 1/540—4541.

(١) Grousset, op. cit., 1/588, Runciman, op. cit., 11/163, Nicholson, op. cit., 1/421.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ٢٣٢/١٠ – ٢٣٤ ، ابن القلانسي دمشق ص ٢٠٩ ، ابن شداد، الاعلاق (مخطوطة ١٧ ب) ، ابن العديم ، زبدة الحلب ٢١٢/٢ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٤٢٢ – ٤٢٣ ، ٤٩٠ ، ابن الشحنة ، المنتخب ص ٢١٨ ، وهـــو يخطىء في استبدال اسم بلك بسلطان شاه ، وربما كان هذا خطأ من الناسخ ، إذ يذكر المؤلف بعد ذلك كل الأحداث التي شهدها بلك ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢ / ٧٦ – ٧٨) .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ٢٣٢/١٠ – ٢٣٣ .

انتهائه من أمر حران . وكان يدرك أن جهاده للصليبيين لن يحقق أية نتيجة حاسمة ، ما لم يضم حلب الى إمارتـــه كي تكون له قاعدة في بلاد الشام ، كما حدث في عهد إيلغازي، الذي تمكن بضم حلب إلى إمارته من تحقيق انتصارات عديدة ضد الصليبيين . ويؤكد هذا الرأي ما قاله بلك لأحد أمراء حلب قبيل استيلائه عليها : « ما غرضي بحلب الملك ، إنما أريد أن أكشف الفرنج عنها ، وأنا أعطيك عهـــداً أنني إذا دخلت حلب لا يكون لي هم إلا لقـــاء الفرنج وكسرتهم[1] . لذا لجأ بلك الى استخدام العنف لتحقيق هـذا الهدف في أقصر وقت كي يتفرغ لقتال الصليبيين ، ففرض عليها الحصار وأحرق غلتها واستولى على دوابها ، وقتل عدداً من الموالين لها في المناطق المجاورة ، وسبى نساءهـــا وأولادها كي يلقي الرعب في قلوب الحلبيين ، وأدى احراقه للغلال الى انتشار الغلاء في المنطقة . وفي صباح الثلاثاء غرة جمادى الأولى ، تسلم بلك مدينه حلب بالأمان بالاتفاق مـع بعض أمرائها[2] ، ونودي بشعار بلك من عدة جهـات ، وفي يوم الجمعة الرابع من جمادى الأولى (٥١٧هـ = ١١٢٣ م) ، تسلم القلعـة ونزل بها بعد يوم من مغادرة سليمان بن عبد الجبـــار ، فنظم أمورها ، وسير سلطان شاه بن رضوان الى حران خوفاً من أن يثير المشاكل في حلب[3] .

بعد استتباب الامور لبلك في حلب بدأ بشن سلسلة من الهجمات على المواقع

---

(١) ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢/٧٧) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٠/٢٢٣ — ٢٣٣ ، ابن العديم، زبدة الحلب ٢/٢١١ — ٢١٢ ، ابن القلانسي ، دمشق ص ٢٠٩ ، أبو الفدا ، المختصر ٢/٢٤٨ ، ابن الوردي ، تتمة ٢/٣١ ، ابن العبري، مختصر ص ٣٥١ — ٣٥٢ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٤٩٠ ، الغزي ، نهر الذهب ٣/٨٥ ، الطباخ ، تأريخ ١/٤٤٧ — ٤٤٨ ، ابن الفرات ، (مخطوطة ٢ / ٧٧ — ٧٨) .

(٣) انظر الهامش السابق .

الصليبية القريبة منها ، فتوجه الى البارة وهاجمها ، وأسر حاكمها الأسقف الذي كان شديد الأذى على المسلمين ، وقيده ووكل به من يحرسه ، وغادر المكان . إلا أن الأسقف سرعان ما تمكن من الهرب الى كفر طاب . فقرر بلك مهاجمة الحصن واسترجاع الأسقف وذلك في الثاني عشر من جمادى الآخرة[1]، إلّا أن نبأ ورده مفاده أن بلدوين الثاني وجوسلين وجاليران وابن اخته تنكريد ، وغيرهم من الأسرى المعتقلين بجب خرتبرت ، قد تمكنوا من الهرب بمساعدة الأرمن من أهالي البلد . فقد كان جوسلين محبوباً من الأرمن ، ليس فقط لزواجه من امرأة أرمينية ، بل لإحسانه اليهم وكرمه في معاملتهم ، على العكس من معاملة سلفه بلدوين الثاني التي سادها الاضطهاد والتنكيل ، فضلاً عن أن خرتبرت كانت تقع في منطقة أرمينية ، مما دفع أهلها الى تدبير مؤامرة للاستيلاء على القلعة وإطلاق سراحه[2] ، فتمكنوا من مباغتتها والسيطرة عليها « وأخذوا كل ما كان لبلك فيه ، وكان جملة عظيمة . فقال جوسلين : كنا قد أشرفنا على الهلاك ، والآن فقد خلصنا والصواب أن نمضي ونحمل ما قدرنا عليه »[3] فرفض بلدوين مغادرة الحصن. وأخيراً اتفق رأيهم على خروج جوسلين لطلب النجدة وحلّفوه على أن لا يغير ثيابه ولا يأكل لحماً أو يشرب خمراً ، إلّا بعد أن يجمع جموع الفرنج ويصل بهم الى خرتبرت ويضمن

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢١٢ – ٢١٣ ، العظيمي ، تأريخ ورقة ٢٠١ (حاشية الزبدة ٢/ ٢١٣) ، ابن القلانسي دمشق ص ٢٠٩ – ٢١٠ ، ابن الشحنة ، المنتخب ص ٢١٨ ، ويخطىء سبط بن الجوزي (مرآة الزمان ٨/١١١) في الإشارة الى أن بلك قتل الأسقف ، إذ لم يرد ذلك في بقية المصادر ، ويشير ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢ / ٧٨) الى أن بلك ثأر لهروب الأسقف بقتل عدد كبير من أسرى الفرنج .

(٢) Runciman, op. cit., 11/163—164.

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢١٣ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢/٧٦ – ٧٨) .

خلاصهم[1] .

حشد بلك ، لدى سماعه بذلك ، قوات ضخمة في سرعة مدهشة[2] وأسرع بالتقدم الى خرتبرت ، فنزل عليها وفتحها عنوة في الثالث والعشرين من رجب (٥١٧ هـ = ١١٢٣ م) ، وقتل معظم من كان بها من أصحابه — أي الأرمن — الذين كفروا نعمته ، ومن الصليبيين ، ولم يبق سوى كبار أسراه حيث سيرهم الى حران واعتقلهم هناك[3] .

مضى جوسلين الى القدس وحشد عدداً من القوات الصليبية وتقدم بهم الى تل باشر وهناك سمع خبر فتح خرتبرت عنوة ، فسار صوب حلب ليستغل فرصة غياب بلك عنها ويدمر ما يستطيع تدميره انتقاماً وتشفياً ، فاتجه الى بزاعا وقطع أشجارها وأحرق المنطقة المحيطة بها ، ثم تقدم الى حلب من الجهة الشمالية وخرب المشاهد والبساتين ، وهزم جماعة من سكان المنطقة ، وقتل وسبى حوالي عشرين نفراً ، ثم رحل ونزل في الجانب الغربي وخرب مشاهده وبساتينه ونبش أحد الأضرحة وألقى فيها النار . وكان الحلبيون يخرجون يومياً « ويقاتلونه أشد القتال فيخسر معهم في كل حركة »[4] . وما لبث أن ترك

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢١٣ .

(٢) Grousset, op. cit., 1/589—94, Runciman, op. cit., 11/163—65, Nicholson op. cit., 1/419—20.

(٣) ابن القلانسي ، دمشق ص ٢٠٩ — ٢١٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ٢ / ٢١٣ ، ابن الاثير ، الكامل ١٠ / ٢٣٣ — ٢٣٤ ، ويخطىء في القول بأن بلدوين الثاني هو الذي هرب الى بلاه بدلاً من جوسلين ، ابن الوردي ، تتمة ٢/٣١ . ابن خلدون ، العبر ٥ / ٤٢٢ — ٤٢٣ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢/٧٦ — ٧٧ ، ٧٨) .

Grousset, op. cit., 1/589—94, Nicholson, op. cit., 1/419—420, Runciman' op. cit., 11/163—165.

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢١٤— ٢١٥ .

المكان في مستهل رمضان ونزل منطقة السعدي وقطع أشجارها، وقتل عدداً من أهاليها . ورد القاضي ابن الخشاب ، المسؤول عن حلب ، على هذه الأعمال بأن أصدر أمراً ، أقرّه مقدمو حلب ، بهـدم محاريب الكنائس العائدة للنصارى وتحويلها الى مساجد . وكان بلك خلال ذلك كله غائباً عن حلب في ديار بكر. وخرج جوسلين في التاسع عشر من رمضـــان الى الوادي والنقرة والأحص واستولى على ما يزيد عن خمسمائة فرس من أحد مواضع الخيول جنوبي حلب «حتى لم يبق في حلب من الخيالة الا خمسون فارساً لهم خيل» كما استولى على عدد لا يحصى من البقر والغنم والجمال ، وقتل وسبى وخرب ومن ثم عـــاد الى تل باشر [1] .

وخرج سيرالان دمسخين – صاحب الأثارب – على رأس قـوة من صليبي أنطاكية واتجه نحو حلب واستولى على ثلاثمائة فرس ، وهي جـل ما تبقى من خيل حلب ، كما نهب قافلة للغلال كانت قادمة من شيزر . وكان جوسلين آنذاك قد قطع الفرات صوب مقاطعة شبختان الواقعة جنوب ديار بكر وأغار عـلى التركمان والأكراد في تلك المقاطعة ، ونهب ما يزيد على العشرة آلاف رأس من الأغنام والخيول ، وسبى وقتل ، وخنق الأهالي بالدخـان في المغارات ، وفتح المقابر وسلب الموتى أكفانهم . وفي حلب كان بعض جندها ، ممن سلموا عـــلى خيولهم ، يخرجون مع اللصوص ويغيرون على معسكرات الصليبيين ويأسرون بعض جندهم ثم يعودون [2] .

حشد بلك ، خلال هذه الفترة ، عدداً كبيراً من المقاتلين، ووصله ضغتكين

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢١٤ – ٢١٥ .

(٢) ابن العديم ، المصدر السابق ٢/٢١٥ – ٢١٦ .

والبرسقي – حاكم الموصل – على رأس قواتها ، ومن ثم عبر وحلفاؤه الفرات ونزلوا على عزاز وحاصروها وفتحوا فيها بعض الثغرات حتى سهل أمر فتحها، وإذ ذاك تجمع الصليبيون وتوجهوا صوب المسلمين ليجلوهم عنها ، ودار القتال بين الفريقين فانهزم المسلمون وتفرقوا بعد أن قتل وأسر عدد من أفرادهم ، فاضطر بلك الى إعادة تحصين بعض المواقع ليتخذها مراكز في عملياته ضد الصليبيين . فعمر حصن الناعورة [1] وحصن المغارة على شط الفرات . وكي يعزز شرعية حكمه لحلب تزوج بفرخنده خاتون ابنة رضوان في ذي الحجة عام (٥١٧ هـ = ١١٢٤ م) ، كما قبض فور وصوله ، على نائب بهرام داعي الباطنية في حلب وأمر بإخراجهم منها فباعوا أموالهم ورحالهم وغادروها [2]. وقام بإصلاحات إدارية شامله ، وتمكن من القضاء على فوضى قطاع الطرق، ونشر الأمن «وأقام الهيبة العظيمة ، وتقدم بفتح أبواب حلب ليلاً ونهاراً وحسم مادة أرباب الفساد »[3]. وبهذه الخطوات أمن بلك النشاط الاقتصادي ، في حلب والمناطق المجاورة ، وجعلها عاصمة له في بلاد الشام وقاعدة مستقره لتوجيه الضربات ضد الصليبيين . وكان قد نقل عند عودته بلدوين الثاني وبقية الأسرى الصليبيين من حران ، واعتقلهم في قلعة حلب [4] .

وفي صفر من العام التالي (٥١٨هـ = ١١٢٤) ، وجه بلك قوة من الأتراك الى ناحية عزاز فاشتبكوا بالصليبيين وهزموهم وقتلوا منهم أربعين فارساً وراجلاً وغنموا أسلابهم ، وتمكن الآخرون من الهروب الى عزاز وبينهم عدد

---

(١) الناعورة : موضع بين حلب وبالس ، بينه وبين حلب ثمانية أميال (ياقوت ، معجم البلدان ٧٣٢/٤) .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢١٦/٢ .

(٣) المصدر السابق ٢١٧/٢ .

(٤) المصدر السابق ٢١٦/٢ – ٢١٧ .

كبير من الجرحى[1] .

وإذ كان بلك ينتظر – في حلب – نتيجة القتال بين المسلمين والصليبيين ليحدد خطته ، بلغه – في صفر – أشياء عن حسان بن كمشتكين صاحب منبج دفعت بلك الى التنكر له ، وإرسال قوة من عسكره بقيادة ابن عمه حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي ، تمكنت من إلقاء القبض على حسان والاستيلاء على البلد ، إلا أن الحصن عصي عليهما حيث تمكن عيسى أخو حسان من دخوله وتنظيم أموره الدفاعية . وعوقب حسان على مرأى من أخيه لحمله على تسليم القلعة ، ولكن هذا رفض تسليمها ، فأرسل حسان ليسجن في أحد المواقع . ورأى عيسى أن خير وسيلة للتخلص من حصار قوات بلك هي التحالف مع الصليبيين واستدعائهم اليه ، فكتب إلى جوسلين يقول : « إن وصلتني و كشفت عني عسكر بلك سلمت اليك منبج » ، وقيل إنه نادى بشعار جوسلين هناك [2] . فمضى هذا الى بيت المقدس وطرابلس وبقية المواقع الصليبية وحشد ما يزيد على عشرة آلاف فارس وراجل ، وتقدم نحو منبج ليجلي قوات بلك عنها . وكان هذا قد التحق للإشراف بنفسه على الحصار ، وما أن اقترب جوسلين من منبج حتى توجه بلك اليه ، تاركاً بعض قواته على الحصار ، والتقيا يوم الاثنين الثامن عشر من ربيع الأول ، ودار بين الفريقين قتال شديد، أسفر عن هزيمة الصليبيين ، فتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون إلى آخر النهار « وحمل فيهم بلك ذلك اليوم خمسين حملة ، يقتل فيهم ، ويخرج سالماً يضرب بالسيوف ويطعن بالرماح ولا يكلم . وعاد الى منبج فبات مصلياً مبتهلاً الى الله تعالى لما

---

(١) المصدر السابق ٢/٢١٦ – ٢١٧ ، العظيمي ، تأريخ ، ورقة ٢٠١ ظ (حاشية الزبدة ٢/٢١٨) .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢ / ٢١٨ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢ /٨٣) .

جدده على يده من الظفر بالفرنج »[١] .

وفي صباح اليوم التالي قام بلك بقتل أسرى المعركة، ثم زحف نحو حصن منبج ليختار موضعاً لنصب المنجنيق . وكان قـد عزم على استخلاف ابن عمه حسام الدين تمرتاش على حصار منبج ، والتقدم لإنجاد أهل صور عـلى الساحل الشامي بسبب مضايقـة الصليبيين لها واستنجاد طغتكين به ، وبينما كان بلك قائمـاً يأمر وينهي ويستعد للتوجه الى صور إذ جاءه سهم من الحصن ، وقيل إنه كان من يد عيسى ، فوقع في ترقوته اليسرى ، « فانتزعه وبصق عليه وقال: هذا قتل المسلمين كلهم »[٢] . ومات إثر ذلك ، فتفرق عسكره ، وحمل هـو الى حلب ودفن فيها[٣] .



تمكن الصليبيون إثر مقتل بلك من الاستيلاء على صور – التي كان قد عزم على إنقاذها – وبذلك غدت لهم السيطرة على الجهـات الساحلية[٤] « فطمعوا

---

(١) زبدة الحلب ٢١٨/٢ – ٢١٩ ، ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ٢٣٥ – ٢٣٦ ، ابن شداد ، الأعلاق (قسم حلب) ورقة 247 A. B. ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢/ ٨٣).

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢١٩/٢ .

(٣) المصدر السابق ٢١٩/٢ ، ابن الاثير ، الكامل ٢٣٥/١٠ – ٢٣٦ ، ابن العبري ، مختصر ص ٣٥٢ ، ابن شداد ، الأعلاق (قسم حلب) ورقه 247 A. B. أبو الفدا ، المختصر ٢٤٨/٢ – ٢٤٩ ، ابن الوردي ، تتمة ٣٢/٢ ، ابن خلدون ، العبر ٤٩٠/٥ ، الغزي ، نهر الذهب ٣ /٨٦ ، الطباخ ، تأريخ حلب ١ / ٤٤٨ – ٤٥٥ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٨٣/٢) .

Cahen op. cit., pp. 297—298, Grousset, op. cit., 1/596—597, Ruuciman, op. cit., 11/165.

(٤) ابن الأثير ، الكامل ٢٣٧/١٠ ، ابن خلدون ، العبر ٤٩٠/٥ .

Grousset, op. cit., 1/597.

وقويت نفوسهم وأيقنوا الاستيلاء على بلاد الشام واستكثروا الجموع . وكانت صور أحسن البلاد وأمنعها »[1] . وهكذا أدى فتح هـذا الموقع إلى تقوية مركز الصليبيين في الشام وإمدادهم بقاعدة بحرية ذات أهمية كبيرة في الهجوم والدفاع[2] . وكان من الممكن أن يتفادى المسلمون هذه الخسارة لو بقي بلك على قيد الحياة .

وبمقتل بلك انتهت مرحلة قيادة الأراتقة لحركة الجهاد والتي امتدت منذ سنة (٥١٣ هـ = ١١١٩ م) حتى مطلع عام (٥١٨ هـ = ١١٢٤ م) ، وشملت الفترة الاخيرة من حكم كل من إيلغازي وبلك ، بالرغم من أن الأخير لم تكن تخضع له الإمارات الأرتقية جميعاً ، بل حكم بعض أجزائها الشمالية مضافاً إليها حران وحلب والمواقع المجاورة لها ، بينما حكم الأجزاء الأخرى أمراء آخرون . وقد أثرت السرعة التي قتل فيها بلك في تغيير مجرى الأحداث في الجزيرة وبلاد الشام وأعطت الصليبيين الفرصة كي يتحولوا الى الهجوم من جديد بعد أن اضطرهم إيلغازي وبلك ، في أكثر الأحيان ، على اتخاذ مواقف الدفاع . ولولا قيام البرسقي حاكم الموصل (٥١٥ هـ - ٥٢٠ = ١١٢١ - ١١٢٦م) ، ومن بعده زنكي (٥٢١ - ٥٤١ هـ = ١١٢٧ - ١١٤٦ م) ، بعبء الجهاد ضد الصليبيين وتحويل القيادة الى الموصل ، لكان للصراع بين المسلمين والصليبيين وجهة أخرى . وهكذا وضعت نهاية بلك - وبشكل نهائي - حداً لقيادة الأراتقة . وقد تميزت هذه المرحلة بقيام كل من إيلغازي وبلك باستقطاب القوى الإسلامية في الجزيرة والشام سواء كانوا من الجند أو المتطوعة ، التركمان

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠/٢٣٧ ،

(٢) Grousset op. cit., 1/618.
وانظر ابن جبير ، رحلة ص ٢٧٧ .

والعرب ، المنتشرين في الجزيرة والفرات وشمـــالي الشام ، أو من الوحدات السياسية التي يحكمها أمراء مستقلون في المناطق السالفة كحكام إرزن وشيزر وحمص ودمشق ، دون أن يقدم لهم السلاجقـة أو نوابهم في الموصل والمنــاطق القريبة ، أو حتى أمراء الأراتقة الآخرون، ما عدا أمير ماردين ، أية مساعدة مادية أو عسكرية . وفي كل الحالات كانت قوات التركمان ذات الولاء العميق للأراتقة ، هي القسم الأساسي التي اعتمد عليهـــا هؤلاء كما تميزت هــذه الفترة بتركيز كل من إيلغازي وبلك جهودهما ضد إمارتي الرها وأنطاكية ، باعتبارهما قريبتين من مركز الإمارة ، بينما كانت إمارتا طرابلس وبيت المقدس بعيدتين عن أهداف القتال . وقد سنحت الفرصة لإيلغازي إثر معركة ساحة الدم أن يسقط أنطاكية ، ولكن انهماكه في توزيع قواته لتحقيق انتصارات جانبيـــة والحصول على الغنائم ضيعت عليه هذه الفرصة ، بالرغم من أنه ظل يعمل على توجيه ضربة مباشرة لتلك الإمارة والاستيلاء عليها ، والتمهيد لذلك بخطوات جدية كتجميع المبالغ اللازمة والتحالف مع بعض الأمراء في هذا السبيل ، إلا أن الهزيمة التي مني بها على أيدي الكرج عام (٥١٤ = ١١٢٠ م) ، وتحطم قواته ، أثر إلى حد كبير على تحقيق هذا الهدف[١] . أمـــا بلك فقد تمكن من توجيه ضربات قوية ضد الرها ، ولكن حصانة هذا الموقع وطبيعة جغرافيته البشرية – حيث يشكل الأرمن معظم سكان المنطقة – أدت الى إنقاذهـا من السقوط . كما استطاع بلك أن يوجه ضربة حاسمة ضد القوات الصليبية بقيادة جوسلين عند منبج ، كانت ستتيح له في الغالــب فرض سيطرته على معظـــم الجهات الشمالية من الشام ، ولكن اهتمامـــه بفرض إرادته على بعض المواقع الإسلامية وضمها إلى إمارته ، لكي يجابـه الصليبيين بإمارة موحـــدة ذات

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٠٠ .

إمكانيات واسعة ، هذا الاهتمام ، لم يخلص الصليبيين من ضربات أخـرى أشد على يديه فحسب ، بل إنه عجل بمقتله في ظروف مشابهــة لتلك التي حدثت لزنكي عام (٥٤١ هـ = ١١٤٦ م) ، لدى حصاره قلعة جعبر على الفرات ، وانتهت باغتياله .

مرحلة الانعزال (٥١٨ - ٥٤١ هـ = ١١٢٤ - ١١٤٦ م) :

بدخول حلب تحت طاعـة حسام الدين تمرتاش أمير ماردين (٥١٦ هـ - ٥٤٧ هـ = ١١٢٢ - ١١٥٢ م) عام ٥١٨ هـ ، دخل الأراتقة مرحلة جديدة في علاقاتهم مع الصليبيين بدأت بانسحاب تمرتاش من ميـدان الصراع وتطورت ، بظهور زنكي عام (٥٢١ هـ = ١١٢٧ م) ، الى انصراف الأراتقة التــام عن قضية الجهاد وانهماكهم بالأمور الداخلية لإمارتهم ، وبالنزاع السلبي المستمـر ، سواء فيما بينهم أو مع القوى الإسلامية المنافسة وبخاصة زنكي . وبذا نستطيع أن نطلق على هذه المرحلة اسم (مرحلة الانعزال) ، وقد استمرت هذه المرحلة حتى مقتل زنكي عام (٥٤١ هـ ١١٤٦ م) ، واستغرقت معظم الفترة التي حكم فيها تمرتاش .

تقدم تمرتاش ، الذي كان يصطحب بلك[1] ، الى حلب حاملاً جثة ابن عمه، فوصلها في العشرين من ربيع الأول « ودخل القلعة ونصب علمه ونادى الناس بشعاره »[2] ، بينما تقدم سليمان بن إيلغازي أمير ميافارقين الى خرتبرت وفرض

---

(١) يخطىء سبط بن الجوزي (مرآة الزمــان ٨ / ١١٢) في الإشارة الى ان سقمان بن أرتق هو الذي صحب بلك ، بينما كان سقمان قد توفي عام ٤٩٨ هـ.

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٢٠ ، الغزي، نهر الذهب ٨٦/٣ ، الطباخ، تأريخ حلب ٤٥٠/١ - ٤٦٠ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٨٤/٢ - ٨٥) .

سيطرته على حصون بلك في المنطقة وهي نيف وخمسون موضعاً ، كما اتجه داود ابن سقمان أمير كيفا فاستولى على حصن بالو العائـد لبلك وأطلق حسان بن كمشتكين من الاعتقال حيث عاد الى منبج[1] . وهكذا تم على أيدي أمـراء بني أرتق تقويض البناء الذي شده بلك بعد صراع شاق .

ويصف ابن العديم كيف تدهورت الأوضاع في حلب إثر دخـول تمرتاش، فيقول : « فأما تمرتاش فإنه لما ملك حلب ، ألهـاه الصبا واللعب عن التشمير والجد والنظر في أمور الملك ، ففسدت الأحوال وضعف أمر المسلمين بذلك ، واستوزر أبا محمد بن الموصول ثم عزله في رجب – من نفس العام – ... وسير الى حران فحمل منها سلطان شاه بن رضوان ، وكان بلك قد أسكنه بهـا ، فاعتقله بدار بقلعة ماردين[2] » . ولكن هذا استطاع أن يهرب ويلتجىء الى داود بن سقمان في حصن كيفا . وفي أواخر ربيع الأول خرج نائب جوسلين من الرها على رأس قوة من الصليبيين أغارت على إقليم شبختان، في ديار بكر، ونهبته ، فتصدى لها عمر الخاص نائب تمرتاش ، بقوة قوامهـا ثلاثمائة فارس وهزمها وقتل قائدها وعدداً كبيراً من أفرادها، وغنم ما معهم وأرسل رؤوس القتلى والغنائم الى تمرتاش في حلب[3] .

وفي مطلع جمادى الأولى (٥١٨ هـ = ١١٢٤ م) ، جرت مفاوضـات بين تمرتاش وجوسلين وحكام بيت المقدس حول إطلاق سراح بلدوين الثاني ، انتهت

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢ / ٢٢٠ ، ابن الاثير ، الكامـل ١٠ / ٢٣٦ ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ١١٢ ، أبو الفدا ، المختصر ٢ / ٢٤٨ – ٢٤٩ ، ابن الوردي ، تتمة ٢/٣٢ .
(٢) زبدة الحلب ٢/٢٢٠ .
(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٢٠ – ٢٢١ .

بموافقة تمرتاش على إطلاق سراحه مقابل التنازل له عن الأثارب وزردنا والجزر وكفرطاب وعزاز ، وتقديم مبلغ قدره ثمانون ألف دينار ، يسلم عشرون ألفاً منها مقدماً . وحلف بلدوين على ذلـك ، وكان أبو العساكر سلطان بن منقـذ أمير شيزر هو الوسيط في تلك المفاوضات ، وبعث بأولاده وأولاد إخوته الى حلب رهائن عن بلدوين . وقد أضيف الى بنود الصلح – كذلك – أن يقوم بلدوين الثاني بإبعـــاد دبيس بن صدقة ، أمير بني مزيد في الحلة ، عن قلعـة حلب[1] . وكان هذا قد هرب من العراق إثر خلافـــه مع الخليفة المسترشد العباسي ، واستجار بصاحب قلعة جعبر فأجاره ، وكاتب من هناك جماعة من أهالي حلب ، وأرسل إليهم مبلغاً من المـال ، وطلب منهم تسليم البلد إليـه ، ولكن رئيس حلب ، فضائل بن صاعد بن ربيع ، كشف هـــذه المؤامرة ، وأطلع تمرتاش على تفاصيلها ، فقبض عليهم وعذبهـــم وشنق بعضهم وصادر البعض الآخر[2] .

أطلق تمرتاش بلدوين الثاني من معتقله، وأحضره الى مجلسه « فأكلا وتشاربا وخلع تمرتاش عليه قباءاً ملكياً – وحذاءاً – وأعيد اليه الحصان الذي كان أخذه منه بلك يوم أسره ، فركبه بلدوين وسار الى شيزر يوم الأربعاء الرابع من جمادى »[3] . وبقي هناك محتجزاً لدى أميرها لحين حضور جماعة من أمراء

---

(١) المصدر السابق ، ٢/٢٢١ – ٢٢٢ .

Grousset, op. cit., 1/623—25.

Runciman, op. cit., 11/171—173, Nicholson, op. cit., 1/423—25.

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٢١ – ٢٢٢ .

(٣) المصدر السابق ، ٢/٢٢٢ ، ابن منقذ ، الاعتبار ص ١٠٣ – ١٢٠ ، ١٢١ .

Runciman, op. cit., 11/172,

الصليبيين ليكونوا رهائن على تنفيذ ما التزم به تجـاه تمرتاش[1] ، كما حمـل العشرين ألف دينار التي تم الاتفاق على تسليمها مقدماً ، ومن ثم أطلقه أمير شيزر من السجن في السابع عشر من رجب (٥١٨ هـ = ١١٢٤ م) وأحسن إليه ، ولكن بلدوين الثاني ما لبث أن نقض ميثاقه وأرسل الى تمرتاش يقول « البطريرك الذي لا يمكن خلافه سألني عما بذلت وما الذي استقر ، فحين سمع حديث عزاز وتسليم حصنها مني ، أبى وأمرني بالدفع عنها ... وقال: إن خطيئتك تلزمني ، ولا أقدر على خلافه »[2] وكان بلدوين الثـاني مجرد وصيّ على أنطاكية ولم يكن من حقه التنازل عن شيء من أراضيها التي تعتبر ملكـاً لبوهيمند الثاني[3]. إلا أن هذا لم يكن يتعدى النواحي الشكلية التي كان بإمكان بلدوين تجاوزها باعتباره الحاكم الفعلي لأنطاكية ، مما يرجح أن الرسالة التي بعثها لتمرتاش لم تكن سوى حيلة تذرع بها بلدوين لنقض الميثاق ، كما أوضح ذلك مدى قصر نظر تمرتاش وتورطه في إطلاق سراح بلدوين دون ضمانات سياسية ونقدية مؤكدة.

ومن ثم ترددت الرسل بين الطرفين دون جدوى . واتصل دبيس بن صدقة ببلدوين وجوسلين بواسطة الأمير سالم بن مالك صاحب قلعـة جعبر وأطمعهما بحلب لكون أهلهـا شيعة وأنهم متى رأوا دبيساً سلموا اليه البلد باعتباره على مذهبهم ، وبذل لهما على مساعدته بذولاً كثيرة ، وقال لهما : « إنني أكون هنا

---

(١) والرهائن هم إيفيت ابنة بلدوين الثاني وابن جوسلين وعشرة آخرين من أبناء الصليبيين . انظر Runciman, op. cit., 11/172.

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٣) Runciman, op. cit., 11/172.

– أي في حلب – نائباً عنكم مطيعاً لكم[١] » . ولم يكن دبيس يرى أي مانع من التحالف مع الصليبيين بما عرف عنه من كره للقوى السنّية وعداء مستمر للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي[٢] . وقد تمكن من التوصل مع الصليبيين الى اتفاق تكون حلب بموجبه له ، أما الأموال فتكون لهم فضلاً عن بعض المواقع القريبة من حلب . وما أن تم هذا الاتفاق حتى تقدم دبيس الى مرج دابق فتصدى له تمرتاش وهزمه[٣] .

غادر تمرتاش حلب ، إثر نقض الصليبيين لعهدهم معه ، وتوجه الى ماردين ليستنجد بأخيه سليمان بن إيلغازي ويجمع العساكر[٤] . وبقي بنو منقذ رهائن في قلعة حلب ، وأولاد الصليبيين لدى صاحب شيزر ، وظلت الرسل تتردد بين تمرتاش وبلدوين الثاني ، إلى أن عادت في الثامن عشر من شعبان لتعلن عن

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ٢٣٧ – ٢٣٨ ، أبو الفدا ، المختصر ٢/٢٤٩ .

(٢) Grousset, op. cit., 1/625.

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢ / ٢٢٢ – ٢٢٣ ، ابن منقذ ، الاعتبار ص ١٠٣ ، ١٢٠ – ١٢١ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢/٨٤ – ٨٥) .

Grousset op. cit., 1/625—626, Gibb, Zengi aud The Full of Edessse in Setton, op. cit.. 1/452.

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢ / ٢٢٣ . وفي رواية ابن الأثير ، الكامل ١٠/٢٣٦ ، أن تمرتاش رأى الشام كثيرة الحرب مع الفرنج ، وكان رجلاً يحب الدعة والرفاهية . وهذا هو الأرجح ، ويؤيده Gibb. op. cit., 1/452. حيث يشير الى ان تمرتاش انسحب من حلب بعد أن يئس من الدفاع عنها ، وجعل على حراستها قوة قوامها خمسمائة فارس ، فضلاً عن سكانها .

والواقع أن عدم رجوع تمرتاش ثانية الى حلب الى حين استيلاء البرسقي عليها ، يعطي دليلاً واضحاً على ما أورده الكامل . وينسب ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢/٨٥ – ٨٦) . السبب الرئيسي لعودة تمرتاش الى التخوف من استيلاء أخيه سليمان على البلاد الجزرية .

نقض الهدنة وخروج بلدوين الى ارتاح قاصداً النزول على حلب [1] .

غادر بلدوين ارتاح ونزل على نهر قويق وأفسد المناطق الزراعية المحيطة به، ثم رحل الى حلب فنزل عليها في أواخر شعبان . وخرج دبيس وجوسلين من تل باشر وقصدا ناحية الوادي وأفسدا مزروعاته ، وقدرت الخسائر بما يقرب من مائة ألف دينار . ومن ثم رحلا فنزلا مع بلدوين على حلب واجتمع بهم هنالك الملك سلطان شاه بن رضوان ، وكان عيسى بن سالم بن مالك في صحبة دبيس ، كما اجتمع بهم ياغي سيان بن عبد الجبار بن أرتق صاحب بالس ، وفرضوا الحصار على حلب من شق جهاتها [2] ، « ووطنوا نفوسهم على المقام الطويل ، وأنهم لا يغادرونها حتى يملكوها ، وبنوا البيوت لأجل البرد والحر » [3] ، وراحوا يزاحفونها ويقطعون أشجارها، كما خربوا مشاهد كثيرة، ونبشوا قبور الموتى من المسلمين وسلبوهم أكفانهم ، وعمدوا الى من لم تنقطع أوصاله منهم ، فربطوا في أرجلهم الحبال وسحبوهم أمام أنظار المسلمين وجعلوا يقولون : « هذا نبيكم محمد » « وأخذوا مصحفاً من بعض المشاهد بظاهر حلب وقالوا : يا مسلم أبصر كتابكم، وثقبه الفرنجي بيده وشده بخيطين وربطه بأسفل البرذون ، فظل هذا يروّث عليه ، وكلما أبصر - الفرنجي - الروث على المصحف صفق بيديه وضحك عجباً وزهواً » [4] . وراح الصليبيون يمثلون

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٢٣ .

(٢) المصدر السابق ٢/٢٢٣ - ٢٢٥ ، ابن الفرات ، المصدر السابق ٢/٨٥ - ٨٦ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ٢٣٧ - ٢٣٨ ، ابن القلانسي ، دمشق ص ٢١٢ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ١١٢ - ١١٣ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢ / ٢٢٣ - ٢٢٥ ، ابن شداد ، الأعلاق (قسم حلب المنشور) ص ٤٥ ، ابن الشحنة ، المنتخب ص ٨٢ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢/٨٥ - ٨٦) .

بكل من يقع بأيديهم من المسلمين ، فاضطر هؤلاء الى مجاراتهم بالمثل ، وأخذت جماعات من حلب تخرج سراً لتغير على معسكرات الصليبيين فتقتل وتأسر . وبالرغم من ذلك كله كانت الرسل تتردد بين الطرفين للتوصل الى اتفاق ولكن دون جدوى . الى أن ضاق الأمر بالمسلمين[1] ، وكان المدبر لأمور حلب آنذاك هو بندر الدولة سليمان بن عبد الجبار الأرتقي وجماعة من كبار المسؤولين ، فاتفقوا على إرسال وفد من سادة حلب لاستدعاء تمرتاش. فخرجوا ليلاً ومضوا الى ماردين ليستغيثوا به ، وعندما وصلوا الى هناك كان تمرتاش منهمكاً في الاستيلاء على بلاد أخيه سليمان صاحب ميافارقين الذي توفي في رمضان عام (٥١٨ هـ = ١١٢٤ م) ، الأمر الذي دفعه الى إهمال أمر حلب، وكانت الرسل قبل ذلك ، قد ترددت بينه وبين البرسقي حاكم الموصل لتوحيد جهودهما في قتال الصليبيين وإجلائهم عن حلب ، ولكن وفاة أخيه – كما سبق – ورغبته في السيطرة على بلاده شغلته عن هذا الأمر . وبقي الحلبيون في ماردين فترة من الوقت يحثون تمرتاش على التوجه الى حلب وهو يعدهم ويمنيهم ويماطلهم دون أن يقدم على أي إجراء ، فأعلموه أنهم لا يريدون سوى أن يصل بنفسه ، والحلبيون يكفونه أمر الصليبيين[2] .

---

(١) ابن العديم ، المصدر السابق ، ٢/٢٢٥، ابن القلانسي، دمشق ص ٢١٢ ، أبو الفدا ، المختصر ٢/٢٤٩ . ابن الوردي ، تتمة ٢/٣٢، ابن خلدون ، العبر ٥/١١٢ – ١١٣ ، ٤٩٠ – ٤٩١ ، ابن الشحنة ، المنتخب ص ٢١٨ – ٢١٩ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢/٨٥ – ٨٦) .

Nicholson, op. cit., 1/423—424.

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢ / ٢٢٥ – ٢٢٦ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢/٨٥ – ٨٦) .

Runciman, op. cit., 11/173, Gibb, op. cit., 1/453, Grousset, op. cit., 1/627—631.

ساءت الأحوال في حلب ، وقلت الأقوات بها وانتشر المرض فيها وضعف جندها عن القتال بسبب الجوع والمرض ، واتبع بعض مسؤولي حلب سياسة ظالمة تجاه الحلبيين ، فصادروا أملاكهم وسلطوا الجند عليهم[1] . وظهر للحلبيين من تمرتاش الوهن والعجز[2] ، فكتب أحدهم الى الوفد في ماردين يخبره بما آل إليه أمر حلب من الجوع والمرض وأكل الميتات ، فوقع هذا الكتاب بيد تمرتاش فغضب وقال: «انظروا الى هؤلاء يتجلدون علي ويقولون : إذا ودملت فأهل حلب يكفونك أمرهم ، ويغررون بي حتى أصل في قلة ، وقد بلغ بهم الضعف إلى هذه الحالة[3] ، ثم أمر بمراقبة الوفد كي لا يغادر ماردين للاستنجاد بأمير آخر ، ولكن أعضاء الوفد تمكنوا من تدبير وسيلة للهرب والاتجاه الى الموصل للاستنجاد بالبرسقي[4] ، فوافق على إنجادهم لحقده القديم على الأراتقة ورغبته في قتال الصليبيين واعتقاده بضرورة ضم حلب الى الموصل لتحقيق هذا الغرض . وشرط على الحلبيين مسبقاً أن يسلموا قلعة حلب لنوابه ، كي يحتمي بها في حالة انهزامه أمام الصليبيين ، فأجابوه الى طلبه . ومن ثم تقدم على رأس قوات ضخمة ، انضم اليها طغتكين وخيرخان أمير حمص ، وما أن اقترب البرسقي من حلب حتى أدرك الصليبيون عدم جدوى بقائهم على حصارها، خوفاً من عاقبة اصطدامهم بقوات البرسقي وحلفائه، ومن ثم تفرقوا الى بلادهم . فتقدم البرسقي الى حلب حيث خرج أهلها

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٣٠ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ١٠/٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/ ٢٢٧ - ٢٢٨ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢ / ٨٥ - ٨٦) .

لاستقباله[1] .

بدأ البرسقي في حلب سلسلة من الإصلاحات الإدارية والاقتصادية ، أعادت الاستقرار والرفاهية لسكان المنطقة[2] . ومن ثم تسلم من شيزر رهائن الصليبيين الذين احتجزوا هناك لحين تنفيذ بنود المعاهدة ، التي تم عقدها بين تمرتاش وبلدوين الثاني[3] .

ونظراً لانهماك تمرتاش آنذاك بتوسيع رقعة إمارته في ديار بكر ، ورغبته في تجنب الصراع مع القوى المتحكمة في شمال الشام ، فإنه لم يحرك ساكناً أثر استيلاء البرسقي على حلب ، مما يشير إلى مدى قصر نظره وعدم رغبته في إعطاء ضمان استراتيجي لإمارته يمكنه من مجابهة الصليبيين والذي تشكل حلب أحد عناصره الأساسية . أما أراتقة حلب ، بزعامة بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار ، فقد أخذوا يستغلون الفرص لإعادة سيطرتهم على المدينة

---

(١) ابن القلانسي ، دمشق ص ٢١٢ ، ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ٢٣٧ — ٢٣٨ ، أبو الفدا ، المختصر ٢/٢٤٩ ، ابن الوردي ، تتمة ٢/٣٢ ، ابن خلدون ، العبر٥/١١٢ — ١١٣ ، ٤٩٠ — ٤٩١ ، القرماني ، تأريخ ص ٢٧٨ ، الغزي، نهر الذهب ٣/ ٨٦ — ٨٧ ، الطباخ ، تأريخ حلب ١ /٤٥٥ — ٤٦١ ، ابن الفرات ، (مخطوطة ٢ / ٨٨) .

Runciman, op. cit., 11/173, Gibb, op. cit., 1/453, Grousset, op. cit., 1/627—31.

ويورد كل من سبط بن الجوزي (مرآة الزمان مخطوطة ٨ / ١١٣ — ١١٤) وابن تغري بردي، الذي ينقل عنه (النجوم الزاهرة ٥/٢٢٨) رواية لا أساس لها من الصحة وهي أن سقمان بن أرتق هرب من حلب فور وصول البرسقي فلحقه هذا الى منبج وقتله هناك . ومعلوم أن سقمان بن أرتق كان قد توفي منذ عام ٤٩٨ هـ. ولعلهما يقصدان بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار ابن أرتق ، علماً بأن هذا بقي حياً حتى أحداث عام ٥٢٢ هـ.

(٢) ابن العديم، زبدة الحلب ٢/٢٣٠ ، وانظر الهامش السابق.

(٣) Grousset, op. cit., 1/631,

والمناطق المجاورة، وتمكنوا في الوقت نفسه من إنزال بعض الضربات بالصليبيين بواسطة القوى التركمانية التي تدين لهم بالوفاء .

ففي عام (٥٢٠ هـ = ١١٢٦ م) ، وبينما كان سليمان وابن عمه شهريار بك متجهين الى المعرة على رأس قوة من التركمان ، التقوا بجيش صليبي بقيادة جفري بلانك ، صاحب بسرفوت[١] ، فهزموه وقتلوا منه مائة وخمسين جندياً وأسروا قائده جفري الذي أودع في سجن حلب[٢] .

وعندما توفي مسعود البرسقي، الذي خلف أباه على حكم الموصل وحلب، عام (٥٢١هـ = ١١٢٧ م) ، اضطربت الأمور في حلب لضياع السلطة الشرعية فيها آنذاك واستمر الأمر كذلك ، الى أن قدم اليها الأمير (قتلغ ابه) بتوقيع من مسعود بن البرسقي قبيل وفاته يأمر نائبها السابق بتسليم حلب اليه، فأذعن هذا للأمر وسلم مقاليد الأمور (لقتلغ ابه) ، ولكن ما أن استقر النائب الجديد في منصبه حتى اتبع سياسة ظالمة ، فصادر الناس واستولى على التركات واعتقل المناوئين . فاستغل سليمان بن عبد الجبار بن أرتق ، الذي كان مقيماً بمدينة حلب آنذاك ، هذه الفرصة وأعلن الثورة ضد (قتلغ ابه) ، فانضم اليه عدد كبير من سكان المدينة ونادوا بشعاره وقاموا ، ليلة الثلاثاء الثاني من شوال ، بالقبض على كل من كان بالبلد من أنصار « قتلغ » الذين كانوا منهمكين باللهو والعبث صبيحة العيد . وبعد أن أمن سليمان وأنصاره المدينة ، زحف الى القلعة وفرض الحصار عليها ، فوصل الى حلب آنذاك ابن كمشتكين صاحب منبج وحسن صاحب بزاعة للتوسط في الصلح ، فأخفقا في ذلك . ولما علم الصليبيون

---

(١) بسرفوت: حصن من أعمال حلب في جبال بني عليم (ياقوت ، معجم البلدان ١/٦٢١).
(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٣٢ .

بما يحدث في حلب تقدم أميرا الرهاوأنطاكية على رأس قواتهما لاستغلال الفرصة. ولكن تقديم الأموال إليهما من قبل سكان المدينة ، فضلاً عما كان سائداً بينهما من عداء ومنافسة ، أدى الى انسحابهما وتخليص حلب من خطر محقق. وقام الثوار بحفر خندق حول القلعة ليمنعوا الخارجين منهـــا والداخلين إليها من ظاهر البلد ، كما قاموا بإحراق بعض جوانب القلعة ليتسنى لهم التسرب إليها. وانضم إليهم الملك إبراهيم بن رضوان السلجوقي ، ... منتصف ذي الحجة عام (٥٢٢ هـ = ١١٢٨ م) ، حيث أرسل زنكي – حاكم الموصل الذي كان قد حصل من السلطـــان السلجوقي على مرسوم بحكم الموصل والجزيرة والشام – وفـــداً من أمرائه حاملين مرسوم السلطان السلجوقي ، فتفاوض الوفد مع الطرفين المتنازعين ، وتم الاتفاق على ضم حلب الى ممتلكات زنكي ، ومن ثم قدم هذا الى حلب فقبض على بعض زعمائها القدامى ، وتمكن الآخرون من الفرار[١]. وقضي بذلك على بقايا النفوذ الأرتقي في حلب بشكل نهائي[٢].



ازدادت عزلة الأراتقـــة عن أحداث الصراع بين المسلمين والصليبيين إثر قيام زنكي بضم حلب الى الموصل ، وتشكيله إمارة إسلامية ذات إمكانيـات

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٣٧ – ٢٣٨ ، ٢٤١ – ٢٤٣ . ابن الاثير ، الكامـل ١٠/٢٤٧ – ٢٤٨ ، ابن القلانـسي دمشق ص ٢١٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ١/٣٨ – ٣٩ . الغزي، نهر الذهب ٣ / ٨٧ – ٨٨ ، الطباخ ، تأريخ حلب ١ / ٤٧١ – ٤٧٢ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢ / ١١٤) .
Stevenson, op. cit., P. 119. Gibb, op. cit., 1/453, Grousset, op. cit., 1/561.

(٢) انظر الفصل الثاني .

عسكرية واقتصادية وبشرية واستراتيجية ، تمكن بها – فضلاً عن كفاءته الشخصية – من تزعم حركة الجهاد في الوقت الذي خلا فيه الشام للصليبيين « من جميع جهاته من رجل يقوم بنصرة أهله ، فلطف الله بالمسلمين بولاية زنكي »[١] . ورغم عزلة الأراتقة فإنهم حاولوا مساعدة زنكي واستغلال الانتصارات التي حققها ضد الصليبيين ، والاضطراب الذي عم إمارة الرها في بعض الفترات ، وذلك بالحصول على بعض المكاسب في ديار بكر .

ففي عام (٥٣١ = ١١٣٦ م) ، اضطربت أحوال الرها إثر مصرع بوهيمند الثاني أمير أنطاكية ، فاستغل تمرتاش ذلك واستولى على بعض ممتلكات الرها[٢] . وفي العام التالي قدم أراتقة حصن كيفامساعدتهم العسكرية لزنكي في صراعه مع التحالف البيزنطي الصليبي في شمالي الشام ، حيث تقدم قرا ارسلان بن داود بن أرتق على رأس خمسين ألف من التركمان[٣] وعبر بهم الفرات لتعزيز قوات زنكي ضد أعدائه ، وكان نبأ تحرك هذه القوات من العوامل التي دفعت القوات البيزنطية المتحالفة مع الصليبيين الى الجلاء عن الشام[٤] ، وكانت هذه هي أول مرة تسهم فيها إمارة حصن كيفا الأرتقية في الجهاد ضد الصليبيين . وفي عام (٥٣٣ هـ = ١١٣٨ م) استغل الأراتقة الفشل

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠/٢٤٨ .

(٢) Runciman, op. cit, 11/201, Michel le Syrien (chronique) (ed. by Chabot), 111/244.

(٣) لا شك أن هذا الرقم مبالغ فيه ، إذ ليس من السهل تجميع هذا العدد، وربما جاءت هذه المبالغة بسبب صياغة الروايات على شكل نبأ ورد الى الشام عن تحركات هذه القوات ، وربما قصد منه كذلك إرهاب العدو قبل انسحابه.

(٤) القلانسي ، دمشق ص ٢٦٦ ، الفارقي ، تأريخ آمد (مخطوطة ١٢١ آ) ، ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٦٨ ، العظيمي، تأريخ ورقة ٢١٣ و، (حاشية الزبدة ٢/٢١٣).

الذي مني به التحالف البيزنطي الصليبي على يد زنكي ، وقامـــوا ، بقيادة تمرتاش وداود أمير حصن كيفـا ، بسلسلة من الغارات على بلاد الرهـــا[١] ، واستطـــاع تمرتاش أن يهزم الصليبيين قريباً من الرهـــا ويستولي على بعض ممتلكاتهم[٢] .

وقد اضطر الأراتقة ، إزاء توسع زنكي وتهديداته ، الى التحالف مع صليبيي الرها . فقام قرا أرسلان ، أمير حصن كيفا ، بعقد تحالف مع جوسلين أمير الرها ، مما عرضه لهجوم قام به زنكي على ممتلكاته في أواخر عام (٥٣٨ هـ = ١١٤٤ م) . ولكن حرص زنكي على إسقاط الرهـــا ، وعدم تضييع الفرصة في الصراع مع الأراتقـــة دفعه الى عقد صلح معهم والتوجه ، من ثم ، لحصار ذلك الموقع الصليبي الهام[٣] .

وبالرغم من أن إسقاط الرها عزز مركز زنكي في ديار بكر الى حـــد كبير ، إلا أن ما أفاده الأراتقة من ذلك لا يقل أهمية عمـــا أفاده زنكي . فقد تخلصوا من عدو مجاور توالت تهديداته في المنطقة طيلة ما يقرب من نصف قرن ، وكان عاملاً مهماً في عدم قيام الأراتقة بتوسيع ممتلكاتهم في الجهـات الشمالية والشمالية الغربية من الجزيرة . وقد استطاع صليبيو الرها خلال هذه الفترة أن يسيطروا على الجهـــات الممتدة من نواحي ماردين الى الفـرات ،

---

(١) الفارقي ، ١٢١ ب ، Stevenson, op. cit., P. 142, Gibb, op. cit., 1/459,

(٢) الفارقي ، المصدر السابق ، نفس الورقة .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٧٦ – ٢٧٩ . Gibb, op. cit,. 1/466.

Runciman, op. cit., 11/235, Nicholson, op. cit., 1/446, Grousset, op. cit., 11/178.

وخضع لهم في هذه المنطقة عدد من المواقع والحصون ، كسروج والموزر والبيرة وتل موزن وتل حوران وإقليم شبختان جنوبي ديار بكر ، وأوغلوا في قلب الجزيرة وأضحوا يشكلون حاجزاً يفصل بين مسلمي الشام والجزيرة ، كما سيطروا على الطرق التجارية الممتدة من الموصل الى حلب ومن بغداد الى بلاد سلاجقة آسيا الصغرى[1] ، فأضروا بمصالح الأراتقة التجارية ، فضلاً عن قيامهم بهجمات مستمرة على مختلف أنحاء الجزيرة بلغت آمد وماردين ونصيبين والرقة[2] .

أعقب سقوط الرها استسلام كل المواقع الصليبية شرقي الفرات على يد زنكي[3] ، تلك المواقع التي كانت تحادد إمارات الأراتقة ، وتشكل خطراً مباشراً عليها . وفضلاً عن ذلك حصل الأراتقة على جزء من الغنيمة وذلك عندما ترك زنكي حصار البيرة ، بسبب عصيان قام في الموصل ضده ، فاعتقد صليبيوها أن زنكي لا بد وأن يعود اليهم ، فأرسلوا الى تمرتاش في ماردين يستدعونه ليسلموا إليه الحصن ، فتقدم هذا وتسلم الحصن وأناب فيه ابنه[4] . وقد شك زنكي بسياسة تمرتاش وأنه عقد تحالفاً مع حليفه السابق جوسلين ، مما دفعه الى مهاجمة تمرتاش والاستيلاء على بعض ممتلكاته ، ومن ثم اتجه لقتال حليف آخر للصليبيين هو سالم بن مالك العقيلي صاحب قلعة جعبر على الفرات

---

(١) Stevenson, op. cit., P. 153. Grousset, op. cit., 1/394, 11/175,

(٢) ابن الأثير ، الباهر ص ٦٧ .

Grousset, op. cit., 11/175.

(٣) Baldwin, The latin States, in Setton 1/530—531.

(٤) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ٣٦ آ ب) .

Grousset, op. cit., 11/192.

حيث اغتيل هناك عام (٥٤١ هـ = ١١٤٦ م)[١] . وهكذا تخلص الأراتقة من منافس خطير ، كان عاملاً رئيسياً في انعزالهم عن حركة الجهاد ضد الصليبيين ، وفتح الطريق أمامهم ثانية لكي يسهموا في هذه الحركة بأسلوب ملائم جديد .

إن أبرز السمات التي تميز مرحلة الانعزال ، التي تخلى فيها الأراتقة عن دورهم القيادي ، هي :

١ - ظهور زنكي كنائب عن السلاجقة في الموصل والجزيرة وشمالي الشام وتولية قيادة الجهاد ضد الصليبيين . وقد تميزت قيادته بالفردية إذ لم يعط مجال التحالف المتكافىء مع بقية أمراء المسلمين في الجزيرة والشام مما كان سيتيح للأراتقة فرصة الإسهام في الجهاد عن طريق التحالف ، كما حدث من قبل ، أو الإمدادات ، كما سيحدث فيما بعد . ولكن زنكي - على العكس من ذلك - كان هدفه الأول ضرب الإمارات الإسلامية في تلك المناطق ثم توحيدها ومن ثم مجابهة الصليبيين . وقد أدت هذه السياسة الى تأليب أولئك الأمراء ضده وعلى رأسهم بنو أرتق ، وكان هذا عاملاً أساسياً في انسحاب الاراتقة من مسرح الصراع الاسلامي الصليبي[٢] .

٢ - اتباع زنكي سياسة التحالف تجاه الأمراء الأراتقة وجيرانهم مما أدى إلى اشعال نار المنافسة والعداء بين هؤلاء الأمراء أنفسهم وبينهم وبين الأمراء المجاورين ، وبذلك تحول اهتمام الأراتقة الى هذا الصراع الجانبي ، وتشتتت

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٨١ .

Ibid, 11/196.

(٢) انظر الفصل الثاني .

معظم قواهم العسكرية والاقتصادية في هذا الاتجاه[1] .

٣ - اضطرار الأراتقة الى التحالف مع الصليبيين للدفاع عن مصالحهم ضد زنكي ، وقد دفعهم هذا الى مهادنة الصليبيين معظم هذه المرحلة ، وتبادل المساعدات معهم ضد عدوهم المشترك (زنكي) .

٤ - اتباع حسام الدين تمرتاش (٥١٨ - ٥٤٧ هـ = ١١٢٤ - ١١٥٢ م) سياسة انهزامية تجاه الصليبيين في الشام فقد وصفه ابن الأثير « بأنه رأى الشام كثيرة الحرب مع الفرنج ، وكان رجلاً يحب الدعة والرفاهية »[2] وبأن الحلبيين « ظهر لهم من ناحيته الوهن والعجز »[3] ، مما دفعهم الى الاستنجاد بالبرسقي ، حاكم الموصل ، حيث قدم الى حلب وتولى بنفسه حركة الجهاد هناك ويعتبر هذا من العوامل المهمة في انعزال الأراتقة عن حركة الجهاد بسبب ما أصاب إمارتهم من تفكك استراتيجي إثر ضياع حلب .

مرحلة الامدادات (٥٤١ - ٦١٨ هـ = ١١٤٦ - ١٢٢١ م) :

بعد مقتل زنكي ، اتجهت العلاقات بين الأراتقة والصليبيين وجهة أخرى ، فقد أتيحت لهم الفرصة ثانية لكي يخرجوا من العزلة التي فرضها عليهم زنكي ويسهموا من جديد في حركة الجهاد . ولكن الظروف السياسية التي جدت في المنطقة إثر مقتل زنكي فرضت عليهم أسلوباً جديداً في هذا المجال . ذلك أن الإمارة التي أنشأها زنكي انقسمت - بعد مقتله - الى إمارتين غدت الموصل

---

(١) انظر الفصل الثاني .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٠/٢٣٦ .
(٣) المصدر السابق ١٠/ ٢٣٧ - ٢٣٨ .

قاعدة لإحداهما ، وحلب قاعدة للأخرى ، بينما احتلت إمارات الأراتقة الجهات الواقعة بين الإمارتين . وكان على حلب أن تتحمل ضغط الصليبيين المجاورين وأن تقوم بعبء الجهاد ضدهم بسبب موقعها وبعدها عن المنازعات مع الأراتقة والسلطان السلجوقي[1] ، فضلاً عن أن شخصية نور الدين محمود أتاحت لهذه الإمارة أن تتزعم حركة الجهاد، وبذا ضاعت الفرصة على الأراتقة بتولي مركز القيادة ثانية . وإذ عمل نور الدين محمود على توحيد إمارتي حلب والموصل ، او على الأقل الحصول على ولاء الأخيرة له ، لكي يتسنى له مجابهة الصليبيين ، فقد ساد التوتر بين الطرفين فاستغل الأراتقة ذلك وانضموا الى نور الدين بسبب تدهور العلاقات بينهم وبين أمراء الموصل[2] ، وبذلك تسنى لهم الخروج من عزلتهم[3] . وبالرغم من أن ولاءهم لنور الدين سلبهم بعض جوانب استقلالهم إلا أنه أتاح لهم تقديم مساعداتهم المالية والعسكرية خلال قتاله مع الصليبيين كحلفاء مخلصين وليسوا كأتباع خاضعين . وبذا بدأ الأراتقة مرحلة الإمدادات في علاقتهم بالصليبيين ، ومن ثم غدت القوة الأرتقية تشكل جزءاً هاماً في الجيوش الإسلامية التي قادها نور الدين ضد الصليبيين ، وقد استمرت هذه المرحلة طيلة عهد نور الدين ومن ثم صلاح الدين بعد أن انتقلت إليه حركة الجهاد ، وظلت تتقدم بعد ذلك ، في فترات متباعدة ، طيلة حكم الأيوبيين .

وقد استطاع الأراتقة خلال هذه الفترة انتزاع بعض المواقع الصليبية القريبة من إماراتهم ، مستغلين في ذلك ضعف بقايا إمارة الرها والضربات التي تلقتها

(١) Stevenson, op, cit., P. 154.

(٢) انظر الفصل الثاني .

(٣) انظر ابن القلانسي ، دمشق ص ٣٣٢ .

من نور الدين وسلاجقة آسيا الصغرى . وشهد عـــام (٥٤٦ هـ = ١١٥١ م) تصفية مواقع إمارة الرها ، فاستولى نور الدين على تل باشر ، واستولى السلطان مسعود ، سلطان سلاجقة آسيـا الصغرى، على مرعش ورعبـــان وكيسوم وبهسنا[١] وعدد من المواقع المجاورة الأخرى . وتقدم قرا أرسلان أمير حصن كيفا وخرتبرت فاستولى على بلدة كركر وحصن منصور[٢] رغم المساعدة التي قدمها جوسلين الثاني لهذين الموضعين . وبذلك امتدت سيطرة قـــرا أرسلان فشملت الجهات الأرمنية في هذه المنطقة والتي كان يحكمها من قبل رينالد أمير مرعش . أما حسام الدين تمرتاش أمير ماردين ، فقد استولى على سميساط[٣] ، ولم يبق على الفرات موضع ليس للمسلمين غير قلعة الروم[٤] ، ولو عاش حسام الدين تمرتاش كان قد ملكها »[٥] .

* * *

(١) بهسنا : قلعة حصينة قرب مرعش وسميساط (ياقوت ، معجم البلدان ١/٧٧٠) ،

(٢) حصن منصور : من أعمال ديار مضر ، غربي الفرات ، قرب سميساط (ياقوت ، معجم البلدان ٢/٢٧٨) .

(٣) ابن القلانسي ، دمشق ص ٣١٥ ، الفارقي ، تأريخ آمد (مخطوطة ١٣٣ آ ب) .

Michel le Syrien, op. cit., 111/294—297, Guillaume de tyr, op. cit., 11/213, Grousset, op. cit,. 11/291 — 292, 306 — 7, Cahen, op. cit,. pp. 385, 389, Runciman, op. cit., 11/327, Baldwin, the latin states, in setton, op. cit., 1/534, Gibb, The Career of Nur-ad-Din, in Setton, op. cit., 1/516—517.

(٤) قلعة الروم : قلعـــة حصينة غربي الفرات ، مقابل البيرة (ياقوت ، معجم البلدان ٤/١٦٤) .

Grousset. op. cit., 11/346—7.

(٥) الفارقي ، تأريخ آمد (مخطوطة ١٣٣ آ ب) ويشير

Runciman, op. cit., 11/337. و

الى أن تمرتاش قاد قواته في العام التالي (٥٤٧ هـ = ١١٥٢ م) لمهاجمة مملكة بين المقدس، =

من المرجح أن إمدادات الأراتقة لنور الدين بدأت منذ عـــام (٥٤٣ - ٥٤٤ هـ = ١١٤٨ - ١١٤٩ م) ، حيث يذكر ابن القلانسي أن أحد العوامـل المهمة التي مكنت نور الدين والدماشقة من التصدي للحملة الصليبية الثانية عام (٥٤٣ - ٥٤٤ هـ = ١١٤٨ - ١١٤٩ م) ، هي الإمدادات الكثيرة من تركان الأطراف الذين أسرعوا لإنجاد دمشق إثر استنجاد أهلها بهم ، وقيام الخليفة العباسي بإرسال رسله الى سائر الأمـــراء وطوائف التركان يدعوهم لقتـــال الصليبيين[١] . ولا ريب أن الأراتقـــة قدموا قواتهم ومتطوعيهـــم آنذاك باعتبارهم يمثلون قيادة القوى التركانية في ديار بكر والمناطق المجاورة .

وفي ذي الحجة من عام (٥٥٠ هـ =١١٥٦م) قدم قرا أرسلان بن داود أمير حصن كيفا الى حلب للاجتماع بنور الدين ، فسُرّ هذا بمقدمه وأكرمه وقدم له « ما جلّ قدره من التحف والعطاء » ومن ثم قفل راجعاً الى بلاده[٢] . وكانت هذه البادرة من جانب قرا أرسلان بمثابة إعلان وضع كافة قواته تحت تصرف نور الدين في حروبه ضد الصليبيين ، فضلاً عن أنها أخرجت إمارة حصن كيفا عن عزلتها الطويلة المغلقة تجاه ما كان يجري في الشام ، التي بـــدأت بدخول الصليبيين أنطاكية واستمرت الى منتصف القرن السادس الهجري .

وما أن نقض الصليبيون هدنتهم مع نور الدين عام (٥٥٢ هـ = ١١٥٧ م)، حتى قدم إليه رسل أمراء الأطراف يعلنون استعدادهم لمجابهة الصليبيين الذين

= إلا أنه اضطر الى الانسحاب تحت ضغط القوات الصليبية هناك . ولم يرد هذا الخبر في المصادر الإسلامية مما يعرضه للشك ، خاصة وأن تمرتاش لم يكن يعرف عنه اتخاذ خطوات جريئة في هذا المجال ، فضلاً عن أن مملكة بيت المقدس بعيدة عن مجال الاحتكاك بينها وبين الأراتقة .

(١) دمشق ص ٢٩٩ - ٣٠١ - ٣٠٤ .

(٢) ابن القلانسي ، دمشق ص ٣٣٢ .

نكثوا عهدهم[١] ، فاستعد نور الدين لاستقبال هؤلاء الأمراء حافلا ، وما أن اجتمع لديه عدد حاشد من القوات حتى تحرك لقتـــال الصليبيين ، إلا أنه لم يحدث اشتباك حاسم ضد الصليبيين بسبب مرض نور الدين (٥٥٣هـ=١١٥٨م)، واضطراره الى وقف العمليات ضدهم[٢] . وعندما صمم نور الدين على قتـــال الصليبيين عام (٥٥٩ هـ = ١١٦٣ م) أرسل الى قرا أرسلان أمير حصن كيفا ونجم الدين البي بن تمرتاش أمير ماردين ، وغيرهمـــا من أمراء الأطراف يطلب منهم إنجاده فأجابه صاحب ماردين وأرسل اليه قواته وتخلف هو لعذر منعه من المسير بنفسه ، أما أمير حصن كيفا « فقال له خواصه وندماؤه : على أي شيء عزمت ؟ فقـــال : على القعود فإن نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة فهو يلقي نفسه ومن معه في المهالك »[٣] . وما لبث في صباح اليوم التالي أن عدل عن رأيه وأمر قواته بالتجهز ، فسأله أصحابـه عن السبب في تغيير موقفه فقال : « إن لم أنجد نور الدين خرجت بلادي عن يدي ، فإنه قد كاتب زهادها والمنقطعين عن الدنيا يستمدمنهم الدعاء ويطلب منهم أن يستحثوا المسلمين على الغزاة ، وقد قعد كل واحد منهم ومعه أتباعه وأصحـــابه وهم يقرؤون كتب نور الدين ويبكون ، فأخاف أن يجتمعوا على لعنتي والدعـــاء علي »[٤] ثم تجهز وسار بنفسه على رأس قواته .

حقق نور الدين وحلفاؤه في هذا الهجوم نصراً حاسماً على الصليبين عند حارم ، وقتلوا منهم ما يقرب من عشرة آلاف ، وأسروا كبـــار أمرائهم

---

(١) ابن القلانسي ، دمشق ص ٣٣٨ .
(٢) المصدر السابق ٣٤٨ - ٣٥٨ .
(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ٣١٨/٢ - ٣١٩ .
(٤) المصدر السابق ٣١٨/٢ - ٣١٩ .

كبوهيمند الثالث أمير أنطاكية وريموند الثالث كونت طرابلس وجوسلين الثالث وغيرهم. ومن ثم توجه المسلمون للاستيلاء على حارم فدخلوها في رمضان من نفس السنة وتفرقت عساكرهم، إثر ذلك، في أعمال أنطاكية تنهب وتأسر. ثم عادت القوات الاسلامية الى دمشق، وأذن نور الدين لعساكر الموصل وديار بكر بالعودة الى بلادها، بعد أن وهب أمير حصن كيفا الأموال العظيمة والتحف الثمينة. وقد أثر هذا النصر الحاسم في مصير القتال الذي كان دائراً آنذاك بين الصليبيين والمسلمين بقيادة شيركوه عند بلبيس، في مصر، حيث أسرع الصليبيون بعقد الصلح مع شيركوه خوفاً على ممتلكاتهم في الشام من استيلاء نور الدين عليها بعد سحقه القوات الصليبية في معركة حارم[١].

ساهم أمراء آخرون من الأراتقة في القتال الذي خاضه نور الدين ضد الصليبيين ففي عام (٥٦٥ هـ = ١١٦٩ م)، تقدم شهاب الدين اليـاس بن

---

(١) ابن العديم، زبدة الحلب ٢/٣١٨ - ٣٢٢، ابن الأثير، الكامل ١١ / ١٢٢ - ١٢٣، الباهر ص ١٢٢ - ١٢٥، ونقل عنه أبو شامة، الروضتين ١/١٣٩، وابن واصل، مفرج الكروب ١/١٤٣ - ١٤٥، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان ٨ / ٢٤٦ - ٢٤٨، ابن خلدون، العبر ٥ / ٥٤٧ - ٥٤٩، ابن قاضي شهبة، السيرة النورية (مخطوطة ١٢٦ - ١٢٧).

Gibb, The career of Nur-ad-din, op. cit., 1/524, Runciman, op. cit., 11/369, Grousset, op. cit., 11/461—464, Guillaume dy Tyr, op. cit., 11/306—308.

وينفرد الذهبي (العبر ٤ / ١٦٦ - ١٦٧)، عن سائر المؤرخين في القول بأن بدء الهجوم على حارم تم على يد صاحب ماردين بقيادة عدد من ملوكهم، فاضطر صاحب ماردين الى الفرار، وعند ذاك تقدم نور الدين لقتالهم. ويظهر أن صاحب ماردين كان قائداً لأحد أجنحة نور الدين وأنه بدأ الهجوم فعلا وعندما انهزم تقدم القلب بقيادة نور الدين للقتال ... ومن المستبعد اذاً أن يكون صاحب ماردين قد بدأ الهجوم ارتجالاً وبعيداً عن قيادة نور الدين كما يفهم مما أورده الذهبي.

إيلغازي صاحب قلعة البيرة على رأس مائتي فارس للاجتماع بنور الدين الذي كان معسكراً في عشترا[1] فلما اقترب من أعمال بعلبك في شوال ركب متصيداً فصادف ثلاثمائة من فرسان الصليبيين الاسبتارية قد توجهوا من حصن الأكراد للإغارة على المواقع الإسلامية في البقاع . فاشتبك الطرفان واقتتلوا قتالاً شديداً وقع فيه عدد كبير من القتلى من الجانبين ، وأسفرت المعركة عن هزيمة الصليبيين حيث أوقع المسلمون بهم القتل والأسر ولم يفلت منهم إلا القليل ، ومن ثم سار شهاب الدين بالأسرى الى نور الدين الذي أحسن استقباله وسر للنصر الذي حققه ضد الأعداء[2] . وفي عام (٥٦٧ هـ = ١١٧١ م) اشتركت قوات ديار بكر الى جانب نور الدين في الهجوم الذي شنه على المواقع الصليبية إثر نقض الصليبيين للهدنة التي عقدوها معه ، فبث نور الدين السرايا في بلاد الصليبيين ، وتمكن المسلمون في فترة قصيرة من الاستيلاء على بعض المواقع الصليبية وتخريب البعض الآخر ، كما قاموا بنهب وإحراق الجهات المحيطة بأنطاكية وطرابلس مما اضطر الصليبيين الى تجديد الهدنة[3] .

بعد هذه السلسلة من الانتصارات التي أحرزها نور الدين ضد الصليبيين ، أرسل عام (٥٦٨ هـ = ١١٧٢ م) رسالة الى الخليفة العباسي الذي أجابه الى مطلوبه ومضمونها « الخدمة للديوان وما هو عليه من جهاد الكفار وفتح بلادهم ، ويطلب – أي نور الدين – تقليداً بما بيده من البلاد كمصر والشام

---

(١) عشترا : موضع بحوران من أعمال دمشق (ياقوت ، معجم البلدان ٦٧٩/٣) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١١ / ١٤٣ ، الباهر ص ١٤٥ – ١٤٦ ، ونقل عنه ابن واصل ، مفرج الكروب ١ / ١٨٨ ، وأبو شامة ، الروضتين ١/ ١٨٦ ، ابن خلدون ، العبر ٥٥٦/٥ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ١١٣/٩ (طبعة الاستقامة) ، الباهر ١٥٤ – ١٥٥ .

والجزيرة والموصل ، وبما في طاعته كديار بكر ..»[1] وبهذا غدت الإمارات الأرتقية خاضعة لنور الدين من الناحية الرسمية[2] ، وقد عزز جواب الخليفة الخليفة العباسي الإمدادات العسكرية التي كان الأراتقة يقدمونها لنور الدين في قتاله للصليبيين .

وفي العام التالي (٥٦٩ هـ = ١١٧٣ م) أرسل نور الدين الى الأمراء الأراتقة وغيرهم يطلب منهم القدوم الى الشام لقتال الصليبيين . وكان نور الدين قد عزم على ترك القوات الحليفة تحت قيادة سيف الدين غازي الثاني صاحب الموصل ، والتوجه الى مصر لتصفية أمورها ، ولكن وفاته ، بعد ذلك بقليل، حالت دون تحقيق هذا المشروع[3] .



لم يغير الأراتقة موقفهم من الإمدادات ضد الصليبيين ، لدى تولي صلاح الدين سلطنة الشام بعد وفاة نور الدين محمود. ولكي يضمن صلاح الدين الحصول على هذه الإمدادات من أمراء الأطراف في قتاله للصليبيين ، أرسل ، في مطلع حكمه عام (٥٧١ هـ = ١١٧٥ م) ، كتاباً الى الخليفة العباسي يطلب منه «خروج الأمر بخطاب جميع الأطراف أن يكونوا – له – على المشركين أعواناً، وأن يمتثلوا أمر نبينا محمد ﷺ ، في أن يكونوا بنياناً فيعضدوه اذا سعى ،

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ١١/١٦٠ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٣٠٠ ، ٥٦٢ – ٥٦٣ .

(٢) انظر ابن الاثير ، الكامل ١١/١٦٠ ، أبو شامة ، الروضتين ١/٢٢٩ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ١١/ ١٦٣ ، الباهر ص ١٦١ ، أبو شامة ، الروضتين ١/ ٢٢٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ١/٢٥٨ – ٢٥٩ ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨/ ٣٢٠ – ٣٢١ (عن الكامل).

ويلبوه اذا دعا ، ولا يقعدوا عن المعاضدة في فتح البيت المقدس »[١] .

واستجاب الأراتقة لدعوته ، عندما قرر مهاجمة إمارة الموصل عام (٥٧٨هـ = ١١٨٢ م) ، لموالاتها للصليبيين ضد صلاح الدين[٢] . وكان قرا أرسلان أمير حصن كيفا ، أول من استجاب له منهم ، وأعقبه شهاب الدين محمد بن إلياس الأرتقي أمير البيرة ، وكانت استجابتهما في البدء ، بقصد الحصول على بعض المكاسب . أما صاحب ماردين فقد رفض تلبية الدعوة بسبب ما تعرضت له أملاكه على يد الأمراء الأراتقة المتحالفين مع صلاح الدين[٣] .

لم يستطع صلاح الدين وحلفاؤه الاستيلاء على الموصل ، فبعث الى الخليفة العباسي يقول: « إنها – أي الموصل – دار الفرقة ... ولو انتظمت في السلك، لانتظم جميع عسكر الإسلام في دار الشرك ، ولغزى الكفر من مصر ... والشام .. والجزيرة » كما ورد في الرسالة أن بقاء الموصل ، هكذا ، بميدة عن سيطرته هو السبب في عدم توحيد القوى الإسلامية في الجزيرة لمجابهة الصليبيين .. « لأن هذه الجزيرة الصغيرة – أي الموصل – منها تنبعث الجزيرة الكبيرة ، وهي دار الفرقة ومدار الشقة »[٤] .

وإذ حصل أمير حصن كيفا في هذه الحملة على بعض المكاسب كمدينة آمد هبة من صلاح الدين ، فقد تعهد مقابل ذلك بالطاعة المطلقة للسلطان في موالاة

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ١/٢٥٤ (عن القاضي الفاضل) .

(٢) المصدر السابق ٢/٣١ – ٣٢ ، (عن القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني) ، ابن كثير ، البداية والنهاية ١٢/٣١١ .

Runciman, op. cit., 11/434.

(٣) انظر الفصل الثاني .

(٤) أبو شامة ، الروضتين ٢/٤١ (عن القاضي الفاضل) .

من والاه ومعاداة من عاداه » وحلف له أنه متى استعد لقتال الفرنج وجده لذلك يقظان »[١] وكان هذا العهد بين أمير حصن كيفا وصلاح الدين ، بمثابة حجر الزاوية لكل الإمدادات العسكرية التي تقدمت بها هذه الإمارة لصلاح الدين في حروبه مع الصليبيين . كما أن قيام بقية أمراء المنطقة بطلب الصلح من صلاح الدين وإعلان طاعتهم له ، وتعهدهم بالحضور بأنفسهم أو بإرسال قواتهم متى استدعاهم[٢] ، مهد لاشتراك قوات الأراتقة جميعاً ، فضلاً عن الامارات الأخرى في الجزيرة ، مع صلاح الدين في جهاده للصليبيين .

وشهد عام (٥٧٩ هـ = ١١٨٣ م) أول اجتماع لقوات ديار بكر بقيادة قرا أرسلان مع جيوش صلاح الدين ، حيث انطلقوا من دمشق ، وعبروا نهر الأردن في التاسع من جمادى الآخرة ، وقاموا بهجمات موفقة على المواقع الصليبية . وقد تجنب الصليبيون لقاء القوات الإسلامية لذا اكتفت هذه بتلك الهجمات وحصلت على غنائم كثيرة ومن ثم عادت الى دمشق ، ومنها تفرقت الى بلادها بعد أن أذن لها صلاح الدين ، فتوجهت القوات الأرتقية الى ديار بكر على عزم العودة الى الغزو في المستقبل القريب[٣] .

---

(١) المصدر السابق ، ٢/٤١ - ٤٢ (عن العماد الأصفهاني) .

(٢) انظر الفصل الثاني .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ١/٢٠٤ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ص ٤٠ - ٤١ ، العماد الاصفهاني ، الفتح القدسي ص ١٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٢/١٤٨ - ١٥١ .

Gibb, Saladin, in setton, op. cit., 1/579.

وسوف لا أتطرق الى تفاصيل العمليات الحربية التي قام بها صلاح الدين في المرات التي اشتركت معه فيها القوات الأرتقية ، لأن ذلك سيخرج بالبحث عن اطاره المحدد الى نطاق التأريخ الحربي لصلاح الدين ، ولذا سأكتفي بإحصاء الحملات التي أسهم فيها الاراتقة وتواريخها وأهدافها العسكرية ، والدور الذي أنجزوه خلال تلك العمليات .

في جهات عكا[١] .

وفي عام (٥٨٤ هـ = ١١٨٨ م) استدعى صلاح الدين القوات الإسلامية للاجتماع به لدى قتاله للصليبيين في ساحل الشام الشمالي ، فجاءته جيوش الموصل والجزيرة ، وأغلب الظن أن قوات الأراتقة كانت ضمن جيوش الجزيرة ، وإن لم تحدد المصادر ذلك بدقــة . وبعد أن عقد صلاح الدين هدنة مــع صليبي أنطاكية ، عاد الى حلب وأذن للقوات الإسلامية بالعودة الى بلادها[٢] .

وما أن بدأ الصليبيون حصار عكا عام (٥٨٥ هـ= ١١٨٩ م)، حتى أرسل صلاح الدين الى سائر الأمراء يطلب منهم التقدم بقواتهم للوقوف إزاء الصليبيين وإنقاذ عكا من الخطــر الداهم . وكانت القوات الأرتقية بقيادة قطب الدين بن قرا أرسلان أمير حصن كيفا ، من جملة القوات التي أسرعت في التقــدم الى هناك ، واجتمعت بجيوش صلاح الدين واشتركت معهــا في بعض العمليات العسكرية طيلة الفترة التي سبقت سقوط عكا عام ٥٨٧ هـ . ومن جهة أخرى كان وجود هذه القوات من العوامل التي ساهمت في الهزيمة التي لحقت بالجيوش الإسلامية عام (٥٨٥ هـ = ١١٨٩ م) ، بالقرب من ساحل عكا . فقد كان موضع القوات الأرتقية في ميمنة القلب بالنسبة لتنظيم الجيوش الإسلاميــة ، وقد بدأت المعركة بأن تحركت ميسرة الصليبيين على ميمنة المسلمين، فتراجع، أمامهم ، المظفر قائد الميمنة لعلهم يبعدون عن أصحابهم فينــال منهم ، فظن

---

(١) المصدر السابق ٢/٢٤٦ ، ابن شداد ، سيرة ص ٥٦ ، العماد الاصفهاني ، الفتح القدسي ص ٧٠ ، ابن الأثير ، الكامل ١١/ ٢٢٧ - ٢٢٨ ، أبو شامة ، الروضتين ٢ / ١٢٠ (عن الاصفهاني) .

(٢) ابن شداد ، سيرة ص ٥٦ - ٥٧ ، ٦٥ ، ابن الأثير ، الكامل ١٢/ ٢ - ٣ ، ٨ ، ابن كثير ، البداية ١٢/٣٣٠ .

وفي مطلع العـــام التالي تقــدم قرا أرسلان على رأس قواتــه الى حلب ، فوصلها في الثامن عشر من صفر « فأكرمه الملك العادل إكراماً عظيماً وأصعده الى القلعة وباسطه »[1] ومن ثم توجها الى دمشق في أواخر الشهر ، وكان صلاح الدين قد مرض ثم أبل من مرضه ، فلمــا بلغه خبر وصول قرا أرسلان خرج لاستقباله ، فلقيه على عين الجسر بالبقــاع في مطلع ربيع الاول ثم عــاد الى دمشق ، بعد أن ترك الأمير الأرتقي بصحبة العادل واتفق معهما على أن يلحقاه بعد تقدمه باتجاه المواقع الصليبية . وفي أواخر ربيع الأول وصل العادل وقرا أرسلان الى دمشق ، وغادراها بعد أيام قلائل ليلحقا بصلاح الدين عند رأس الماء ، تمهيداً للهجوم على الكرك ، إلا أن تدخـــل قوات بيت المقدس اضطر صلاح الدين وقواته على الانسحاب والقيام بسلسلة من الهجمات على المواقـــع الصليبية في نابلس وجنين والساحل . وقد أسهم صاحب دارا الأرتقي وقوات ماردين في تلك الهجمات[2] . ومن ثم عادت القوات الإسلاميـــة الى دمشق فدخلتهــا في مطلع جمادى الآخرة ، وكان قرا أرسلان بصحبة صلاح الدين فأكرمه واحترمه وأحسن اليه[3] ، وخلع عليه الخلعة التي وصلته من الخليفـة العباسي ، ومن ثم أذن له بالعودة وقواته الى بلاده[4] .

---

(١) ابن شداد ، سيرة ص ٤٣ .

(٢) أبو شامة ، الروضتين ٢/٥٤ – ٥٥ (عن العماد الاصفهاني) .

(٣) ابن شداد ، سيرة ص ٤٣ – ٤٤ .

(٤) المصدر السابق ص ٤٤ ، ابن الاثير ، الكامل ١١ / ٢٠٥ – ٢٠٦ ، أبو شامـــة ، الروضتين ٢/٥٤ – ٥٥ ، ٦٠ (عن العماد وابن شداد) ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٣٨٢/٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٢/١٥٧ – ١٦٣ ، ابن كثير ، البداية ٣١٥/١٢ ، المقريزي ، السلوك ٨٣/١/١ – ٨٥ ، ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق (مخطوطة ٢٤٧ — ٢٤٨) .

Gibb, The Rise of Saladin setton, 1/585, Grousset, op. cit., 11/739.

وفي عام (٥٨١ هـ = ١١٨٥ م) تأكدت طاعة الأراتقة وأمراء الجزيرة والموصل لصلاح الدين إثر العمليات الحربية التي قام بها في المنطقة ، وأرسل الى أخيه الملك العزيز طغتكين حاكم اليمن كتاباً يقول فيه : « ... وقد حصل لنا من صاحب الموصل ومن جميع من بالجزيرة وديار بكر الطاعة والسكة والخطبة ... والعزائم الى الجهاد في سبيل الله ، وقد زالت العوائق ...»[١] .

وفي مطلع عام (٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م) ، استجابت قوات الأراتقة لدعوة صلاح الدين بالتوجه لقتال الصليبيين ، واجتمعوا به في ربيع الآخر فرحب بهم وأكرمهم ، واندفع في السابع عشر من ربيع الآخر صوب العدو[٢] . وبعد أن حقق المسلمون نصرهم الحاسم على الصليبيين في حطين ، وعدد من المواقع الأخرى ، اتجهوا الى صور ، وإذ طال حصارها ضجر كثير من أمراء المسلمين لأنهم رأوا ما لم يألفوه من تعسر الفتح عليهم ، فأشاروا على السلطان بالرحيل ، لئلا تفنى الرجال وتقل الأموال . وكان الشتاء قد دخل واشتد البرد ، فقال السلطان : « إن السور قد تهدم فاصبروا ولا تعجلوا تفلحوا ، فأظهروا الموافقة ولم يصدقوا القتال وتعللوا بكثرة الجراح وقلة العلوفات ، فلم يسع السلطان إلا الرحيل »[٣] ، فأذن للقوات الحليفة بالعودة ، فسار الملك المظفر الى دمشق مستصحباً معه قوات المشرق ، وبقي صلاح الدين مع نفر من قواته

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ٦٤/٢ (عن العماد الاصفهاني) . وانظر ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق (مخطوطة ١٧٩ - ١٨٠ ، ٢٩٨) .

(٢) ابن شداد ، سيرة ص ٤٨ - ٤٩ ، ابن الأثير ، الكامل ١١ / ٢١٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ١٨٦/٢ - ١٨٨ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ٢٤٥/٢ - ٢٤٦ .

صلاح الدين ذلك ضعفاً منه ، وأمده بعدة فرق من القلب حتى قوي جانبه وتراجعت أمامه ميسرة الصليبيين ، فاستغل الصليبيون المجابهون لقلب القوات الإسلامية ضعف هذه الجبهة بسبب خروج عدة فرق منها ، وشنوا هجوماً سريعاً عليها ، فجاء هذا الهجوم على القوات الأرتقية « وكان بهم غرة عن الحرب ، فتحركوا بين يدي العدو ، وانكسروا كسرة عظيمة ، وسرى الأمر حتى انكسر معظم الميمنة[١] » وأسرع المنهزمون بالابتعاد عن ميدان المعركة ، ولكن ثبات صلاح الدين وميسرة المسلمين أنقذت القوات الإسلامية من هزيمة محققة . وما أن عرف المنهزمون ذلك حتى عاد ، من لم يذهب منهم في حال سبيله ، ليسهم في تعزيز ميسرة المسلمين التي استطاعت أن تحيل الهزيمة الى نصر ، وقتل من الصليبيين عدد كبير[٢] .

وبحلول شتاء عام (٥٨٦ هـ = ١١٩٠ م) ، أذن صلاح الدين للجيوش الإسلامية بالعودة الى بلادها كي تستريح وتتجمع من جديد في الموسم المقبل ، وأقام هو مع نفر يسير إزاء الصليبيين[٣] . وما أن حل الربيع حتى أرسل يستدعي الجيوش من الشرق ، ولم يفد عليه من قوات الأراتقة سوى قوات عماد الدين محمود بن بهرام صاحب دارا[٤] ، إذ لم تشر المصادر الى أية قوات أرتقية أخرى ، في الوقت الذي حددت فيه أوقات وصول سائر القوات التي

---

(١) ابن شداد ، سيرة ص ٧٦ - ٧٧ .

(٢) المصدر السابق ٧٦/٧٧ ، العماد الاصفهاني ، الفتح القدسي ص ١٤٨ ، ابن الاثير ، الكامل ١٢/ ١٥ - ١٧ ، أبو شامة ، الروضتين ٢ / ١٤٤ - ١٤٥ (عن ابن شداد) ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٢/٢٥٩ - ٣٠٠ (عن ابن شداد) .

(٣) ابن شداد ، سيرة ص ٨٢ ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨/٤٠٥ .

(٤) العماد الاصفهاني ، الفتح القدسي ص ١٨٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٢/٣١٣ .

قدمت من سنجار وجزيرة ابن عمر والموصل وإربل ... الخ [١]. وربما كان ذلك بسبب تشتت هذه الجيوش إثر الهزيمة التي لحقتها في معركة العام السابق عند ساحل عكا[٢] ، فضلاً عن قيام المظفر تقي الدين عمر الأيوبي باستفزاز الأراتقة في ديار بكر ومهاجمة بعض ممتلكاتهم ، عندما أرسله صلاح الدين الى هناك لحشد العساكر للجهاد[٣] .

وعندما حل شتاء عام (٥٨٧هـ = ١١٩١) ، وسقطت عكا بأيدي الصليبيين ، تفرقت العساكر الإسلامية على أن تعود ثانية في الربيع[٤]. وأرسل صلاح الدين خطاباً الى قطب الدين بن قرا أرسلان الذي خلف أباه في حكم حصن كيفا ، جاء فيه « قد أحاط علم المجلس بما حشده الكفر في هذه السنة.. فالإسلام ينشد ظهيره ، ويطلب الدين لكشف غمته من ابن نوره (أي ابن نور الدين قرا أرسلان) ، وهذه عكا التي كنا عنها نداقع ... قد تمكن منها الكفر على كره من الإسلام .. وإذا أنكر من خذلها .. وغاب عنها وما حضرها ، علم أنها أسيرة إهماله وأخيذة إغفاله .. وما بقي للفرنج مع استيلائها على الموضع إلا زائد قوة في المطمح والمطمع . وقد عزمنا على المصاف وصد صولة الكافر بالجد الكافي .. والله كافل دينه بالنصر ..»[٥] وتشير بعض الجمل التي وردت في هذا الخطاب الى مدى أهمية القوات التي كان يقودها أمير

---

(١) ابن شداد ، سيرة ص ١١٢ ، ابن الأثير ، الكامل ١٢/٢٠ .
(٢) ابن شداد ، سيرة ص ٧٩ ، ونقل عنه ابن واصل ، مفرج الكروب ٢/٣٠٠ .
(٣) العماد الاصفهاني ، الفتح القدسي ص ٢٩٠ ، ونقل عنه أبو شامة ، الروضتين ٢/١٨٦ – ١٨٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٢/٣٥٤ وانظر ما يلي .
(٤) ابن شداد ، سيرة ص ١١٢ – ١١٦ ، ١٢٤ – ١٢٥ .
(٥) العماد الاصفهاني ، الفتح القدسي ص ٢٦٤ .

حصن كيفا ، وأنه بتوانيه عن الحضور الى عكا كان سبباً في سقوطها ، ويشير الأصفهاني إلى أنه لم يستمر على مساعدة صلاح الدين « ومؤازرته ومعاقدته إلا صاحب الموصل وسنجار . فهو يحضر تارة بنفسه وآونة بولده .. ويواظب بعدده وعدده ...[1] » مما يؤكد عدم اشتراك أراتقة حصن كيفا أو ماردين ، في تلك السنة ، للدفاع عن عكا الى جانب بقية القوات الإسلامية .

وفي شتاء عام (٥٨٨ هـ = ١١٩٢ م) ، توجه صلاح الدين الى القدس وفرق القوات الإسلامية ريثما يأتي الربيع[2] واستغل الصليبيون هذه الفرصة فهاجموا الداروم واستولوا عليها في جمادى الأولى[3] « وجرى هذا كله وعساكر الموصل وسنجار وديار بكر متباطئة في الإتيان[4] » فأرسل صلاح الدين يطلب إسراع هذه القوات في القدوم[5] وفي جمادى الآخرة وصل الى دمشق قطب الدين قرا أرسلان على رأس قواته ، وأقام هو وبقية الأمراء الذين وصلوا دمشق ، ينتظرون مغادرة العادل لها ليسيروا معه لقتال الصليبيين ، وأدرك هؤلاء أن لا طاقة لهم بهذه القوات ، إذا ما تركوا عكا لمهاجمة المواقع الإسلامية، ولذا اضطروا الى البقاء هناك[6] . وقد أسهمت قوات قطب الدين بن قرا أرسلان في حصار يافا وفتحها في نفس السنة[7] وأصاب قطب الدين في تلك

---

(١) العماد الأصفهاني ، الفتح القدسي ص ٢٨٤ .

(٢) ابن شداد ، سيرة ص ١٦٢ .

(٣) المصدر السابق ص ١٦٧ ، ابن الأثير ، الكامل ٣٤/١٢ ، والداروم : قلعة على طريق غزة للقاصد الى مصر ، قريبة من الساحل (ياقوت ٥٢٥/٢) .

(٤) العماد الاصفهاني ، الفتح القدسي ص ٣٠٨ .

(٥) ابن شداد ، سيرة ص ١٦٨ .

(٦) ابن الأثير ، الكامل ٣٥/١٢ .

(٧) العماد الاصفهاني ، الفتح القدسي ص ٣٠٨ .

المعركة جرح في يده يئس من شفائه ، ولكنه سرعان ما اندمل وتماثل للشفاء[1] .

وعندما تم عقد الصلح بين صلاح الدين والصليبيين عام (٥٨٨هـ=١١٩٢م)، أذن للقوات الإسلامية بالعودة الى بلادها ، فقفل قطب الدين عائداً الى ديار بكر[2] .

★ ★ ★

توفي صلاح الدين في مطلع العام التالي في دمشق ، وانتهت بذلك حلقة خطيرة من حلقات الجهاد ضد الصليبيين ، قدم الأراتقة فيها إمداداتهم العسكرية ، وكان لهم خلالها دور مهم من أدوار علاقاتهم بالصليبيين ، إذ مكنوا صلاح الدين ، بتلك الإمدادات ، من تعزيز قواته وتحقيق سلسلة من الانتصارات ضد أعدائه . ومما يجدر بالذكر في هذا المجال، أن تلك الإمدادات لم تكن متكافئة بالنسبة لإمارتي ماردين وحصن كيفا الأرتقيتين ، فما قدمته إمارة ماردين لا يكاد يذكر بجانب ما قدمته إمارة حصن كيفا . وقد كان الدافع الرئيسي لهذه البادرة هو تعرض إمارة ماردين لضغط صلاح الدين خلال تحركاته في منطقة الجزيرة ، وانتزاعه منها بعض الممتلكات التي منحها لأمراء حصن كيفا[3] ، لذا توثقت علاقات الأخيرة بصلاح الدين وتزعم أمراؤها معظم الإمدادات التي سيرها الأراتقة لمساندته ، وهكذا نجد أن الأمر انعكس في هذه المرحلة من علاقات الأراتقة بالصليبيين ، فبينما تضاءل دور

---

(١) المصدر السابق ٣١٠ - ٣١١ .

(٢) ابن شداد ، سيرة ص ١٩٤ ، ونقل عنه أبو شامة ، الروضتين ٢/٢٠٤ .

(٣) انظر الفصل الثاني .

ماردين ، التي كان لها في السابق قصب السبق في هذا المضمار ، نجد أن إمارة حصن كيفا أخذت زمام المبادرة ، والمركز الأول في تلك العلاقات .

لم تقف إمدادات الأراتقة للأيوبيين ضد الصليبيين بوفاة صلاح الدين ، بل استمرت طيلة السنوات التالية (٥٨٩ – ٦١٨ هـ) = (١١٩٣ – ١٢٢١ م) حيث كان الأراتقة يقدمون ، خلالها ، نجداتهم العسكرية كلما حزب الأمر بالأيوبيين إثر تعرضهم لضغط الصليبيين . فكانوا يستنجدون بالأمراء المحليين في الجزيرة والموصل والشام فيلبي هؤلاء دعوتهم كما حدث في الأعوام (٥٨٩ هـ = ١١٩٣)[١] ، (٥٩٣هـ = ١١٩٦)[٢] ، (٦٠٤ هـ = ١٢٠٧م)[٣] ، (٦٠٨ هـ = ١٢١١ م)[٤] .

وحدثت في الأعوام التالية مشاكل وفتن وحروب بين الأراتقة والأمراء المحليين والأيوبيين أعاقت تقديم الإمدادات لهؤلاء ضد الصليبيين[٥] وقد استؤنفت الإمدادات من جديد بعد تصفية تلك المشاكل ، وكان أبرزها ما حدث عام (٦١٨هـ = ١٢٢١ م) ، لدى استيلاء الصليبيين على دمياط في مصر ، حيث أرسل الكامل الأيوبي يستنجد بأمراء الشام والجزيرة ، فتوجه المظفر الأيوبي إلى ماردين لحشد القوات الحليفة فتلقاه صاحبها بترحيب بالغ[٦] ، وتم

---

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٦/١٢٠ – ١٢١ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٢/٥٣ .
(٣) المصدر السابق ١٢/١١٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٣ / ١٧٢ – ١٧٥ ، ابن كثير البداية والنهاية ١٣/٤٩ .
(٤) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ٥٤٥ .
(٥) ابن الأثير ، الكامل ١٢/١٣٨ – ١٤٣ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٥٩٧ – ٦٠٣ ، وانظر الفصل الثاني للاطلاع على تفاصيل الموضوع .
(٦) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٦/٢٣٩ – ٢٤٠ .

الاتفاق بينهما على قيام صاحب ماردين بتقديم نجـــدة للأيوبيين ، وقد توجهت هذه النجدة الى مصر ، مع عدد من الأمراء الأيوبيين في الشام، ولكنها وصلت بعد أن تمكن الكامل مع استعادة دمياط وإخراج الصليبيين منهـــا بموجب اتفاقية للصلح عقدت في التاسع عشر من رجب سنة (٦١٨ هـ = ١٢٢١م)[٣].



وهكذا حقق الأراتقة ، في مراحل عديدة من علاقاتهـم مع الصليبيين ، نتائج مهمة في ميدان الصراع الإسلامي الصليبي في الجزيرة والشام ، ما كان يمكن أن تصل الى ما وصلت اليه لولا الدور الذي لعبه الأراتقـة . فقد كان هؤلاء، في مرحلة التحالف مع الأمراء المحليين، يشكلون إحدى القوى الرئيسية في تلك المحالفات التي مثلت طلائع التجمع الإسلامي ضد الغزو الصليبي والتي حققت في بعض المعارك نتائج حاسمة ضد الصليبيين كالذي حدث في معركـة البليخ عام (٤٩٧ هـ = ١١٠٣ م) ، على يد سقمان وحليفـــه جكرمش أمير الموصل .

وفي مرحلة القيادة لعب الأراتقـة الدور الرئيسي في ذلك الصراع ، حيث قادوا قواتهم وقوات حلفائهم في عدد كبير من المعارك ضد الصليبيين كان لبعضها نتائج حاسمة على الوجود الصليبي في الجزيرة والشام كذلك الذي حدث في معركة (ساحة الدم) على يد إيلغازي عام (٥١٣ هـ = ١١١٩ م) ، وفي معـــارك سروج (٥١٦ هـ = ١١٢٢ م) ، وكركر وخرتبرت (٥١٧ هـ =

---

(٣) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ٦١٨ - ٦١٩ ، ٦٢١ ، أبو شامة ، ذيل الروضتين ص ١٢٨ ، ابن العبري ، مختصر ص ٤١٣ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٦/٢٣٩ - ٢٤٠ .

١١٢٣ م) ، ومنبج (٥١٨ هـ = ١١٢٤ م) على يد بلك بن بهرام . وقد مثل الأراتقة في هذه المرحلة حلقة من أهم حلقات القيادة الإسلاميـــة الموحدة ضد الصليبيين والتي بدأت بمودود أمير الموصل عـــام (٥٠٣ هـ = ١١٠٩ م) ، وانتهت الى صلاح الدين .

أما في مرحلة الإمدادات التي قدمها الأراتقــة لنور الدين وصلاح الدين في جهادهما للصليبيين ، فقد لعبوا خلالها دوراً هاماً في تكوين الجيوش الإسلامية التي حقق بها هذان القائدان انتصارات حاسمة ضد أعدائهم ، كالذي حدث عام (٥٥٩ هـ = ١١٦٣ م) في معركة حارم على يد نور الدين ، وعام (٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م) في معركة حطين على يد صلاح الدين . وقد شهد للأراتقة بهــذا الدور كل من نور الدين وصلاح الدين وعدد من المؤرخين المعــاصرين كالعماد الأصفهاني وابن شداد .

وبالرغم من أنه كان للأراتقـــة آثار سيئة على مجرى الصراع بين المسلمين والصليبيين خلال المراحل التي اتخذوا فيها موقفاً سلبياً إزاء هــذا الصراع ، وبخاصة ذلك التحالف الذي تم بين إيلغازي وبين صليبي أنطاكية عام (٥٠٨هـ = ١١١٤ م) ، والذي مكن هؤلاء من تحقيق انتصارهم في معركة تل دانث على آخر محاولة مباشرة قام بها سلاجقة العراق وبلاد فارس ضد الصليبيين في الشام، وبالرغم من أن هذا الانتصار بما كان سبباً من أسباب توقف السلاجقة عن القيام بمحاولات جديدة لتوجيه أمراء المسلمين الى الشام لقتال الصليبيين ، إلا أن من الواضح أن توقف السلاجقة عن هذه السياسة لم يكن ذا نتائج سيئة الى حد كبير ، كما يبدو للوهلة الأولى، بل على العكس هيأ ذلك الإمارات والقوى المحلية القريبة من مواقع الصليبيين كالأراتقة ، والزنكيين والأيوبيين فيما بعد ، أن تتحمل مسؤوليتها كاملة في هذا الصراع ، وأن تتولى قيادة حركات الجهاد بما تمتلكه من إمكانيات بشرية وعسكرية واستراتيجية ، ومن قيادة موحدة ، لم تتهيأ للسلاجقة ، وأن تحقق نتائج خطيرة ضد الوجود الصليبي في المنطقة .

الفصل الرابع

علاقات بني أرتق بالتتر والمماليك

وسقوط آخر إمارتهم

٦٢٨- ٨١٢هـ (= ١٢٣٠- ١٤٠٩م)

سعي التتر لاخضاع ديار بكر

كان للصراع الدائر في الجزيرة بين الأمراء المحليين ، بسبب الأطماع الدائمة والفتن والحروب المستمرة ، ودخول الأيوبيين بعد صلاح الدين كطرف خطير في النزاع وتفتيت وحدة المنطقة ، أثر كبير في فتح الطَريق أمـــام التتر لشن هجماتهم المستمرة على المنطقة ، ومن ثم الاستيلاء على بعض المواقع الهامة فيها واتخاذها قواعد ليس لفرض سيطرتهم على الجزيرة فحسب ، بل لاتخاذها قاعدة للزحف على الشام ومصر كما حدث في مطلع النصف الثـاني من القرن السابع الهجري .

وكان الأراتقة كغيرهم من الأمراء قد دخلوا حمأة هذا الصراع ، وساهموا في تفتيت وحدة المنطقة ، بتشكيل الأحلاف والتكتلات لصد محاولات عدائية او للحصول على أسلاب جديدة . ولم يكتفوا بهـــذا بل أخذوا يتنازعون فيما بينهم ، ولم يتحرك صاحب ماردين عندما سقطت إمارتا حصن كيفا (٦٣٠ هـ = ١٢٣٢ م) وخرتبرت ، (٦٣١ هـ = ١٢٣٣) ، الأرتقيتين ، وربما ظن أنه ببقائه وحده في الميدان سيجـــد الفرصة السانحة لتوسيع نفوذه على حساب سقوط أبناء عمومته .

وفي هذه المرحلة الحرجة ، وهي أوائل الربع الثـــاني من القرن السابع

للهجرة ، دخل الخوارزميون بقيادة سلطانهم جلال الدين منكبرتي (٥١٧ – ٦٢٨ هـ = ١٢٢٠ – ١٢٣٠ م) ، كقوة جديدة في تيار الأحداث في الجزيرة وأرمينية . فقد صرف هؤلاء كل طاقتهم من القوة العسكرية والإمكانيات البشرية في حمأة هذا الصراع ، بعد أن ألجأهم زحف التتر في بلاد فارس الى التراجع الى هذه المناطق . وراح الأراتقة وجيرانهم من الأمراء المحليين ينضمون تارة الى جلال الدين وجنده ضد الأيوبيين وأنصارهم ، وتارة الى الأيوبيين ضد الخوارزميين . وقد تفتت في هذا الصراع قوى هذه الإمارات والدول ، في الوقت الذي كان بإمكانها لو اتحدت أن تحافظ على الجزيرة من أي تسلط تتري ، فضلاً عن أن تلك الوحدة كانت ستؤدي الى الإبقاء على الدولة الخوارزمية كدرع واقٍ ضد الزحف التتري على الجهات الغربية من العالم الإسلامي . وقد جرت ، بعد فوات الأوان ، محاولات يائسة من قبل السلطان جلال الدين لتشكيل تحالف بينه وبين الأيوبيين وبعض الأمراء المحليين للتصدي للخطر التتري ، ولكن دون جدوى ، إذ جاء ذلك متأخراً .

هذه هي الظروف التي مكنت للتتر في المنطقة ، وغيرت خارطتها السياسية في عقود معدودة من الزمن . وكان الأراتقة في طليعة من تعرض لهذا التغيير . ولنا بعد ذلك أن نستعرض بدء النفوذ التتري في المنطقة ودور أراتقة ماردين في الأحداث التي دارت هناك .

وفي عام (٦٢٨ هـ = ١٢٣٠ م) ، تراجع السلطان جلال الدين خوارزمشاه الى أرمينية والجزيرة أمام ضغط التتر ودخولهم أذربيجان في ذلك العام ، وأرسل الى نائب الأشرف الأيوبي صاحب دمشق في خلاط يعلمه أنه لم يأت الى المنطقة هذه المرة للحرب والأذى ، كما كان الحال في السنين السابقة ، وإنما

ألجأه زحف التتر الى ذلك ، وأنه عـازم على قصد أمراء ديار بكر والجزيرة والخليفة العباسي وسائر الأمراء المسلمين لاستنجادهم ضد التتر وتحذيرهم عاقبة الإهمال[١] . وما لبث أن وصله كتاب من الأشرف يعلمه أنه لن يتقدم الى المنطقة إلا بعد انجلاء نتيجة الصراع بين جلال الدين والتتر ، ولذا فليس ثمة داع لانتظار نجدته ، وإذ يئس جلال الدين من نجدة القوات الأيوبيـة في مصر والشام ، قرر الاعتماد على الأمـراء المحليين في المنطقة فبعث رسوله الى الملك المظفر شهاب الدين غازي ، والى الملك المسعود صاحب حصن كيفـا وآمد ، والملك المنصور صاحب ماردين يطلب حضورهم اليه لمجابهة التتر ووعدهم لقـاء ذلك بمنحهم بعض المدن ، فأجـاب صاحب ميافارقين بأنه كان قد أقسم على طاعة علاء الدين كيقباذ سلطان سلاجقة الروم، كما أقسم على طاعة جلال الدين، وأن بين الطرفين عداء مستحكمـاً ، ولذا فهو لا يأمن على نفسه الانضمام الى أحدهما دون الآخر ، فضـلاً عن أنه – كنائب أيوبي – مرتبط بالأيوبيين في مصر والشام ولا يستطيع إنجاد الخوارزميين إلا بأمرهم ، إضافة الى هذا فإن عدد قواته ضئيل لا أهمية له ، ثم قال : «وأما صاحبا آمد وماردين فلا يسمعان مني ولا يمتثلان أمري ، وليس يخفى علينا أنهما كانا يكاتبان السلطان جلال الدين فيختبر – هذا – عقائدهما في الاستحضار ويسبر ضمائرهما في الإنجاد على التتار، ليعلم أن زعمهم باطل »[٢] ، كما أوضح – صاحب ميافارقين – لرسول جلال الدين أن الملك الأشرف صاحب دمشق مهتم بنجدة جلال الدين ، وأنه لم يقصد مصر لاستصحاب قواتها لهذا الغرض . فقـال الرسول : « ستذكرون ذلك

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ١٢/٢٠٦ .

(٢) النسوي ، سيرة جلال الدين منكبرتي ص ٣٧٢ – ٣٧٤ ، النويري، نهاية الإرب (القسم المخطوط ٢٥/١٠٤ – ١٠٥).

حين تبلون بمجاورة التتار والأسف لم ينفع »[1] .

كان جلال الدين في حاني – بديار بكر – ينتظر جواب الرسالة فلما جاءه رسوله بالرد ، اتفق مع أمرائه على ترك معداتهم في ديار بكر ، والانسحاب بسرعة الى أصفهان في بلاد فارس . وفي اليوم التالي وصلهم رسول صاحب آمد الأرتقي برسالة تشتمل على تقديم الخدمة والطاعة. لجلال الدين فيها التوجه الى بلاد سلاجقة الروم ومحاولة الاستيلاء عليها واتخاذها قاعدة للصمود بوجه التتر ، فضلاً عن أن انتصاره على هؤلاء السلاجقة سيلقي الرعب في قلوب التتر وسيتيح له الإبقاء على التحالف مع القفجاق في شمالي أرمينية ، بناء على رغبة هؤلاء في التحالف معه ضد عدوهم المشترك ، وأوضح صاحب آمد في رسالته بأن السلطان إذا عزم على ذلك خرج هو بنفسه على رأس أربعة آلاف فارس ، وأنه لن يفارق خدمته إلا بعد تصفية بلاد سلاجقة الروم وضمها الى أملاك جلال الدين . وكان صاحب الروم قد أوغر صدر صاحب آمد ذلك العام ، بسبب استيلائه على عدد من القلاع التابعة له . فمال السلطان جلال الدين الى كلام صاحب آمد وعسكر عند جسر بالقرب منها « فكان مثله مثل الغريق يتعلق بما تصل إليه يده وقد قصر عن السباحة وكده »[2] . وانصرف جلال الدين تلك الليلة الى الشراب ولم يأخذ حذره من التتر الذين كانوا يلاحقونه آنذاك . وما أن طلع الفجر حتى قاموا بهجوم مباغت على معسكره وفرقوا جنده أيدي سبأ ، فانهزمت طائفة كبيرة منهم الى بلاد فارس وانهزم السلطان الى أسوار آمد والتتر خلفه . وكانت آمد قد اضطربت ، وظن أهلها أن

---

(١) النسوي ، سيرة منكبرتي ٣٧٢ – ٣٧٤ . النويري ، نهاية الإرب (القسم المخطوط ١٠٤/٢٥) .

(٢) النسوي ص ٣٧٧ – ٣٧٨ ، النويري (القسم المخطوط ١٠٤/٢٥ – ١٠٥).

الخوارزمية أرادوا الغدر بهم[1] فلم يفتحوا لسلطانهم الأبواب بل رموه بالحجارة واضطروه على الابتعاد عنها، فلما يئس من الالتجاء إليهم فرّ هارباً وبرفقته زهاء مائة فارس ، فوصل قرية من قرى ميافارقين .. وهناك جابهه التتر وقتلوا أكثر أصحابه وتمكن هو ثانية من الفرار . وجدّ التتر في طلبه الى أن أصابهم اليأس .. وفي إحدى الجبال القريبة من ميافارقين قتله أحد الأكراد[2] . وقد بلغ من شدة انهزامية المسؤولين في آمد أن رسول جلال الدين – الكاتب النسوي المعروف – التجأ إليهم بعد تمكنه من الهروب من التتر ، وعندما حاول مغادرة آمد الى الشرق للحاق ببقية الخوارزمية منعوه من الخروج طيلة شهرين[3] خوفاً من إثارة المشاكل ضدهم .

وما أن تمزقت قوات جلال الدين ، حتى انفتح الطريق أمام التتر في ديار بكر ، فراحوا، خلال مطاردتهم للسلطان، يقتلون وينهبون ويخربون ، فنهبوا سواد آمد وإرزن وميافارقين ، وقصدوا مدينة اسعرد فقاتلهم أهلها ، فبذل

---

(١) يذكر القزويني (آثار البلاد ص ٤٩٢) أن خوارزمشاه عندما اقترب من آمد وأخبره أحدهم بقرب التتر منه قال : إن هذا المخبر من عند صاحب آمد يريد إبعادنا عن أرضه .

(٢) النسوي ، سيرة ص ٣٧٨ – ٣٨٠ . ونقل عنه ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ورقة ١٠٨ آ – ب) ، ابن الأثير ، الكامل ١٢ / ٢٠٦ ، ابن العبري ، مختصر ص ٤٣١ – ٤٣٢ ، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان ٨ / ٦٦٦ ، ابن الوردي ، تتمة ٢ / ١٥٣ – ١٥٧ (عن النسوي) ، ابن خلدون ، العبر ٥/١١١٥ – ١١١٦ (عن النسوي) ، اليافعي ، مرآة الجنان ٤/٦٥ ، القزويني ، آثار البلاد ص ٤٩٢ ، ابن دحلان ، الفتوحات ٢ / ٥٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب (القسم المخطوط ٢ / ٢٧٣ – ٢٧٤) ، العمري ، مسالك الأبصار (القسم المخطوط ٣/٢٧/٢١٦ – ٢١٧) ، النويري ، نهاية الإرب (القسم المخطوط ٢٥/١٠٤ – ١٠٥) ، ابن دقماق . نزهة الأنام (مخطوطة ٢/٣) .

(٣) النسوي ، سيرة منكبرتي ص ٣٨١ – ٣٨٢ .

التتر لهم الأمان ، ولما وثقوا بهم واستسلموا لهم ، أعملوا فيهم السيف وكادوا أن يأتوا على آخرهم (حوالي خمسة عشر ألف قتيل) ، ثم توجهوا الى طنزى ففعلوا بها كذلك « وساروا في البلاد ، لا مانـــع يمنعهم ولا أحـد يقف بين أيديهم » فوصلوا الى ماردين ونهبوا مـا قدروا عليه من بلدهـــا ، واحتمى صاحبها وأهــالي المناطق المجاورة بالقلعـــة . ثم تقدم التتر الى نصيبين فنهبوا سوادها وقتلوا من ظفروا به ، وإذ استعصتْ عليهم عادوا عنهـا الى سنجار ونهبوا أعمالها ، ودخلوا الخابور فنهبوا وقتلوا ثم ولوا وجوههم شطر الموصل ، ففعلوا بها ما فعلوه في المناطق الأخرى ، ومن ثم عادوا الى ديار بكر ثانيـــة ونهبوا القرى المحيطة بآمد مرة أخرى ، وساروا منهـــا الى بدليس فأحرقوا مدينتها ، وتقدموا الى خلاط – في أرمينية ـ واستولوا على بعض أعمالها عنوة وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها في ذي الحجه[١] ومن ثم عادوا الى بلادهم .

يذكر ابن الأثـير أنه اطلع على كتاب موجه من أحد سكان الري في بلاد فارس الى بعض أصحابه في الموصل ، يبين فيه أن هدف التتر من عملياتهم هذه لم يكن النهب والتخريب « وإنما أرادوا أن يعلموا ، هل في البلاد من يردّهم أم لا ؟ فلما عادوا أخبروا ملكهم بخلو البلاد من مانع ومدافع ، وأنها خالية من ملك وعساكر ، فقوي طمعهم ، وسوف يقصدونكم .. فانظروا لأنفسكم[٢] »

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٢ / ٢٠٦ – ٢٠٧ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٣٠٦ ، ٦٠٧ ، ١١١٥ – ١١١٦ ، وذكرها باختصار كل من سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ٦٦٦ ، ابن الوردي ، تتمة ١٥٣/٢ – ١٥٧ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ١٣ / ١٢٨ – ١٢٩ . اليافعي ، مرآة الجنان ٦٥/٤، العمري ، مسالك الابصـار (القسم المخطوط ٢٧/٣ /٢٢٥ – ٢٢٦) ، ابن واصل ، مفرج الكروب (القسم المخطوط ٢٧٥/٢) .

(٢) الكامل ٢٠٨/١٢ .

وهكذا تحقق للتتر في هذه الهجمات ضعف الإمكانيات الدفاعية للجزيرة عامة وديار بكر خاصة ، بسبب التناحر الذي شهدته المنطقة آنذاك وعدم استجابة أمرائها لدعوة جلال الدين . ولذا فما أن اطمأن التتر الى هذه الحقيقة وهي « خلو البلاد من مانع » حتى بدؤوا استعدادهم لفرض سيطرتهم عليها .

وبمقتل جلال الدين انهارت القوة الإسلامية الأساسية التي وقفت بوجه الخطر التتري عقوداً طويلة ، ورغم ما أثاره الخوارزميون من انشقاقات ومنافسات في مناطق أرمينية والجزيرة إلا أنهم سعوا أخيراً الى توحيد الجبهة الإسلامية المقاومة للتتر ، وإذ لم يفلحوا في ذلك قرروا الانسحاب الى أصفهان ، ريثما ينظموا قوامهم من جديد ، ولكن المشروع الذي تقدم به صاحب آمد الأرتقي ، غيّر مجرى الأحداث ووجهها باتجاه معاكس تماماً ، إذ قرر جلال الدين إجابة طلبه وتقدم الى آمد للالتقاء بحليفه ، ولكن التتر جابهوه هناك وكان بإمكانه أن ينجو منهم لو أن حليفه وفى بما وعد وفتح له أبواب آمد ، ولكنه نكث بوعده خوفاً من العاقبة وترك جلال الدين يلاقي مصيره وحيداً .

وهكذا لعب صاحب كيفا وآمد دوراً رئيسياً في الأحداث الخطيرة التي تقررت على أثرها وجهة جديدة لسيرها ، ليس في المنطقة فحسب بل في العالم الإسلامي كله . وكان صاحب آمد ، بتحريضه جلال الدين على سلاجقة الروم ، في فترة ، كان التتر فيها يتهددون كيان المسلمين ، قد لعب دوراً سلبياً في سبيل تحقيق مآربه الشخصية وأعطى مثلاً على العراقيل التي وضعها الأمراء المحليون ، وعلى رأسهم الأراتقة ، في سبيل اتخاذ إجراء موحد ضد الخطر الجديد .

وفي نفس العام أعاد التتر الكرة على الجزيرة وأرمينية ، فقتلوا وأسروا وسبوا وتصدى لهم عسكر حران « فما رجع منهم إلا القليل » ، وما لبث التتر أن

تراجعوا لدى سماعهم بتقدم الكامل لقتالهم[1] . وأعقب ذلك قيامهم بهجمات عديدة على مناطق الموصل والجزيرة ، وأرمينية[2] ، وكان هدفهم الأول من ذلك كله هو معرفة مدى مقاومة أمراء هذه المناطق لهم ، ونقاط الضعف التي يمكن أن ينفذوا من خلالها الى أهدافهم .



وفي عام (٦٣٨ هـ = ١٢٤٠ م) ، انتقل التتر الى المرحلة الثانية من مخططهم تجاه المنطقة وهي العمل على إيجاد قواعد دائمة لهم فيها . فأرسل خاقانهم أوغطاي بن جنكيزخان رسالة الى صاحب ميافارقين الأيوبي مبتدأة بـ « من نائب رب السماء ماسح وجه الأرض ، ملك الشرق والغرب خاقان » وقال الرسول التتري لصاحب ميافارقين : « قد جعلك خاقان سلاح داره ، وأمرك أن تخرب أسوار بلدك » فأجاب : « أنا من جملة الملوك وبلادي حقيرة بالنسبة الى الروم والشام ومصر فتوجه اليهم وما فعلوه فعلته »[3]. وقد استهدف من ذلك كسب الوقت لكي يستطيع أن يعرف موقف بقية القوى الإسلامية من مطالب التتر في هذه المرحلة الجديدة . ولكن هؤلاء لم يسمحوا لأنفسهم بالانتظار وإنما اتخذوا ذلك التهديد وسيله لشن هجومهم على المنطقة . وقد تمكنوا في عام (٦٤١ هـ = ١٢٤٣ م) ، من الاستيلاء على أقسام واسعة من

---

(١) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨/٦٧٣ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٦/٢٧٨ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٨/٦٩٥ ، ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١١٠ب) ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٦/٢٩٣ ، المقريزي ، السلوك ١ / ١ / ٢٥١ - ٢٥٢ .

(٣) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨/٧٣٣. الذهبي ، دول الإسلام ٢/١٠٨ ، المقريزي ، السلوك ١/٢/٣٠٧ - ٣٠٨ .

Lanepoole, Mohammaden Dynasties P. 215.

بلاد سلاجقة الروم وإخضاعها لحكمهم ، ولكنهم أبقوا سلطانها عميلاً لهم يدفع اليهم كل سنة مبلغاً من المال [١] . وأخذوا يستخدمون هذه البلاد كقواعد لشن هجماتهم المستمرة على المناطق المجاورة وتوسيع نفوذهم فيها . وقاموا في العام التالي (٦٤٢ هـ = ١٢٤٤ م)، بمهاجمة ميافارقين فاضطر صاحبها شهاب الدين غازي الى مغادرتها لطلب النجدة تاركاً نائبه فيها. فنازلها التتر وضايقوها وقاموا من هناك بغارات على منطقتي آمد وماردين « وعاثوا في ديار بكر أشد العيث »[٢] ، فراسلهم نائب ميافارقين وصانعهم بمال فرحلوا عنها[٣] .

وفي عام (٦٥٠ هـ = ١٢٥٢ م) ، شهدت الجزيرة وديار بكر بالذات أعنف هجوم تتري بقيادة هولاكو شقيق منكوخان ملك التتر ، نهبوا خلاله معظم أعمال ديار بكر وقتلوا وأسروا ما يزيد على العشرين ألفاً ، وصادفوا قافلة خرجت من حران في طريقها الى بغداد عند رأس العين فصادروا أموالها وقتلوا تجارها ، وهرب الناس عبر الفرات خوفاً منهم ، ومن ثم عاد التتر الى خلاط[٤] .

---

(١) المقريزي ، السلوك ٢ / ١ / ٣١٣ ، اليافعي ، مرآة الجنان ١٠٤/٤ .

(٢) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ص ١٩٤ .

(٣) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١١١ ب) ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨/ ٧٥١ ، ابن الفوطي ، الحوادث ص ١٩٤ . وهو يخطىء في القول بأن التتر استولوا في هذه الكرة على ماردين صلحاً . وواضح أن ماردين حافظت على استقلالها الكامل حتى عام (٦٥٠ هـ = ١٢٥٢ م) .

(٤) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٧٨٧/٨ . المقريزي، السلوك ٣٨٣/١/٢ - ٣٨٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ١٨٢/١٣ ، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ٢٥/٧ ، ابن العماد ، شذرات ٢٤٩/٥ .

وإزاء هذه الهجمات اضطر أمراء المنطقة الى التوجه الى منكوخـان ملك التتر في أواخر عام (٦٥٠ هـ = ١٢٥٢ م) ، لعلهم يصلون عن طريق المفاوضة الى نتيجة تحفظ ممتلكاتهم لقـاء بعض التنازلات لعدوهم ، واجتمع لدى ملك التتر آنذاك كل من صاحب ماردين وصاحب الموصـل وصاحب ميافارقين وصاحب سيس الأرمني (ليفون بن هيثوم) ، وهناك جرى نقـاش حاد بين صاحب ماردين الأرتقي وصاحب ميافارقين الأيوبي ، إذ ادعى كل منهما أنـه أحق بالملك من صاحبه وأكبر بيتاً منه فقال لهما منكوخان: « ليصف كل منكما ملكه » ! فراح كل منهما يصف بلاده وممتلكاته وأخيراً أخذ منكوخان بيد الملك العادل صاحب ميافارقين وأجلسه فوق الملك المظفـر صاحب ماردين وقال أنت أكبر منه !! ثم أمرهما بالمصارعة فاصطرعا بين يديه فتغلب المظفر صاحب ماردين على الكامل ، فجهزهما الملك للعودة ، وكتب معهما كتاباً الى أخيه هولاكو المقيم في المنطقة يوصيه بهما ، وقال لهما عند وداعه : « لا تجتمعـا بي بعد ذلك إلا من أطلبه ، وأمركم عائد الى هولاكو[1] » !!



تعتبر تلك المقابلة حداً فاصلاً في علاقات الأراتقة الخارجية ، إذ أنهم منذ سنة (٦٥٠ هـ = ١٢٥٢ م) أعلنوا طاعتهم للتتر ودخلوا تحت حمايتهـم . وقد اضطر صاحب ماردين الى قبول هذه التنازلات بعد ما رأى من هجمات التتر على المنطقة ، وتهديد إمارته على أيديهم مراراً عديدة، وإدراكه أن الاستمرار على الوقوف بوجههم أو على الأقل اتخاذ موقف محايـد تجاههم ، سوف يؤدي الى اكتساح إمارته ، فأسرع مع بقية الأمراء لمقابلة ملكهم ، وحاول أن

(١) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١١٢ ب - ١١٣ آ) .

يستغل هذه المقابلة وقبول حماية التتر للتوسع على حساب جاره الأيوبي في ميافارقين ، فراح يمتدح ملكه وأنه أكثر عراقة من جاره ، وأدرك الملك التتري أن أمراء المنطقة وخاصة ماردين لم يكونوا ممن تخشى سطوتهم فراح يسخر منهم ويطلب أن يتصارعوا أمامه ، وربما كان صاحب ماردين قد استهدف من وراء هذه المقابلة أن يكسب الوقت ، ريثما يطلع على النتائج النهائيه للصراع بين التتر والقوى الإسلامية ، ليقدر بعد ذلك موقفه منهم . أما جاره صاحب ميافارقين ، فقد كان أكثر إخلاصاً وتفانياً في الدفاع عن استقلاله وعن كيان المسلمين ، إذ أنه ما أن عاد من المقابلة حتى خلع طاعتهم واعتقل نوابهم(١) .

في السنوات التالية ، وبينما كان الكامل - صاحب ميافارقين - يقوم باتصالات شخصية مستمرة بالناصر الأيوبي صاحب الشام لتوحيد خططهما بوجه التتار ، كان صاحب ماردين يتبع سياسة سلبية نحو التتر ، وما أن عاد الكامل من الشام عام (٦٥٥ هـ = ١٢٥٧ م) ، بعد مقابلته للناصر ، حتى وصلته الأخبار عن تقدم التتر الى بلاده لاكتساحها ، فعمل على اتخاذ الإجراءات الدفاعية استعداداً لمجابهة الهجوم التتري وذهب الى آمد ليجرد قوة عسكرية الى ميافارقين ، وحينذاك انشق عنه (الآوى) أحد كبار أمرائه بسبب حقده على سيده في قضية شخصية ، مما دفعه الى مكاتبة التتر وإعطائهم وعداً بالعمل على تسليمهم ميافارقين ، ومن ثم اتجه الى ماردين وأطلع صاحبها الملك السعيد على تحركات التتر ليأخذ حذره منهم ، وبقي الآوى في ماردين الى أن وصل التتر الى ميافارقين فتوجه اليهم(٢) .

---

(١) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١١٤ آ) ، ابن العبري ، مختصر ص ٤٨٣ .

(٢) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١١٥ آ) .

ما أن نزل التتر على ميافارقين[1] في عام (٦٥٦ هـ = ١٢٥٨ م) ، حتى وصلتهم نجدات الأمراء الذين دخلوا تحت حمايتهم منذ عام (٦٥٠ هـ = ١٢٥٢م) ، وهم صاحب ماردين وصاحب الموصل [2] . وفي مطلع صفر وصل الى ماردين الوفد الأيوبي لمفاوضة التتر بشأن ميافارقين ، وكان الوفد برئاسة عز الدين بن شداد ، المؤرخ المشهور ، يصحبه الملك المفضل صلاح الدين . وأقام الوفد بماردين ليلتين واجتمع بأميرها الملك السعيد ، وأنهى اليه رسالة شفهية من الملك الناصر ، تتضمن استشارته في أمر التتر ، فلم يجبهم صاحب ماردين بكلمة وقال : « قد ضجرت من نصحي إياه » فغادره الوفد الى ميافارقين ، وفي الطريق صادفوا قوة من التتر بالقرب من مدينة صور كانت بصدد الإغارة على الجزيرة ، فقدم لهم الوفد الأيوبي هدية واستأنفوا سيرهم بعد أن أرسلوا بطاقة الى ماردين وحران بتحذير أصحابها من العدو . وإذ لم تسفر مفاوضات الوفد مع التتر عن نتيجة[3] ، عاد ثانية الى ماردين واجتمع بصاحبها فقال هذا لابن شداد رئيس الوفد: «قد بلغني ما فعلته في حق المسلمين فجزاك الله خيراً » ثم قال : « أنا أقرض صاحبكم - أي الناصر - ثلاثمائة ألف دينار ، ويسيّر لي ثلاثة آلاف فارس أقترحهم عليه ، ويصل الى حلب بنفسه ، وله علي أن أرحل التتر عن ميافارقين ، فإذا بلغت غرضي من ذلك اتفقت معه على قصد الموصل وإخراجها من يد هذا المنافق » - يعني بدر الدين لولو - فاستحلفه ابن شداد على ذلك فحلف له . ومن ثم توجه الوفد الى حران فوافاه هناك

(١) يخطىء المقريزي (السلوك ٤١٤/١/٢) في قوله بأن التتر نزلوا أولاً على ماردين فلم ينالوا منها شيئاً فرحلوا عنها الى ميافارقين وحاصروها ، إذ لم يشر أي من المصادر الأخرى الى ذلك .

(٢) ابن شداد ، الاعلاق (مخطوطة ١١٥ ب - ١١٦ آ) .

(٣) المصدر السابق ، ورقة ١١٦ آ - ١١٧ آ .

كتاب صاحب ماردين يذكر فيه أن التتر ندموا على إقامتهم على ميافارقين وعزموا على ردك اليهم لتوفق بينهم وبين صاحبها ، فلم يلتفت الوفد الى ذلك واستأنف رحلته الى حلب وهناك وافاه كتاب آخر من صاحب ماردين يذكر فيه أن اشموط (القائد التتري) رحل عن ميافارقين واستخلف عليها (سباي) في ثلاثة آلاف رجل ليمنعوا صاحبها عن الخروج ، وكان السبب في رحيلهم كثرة الأمطار والثلوج وانعدام الأقوات وانتشار الوباء في خيولهم ، وكان رحيلهم في أواخر ربيع الأول ، ورسل الكامل تتواتر خلال ذلك الى دمشق مستصرخين دون جدوى . وقام ابن شداد بمقابلة الناصر وأطلعه على ما أشار به صاحب ماردين « فلم يحر جواباً »[١] ، ومن ثم عاد التتر الى ميافارقين وهاجموها بقوة وتمكنوا من فتحها (٦٥٧ هـ — ١٢٥٨ م) ، بعد أن هلك معظم أهلها دفاعاً عنها ، وقبض التتر على الكامل وقتلوه وطافوا برأسه في مدن عديدة ... وقاموا بإخراب أسوار ميافارقين[٢] .

ومن ثم تقدم هولاكو على رأس قواته الى آمد (التي كانت تابعة آنذاك لميافارقين يحكمها نائب الكامل) ، ونزل عليها في أواخر عام (٦٥٧ هـ = ١٢٥٩ م) ، وبعث رسله من هناك الى الملك السعيد صاحب ماردين يستدعيه اليه فسير اليه هذا ولده الملك المظفر قرا أرسلان وقاضي القضاة مهذب الدين

---

(١) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١١٨ آ — ب) .

(٢) المصدر السابق . ورقة ١٢١ ب ، أبو شامة ، ذيل الروضتين ص ٢٠١ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ١ / ٣٥٩ ، ٤٣٠ — ٤٣٢ ، ابن الفوطي ، الحوادث ص ٣٤٠ ويخطىء باسكبداله اسم الكامل بالأشرف ، رشيد الدين ، جامع التواريخ ص ٣١٩ ، ابن دحلان ، فتوحات ٢/٥٧ ، النويري ، نهاية الإرب (القسم المخطوط ٢٥/١٢٣ — ١٢٤)، خواند مير، حبيب السير ، المجلد الثاني ، الجزء الاول ص ٥٦ — ٥٧ .

محمد بن علي والأمير سابق الدين بلبان وهو من أكابر أمرائه ، وأرسل معهم هدية ورسالة تتضمن الاعتذار عن إبطائه عن المثول والحضور لمرض منعه عن القدرة والحركة ، ووافق وصول رسل صاحب ماردين استيلاء هولاكو على قلعة اليمانية ، العائدة لميافارقين ، وإنزاله من كان بها من حريم الملك الكامل وأولاده وأقاربه . فلما حضر رسل الملك السعيد لدى هولاكو أطلعهم على مصير آل الكامل ليؤثر على معنويتهم ويلقي في قلوبهم الرعب .. فلما قدموا الهدية وأدوا رسالة الاعتذار قال هولاكو : « ليس مرض الملك السعيد صحيح وإنما هو متمارض ، وقصد بذلك – انتظار – مقابلتي للناصر حتى يرى ما يتم لي معه ، فإن انتصرت عليه اعتذر بزيادة المرض ، وإن انتصر علي فتكون له – أي للسعيد – اليد البيضاء ، إذ لم يجتمع بي ، ولكن لو كان للناصر قوة كافية لم يمكني من دخول هذه البلاد . وقد بلغني أنه بعث حريمه وحريم أمرائه وكبراء رعيته الى مصر وهذا يدل على الهرب فلو نزل الملك السعيد إلي ، لرعيت له ذلك[1].ثم أمر هولاكو برجوع القاضي وحده واحتجز عضوي الوفد الآخرين. فعاد القاضي وأخبر السعيد بما جرى ، وأعلمه بأنه رأى عند هولاكو عز الدين وركن الدين ولدي غياث الدين سلطان سلاجقة الروم ، فتألم السعيد لهما وندم على إرسال ولده وبعث رسلاً الى الملك الناصر يستحثه على التقدم الى حلب ، ويعده أنه متى وصل اليها رحل هو اليه برجاله وماله ، كما أرسل رسولاً آخر الى هولاكو ليقدم اليه هدية ثانية – في الظاهر – وليتصل – سراً – بابن السعيد وولدي سلطان سلاجقة الروم ويحرضهم على الهرب فنفذ الرسول هذه المهمة وقال لعز

(١) ابن شداد ، ورقة ١٣٥ آ – ب . ونقل عنه اليونيني ١/٣٤٢ – ٣٤٣ ، وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٧/٥٤ ، وابن العماد ، شذرات ٥/٢٨٧ – ٢٨٨ ، السبكي ، طبقات الشافعية ٥/١١٦ – ١١٧ .

الدين بن سلطان سلاجقة الروم : إن هدف هولاكو من الإبقاء عليك هو تهديد الملك الناصر بك ، لا لمحبة لك ورغبة فيك فأوسعْ الحيلة في الانفصال عنه والحذر منه ، فشكره عز الدين على ذلك وقال « والله ما خرجت البلاد من أيدينا إلا بتخاذل بعضنا عن بعض فلو كانت الكلمة مجتمعة لم يجر علينا ما جرى »[1] .

* * *

الهجوم على ماردين وإخضاع الأراتقة :

استطاع هولاكو خلال ذلك أن يستولي على آمد وحران وسروج وعدد آخر من مدن وحصون الجزيرة[2] ، ومن ثم قرر إرجاء أمر ماردين ، ريثما يصفي حسابه مع الشام فعبر الفرات على رأس قواته الضخمة الى حلب واستطاع أن يستولي عليها في المحرم عام (٦٥٨ هـ = ١٢٥٩ م) ، وينشر في ربوعها القتل والفتك والدمار ، وكان صاحب ماردين ، خلال ذلك ، قد مرض وأشرف على التلف ثم شفي من مرضه وأرسل الى هولاكو يطلب منه إعادة الأمير سابق الدين بلبان أحد أعضاء وفده الى التتر ، فبعث به هولاكو اليه ، وكان قد استماله في مدة احتجازه عنده ، فلما اجتمع بصاحب ماردين أخبره بما لقي أهل حلب من القتل والسبي والفتك ليخوفه ، وأشار عليه بتسيير هدية أخرى ، ثم

---

(١) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٣٥ آ – ١٣٦ آ) ونقل عنه اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ١ / ٣٤٣ – ٣٤٤ . وانظر السبكي ، طبقات الشافعية ٥/١١٦ – ١١٧ .

(٢) ابن شداد ، ورقة ١٢٦ ب ، ابن العبري ، مختصر ص ٤٨٦ ، ابن الفوطي ، الحوادث ص ٣٤٠ ، رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ص ٣٠٦ ، ابن الوردي ، ٢/٢٠٢ ، ابن خلدون ، العبر ٥/١١٥٤ ، المقريزي ، السلوك ٢/ ١ / ٤١٩ .

قفل عائداً يصحبه رسول آخر بهدية الى هولاكو ، فلما وصلا اليه وجداه على عزاز وقد عاد من حارم ، فاجتمعا به وقدمـــا له الهدية وأشار عليه سابق الدين أن يستميل الرسول الآخر (عز الدين بن بطة) فاستدعاه هولاكو سراً وقال له « اقض لي حاجة اقض لك ألف حاجة ، قال ما هي ؟ قـال : أريد منك أن تعرفني ، هل أن الملك السعيد مريض حقيقة أم متمارض ؟ فقـال : كان متوعكاً وازداد مرضه عند أخذك حلب ثم عوفي ، فقـــال : إذا ألزمته بالمجيء فهل تعلم أنه يفعل ؟ قال : ما يفعل أصلاً ، قال لأي سبب ، قـــال : لأشياء كثيرة منها أنكم لا تفون لأحد ، ولا تقفون عند كلام تقولونه ، وأنكم تهينون الملوك ولا ترعون حقوقهم ، وأنكم تكلفوهم ما لا تطيقه نفوسهم ، وقد تحقق أنه متى نزل اليك قتلته ، قال : فإن قصدته فهل يقدر أن يمنع نفسه مني؟ قال : نعم ، قال بأي شيء قال: بحصانة قلعته ، وبما فيها من الذخائر والأقوات فإنه ادخر فيها قوت أربعين سنة » !! فلما فرغـا من الكلام قدم له هولاكو هدايا ثمينة استمالة له وصرفه ، فلما أصبح استدعـــاه وسابق الدين ، وكتب للسعيد جواباً مضمونه « إني قد أعفيتك من النزول فطيب قلبك » ثم اجتمع سراً بسابق الدين ، واتفق معه على استمالة أكابر أهالي ماردين وأعيانها وأمرائها وأجنادها ، وكتب لهم مراسيم بذلك وألزمه بتكفل هذا الأمر ، فأشار عليه سابق الدين أن يرسل معه الملك المظفر بن السعيد ليطمئن قلب أبيـه بذلك ، فأجابه الى ما طلب وسيره مع الرسولين ، فلما وصلا أديا الرسالة ، ثم خلا عز الدين بطة بالسعيد وعرفه ميل سابق الدين هولاكو « وأنه عليه لا له » ، وأن التتر سيفيدون من دسائسه ، ففت ذلك في عضد السعيد ، وكان قد سير سابق الدين بلبان – إثر ذلك – بهدية ثالثة ورسالة اعتذار الى هولاكو . وما أن غادر بلبان ماردين حتى اجتمع بعض غلمانه بالسعيد وعرفوه بميله الى هولاكو وقالوا له ، إنه متى اجتمع به أفسد عليك الأحوال وأن المصلحـــة أن تقبض

عليه قبل وصوله الى معسكر التتر ، وجاء ذلك تعزيزاً لما ذكره عز الدين بطة عنه ، فأرسل صاحب ماردين في طلبه يأمره بالعودة ليرسله ثانية الى هولاكو برسالة جديدة لأمر تجدد بعد مغادرته ماردين ، واتخذ ذلك حيلة للقبض عليه ، إلا أن أحد أمراء صاحب ماردين ، ممن حصلوا على مرسوم من بلبان ، أرسل غلاماً اليه ليطلعه على عزم صاحب ماردين القبض عليه ، فلحقه الغلام وهو على دنيسر وأبلغه الرسالة وأنه متى عاد الى ماردين قبض عليه ، فلحق بلبان بهولاكو ولم يعد الى ماردين ثانية[1] .

تأكد الملك السعيد من أن التتر لا بد وأن يقصدوا ماردين، فاستعد لقتالهم ونقل ما كان في البلد من الذخائر الى القلعة . وبعد أربعة أيام وصلت رسل من هولاكو يحملون هدية للملك السعيد ، وعقب ذلك بفترة قصيرة وصلت قوات التتر بقيادة هولاكو فنزلت على ماردين في مطلع جمادى الأولى سنة (٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ م) ، ولم يعلن هولاكو القتال طيلة ستة عشر يوماً . ويذكر ابن شداد أن هولاكو كان يقوم خلال هذه الفترة ، مع قواده ، بالاشراف على القلعة ودراسة تحصينها . ثم غادر وبعض قواته ماردين الى خلاط ، وأرسل من هناك رسالة الى صاحب ماردين يلتمس منه أن يفتح أبواب البلد ليدخل عسكره ويتمون منها بالأقوات والعلوفات أياماً قلائل قبل أن يرحل عنها . فأذن لهم السعيد بذلك فدخلوها وترددوا في الدخول والخروج بحرية تامة فلما كان عصر اليوم الثاني والعشرين من جمادى الأولى تسلق التتر أسوار البلد ودقوا الطبول وجردوا السيوف وهاجموا البلد فقاتلهم أهاليه في الأزقة والشوارع والمنعطفات ودام القتال ثلاثة وستين يوماً الى أن فتح لهم بعض مقدمي البلد

---

(١) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٣٦ آ - ١٣٧ آ) .

درباً فسيطروا عليه ودخلوا منه الى الجامع وصعدوا المنائر وأخذوا يرمون منها بالنشاب فضعف أهل البلد عن حفظ الدروب ، واستغل التتر الكنائس كنقاط للاحتماء « لباطن كان لأصحابها مع التتر » فانسحب أكثر أهالي البلد الى القلعة ، وتم للتتر الاستيلاء على البلد . ومن ثم بدؤا بمهاجمة القلعة ونصبوا عليها ستة مجانيق فلم يصل الى القلعة منها سوى ثلاثة أحجار ، واستمر الحصار الى أن خلت سنة (٦٥٨ هـ = ١٢٥٩ م) ودخلت سنة (٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م)[١] .

توفي الملك السعيد في السادس عشر من سنة (٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ م) ، وقيل في ذي القعدة وهو الأصح[٢]، بسبب وباء انتشر بين سكان القلعة وأهلك أكثرهم ، فتولى ابنه المظفر الحكم . ووصل الخبر بوفاة السعيد الى التتر ، فأرسلوا الى المظفر وطلبوا منه الدخول في الطاعة، فبعث اليهم رسولاً ليتعرف على ما أضمرته نفوسهم ، فلما اجتمع بمقدميهم وهما فطزنوين وجرمون قالا له : إن بين الملك المظفر قرا أرسلان وبين هولاكو وعداً أن والده متى مات وتسلم الملك بعده دخل في طاعته ، فقال لهم الرسول « هذا صحيح ولكن أنتم أخربتم بلاده وقتلتم رعيته فبأي شيء يدخل في طاعته حتى يداري عنه ؛ فقالا : قد علمنا ذلك ونحن نضمن له أن هولاكو متى اتصل به خبر وفاة الملك السعيد وأن ولده المظفر دخل تحت طاعته عمل ما كان تقرر بينهما ، وعوضه عما خرب من بلاده بلاداً عامرة مما جاوره » . فلما عاد الرسول الى المظفر وأخبره بما دار بينه وبين مقدمي التتر ، أعاده اليهم برسالة أخرى مضمونها « إن أردتم أن أسير رسلي الى هولاكو ، فابعثا إليّ رهائن من جهتكما تكون

---

(١) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٣٧ آ - ١٣٨ آ) .

(٢) أنظر ابن دقماق . نزهة الأنام (مخطوطة ص ١٢٨) .

عندي حتى يرجع رسلي » وترددت الرسل بين الجانبين إلى أن تم الاتفاق على أن يرسل (قطزنوين) ولده ويرسل (جرمون) ابن أخيه ، فلما صعد هذان الى القلعة بعث المظفر اليهم نور الدين محمود بن كاجار (شقيق السعيد لأمه) ، فأصحبه قطزنوين بسابق الدين بلبان وأرسلهما الى هولاكو - وكان حينذاك بالمراغة في بلاد فارس - فأديا مضمون الرسالة اليه كما سبق وأن تم الاتفاق عليه ، فأجاب الى ما تعهد به قائداه ولكنه احتجز رسل ماردين عنده ثم أصدر أوامره الى قواده بالجلاء عن ماردين فغادروا المكان في رجب عام (٦٥٩ هـ = ١٢٦١ م) ، ومن ثم أعاد هولاكو الرسولين الى ماردين وأصحبهم بكو هداي - أحد كبار أمراء التتر - فتوجهوا الى ماردين وتم عقد الصلح بين الطرفين . وأعلن كوهداي إسلامه على يد الملك المظفر فزوجه هذا أخته[١] .

ما لبث الملك المظفر أن توجه الى هولاكو في شهر رمضان من نفس السنة (٦٥٩ = ١٢٦١ م) ، واستصحب معه هدايا ثمينة من تحف ادخرها أبوه وأجداده ، فاجتمع به هولاكو وأكرمه « ثم قال له : بلغني أن أولاد صاحب الموصل هربوا الى مصر وأنا أعلم أن أصحابهم كانوا سبب ذلك، فاترك أصحابك الذين رافقوك عندي فإني لا آمن أن يحرفوك عني ويرغبوك في النزوح عن بلادك الى مصر ، وإذا ما دخلت البلاد فاستصحبهم معي » ، فأجابه المظفر الى ذلك ثم قفل عائداً الى بلده ، وفي الطريق لحقه رسل هولاكو وأمروه بالعودة اليه ثانية ، فعاد « وفرائصه ترتجف خوفاً ، والنوم لا يطرق له طرفاً » فلما اجتمع

---

(١) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٣٨ آ - ب) ونقل عنه اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ١/٣٧٨ - ٣٧٩ .

به قال له هولاكو ، إن أصحابك أخبروني أن لك باطناً مع صاحب مصر ، وقد رأيت أن يكون عندك من جهتي من يمنعك من - التسلل - اليه ، ثم عين لذلك أميراً يدعى (أحمد بغا) وأعادهما الى ماردين ، بعد أن أضاف الى المظفر نصيبين والخابور حسب الاتفاق السابق[١] ، ومنطقة لا يستهان بها من ديار بكر ضمت الى آمد التي كانت آنذاك في حالة اضمحلال ، وميافارقين ولربما اسعر[٢] كما ألحق بإمارته بعض المدن التي سيطر عليها التتر في الجزيرة كقرقيسيا ، حيث أبقى فيها التتر قوة لحفظ المعابر[٣] . وأمر هولاكو المظفر بهدم أبراج قلعة (ماردين) . وما أن فارقه هذا حتى ضرب هولاكو رقاب أصحابه وكان عددهم سبعين رجلاً من كبار أمراء ماردين وبعضهم من العائلة الأرتقية نفسها ، ولم يكن لأي من هؤلاء ذنب يذكر ، ولكنه قصد بقتلهم أن يقص جناح الملك المظفر[٤] .

وقد أورد رشيد الدين[٥] رواية تختلف في تفاصيلها وخطوطها العامة عما أورده ابن شداد فهو يذكر أن حصار ماردين تم بعد الانتهاء من فتح ميافارقين مباشرة ، أي قبل التوجه الى الشام ، إذ أشار هولاكو على قواده الذين استولوا على ميافارقين أن يتجهوا جميعاً لفتح ماردين حسب ما استقر عليه الرأي ،

---

(١) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٣٨ آ - ب) ونقل عنه اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ٤٥٧/١ - ٤٥٨ .

(٢) Enc. isl. art Artukids, New ed.

(٣) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ٤٥ آ) .

(٤) ابن شداد ، ورقة ١٢٨ آ - ب ، ونقل عنه اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ٤٥٧/١ - ٤٥٨ .

(٥) جامع التواريخ ص ٣٢٤ - ٣٢٦ .

ولدى محاصرتها عجبوا من ارتفاع قلعتها واستحكامها ، فأرسل القائد التتري (أرقتو نويان) الى الملك السعيد يطلب منه أن يهبط من القلعة ويعلن ولاءه لهولاكو « ملك العالم » ويتهدده إن لم يفعل ، فأرسل اليه السعيد يقول « كنت قد عزمت على الطاعة والحضور الى الملك ولكن حيث إنكم قد عاهدتم الآخرين ثم قتلتموهم بعد أن اطمأنوا الى عهدكم وأمانتكم فإني الآن لا أثق بكم ، وإن القلعة بحمد الله تعالى مشحونة بالذخائر والأسلحة ومليئة برجال الترك وشجعان الكرد » فأمر أرقتو آنذاك بنصب المجانيق ، وبدأ القتال الذي استمر ثمانية أشهر . ولما عجز التتر عن الاستيلاء عليها ، أغاروا على مدن ماردين ودنيسر وإرزن المحيطة بها .. وأخيراً ظهر الغلاء والقحط والوباء في القلعة ، فكان يموت كل يوم خلق كثير ، ومرض الملك السعيد وكان موقف ابنه المظفر من المشكلة مخالفاً له فكان يقول له : « إن من المصلحة النزول من القلعة إذ ليس في الإمكان مقاومة هذا الجيش » فلم يصغ اليه أبوه فاضطر الى ان يسقيه دواء ساماً قضى عليه ، وحينذاك أرسل الابن الى القائد التتري يقول : « لقد مات من كان يخالفكم ، فلو صدر الأمر بتوقف الجيش عن القتال فإني سأنزل وأسلم القلعة » فأمر القائد بالكف عن القتال ، ونزل المظفر مع حاشيته وأتباعه ؛ وقابل هولاكو فاعترضه هذا على قتل أبيه فأجابه « إنما فعلت ذلك لأني كلما تضرعت إليه وبكيت أمامه لكيلا يفرط في القلعة وفي دماء الناس لم يستجب لي ، فأقدمت على هذا العمل الخاص من أجل المصلحة العامة ، لأني عرفت أن القلعة ستفتح بإقبال الملك ، وأنه سوف يقتل عدة آلاف من الأبرياء ، فالحقيقة أن التضحية بدم واحد خير من التضحية بمائة ألف ، خصوصاً وإنه كان ظالماً معتدياً ، وقد قتل ابنه والناس غير راضين عنه . وأنا العبد معترف بذنبي ، فلو منحني الملك مقام أبي فإن له ما يشاء» فعفا عنه هولاكو وسلمه مملكة ماردين..

فلم يسلك سبيل البغي والعدوان أبداً ضد ملوك التتر .

يتضح من مقارنة هذه الرواية برواية ابن شداد كثرة نقاط الضعف فيها ، مما يجعلها موضع ثقة . فهي ترد بأسلوب قصصي يتسم بالمبالغة ، وتشير الى أن الابن سم أباه في وقت كان أبوه مريضاً بسبب الوباء الذي عم القلعة ، ولا داعي لتعجيل وفاته بالسم[1] من قبل ابنه الذي برر عمله أمـــام هولاكو بأنه أراد الحفاظ على أرواح مائة ألف نسمة ، كما تشير الرواية الى أن هولاكو اعترض على الابن لقتله أباه في الوقت الذي كان هدف الابن من الاغتيال – حسب سياق الرواية – فتح أبواب القلعة لقوات هولاكو . كما لا يعقل أن يقوم الابن بتسليم القلعة –ذات الإمكانيات الدفاعية الكبيرة – للتتر دون أية شروط أو تحفظات يستفيد منها في المستقبل . وقد أجمعت الروايات على أن هولاكو قام باحتجاز الابن فترة من الزمن جرت خلالها اتصالات عديدة بين التتر وصاحب ماردين ، ولا بد وأن هذه الاتصالات قد استغرقت فترة من الوقت ، بينما تشير روايـــة (رشيد الدين) الى أن هولاكو أمر قواته بحصار ماردين وضربها بعد سقوط ميافارقين مباشرة ، وقبـل التوجه الى حلب وذلك مخالف لسير الأحداث[2] وتصف هذه الرواية صاحب ماردين بالظلم كي تبرر قتله من قبل ابنه المظفر ، بينما يشير معظم مترجميه الى أنه كان عاد لأحسن السيرة . كما يشير كل من ابن

---

(١) انظر ابن دقماق ، نزهة الانام (مخطوطة ص ١٢٨) .

(٢) توجه هولاكو الى حلب في مطلع عام ٦٥٨ (السبكي . طبقات الشافعية ١١٦/٥ – ١١٧) ، وأرسل قواته من هناك لحصار ماردين (ابن دقماق ، نزهة الأنام مخطوطة ص١٢٠). ابن واصل ، مفرج الكروب (القسم المخطوط ٢ / ٣٩٤) ،

العبري[1] وابن الفوطي[2] الى أن الأب حين أحس بميـــل ابنه لاتباع الطريق السهل والاستسلام للتتر ، أمر باعتقاله . فكيف تسنى للأخير سم أبيه ؟ هــذا فضلاً عن أن مـــا أورده ابن شداد يعتبر أكثر وثوقاً لكونه عاصر هــــذه الأحداث وكان طرفـــاً في الاتصالات والمفاوضات الدائرة آنذاك بين مختلف القوى الإسلامية والتتر ، وعلى صلة بمعظم الشخصيات السياسية ، ثم إن حلب كانت مقر عمله ، وهي القريبة من مسرح الأحداث ، فلا يعقل أن يذكر بأنها سقطت قبل ماردين ، ثم يأتي مؤرخ آخـــر عاش بعده بفترة طويلة فيقرر العكس ، ولا بد من الإشارة أخيراً الى أن رشيد الدين عاش بعد فترة طويلة من هذه الأحداث ، وأنه كان المؤرخ الرسمي للتتر ، ونجد في كثير من رواياته تحيزاً واضحاً ، مما يجعلنا لا نركن الى كل ما يورده .



وهكذا غدت إمارة ماردين ولاية تترية ينفــذ أمراؤها مـــا يأمرهم به سلاطين التتر ونوابهم في ديار بكر ، ويلتزمون بالخطوط العامـــة لسياستهم

---

(١) المختصر ص ٤٨٨/٤٨٩ . ويذكر أن هولاكو طلب من صاحب ماردين النزول لمقابلته فأبى هذا وأرسل ولده المظفر – الذي كان في خدمة هولاكو سابقاً – فقال له هذا : تصعد الى أبيك وتطلب منه النزول إلينا وعدم العصيان ، فإن عصى لم يصب خيراً ، فلما صعد المظفر الى أبيه وخاطبه لم يستمع هذا الى مشورته بل اعتقله خوفاً من أن يستميله التتر . وآنذاك أحاط هؤلاء بماردين وبدأ القتال ، ولولا أن وقع فيها الوباء ومات أكثر أهلها وسلطانهم السعيد ، لمـــا استطاع التتر الاستيلاء عليها في مدى ثلاث سنين ، ومن ثم نزل المظفر الى التتر وسلم اليهم القلعة والخزائن وتحقق عند هولاكو ما جرى عليه من أبيه فلذلك أكرمـه وأحسن اليه وملكه موضع أبيـه .

(٢) الحوادث الجامعة ص ٣٤١ – ٣٤٢ . ويظهر أنه نقـــل روايته عن ابن العبرى ، باختصار .

الخارجية وتحركاتهم العسكرية ، ويقدمون لهم المال[1] والإمدادات العسكرية ويضربون السكة باسمهم ، ويخطبون لهم[2] ، كما هو السائد في مثل هذه الأوضاع ، كما غدت إمارة ماردين ، أسوة بغيرها من الإمارات المجاورة التي استولى عليها التتر أو دخلت تحت حمايتهم ، مركزاً عسكرياً لتجمع قوات التتر[3] وقيامهم بالتهديد المستمر للجهات الغربية من العالم الإسلامي ، وشن غاراتهم وحروبهم عليها بين الحين والآخر . كما غدت هذه المنطقة من جهة أخرى بمثابة الخطوط الخلفية التي تحمي قوات التتر في حالة توغلهم في الشام ، وتمدهم بالمؤونة والمال والرجال . وهكذا حقق هؤلاء بإدخالهم إمارة ماردين وغيرها تحت سيطرتهم[4] ، هدفهم الذي عملوا من أجله عقوداً عديدة ، وهو السيطرة على منطقة ديار بكر واتخاذها مركزاً لهجوم أوسع على الجهات الغربية من العالم الإسلامي .

نواب التتر على ديار بكر :

غدت ديار بكر ولاية تترية يحكمها نواب يعينون من قبل سلاطين التتر يقومون بالإشراف المباشر على القضايا العسكرية والسياسية والمالية للولاية[5] .

---

(١) انظر اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ٢٣٦/٢ ، رشيد الدين ، جامع التواريخ ١٧/٢ ، ٧٢/٢ ، ٧٦ ، أبو الفدا ، المختصر ٧٩/٤ ، المقريزي ، السلوك ١٤٧/٢/١ ، الصائغ ، تاريخ الموصل ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى ط ٢ ، ٣١٧/٤ .

(٣) رشيد الدين ، جامع التواريخ ٩٩/٢ وانظر ما يلي من الفصل .

(٤) المصدر السابق ٢ / ١٢ ، ١٣ ، ١٧ ، أبو الفدا ، المختصر ٤ / ٢ - ٣ ، ٦٨ ، ابن الوردي ، تتمة ٢١٨/٢ .

(٥) انظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ٢٩٦/٩ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ١٧٨/٢ - ١٧٩ ، وما يلي من الفصل .

وتقدم المصادر أسماء عدد من هؤلاء النواب وسنوات حكمهم . وأشهرهم الأمير (تودان) الذي عينه هولاكو[١] ، وعندما تولى أبا قاخان بن هولاكو سلطنة التتر عام (٦٦٣ هـ = ١٢٦٤ م) ، عين (دور باي نويان) ليشرف على الأمور العسكرية في ديار بكر ، كما عين كلاً من (جلال الدين طرير) والملك (رضا الدين بابا) ليشرفا عليها من النواحي الإدارية والمالية ، وعهد بديار ربيعة الى الملك المظفر فخر الدين قرا أرسلان الأرتقي[٢] ، مما يشير الى أن الهدف الاقتصادي ، فضلاً عن النواحي العسكرية والستراتيجية ، كانت تشكل العوامل الأساسية في تشبث التتر بديار بكر ،وليس العامل السياسي او الإداري كما قد يتبادر الى الأذهان ، بدليل إعطائهم ديار ربيعة لقرا أرسلان أمير ديار بكر على سبيل الإقطاع لكي يجبي ما قدره تلك المنطقة لحسابه الخاص ، وهي فقيرة إذا ما قورنت بثروات ديار بكر عامة . ويوضح هذه الحقيقة ما قام به أبا قاخان نفسه في عام (٦٦٦ هـ=١٢٦٧م)، من إقطاع بعض مواضع ديار بكر لأفراد عائلة هولاكو على طريقة (الضمان) ، أي أن يقدموا اليه مبلغاً سنوياً من المال . وكانت هذه المواضع تدر عليهم كل سنة مائة ألف دينار[٣] . كما يتضح مما سلف أن التتر لم يكتفوا بتعيين نائب واحد على ديار بكر بل كانوا يعينون أحياناً نائبين أو ثلاثة نواب معاً[٤] . ويذكر اليونيني – في أحداث عام (٦٧٤ هـ = ١٢٧٥ م) – أن مقطع ديار بكر آنذاك كان (بهاء الدين بن حسام الدين بيجار النابتري) وأنه اتفق سراً مع البرواناه، أحد حكام سلاجقة الروم ، على التحالف مع مماليك الشام وأن يقدموا اليهم ما كانوا يؤدونه

---

(١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ٣٣٨ .
(٢) المصدر السابق ٢/١٣ .
(٣) رشيد الدين ، جامع التواريخ ٢/١٧ .
(٤) الصائغ ، تاريخ الموصل ص ٢٤٣ ،

للتتر[١] . وكان ذلك بداية حركات التمرد التي قام بهـا نواب التتر في المنطقة والتي سيرد ذكرها فيما بعد .

وفي عام (٦٧٨ هـ = ١٢٧٩ م) كان (بيوراجو بن دورباي) حاكماً على ديار بكر[٢] . وعندما تولى أرغون بن هولاكو سلطنة التتر عـام (٦٨٣ هـ = ١٢٨٤ م) عين كلاً من جوشكاب وبايدو وأروق ليحكمـوا ديار بكـر والعراق[٣] . وقد قام الأخير بمؤامرة ضد السلطان التتري فأرسل هذا من قبض عليه وقتله (٦٨٨ هـ = ١٢٨٩ م)[٤] وقد حاول السلطان أرغون أن يعطف على جوشكاب ويعيده الى منصبه ولكن محاولة هـذا للتوجه الى الشام ألـّبت السلطان ضده فأرسل اليه قوة بقيـادة عدد من الأمراء أدركوه قريبـاً من ميافارقين فقاتلهم وتمكن من الهروب إلا أنهم استطاعوا القبض عليه بعد ثلاثة أيام وسلموه الى أرغون فقتله في نفس العام[٥] ، وعهد بديار بكـر الى شخص يدعى أمين الدولة[٦] . ثم يرد بعد ذلك أن (اسنبغا) كان يحكم ديار بكر في حدود عام (٦٩٥ هـ = ١٢٩٥ م) ، ويظهر أن هذا لم يستطع القيام بمنصبه على الوجه الأكمـل ، فعزله غازان سلطـان التتر في تلك السنة وعين بدله (بولاي) ، وطلب منه إلقاء القبض على (طرغاي) زعيم إحدى القبائـل التترية الكبيرة بسبب تآمره على البيت المالك ، وحدثت بين الطرفين معركة

---

(١) ذيل مرآة الزمان ٣/١١٦ - ١١٧ .

(٢) رشيد الدين ، جامع التواريخ ٢/٨٩ .

(٣) المصدر السابق ٢/١٢٨ .

(٤) المصدر السابق ص ٢/١٤٧ ، ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ص ٤٥٧ .

(٥) رشيد الدين ، جامع التواريخ ٢/١٤٨ - ١٤٩ .

(٦) رشيد الدين ، جامع التواريخ ٢/١٥٢ .

قتل خلالها عدد كبير من أتباع بولاي وفر طرغاي الى دمشق[١] . وتشير هذه الأحداث الى أن حكام ديار بكر لم يكونوا على مستوى واحـــد من حيث طبيعة مسؤولياتهم في المنطقة بـل اقتضت الظروف من بعضهم أن تكون مسؤولياتهم عسكرية أكثر مما هي اقتصادية أو إداريـة وبالعكس[٢] . وقد أعقب بولاي حاكم آخر يدعى جنكلي بن البابا في حدود عـــام (٦٩٨ هـ = ١٢٩٨م)[٣]، ويشير المقريزي الى أن حكام الشام استقبلوا في عام (٧٠٣ هـ = ١٣٠٣ م) حاكم ديار بكر التتري الأمير (بدر الدين جنغلي بن البابا) الذي فرّ من ديار بكر بأهله وأتباعه ، ربما تخوفاً من نوايا السلطان ، وقد عين هذا بدله أميراً يدعى (قبرتو)[٤] ، ثم أعقبه على ديار بكـــر (النوين بلك) حتى عام (٧٠٩ هـ = ١٣٠٩ م)[٥] ، حيث توفي ، فقام السلطان خربنـدا بتعيين الأمير (سيف الدين سوتاي بن عبد الله) وقد حارب هذا أحد المتمردين على السلطان وقتله ومن ثم عزم على التوجه الى حلب، فاتخذ حكامها الاستعدادات لهذا الهجوم الذي لم يتحقق[٦] . ويعد سوتاي من أهم الحكام الذين استنابهم التتر في ديار بكر لطول فترة حكمه (٧٠٩ – ٧٣٢ هـ = ١٣٠٩ – ١٣٣١ م)، وللمكانة الكبيرة التي كان يتمتع بها لدى جميع ملوك التتر ، ولكونه كان

---

(١) ابن الفرات ، تأريخ ٢٠٣/٨ – ٢٠٤ .

(٢) انظر المقريزى ، السلوك ٥٥/٢/١ – ٥٦ .

(٣) المصدر السابق ٨٧١/١/٣ .

(٤) المصدر السابق ٣/١/ ٩٥٥ – ٩٥٦ .

(٥) ابن حجر ، الدرر الكامنة ١٧٨/٢ – ١٧٩ ، الصفدي ، نكت الهميان ص ١٦١ – ١٦٢ .

(٦) المقريزي ، السلوك ٥٥/٢/١ – ٥٦ .

محبوباً لدى رعيته ولحزمه وسياسته[١] ، ولذا يصفه ابن تغري بردي بأنه كان من أجل ملوك ديار بكر ، وأنه كان ذا رياسة ووقار[٢] .

توفي سوتاي عام (٧٣٢ هـ = ١٣٣١ م) واعقبه ابنه حاجي توغاي ، وقد حاول سلطان المماليك في عهده ، النـاصر محمد (٦٩٣ – ٧٤١ هـ = ١٢٩٣ – ١٣٤٠ م) عقد تحالف معه ، سعى الى تحقيقه عن طريق إقامة علاقة مصاهرة بين الطرفين ، ومن ثم أرسل سفيره الى توغاي . ولكن هذا لم يستجب لدعوة الناصر الذي كان غرضه من ذلك تقوية مركزه في المنطقة ضد الأمراء المعادين. وقد انتهى حكم توغاي بمقتله[٣] .

أعقب توغاي على حكم ديار بكر ابن أخي سوتاي إبراهيم شاه بن بارنباي ابن سوتاي عام (٧٣٦ هـ = ١٣٣٥م) ، واستمر في الحكم حتى عام (٧٥١ هـ = ١٣٥٠ م)[٤] ، ويظهر أن ولاية ديار بكر التترية غدت في تلك الفترة شبه وراثية بدليل ذكـــر القلقشندي لعبارة « سوتاي وبنيه »[٥] ، كما يذكر أن إبراهيم شاه هذا استولى على ديار بكر بعد وفاة السلطان أبي سعيد[٦] ، آخر

(١) ابن حجر ، الدرر الكامنة ١٧٨/٢ – ١٧٩ ، الصفدي ، نكت الهميان ص ١٦١ – ١٦٢ ، ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (مخطوطة ١٣٨/٢) .

(٢) النجوم الزاهرة ٩ / ٢٩٦ . وانظر المنهل الصافي (مخطوطة ١٣٨/٢) ، والصفدي ، نكت الهميان ص ١٦١ – ١٦٢ .

(٣) سرور ، بني قلاوون ص ٢١٣ ، ٢١٥ – ٢١٦ .
Howorth, History of the Mongols, Vol. 111, pp. 637—38, 641—47.

(٤) القلقشندي ، صبح الأعشى ط ٢ ، ٤٢١/٤ ، ابن حجر ، الدرر ١٩/١ ، الغزاوي ، النقود ٦٨ – ٩٦ .

(٥) صبح الأعشى ص ٢٦٣/٧ .

(٦) القلقشندي ، مآثر الأنافة ١٤٠/٢ .

سلاطين التتر الأقوياء عام (٧٣٦ هـ = ١٣٣٥ م) ، ويظهر أنه استغل سقوط الدولة التترية في العراق هذه السنة وقيام الدولة الجلائرية[١] فجعل حكمه لبعض مناطق ديار بكر شبه مستقل . ومنذ ذلك الوقت لم تعد تربط الأراتقة بهؤلاء النواب أية التزامات سياسية أو اقتصادية كما كان الحال في السابق ، لأن هؤلاء النواب غدوا أمراء شبه مستقلين شأنهم بذلك شأن الأراتقة أنفسهم الذين قطعوا خطبتهم لحكام العراق سواء من التتر او الجلائريين ، إثر وفاة أبي سعيد[٢] .

لم يكن مقر نواب التتر في المنطقة ثابتاً ، فتارة كانوا يحكمون بالقرب من آمد[٣] ، وتارة بالقرب من الموصل[٤] ، وكانت هذه في كثير من الأحيان تعتبر كرسياً لإقليم ديار بكر أي عاصمة إدارية له[٥] وكان هذا الإقليم يضم من الناحية الإدارية مدناً خارجة عن نطاقه كسنجار وحران وجزيرة بن عمر ، مما جعل الأفضلية في إدارته للموصل [٦] ، نظراً لموقعها الوسط . كما اتخذ بعض الحكام مثل سوتاي المناطق المجاورة للموصل مقراً له ، فنجده يشتّي سنوياً في (بلد) جنوبي الموصل ، ويقضي أوقاته الأخرى (بتومائة) القريبة

---

(١) انظر زامباور ، معجم الأسرات ٢/٣٧٧ و

Howorth, op. cit., 111/654—679.

(٢) انظر القلقشندي ، صبح الأعشى ط ٢ ، ٤/٣١٧ وما يليه من هذا الفصل .

(٣) الدواداري ، كنز الدرر ٩/١١٣ .

(٤) ابن حجر ، الدرر ٢/١٧٨ — ١٧٩ .

(٥) ابن دقماق ، نزهة الانام (مخطوطة ص ١٢٤) ، ابن دحلان ، الفتوحات ٢/٧٤ ، الصائغ ، تاريخ الموصل ص ٢٣٥ و ٢٥٠ .

(٦) انظر ابن دقماق ، نزهة الانام (مخطوطة ص ١٢٤) .

من الموصل[1] . ولم تكن العلاقة الإدارية بين هؤلاء الحكام وأمراء الأراتقة في ماردين واضحة تماماً بسبب انهماك معظمهم ، إما بجمع المـــال وتنمية موارد إقطاعاتهم ، أو بإثارة الفتن والمؤامرات من جهة ، ومحاولة القضاء عليها بأمر من التتر من جهة أخرى ، وهي أمور عسكرية لا علاقة لها بالإدارة .

دور الأراتقة في الصراع بين التتر والمماليك :

وما أن غدت ديار بكر ولاية تترية حتى بدأ الصراع الذي استمر عهوداً طويلة بين التتر المعسكرين هناك ، وبين القوات الإسلامية في مصر والشام التي كان يحكمها المماليك آنذاك . وكانت الجزيرة بصورة عامة وديار بكر بشكل خاص المسرح الأساسي لهذا الصراع . وراحت الانتصارات والهزائم تتوالى على الطرفين ، دون أن تستقر على أحدهما[2] . ومن الواضح أن الصراع بين التتر والمماليك كان أمراً طبيعياً بين جارين ، آمن كل منهما بفكرة الحرب ومبــدأ الغزو واتخذ هذا المبدأ محوراً لنشاطه ومجالاً لحياته[3] ، وقد واصل أمـــراء الأراتقة خلال ذلك مساعداتهم وإمداداتهم للتتر بحكم دخولهم تحت حمايتهم ، فضلاً عن أن ماردين غدت مركــزاً لتجمع المهاجـــرين واللاجئين من سكان

---

(١) الصفدي ، نكت الهميان ص ١٦١ ، ١٦٢ .

(٢) انظر اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ٢/٨٩ ، ١٠٨ ، ١٥٢ ، ٣١٨ ، ٣٦١ ، ٤٦٨ – ٤٦٩ ، ٤٧١ ، ٣/٢ – ١٧٥ – ١٧٦ ، ٢٩١ ، ٤/٤٦ ، ٩٨ ، ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ٢٩ ب) ، المقريزي ، السلوك ٢/١/٤٧٣ ، ٥٧٩ ، ابن كثـــير ، البداية والنهاية ١٣/٢٤٤ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٨٣٨ ، ابن الفرات ، تأريخ ٧/٣١ .

(٣) عاشور ، العصر المماليكي ص ٤٢ عن :

Wiet, L'Egypte Arabe, P. 431.

المنطقة ، أولئك الذين شردتهم الحروب المتواصلة بين التتر والمسلمين[١] .

ففي أوائل المحرم من عام (٦٦٠ هـ = ١٢٦١ م) ، اشترك المظفر صاحب ماردين وقواته مع التتر بقيادة (صندغون) في حصار الموصل ، ولم يكن مع الملك الصالح بن لولو صاحب الموصل آنذاك سوى قوة ضئيلة ، فنصب التتار المجانيق عليها وضايقوها مضايقة شديدة ، فاستنجد صاحبها بشمس الدين البرلي نائب المماليك في حلب فتقدم هذا الى سنجار ، فخافه التتر وقرروا الانسحاب[٢] ، لولا أن أحد الأمـــراء المنشقين على المماليك - وهو الزين الحافظي - كان قد وصل آنذاك الى ماردين مبعوثاً من قبل هولاكو ، فأرسل الى التتر يعرفهم أن (البرلي) في جماعة قليلة ، وأشار عليهم بالتوجه لقتاله لكيلا يوصفوا بالضعف فيطمع فيهم[٣] . وحينذاك تقدم صندوغون على رأس قوة من التتر قوامهـــا عشرة آلاف فارس والتقى بالبرلي عند سنجار فدارت الدائرة على الأخير ، ومن ثم عاد صندغون الى الموصل ليشرف على عمليات الحصار التي استمـــرت حتى مطلع شعبان . وأرسل التتر الى الصالح يطلبون خروجه للتفاوض معهم ، وإلا فتحوا الموصل عنوة وأعملوا فيها السيف ، فخرج هـذا اليهم في الخامس عشر من شعبان بعد استشارة أصحابه ، فقبض عليه التتر ونادوا بالأمـــان في الموصل ، فلما أمنهم الأهالي دخلوا في الحادي والعشرين من شعبـان وأجالوا السيف فيهم وهدموا أسوار المدينـــة ، وقتلوا ابن الصالح ، ثم قفلوا عائدين

---

(١) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ٢٠ ب) ، الذهبي، دول الإسلام ٢/١٣١ .

(٢) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ١/٤٩٢ ، خواند مير ، حبيب السير ٢/١/٥٧ - ٥٨ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٧/١١ - ٨) .

(٣) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ٥٧ آ) .

وقتلوا الصالح في طريقهم[١] .

وهكذا كان لصاحب ماردين – كتابع للتتر – دور في هـذه النهاية التي لحقت بالموصل وقضت عليها كإمارة مستقلة . وكان باستطاعته رغم دخوله في طاعة التتر أن يلجأ الى أساليب أكثر تضحية ، للتخلص من الإسهام معهم في إنزال المجازر بالمسلمين ، وذلك بلجوئه الى المماليك في مصر أو الشام كما فعل بعض أمراء المنطقة كصاحب جزيرة ابن عمر وصاحب سنجـار[٢] . ولكن يظهر أنه كان يؤثر السلامة دائماً والحفاظ على إمارته ولو كلفه ذلك المشاركة في موقف كالموقف السابق إزاء الموصل وكان خضوعه للتتر كما قـال اليونيني « من جملة سعادته واستـمراره في المملكة الى حيث توفي »[٣] سنة (٦٩٣ هـ = ١٢٩٣ م) .

وفي السنوات التي أعقبت ذلك استمر الصراع في المنطقة بين التتر والمماليك بقواتهم النظامية وغير النظامية ، دون أن يسفر عن نتيجة حاسمة[٤] . وكانت بعض الهجمات التي شنتها قوات المماليك تصل أحياناً الى قلب إمارة ماردين كما حدث عام (٦٧٣ هـ = ١٢٧٤ م) ، حيث وصلت هذه القوات ومن يتبعها من المتطوعين الى رأس عين التابعة لماردين ، فهاجموها وغنموا غنائم كثيرة ، وبوغت التتر بهذا الهجوم فولوا منهزمين « وكان قصد السلطان – بيبرس – من

---

(١) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ١ /٤٩٢ – ٤٩٥ ، خواند مير ، حبيب السير ٢/١/٥٧ – ٥٨ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٧/١١ – ٨) .
(٢) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ٤٩٥/١ .
(٣) المصدر السابق ٤٥٨/١ .
(٤) انظر هامش رقم ٧٥ من هذا الفصل .

هذا أن يشغل تلك الجهات »، ومن ثم عاد المهاجمون دون أن تلحق بهم خسائر تذكر[1] .

وفي عام (٦٧٥ هـ = ١٢٧٦ م) قامت قوة من المغيرين ، بقيادة الأمير المملوكي فخر الدين طغاي البحري ، بمباغتة دنيسر العائدة لماردين بهجوم خاطف ، فنهبت ما تيسر نهبه وقتلت نحو ثلاثين نفراً وأسرت جماعة من النصارى ، وقد غضب صاحب ماردين لوقوع هذه الغارة على بلاده[2] .

وخلال ذلك كله كان صاحب ماردين يسهم بقواته مع التتر في حروبهم وهجماتهم ، وكان من أبرز تلك الحروب ، الحصار الذي فرضه هؤلاء على البيرة التي كان يحكمها نائب عن المماليك . إذ نزلت قوات الأراتقة والتتر وحلفائهم على الموقع المذكور في الثامن من جمادى الآخرة عام (٦٧٤ هـ = ١٢٧٥ م) ، وفرضوا عليها الحصار ، إلا أن حصانة البيرة وكثرة أقواتها ، وما أصاب التتر وحلفاءهم من ضعف بسبب انتشار الوباء والغلاء في معسكراتهم ، فضلاً عن سماعهم بتقدم بيبرس لقتالهم ، اضطرهم الى الانسحاب في نفس الشهر[3] .

وفي عام (٦٧٩ هـ = ١٢٨٠ م) اشترك صاحب ماردين في الحملة التي جهزها التتر للاستيلاء على الشام ، إذ وصلت الى السلطان إبغا بن هولاكو رسائل من بعض الأمراء المنشقين على المماليك ، يخبرونه فيها عما حدث بين المسلمين من اختلاف ، وأن الفرصة سانحة لمهاجمة الشام . فجهز إبغا قواته

---

(١) ابن الفرات ، تأريخ ٣١/٧ .

(٢) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ١٨٦/٣ – ١٨٧ .

(٣) المصدر السابق ١١٦/٣ – ١١٧ . ونقل عنه ابن كثير ، البداية والنهاية ٢٦٩/١٣ ، ابن الفرات ، تاريخ ٤١/٧ .

بقيادة منكوتمر بن هولاكو ، وانضم اليها صاحب ماردين بقواته . ومـا أن وصلت أخبار تحركات التتر الى الشام في أوائل جمادى الآخرة حتى استعدت القوات المصرية والشامية للقتال، فاكتفت القوات التترية بتخريب بعض الجهات الشمالية في الشام وعادت الى بلادها[1].

وفي العام التالي اشترك صاحب ماردين وقواته في هجوم تتري آخـر على بلاد الشام ، وكان سببه تذمر إبغا ، سلطان التتر من قيـام الشاميين بهجمات مستمرة على حدود الروم وديار بكر فكانوا « يدمرون بلاد المسلمين ويأكلون الغلال ويثيرون الفتن[2] . وقد تقدم التتر ، في جمادى الآخـرة ، بأعدادهم الضخمة التي أربت على الثمانين ألف فارس واتجهت فرقة منهم الى الرحبـة بقيادة إبغا يصحبه أمير ماردين . واستعد المسلمون للقتال بينما أخذت القوات التترية تتقدم باتجاه حلب ، وراحت تستولي على الجهـات الشمالية من الشام ، وتمكن إبغا وأمير ماردين من الوصول – سراً – الى الرحبة على رأس ثلاثة آلاف فارس ، ونازلوا قلعتها في أواخر جمادى الآخرة ، وكان الهدف الرئيسي لهذه القوة هو مراقبـة التحركات في الشام وانتظار نتيجة اللقـاء بين التتر والمسلمين . وقد حدث هذا اللقاء في منتصف رجب وانتهى بهزيمة التتر ومـا لبث السلطان قلاوون أن جرّد من دمشق عسكراً الى الرحبـة لاجلاء من عليها من التتر . وكان إبغا قد انسحب الى بغداد لدى سماعه بهزيمة اتباعه[3] ،

---

(١) ابن الفرات ، تأريخ ١٨٥/٧ – ١٨٦ .

(٢) رشيد الدين ، جامع التواريخ ٨٢/٢ – ٨٣ .

(٣) ابن الفرات ، تاريخ ٧ / ٢١٢ – ٢٢١ ، المقريزي ، السلوك ٦٩٠/١/٣ – ٦٩٩ ، ابن خلدون ، العبر ١١٥٦/٥ .

والراجح أن أمير ماردين فارقه آنذاك عائداً الى إمارته .

* * *

وفي عام (٦٨١ هـ = ١٢٨٢ م)، تحول مجرى العلاقات السياسية والعسكرية بين التتر والمماليك على أثر إعلان السلطان التتري الجديد (بكدار بن هولاكو) إسلامه وتسميته نفسه باسم (أحمد) ، وتغيرت تبعاً لذلك العلاقات الخارجية لإمارة ماردين . فقد حاول السلطان أحمد الاتصال بسلطان المماليك لإنهاء الخلافات والحروب بين الطرفين ، وذلك بعقد صلح عام بينهما ، وأرسل في نفس العام وفداً الى مصر للتفاوض مع المماليك بهذا الشأن وقد ضم ذلك الوفد ثلاثة أعضاء بضمنهم الصاحب شمس الدين محمد بن الصاحب وزير صاحب ماردين . وعندما وصل الوفد الى البيرة التابعة للمماليك أمر السلطان بالاحتراز عليهم وتسفيرهم بصورة سرية الى مصر . ولدى وصولهم اليها في أواخر رجب قرؤوا على السلطان قلاوون نص كتاب السلطان أحمد ... من أنه حكم التتار ، وهو مسلم وأنه أمر ببناء المساجد والمدارس والأوقاف وتجهيز الحاج ، وأنه يطلب اجتماع الكلمة وإخماد نار الفتن والحروب.. وأن لا حاجة لبث الجواسيس من قبل الطرفين ، بعد الاتفاق واجتماع الكلمة .. وأنه كتب كتابه هذا من واسط في العراق في جمادى الأولى . فقوبل ذلك بالترحيب من قبل السلطان ، وكتب رسالة تهنئة الى السلطان أحمد على إسلامه ، وأنه مستعد لعقد الصلح معه . وقال لأعضاء الوفد « إنني لا أثق إلا بكلامَ الشيخ عبد الرحمن الشيرازي رئيس الوفد – لما أعلم من دينه ومن حكمه على الملك أحمد وعلى وزير صاحب ماردين » ومن ثم عاد الوفد الى بلاده في السادس من شوال لتقرير أمور الصلح[١] .

---

(١) ابن الفرات تأريخ ٧/٢٤٨ – ٢٤٩، اليونيني، ذيل مرآة الزمان ٤/١٤٥، ١٤٧=

وفي عام (٦٨٢ هـ = ١٢٨٣ م) عاد الوفد ثانية الى الشام يصحبه عدد كبير من أعيان التتر والموصل وماردين[١] ، لغرض إكمال المفاوضات وتقرير قواعد الصلح بشكلها النهائي ، واتجه الوفد في ربيع الآخر في طريقه الى البيرة . ولكن مقتل السلطان أحمد في هذه الفترة وعدم اطلاع الوفد على ذلك ، جعله يلاقي صعوبات بالغة في سفره الى الشام « فقد استعجمت عليهم الأخبار وبقي كل من يحضر اليهم يمسك وتؤخذ كتبه » كما جردوا من السلاح ومنعوا من التحدث مع بعضهم ، وسيروا شبه مخفورين الى دمشق[٢] وهناك اجتمع السلطان قلاوون بهم في الثاني من جمادى الآخرة عام (٦٨٣ هـ = ١٢٨٤ م) ، فسلموه رسالة أحمد التي حررها قبل مقتله ، فأعلمهم السلطان بمقتله وأنه لا داعي للاستمرار في المفاوضات . ومن ثم عاد الى القاهرة وبقي أعضاء الوفد في دمشق حيث قلت العناية بهم ، وأعقب ذلك قيام نائب دمشق باعتقالهم في القلعة بسبب بعض الأموال المالية والعينية التي كانت بحوزتهم . وبقوا في الاعتقال حتى وفاة الشيخ عبد الرحمن الشيرازي رئيس الوفد[٣] . أما الأعضاء الآخرون

= النويري ، نهاية الإرب (القسم المخطوط ١٢٨/٢٥) . وانظر النص الكامل لرسالة أحمد بن هولاكو وجواب المنصور قلاوون عليها في ابن أبي الفضائل ، النهج السديد ص ٣٣٦ - ٣٦١ ، بيبرس المنصوري ، زبدة الفكرة (ملحق رقم ٧ ج ١ من السلوك : للمقريزي ص ٩٧٧ - ٩٨٤) ، عبد الظاهر ، تشريف الأيام ص ٥ - ٦ ، ٦ - ١٠ ، ١٠ - ١٦ - ٦٩ - ٧١ ، القلقشندي ، صبح الاعشى ط ٢ ، ٦٥/٨ - ٦٨ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٨٦٠ ، ١١٥٧ .

(١) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ٢١٥/٤ .

(٢) المصدر السابق ٢٠٥/٤ - ٢٠٦ .

(٣) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ٤ / ٢٠٤ - ٢٠٦ ، ٢١٥ - ٢١٨ ، ابن الفرات ، تأريخ ٢٧٨/٧ - ٢٧٩ ، المقريزي ، السلوك ٧١٧/١/٣ ، ٧٢٢ - ٧٢٣ ، عبد الظاهر ، تشريف الأيام ص ٤٩ - ٥٠ - ٦٩ .

فقد ظلوا في الاعتقال وبضمنهم وزير صاحب ماردين ، فكتب نائب دمشق الى السلطان بشأنهم فأمر بإطلاق سراحهم[1] خلا وزير صاحب ماردين وعضوين آخرين برفقته « قيل إن صاحب ماردين أشار بإبقائهم لأمر نقمه عليهم[2] » ثم ما لبث أن نقل الوزير من قلعة دمشق الى قلعة الجبل بمصر ، وظـــل معتقلا هناك مدة طويلة حتى أفرج عنه ، وولـّي نيابة دار العدل بالديار المصرية[3] .



واستمرت غارات المسلمين على ديار بكر والمناطق المجاورة فكانوا ينهبون ويقتلون ويسلبون ثم يعودون إلى أماكنهم[4] . وقد استهدفت هـذه الغارات الحصول على الغنائم والأسلاب من جهة ، ومن جهة أخرى نشر الرعب والقلق في صفوف قوات التتر المرابطة في هـــذه المناطق وإشغالها عن التفكير ووضع الخطط المنظمة لغزو الشام[5] ، فهي أشبه بحروب العصابات التي تشن على القوات النظامية ، فتعيق عمليتها إلى حد كبير .

ومن جهة أخرى كانت ديار بكر خلال هـــذه السنوات مسرحاً لأطماع كبار القادة التتر والنواب الذين كان يعينهم السلطان التتري . فقاموا بحركات تمرد عديدة ، استهدفت الانفصال عن طاعة السلطان والاستقـــلال بموارد

---

(١) ابن الفرات ، تأريخ ٨/٥ – ٧ .

(٢) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ٤/٢١٧ – ٢١٨.

(٣) ابن الفرات ، تأريخ ٨/٥ – ٧ .

(٤) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ص ٤٧٤ ، عبد الظاهر ، تشريف الأيام ص ١١١ – ١١٢ ، ١٣٤ – ١٣٦ ، ابن عبد الظاهر ، الألطاف الخفية ص ٣٥ – ٣٦ .

(٥) انظر ابن الفرات ٧/٣١ . وابن عبد الظاهر ، الالطاف الخفية ص ٣٥ – ٣٦ .

المنطقة وارتباطاتها السياسية والعسكرية والاستعانة بالمماليك[1] إلا أن سلاطين التتر كانوا لهذه الحركات بالمرصاد ، وتمكنوا من القضاء عليها جميعاً . ولم يرد ما يشير الى دور أراتقة ماردين تجاه هذه الحركات ، وهل وقفوا الى جانبها ونفخوا فيها روح العصيان ؟ أم اتخذوا جانب السلاطين وساعدوا على القضاء عليها ؟ أم أنهم التزموا جانب الحياد حتى تنجلي الأمور ؟ يشير رشيد الدين الى أن الملك المنصور أمير ماردين (٦٩٣ - ٧١٢ هـ = ١٢٩٣ - ١٣١٢ م) ، كان مخلصاً للسلطان التتري غازان محمود الى حد كبير ، فجعله هذا من خواص أقرانه وفوّض اليه الملك في جميع أنحاء ديار بكر وديار ربيعة[2] ، وهذا يؤكد عدم ممالأة حكام ماردين لهذه الحركات الانفصالية ، بالرغم من استمرارهم على مكاتبة المماليك سراً ليطمئنوهم بأنهم معهم[3] . أما موقف المماليك من هذه الحركات فقد اتسم بتشجيعها ، كما تؤكد المصادر ، حيث غدت الشام ملجأً لكثير من التتر المنشقين عن السلطان[4] .

وعلى العكس من ذلك غدت ديار بكر في هذه الفترة ملجأً سياسياً لعدد من كبار الأمراء المنشقين على المماليك في مصر والشام وكان حكام ماردين يتلقونهم بالحفاوة والإكرام تقرباً منهم للتتر ، وخوفاً من أن يقوم هؤلاء المنشقون بالكشف عن مكاتباتهم السرية للمماليك[5] . ففي عام (٦٩٨ هـ =

---

(١) انظر الصفحات السابقة واليونيني ، ذيل مرآة الزمان ١١٧/٣ ، ١٦٤ .

(٢) جامع التواريخ ص ٣٢٦ .

(٣) الجزري ، تأريخ (مخطوطة ١٢١/٢ ، ١٢٧ - ١٢٨) .

(٤) رشيد الدين ، جامع التواريخ ١٤١/٢ - ١٤٧ . ١٤٨ - ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٨٠ ، ١٨٥ ، ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ص ٤٥٧ ، ابن خلدون ، العبر ١١٥٩/٥ - ١١٦٠ ، المقريزي ، السلوك ٨٧٧/١/٣ - ٨٧٨ ، ابن الفرات ٢٠٣/٨ - ٢٠٤) .

(٥) الجزري ، تأريخ (مخطوطة ١٢١/٢ ، ١٢٧ - ١٢٨) .

١٢٩٨ م) توجه الأمير قبجق نائب دمشق يصحبه عدد من كبـــار الأمراء يريدون لقاء السلطان غازان . ولدى سماع التتر بذلك توجه جنكلي بن البابا حاكم ديار بكر التتري لاستقبالهم ، وبالغ في إكرامهم ، كما تلقـــاهم صاحب ماردين وقام بأمرهم . وكان غازان قد بلغه خبر دخول قبجق ورفـــاقه ديار بكر ، فبعث اليهم من يدعوهم اليه ، وكان هذا الحادث من العوامل الأساسية في قيام غازان بغزو الشام في العام التالي بسبب التحريض الذي لقيه من قبجق للقيام بهذا الغزو[١] .

وفي أواخر عـــام (٦٩٨ هـ = ١٢٩٩) ، وصل الى دمشق رسول من البيرة وأخبر المسؤولين أن غازان قد عزم عـــلى غزو الشام في سبعين ألفاً من التتر ، وأنه سيّر أحـد قواده وهو سلامش في خمس وعشرين ألف فارس الى آسيا الصغرى ليجمع قواتها الموالية للتتر ويتقدم الى الشام من هناك ، بينما يكون غازان قد تقدم في بقية القوات من ناحية ديار بكر ويكون اللقاء على الفرات ، ومن ثم تتجه جميع القوات الى حلب كبـدء للهجوم على الشام ، ولكن عصيان سلامش وطلبه الحكم لنفسه ثنى عزم غازان فوجه قواته لقتاله في آسيا الصغرى ، وعاد هو الى بلاد فارس بصحبة قبجق ورفاقه . ومن ثم تقدمت القوات التترية الموجهة الى آسيا الصغرى لقتال سلامش ، فمروا بسنجار ورأس عين وماردين حيث أنزل اليهم صاحبها كميات كبيرة من الإقامـــات والعلوفات وقدم اليهم الميرة وكل ما يحتاجونه ، وأمدهم بقواته ، ولكنـــه لم ينزل للقاءهم خوفاً منهم ، خاصة وأنه كان يشك بإخبار (قبجق) إياهم أنه كان يكاتب سلطان المماليك . وقد اعتذر عن عدم نزوله بأنه ضعيف عاجز

---

(١) المقريزي، السلوك ٣/١/٨٧١ - ٨٧٢ .

عن الحركة ، فقبلوا عذره بسبب ما قدمه اليهم من الهدايا والتحف . وكان قد ادخر في ماردين ، قبيل وصول العسكر ، مؤونة سنتين كإجراء احتياطي لاحتمال قيام تلك القوات بحصارها ، إلّا أن هؤلاء لم يتعرضوا لماردين بأذى وتوجهوا الى بلاد الروم ، وكان اللقاء في أواخر رجب ، وانتهى بهزيمة سلامش وهروبه الى دمشق حسب اتفاقه المسبق مع المماليك[1] .

وفي رمضان من العام نفسه قاد سلامش قوة عسكرية ، وجهها (سيف الدين بلبان) نائب المماليك في حلب الى ماردين ، فنهبوا ربضها « وعملوا فيها الأعمال الشنيعة » ، وكان ذلك سبباً مباشراً في قيام غازان بغزو الشام دون أن يحقق نتيجه حاسمة[2] ، وفي التاسع من ذي القعدة (٦٩٩ هـ = ١٣٠٠م)، وصل الى القاهرة من حلب من يخبر المسؤولين بتحرك القوات التترية ثانية ، وأنهم أرسلوا أمامهم رسلاً الى القاهرة . فوصل هؤلاء الرسل وهم ثلاثة ، في منتصف ذي الحجة . يحملون كتاباً مختوماً من غازان جاء فيه « ... إن الله عز وجل شرفنا بدين الإسلام[3]..وكان بيننا وبينكم ما كان بقضاء الله وقدره، وما كان ذلك إلا بما كسبت أيديكم وما الله بظلام للعبيد . وسبب ذلك أن

---

(١) الدواداري ، كنز الدرر ٩ / ٨ - ١٠ ، الجزرى ، تاريخ (مخطوطة ٢ / ١٢٧ - ١٢٨) .

(٢) أبو الفدا ، المختصر ٤/٤٤ ، المقريزي ، السلوك ٣ / ١ / ٨٧٨ ، ابن الوردي ، تتمة ٢/٢٤٦ - ٢٤٧ ، ابن أبي الفضائل ، النهج السديد ٦٢٢ - ٦٣٣ ، زترستين ، تاريخ سلاطين المماليك ص ٥٤ ، مرور ، بني قلاوون ص ١٧٦ .

(٣) كان غازان قد أعلن إسلامه عام ٦٩٤ هـ وتسمى بمحمود ، وانتشر الإسلام في التتر إثر ذلك ، (المقريزي ، السلوك ٣/١/٩٥٦ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٨ / ٧١) ، ولكنه لم يبذل محاولات جدية من أجل الصلح مع المماليك أو عقد هدنة معهم كما فعل سلفه أحمد عام (٦٨١ هـ = ١٢٨٢ م) .

بعض عساكركم أغاروا على ماردين وبلادهـا في شهر رمضان المعظم قدره ، الذي لم تزل الأمم يعظمونه في سائر الأقطار .. فطرقوا البلاد على حين غفلة من أهلها ، وقتلوا وسبوا وفسقوا وهتكوا محارم الله بسرعة من غير مهلة ، وأكلوا الحرام وارتكبوا الآثام وفعلوا ما لم يفعله عباد الأصنام ، فأتونا أهـل ماردين صارخين مسارعين ملهوفين مستغيثين بالأطفال والحريم وقد استولى عليهم الشقاء بعد النعيم ، فلاذوا بجنابنا وتعلقوا بأسبابنا ووقفوا موقف المستجير الخـائف ببابنا ، فهزتنا نخوة الكلام وحركتنا حمية الإسلام ، فركبنـا على الفور بمن كان معنا ... ودخلنا البلاد[1] » . ثم يستعرض غازان بعد ذلك مـا فعلته قواته في الشام لدى دخولها اليه هذا العام (٦٩٩ هـ = ١٢٩٩ م) ، وأن قوات المماليك ولت الأدبار أمامها ، وأن غازان اضطـر الى سحب جيوشه بسبب تذمر أهالي الشام منها ورغبته في استرضائهم ، واستعاض عنها بحاميات « تمنع تعدي بعضهم على بعض » .. ثم يطلب من الناصر في نهاية الرسالة أن يبعث اليه بهدية رمزاً لقبوله الصلح معه . فأجاب الناصر بكتاب جـاء فيه « ... وإن السبب في ذلك غارة بعض جيوشنا على ماردين ، وأنهـم قتلوا وسبوا وهتكوا الحريم وفعلوا فعل من لا له دين . فالملك (غازان) يعلم أن غارتنا ما برحت من بلادكم مستمرة من عهد آبائكم وأجدادكم وأن من فعل ما فعل من الفساد لم يكن برأينا ولا من أمرائنا ولا الأجناد ، بل من الأطراف الطامعة ممن لا يؤبه اليه ولا يعول في فعل ولا قول عليـه ، وإن معظم جيشنا كان في

---

(١) انظر نص الرسالة في النويري ، نهاية الإرَب (مخطوطة ٢٩ / ٣٣٠ ومـا بعدها) ، الدواداري ، كنز الدرر ٩ / ٥٣ – ٥٦ ، بيبرس المنصوري ، زبدة الفكرة ٩ / ٢٢٣ ب ، ٢٢٤ ب ، ٢٢٦ آ – ٢٣٠ آ ، القلقشندي، صبح الأعشى ٧ / ٢٤٣ وما بعدها ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٨/١٣٦ – ١٣٩ .

تلك الغارة ، إذا لم يجدوا ما يشترونه للقوت صاموا لئلا يأكلوا ما فيه شبهة أو حرام ...[1] » ثم يشير الى انسحاب الجيش التتري لدى سماعه بنبأ تقدم القوات الإسلامية من مصر .. وأرسل الناصر كتابه هذا مع وفد شكله لهذا الغرض[2] . ولكن هذه المفاوضات لم تجد نفعاً إزاء أطماع غازان في الشام وخداعه ، فاستمر الصراع بين الطرفين على أشده[3] . وقد استغل المسلمون في ديار بكر هذا التأزم في العلاقات بين التتر والمماليك ، فقاموا عام (٦٩٩ هـ = ١٢٩٩ م) بتتبع التتر هناك وقتلوا منهم خلقاً كثيراً[4] .

وفي عـــام (٧٠٢ هـ = ١٣٠٢ م) ، أرسل غازان الى الأمير (عز الدين إيبك (نائب الشام كتاباً يرغبه فيه بالدخول في طاعته وجاء فيه « .. وحيث كان أهل مصر والشام يحبون قوة الإسلام .. كان الواجب إنفاذ الرسل الينـــا عن الوداد .. فما أبصرنا منهم في عموم الأوقات إلا مـا لا يحسن من الحركات حتى إنهم عمّو على ماردين وديار بكر طغياناً وأقدموا على القتل والنهب فيهـا عدواناً ، فدعتنا الحمية على الإسلام الى الفساد بالانتقام وهممنا بأن نجر اليهـم العساكر » . وبعد التطرق الى الإعراب عن عدم رضاه على جواب المماليـك عن رسالته الأولى آنفة الذكر يقول « .. ولقد عاودنا إيفاد (السفراء) وأكابر

---

(١) انظر نص الكتاب في النويري ، نهاية الإرب (مخطوطة ٢٩/ ٣٣٠ وما بعدهـــا) ، الدواداري ، كنز الدرر ٩/ ٥٣ - ٣٦ ، بيبرس المنصوري ، زبدة الفكرة ٩/٢٢٣ ب - ٢٢٤ ب ، ٢٢٦ آ - ٢٣٠ آ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ٧/٢٤٣ وما بعدها ، وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٨/١٣٦ - ١٣٩ . .

(٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٨/١٣٥ - ١٤٧ ، المقريزي ، السلوك ٣/١/٩١٥ .

(٣) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٨/١٤٦ - ١٤٧ .

(٤) المقريزي ، السلوك ٣/١/٩٠٣ .

القضاة ليسلكوا مسالك الموافقات ، فوصل الخبر عقيب (ذلك) أن القوم قصدوا ديار بكر .. فأمرنا بركوب العساكر وإهلاك الباغين .. ففزعوا وأخذوا عن ديار بكر جانباً .. لكنهم عموا على خرتبرت وملطية وسيس وخربوا أطرافها .. ولا شبهة لأحد أن خرتبرت وملطية من ولايتنا وصاحب سيس من الداخلين في شريعة طاعتنا ... فكما كانوا يتصورون أن الثغر هو العراق وديار بكر فليتصوروا بعد اليوم أنه غزة وحدود الرمل ..»[1] .

وفي العام التالي (٧٠٣ هـ = ١٣٠٣ م) ، انشق جنكلي بن البابا حاكم ديار بكر التتري في آمد واتجه الى مصر يصحبه عدد من كبار أمراء التتر المنشقين، وكان جنكلي ورفاقه يكاتبون السلطان في مصر باستمرار منذ فترة طويلة[2] . ومن المرجح أن صاحب ماردين كان طرفاً في هذه المكاتبات السرية[3] منتهزاً فرصة قوة المماليك في هذه الفترة ورجحان كفتهم على التتر من جهة ، وعدم استقرار نواب التتر في ديار بكر واستمرار انشقاقهم على سادتهم من جهة أخرى . وربما كان صاحب ماردين يهدف بذلك الى إيقاف هجمات المسلمين العنيفة على بلاده ، وقد حذا صاحب سيس حذوه في السنوات التالية (٧٠٦ هـ = ١٣٠٦ م) فراح يقدم الهدايا والمبالغ المالية السنوية للمماليك[4] .

أدى استمرار الأوضاع المضطربة في ديار بكر وتحولها الى منطقة

---

(١) بيبرس المنصوري . زبدة الفكرة ٧ / ٢٣٥ آ – ٢٣٧ ب ، المقريزي، السلوك ٣/١/ ١٠٢٤ – ١٠٢٦ .

(٢) الدواداري ، كنز الدرر ١١٣/٩ ، المقريزي ، السلوك ٩٥٠/١/٣ .

(٣) الدواداري ، كنز الدرر ٨/٩ – ١٠ .

(٤) المصدر السابق ١٤٦/٩ .

احتكاك وصراع بين التتر والمماليك ، الى تشبث أمراء ماردين بسياسة الولاء المزدوج لهاتين الدولتين ، وكان هذا يشير الى رغبه الأراتقة في السلامة والحفاظ على أملاكهم ، بقدر ما كان يشير الى توازن القوى التترية والمملوكية في منطقة ديار بكر . فبينما دفع صاحب ماردين بابنته (دنيا خاتون) عام (٧٠٩ هـ = ١٣٠٩ م) ليتزوجها خربندا سلطان التتر[١] ، قام في السنة التالية بالخطبة للناصر سلطان المماليك[٢] ، وعاد في سنة (٧١١ هـ = ١٣١١ م) ليشترك مع مبعوثي التتر في استقبال الأمراء المنشقين على المماليك والملتجئين الى السلطان خربندا[٣] . ففي تلك السنة انشق كل من قرا سنقر نائب الشام والأفرم وهما من كبار أمراء المماليك واتجها نحو الفرات في انتظار ما يتجدد ، فوصل اليهما هناك رسولٌ من الملك خربندا في البريد « طاير طيران ! وصحبته ابن عم صاحب ماردين » وغيره ونسخة اليمين لهما من جهة خربندا . وأخذ الرسول يرغبهما ويستميلهما ، ثم قدم اليهما نسخة اليمين التي جاء فيها « إنكم قد عديتم نحو بلادي ودستم أرضي وطلبتم بابي فأهلا بكم ، وقد سيرت اليكم نسخة الأيمان مائة يمين وأنا أعطيك - أي لقرا سنقر - بغداد وللأفرم سنجار وديار بكر ، ومهما طلبتم عندي ... » ومن ثم وصل اليهما الأمير سوتاي على رأس عشرة آلاف فارس من التتر قادماً من مقره في المنطقة وتوجه الجميع الى بغداد ، مارّين في طريقهم بماردين في ربيع الأول (٧١٢ هـ = ١٣١٢ م) ، وكان صاحبها نجم الدين إيلغازي مريضاً فبعث اليهم ولده الملك العادل علاء الدين علي وأخرج لهم

(١) ابن بطوطة ، رحلة ١ / ١٨٣ ، أبو الفدا ، مختصر ٤ / ٦١ ، ابن الوردي ، تتمة ٢/٢٥٩ .

(٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ١٧٣/٩ .

(٣) انظر ابن حجر ، الدرر الكامنة ٢٤٦/٣ - ٢٤٧ .

الإقامات وقدم اليهم تسعين ألف درهم وما يحتاجون اليه ، وكان قد اتفق هو والأفرم وغيره من الأمراء[١] . ومن ثم توجه العادل بمعيتهم في طريقهم الى بغداد. وفي الطريق وصله البريد يعرفه بموت أبيه فعاد مسرعـــاً الى ماردين ليتولى حكمهـا[٢] . وفي بغداد خرج الأهالي لاستقبال الأمراء ، وجرت استعراضات شيقة ، وترجل في خدمة قرا سنقر عدد كبير من التتر والأمراء وفيهم أخو صاحب سيس وأخـو صاحب ماردين ، ومن ثم غادروا بغـــداد الى حاضرة خربندا [٣] .

وما أن استقر قرا سنقر ورفيقه في بلاط السلطان خربندا حتى راح يحسن له غزو الشام ، وأن المماليك في حالة ضعف لا تمكنهم من المقاومـــة ، فانتهز خربندا هذه الفرصة وقرر مهاجمة الشام مبتدأً بالرحبـة ، وأمــــر صاحب ماردين بجرّ المجانيق الى الفرات وبالتقدم على رأس قواته الى الرحبة . وتقدم خربندا وقرا سنقر على رأس قوات التتر الضخمة الى الفرات، وما لبث عسكر الكرج وصاحب سيس أن التحق بهم ، فالتقاهم صاحب ماردين بالإقامـــات والعلوفات ، وقام بأمر التموين في سائر مراحـل الطريق نظراً لكون إمارته أقرب قاعدة تموينية لتحركات التتر وحلفائهم في هذه المنطقة، فضلاً عن أنه قدّم

---

(١) راجع ابن حجر ، الدرر الكامنة ٣/٢٤٦ – ٢٤٧ .

(٢) الدواداري ، كنز الدرر ٩/٢٤١ – ٢٤٢ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٩١٤ .

(٣) الدواداري ، كنز الدرر ٦/٢٢٩ – ٢٣٠ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ٣/٢٤٦ – ٢٤٧ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٩١٤ ، المقريزي ، السلوك ٢/١ / ١١٥ ، وهو يشير الى أن الأمراء المنشقين ساروا مباشرة الى ماردين وكتبوا الى خربندا بقدومهم ، فبعث آكابر المغـــول للقائهم وتقدم الى ولاة الاعمال بخدمتهم والقيام لهم بما يليق ، وهـــو اختلاف جزئي عن رواية الدواداري .

لخربندا أموالاً وهدايا كثيرة من ماله الشخصي . ومن ثم تحدث الى خربندا على مسمع من قرا سنقر قائلاً « قد جاءني قاصد من مصر وعرفني أن صاحبها دخل من الصيد وطلع القلعة وأنفق في العساكر ، وخرجت السلحدارية ، وطردوا الخيول من على المرابط ، وقد سير البريد الى الشام مع جميع الممالك الإسلامية بخروج الجيوش للغزاة ، وكذلك بتحصيل الإقامات لأجل حركته » فقال خربندا « إيش تقول يا قرا سنقر ؟ » قال « جميع ما قاله صحيح ، وجاءتني الأجناد بذلك ، وصاحب مصر ملك جسور ، والأموال عنده كثيرة ، وجيوشه مزاحة الأعداء ! » فانكسر قلب خربندا وتحقق أن جيوشه تضعف عن الملتقى ، ولم يكن من أصحاب الحروب ، فقال لصاحب ماردين « ما عندك من الرأي ، نلتقي صاحب مصر وخيل المغول ضعاف ونخشى الغايلة ؟ » فعلم صاحب ماردين أنه داخله الهلع فقال « ننزل على الرحبة ونحاصرها ونريح الخيول ، والى أن يجيئنا صاحب مصر ورأى (الملك) المصلحة في العود الى البلاد رجعنا ، ويكون ذلك أيضاً مما يضعف المصريين فإن كل حركة عليهم – ينفقوا – فيها جمل أموال ، فان كلفتهم أكثر من كلفتنا ، وإذا عزم – الملك – في العام القادم نكون نحن أقوى منهم » فاتفق رأي خربندا مع رأي صاحب ماردين ، ومن ثم تقدموا الى الرحبة في رمضان (٧١٢ هـ=١٣١٢ م) ، وحاصروها طوال الشهر ، بينما كان سلطان المماليك يجهز الجيوش الضخمة لقتال التتر ، ومن ثم انسحب هؤلاء عن الرحبة خوفاً من العساكر المصرية ، دون أن يمسوا قلعتها بأذى بفضل حسن تدبير نائبها[١] .

---

(١) الدواداري ، كنز الدرر ٢٥١/٩ – ٢٥٩ ، يخطىء ابن حجر (الدرر الكامنة ٣٧٨/٣ – ٣٧٩) في القول بأن خربندا استولى على الرحبة بالأمان ، ويفسر هذا الخطأ قوله: « ورحل عنها دون سبب » . فكأنه لم يطلع على تفاصيل الموضوع .

وواضح أن موقف صاحب ماردين يشير الى مدى رغبته في المحافظة على الأمن والسلام في المنطقة ، وبذل الجهود لتجنب نشوب أي حرب بين التتر والمماليك لأن ذلك يعني تعريض منطقة إمارته للخراب ، فضلاً عن أن سياسته المزدوجة كانت تحتم سلوك هذا الطريق، ولذا حاول أن يقنع خربندا بضخامة إمكانيات المماليك لكي يضطروه الى الانسحاب دون دخول أية معركة معهم . ويوضح صاحب الدرر الكامنة في سطور هذا الازدواج في سياسة حكام ماردين عند ذكره لوفاة إيلغازي بن قرا أرسلان في ربيع الأول عام ٧١٢ هـ = ١٣١٢ م) بقوله ، « قدم دمشق في خدمة غازان (٦٩٩ - ٧٠٠ هـ) (١٢٩٩-١٣٠٠ م) ، إلا أنه كان يناصح السلطان قلاوون في السر ، ثم تزوج خربندا ابنته ، ولما انشق قرا سنقر والأفرم مرا به فأكرمهما[١] .



وفي السنة التالية اشترك صاحب ماردين في حملة قام بها خربندا ضد طقطاي ، أحد أمراء التتر المنشقين عليه في الجهات الشمالية من دولته وقد تقدمت قوات التتر بقيادة قرا سنقر وتبعها خربندا على رأس بقية قواته ومن ثم لحقت بهم قوات صاحب ماردين وصاحب الكرج وصاحب سيس . وفي منتصف جمادى الآخرة التقى الجمعان .. وبعد قتال عنيف انتصرت قوات خربندا بفضل دور قرا سنقر في القتال ، وقتل من العدو عدد كبير ، فأرسل طقطاي الى سلطان المماليك يشكو قرا سنقر ، الذي لولاه لتمكن من سحق قوات خربندا ، وطلب منه إمداده بالأسلحة لإعادة الكرة ، فتم الاتفاق بينهما

---

(١) ابن حجر ، الدرر الكامنة ٢١٧/٣ . وانظر ابن تغري بردي، المنهل الصافي (مخطوطة ٥٠٢/٢) حيث يشير الى أن صاحب ماردين تزوج بابنة قلاوون .

على أن يزحفا معاً ليضما خربندا بين شقي الرحى ويقضيا عليه ، ومن ثم يدخلان بغداد ويعيدا الخليفة العباسي الى كرسي خلافته[1] . ولكن هذا المشروع لم يكتب له التنفيذ .

وبعد سنتين (٧١٥ هـ = ١٣١٥ م) سار صاحب ماردين الى عاصمة خربندا في بلاد فارس حاملاً معه المبالغ النقدية والعينية التي تقررت بين الطرفين على عادة والده ، فأحسن اليه خربندا ، ومن ثم عاد الى ماردين في جمادى الآخرة وأرسل رسوله في نفس العام الى القاهرة حاملاً معه رسالة شخصية الى السلطان فالتقى هذا به وسمع رسالته[2] .

ولكن هذا الولاء المزدوج الذي قدمه أمراء ماردين للتتر والمماليك على السواء لم يعجب المماليك ، سيما بعد أن بلغوا درجة كبيرة من القوة وبعد أن أخذت عوامل الضعف تعمل في دولة التتر ، فضلاً عن أن صاحب ماردين كان يتلكأ في إجابتهم حول بعض القضايا التي تم الاتفاق بشأنها . ولذا بعث السلطان عام (٧١٥ هـ = ١٣١٥ م) قوة من حلب قوامها ستمائة فارس بقيادة الأمير شهاب الدين قرطاي لغرض الإغارة على بلاد ماردين ، فتقدم هذا وأغار على تلك البلاد مدة يومين ، وصادف أن قدمت الى المنطقة آنذاك قوة من التتر قوامها ألفا فارس لغرض جباية القطيعة[3] كعادتهم في كل سنة ، فهاجمهم قرطاي وقتل منهم ستمائة رجل وأسر ما يزيد على المائتين ، وقدم بالرؤوس

---

(١) الدواداري ، كنز الدرر ٢٧٢/٩ - ٢٨١ .

(٢) أبو الفدا ، المختصر ٧٩/٤ ، الرمزي ، وقائع قزان ٥١٤/١ - ٥١٥ .

(٣) القطيعة : ما يفرضه السلطان على ولاية أو ناحية من المال سنوياً، أو ما يقرره في أحوال غير عادية كالغرامة الحربية . المقريزي ، السلوك حاشية رقم ١ ، ٣٨٨/١/٢ .
Quatremere, Histoire des Sul tans mamlouks de L'Egypte, Vol. 2 P. 14 N 85.

والأسرى والغنائم الى حلب ، فلما علم السلطان بذلك « سر سروراً زائداً » وبعث بالتشريف لنائب حلب ولقرطاي[١] . وفي شعبان من نفس العام توجهت قوة ضخمة من حلب قوامها خمسة آلاف فارس وأغارت على بلاد آمد، واستولت على عدد من المواقع ، وقتلت وسبت ، ومن ثم عادت سالمة الى حلب حاملة الغنائم الكثيرة[٢] . وتكررت هذه الهجمات بعد عامين من ذلك في ربيع الآخر عام (٧١٧ هـ = ١٣١٧ م)[٣] .

وقد شهدت ماردين وأطرافها في نفس السنة (٧١٧ هـ = ١٣١٧ م) حادثة تشير الى مدى تذمر الأهالي –وخصوصاً التجار– من التسلط التتري على المنطقة ، إذ اجتمع في شوال جماعة من التجار في ماردين وانضم اليهم عدد من الهاربين من الغلاء الذي عم المنطقة ، وتوجهوا جميعاً في طريقهم الى الشام ، ولكنهم ما أن ابتعدوا مسافة قصيرة عن رأس عين حتى لحقهم ستون فارساً من التتر من رجال سوتاي حاكم ديار بكر وقتلوهم وأطفالهم ونساءهم ، وبلغ عدد القتلى تسعمائة ، وقد تمكن أحدهم من الهروب والتوجه الى رأس عين ، حيث أخبر الناس بهذه المجزرة الرهيبة ، فتألموا لذلك واجتهد سوتاي في مطاردة القتلة وتمكن من القضاء على معظمهم ، كما أعاد بعض الأموال المغتصبة الى مستحقيها بعد تغريمهم بنسبة تتراوح بين النصف والثلث[٤] .

---

(١) المقريزي السلوك ١٤٧/٢/١، أبو الفدا ، المختصر ٦٦/٤ – ٦٩، سرور ، بني قلاوون ص ٢٠٥ .

(٢) ابن كثير ، البداية ٧٤/١٤ ، الذهبي ، دول الإسلام ١٦٨/٢ ، ابن خلدون ، العبر ٩١٨/٥ .

(٣) ابن كثير ، البداية ٨٢/١٤ . ابن خلدون ، العبر ٩١٨/٥ – ٩١٩ ، القدمي ، دول الإسلام (مخطوطة ص ٤٥) ، ابن دقماق ، الجوهر الثمين (مخطوطة ص ١٥٠) .

(٤) ابن الوردي ، تتمة ٢٦٦/٢ ، ابن كثير ، البداية ٨٣/١٤ .

ورغم هذه الهجمات والأحداث فقد استمرت علاقات المجاملة بين صاحب ماردين والمماليك ، وربما استهدف هؤلاء من وراء ذلك عدم التفريط بصاحب ماردين ، وبالتالي ارتماؤه في أحضان التتر بشكل نهائي ، ولذا عندما أخبر بريد حلب مسؤولي مصر بقدوم والدة صاحب ماردين في طريقها الى الحج عام (٧١٥ ھ = ١٣١٥ م) ، أمر السلطان نوابه بخدمتها والقيام بما يليق بها[١] .

* * *

دخول الأراتقة في طاعة المماليك بعد وفاة أبو سعيد (٧٣٦ ھ = ١٣٣٥ م):

طيلة السنوات والعقود التالية راحت علاقـــات أصحاب ماردين بالمماليك ومراسلاتهم ومصاهراتهم معهم ومهاداتهم فيما بينهم تزداد قوة ووثوقـاً بسبب ازدياد قوة المماليك وتدهور قوة التتر[٢] ، وقد بلغت هذه العلاقـــات مرحلة الخطبة للمماليك في إمـــارة ماردين وضرب النقود باسمهم واستمر ذلك حتى سقوط الإمارة في مطلع القرن التاسع الهجري ، فيما عـدا بعض الفترات[٣] . ويذكر القلقشندي أنه ما أن توفي ابو سعيد عـام (٧٣٦ ھ = ١٣٣٥ م) ، « وهو من بقايا الملوك الهولاكية » ، حتى قطع صاحب ماردين الخطبة لمغول العراق وخطب لنفسه ، واستمر الأمر على ذلك الى الآن (حدود عام ٨٠٠ ھ = ١٣٩٧ م)[٤] . وقد أدى ذلك بالضرورة الى ازدياد العلاقات بين الأراتقة

---

(١) المقريزي ، السلوك ١/٢/١٤٥ .

(٢) انظر المصدر السابق ١/٢/٢٤١ ، ٢٥٩ ، ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (مخطوطة ١٩/٢) .

(٣) أبو الفدا ، المختصر ١٣٧/٤ ، ابن الوردي ، تتمـــة ٢ / ٣٣٠ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٩٥/١٢ ، ١١٥ .

(٤) صبح الأعشى ط ٢ ، ٣١٧/٤ .

والمماليك وثوقاً ، بينما كانت المكاتبات بين الطرفين متواصلة . وقد استمرت هذه المكاتبات فترة طويلة بحيث اتخذت أشكالاً وقوالب معينة من الناحية الرسمية (الإنشائية) كما أوردها بعض المؤرخين . فهناك مكاتبات موجهة من سلطان المماليك الى صاحب ماردين ، وكذلك من نواب المماليك في دمشق وحلب ، كما وجهت من قبل هؤلاء مكاتبات أخرى الى نواب صاحب ماردين في المدن التابعة لإمارته ، وكان لكل من صاحب ماردين ونوابه مراتب معينة في دواوين الإنشاء المملوكية يكتب لهم وفق مقتضياتها[1] . وسأورد فيما يلي صور تلك المكاتبات حسب تدرج مستوياتها بالنسبة للمرسل اليهم ، مع بعض النماذج الموجزة منها :

١ - رسم المكاتبة الى صاحب ماردين من قبل السلطان المملوكي « أعز الله تعالى نصرة المقر الكريم العالي الكبيري ، الملكي الفلاني الفلاني ، يعني اللقب الملوكي واللقب المضاف الى الدين مثل (الصالحي الشمسي ، أي الملك الصالح شمس الدين) وما أشبه ذلك . ثم الدعاء ، ثم يقال (أصدرناها الى المقر الكريم) و (تبدي لعلمه الكريم) (فيتقدم أمره الكريم) . ويختم بما صورته (فيحيط علمه الكريم بذلك) والدعاء والعلامة وتعريف (صاحب ماردين)، وورقة قطع العادة ويتعين أن تكون ألقابه الى آخر اللقب الملوكي ، سطرين سواء ، وأن يكون لقبه العادي كالفخرى مثلاً أول السطر الثالث[2] .

وهذه بعض النماذج المختصرة للمكاتبة السابقة ، نسخة كتاب بعافية الملك

(١) انظر العمري ، المصطلح الشريف ص ٣٢ - ٣٣ ، القلقشندي، صبح الأعشى ط ٢ ، ٢٦٧/٧ - ٢٦٩ ، ٢٢٣/٨ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٣٥٧ - ٣٥٨ .

(٢) العمري ، المصطلح ص ٣٢ . ونقل عنه القلقشندى ، صبح الأعشى ط ٢/٧/٢٦٦ - ٢٦٧ .

الناصر محمد بن قلاوون من مرض ألم به الى صاحب ماردين ، وهو « .. ولا زالت البشائر على سمعه الكريم متواترة ، والمسار الى مقام ملكه سائرة ، والتهاني ببلوغ الأماني من كال شفائنا تجعل ثغور الثغور باسمة... تهدي اليه سلاماً تتأرجح به أرجاء ملكه وثناء تتنظم الاثنية في سلكه ، وتوضح لعلمه الكريم ما حصل من عافيتنا التي تضاعف بهما فرح الإسلام والمسلمين ..»[1] وهنالك نسخة الى الملك الصالح شرف الدين محمود جواباً عما ورد به كتابه من وفاة والده الملك المنصور أحمد جاء فيها « أعز الله تعالى نصرة المقر الكريم ... ولا زال الملك باقياً في بيته الكريم .. وبما خصه من إقبالنا الشريف وإحساننا المستديم.. أن مكاتبته الكريمة وردت على أبوابنا الشريفة على يد فلان ، وعلمنا ما تضمنته من استمساك المقر الكريم بأسباب الوداد واقتفائه في ذلك سبيل الإباء والأجداد ... مستمراً على الإخلاص في الطاعة ، الذي لم يكن شابه شين ولا اعتراه ... من أنه إن اقتضت مراسمنا الشريفة أن يقوم مقامه ويرعى في حقوقه ومصالح تلك المملكة ذمامه ، فنرسم بإجرائه على السنة المعتادة من إحسان بيتنا الشريف الذي بدأ به وأعاده ، وإلا فتبرز الأوامر الشريفة بمن يسد اختلالها .. ويشيد مبانيها ويصلح أحوالها ليقصد المقام الشريف بأبوابنا الشريفة ، سالكاً سبيل الطاعة المبين ، منتظماً في سلك أوليائنا المقربين ، الى غير ذلك مما حمله الاستادار من مشافهته .. وقد شكرنا محبته المأثورة وإخلاصه في الخدمة الشريفة ، وجميل الموالاة التي تمنحه تكريمه وتشريفه واستمساكه بسنة آبائه الكرام واجتهاده في المناصحة والطاعة التي لا تسامى من مثله ولا تسام . ونحن نعرف المقر الكريم أن محله ومحل بيته الكريم لم يزل

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ط ٢ ، ٣٥٧/٨ - ٣٥٨ .

لدينا رفيعاً مقداره ... وهو الأحق بمحل ملكه .. وقد اقتضت آراؤنا العالية أن يقوم مقام والده المرحوم ، ويحل محله في هذه السلطنة ليعلو قدره بإقبالنا الشريف .. وليستنصر على أعدائنا وأعدائه بأنصار الملك وأعوانه ، وليستقر على ما عليه من المحافظة على الوداد وليقتف في ذلك سبيل سلفه الكريم ، وليواصل بمكاتباته وأخباره على سننهم القويمة وقد أعدنا استاداره بهذا الجواب الشريف اليه[1] .

ويظهر في هذا الكتاب بوضوح أن ولاء الأراتقة للمماليك كان قد تبلور منذ فترة طويلة ، بدليل ما أورده الكتاب عن استمساك أمير ماردين « بأسباب الوداد واقتفائه في ذلك سبيل الآباء والأجداد ... » ولا ريب أن هذا الولاء كان ينبثق عنه بالضرورة الالتزام بالخطبة للمماليك وتقديم المساعدات العسكرية اليهم وتأييدهم في سياستهم الخارجية ، وإن عدم الوفاء بهذه الالتزامات ربما دفع السلطان الى اتخاذ الاجراءات الكفيلة بإعادة الأمور الى نصابها « ليستقر الأمر على ما هو عليه من المحافظة على الوداد » . كما يوضح الكتاب آنف الذكر مسألة مهمة في علاقات الأراتقة بالمماليك ، وهي أن تسلم أي حاكم أرتقي مهام منصبه بعد وفاة سلفه لا يأخذ صفته الرسمية (الشرعية) بشكل نهائي إلا بموافقة واقرار سلطان المماليك الذي يصدر أمره بقيام الأمير الجديد « مقام والده .. ويحل محله في السلطنة » . ولا ريب أن هذا الإقرار الرسمي لا يتم إلا بعد الاطمئنان على أن الأمير الجديد « سيقتفي » .. سبيل سلفه .. ويواصل بمكاتباته وأخباره على سنتهم القويمة » ، وهذا يشير بوضوح الى أن الأراتقة غدوا بشكل أو بآخر تحت حماية المماليك يأتمرون بأمرهم ولا حرية لهم في

---

(١) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ط ٢ ، ٧/٢٦٧ — ٢٦٩

الخروج على توجيهاتهم . وبذلك تتضح في هذا الكتاب أبعاد الملاقـات بين الطرفين . وهنالك ثلاثة نماذج لرسائل أخـرى وجهت الى صاحب ماردين ، أوردها العمري في المصطلح[1] .

رسم المكاتبة الى نائب صاحب ماردين عن الأبواب السلطانيـة ، الاسم والسامي بغير ياء[2] .

٣ – رسم المكاتبة الى نواب صاحب ماردين في مختلف المدن التابعة لإمارته عن الأبواب السلطانية ، الاسم ومجلس الأمير[3] .

٤ – وهنالك مكاتبات تصدر عن نائب الماليـك في الشام الى من هو خارج عن المملكة وهم على مراتب ، ويأتي صاحب ماردين في المرتبة الثالثـة حيث يكتب اليه بالرسم الآتي « أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم العـالي المولوي الكبيري العادلي السلطاني الملكي الفلاني ، ورفع مقداره وأجـزل مباره ، المملوك يجدد الخدمة العالية ويصف أشواقه المتواليـة وينهي لعلمـه الكريم ...[4]

٥ – ويصدر عن نفس النائب مكاتبات الى نائب ماردين وخادم صاحب ماردين ونواب المدن التابعة لها وقد وضعوا جميعـاً في المرتبة السابعـة من مكاتبات نواب الشام[5] .

---

(١) ص ٣٢ – ٣٣ من المصدر المذكور .
(٢) القلقشندي ، صبح الاعشى ط ٢ ، ٢٦٩/٧ .
(٣) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .
(٤) المصدر السابق ٢٢٣/٨ .
(٥) المصدر السابق ٢٢٥/٨ .

٦ – مكاتبات نائب حلب الى من هو خارج المملكة ، وقد وضع صاحب ماردين في المرتبة الثانية بعد صاحب بغداد . ورسم الكتابة اليـــه « أعز الله تعالى أنصار المقر الشريف العالي المولوي الكبيري العالمي العادلي السلطـــاني الملكي الفلاني . ويدعى له نحـو « لا زالت أيامـه مسعودة وأبوابه مقصودة .. المملوك يقبل اليد الشريفة ويقوم من الخدمة بأكمل وظيفة ، وينهى لعلمـــه الكريم بعد السلام الزكي كيت وكيت فيحيط بذلك علمـــه الكريم ويتحف بالمشرفات على عادة فضله العميم »[1] .

٧ – مكاتبات نائب حلب الى نواب صاحب ماردين وبعض خدامه ، وقد وضعوا جميعاً في المرتبة السابعة من مكاتبات نائب حلب . ورسم المكاتبة اليهم « أدام الله تعالى نعمة الجناب العالي »[2] .

كما غدت ماردين في هذه الفترة مركزاً لإجراء مفاوضات الصلح بين التتر والمماليك ذلك الصلح الذي تم في ربيع الأول عـام (٧٢٣ هـ = ١٣٢٣ م) ، على يد الأمير (ايتمش المحمدي) الذي اتخذ من ماردين مركزاً لنشاطه ، وقد أنعم عليه السلطان التتري أبو سعيد بمبالغ طائلة بسبب سعيه من أجل الصلح[3].

ويشير (كاهن) الى أن الأراتقة – في داخل المنطقـــة – كانوا يحاولون ، خلال هذه الفترة ، الحفاظ على بقائهم في وجه الأيوبيين في حصن كيفا ، حيث أعلن هؤلاء الحرب عليهم عام (٧٣٥ هـ = ١٣٣٤ م) ، وقد انتهت بهزيمـة

---

(١) القلقشندي ، صبح الاعشى ط ٢ ، ٢٢٨/٨ .
(٢) المصدر السابق ٢٢٩/٨ .
(٣) المقريزي ، السلوك ٢٤١/٢/١ – ٢٤٢ .

الأراتقة وفقدان ممتلكاتهم الواقعة على يسار نهر دجلة[1] . ولا ندري على أي مصدر اعتمد الكاتب في إشارته الى هذا الصراع بين الأراتقة والأيوبيين في حصن كيفا ، حيث لم يشر الى ذلك – على ما نعرف – سوى البدليسي صاحب الروايات غير الموثوقة[2] . وهو يورد في هذا المجال رواية طويلة يقول فيها « لما زال سلطان بني أيوب عن مصر والشام سنة (٦٦٢ هـ = ١٢٦٣ م)، كان آنئذ أحد حفدة أسرة ملكان (حكام حصن كيفا) قد استتر في حماة وقضى ردحاً من الزمن متكتماً ثم اتجه الى ماردين ولاذ بحاكمها[3] ، فعطف عليه وأدخله في سلك أمراء دولته وأعيانها ، ثم فاضت شهامته ، وكان عطوفاً على محبيه ، قاهراً لمعانديه ، فأناط به زمام الحكم في صور ، إلا أن ذلك الأمير الشاب ، لما ألقى فيها عصي الترحال ولبث بها أياماً ساءت حاله وضاق بها ذرعاً ، فغادرها الى أنحاء حصن كيفا ، واختار الإقامة فيها وتزوج بها .. وتلاءم مع أهلها فاستمال قلوبهم اليه حتى أحبوه حباً جماً .. ونصبوه حاكماً عليهم وشرعوا في تعمير قلعتها وتحصينها . واتفق في هذه الآونة أن تطرق الى أركان بلاط السلطان في ماردين الخلل والتصدع ، ووهنت قوى دولته فأهابته التحصنات المشرع بها في قلعة حصن كيفا ، فأرسل الى القائم بالتحصين من يأتي به اليه ، غير أنه رفض تلبيته والسير اليه وشق عصا طاعته[4] ، فحشد سلطان ماردين جيوشه ، وسار بها الى حصن كيفا مزمعاً

---

(١) Enc. Isl. art. Artukids, New ed.

(٢) انظر بهذا الشأن ، الشرفنامة ص ١٩٧ – ١٩٨ ، ٢٤٤ ، ٢٥٢ .

(٣) من المرجح أنه الملك المنصور أحمد الذي تولى حكم الأراتقة حوالي سنة ٦٧٢ هـ . وتوفي سنة ٦٧٩ هـ ، البدليسي . شرفنامة ، حاشية ٥ ، ص ١٧٢ .

(٤) لم يكن أي من حكام حصن كيفا الأيوبيين ملزماً في يوم من الأيام بطاعة أوامر الأراتقة بسبب استقلالهم التام عن هؤلاء .

إخضاع قلعتها ، فنهض اليه معمر القلعة ووقف في وجهه وقاومه بكل بسالة وجدارة فتقهقر سلطان ماردين خائباً خاسراً . فمنذ ذلك اليوم طلع هلال لواء الأسرة الأيوبية على أصقاع حصن كيفا للمرة الثانية ، وأخذ يبعث بأشعته على تلك الربوع والأصقاع ، ولم يمض وقت طويل حتى احتـل تلك البـلاد[١] . وواضح في هذه الرواية نزعتها القصصية وعدم تمحيصها للحقائق .

هذا بينما استمرت العلاقات الودية بين الأراتقة والمماليك ، ففي المحـرم من عام (٧٢٥ هـ = ١٣٢٤ م) ، كان رسل صاحب ماردين من جملة الوفـود التي حضرت القاهرة من مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، يبذلون لسلطانها الطاعة[٢] . وفي عام (٧٢٨ هـ = ١٣٢٧ م) ، أهدى صاحب ماردين الى السلطان الناصر قلاوون أحد مماليكه المشهورين في العزف على العود[٣] ، وتكرر ذلك عـام (٧٤٠ هـ = ١٣٣٩ م) ، حينما أهدى صاحب ماردين ، أحد مغنيه المشهورين الى الناصر[٤] . وفي ذي الحجـة من العام التـالي (٧٤١ هـ = ١٣٤١ م) ، أهدى السلطان الناصر قبيل وفاته لصاحب ماردين فيـلاً وزرافة[٥] ، تقديراً للعلاقات الودية بينهما . وفي عام (٧٤٨ هـ = ١٣٤٧ م) ، تم زواج أحد كبار أمراء المماليك على ابنة الصالح صاحب ماردين وحصل على مدينـة خرتبرت مهراً على الزواج[٦] .

---

(١) البدليسي ، شرفنامة ص ١٧٢ – ١٧٣ .
(٢) المقريزي ، السلوك ٢٥٩/٢/١ .
(٣) ابن حجر ، الدرر الكامنة ٧٧/٣ – ٧٨ .
(٤) المصدر السابق ٢٦٤/٣ – ٢٦٥ .
(٥) أبو الفـدا ، المختصر ١٣٨/٤ ، ابن الوردي ، تتمة ٣٣١/٢ ، الغزي ، تاريخ حلب ١٨٠/٣ .
(٦) ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (المخطوطة ١٩/٢) .

ويظهر أن تقرب أمراء ماردين من المماليك عرضهم لضغط بعض الفروع التترية الحاكمة في بغداد والجهات الشرقية ، ففي عام (٧٤٦ هـ = ١٣٤٥ م) ، قام الشيخ حسن الجلائري حاكم بغداد بمهاجمة ماردين والاستيلاء على عدد من ضياعها[١]. وفي الوقت نفسه اشتد العداء بين الأراتقة وحكام الموصل وسنجار، وجرت بين الطرفين حروب طويلة انتهت بمقتل (بدر الدين حسن بن هندوا) حاكم الموصل وسنجار على يد صاحب ماردين بعد أن قبض عليه عام (٧٥٤ هـ = ١٣٥٣ م)[٢] ، وكان بدر الدين هذا يؤوي بعض التركان الذين كانوا يقطعون الطرق على المسلمين في تلك المناطق[٣] .

وطيلة السنوات التالية ، وحتى قدوم تيمورلنك في العقد الأخير من هذا القرن ، كانت علاقات أصحاب ماردين بالمماليك تزداد وثوقاً ، إذ راحوا ينفذون ما يأمرون به ويلتزمون بسياستهم العامة ، ويتعاونون معهم في مختلف المجالات ، كما استمروا يخطبون لهم ويضربون السكة باسمهم[٤] ، في الوقت الذي وجدوا أنفسهم فيه أحراراً على أثر تحطيم الدولة المغولية في العراق سنة ٧٣٦ هـ. شأنهم شأن بقية أتباع الإيلخانات[٥]، وبذا تخلصوا من بقايا التزاماتهم تجاه القوى الشرقية، مما عزز علاقاتهم بمصر والشام، وجعل إمارتهم أشبه بولاية

---

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ١٠/١٢٢ ، وهو الشيخ حسن بن حسين بن إيبغا .. من أحفاد هولاكو. وكان يحكم بغداد وأذربيجان والجزيرة ثم انتقل حكم هذه المناطق لابنه أحمد . (ابن خلدون ، العبر ٥/١٠٨١) .

(٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ١٠/٢٩٥ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ٢/٤٨ .

(٣) ابن حجر ، الدرر الكامنة ٢/٤٨ .

(٤) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ١٢/٩٥ - ١١٥ ، ابن العماد ، شذرات ٦/٧ .

(٥) Enc. Isl. art. Artukids, New ed.

الاتحادية في دولة المماليك .

وفي ربيع الآخر من عام (٧٩١ هـ = ١٣٨٩ م) ، حضر الى القاهرة رسل الأراتقة يصحبهم رسل الأمير ناصر الدين قرا محمد التركماني (أحد قواد المماليك في منطقة الفرات) وأبلغوا السلطان برقوق أن صاحب ماردين وقرا محمد ، تقدما الى الخابور حين بلغهما عصيان الأمير (يلبغا الناصري) على السلطان ، « فرد السلطان عليهما رداً جميلاً وشكر صنيعهما وأنه ادخرهما لما هو أهم من ذلك » ، وأرسل أحد كبار أمرائه مع هؤلاء الرسل لدى عودتهم[1] .

وفي عام (٧٩٣ هـ = ١٣٩٠ م) ، قام صاحب ماردين بالقبض على ثلاثة من أنصار الأمير منطاش – أحد المنشقين الهاربين – وذلك لدى هروبهم صوب ماردين وعدد من مماليكهم ، فسرّ السلطان لدى سماعه بذلك وأرسل أحد أمرائه على رأس قوة مصرية الى ماردين لتسلم هؤلاء ، فسار هذا الى رأس عين وتسلم المقبوض عليهم من صاحب ماردين وعاد بهم الى القاهرة ، وحمل معه كتاباً من صاحب ماردين الى السلطان يعتذر فيه ، ويعد بتحصيل غريم السلطان (أي منطاش) وإرساله اليه ، ويكون كما يختاره السلطان »[2] .

سادت المنطقة قبيل غزو تيمورلنك ، فترة من السلم بين الدول والإمارات الإسلامية الحاكمة كانت أشبه بالهدنة بين الأطراف المتصارعة . فلم يحدث بين المماليك والتتر الجلائريين في العراق ما يؤدي الى نشوب حرب جديدة بين

---

(١) ابن الفرات ، تاريخ ٩ / ٦٢ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٢٦٤/١١ .

(٢) ابن الفرات ، تاريخ ٢٦٩/٩ – ٢٧٠ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ١٢ / ٣٠ – ٣١ ، ابن خلدون، العبر ١٠٧٤/٥ ، ابن دقماق ، الجوهر الثمين (مخطوطة ص ٢١٢) ، العيني ، عقد الجمان (مخطوطة ٤٣٢/٦٥ – ٤٣٣) .

الطرفين ، مما أتاح للأراتقة أن ينعموا بفترة من الهدوء والاستقرار لم تشهدها ديار بكر من قبل .

موقف الأراتقة من تيمورلنك وسقوط إمارة ماردين :

ولكن ظهور تيمورلنك القوي على مسرح الأحداث في الشرق وطموحه الشديد للسيطرة على العالم الإسلامي ، وحشده القوات الهائلة لهذا الغرض ، والانتصارات السريعة التي أحرزها في تقدمه نحو الغرب ، كل هذه العوامل أثرت تأثيراً مباشراً على وجهة الأحداث في منطقة ديار بكر وعلى العلاقات الخارجية للأراتقة . ولقد بذل هؤلاء لدى اقتراب الخطر جهوداً كبيرة في اطلاع حكومة المماليك على تحركات تيمورلنك وأهدافه العسكرية وتنبيههم الى مدى الأخطار التي تحيق ، ليس فقط بالإمارات الموالية لهم ، بل بوجود المماليك ذاته ، كما غدت ماردين مركزاً لاستخبارات المماليك في هذا الشأن . ولقد قام الأراتقة بهذا الدور بسبب قربهم من مسرح الأحداث ، وتعرضهم للخطر قبل غيرهم ، وولائهم للمماليك[1] .

في مطلع رجب من عام (٧٨٩ هـ = ١٣٨٧ م) ، عاد الى مصر من ماردين الأمير طغاي الذي كان قد سافر الى ماردين لكشف أخبار تيمورلنك ، وأعلم المسؤولين أن (أميران شاه بن تيمورلنك) دحر قوة موالية للمماليك بقيادة قرا محمد أمير التركمان ، وأنه توجه بعد ذلك صوب آمد ... ومن ثم تكاثرت الإشاعات عن قرب قيام تيمورلنك بغزو الشام ومصر على رأس

---

(١) انظر ابن الفرات تاريخ ٣٦١/٩ - ٣٧٨ و
Lane — poole, Egypte, pp. 331—32,
وابن إياس ، بدائع الزهور ٢٩٩/١ ، ٣٠٠ - ٣٠١ وما يلي من الفصل .

قوات كبيرة « فحصل للسلطان - الظاهـــر برقوق - تشويش عظيم بسبب ذلك »[1] ، وأمر بالاستعداد لمجابهة الموقف[2] .

انشغل تيمورلنك طيلة السنوات التالية في الجبهة الشرقية ، ولم يوجـــه اهتمامه الجاد صوب الجبهة الغربية (العراق ، الجزيرة ، الشام) إلا في عـــام (٧٩٥ هـ = ١٣٩٣ م) ، بعد أن ثبت أقدامه في الشرق . ففي التاسع عشر من شوال من ذلك العام حضر الى مصر رسول الملك الظاهر عيسى أمير ماردين، وأخبر المسؤولين بأن تيمورلنك استولى على تبريز ، شمالي بلاد فارس ، وأنه أرسل رسوله الى صاحب ماردين يطلب قدومه الى هناك فاعتذر هذا له « بأن على يده يداً وهو صاحب مصر » فأرسل تيمورلنـك يقول له : إن أسلافك حكموا هذه البلاد منذ مئات السنين وكانت الخطبة والسكة باسمهم « فإيش كان صاحب مصر »[3] ؟ وأوضح له أنه ليس لسلطان مصر حكم بماردين ، ومن ثم أرسل اليه خلعة وطلب منه أن ينقش اسمه على الذهب والدنانير كاعتراف رسمي بسلطته . ولذا أرسل صاحب ماردين كتاب تيمورلنك هذا وخلعته بصحبة رسوله الى مصر ليعلم رأي السلطان « فأعيد الجواب اليـــه بأن يخطب باسم سلطانه إلى أن نرى ما نختاره »[4] ، وقـــد أكد صاحب ماردين بهذا الموقف مدى ارتباطه بسياسة المماليك والتزامـــه بما يرونه بشأن هـــذا

---

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٢٤٧/١١ ، ابن الفرات ، تاريخ ١٠/٩ .

(٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٢٤٧/١١ .

(٣) ابن الفرات ، تاريخ ٣٤٣/٩ .

(٤) العيني ، عقد الجمان (مخطوطة ٦٥ / ٤٥٤) ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٤٣/١٢ ، ابن الفرات ، تاريخ ٤٠٥/٩ . وانظر ابن دقماق ، الجوهر الثمين (مخطوطة ص ٢١٦) .

الحدث الخطير [١] .

قام تيمورلنك في نفس العام (٧٩٥ هـ = ١٣٩٣ م) بمهاجمة بغداد ، وأجرى فيها مجزرة رهيبة ، ومن ثم توجه في مطلع العام التالي نحو الشمال ففتح تكريت عنوة ، وتقدم الى الموصل فصالحه صاحبها وسار في خدمته ، ومن ثم تقدم الى ديار بكر[٢] فاستولى على عدد كبير من مدنها وحصونها في فترة قصيرة ، كرأس عين والرها وميافارقين ، وقامت قواته خلال ذلك بنهب وتخريب معظم مناطق ديار بكر ، وقدم الى تيمورلنك حاكم حصن كيفا الأيوبي وحاكم جزيرة ابن عمر وأعلنا طاعتهما له ، فأعادهما الى إمارتيهما دون أن يتعرض لهما بأذى[٣] . وأراد الظاهر عيسى حاكم ماردين أن يحذو حذوهما بعد إذ لم ير جدوى انتظار نجدة من المماليك ، الذين لم يتخذوا موقفاً حاسماً إزاء قوات تيمورلنك في ديار بكر ، فيما عدا المحاولة التي قام بها نائب حلب بإرسال قوة قوامها ألف فارس هاجمت طلائع قوات تيمورلنك عند الرها وهزمتها الى رأس العين[٤] ، وسوى وقوف قوات حلب وبعض القبائل

---

(١) انظر المقريزي ، السلوك (القسم المخطوط ٣/٤١٦) ، عاشور ، العصر المماليكي ص ١٥٨ - ١٥٩ .

(٢) المقريزي ، السلوك (القسم المخطوط ٤١٦ - ٤١٧) ، ابن العماد ، شذرات الذهب ٦/٣٣٧ - ٣٣٤ ، الصائغ ، تاريخ الموصل ص ٢٥٣ .

(٣) ابن العماد ، شذرات ٦/٣٤٤ - ٣٤٥ ، ابن خلدون ، العبر ٥/١١٧٥ - ١١٧٦ ، ١٠٨٢ - ١٠٨٥ ، البدليسي ، شرفنامة ص ١٧٥ ، ابن صصري ، الدرة المضيئة ص١٤٨ ، ابن عربشاه ، عجائب المقدور في أخبار تيمور ص ٤٧ - ٤٨ ، الصائغ ، تاريخ الموصل ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

(٤) ابن الفرات ، تاريخ ٩/٣٧٠ .

التركمانية على الفرات لرصد حركات العدو[١] .

جمع الظاهر عيسى حاشيته وقال : إني ذاهب الى هذا الرجل (أي تيمورلنك) ومظهر له الانقياد ، فإن ردني حسبما أريد فهو المراد، وإن طالبني بالقلعة فامتنعوا أنتم وإياكم أن تسلموها إليه أو تعتمدوا على كلامه ، وإن خيركم بين تسليم القلعة وبين إتلافي فاختاروا الثانية ، فإنكم إن تسلموها اليه خرجتم من باطنكم وظاهركم وأتى بالهلاك على أولكم وآخركم ، وخسرتم شماركم ، وغبنتم أنفسكم ودياركم .. ومن ثم توجه الى تيمورلنك بعد أن استخلف ابن أخيه الملك الصالح شهاب الدين أحمد بن الملك السعيد اسكندر . ونزل يوم الأربعاء منتصف ربيع الأول (٧٩٦ هـ = ١٣٩٤ م) ، واجتمع بتيمورلنك في نهاية الشهر بمكان يدعى الهلالية . وسرعان ما قبض عليه تيمورلنك وطلب منه تسليم القلعة فأجابه ، « بأن القلعة عند أربابها وبيد أصحابها وأنا لا أملك إلا نفسي فقدمتها اليك وقدمت بها عليك فلا تحملني فوق طاقتي » . فأتى به تيمورلنك الى القلعة وطلب من أهلها تسليمها اليه فأبوا ، فقدمه اليهم ليضرب عنقه أو يستجيبوا لمطلبه فرفضوا ، فطلب منه كي يطلق سراحه ستة ملايين درهم فضيّ ، وعدد من الهدايا يتقرب بها اليه[٢] . ويظهر أن الظاهر لم يتمكن من استجابة طلبه الأخير، لذا ضيق عليه تيمورلنك في سجنه ومنعه عن الناس « ليذهب عنه ما به من قوة »[٣] . ومن ثم راح تيمورلنك يتردد وقواته في أنحاء ديار بكر والموصل يفسدون ويخربون . وفي جمادى الآخرة أمر

---

(١) ابن خلدون ، العبر ٥/١٠٨٥ .

(٢) ابن عربشاه ، عجائب المقدور ص ٤٨ - ٤٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٩ .

قواته بالتوجه الى ماردين فتقدموا اليها بسرعة مذهلة ووصلوها على حين غفلة يوم الثلاثاء ، الثاني عشر من الشهر المذكور ، فحاصروها فجراً وأحلوا بها الدمار[١] ، وتسلقوا أسوار المدينة من ثلاث جهات ، وتمكنوا من الاستيلاء عليها عنوة وراحوا يفسقون ويخربون ، وانسحب أهالي المدينة الى القلعة تحت حماية نبال جند القلعة ، وبقي قسم منهم يقاتلون الأعداء . واستمر القتال حتى امتلأت المدينة بالقتلى والجرحى ، وعندما دخل الليل انسحب جند تيمورلنك وعسكروا تجاه المدينة ، وأخذوا يعدون أنفسهم لهجوم جديد لدى الفجر[٢].
وقام علاء الدين الطنبغا – نائب السلطنة بماردين – وجماعة من الأمراء بتعزيز التحصينات[٣] ، وما أن طلع الفجر حتى قامت قوات تيمورلنك بهجومها الثاني ضد المدينة بشكل أشد وأعنف ، فخربوها وهدموا أسوارها وتمكنوا

---

(١) المصدر السابق ص ٤٩ . وينقل عنه ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (مخطوطة ٢/ ٤٩٧) . ويذكر الغياث في تاريخه (ص ٢٠٧) أن سبب عودة قوات تيمورلنك الى ماردين هو إعلانها العصيان ، كما يذكر البدليسي (شرفنامة ص ١٥١) أنه صدرت من حكام ماردين بحق أصحاب تيمورلنك أمور غير مرضية . ومن الواضح أن القلعة لحين وقوع هذه الأحداث لم تخضع لتيمورلنك أو تعلن طاعتها له مما يضعف ما أورده البدليسي والغياث ، فضلاً عن أن ما ذكره ابن عربشاه في هذا المجال يعتبر أشد وثوقاً بسبب معاصرته للأحداث، انظر ابن خلدون، العبر ٥/١١٧٦ ، وابن صصري ، الدرة المضية ص ١٤٨ .

(٢) ابن عربشاه ، عجائب المقدور ص ٤٩ – ٥٠ ، وينقل عنه ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ٢/٤٩٧ .

(٣) ابن الفرات ، تاريخ ٩/٤٥٣ ، العيني . عقد الجمان (مخطوطة ٦٦ / ١١ – ١٣) ، ويشيران الى أن هؤلاء قاموا بتنصيب الملك الصالح ابن أخي الملك الظاهر عيسى سلطاناً في ماردين عوضاً عن الظاهر الذي كان محتجزاً لدى تيمورلنك . ونحن نعلم – حسبما أورده ابن عربشاه – أن الظاهر قام بنفسه باستخلاف ابن أخيه قبيل مغادرته لماردين ،

عقب الظهر من الاستيلاء على البلد [١] واستغلوا مزارعه وبساتينه للحصول على المؤونة[٢] ، ومن ثم شددوا حصارهم على القلعة ، وأبلى الطنبغا نائب ماردين بلاءً حسناً في القتال ، وتمكن وأنصاره من حماية القلعة وقتل عدد كبير من قوات تيمورلنك[٣] ، ولما فشل هذا في الاستيلاء على القلعة فكر بسلوك سبيل الحيلة والمصالحة ، فأرسل اليهم مع رسوله يقول : نُعلم أهل قلعة ماردين والضعفاء والعجزة والمساكين أننا قد عفونا عنهم وأعطيناهم الأمان على نفوسهم ودمائهم ، فليأمنوا وليضاعفوا لنا الأدعية[٤] . ولكن حيلته لم تنجح لشدة يقظة المسؤولين في ماردين . وقد أدى صمود القلعة وتناقص المؤونة واشتداد البرد الى اضطرار تيمورلنك الى فك الحصار والتوجه الى آمد[٥] . وما أن فرض الحصار عليها وبدأ في قتالها حتى طلب أهلها الأمان فأمنهم ، ثم ما لبث أن أعمل فيهم السيف وأباد معظمهم وقام بتخريب المدينة ، كما تمكن من الاستيلاء على بعض المواقع الأخرى في المنطقة ، خلال شهر شوال ، ومن ثم عاد الى بلاده في ذي القعدة عام (٧٩٦ هـ = ١٣٩٤ م) ،[٦] مستصحباً معه

---

(١) ابن عربشاه ، عجائب المقدور ص ٥٠ ، ويشير ابن صصري ، (الدرة المضية ص ١٥٨) الى أن الشائعات وصلت دمشق باستيلاء تيمورلنك على ماردين ، وأن رد الفعل لدى أهالي دمشق كان شديداً حيث عمهم الخوف ، مما يشير الى مدى أهمية ماردين كقاعدة من أهم قواعد المنطقة الدفاعية .

(٢) التاريخ الغياثي ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٣) ابن الفرات ، تاريخ ٩/٤٥٣ ، العيني ، عقد الجمان (مخطوطة ١١/٦٦ - ١٢) .

(٤) ابن عربشاه ، عجائب المقدور ص ٥٠ وهو يذكر أنه نقل رسالة تيمورلنك هذه الى أهالي ماردين بنصها كما وجدها .

(٥) يخطىء بوقا في الإشارة الى أن تيمورلنك استولى على ماردين خلال هذا الهجوم (دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ٦/١٦٠ - ١٦١) .

(٦) ابن عربشاه ص ٥٠ ، ونقل عنه ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (مخطوطة ٢/٤٩٧ =

الملك الظاهر « بسوء نية »[1] حيث اعتقله في مدينة سلطانية مع أربعة من كبار أمرائه ، وضيق عليه لكي يقطع خبره كلية عن ماردين[2] .

وما أن رحل تيمورلنك عن ماردين حتى أرسل صاحبها الى الظاهر سلطان المماليك في مصر يخبره عن إخفاق الهجوم التتري في تحقيق بغيته ، وكان قد أشيع قبل ذلك على أفواه الناس أنه قد تم الاستيلاء على ماردين ، ففرح السلطان بذلك وخلع على رسوله[3] .

وهكذا استطاعت ماردين بما تتمتع به من حصانة ، وبتضحية سلطانها الظاهر ، وإخلاص أمرائها أن تصمد أمام هجوم تيمورلنك وأن تحافظ على استقلالها دون معظم مدن الجزيرة ، ودون أن تحصل على مساعدة تذكر من حلفائها المماليك . وقد اتجه رسول صاحب ماردين ثانية الى مصر في جمادى

= - ٤٩٨) ، الغياث ، تاريخ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ، ابن خلدون ، العبر ٥/١١٧٦ - ١٠٨٢ - ١٠٨٥ ، ابن دحلان ، الفتوحات ٢ / ١٠٥ ، البدليسي ، شرفنامة ص ١٥١ - ١٥٢ ، الرمزي ، وقائع قزان وبلغار ٦١٣/١ ، ويذكر الصائغ (تاريخ الموصل ص ٢٥٣ - ٢٥٤) نقلاً عن السمعاني (المكتبة الشرقية مجلد ٣ جزء ٢ ص ١٣٤) أن سبب عودة تيمورلنك الى ماردين والمواقع المجاورة في الجزيرة والقيام بأعمال انتقامية ضدها في عامي ٧٩٦ و ٨٠٣ هو عدم وفاء حكامها بالالتزامات المالية السنوية تجاه تيمورلنك فضلاً عن أنهم تغيروا عليه وخلعوا طاعته وصاروا في طاعة السلطان أحمد الجلائري بعد عودته الى بغداد . واذا كان هذا ينطبق على ماردين في عام ٨٠٣ كما سيأتي فإنه لا ينطبق في المرة الاولى (٧٩٦) حيث إن ماردين لم تلتزم حينذاك بأي شيء تجاه تيمورلنك .

(١) ابن عربشاه ٥٠ .

(٢) ابن عربشاه ص ٥٠ ، ونقل عنه ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (مخطوطة ٤٩٧/٢ - ٤٩٨).

(٣) ابن الفرات ، تاريخ ٣٧٨/٩ ، العيني ، عقد الجمان (مخطوطة ٤٦١/٦٥) .

الآخرة من العام التالي (٧٩٧ هـ = ١٣٩٥ م) لمقابلة السلطان الظاهر ، فخلع هذا عليه وأرسل معه خلعاً ثمينة للملك الصالح صاحب ماردين[١] تأكيداً لحسن العلاقات بين الطرفين ولموقف الأخير من هجوم تيمورلنك وعدم تخاذله، ومن ثم أعيدت خطبة صاحب ماردين للسلطان الظاهر[٢] .



حاول تيمورلنك أن يستخدم وسيلة أخرى لإخضاع ماردين بعد أن أخفق في الاستيلاء عليها بالقوة ، فعمل على الاستفادة من وجود الظاهر عيسى محتجزاً لديه منذ عام (٧٩٦ هـ = ١٣٩٣ م) . ويصور ابن عربشاه الخطوات التي اتبعها تيمورلنك لتحقيق هذا الغرض حيث يقول : مكث الظاهر سنة معتقلاً لا يدري أحد خبره ، ثم وفدت الملكة الكبرى اليه وخففت عنه ما به من ضيق ، وسمحت له بمراسلة جماعته وحرضته على طلب الدخول في رضى تيمورلنك وطاعته ، زاعمة له أنها ناصحة له وطالبة مصلحته ، وكان ذلك من مكائد تيمورلنك وبإشارته . ثم رجع تيمورلنك بعد أن صفى مشاكله في الجهات الشرقية من مملكته الى همذان في شعبان (٧٩٨ هـ = ١٣٩٦ م) ، واستدعى الظاهر « بإكرام تام وانشراح صدر وخاطر » ففكوا قيوده وقيود أمرائه وعظموه غاية التعظيم مع ذويه ودخل على تيمورلنك في السابع عشر من رمضان « فتلقاه – هذا – بالاحترام واعتنقه وأذهب عنه دهشه وقلقه وقبله في وجهه مراراً واعتذر اليه مما فعله معه جهاراً وقال له : إنك والله وليّ ، ورفيع القدر كأبي بكر وعلي ، وتحلل منه عما صدر في حقه ، وأضافه

---

(١) ابن الفرات ، تاريخ ٧/٥ ٤٠ .

(٢) ابن دقماق ، الجوهر الثمين (مخطوطة ص ٢٢١) .

ستة أيام ، وخلع عليه خلع الملوك العظام وأحله محلاً جميلاً وأعطاه عطاء جزيلاً ، من ذلك مائة فرس وعشرة بغال وستون ألف دينار وستة جمال وخلع مزركشة .. وإنعامات وافرة .. ولواء يخفق على رأسه » ، كما أعطاه ستاً وخمسين منشوراً كل منشور بتولية بلد وأن لا ينازعه فيه منازع ، وكان مما شملته تلك البلاد ، الرها في أقصى ديار بكر الى حدود أذربيجان وأرمينية « وكل ذلك من الدهاء والمكر ، وأن جميع حكام تلك البلاد يكونون تحت طاعته ، معدودين في جملة خدمه وجماعته ، يحملون اليه الخراج والخدم ولا - يصدرون إلا عن أمره - بحيث يكون شخص كل من مجاوريه ، بما أفاء الله عليهم ، لظله فيء ، ويعفى هو فلا يحمل الى تيمولنك ولا الى غيره شيء ، وهذا وإن كان في الظاهر كالإكرام فإنه فيما يؤول اليه وبال عليه وانتقام ، وفيه كما ترى ما فيه ، وإلقاء العداوة بينه وبين مجاوريه »[١] .

اشترط تيمورلنك على الظاهر ، لقاء ذلك ، أن يكون تحت حمايته ويعول في كل أموره عليه ، وخاصة في النواحي السياسية والعسكرية وأن يلبي دعوته بالقدوم اليه كلما طلبه[٢]، ويضرب السكة باسمه . وأن لا يطيع صاحب مصر ، وأن يقوم بإلقاء القبض على الأمير علاء الدين الطنبغا فور دخوله ماردين ويرسله اليه . فحلف له الظاهر على ذلك[٣] . ومن ثم عانقه تيمورلنك وودعه وأمر أمراءه بتشييعه ، فخرج من الضيق الى السعة في رمضان سنة (٧٩٨ هـ =

---

(١) ابن عربشاه ص ٥١ ، وانظر ابن العماد ، شذرات ٣٥٢/٦ - ٣٥٣ .

(٢) ابن عربشاه ص ٥١ ، ونقل عنه ابن تغري بردي، المنهل الصافي (مخطوطة ٤٩٧/٢ - ٤٩٨) ، ابن العماد ، شذرات ٣٥٣/٦ .

(٣) ابن العماد ، شذرات ٣٥٣/٦ .

١٣٩٦ م) ، وتوجه الى تبريز حيث اجتمع بامبران شاه ابن تيمورلنك ، فـزاد هذا في إكرامه وعطاياه وشيعه في أحسن هيئة ، ومن ثم توجه الى ديار بكر عن طريق أرمينية . وما أن وصل خبره الى أهالي إمارته حتى ابتهج الناس ودقت البشائر يوم الجمعة الحادي عشر من شوال ، وخرج أهـالي ماردين وأكابرها للاستقبال ، وعلى رأسهم ولي عهده الملك الصالح ، فدخل المدينـة وتوجه الى مدرسة حسام الدين وزار والده وأمواته الماضين وعزم على التنازل عن منصبه والتوجه الى الحجاز ، إلا أن الناس خاصتهم وعامتهـم لم يتركوه « وتراموا عليه » وعند ذلك قرر البقاء في منصبه[١] . وبلغ الطنبغـا أن الظاهر يريد القبض عليه وإرساله الى تيمورلنك فهرب الى مصر في المحرم من عام (٧٩٩ هـ = ١٣٩٦ م) ، حيث أنعم عليه السلطان الظاهر برقوق وعلى من معه ورتب لهم الرواتب الضخمة[٢] .

* * *

بهذا الأسلوب استطاع تيمورلنك إخضاع الأراتقة في الوقت الذي عجز عن تحقيق ذلك باستخدام القوة . وبتسلم الظاهر عيسى مقاليد الحكم في ماردين في أواخر عام (٧٩٨ هـ = ١٣٩٦ م) ، اتجهت العلاقات الخارجية للإمارة وجهة جديدة مخالفة لما كانت عليه . فقد غدت خاضعة لتيمورلنك وكان عليها أن تخطب له وتضرب السكة باسمه وأن يلبي أميرها دعوته كلما دعـاه وألا يطيع

---

(١) ابن عربشاه ص ٥١ — ٥٢ ، ونقل عنه ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (مخطوطة ٤٩٧/٢ — ٤٩٨) .

(٢) ابن الفرات ، تاريخ ٤٥٣/٩ ، ابن دقماق ، الجوهر الثمين (مخطوطة ص ٢٢٣) ، العيني ، عقد الجمان (مخطوطة ١١/٦٦ — ١٢) .

صاحب مصر[1] وبهذا انتهت العلاقات الودية بين الأراتقة والمماليك تلك التي استمرت ما يقرب من القرن والتي ظل الأراتقة طوالها موالون للمماليـــك في سياستهم الخارجية ومراسيمهم الداخلية ، فضلاً عن أن شك الظاهـر بجدوى علاقته مع المماليك وإمكان قيام هؤلاء بإنقاذ إمارته من غزو الغزاة ، دفعه الى مصالحة الأيوبيين المتحمسين لتيمورلنـك في حصن كيفـــا ، كما دفع هؤلاء الى التصالح مع القبائل التركمانية التي بدأت تغزو المنطقة وبخاصة الآق قوينلو[2] .

ولكن الأوضاع لم تستمر بهذا الاتجاه سوى فترة قصيرة ، كان الظاهـــر يتحين خلالها الفرص لإعلان العصيان على السيطرة التترية . والواضح أنه أرغم على قبول شروط تيمورلنك بسبب الظروف السيئة التي مــرت به خلال فترة اعتقاله ورغبتـــه في التخلص من الأسر . وقد أوضح ابن عربشاه أنه حاول التنازل عن منصبه فور وصوله الى ماردين مما يشير الى أنه لم يخضع كل الخضوع لإغراءات تيمورلنك وأنه فضل التنازل عن منصبه على البقاء فيه تابعـــاً للتتر يأتمر بأوامرهم . وفي الندوة الأدبية التي عقدت إثر تسلمه المنصب وما قيل فيها من أبيات، إيحاءات بمدى حقده على تيمورلنك ورغبته وحاشيته بزوال ملكه، حتى لقد انشد أحدهم وهو الحسن بن طيفور :

طغى (تمر) واستأصل الناس ظلمه وشاعت له في الخافقين الكبائر

لقد زاد بغيـــاً فافرحوا بزواله لأن على الباغي تدور الدوائر[3]

---

(١) ابن عربشاه ص ٥١ ، ابن العماد ، شذرات ٦ / ٣٥٣ ، ابن الفرات ، تاريخ ٩ / ٤٥٣ .

(٢) Enc. Isl. art Artukids, New ed.

(٣) ابن عربشاه ص ٥٢ .

ويظهر أن الظاهر كان يتمتع باستقلال كبير خلال السنوات التي سبقت عصيانه بسبب رغبته في التمرد على السلطة التترية من جهة ، ولانشغال تيمورلنك خلال تلك السنوات « في جهات أخرى وأنه أهمل أمر ماردين وتناساها ولم يتعرض الى ما يتعلق بها من مدنها وقراها[١] » . من جهة اخرى ، ومن ثم أعاد الظاهر الخطبة لبرقوق في مصر[٢] . وفي عام (٨٠٢ هـ = ١٣٩٩ م) ، أتاحت الظروف لتيمورلنك اتخاذ إجراءات شديدة ضد ماردين بسبب موقف صاحبها المتردد تجاه السلطة التترية . فقد استدعي تيمورلنك في ذلك العام من قبل بعض قواده بسبب عصيان عدد من الأمراء جنوبي الأناضول ، فتوجه الى أرزنجان ومنها الى ماردين حيث قامت قواته بأعمال انتقامية ضدها من نهب وتخريب[٣] . ويظهر أن تيمورلنك طلب من صاحب ماردين خلال ذلك مطاليب عديدة فجاهر بالعصيان[٤] . « لما كان قاساه أولاً من طاعة ذلك الغادر – الذي – ندم على إطلاقه أول مرة[٥] » .

لم يشأ تيمورلنك الأنشغال فترة طويلة بماردين ، للعمل على إخضاع صاحبها وتأديبه ، لذا غادرها على أن يعود اليها بعد تصفية مشاكله وتنفيذ أهدافه الواسعة في الجهات الشمالية الغربية من العالم الإسلامي . واستطاع في تلك الجولة أن يدمر ويستولي على عدد من المدن الإسلامية في آسيا الصغرى والشام كسيواس وبهسنا وملطية ثم حلب ودمشق . ثم كر عائداً في الثالث من شعبان

---

(١) المصدر السابق ص ٦٣ .

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ١/٣١٥ .

(٣) ابن عربشاه ص ١١٦ .

(٤) انظر الصفحات السابقة من هذا الفصل .

(٥) ابن عربشاه ص ١١٦ .

(٨٠٣ هـ = ١٤٠١ م) الى حلب – قادماً من دمشق – وفعل بها ما فعله في المرة الأولى ، واتجه من هناك الى ماردين بعد أن قوي مركزه إثر تحطيمه الجناح الشمالي لدولة المماليك . ونهبت قواته الرها لدى مرورهم بها ، ومن ثم أرسل رسوله الى ماردين يستدعي الظاهر برسالة رقيقة أعرب فيها عن شوقه الشديد للقائه ، فأبى الظاهر أن ينزل اليه ولم يستمع الى كلامه « ولا التفت اليه ، فإنه كان (قد) آذاه أول مرة فما احتاج الى تجربته آخر مرة ، وسلك معه برّ السلامة[1] » ، واكتفى بإرسال خادم له يدعى الحاج محمد بن خاصبك ومعه الهدايا والخدم ، واعتذر لتيمورلنك عن حضوره بعدة أمور منها تخوفه من غدره كما فعل في المرة الأولى عام (٧٩٦ هـ = ١٣٩٣ م) ، فلم يلتفت تيمورلنك الى ذلك وتقدم على رأس قواته صوب ماردين ونزل على دنيسر في العاشر من رمضان ، حيث أخذ يتهيأ لحصار ماردين . وكان سكان المدينة قد استعدوا لذلك فأخلوا المدينة وانتقلوا الى القلعة شديدة الحصانة والتي تتمتع بموارد تموينية كثيرة في الجهات الخلفية من جبلها ذي الوادي الكثير الأنهار والذي تنتشر فيه المزارع والمراعي[2] . وشدد تيمورلنك الحصار عليها من شق جهاتها ، وأخذ يتدارس مع قواده نقاط الضعف في إمكانياتها الدفاعية ، ولم يكن حواليها مكان للقتال ولا لنصب المجانيق ، فعول تيمورلنك على القيام بمحاولات لثقب بعض جوانب حصونها بالمعاول والفؤوس ، لفتح ثغرات فيها . تتمكن قواته من التسرب عبرها الى قلب القلعة ، واستمرت عمليات الهدم والنقب الى العشرين من رمضان دونما نتيجة . ولما أدرك تيمورلنك عدم جدوى الاستمرار على الحصار قام بتخريب المدينة وتهديم أسوارها ومبانيها

---

(١) المصدر السابق ص ١١٦ .

(٢) ابن عربشاه ص ١١٦ .

وجوامعها وقلع أشجارها « فمحا آثارها وفك أساسها وأحجارها »[1] ، ومن ثم غادر ماردين في العشرين من رمضان (٨٠٣ هـ = ١٤٠١ م) متوجهاً الى بغداد ، وأخذ يعبث في طريقه في تلك المنطقة ، فخرب نصيبين ورعى مستغلاتها وفعل بها ما فعل بماردين[2] .

ترك تيمورلنك أحد حلفائه التركمان وهو قرايلوك عثمان أمير قبيلة (آق قوينلو) على حصار قلعة ماردين ، بعد أن ولاه على آمد وبعض المواقع المجاورة في المنطقة . وقد اضطر هذا الى الانسحاب هو الآخر بسبب مناعة ماردين من جهة ، وعدم وجود المراعي الكافية لإطعام خيول القوات المهاجمة من جهة أخرى[3].

وهكذا تمكنت مازدين من أن تثبت قدرتها العظيمة على المقاومة بعد أن أعلنت العصيان على أقوى دولة في الشرق آنذاك ، واستطاعت أن تقاوم حصاراً تمكن أصحابه أن يكتسحوا بقواتهم الضخمة – خلال ذلك العام بالذات – معظم الجهات الغربية الوسطى من العالم الإسلامي . وكان من المتوقع أن تسقط هذه الإمارة أو تعلن استسلامها فور عودة الجيوش التترية المنتصرة لحصارها في رمضان من عام (٨٠٣ هـ = ١٠٤١ م) . ولا ريب ان هنالك عوامل عديدة مكنت ماردين من الثبات بوجه الحصار ، منها ان تيمورلنك

---

(١) المصدر السابق ١١٧ ، ونقل عنه ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (مخطوطة ٢/٤٩٧ – ٤٩٨) ، العيني ، عقد الجمان (مخطوطة ٦٦/١٤٠) .

(٢) ابن عربشاه ص ١١٧ – ١١٨ . ونقل عنه ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ٢/٤٩٧ – ٤٩٨ ، وتناول الحادثة باختصار كل من الغياث ، التاريخ الغياثي (مخطوطة ص ٢١١) ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ١٢/٢٦٤ – ٢٦٦ .

(٣) التاريخ الغياثي (مخطوطة ص ٢١١) . وانظر ابن عربشاه ص ١١٨ .

كان منهمكاً في الاستعداد للتوجه الى بغداد وإعادة اخضاعها ، ولذا فإنه ما لبث ان ترك احد قواده على الحصار وتوجه هو الى هناك ، وكان من المرجح ، لو اشرف بنفسه وبكل قواته على الحصار ، لاضطرت ماردين على الاستسلام. ومنها ان الخراب الذي لحق بالمناطق المحيطة بماردين من جرّاء التحركات العسكرية المستمرة ، لم يمكن قوات قرا ايلوك عثمان من الحصول على الطعام ، سواء لقواته او لخيوله ، ولذا اضطر الى الانسحاب . كما لا ينكر ما كانت تتمتع به قلعة ماردين من حصانة طبيعية وموارد تموينية[1] ساعدتها على عدم تمكين الغزاة منها قروناً طويلة ، فضلاً عن ان الأراتقة كانوا قد تمرسوا على الدفاع واتخاذ الاجراءات المناسبة له بما يمتلكونه من خبرات سابقة في هذا المجال ، وهكذا وجدنا سكان المدينة ينسحبون بسرعة الى القلعة قبل ان تبدأ قوات تيمورلنك الحصار .

ورغم كل ما سبق فإن هذا الحصار كان قد الحق اضراراً بالغة بالامارة، كما الحق الدمار بمدينة ماردين ولم يسلم منه الا القلعة ، وقد ترك قرا يلوك عثمان المنطقة وقد تحولت الى خراب[2] . وغادرها عدد كبير من سكانها[3] ، ولم تستطع ماردين ان تنهض من كبوتها هذه المرة او تستعيد ازدهارها وعمرانها ، خاصة وانه لم تكن هناك قوة اسلامية تحتمي بها هذه الامارة لتتجه بعد ذلك الى الاعمار والبناء كما كانت تفعل في السابق . ذلك ان المماليك كانوا قد تلقوا ضربات قوية حاسمة من قبل تيمورلنك في الشام لم يستطيعوا معها ان يعيدوا تنظيم علاقاتهم الخارجية مع القوى الاسلامية ، وخصوصاً في الشام والجزيرة

---

(١) ابن عربشاه ص ١١٦ . وانظر مادة (ماردين) في المراجع الجغرافية الإسلامية .
(٢) التاريخ الغياثي (مخطوطة ص ٢١١) ،
(٣) ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (مخطوطة ٢/٤٩٧ - ٤٩٨) .

والاناضول ، طيلة سنوات عديدة . ويظهر ان الأراتقة حاولوا ان يلتزموا في هذه الفترة سياسة الحياد وعدم استفزاز ايا من تيمورلنك او المماليك ولذلك نجدهم يتخذون دور الوسيط في المفاوضات التي جرت بين الطرفين في عامي (٨٠٤ هـ = ١٤٠١ م) و (٨٠٥ هـ = ١٤٠٢ م)[١] .

تعرضت ماردين طيلة السنوات التي سبقت سقوطها الى هجمات مستمرة من قبل القبائل التركمانية في المنطقة ، وبخاصة قبيلة الخروف الأبيض التي اعتاد زعيمها قرا ايلوك عثمان المجيء كل سنة الى أطراف ماردين «ليرعى الزرع ويخرّب ويمضي» . وقد اضطر الظاهر عيسى الى مصانعته وعدم اللجوء الى قتاله[٣] بسبب ما لحق ماردين من خراب ودمار إثر حصار تيمورلنك عام (٨٠٣ هـ = ١٤٠١ م) ، فضلاً عن عدم إمكان اللجوء الى حماية المماليك في الشام بسبب ما أصابهم من ضعف إثر الضربة التي تلقوها من تيمورلنك ، ومن ثم وجد الظاهر نفسه مضطراً الى التوسل لدى تيمورلنك ان يكف قرا ايلوك عثمان عنه ، فطلب هذا من حليفه عثمان التوقف عن مهاجمة ماردين إلا أن الأخير لم يستجب لأمر تيمورلنك واستمر على غاراته[٤] . وقد أوقف عثمان

---

(١) القلقشندي ، صبح الاعشى ٣٢٠/٧ – ٣٢٤ .

(٢) التاريخ الغياثي (مخطوطة ص ٢٣٠) . وقرا ايلوك هو ابن قطلوبك . كان أبوه أحد أمراء حاشية ملوك ماردين ، وقد انتمى ابنه هذا الى تيمورلنك وحارب معه وتمكن من الاستيلاء على آمد وبعض المواقع القريبة منها فأقره تيمورلنك عليها . ويعتبر قرا ايلوك مؤسس دولة الخروف الأبيض (آق قوينلو) : انظر ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (مخطوطة ٢ / ٣٧٣) والتاريخ الغياثي (مخطوطة ص ٢١١ – ٣٠٦) . وابن عربشاه ص ١١٨ .

(٣) ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (مخطوطة ٤٩٧/٢) .

(٤) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

بهجماته هذه إعادة إعمار ماردين وتحصينها كما ساعد على إضعافها ونشر الخراب في ربوعها مما أدى الى فقدان كل مقوماتها الدفاعية ومكّن بالتالي قرا يوسف أمير دولة الخروف الأسود من إسقاطها بعد فترة قصيرة .

عمل الظاهر جهده لإيقاف هجمات قرا ايلوك عثمان على ماردين ، ورأى أن خير وسيلة لتحقيق ذلك هي التحالف مع أمير قوي للعمل ضد مطامع عثمان ، ووجد فرصة مناسبة في التحالف مع الأمير جكم بن عوض نائب حلب المملوكي الذي انشق على المماليك عام (٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ م) ، وأعلن نفسه سلطاناً في حلب ، وخطب له في أنحاء واسعة من الشام . وقد تم الاتفاق بينه وبين الظاهر عيسى على قتال عثمان ، فتوجها على رأس قواتها الى آمد في ذي الحجة سنة (٨٠٨ هـ = ١٤٠٦ م) لاستردادها منه، فتصدى لهما عثمان بقواته وانتصر عليهما بعد قتال قصير ، وأسفرت المعركة عن مقتل جكم ، والظاهر وتشتت قواتهما[١] ، ولا ريب أن تحالف الظاهر عيسى مع جكم ، ألب المماليك عليه وأعطى المجال للقبائل التركمانية في الجزيرة لتوثيق علاقاتها بالمماليك[٢] ، وبهذا ازدادت عزلة ماردين وغدت تقف وحدها وجهاً لوجه أمام مصيرها .

تولى حكم ماردين بعد الظاهر ابن أخيه الملك الصالح شهاب الدين أحمد بن إسكندر ، بينما استمر قرا ايلوك في هجماته على الإمارة مما أدى الى انهاكهـا تماماً[٣] .

---

(١) المصدر السابق ٢ / ٤٩٧ - ٤٩٨ ، وانظر ابن إياس ، بدائع الزهور ١ / ٣٥١ ، ٣٥٢ ، صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ص ٢١٦ .

(٢) انظر المقريزي ، السلوك (القسم المخطوط ٣/١/٨٠) ،

(٣) ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (القسم المخطوط) ٢/٤٩٧ - ٤٩٨) والقسم المنشور ١/٢٢١ - ٢٢٢ ،

Enc. Isl. art. Artukids, (New ed).

وفي عام (٨١٢ هـ = ١٤٠٩ م) عزم قرا يوسف ، أمير دولة الخـروف الأسود (قراقويونلو) ، التي كانت تشمل آنذاك أذربيجان وإربـل والموصل وسنجار وبعض أنحاء العراق ، على التوجه الى ديار بكر في محاولة لضمها الى إمارته ، مستفيداً من فرصة تحالفـه مع المماليك[١] ، فتوجه الى ماردين وهنالك التقى بقرا ايلوك عثمان وجرى قتال بين الطرفين أسفر عن هزيمة الأخير ، ومن ثم حاصر قرا يوسف ماردين التي كانت قد فقدت جل طاقتها الدفاعية ، وإذ أدرك الملك الصالح أنه عاجز عن مقاومـة قرا يوسف طلب إجـراء مفاوضات مع خصمه ، وعرضت حاشية ماردين على الصالح أن يخطب ابنة قرا يوسف وأن يتنازل له عن ماردين كمهر لذلك لقاء أن يمنحه قرا يوسف الموصل[٢] وأن يدفـع له عشرة آلاف دينـار وألف فرس وعشرة آلاف رأس من الغنم[٣] ، فاستحسن الصالح هذه الشروط وعرضها على قرا يوسف فقبلهـا هو الآخر ، ومن ثم تسلم ماردين وزوج ابنته بصاحبها وأرسله الى الموصل[٤] .

فعل قرا يوسف ، لدى دخوله ماردين ، مـا فعله تيمورلنك في البـلاد التي استولى عليها[٥] . ومن المرجح أن عدداً كبيراً من بقايا البيت الأرتقي قتلوا خلال ذلك ، وأن كثيراً من المعالم الحضارية الأرتقية درست ، وأن شواهـد ثلاثة قرون ونصف من حياة الأراتقة ، أضحت في قبضة قبيلة تركمانية جديدة على الحضارة . وبعد أربعين يوماً من دخول الصالح الموصل أسقي سماً هنـاك

---

(١) المقريزي ، السلوك (القسم المخطوط ٣/١/٨٠) ،
(٢) التاريخ الغياثي (مخطوطة ص ٢٣٠ - ٢٣١) .
(٣) ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (القسم المنشور ١/٢٢٢) .
(٤) التاريخ الغياثي (مخطوطة ص ٢٣٠ - ٢٣١) .
(٥) ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، القسم المنشور ١/٢٢٢ .

ومات[1] مخلفاً أربعة أولاد أخرجهم قرا يوسف من الموصل[2] ، وبذلك قضي على آخر نفوذ سياسي للأراتقة ، وغدت إمـــارة ماردين ضمن دولة الخروف الأسود[3] . وقد أرسل قرا يوسف الى المماليك في الشام يعلمهم باستيلائـه على ماردين ، وأنه على نية التوجه الى الشام لما بين الطرفين من المودة والعهود[4] .

ولكن ماردين لم تبق بيد قرا يوسف طويلاً ، إذ أعاد قرا ايلوك عثمان الكرة عليها وهاجمها ، مستغلاً فرصة تغيب حاكمها المدعو ناصر الذي أنابه فيها قرا يوسف ، وتمكن قرا ايلوك من الاستيلاء عليهـــا في عـــام (٨١٣ هـ = ١٤١٠ م)[5] .

وهكذا قضي على آخر الأمراء الأراتقة ، وسقطت آخر إماراتهم على يد قوات من جنسهم من التركمان[6] ، بعد أن حكمت ما يزيد على الثلاثة قرون

---

(١) التاريخ الغياثي (المخطوطة ص ٢٣٠ - ٢٣١) . ويذكر ابن تغري بردي (المنهل الصافي ، المنشور ٢٢٢/١) أن ذلك حدث بعد ثلاثة أيام فقط من دخول الصالح الموصل ، وأن زوجته توفيت هي الأخرى ، وأن ذلك تم عام ٨١١ وليس ٨١٢ كما أورد الغياث في تاريخه . ولا ريب أن ما أورده الغياث يعد أكثر دقة بسبب اطلاعه على تفاصيل هذه الاحداث ،

(٢) ابن تغري بردي، المنهل الصافي (القسم المنشور ٢٢٢/١) ،

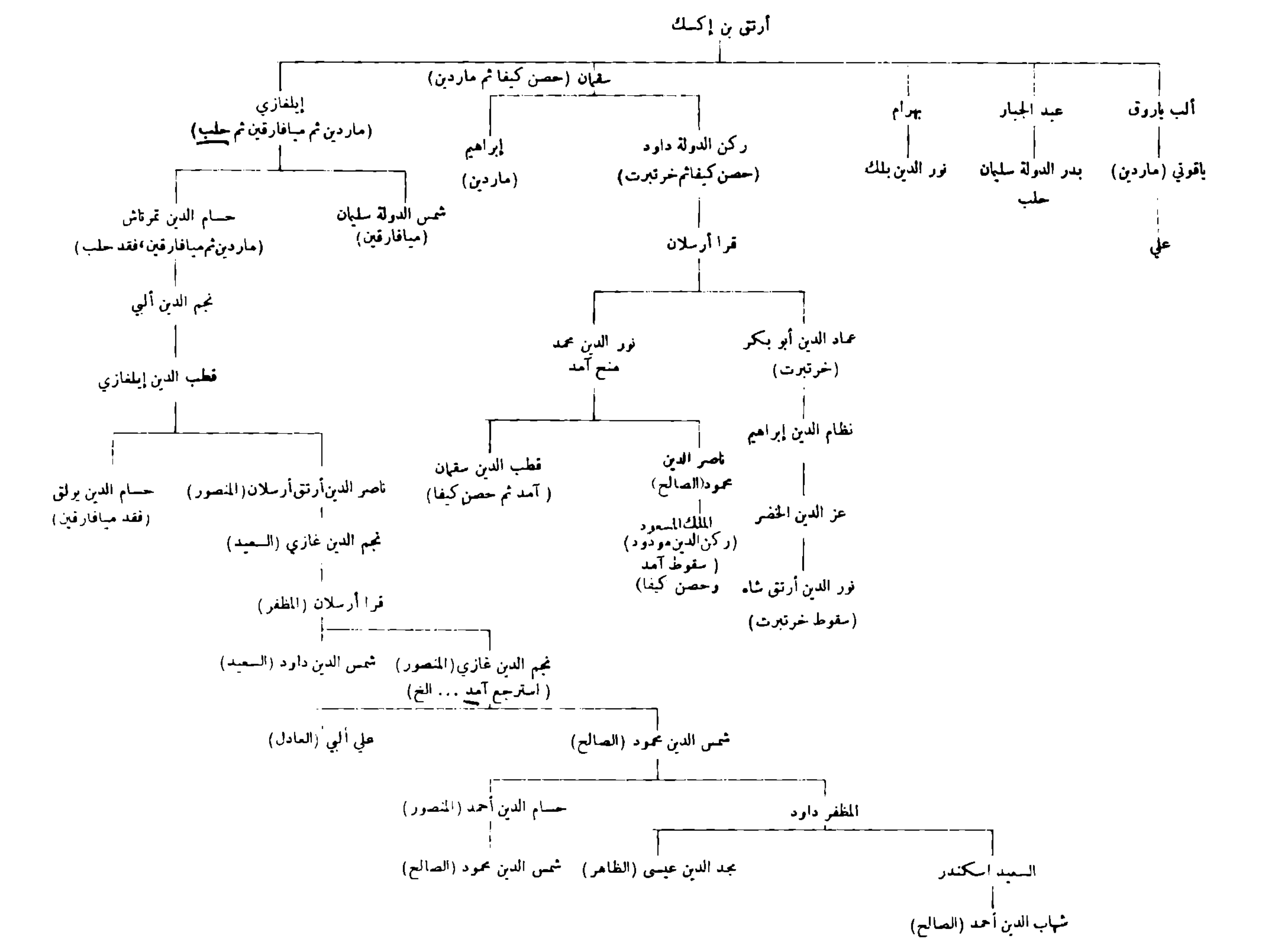
(٣) المصدر السابق ١ / ٢٣٩ - ٢٤٠ . وانظر المقريزي ، السلوك (القسم المخطوط ٣/ ٨٠/١) . ويخطىء ابن حجر (الدرر الكامنة ٩٦/٢) في القول بأن استيلاء التركمان على ماردين تم عام ٨٠٩ هـ. بعد قتل صاحبها الظاهر عيسى في تلك السنة ، كما يخطىء العمري (تاريخ الموصل ص ٦٩) في أن أول ظهور قرا يوسف كان عام ٨١٣ هـ . أما العزاوي (العراق بين احتلالين ٢٧/٣ - ٢٨) فيخطى في عدم تمحيصه لتواريخ هذه الفترة .

(٤) المقريزي ، السلوك (القسم المخطوط ٨٠/١/٣) .

(٥) التاريخ الغياثي (مخطوطة ص ٢٣٠ - ٢٣١) ، العمري ، تاريخ الموصل ص ٦٩ .

(٦) انظر بشأن نشوء إمارتي الآق قونيـــلو (الخروف الابيض) والقراقونيلو (الخروف الأسود) ، الغزاوي ، التعريف بالمؤرخين ص ٢٢٨ - ٢٣١ ، ٢٤١ - ٢٤٥ ، العراق بين احتلالين ، الجزء الثالث ، طرخان ، دولة المماليك الجراكسة ١١٨ - ١٢٠ ، ودوائر المعارف الإسلامية .

تعرضت خلالها لأخطار شتى وهجمات مستمرة . وكان الذي يجعلها تصمد دائماً ما تتميز به من إمكانيات دفاعية ، فضلاً عن وجود قوة كبيرة تركن إليها وتدخل في حمايتها إزاء الأخطار والهجمات ، ولكن الإنهاك الذي لحقها بسبب الهجمات المستمرة من قبل تيمورلنك والقبائل التركمانية ، والضربات التي وجهت الى المماليك في الشام على يد تيمورلنك كانت العوامل الأساسية في سقوط الإمارة ، إذ تركت وحدها ، ضعيفة منهكة ، في خضم من الغليان العسكري ، لتجابه مصيرها على يد قوى تركمانية جديدة فتية ظهرت في المنطقة ، واستطاعت بفضل تحالفها مع تيمورلنك وأتباعه أن تبسط نفوذها هناك .


أرتق بن إكسك
ألب ياروق
ياقوتي (ماردين)
علي
عبد الجبار
بدر الدولة سليمان
حلب
بهرام
نور الدين بلك
سقمان (حصن كيفا ثم ماردين)
ركن الدولة داود
(حصن كيفا ثم خرتبرت)
إبراهيم
(ماردين)
قرا أرسلان
عماد الدين أبو بكر
(خرتبرت)
نظام الدين إبراهيم
عز الدين الخضر
نور الدين أرتق شاه
(سقوط خرتبرت)
نور الدين محمد
منح آمد
ناصر الدين
محمود (الصالح)
الملك المسعود
(ركن الدين مودود)
(سقوط آمد
وحصن كيفا)
قطب الدين سقمان
(آمد ثم حصن كيفا)
إيلغازي
(ماردين ثم ميافارقين ثم حلب)
شمس الدولة سليمان
(ميافارقين)
حسام الدين تمرتاش
(ماردين ثم ميافارقين، فقد حلب)
نجم الدين ألبي
قطب الدين إيلغازي
ناصر الدين أرتق أرسلان (المنصور)
حسام الدين يولق
(فقد ميافارقين)
نجم الدين غازي (السعيد)
قرا أرسلان (المظفر)
نجم الدين غازي (المنصور)
(استرجع آمد ... الخ)
شمس الدين داود (السعيد)
شمس الدين محمود (الصالح)
علي ألبي (العادل)
المظفر داود
حسام الدين أحمد (المنصور)
السعيد اسكندر
مجد الدين عيسى (الظاهر)
شمس الدين محمود (الصالح)
شهاب الدين أحمد (الصالح)

الفصل الخامس

النّظم والحضارة الأرتقيّة

تمهيد : -

إن موضوع التنظيمات الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافيـــة ، ذو علاقة وثيقة بسياسات الإمارات الأرتقية وعلاقاتها الخارجية ، إذ أن هـــذه التنظيمات كانت ، الى حد ما ، القاعدة التي استند عليهـــا الأراتقة في توجيه نشاطهم نحو التوسع وإنشاء العلاقات مع الدول والإمارات المجـــاورة · فعن طريق هذه التنظيمات يتمكن الأمير من السيطرة على الوضع الداخلي لإمارتـه وتسييره وفق نظـــام معين يمكنه من استغلال الوسائل الاقتصادية والبشرية والحربية من أجل توسيع إمارته وتحديد علاقاته مع الآخرين ، كما يمكنه من القضاء على الفوضى الداخليـــة والسير بإمارته نحو التقدم والنمـــو في شتى المجالات .

وهكذا فإن بحث النظام ، على قلة المعلومات عنها وابتعـــاد المصادر عن محاولة إيراد تفاصيل حولها ، ضروري لتوضيح الأساس الداخلي الذي استندت اليه علاقات الأراتقة الخارجية ، السياسية والعسكرية ، والتي تشكل القسم الأكبر من هذه الرسالة .

ويظهر أن الأراتقة حاولوا تنظيم أوضاعهم الداخلية ، وتمكنوا من تحسين

النظم السائدة في المنطقة في الفترة السابقة ، كما أنهم اقتبسوا كثيراً من النظم التي عاصرتهم . ولكن المشكلة التي تعترضنا هي هل أن الأراتقة أقاموا تنظيماتهم على أنقاض جهاز سابق ؟ أم أنهم أنشؤوها بالكلية إنشاءا جديداً ؟ ومصدر هذه المشكلة هو عدم تأكيد المصادر على النواحي المتعلقة بالنظم ، وانصرافها الى التأكيد على العلاقات السياسية والحروب بالدرجة الأولى ، ليس فقط بالنسبة لديار بكر ، وإنما بصورة عامة ، وهكذا تضيع الإشارات المحدودة عن النظم في خضم من التفاصيل السياسية والعسكرية .

ولإعطاء صورة عن المعالم الأساسية للنظم الأرتقية ، تجدر الإشارة الى عدد من الاعتبارات أهمها :

١ – هنالك إشارات الى عدد من التنظيمات الإدارية والاقتصادية في ديار بكر في الفترة التي سبقت تكوين الإمارات الأرتقية مباشرة ، مما يشير الى أن المنطقة كانت قد بلغت – في تلك الفترة – مرحلة لا بأس بها من النضج الإداري والاقتصادي. وبمقارنة هذه التنظيمات بتلك التي عرفت لدى الأراتقة، يتضح مدى ما أخذه هؤلاء عمن سبقهم ومدى ما استحدثوه في هذا المجال .

٢ – إن سكوت المصادر عن بعض التنظيمات والأمور الإدارية والاقتصادية والاجتماعية ... في فترات معينة من التاريخ ، لا يعني عدم وجودها ، بل من المحتمل أن المصادر ، بتركيزها على القضايا السياسية والحربية قد أهملت الأمور الحضارية . وهنا تجدر الإشارة الى حقيقة هامة في المجال الحضاري ، تلك هي أن حدوث تحول سياسي أو حربي ، والانتقال من عهد الى عهد آخر وسقوط الأمراء وقيام آخرين مكانهم ، لا يعني سقوط التنظيمات القديمة قاطبة وقيام أخرى جديدة لا علاقة لها بسابقتها ، إذ أن ذلك يناقض استمرارية التماسك

الاجتماعي والنظامي والبيروقراطي (الوظيفي) بعد حدوث هذه الرجات . فلا بد إذاً من القول بأن التنظيمات ، في خطوطها الأساسية ، لا يصيبها تغيير كبير إثر تلك الانقلابات ، وبصورة خاصة بالنسبة لطبقة الموظفين الصغار والمسؤولين الثانويين الذين يلعبون دوراً هاماً في استمرارية النظام والتماسك الإداري . وهكذا يمكن القول بأن الأراتقة لم يقيموا مؤسسات ونظماً جديدة بالمرة على المنطقة ، بل إن بعضها كان موجوداً ، واكتفى هؤلاء بإجراء بعض التعديلات عليها ، فضلاً عن إدخالهم نظماً جديدة مقتبسة عن الدول المعاصرة كالسلاجقة والأيوبيين والمماليك .

٣ – لم تقم الإمارات الأرتقية دفعة واحدة ، بل قامت في فترات زمنية متباينة ، وليس هذا فحسب ، بل إن كلاً من هذه الإمارات بدأت بمدينة أو حصن واحد وأخذت تتسع بالتدريج بضم أماكن جديدة إليها . وهذا يشير ، من ناحية سياسية وحضارية ، الى عدم حدوث تغيير أساسي إثر قيام الإمارات الأرتقية ، وإن من المؤكد قيام الأراتقة ، في كثير من الأحيان ، باقتباس شبه تام لما كان موجوداً سابقاً . ويشير (كاهين) الى أن التنظيم الداخلي للأراتقة وحضارتهم بصورة عامة كانت تنقصها الأصالة بحيث لا يستحقان دراسة شاملة خاصة بها . فالإمارات الأرتقية كانت تشكل ، فيما عدا خرتبرت ، جزءاً من العالم الإسلامي منذ عهد الفتوحات الإسلامية، وإن المناطق التي حكمها الأراتقة استمرت تحكم من قبل نفس السكان وبنفس القوانين التي كان يعمل بها سابقاً ، ويتساءل كاهين فيما إذا كان لنظام حكم الأراتقة أي ميزات خاصة سواء أكانت أصيلة أم غير أصيلة[١] . هذا فضلاً عن أن إيران والعراق والشام ، كانت قد

---

(١) Enc. Isl. art. Artukids, New ed.

تأثرت جميعاً – كما يشير ڤيت ، في هذه المرحلة التاريخية ، الى حد كبير أو صغير بما أنشأه السلاجقة من نظم حربية واقتصادية وما لجؤوا اليه من إنشاء المدارس[1] . وقد أشار القاقشندي الى هذه المؤثرات الحضارية للسلاجقة والأتابكيات التي تفرعت عنها في مختلف أنحاء المنطقة المذكورة ، بحيث إن أهم الدول والإمارات التي قامت في إنمائها كانت تستمد نظمها من هؤلاء في معظم الأحيان[2] . ويعود كاهين فيشير إلى أن دخول العنصر التركماني – الذي ينتمي اليه الأراتقة – الى ديار بكر لم يكن له أي تأثير على فعاليات القطر الاقتصادية التقليدية ، التي كانت قائمة على الزراعة وتربية الحيوانات ومناجم الحديد والنحاس والتجارة مع العراق والأناضول[3] . وهذا يشير بدوره الى أن ناحية من أهم نواحي النظم الأرتقية لم تكن مبتكرة ، وإنما اعتمدت على ما كان سائداً من قبل . هذا فضلاً عن أن السمة العربية الأصيلة للحضارة الأرتقية استمرت تحتل مكانة كبيرة في ديار بكر متمثلة في الشعر العربي الذي لقي رواجاً لدى الأراتقة ، وفي العدد الكبير من الشعراء الذين خرجتهم أو استقبلتهم ديار بكر في عهد الأراتقة .

٤ – ثمة نتيجة تتمخض عن الاعتبارات السابقة، وهي أن كل دراسة للنظم التي التزمتها الدولة السلجوقية ، أو الدول والإمارات التي أخذت عنها كالأيوبيين[4] ، تلقي ضوءاً في الوقت ذاته على المعالم الأساسية للنظم الأرتقية ، خاصة وأن الإمارات الأرتقية امتدت ، في بعض الأحيان ، فشملت مدناً

---

(١) L.Egypte Arabe, P. 330.

(٢) صبح الاعشى ٤/٥ .

(٣) Enc. Isl. art Artukids, New ed.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى ٤/٥ .

ومواقع كانت ذات طابع سلجوقي كحلب والمواقع المحيطة بها .

٥ – شكل الأراتقة ثلاث إمارات ضمت كل منها عدداً من المدن والمواقع . وعلى الرغم من وجود بعض الاختلافات الثانوية في نظم تلك الإمارات فيما بينها أو فيما يتعلق بنظم مدن كل إمارة منها على حدة ، إلا أنها تتشابه جميعاً في خطوطها الأساسية وكبار موظفيها وطبيعة حياتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . ولذا سيجيء بحث حضارة ونظم هذه الإمارات والوحدات المدنية كوحدة كاملة دون تجزئة .

٦ – أورد بعض المؤرخين عدداً من الإشارات حول ما كان سائداً من نظم في السنوات التي سبقت ورافقت ظهور أولى الإمارات الأرتقية في ديار بكر ، حيث كانت تحكم الإمارة المروانية الكردية (٣٨٠ – ٤٧٨ هـ = ٩٩٠ – ١٠٨٥م)[١] ، وبعض الأمراء السلاجقة ، مما يلقي ضوءاً على الأسس التي اعتمدها الأراتقة في تنظيماتهم . ويتضح من استعراض الروايات التي أوردها الفارقي في هذا المجال ونقلها عنه ابن شداد ، أن ديار بكر كانت قد بلغت خلال الفترة المذكورة درجة لا بأس بها من النمو في نظمها الإدارية ، وظهر فيها عدد من الأجهزة والمناصب التي كان أصحابها يقومون بتسيير شؤون الإدارة كالقضاء ونيابة القضاء [٢] والخطابة [٣] والحسبة [٤] والنظر على الوقف [٥]

---

(١) الفارقي ، تاريخ آمد (القسم المنشور) ص ٢٤٧ – ٢٤٨ ، ونقل عنه ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ٩٩ آ – ب) .

(٢) الفارقي ، تاريخ آمد ص ١٩٧ – ١٩٩ ، ٢٦٦ – ٢٦٧ ، ٢٧٩ .

(٣) الفارقي ، تاريخ آمد ص ٢٦٦ – ٢٦٧ .

(٤) الفارقي ، تاريخ آمد ص ٢٤٤ – ٢٤٧ ، ٢٦٦ – ٢٦٧ ، ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ٩٩ آ) .

(٥) الفارقي ، تاريخ آمد ص ١٩٧ – ١٩٩ .

والديوان[١] والاستيفاء[٢] والوزارة[٣] والولاية [٤] والحجابة[٥] ومحافظة البلد[٦] ودار الضرب[٧] . وهنالك من الضرائب ، المؤن والأعشار والأقساط والكلف والخراج[٨] ، كما يتضح الدور الهام الذي كان يلعبه القضاة في المجالين السياسي والعمراني حيث كانت الظروف السياسية تلعب دورها في تسلمهم المناصب القضائية ، لذا لم يكن أحدهم يستقر في منصبه طويلاً . وقد تدخل القضاة في تعيين الحكام وعزلهم[٩] . وكان المحتسب يتمتع ، كذلك ، بصلاحيات واسعة فكان يسهم في فرض الضرائب والرسوم على الأهالي ، كما كان يقوم أحياناً بتولي أمور المدينة [١٠] . أما الوزير فكان يمثل السلطة العليا في البلاد، وقد فوض في أحيان كثيرة صلاحيات واسعة شملت تنصيب ولي العهد إثر وفاة سلفه ، والإشراف على النواحي العمرانية والمالية مما أتاح لبعض الوزراء الحصول على الثروة عن طريق المصادرات وابتزاز الأموال ، وبلغ من صلاحية

---

(١) الفارقي ، تاريخ آمد ص ٢٨٣ - ٢٨٤ ، ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٠١ آ — ب) .

(٢) الفارقي ، تاريخ آمد ص ٢٨٣ - ٢٨٤ ، ابن شداد ١٠١ آ - ب .

(٣) الفارقي ، تاريخ آمد ص ١٩٧ - ٢٠٠ ، ٢٣٦ - ٢٣٧ ، ٢٤٤ - ٢٤٧ ، ٢٧١ ، ابن شداد ٩٧ ب ، ٩٩ آ .

(٤) الفارقي ص ٢٤٤ - ٢٤٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ - ٢٨٢ ، ابن شداد ٩٩ آ ، ١٠١ آ ،

(٥) الفارقي ص ٢٧١ .

(٦) المصدر السابق ص ٢٣٠/٢٣٢ ، ابن شداد (مخطوطة ٩٧ آ) .

(٧) الفارقي ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

(٨) المصدر السابق ص ٢٣٦ - ٢٣٧ ، ٢٧٤ - ٢٧٥ ، ابن شداد ٩٧ آ .

(٩) الفارقي ص ١٩٧ - ٢٠٠ ، ٢٣٠ - ٢٣٢ ، ٢٣٦ - ٢٣٧ ، ٢٤٤ - ٢٤٧ ، ٢٦٦ - ٢٨٤ ، ابن شداد ٩٧ آ - ب ، ٩٩ آ ، ١٠٠ آ - ب ، ١٠١ آ - ب .

(١٠) الفارقي ص ٢٦٦ - ٢٦٧ ، ٢٦٩ .

الوزراء أن أحد حكام ميافارقين ردّ الى وزيره – المهين – « جميع الأمور »، ويظهر أن الوزير بتمتعه بهذه الصلاحيات حدّ من أهميـة الوالي الذي لم يعد له دور يذكر في تسيير شؤون البلد، اللهـم إلا في الحالات التي كان الوزير يغيب خلالها، أو تشغر وظيفته[١] .

ولم تحدد الروايات الآنفة طبيعة العلاقات الإداريـــة بين مختلف الموظفين بشكل دقيق . وتجدر الإشارة هنا الى أن عدداً من الوظائف السالفة لم يكن ثابتاً بل كان معرضاً للاستغناء عنه في أحيان كثيرة .

وقد تأثر التقدم الاقتصادي والعمراني للمنطقـــة بالظروف السياسية تأثراً كبيراً بسبب اختلاف الحكام عليها واتباعهم أساليب مختلفة، فمنهم من كان يعمل على الإصلاح بإسقاط الضرائب المجحفة والتوسع في الإعمار[٢]، ومنهـــم من كانَ يتبع أساليب البطش والتنكيل وزيادة الضرائب مما اضطر عـدد من الأهالي الى الجلاء[٣] .

ويمكن القول بأن المنطقة بلغت درجة كبيرة من التقدم الإداري والعمراني والاقتصادي في أواخر حكم الامارة المروانيـــة في ديار بكر، حيث انصرف حكامها الى الإصلاح والإعمار[٤] . ولكن ما أن سقطت تلك الإمارة، حتى غدت ديار بكر عرضة للفتن والأطماع، حيث تناوبهـا الحكام وطمع الأمراء

---

(١) الفارقي ص ١٩٩ – ٢٠٠، ٢٣٦ – ٢٣٧، ٢٤٤ – ٢٤٧، ٢٧١، ٢٨١ – ٢٨٢، ابن شداد ٩٧ ب، ٩٩ آ، ١٠١ آ – ب .

(٢) الفارقي ص ١٩٩ – ٢٠٠، ٢٣٦ – ٢٣٧، ٢٧٤ – ٢٧٥، ابن شداد ٩٧ ب.

(٣) الفارقي ص ٢٤٤ – ٢٤٧، ابن شداد ٩٩ آ .

(٤) الفارقي ص ١٩٩ – ٢٠٠، ٢٠٣ – ٢٠٤، ابن شداد ٩٣ آ – ب .

وكانت المؤامرات داخل البلاط الأرتقي لا تقف عند حـــد ، ليس فقط بين الأمراء وكبار رجال الحاشية ، بل بين الأمراء أنفسهم[1] .

ولم يشذ الأراتقة عن قاعدة الوراثة في الحكم إلا في عهد قطب الدين سقمان، أمير آمد وحصن كيفا ، حيث إنه عهد بولاية العهد الى مملوك له يدعى إياز . وعندما توفي قطب الدين عام (٥٩٧ هـ = ١٢٠٠ م) ، تسنم الحكم بعده مملوكه إياز واستمر فيه أياماً ، تمكن بعدها شقيق قطب الدين (ناصر الدين محمود بن محمد) من انتزاع الحكم منه ، ومن ثم ألقى القبض عليه واعتقله[2] .

أما الألقاب التي اتخذهـــا حكام الأراتقة فقد تدرجوا فيهـــا مستغلين الظروف السياسية المحيطة بهم ، فتسموا في البدء باسم الأمـراء ثم الملوك[3] ، وأول من تلقب منهـم بالملك هو أرتق أرسلان عـام (٦٠١ هـ = ١٢٠٤ م) ،

---

(١) في عام ٦٣٦ (وقيل ٦٣٧ هـ) اغتيل الملك المنصور أرتق أمير ماردين على يد مماليكه بسبب الخلاف الذى حدث بينه وبين ابنه الملك السعيد إيلغازي واعتقال الأخير ، ممـا دفع ابنه الى تدبيره هذه المؤامرة لاغتيال جده والافراج عن أبيه . ومـا أن استقر السعيد في الحكم حتى قام باعتقال أكبر أخوتة حيث كان يشكل خطراً على نفوذه ، ومن ثم استقام له الأمر . انظر ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ص ١١٦ - ١١٧، سبط بن الجوزي، مرآة ٨/٧٣٠، ابن شداد، الأعلاق (مخطوطة ١٣٤ ب ١٣٥ آ) . وفي عـــام ٧١١ هـ توفي الملك المنصور إيلغازي، فقام ولي عهده الملك العادل بمحاولة لاغتيال أخيه شمس الدين الصالح لما كان يعـــلم من همته وأنه أحق بالملك منه ، فعارضه كبار الامراء في ذلك للمكانة الكبيرة التي كان يتمتع بها الصالح ثم مـا لبث العادل أن توفي بعد أيام، ويقال إنه سم على يد أحد الامراء، فانتقل الملك الى أخيه الصالح. انظر : الدواداري ، كنز الدرر ٩/٢٤١ - ٢٤٢ ، ابن حجر ، الدرر ٣/٢١٦ - ٢١٧ .

(٢) ابن الساعي ، الجامع المختصر ٩ / ٥٣ .

(٣) غدا لقب الملك، في العصر السلجوقي ، يطلق على الولاة الفرعيين بينما احتفظ رب الاسرة السلجوقية بلقب السلطان (مجلة بغداد ص ٢٦ ، عدد ٢٤ سنة ٩٦٥) .

المجاورين بضياعها وقراها مما أدى الى تدهور أوضاعها العامة ، فاستولى عليها ، كما ذكر الفارقي « الظلم والجور والخراب ، وافتقر أهلها ، والى الآن — حوالي منتصف القرن السادس — لم ترجع الى عشر عشر مـا كانت عليه في أيام نظام الدين (المرواني)[1] » . وهذا يعطي صورة مقارنة عن الوضع الاقتصادي لديار بكر قبيل الأراتقة وفي مطلع حكمهم[2] .

الإدارة الأرتقية :

كان نظام الحكم في الإمارات الأرتقية قائماً على الأساس الوراثي ، فالابن يعقب أباه في الحكم ، وأحياناً تنتقل السلطة الى الأخ في حالة عدم وجود وريث أو عدم تمتع الابن بالمؤهلات الكافية[3] . ولكن كثيراً مـــا كان يحدث أن الوريث يخلف أباه على الحكم حتى ولو كان طفلاً ، وهذا هو الذي أتاح لبعض أفراد الحاشية الاستئثار بالحكم الفعلي ، وتوجيه الأمراء الأطفال وفق هواهم[4]

---

(١) الفارقي ، تاريخ آمد ص ٢٠٣ - ٢٠٤ ، ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ٩٣ آ - ب).

(٢) انظر ما يلي من الفصل .

(٣) انظر جدول حكام الأراتقة .

(٤) تولى حسام الدين يولق أرسلان الحكم بعد أبيه إيلغازى عام (٥٨٠ هـ = ١١٨٤ م) وكان طفلاً فقام بتربيته نظام الدين البقش مملوك أبيه واستأثر بالحكم هو ومملوك آخر يدعى لؤلؤ. ولم يزل الأمر كذلك الى ان توفي الولد عام (٥٩٥ هـ = ١١٩٩ م) ، وكان له أخ أصغر منـه هو قطب الدين أرسلان فعينه البقش مكان أخيه في الحكم «وليس له منه إلا الاسم ، والحكم للنظام ولؤلؤ » . ولكن قطب الدين ما لبث أن أخذ يتحين الفرص للتخلص من نفوذهما وواطأ على ذلك جماعة من الأمراء والمماليك ومن ثم تمكن من اغتيالها عام (٦٠١ هـ = ١٢٠٤ م) ، وإخراج مناوئيه من ماردين وتعزيز انصاره ، وبذلك تمكن من ممارسة مهام الحكم بشكل فعلي . انظر ابن الأثير ، الكامل ١١ / ٢٠٧ ، ابن العبرى ، مختصر ٣٨١ — ٣٨٢ ، ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٠٥ ب) .

حيث سمى نفسه الملك المنصور[1] . ثم اتخذ حكام الأراتقة بعدئذ لقب السلطنة ، وأول من تلقب منهم بذلك هو نجم الدين المنصور المتوفى عام (٧١٢ هـ = ١٣١٢ م) ، ثم أبناؤه من بعده[2] ، واستمروا على ذلك حتى سقوط إمارة ماردين عام (٨١٢ هـ = ١٤٠٩ م) ، ولكن ذلك لم يمنع من تمسكهم بلقب الملك وخاصة في الفترة الأخيرة كالملك الظاهر مجد الدين عيسى[3] . وكان من عادتهم إضافة نعتين الى اسمهم الأصلي مثل (المنصور نجم الدين إيلغازي والعادل علاء الدين علي) ، ومن المرجح أنهم اقتبسوا ذلك من الأيوبيين والمماليك[4] .

ولا ريب أن السلطة الرئيسية في الحكم كانت بيد الأمير الأرتقي ، وأنه كان يتمتع بنفس الصلاحيات التي كان يتمتع بها سلاطين وملوك وأمراء تلك الفترة : كمنح الإقطاعات ، ومكافأة الأمراء والأجناد ، والقيادة العليا للجيش ، وتعيين كبار موظفي الدولة وعزلهم وتأديبهم ، والنظر في المظالم أحياناً ومقابلة بعض ذوي الحاجات من الأهالي ، وتحديد سياسة الإمارة ..[5] أما بقية الاختصاصات والأعمال فكانت تقع على عاتق الجهاز الإداري المكلف بتسيير شؤون الإمارة الإدارية والعسكرية والمالية .

---

(١) ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (القسم المخطوط ٢/٤٩٦) .

(٢) القلقشندي، صبح الاعشى ط ٢ ، ٤/٣١٦ . ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (القسم المنشور) حاشية ٣ ، ١/٢٢١ .

(٣) العيني ، الروض الزاهر ص ١٥ .

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى ط ٢ ، ٥/٤٨٨ . وانظر عن انتشار الالقاب لدى السلاجقة والذين أعقبوهم (مجلة بغداد ص ٢٤ – ٢٨ ، عدد ٢٤ سنة ٩٦٥) .

(٥) انظر : علي ابراهيم حسن ، المماليك البحرية ص ١٦٠ – ١٦٢ .

يقف الوزير على رأس الجهاز الإداري لدى الأراتقة ، وكان يتمتع بصلاحيات واسعة في العهود الأولى من حكمهم ، وربما كان الأراتقة متأثرين في ذلك بالنظام السلجوقي الذي كان يعطي للوزير حق الإشراف على جميع الدواوين والمرافق المهمة في الدولة[١] . وأول وزير تتطرق الروايات الى ذكره هو أبو تمام بن عبدون الذي رافق إيلغازي لدى توجهه الى أرمينية لقتال الكرج عام (٥١٤ هـ = ١١٢٠ م)[٢] . ويشير ورود اسم الوزير في هذه الفترة المبكرة إلى أن الأراتقة اتخذوا الوزراء منذ فجر حياتهم السياسية ثم تورد الروايات ، بعد ذلك ، اسم عبد الملك الذي استوزره حسام الدين تمرتاش عام (٥١٨ هـ = ١١٢٤ م) ، وقد استمر هذا في منصبه حتى عام (٥٢٧ هـ = ١١٣٢ م) ، حيث توفي . وكان يقوم بتعيين بعض كبار الموظفين كالشحنة (الحافظ)[٣] ، والمشرف على الوقف ، كما قام بمصادرة بعض كبار المسؤولين[٤] مما يشير الى سعة الصلاحيات التي كان الوزير الأرتقي يتمتع بها . وفي العام التالي (٥٢٨ هـ) وصل الى ماردين حبشي بن محمد بن حبشي قادماً من العراق[٥] ليدخل في خدمة تمرتاش الذي ولاه الوزارة ومنحه سلطات واسعة « فبلغ من الدولة ما لم يبلغه غيره وتحكم أوفى تحكم »[٦] ، وتوجه الى ميافارقين في مطلع

---

(١) حسين أمين ، نظام الحكم في العصر السلجوقي (مجلة سومر ، مجلد ٢٠ سنة ١٩٦٤) .

(٢) الفارقي ، تأريخ آمد (المخطوطة ورقة ١٠٣ آ – ١٠٤ آ) .

(٣) انظر الفصل الاول .

(٤) الفارقي (المخطوطة ١٠٩ آ – ب) .

(٥) كان حبشي قد خدم الياغسياني أمير حماة ، ويظهر انه لم يقم بواجبه عل الوجه المطلوب فقبض عليه الياغسياني وعاقبه ، فانهزم وتنقل في البلاد الى ان انتهى به المطاف في ماردين (الفارقي ، تاريخ آمد ، مخطوطة ١٠٩ ب – ١١٠ آ) .

(٦) الفارقي ، تاريخ آمد (المخطوطة ١١٠ آ) .

العام التالي « فعمل هناك حساب أرباب الأعمال والكتاب ، وسلك بهم أعسف الطرق والخسف والقهر » وما أن وصل الى هناك حتى أنهزم المستوفي المؤيد أبو الحسن عائداً الى الجزيرة فقبض حبشي على شقيقه أبي سعيد وكان مستوفياً هو الآخر ، وعلى ابنه ، وصادر أموالهما ، فبقي الناصح في الاعتقال حتى وفاته ، وقام حبشي بتولية العميد أبو طاهر بن المحتسب مكانه ، وكان هذا معتقلاً طيلة ست سنوات فأطلقه حبشي[1] . وفي عام (٥٣١ هـ = ١١٣٦ م) توجه حبشي الى ميافارقين ثانية وصادر أهلها « وجرى عليهم منه ما لا يوصف[2] » . وفي عام (٥٣٥ هـ = ١١٤٠ م) لعب حبشي دوراً مهماً في حماية ميافارقين من الخطر الذي دهمها لدى مهاجمة داود الأرتقي أمير حصن كيفا لها ، وكان حبشي آنذاك مقيماً بها فقام هو والحاجب يوسف بن ينال والي المدينة ، « بتدبير الناس وسياسة البلد »[3] . ويظهر أن العلاقات ساءت ، بعد ذلك ، بينه وبين حسام الدين تمرتاش بسبب طغيانه واستغلال منصبه للكسب الشخصي . ولكن تمرتاش لم يستطع أن يقدم على خطوة جريئة ضده ، الى أن استغل فرصة تغيبه عن ماردين عام (٥٣٦ هـ = ١١٤١ م) على رأس وفد لمفاوضة زنكي في الموصل ، فأطلق سراح المؤيد أبي الحسن الذي كان حبشي قد اعتقله منذ عام (٥٣٤ هـ = ١١٣٩ م) ، وعينه حسام الدين تمرتاش في الاستيفاء ورد اليه جميع الأمور[4] . ويظهر أن هذه الخطوة التي اتخذها حسام الدين استفزت حبشي – وهو في الموصل – فاتفق مع زنكي – سراً – على

---

(١) الفارقي ، تاريخ آمد ١١٠ آ ، ونقل عنه ابن شداد ، الاعلاق ورقة ١٠٣ آ – ب .
(٢) الفارقي ، المصدر السابق . ورقة ١٢١ آ .
(٣) ابن شداد ، الأعلاق ورقة ١٠٣ ب – ١٠٤ آ .
(٤) الفارقي ، تاريخ آمد . ورقة ١٢٢ ب – ١٢٣ آ .

تسليمه ميافارقين ، ولكن المؤامرة اكتشفت ، عندما حاصر زنكي المدينة عام (٥٣٨ هـ = ١١٤٣ م)، وكان حبشي مقيماً بها آنذاك ، فدخل على خيمته ليلاً اثنان من كبار مسؤولي المدينة وهما مؤمل الشاقصي ومحمد بن أبي المكارم وقتلاه واتجها برأسه الى ماردين(١) .

وتشير الروايات السابقة الى مدى ما كان يتمتع به الوزير الأرتقي من صلاحيات إدارية وسياسية كما كانت الحال في السابق ، حيث كان يقوم بفرض وتقدير الضرائب على أرباب الأعمال والكتاب ، ويصادر كبار الموظفين ، ويعزلهم ويوليهم ، ويرأس الوفود للمفاوضة ويشارك في تنظيم الدفاع عن المواقع التي يتهددها الخطر . ولكن هذا التضخم في الصلاحيات التي مارسها الوزير حدّ من سلطة الأمير الأرتقي نفسه ، بحيث لم نعد نرى بعد حبشي وزيراً للأراتقة تمتع بهذه الصلاحيات . وقد وصل الى ماردين في العام الذي تلا مقتل حبشي الأمير إبراهيم بن منقذ المصري فولاه حسام الدين الوزارة(٢) . ويظهر أن هذا حاول استغلال منصبه كسلفه فاعتقله حسام الدين عام (٥٤٠ هـ = ١١٤٥ م) قبل أن يتمكن من منصبه ، ولكنه استطاع أن يهرب من السجن بتدبير من بعض أفراد الحاشية الأرتقية ومن ثم غادر ماردين سراً ، فلما علم حسام الدين بذلك أرسل فرسانه في طلبه فتمكنوا من القبض عليه وحملوه الى حسام الدين فأطلقه دون عقاب(٣) .

ولم تشر المصادر الى الوزير الذي أعقب إبراهيم بن منقذ طيلة خمس سنوات

---

(١) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٠٣ ب – ١٠٤ آ .
(٢) الفارقي ، تاريخ آمد ، ورقة ١٢٤ آ .
(٣) المصدر السابق ، ورقة ١٢٥ آ .

من هذا الحادث ، وتقفز الى عام (٥٤٥ هـ = ١١٥٠ م) حيث يشير الفارقي الى أن حسام الدين استوزر خلاله زين الدين أسعد بن عبد الخالق ، شقيق المؤيد الذي كان وزيراً للبرسقي حاكم الموصل (٥١٥ — ٥٢٠ هـ = ١١٢١ — ١١٢٦ م)[١] ، ولكن هذا لم يستمر في منصبه سوى عام واحد حيث اغتيل في العام التالي (٥٤٦ هـ = ١١٥١ م) ، بتدبير من حكام آمد[٢] ، « وبقي حسام الدين بعد قتل زين الدين بغير وزير واكتفى بالأجلّ مؤيد الدين — الذي كان يعمل في الإشراف على الديوان — وأغناه عن جميع من خدمه[٣] » . ويظهر أن حسام الدين أراد أن يتخلص من المشاكل التي جرها عليه معظم وزرائه ، فقرر أن يبقى بلا وزير ، وأن يعتمد على بعض كبار موظفيه لإنجاز ما كان يقوم به الوزراء من مهام رسمية .

وطيلة الفترة التي أعقبت وفاة حسام الدين (٥٤٧ هـ = ١١٥٢ م) وحتى سقوط آخر إمارة أرتقية في ماردين عام (٨١٢ هـ = ١٤٠٩ م) ، لم تقدم المصادر روايات متكاملة ومتتابعة عن الأشخاص الذين استوزروا من قبل الأراتقة ، وطبيعة الأعمال التي كانوا يمارسونها . ففيما عدا تاريخ الفارقي ، وابن شداد الذي نقل عنه ، لا نجد أي مصدر يهتم بالأمور الإدارية للأراتقة بالمقدار الذي نجده لدى الفارقي ، لذا فإن الفترة الطويلة التي أعقبت تاريخ الفارقي لا تتخللها سوى روايات قليلة ومتباعدة تشير الى بعض النواحي الإدارية . ففي عام (٥٨١ هـ = ١١٨٥ م) ترد إشارة عن مقتل قوام الدين عبد الله بن سماقة وزير نور الدين محمد بن قرا ارسلان أمير آمد وحصن كيفا ، حيث احتال

---

(١) المصدر السابق ، ورقة ١٣٤ ب .
(٢) انظر الفصل الثاني .
(٣) الفارقي ، المصدر السابق ، ورقة ١٣٥ ب — ١٣٦ آ .

عليه مماليك الأمير المذكور فاستدعوه من الديوان الذي كان يجتمع فيه بكبار رجال الدولة وقالوا له : إن الملك يطلبك ، وما أن انفرد في أحد الدهاليز حتى انقضوا عليه وقتلوه[1] ، ويظهر أنه حاول أن يتجاوز حدود سلطته ، أو أنه قتل بتحريض من قبل بعض منافسيه ، ومن المرجح أن ممارسته السلطة الفعلية باسم سيده هو الذي ألبه عليه ودفعه الى قتله[2] .

وترد في عام (٦٥٢ هـ = ١٢٥٤ م) إشارة الى وفاة أحمد بن خلوان ، نجم الدين المعروف بابن العالمة ، وأنه كان قد استوزر من قبل المسعود أمير آمد وحصن كيفا فترة من الزمن ، بعد أن خدمه وحظي عنده بما كان يتمتع به من مهارات في العلوم والآداب ، ثم ما لبث الملك المسعود أن نقم عليه وصادر جميع ممتلكاته فاضطر الى مغادرة آمد الى دمشق حيث توفي هناك[3]. وفي عام (٦٨١ هـ = ١٢٨٢ م) ترد إشارة الى اشتراك الصاحب شمس الدين بن شرف الدين التيتي ، وزير صاحب ماردين ، في الوفد الذي أرسله السلطان أحمد بن هولاكو ، سلطان المغول ، لمفاوضة المماليك في مصر ، وانتهى الأمر باعتقالهم في دمشق ثم الإفراج عنهم فيما عدا ابن التيتي « ونفرين أو ثلاثة قيل إن صاحب ماردين أشار بإبقائهم لأمر نقمه عليهم[4] » . وكان ابن التيتي فاضلاً مشاركاً في علوم النحو واللغة والحديث ، وروى عنه عدد من العلماء[5] ، ولكنه لم ينج ،

(١) أبو شامة ، الروضتين ٦٧/٢ ، ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق (مخطوطة ٣٠١ - ٣٠٢) .

(٢) الكامل ٢٠٩/١١ ، أبو الفدا ، المختصر ٧٣/٣ ، ابن الوردي ، تتمة ٩٤/٢ .

(٣) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ٩٢/١ - ٩٥ .

(٤) للمصدر السابق ٢١٧/٤ - ٢١٨ . وانظر التفاصيل في الفصل الرابع .

(٥) ابن حجر ، الدرر الكامنة ٣٨٦/٣ .

كمعظم زملائه من وزراء بني أرتق من التنكيل والاضطهاد . وبعد فترة ليست بالطويلة (٦٩٨ هـ = ١٢٩٨ م) قـام نجم الدين إيلغازي ، أمير ماردين ، بقتل وزيره المعروف بابن المرأة ، لدى اكتشافه بأنه كان يتآمر على قتله وتنصيب أحد إخوته مكانه[١] . ويتطرق ابن بطوطة لذكر وزير ماردين في عهد زيارته لها (في حدود عام ٧٦٩ هـ = ١٣٦٧ م) ، وهو جمال الدين السنجاري الذي وزر للملك الصالح والذي يصفه بأنه « الإمام العالم وحيد الدهر وفريد العصر وأنه قرأ بتبريز – من بلاد فارس – وأدرك العلماء الكبار[٢] » ، مما يشير الى أن الأراتقة كانوا يتوخون في وزرائهم العلم والثقافة. ومن ثم ترد الإشارة الأخيرة الى وزراء الأراتقة على لسان ابن الفرات حيث يذكر أنه في العاشر من محرم من عام (٧٩٦ هـ = ١٣٩٣ م) حضر الى القاهرة الحاج محمد وزير صاحب ماردين لإطلاع السلطان على آخر تحركات تيمورلنك[٣] ، مما يشير الى أن الوزير الأرتقي كان يتمتع ، حتى الفترات المتأخرة ، ببعض الصلاحيات في تسيير شؤون الإمارة وفي نشاطها الخارجي .

★ ★ ★

وليس الولاة بأكثر حظاً من الوزراء فيما ورد عن أسمائهم وحدود سلطتهم، ففيما عدا ما قدمه الفارقي (ونقله عنه ابن شداد) وبخاصة قائمة نواب (أو ولاة) حسام الدين تمرتاش في ميافارقين ، فإن المصادر الأخرى لا تكاد تذكر شيئاً عن الموضوع . وأول وال يرد ذكره لدى الأراتقة هو ابن إيلغازي ، الذي

---

(١) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ص ٤٩٩ – ٥٠٠ .

(٢) رحله ١/١٨٣ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ٩/٣٦١ .

نجهل اسمه ، والذي ولاه أبوه على نصيبين لدى استيلائه عليها عام (٥٠٠ ﻫ = ١١٠٦ م)[١] ، وبلاق بن إسحق والي إيلغازي على الأثارب القريبة من حلب والذي لعب دوراً مهماً ضد الصليبيين[٢] ، ثم يرد بعد ذلك اسم الحاجب غزغلي الذي كان والياً على ميافارقين في عهد إيلغازي ، وقد لعب هذا الوالي دوراً في مساعدة شمس الدولة سليمان بن إيلغازي في الاستيلاء على ميافارقين وتشكيل إمارة جديدة هناك ، دون حدوث أي اشتباك[٣] . ويرد بعد ذلك اسم الحاجب يونس الدنيسري الذي ولاه حسام الدين تمرتاش على دارا لدى استيلائه عليها ، في ذي الحجة من عام (٥٤٤ ﻫ = ١١٥٠ م)[٤] . ومن ثم يقدم الفارقي قائمة لا بأس بها عن ولاة (نواب) حسام الدين تمرتاش على ميافارقين وهم : الحاجب أبو بكر بن خمرتاش الحاج (عزل) ، بيرم بن خمرتاش الحاج (عزل) ، عثمان بن خمرتاش الحاج (عزل) بيرم ، ثانية ، (عزل) الحاجب عبد الكريم بن علي (عزل)، الحاجب يوسف ينال (عزل) قزغلي (توفي)، الحاجب يرنقش الحسامي (عزل) ، يوسف ينال ، ثانية ، وبقي حتى عام (٥٣٩ ﻫ = ١١٤٤ م) حيث توفي فولي بعده ناصر الدولة صندل في ذي القعدة ، وبقي في الولاية الى ربيع الآخر سنة (٥٤٢ ﻫ = ١١٤٧ م) وعزل ، وعين أسر سلار حتى وفاته في ربيع الآخر سنة (٥٤٣ ﻫ = ١١٤٨ م) ، ومن ثم استقل ينال بالولاية واستمر فيها حتى وفاة حسام الدين تمرتاش عام

---

(١) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ٣٩ آ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٩٤ .

(٣) الفارقي ، تاريخ آمد . ورقة ١٠٥ آ – ١٠٥ ب . ونقل عنه ابن شداد ، الأعلاق ، ورقه ١٠٢ ب . وقد حور الناسخ اسم غزغلي فجعله كيغلي .

(٤) الفارقي ، المصدر السابق ، ورقة ١٣٢ آ .

(٥٤٧ = ١١٥٢ م)[١] .

ويلاحظ من الاطلاع على هذه القائمة أن ولاة الأراتقة كانوا ، كوزرائهم ، لا يستمرون في مناصبهم طويلاً ، إذ كانوا معرضين للعزل ، وهكذا فإن معظم الولاة الذين حكموا ميافارقين عزلوا قبل أن تمضي على توليتهم فترة طويلة، ولذا تعاقب على حكم هذه المدينة اثنا عشر والياً في فترة لا تزيد على الثلاثين عاماً . وربما كان هذا هو السبب الذي لفت انتباه الفارقي فقدم هذه القائمة وأغفل ذكر ولاة المواقع الأخرى . ويلاحظ أن معظم هؤلاء الولاة ، الذين وردوا في القائمة ، كانوا يلقبون بالحاجب وهذا يشير الى أحد احتمالين : إما أن يكون هؤلاء قد أشغلوا فعلاً وظيفة الحجابة للأراتقة قبل توليهم ميافارقين ، وأنهم ولوا بعدئذ على هذه المدينة تقديراً لخدمتهم وهو المرجح . أو أن التقاليد الرسمية كانت تقتضي تسمية كل وال باسم الحاجب (فلان ...) .

ويذكر القلقشندي أن من ضمن مهام ولاة الأراتقة تلقي المكاتبات من الخارج ، حيث كانت توجه اليهم بعض المكاتبات من نواب المماليك في دمشق وحلب[٢] . ولا نعرف ، بعد ذلك ، شيئاً عن طبيعة المسؤوليات التي كلف ولاة الأراتقة القيام بها ، والجهاز الإقليمي الذي كان يعاونهم في شؤون الإدارة وصلاحية تعيين أعضائه ؟ . ولما كانت معظم المواقع (الولايات) الأرتقية ذات قلاع وحصون فالمرجح أن أهم أعمال أولئك الولاة كانت ، حسبما ذكر القلقشندي « حفظ تلك القلاع ، وعمارة ما دعت الحاجة الى عمارته منها ،

---

(١) المصدر السابق ، ورقة ١٣٧ آ – ١٣٨ آ . ونقل عنه ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٠٤ ب – ١٠٥ آ .

(٢) صبح الأعشى ط ٢ ، ٢٢٥/٨ – ٢٢٩ .

وأخذه بقلوب من فيها ، وجمعهم على الطاعة بالإحسان اليهم[1] ، وتحصينها بآلات الحصار وادخار آلات الحرب ومهماتها ، والاعتناء بغلق أبواب القلعة وفتحها وتفقد أحوالها في كل صباح ومساء ، وإقامة الحرس وإدامة العسس ، وتعرف أحوال المجاورين لها من الأعداء ، والمطالعة بكل ما يتجدد لديه من الأخبار[2] » . هذا بالاضافة الى مهمات الوالي المالية والعسكرية الأخرى ، كمساعدة الأمير الأرتقي في عملياته الحربية بشكل مباشر ، أي بامداده بالجند والميرة ، أو غير مباشر ، كأن يقوم بتوسيع منطقة ولايته ، والدفاع عنها ضد هجمات الأعداء . ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما قام به الحاجب يوسف والي ميافارقين عام (٥٣٥ هـ = ١١٤٠ م) ، عندما قام داود الأرتقي، أمير حصن كيفا ، بمهاجمة ميافارقين ، حيث أحسن الوالي « تدبير الناس وسياسة البلد[3] » واستطاع بمساعدة بعض المسؤولين ، إنقاذ المدينة من خطر محقق .

وهنالك موظف على درجة كبيرة من الأهمية وهو نائب السلطنة في ماردين ، وقد استحدث الأراتقة هذا المنصب في فترة متأخرة[4] ، ويظهر أنهم نقلوه عن المماليك في مصر والشام حيث كان نائب السلطنة هناك يتولى مهاماً خطيرة ، إذ كان يشترك مع السلطان في توزيع الإقطاعات ، وتعيين الموظفين ، ويعرض عليه كشفاً بأسماء الأشخاص الذين كان يحبذ ترشيحهم لهذه المناصب فيقرها السلطان ، ولا يرفض تعيين أحد المرشحين إلا في القليل

---

(١) انظر الفارقي ، تاريخ آمد (المخطوطة ١٣٨ آ – ب) . وابن شداد ، الأعلاق (المخطوطة ١٠٥ آ) .

(٢) صبح الأعشى ٩٢/١١ .

(٣) ابن شداد ، الأعلاق (المخطوطة ١٠٣ ب – ١٠٤ آ) .

(٤) ابن الفرات ، تاريخ ٤٥٣/٩ .

النادر[١] . وكان نائب السلطنة في ماردين يتلقى المكاتبات الرسمية من نواب المماليك في دمشق وحلب[٢] ، ومن الأبواب السلطانية في القاهرة[٣] . وقد حدد المسؤولين في دواوين المماليك صيغة الكتب التي كانت ترسل الى هؤلاء[٤] . ومن أعمال النائب كذلك توقيع المراسيم والمنشورات وتنفيذ القوانين[٥] . والركوب على رأس فرق الجيش في المواكب الرسمية[٦] ، كما أن ديوان الجيش يجتمع برئاسته[٧] ، ويكاتبه نواب المدن الأخرى بصدد الأمور المتعلقة بنياباتهم[٨] . وهكذا كان النائب هو المتصرف في كل أمر حيث يراجع في الجيش والمال والجند والبريد ، وكل ذي وظيفة لا يتصرف الا بأمره ... وهو الذي يرتب الوظائف[٩] . ويذكر (فان برشم) أن نائب السلطنة كان على رأس الموظفين لدى المماليك[١٠] ويظهر أن نائب السلطنة لدى الأراتقة ، كان يتمتع هو الآخر ، بصلاحيات واسعة فكان يمارس مهام الدفاع عن العاصمة وتحصينها ، وبلغ به الأمر أن نصّب أحد سلاطين ماردين[١١] . ويبدو أن

---

(١) المقريزى ، خطط ٢/٢١٥ ، العمري ، التعريف ص ٩٢ – ٩٣ ، السبكي ، معيد النعم ص ٣٤ .

(٢) القلقشندى ، صبح الأعشى ط ٢ ، ٨/٢٢٥ – ٢٢٩ .

(٣) المصدر السابق ٧/٢٦٩ .

(٤) انظر الفصل الرابع .

(٥) المقريزي، خطط ٢/٢١٤ ، العمري، التعريف ص ٦٥ – ٦٦ .

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى ٤/١٧ .

(٧) المصدر السابق ٤/١٦ ، المقريزي ، خطط ٢/٢١٤ .

(٨) المقريزي ، خطط ٢/٢١٥ .

(٩) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(١٠) علي إبراهيم حسن، المماليك البحرية ص ٢١٥ .

(١١) ابن الفرات. تاريخ ٩/٤٥٣ . وانظر بشأن المهام الاخرى لنائب السلطنة لدى المماليك: القلقشندي ، ط ٢ ، ١١/١٤٨ ، السبكي ، معيد النعم ص ١٩ .

عدداً من أهم صلاحيات الوزير الأرتقي صارت ضمن اختصاصات نائب السلطنة، الذي غدا المسؤول الأعلى في الإمارة بعد الحاكم الأرتقي، ومما يؤكد هذا تدهور منصب الوزارة في الفترات الأخيرة من حكم الأراتقة وهي نفس الفترات التي بدأ يتردد فيها اسم نائب السلطنة.

اعتمد الأراتقة في إدارتهم على موظف مركزي آخر يدعى والي القلعة[1]، والمرجح أن اختصاصاته كانت تشبه، الى حد كبير، اختصاصات نائب القلعة لدى المماليك، حيث كان هذا يقوم بالإشراف على فتح واغلاق باب القلعة المخصص لدخول الجند وخروجهم[2]، ويتفقد أسوار القلعة ومنافذها ويعمل على إصلاحها، ثم أصبح من اختصاصه الفصل فيما يقع بين العامة من الخصومات[3]، وهي أشبه بوظيفة الشرطة أو الانضباط العسكري في الوقت الحاضر، وكان يتمتع باستقلال كبير عن النائب[4].

اعتمد الجهاز الإداري للأراتقة على عدد آخر من الموظفين لا يقلون أهمية عمن سبق ذكرهم، إلا أن المصادر، بما تقدمه من إشارات مقتضبة عنهم، لا تساعد على إعطاء صورة واضحة المعالم عن طبيعة عملهم وأشهر هؤلاء ناظر الديوان، حيث يذكر الفارقي أنه تمت في عام (٥٢٧ هـ = ١١٣٢ م) تولية الناصح علي بن أحمد الآمدي على النظر في الديوان[5]، وكان قبيل ذلك يقوم

---

(١) اليونيني، ذيل مرآة الزمان ١ / ٤٥٧ — ٤٥٨، ابن شداد، الأعلاق (مخطوطة ١٣٨ آ – ب).

(٢) القلقشندي، صبح الاعشى ٤/٢٢ – ٢٣.

(٣) علي إبراهيم حسن، المماليك البحرية ص ٢٣١. عن الخالدي، المقصد ص ٧.

(٤) علي ابراهيم حسن، المصدر السابق ص ٢٣١. وانظر العمري، التعريف ص ٩٤ – ٩٦، ١٤٨ – ١٤٩،

(٥) ابن شداد، الأعلاق (مخطوطة ١٠٣ آ – ب).

بمهام هذه الوظيفة في آمد ، إلا أن أصحابها قبضوا عليــه وصادروه بثلاثين ألف دينار فاتجه الى ميافارقين وولي أولاً الإشراف على الوقف ومن ثم النظر بالديوان[1] وكان هذا الاسم يطلق ، لدى المماليك ، بصورة عامة على المسؤول الأعلى للديوان سواء كان ديوان إنشاء أو بريد أو نظر (أي مالية) .. وكان يساعده في تسيير شؤون ديوانه عدد من الموظفين كالوكيــل ومستوفي الدولة وعدد من صغـــار المستوفين[2] ، كما كان يطلق بشكل خاص على المسؤول عن القضايا المالية[3] ، « وهو مخاطب عن كل ما يتم في معاملته من خلل [4] » وقد كانت مسؤولية الناصح من الصف الأخير كما سيتضح من سياق الأحـــداث . وكان يساعد الناظر الأرتقي عدد من النظار على الجهات المحلية[5] .

وفي عام (٥٢٨ هـ = ١١٣٣) وصل الى ميافارقين المؤيـــد أبو الحسن بن محمد من جزيرة ابن عمر فرتب في الاستيفاء مع أخيه الناصح[6] ، وكان قد ولي الديوان والاستيفاء في ميافارقين عام (٥١٠ هـ = ١١١٦ م) قبيل استيـــلاء الأراتقة عليها[7] . ووظيفة الاستيفاء من الوظائف المهمـــة التي عرفت لدى الدولة السلجوقية . وكان المستوفي يلي الوزير في الأهمية ، وكان من واجبـــه الإشراف على حسابات الدولة وتدقيقها وضبط الأموال المتعلقة بالجيش وإدارة

---

(١) الفارقي ، تاريخ آمد (مخطوطة ١٠٩ آ).
(٢) علي ابراهيم حسن ، المماليك البحرية ص ٢١٣ .
(٣) انظر (الحياة الاقتصادية) فيما يلي من الفصل .
(٤) ابن مماتي ، قوانين الدواوين ص ٢٩٨ .
(٥) ابن حجر ، الدرر ٣/٢٦٤ - ٢٦٥ .
(٦) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٠٣ آ - ب) .
(٧) الفارقي ، تاريخ آمد ص ٢٨٣ ، ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٠١ آ ــ ب).

ديوان الاستيفاء[1] . هذا وقد اعتقل الناصح ، ناظر الديوان ، عام (٥٢٩ هـ = ١١٣٤ م) أي بعد تعيينه بمدة قصيرة على يد حبشي بن محمد وزير الأراتقة[2]، وولي مكانه أبو طاهر بن المحتسب الذي كان معتقلاً آنذاك[3] ، واضطر المؤيد ، أخو الناصح ، الى التخلي عن وظيفته هو الآخر والفـــرار الى جزيرة ابن عمر تخلصاً من بطش حبشي[4] . وهذا يشير الى السلطة الواسعـــة التي كان الوزير الأرتقي يمارسها تجاه كبار الموظفين . ويظهر أن العلاقات ساءت بين أبي طاهر وحبشي فقبض عليه هذا واعتقله عام (٥٣٤ هـ = ١١٣٩ م) ، فلمـــا ذهب حبشي الى الموصل عام (٥٣٦ هـ = ١١٤١ م) في مهمة رسمية ، قـــام حسام الدين تمرتاش بإطلاق سراحه وإعادته ثانية الى الاستيفـــاء « ورد اليه جميع الأمور »[5] ، وقد استمر هـــذا في منصبه الى ما بعد عـــام (٥٣٩ هـ = ١١٤٤ م)[6] . وفي عام (٥٤٥ هـ = ١١٥٠ م) قام حسام الدين بتعيين المؤيد والمهذب في الديوان « على حالهما »[7] ، ويظهر أنهما مارسا هذه الوظيفة قبل ذلك ، والراجح أن المؤيد المذكور هو الأجلّ أبو منصور الذي ورد ذكـــره لدى توليته الديوان مجدداً من قبل البي بن تمرتاش ، الذي أعقب أباه على حكم إمارة ماردين عام (٥٤٧ هـ = ١١٥٢ م) ، كما قـــام البي بتعيين المهـــذب في

---

(١) حسين أمين ، نظام الحكم في العصر السلجوقي (مجلة سومر ، مجلد ٢٠ سنة ١٩٦٤) .
(٢) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٠٣ آ – ب) .
(٣) الفارقي (مخطوطة ١١٠ آ) ، ابن شداد (مخطوطة ١٠٣ آ – ب) .
(٤) الفارقي (مخطوطة ١١٠ آ) .
(٥) المصدر السابق ١٢٢ ب – ١٢٢ آ .
(٦) المصدر السابق ١٢٤ ب .
(٧) المصدر السابق ١٣٤ ب .

الإشراف[1] ، والراجح أن الأراتقة نقلوا وظيفة الإشراف هذه عن السلاجقة حيث كانت تعد من الوظائف المهمة لديهم ولهـــا ديوان خاص يقوم المشرف بإدارته ، وهو يعنى بالإشراف على ضبـــط الحسابات والصادرات والواردات والموازنة بينهما ، وهو في الحقيقة مكمل لديوان الاستيفاء ومثل المشرف كمثل المستوفي يستطيع أن ينيب عنه في كل ولاية نائباً[2] ، وهكذا صرنا نجد لدى الأراتقة عدداً من المشرفين على الدواوين المحلية[3] ، ونظراً لمـــا بين المستوفي والمشرف من علاقة يكون المستوفي مراقباً لديوان الأشراف[4] . وهذا مـــا يفسر الرواية التي أوردها الفارقي حول قيام البي بتمبين موظف ثالث يدعى أبا الفتح محمد بن أحمد ليساعد المهذب والمؤيد في أعمال الديوان[5] .

وهنالك فضلاً عن الوظائف السالفة ، إشارات الى وظائف أخـــرى في جهاز الأراتقة الإداري كموقع السلطنة في ماردين[6] ، وكان يقوم بكتابـــة الأوامر[7] ، والحاجب[8] ، الذي كان يقوم بالأعمال المعهودة للحجـــاب[9] ، وكاتب الإنشاء[10]، أما الاستادارية والخدام فيظهر أنهم كانوا يعملون سوية مع

---

(١) الفارقي ، تاريخ آمد (مخطوطة ١٣٩ آ) .

(٢) حسين أمين ، نظام الحكم في العصر السلجوقي ، مجلة سومر ، مجلد ٢٠ سنة ١٩٦٤ .

(٣) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ٤١٣/١ .

(٤) حسين أمين ، المصدر السابق .

(٥) الفارقي (مخطوطة ١٣٩ آ) .

(٦) ابن حجر ، الدرر ٤٠٥/١ .

(٧) السبكي ، معيد النعم ص ٢٤ – ٢٥ .

(٨) الفارقي (مخطوطة ١٣٩ آ) .

(٩) انظر السبكي ، معيد النعم ص ٣٠ – ٣١ .

(١٠) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ٤١٢/١ – ٤١٣ ، الكتبي ، فوات الوفيات ١٩٣/٢.

الحجاب في قضايا التشريفات والوفود وتنظيم أمور القصر وتلقي المكاتبات أحياناً[1] .

ولعب المحتسب دوراً مهماً في حكومات الأراتقة ، وقد عين هؤلاء على كل بلد أحد المحتسبين[2] ، وكان المحتسب يقوم بدور هام في السيطرة على الأمن الداخلي « وتسكين الناس » في فترات الاضطراب ، أو عند وفاة الأمير ، فعندما توفي حسام الدين تمرتاش عام (٥٤٧ هـ = ١١٥٢ م) ، وانتشر الخبر لدى أهالي ميافارقين ، أسرع المحتسب بالركوب وتوجه اليهم وسكنهم بحيث « اطمأنوا وطابت نفوسهم »[3] . هذا فضلاً عن قيام المحتسب بالمهام المعتادة التي كان يضطلع بها المحتسبون في تلك الفترة ، في مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، كالنظر في الأمور المتعلقة بالنظام العام ، والجنايات التي تستدعي السرعة في الفصل ، والمحافظة على الآداب العامة ، ومراعاة تطبيق أحكام الشرع ، والإشراف على نظام الأسواق والمؤسسات التي تحتاج الى إعمار وإصلاح[4] ، وكان للمحتسب نواب يطوفون في الأسواق لتنفيذ تعليماته[5] .

وفي حلب اعتمد الأراتقة في إدارتهم على النظم المعمول بها سابقاً ، ولم يحاولوا أن يجروا عليها تغييراً أساسياً ، فالحاكم الأعلى هناك هو نائب الأمير

---

(١) انظر القلقشندي ، صبح الأعشى ط ٢ ، ٢٦٧/٧ - ٢٦٩ ، ٢٢٥/٨ ، ٢٢٩ .
(٢) ابن العماد ، شذرات الذهب ١٢٥/٥ .
(٣) الفارقي ، تاريخ آمد ، ورقة ١٣٨ آ - ١٣٨ ب .
(٤) المقريزي ، خطط ٤٦٤/١ ، مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .
(٥) علي ابراهيم حسن ، المماليك البحرية ص ٣٠٤ - ٣٠٥ . وانظر القلقشندي ، صبح الأعشى ط ٢ ، ٣٧/٤ ، ١٩٣ ، ٦٨/١١ - ٧١ ، ٩٦-٩٧ ، ٢٠٩ - ٢١٦ ، العمري ، التعريف ص ١٢٤ - ١٢٦ ، السبكي ، معيد النعم ص ٤٩ - ٥٠ .

الأرتقي الذي ينتمي الى العائلة الأرتقية[١] ، ويساعده في الإدارة مجموعة من الموظفين الذين عرفتهم حلب منذ فترة ليست بالقصيرة ، كرئيس الأحداث الذي كان يمارس سلطة فعلية ، ولذا كان معرضاً أكثر من غيره للعزل والتنكيل على أيدي الأراتقة[٢] . والأحداث هم جماعات مسلحة من سكان المدينة ، وقد ازداد شأنهم ، في بلاد الشام ، في مستهل القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ، وأصبحت لهم السيطرة على الحياة في دمشق وصار لهم رئيس اتخذ لقب رئيس الأحداث أو رئيس البلد ، ويقر والي المدينة اختياره ، وقد قلدت حلب أختها دمشق في ذلك ، وصارت رئاسة الأحداث فيها في عائلة بني (بديع) الذين قوي نفوذهم في حلب[٣] .

وهنالك والي القلعة[٤] ، الذي يقوم بالمهام التي سلف ذكرها لدى الكلام عن دور هذا الموظف في ديار بكر ، ووالي البلد[٥] ، الذي كان يرجح قيامه بنفس مهام الوالي المركزي لدى الأيوبيين والمماليك فيما بعد ، حيث كانت مهمته « الاستعلام عن مجددات ولايته من قتل أو حريق كبير أو نحو ذلك[٦] » وهو الذي ينفذ الأحكام ويقيم الحدود ويتعقب المفسدين ومثيري الفتن ومدمني

---

(١) انظر الفصل الاول .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢ / ١٨٦ - ١٨٧ ، ١٩٨ - ١٩٩ ، ٢٠٢ - ٢٠٣ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ - ٢٢١ ، ابن الفرات ، تاريخ (مخطوطة ٢/٨٣ ، ٨٥) .

(٣) C. Gahen, Mouvements Populaires, pp. 11—16.

ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٦٨ - ٦٩ ، العريني ، الحروب الصليبية ١/٢٤ - ٢٥ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٢٠ - ٢٢١ ، ٢٣٠ ، ابن الفرات ، تأريخ (مخطوطة ٢/٨٥) .

(٥) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٣٠ .

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى ٤/٦٠ .

الخمر . ومن اختصاصه أيضاً مراقبة أبواب المدينة ، والطواف بأحياء التجارة والمال »[١] أي أن مهمتــه أشبه بمهمة البلدية والشرطة في الوقت الحاضر . وبالرغم من ذلك فقد مارس كل من والي القلعة ووالي البلد الظلم والمصادرة ، وسلّطا الجند والأتراك على مصادرة الناس بحيث إنهم استصفوا أموال جماعـة من الأكابر والصدور مستغلين في ذلك الاضطرابات والقلق الذي ساد حلب خلال الحصار الصليبي لها[٢] . وكان يطلق على والي البلد ، أحيانـاً ، اسم الشحنة[٣] ، أي حاكم البلد أو صاحب الشرطة أو الأمير المشرف على حراسة المدينة[٤] . لما بين الوظيفتين من تشابه واضح في الاختصاصات ، ومع ذلك فقد عين على حلب – أحياناً – شحنة خاصاً لها[٥] دون أن يكون واليـاً للمدينة في نفس الوقت . وقد استغل هو الآخــر منصبه لا لينشر الأمن بل ليؤذي الناس ويكسب على حسابهم[٦] .

ولم يسكت الأراتقة على ما كان يقوم به كبار موظفيهم في حلب من ظلم وإساءة ، لذا كانوا ينكلون بهم ويعزلونهم عن مناصبهم[٧] . كما اتخـــذ نواب

---

(١) علي إبراهيم حسن ، المماليك البحرية ص ٢٣٠ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٣٠ ، بغية الطلب ٤/٢٧٧ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٢٠ – ٢٢١ .

(٤) معجم دوزي (Dozy, sup.) ١/٧١٣ ، حاشية السلوك ، للمقريزي (٣) ، ٣/١/٩٧٩. وحاشية النجوم الزاهرة ، لابن تغري بردي (٢) ٥/٢٠١ . عن القاموس الفارسي . وانظر الفصل الاول .

(٥) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٠٠ – ٢١٠ .

(٦) المصدر السابق ٢/٢٠٢ .

(٧) المصدر السابق ٢/٢٠٠ – ٢٠١ ، ٢٠٢ – ٢٠٣ ، ابن الفرات ، تاريخ (مخطوطة ٢/٨٣ ، ٨٥) .

الأراتقة في حلب الوزراء ليساعدوهم في الحكم ، وكان مصير هؤلاء - كرفاقهم في ديار بكر - هو العزل والتنكيل والمصادرة[1] .

وقد حظي القضاء ، وبعض المناصب المرتبطة به كالخطابة والإفتاء ، لدى الأراتقة باهتمام كبير ، وأوردت المصادر عنه عدداً لا بأس به من الروايات ، حيث برزت أسماء عدد كبير من القضاة الذين انتمى بعضهم الى عائلة بني نباتة الشهيرة التي لعبت دوراً هاماً في مجـــال القضاء . وكان أول من تولى منصب القضاء من أفراد هذه العائلة هو أبو القاسم يحيى بن طاهر بن نباتـــة الملقب بفخر القضاة ، وكان يعمل في الخطابة هو وآباؤه منذ فترة طويلة قبل قيـــام الإمارات الأرتقية ، واختير عام (٤٩٠ هـ = ١٠٩٦ م) للقضاء في ميافارقين، وولي ولده القاضي علم الدين أبو الحسن على الخطابة في نفس العام[2] . ومن ثم اعتمد الأراتقة عليهم فيما بعد كما سنرى .

وأول من ولي القضاء ، عند بدء حياة الأراتقة السياسية في القدس ، هو محمد بن موسى التركي البلاساغوني الحنفي ، وكان مطلعاً على علوم شتى ، ولكنه كان متعصباً للحنفية ، ويقـال إن سيرته في القضاء كانت غير محمودة ، ممـا دفع أهـــالي القدس الى أن يشكوه الى سقمان بن أرتق ، فعزله ، ومن ثم اتجـــه البلاساغوني الى دمشق حيث تولى القضـــاء هناك وتوفي عـــام (٥٠٦ هـ = ١١١٢ م)[3] .

وفي ديار بكر تألق اسم عائلة بني نباتة . ففي عام (٥١٤ هـ = ١١٢٠ م)

---

(١) المصدر السابق ٢ / ٢٠٩ - ٢١٠ ، ٢٢٠ - ٢٢١ ، العظيمي ، تاريخ ، ورقـــة ٢٠٠ ظ ، ابن الفرات ، تاريخ (مخطوطة ٢/٨٥) .
(٢) الفارقي ، تاريخ آمد ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .
(٣) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨/٤٤ .

استولى إيلغازي على نصيبين فسار اليه القاضي علم الدين أبو الحسن بن نباتة ، الذي كان إيلغازي قد أقره على قضاء ميافارقين لدى استيلائه عليها عام (٥١٢ هـ = ١١١٨ م) ، وجماعة من رجالات ميافارقين وهنؤوه بفتحهـا ، فخلع عليهم إيلغازي وأحسن اليهم وأعادهم[١] . وعندما توجه لقتال الكرج في العام التالي (٥١٤ هـ = ١١٢٠ م) ، استصحب معه القاضي علم الدين وولده القاضي أبو الفتح الذي ولي قضاء ماردين الى مـــا بعد منتصف القرن السادس[٢] . وتشير حادثة استصحـــاب إيلغازي لأحد قضاته في تلك الغزوة ، الى احتمال اتخاذ الأراتقة (لقضاة العسكر) الذين عرفوا لدى المماليك ، وكانوا يصحبون السلطان في أسفاره[٣] ويقضون في العسكر ومن يتصل به من الصناع والعمال وغيرهم[٤] . وفي عـــام (٥٣٩ هـ = ١١٤٤ م) استدعي القاضي علم الدين بن نباتة من ميافارقين الى ماردين ليتولى قضاءها بعد عزل قاضيها مجد الدين داود بن السديد . وفي نفس العام ولي بهاء الدين أبو طاهر خطابة ميافارقين نيابـــة عن عمه علم الدين ، وبعد يومين من ذلك ولي خطابة ماردين أيضاً[٥] وفي عـــام

---

(١) الفارقي ، تاريخ آمد ، ورقة ١٠٢ آ – ب ، ونقل عنـه ابن شداد ، الأعلاق ، ورقـة ١٠٢ آ .

(٢) الفارقي ، ورقة ١٠٣ ب – ١٠٤ آ .

(٣) القلقشندي، صبح الاعشى ٣٦/٤ .

(٤) علي ابراهيم حسن ، المماليك البحرية ص ٢٩٢ . انظر القلقشندي ، صبح الاعشى ط ٢ ، ٣٤/٤ – ٣٦ ، ١٩٢ ، ٩٦/١١ ، ٢٠٤ – ٢٠٧ ، والعمري ، التعريف ص ١٢٣ – ١٢٤ .

(٥) الفارقي ، تاريخ آمد ، ورقة ١٢٤ آ – ١٢٥ آ . وانظر بشأن الخطابة : القلقشندي ، صبح الاعشى ط ٢ ، ٢٢٢/١١ – ٢٢٥ ، العمري ، التعريف ص ١٢٦ – ١٢٧ . وكان الموظف الذي يتولى الخطابة لدى الأراتقة يقوم – أحياناً – بوظيفة الافتاء كذلك ، فضلاً عـن القضاء ، لما بين هذه الوظائف من تشابه واستلزامها جميعاً ثقافة فقهية ولغوية . لذا كان الأراتقة يولونها أولئك الذين تمرسوا في هذه الثقافة (انظر ياقوت ، معجم الادباء ١٨/٢٠ – ١٩) .

(٥٤٤ هـ = ١١٤٩ م) حدثت بعض الخلافات بين أفراد عائلة بني نباتة تمكن على إثرها أبو الفتح ضياء الدين بن نباتة أن يحصل على قضاء ماردين[١] . وبعد منتصف القرن السادس الهجري تضاءل دور بني نباتة في القضاء ولم تعد المصادر تشير اليهم إلا نادراً ، وبرز في محلهم عدد من القضاة ينتمون الى عوائل شتى ومن أشهرهم عبد السلام المقدسي المارديني الذي ولي قضاء ماردين في أواخر القرن السادس الهجري[٢] . والحكيم شمعون الخرتبرتي قاضي خرتبرت الذي بلغ الغاية في الخط العربي[٣] . وعلي بن محمد بن النجار اليغنوي الفقيه الحنبلي الأديب الشاعر ، الذي سافر من بغداد الى ديار بكر وولي قضاء آمد حتى وفاته عام (٦٠٩ هـ = ١٢١٢ م) [٤] . ويحيى بن سعيد بن محمد الربعي الفقيه الشافعي ، وهو من أهل تكريت ، درس في بغداد والموصل وولي قضاء ماردين[٥] .

وعندما استولى التتر على الجزيرة والشام غدا قضاة الأراتقة في ديار بكر تابعين لقاضي القضاة الذي عينه التتر على كل مناطق الشام والجزيرة والموصل والذي كان مركزه في دمشق ، حيث أصدر هولاكو في عام (٦٥٨ هـ = ١٢٥٩ م) منشوراً يقضي بتعيين القاضي كمال الدين عمر بندار التفليسي الشافعي قاضياً لقضاة « الشام والموصل وماردين وميافارقين والأكراد ...

---

(١) الفارقي ، تاريخ آمد ، ورقة ١٣٢ آ — ب .

(٢) ابن العبري ، مختصر ص ٤١٧ ، القفطي ، الحكماء ص ١٨٩ — ١٩٠ . ويشير الى أن والد عبد السلام وهو عبد الرحمن المقدسي كان قاضياً على دنيسر .

(٣) ابن العبري ، مختصر ٤٤٤ .

(٤) ابن العماد ، شذرات الذهب ٣٧/٥ — ٣٨ .

(٥) انسان العيون ، مجهول ص ١٦٩ .

الخ »[١] . ولكن هذا النظام لم يستمر طويلاً إذ انتهى بمجرد زوال سيطرة التتر عن الشام، فاستقل القضاء الأرتقي من جديد وأصبح المسؤول الأعلى عنه قاضي قضاة يعينه الأراتقة أنفسهم .

ومن قضاة الأراتقة المشهورين ، خلال الفترة التي أعقبت السيطرة التترية ، مهذب الدين محمد بن علي الدنيسري ، قاضي قضاة ماردين منذ عام (٦٦٦ ﻫ = ١٢٦٧) وحتى عام (٧٢٠ﻫ=١٣٢٠م)[٢]، وأبوه محمد بن سليمان بن علي الدنيسري الذي ولي قضاء ماردين طيلة خمس وثلاثين سنة وتوفي سنة (٦٦٦ ﻫ=١٢٦٧م)، فعين ولده في منصبه[٣] . وسليمان بن داود بن عبد الحق الحنفي الذي اشتغل بالحديث والفقه وسافر الى أماكن عديدة وولي القضاء ببغداد وماردين ، وتسنم مناصب إدارية في دمشق ومصر وتوفي عام (٧٦١ ﻫ = ١٣٥٩ م)[٤] . وبرهان الدين الموصلي قاضي قضاة ماردين في عهد الملك الصالح (٧٦٩ ﻫ = ١٣٦٧ م) وهو ينتسب الى الشيخ الولي فتح الموصلي ، ويتصف بالدين والورع والفضل ، ويذكر ابن بطوطة أنه كان يجلس للأحكام بصحن مسجد خارج المدرسة ، كان يتعبد فيه ، فإذا رآه بعض من لا يعرفه ، ظنه بعض خدام القاضي وأعوانه[٥] . والصدر أبو طاهر السمرقندي الذي تولى قضاء ماردين قبيل سقوطها[٦] وهو آخر من وصلتنا أسماؤهم من قضاة الأراتقة .

---

(١) أبو شامة ، ذيل الروضتين ص ٢٠٤ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ٦٤/٣ – ٦٥ ، المقريزي ، السلوك ٤٢٤/١/٢ ، ابن العماد ، شذرات ٣٣٧/٥ – ٣٣٨ .

(٢) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٣٥ آ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ٣٤٢/١ .

(٣) ابن شداد ، الأعلاق ورقة ١٣٥ آ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ٣٤٢/١ .

(٤) ابن حجر ، الدرر الكامنة ١٤٩/٢ – ١٥١ .

(٥) رحلة ابن بطوطة ١٨٣/١ .

(٦) الطباخ ، تاريخ حلب ١٩٦/٥ – ١٩٩ .

كان القضاء لدى الأراتقة منظماً تنظيماً دقيقاً ، وبخاصة في إمارة ماردين، فهنالك قاضي القضاة وهو المسؤول الأعلى عن السلطة القضائيـــة ومقره في العاصمة ماردين[١] ويعين من قبل الأمير الأرتقي مباشرة ، ويقوم هو بتعيين نوابه في البلاد التابعة للإمارة[٢] . وكان قاضي القضاة يتقاضى مرتباً كبيراً ، أو يقطع إقطاعاً يتناسب ومنصبه[٣] . ولا ريب أن عمل قاضي القضاة لم يكن يقتصر على النظر في قضايا الأحوال الشخصية ، بل كان يمارس أسوة برفيقـــه في حكومـــات مصر والشام ، النظر في جميع القضايا المتعلقة بمهمته ، وإمامة المسلمين في الصلاة ، والإشراف على دار الضرب[٤] ، والنظر في الأوقـــاف والعمل على تنمية مواردها وصرفها في وجوهها واستلام أموال المواريث[٥] . أما جلسات المحاكم فتنعقد في المساجد أو في دور القضاة[٦] .

وقد لعب القضاة لدى الأراتقة دوراً هامــاً في السفارات السياسية فكانوا يشتركون أحياناً في الوفود الموجهة الى إحدى الجهات للمفاوضة[٧] . كما كانوا

---

(١) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٣٥ آ ، إنسان العيون ، مجهول ص ٢٧٧ – ٢٨٨ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ١/٣٤٢ . ابن بطوطة ، رحلة ١/١٨٣ .

(٢) ابن حجر ، الدرر الكامنة ٢/٢٩٠ .

(٣) انسان العيون ، مجهول ص ٢٧٧ – ٢٨٨ .

(٤) القلقشندي ، صبح الاعشى ٩/٣٤ – ٣٥ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ١/١٠١ .

(٥) المقريزى ، خطط ٢/٩٢ ،

(٦) انظر : علي إبراهيم حسن ، المماليك البحرية ص ٢٨٨ – ٢٩٠ ، النويري ، نهـــاية الإرب (القسم المخطوط) ٢٩/٢٩٩ آ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ٢ / ١٠١ ، ابن حجر ، رفع الاصر ص ١٤٩ آ .

(٧) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٣٥ آ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ١/٣٤٢–٣٤٤. وانظر ابن حجر ، الدرر الكامنة ٢/٢٩٠ .

يسهمون في تقرير الصفة الشرعية لأمراء الأراتقة - أحياناً - لدى تولي أحدهم الحكم بعد موت سلفه[1] . وفي حلب لعب قاضي الأراتقة أبو الحسن محمد بن يحيى بن الخشاب دوراً هاماً في الصراع الذي نشب طيلة العقد الثاني من القرن السادس الهجري ، بين الصليبيين وأهالي حلب . وقد استطاع ، بما عرف عنه من مهارة سياسية وشجاعة نادرة ونشاط لا يفتر ، وما كان يتمتع به من حب شديد من قبل أهالي حلب ، أن يصمد بها أمام هجمات الصليبيين المركزة . وكان يتمتع بصلاحيات القائد الأعلى للحرب والإدارة ، كما كان يقوم بالإشراف على الأمور العمرانية[2] .



وهكذا نجد أن الإدارة الأرتقية اعتمدت الى حد كبير على النظم المعاصرة المعمول بها لدى السلاجقه والأيوبيين والمماليك ، فضلاً عن ارتكازها على الأسس الإدارية السائدة في المنطقة (ديار بكر وشمالي الشام) ، في العقود التي سبقت قيام الإمارات الأرتقية. ولئن حدثت تغييرات بسيطة في تسمية بعض موظفي الأراتقة ، إلا أن وظائفهم بقيت ، في مهماتها الرئيسية ، تعمل وفق نفس النظم التي كانت تعمل بها الدول السالفة التي تأثر الأراتقة بها في مؤسساتهم الإدارية . وهكذا فإن قيام الإمارات الأرتقية في ديار بكر لا يشكل طفرة في نظمها الإدارية بقدر ما يشير الى رغبة الأراتقة في توسيع الجهاز الإداري ،

(١) الفارقي ، تاريخ آمد ، ورقة ١٣٨ آ - ١٣٨ ب ، ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٠٥ آ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٨٥ - ١٨٦ ، ٢١٤ - ٢١٦ ، العظيمي ، تأريخ ، ورقة ١٩٧ ظ ، ابن الشحنة ، المنتخب ص ٨٢ - ٨٣ ، وانظر الفصل الثالث .

والاعتماد على مزيد من العناصر الكفؤة ، والاستفادة من كافة النظم السابقة والمعاصرة التي شهدها الأراتقة والتي أخذت تتبلور وتتخذ شكلهـا النهائي في عهد المماليك .

الحياة الاقتصادية :

كانت الزراعة تشكل العمود الفقري لاقتصاديات ديار بكر ، بحيث غدت التجارة والصناعة ، على أهميتها ، أمراً ثانوياً بالنسبة للمنطقة . وقد اتضح ذلك خلال الفترة التي سبقت قيام الإمارات الأرتقية حيث انتعشت الزراعـــة في المنطقة وبلغت درجة كبيرة من الازدهار . ولقد كانت الجزيرة مصدراً لميرة أكثر أهل العراق[١] ، وكان خراج بعض بلدان ديار بكر في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري قد بلغ مئات الألوف من الدراهم ، فكان خراج إرزن (١٫٠٥٦٫٠٠٠) درهم وآمد (١٫١٥٠٫٠٠٠) درهم وميافارقين (٨٥٦٫٠٠٠) درهم وحصن كيفا (٣٥٠٫٠٠٠) درهم ، وبلغ خراج المنطقة بصورة عامـــة (٧٫٧٠٠٫٠٠٠) درهم[٢] ويشير ابن حوقل (ت ٣٦٧ هـ) الى كثرة خصب الجزيرة وسعة جباياتها ، وأن نصيبين وحدها كانت تتضمن ، في أول الإسلام بمائة ألف دينار[٣] . ويذكر الفارقي بأن ميافارقين – إحـــدى عواصم ديار بكر – بلغت في العقد الثامن من القرن الخامس الهجري ، حـــداً كبيراً من

---

(١) البشاري (ت ٣٧٥) أحسن التقاسيم ص ١٣٦ . وانظر نفس المصـــدر ، الصفحات ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٥ – ١٤٦ . عن الحيوية الزراعية للمنطقة .

(٢) ابن الفقيه (ت ٣٦٥) ، البلدان ١٣٣ ، ١٣٥ – ١٣٦ ، ابن خرداذبة (ت ٣٠٠)، المسالك ص ٩٥ .

(٣) صورة الأرض ص ١٩٠ ، ١٩١ – ١٩٢ .

العمران الزراعي بحيث أنها لم تشاهد « أعمر مما كانت في تلك الفترة ولا أغنى من أهلها »[1] ، وأنه اتفق في ذلك العهد (بحدود عام ٤٧٣ هـ = ١٠٨٠ م) أن أحد المنجمين كان ينظر الى الربض وعمارة المدينة وحسن البساتين المحيطة بها ، فقال للأمير (نظام الدين حاكم الإمارة المروانية الكردية في ديار بكر) : « ما أحسن هذا البلد واكثر العمارة فيه ، ولكن يقتضي طالعه أنه بعدك وبعد بيتك يستولي عليه الخراب والجور والظلم مدة نيف وثمانين سنة » . ويعلق الفارقي على الحادثة قائلاً : « وكان ما قاله – أي المنجم – صحيحاً ، لأنه بعد موت نظام الدين وخروج البلاد عن يد ناصر الدين (آخر أمراء الدولة المروانية) وصلت البلاد الى الترك ، وتغير الولاة ، واستولى عليها الظلم والجور والخراب وافتقر أهلها ، وأنه الى الآن (في حدود منتصف القرن السادس الهجري) لم ترجع البلاد الى عشر عشر ما كانت عليه في أيام نظام الدين[2] » . وعلى الرغم مما في هذه الرواية من المبالغة إلا أنها تشير الى الإمكانيات الزراعية الواسعة لديار بكر وتقدم شهادة لأحد معاصري الأراتقة عن التدهور الاقتصادي الذي أصاب المنطقة إثر استيلاء الترك والسلاجقة عليها ، وأنه على الرغم من الجهود التي بذلها الأراتقة ، الذين أعقبوهم في حكم المنطقة في هذا المجال ، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يبلغوا بالبلاد – حتى منتصف القرن السادس الهجري – عشر عشر ما كانت عليه في أيام المروانيين . ويؤكد ابن منقذ ما ذهب اليه الفارقي ، فيذكر أن السلطان السلجوقي ملكشاه (٤٦٥ – ٤٨٥ هـ = ١٠٧٢ – ١٠٩٢ م) ، أرسل لدى دخوله الشام الى ابن مروان ، أمير ديار

---

(١) تاريخ آمد ص ١٩٩ .

(٢) الفارقي ، تاريخ آمد ص ٢٠٣ – ٢٠٤ ، ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ٩٣ آ – ب (عن الفارقي) .

بكر يطلب ثلاثين ألف دينار ، فلما قدم الرسول الى الأمير المذكور قال له : « يا ولدي ، أما رأيت عمارة بلادي وكثرة خيرها وبساتينها وكثرة فلاحيها وعمارة ضياعها ؟ أتراني كنت أتلف هذا كله من أجل ثلاثين ألف دينار؟ والله إن الذهب قد كيّسته من يوم وصولك ، إنما انتظرت أن يتجاوز السلطان بلادي وتلحقه بالمال خوفاً من أن أستقبله بالذي طلب فيطلب مني إذا دنا من بلادي أضعافه[1] » ، فابن منقذ يشير هنا الى ازدهار العمران الزراعي في ديار بكر وكثرة بساتينها وضياعها وفلاحيها ، ولا بد أن شيئاً من هذا قد استمر في عهد بني أرتق رغم الاضطرابات والفتن التي تعرضت لها المنطقة إثر سقوط الإمارة المروانية .

كان لميافارقين وحدها في مطلع القرن السادس الهجري مائتـــان وخمسة وستون قرية وضيعة زراعية[2] . ووصف ابن جبير منطقـــة ديار بكر لدى رحلته اليها عام (٥٨٠ هـ = ١١٨٤ م) فأعطى صورة واضحة عن تقدمهـــا الزراعي وكثرة بساتينها وخضرها وأشجارها المنوعة وكرومها ومروجها الخضر وأنها كانت تسقى سيحاً من مياه الأنهار المجاورة وذلك برفعها بواسطة دواليب وأرحاء وتوزيعها على البساتين . وكان لهذه الأرحاء بيوت خاصة عند مساقط المياه لاستغلال الطاقة المائية في تحريك العجلات الخشبية[3] . وكانت ميـــاه العيون والجداول ، في بعض المناطق ، على درجة من الوفرة بحيث تنساح -

---

(١) الاعتبار ص ٨٧ - ٨٨ .

(٢) الفارقي ، تاريخ آمد ص ٢٨٣ - ٢٨٤ ، نقـــل عنه ابن شداد ، الاعلاق ، ورقة ١٠١ آ - ب .

(٣) رحلة ابن جبير ص ٢١٩ - ٢٢٣ ، ياقوت ، معجم البلدان ٧٣١/٢ - ٧٣٣ ، العمري ، مسالك الابصار ٣١٠/١ ، لسترنج ، بلدان الخلافة ص ١٤١ .

دونما واسطة – الى البساتين المجاورة لتسقيها[1] كما كان زراع المنطقة يعتمدون على مياه الأمطار، ليس فقط في إنتاج الغلال، بل الفواكه والكروم أيضاً[2]. وفي ماردين حفرت القنوات واستحدثت الصهاريج والبرك لتجميع ماء المطر « حيث كثر الخلق وازدادت العمارة »[3].

واشار ابن جبير الى أن القرى – وهي المراكز الزراعيـــة – قد ملأت الطرق في ديار بكر يميناً وشمالاً[4]، وكان لحصن كيفا مزارع يزرع بهـــا من القمح والشعير والحبوب ما يمير أهلها من السنة الى السنة، كما كانت تنتشر فيها الكروم وعـــدد كبير من البساتين[5]، واشتهرت إرزن بكثرة كرومهـــا وفواكهها[6]، وكانت بعض مناطق ديار بكر مغطاة بأشجار البندق والفستق واللوز والزيتون والبطم[7] كما كان يكثر في المنطقة نبات الزعفران ذو الشعر الفائق[8]، وأشار القلقشندي الى كثرة الأشجار والفواكه والبساتين المنتشرة في أنحاء كثيرة من ديار بكر كالرها[9]، وحيزان التي يكثر فيها شجر البندق،

---

(١) لسترنج بلدان ص ١٢٥ .

(٢) أبو الفدا، تقويم البلدان ص ٢٨٩ .

(٣) ناسخ كتاب صورة الأرض لابن حوقل ص ٢٠٢، وقد قام هذا الناسخ بزيارة منطقة ديار بكر في منتصف القرن السادس الهجري وكتب تعليقات قيمة في هذا المجال وسأطلق عليه فيما يلي اسم : ناسخ ابن حوقل .

(٤) رحلة ص ٢١٩ – ٢٢٣ .

(٥) ابن شداد، الأعلاق، ورقة ١٢٧ آ – ب .

(٦) المصدر السابـــق ١٢٧ ب . وانظر الأصفهاني، الخريدة (قسم الشام)، ٥٤٨/٢، العمري، مسالك الأبصار ٣١٠/١ .

(٧) العمري، مسالك ٣٠٥/١ .

(٨) المصدر السابق، نفس الصفحة .

(٩) صبح الأعشى ط ٢، ١٣٩/٤ .

وميافارقين ، وآمد التي وصفها بأنها كثيرة الخصب ، ورأس عين التي يخرج منها ما يزيد على الثلاثمائة عين كلها صافية[١] . وكان يقع شمالي ماردين وادي يدعى وادي المرجلة معمور بالبساتين والجنات ملتفة الأشجار ، وكان في شرقي البلد ساحة حوّلها أحد أمراء ماردين الى جواسق وبساتين مستغـلاً إحدى العيون هنالك وسمى ذلك الموضع (الفردوس)[٢] ، وكانت ماردين تنتـج وحدها سبعين نوعاً من العنب[٣] ، فضلاً عن وفرة إنتاجهـا للغلال والقطن والفواكه[٤] . وكان في نصيبين وحدها ما يزيد على الأربعين ألف بستان[٥] ، وقد أطرى المستوفي كرومها الفاخرة وفواكههـا الحسنة[٦] ويشير ابن حوقل لدى استعراضه لمنتجات نصيبين أنها كانت مشتهرة بكثافة أشجارها وكثرة فواكهها ، ثم حدثت في أيام بني حمدان فتن قطعت بسببها الأشجـار ودمرت الزروع . ثم جاء من جعل مكان الفواكـه الغلات كالحبوب والسمسم والقطن والأرز ، وإن ذلك أدى الى ازدياد ارتفاعها أضعافاً مضاعفة[٧] ، ورغم ذلك فقد استعادت المنطقة أهميتها في إنتاج الفواكه فيما بعد ، فضلاً عن أن إدخال المنتجات السالفـة وبخاصة الحبوب والقطن والبقول[٨] ، استمر في تحسن في

---

(١) صبح الاعشى ط ٢ ، ٣١٩/٤ – ٣٢٠ ، ٣٢٤ .

(٢) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٣٠ آ – ب .

(٣) القرماني ، تاريخ ص ٤٨٨ . وانظر ناسخ ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٢٠٢ .

(٤) لسترنج ، بلدان ص ١٢٥ – ١٢٦ ، ناسخ ابن حوقل ص ٢٠٢ ،

(٥) ياقوت ، معجم البلدان ٧٨٧/٤ – ٧٨٩ ، القزويني ، آثار ص ٤٦٧ ، القرماني ، تاريخ ص ٤٩٠ .

(٦) لسترنج ، بلدان ص ١٢٥ .

(٧) صورة الأرض ص ١٩١ – ١٩٣ .

(٨) المصدر السابق ص ١٩٥ .

الفترات اللاحقة وغدا يشكل أحد المنتجات الزراعية الرئيسية في المنطقة .

ويذكر ياقوت أن حيزان كان يكثر فيها البندق والشاه بلوط الذي تنفرد به دون غيرها من الأقاليم[1] ، وكانت سروج هي الأخرى مركزاً لزراعة الأعناب[2] ، فضلاً عن الرمان المفضل والكمثرى والخوخ والسفرجل[3] ، وكانت مزارع القطن تغطي مساحات واسعة من الأراضي المحيطة برأس عين[4] ، وكانت بساتين رأس عين تسقى بثلاثمائة وستين عيناً فتجعلها كأنها بستان واحد ، وقال المستوفي إنها كثيرة القطن والقمح والكروم[5] كما أطرى وفرة فاكهة ميافارقين[6] وفي اسعرت انتشرت بساتين التين والرمان والكروم اعتماداً على الأمطار[7] .

وبالإجمال ، أجمعت المصادر المختلفة ، والرحالة الذين زاروا المنطقة على كثرة بساتينها وضياعها وقراها ورساتيقها الزراعية وتنوع إنتاجها الزراعي ولا سيما الفواكه والكروم وتليها في الأهمية الغلال ثم القطن فالبقول والخضرات[8] .

---

(١) معجم البلدان ٢/٣٨٠. وانظر أبو الفدا ، تقويم ص ٢٨٣ .

(٢) الاصطخري ، مسالك ص ٧٨ .

(٣) أبو الفدا ، تقويم ص ٢٧٧ .

(٤) الاصطخري ، المسالك ص ٧٤ .

(٥) لسترنج ، بلدان ص ١٢٥ .

(٦) المصدر السابق ص ١٤٤ .

(٧) أبو الفدا ، تقويم ص ٢٨٩ .

(٨) وانظر لسترنج ، بلدان ص ١٤٣ – ١٤٤ (عن ناصر خسرو ت ٤٣٨ هـ) . وعن المستوفي ص ١٢٥–١٢٦ ، ١٤٤ ، وانظر نفس المصدر ص ١٢٤ ، ١٤١ ، ١٤٦ ، أبو=

وقد ساعد على ازدهار المنطقة زراعياً ما كان فيها من ثروة مائية واسعة تتمثل في شبكة من الأنهار والجداول والعيون ، فضلاً عن كثرة الأمطار ووجود سهول واسعة تصلح لزراعة الحبوب[1] .

استغل أهالي ديار بكر هذه الميزات فمارسوا فعاليات زراعية أخرى كرعي وتربية الحيوانات[2] وصيد الأسماك التي تميزت بجودة أنواعها[3] ، والاهتمام - كذلك - بتربية النحل للاستفادة من عسله كمورد نقدي مهم[4] .

استمرت منطقة ديار بكر على ازدهارها الزراعي حتى الغزو التتري والفترة التي أعقبته ، بحيث أن نصيبين وحدها كان يحيطها في منتصف القرن

=الفدا، تقويم ص ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٣ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ناسخ ابن حوقل، صورة الأرض ص ٢٠٢ ، الاصطخري، المسالك ص ٧٢ - ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٨ ، القزويني ، آثار ص ٤٦٧ ، ٤٩١ ، ياقوت ، معجم البلدان ، ٢ / ٢٣٩، ٣٨٠ ، ٥١٦ ، ٧٣١ ، ٧٣٣ ، ٧٨٧/٤ - ٧٨٩ ، القرماني ، تاريخ ص ٤٢٢ ، ٤٩٠ .

(١) ابن جبير ، رحلة ص ٢١٩ - ٢٢٣ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ط ٢ ، ٤ / ٣١٩ - ٣٢٠ ، شيخ الربوة ، نخبة الدهر ص ١٩١ ، أبو الفدا ، تقويم ص ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٣، ٢٨٩ ، ياقوت ، معجم البلدان ٢ / ٢٣٩ ، ٣٨٠ ، ٥١٦ ، ٧٣١ - ٧٣٣ ، ٧٨٧/٤ - ٧٨٩ ، ناسخ ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٢٠٢ ، القزويني ، آثار ص ٤٦٧ ، الاصطخري، مسالك ص ٧٣ ، ٧٤ ، لسترنج ص ١٢٥ ، ١٤١ ، القرماني ص ١٢٢ ، ٤٩٠ .

(٢) Enc. Isl. art Artukids, New ed.

وانظر عبد الظاهر ، تشريف الأيام ص ١١١ - ١١٢ حيث يشير الى ان جماعة من المغيرين من حلب تمكنوا عام ٦٨٥ من نهب ما يزيد عل ثلاثين ألف رأس من الأغنام وجملة من الابقار من منطقة آمد ونصيبين .

(٣) ابن جبير ، رحلة ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٤) العمري ، مسالك ٣٠٥/١ .

السابع الهجري ما يربو على السمين قرية(١)، وكانت ميافارقين وبعض المواقع الاخرى من ديار بكر تدر على التتر مائة ألف دينار سنوياً(٢)، بالرغم من تعرض النشاط الزراعي في ديار بكر للتخريب، بسبب ما كان يحدث في المنطقة - طيلة الحكم الأرتقي - من فتن وحروب واضطرابات كانت تلحق أضراراً جسيمة بالإنتاج الزراعي .

وقد بدأت المنطقة تتعرض لهذه الفتن منذ مطلع القرن السادس الهجري حتى سقوط آخر إمارة أرتقية في ماردين عام (٨١٢ هـ = ١٤٠٩ م) . وكان هذا التخريب يحدث إما نتيجة « لاختلاف الولاة وتغير الدول وضعف (بعض مناطق ديار بكر) وعجز من يليها وقلة حماتها (بحيث إنه) كان يليها في كل قليل واحد وينهب ويصادر ويأخذ لأنه يتيقن أنه ليس بمقيم »(٣)، وإما بسبب الفتن والغارات التي كان يقوم بها أهالي المنطقة من الرعاة والجماعات غير المستقرة، كالمذبحة التي حدثت عام (٥٧٦ هـ = ١١٨٠ م) بين الأكراد والتركمان شمالي ديار بكر(٤). ويذكر ابن جبير أنه لدى دخوله ديار بكر، في حدود عام (٥٨٠ هـ = ١١٨٤ م) ظل هو وأصحابه « على أهبة وحذر من إغارة الأكراد الذين كانوا يقطعون السبيل ويسعون فساداً في الأرض، وسكناهم في جبال منيعة، ولم يعن الله سلاطينها على قمعهم وكف عاديتهم، فهم ربما

---

(١) ابن شداد، الأعلاق، ورقة ٤١ ب .

(٢) رشيد الدين، جامع التواريخ ١٧/٢ . وانظر - الصفحات السابقة - للاطلاع على ما أورده الجغرافيون المتأخرون عن الازدهار الزراعي لديار بكر في الفترات التي أعقبت الغزو التتري .

(٣) الفارقي، تاريخ آمد ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

(٤) Enc. Isl. art. Artukids, New ed.

ووصلوا في بعض الأحيان إلى باب نصيبين ولا دافع لهم ولا مانع إلا الله عز وجل[1]». وفي عام (٥٨١ هـ=١١٨٥م) حدثت فتنة كبيرة بين التركمان والأكراد في ديار بكر والموصـل والجزيرة وشمالي العراق وشمالي الشام، قتل فيها من الخلق ما لا يحصى ودامت عدة سنين، انقطعت خلالها الطرق ونهبت الأموال، وكانت ديار بكر المسرح الرئيسي لتلك الفتنة[2]. وفي عام (٥٩٩ هـ = ١٢٠٢م) ثار التركمان في بعض أنحاء ديار بكر وقطعوا الطرق وأكثروا الفساد، فتعذر سلوك الطرق إلا للقادرين على حمل السلاح [3]. وتكرر ذلك عام (٦٢٢ هـ = ١٢٢٥ م) على أيدي العرب الرحل الذين راحوا يقطعون الطريق وينهبون القرى ويخيفون السبيل[4]، وبعد عامين من ذلك (رجب ٦٢٤ هـ = ١٢٢٧ م) اجتمع عدد كبير من أكراد ديار بكر وأغاروا على بعض جهات جزيرة ابـن عمـر فتصدى لهم اهلها وقتلوا منهم عدداً كبيراً ونهبوا ما معهم [5].

وكان التخريب يحدث أحياناً كنتيجة لمـا تعرضت له المنطقة من هجمات الأعداء والطامعين في الاستيلاء عليها. كما حدث عـام (٦٢٣ هـ = ١٢٢٦ م) عندما توجه الأشرف الأيوبي إلى ماردين فهاجم بلدها «وأهلكه تخريباً ونهباً» وقد أدى هذا إلى خراب أعمال ماردين «فإنها كان قد أجحف بها تتابع الغلاء وطول مدته وجلاء أكثر أهلها، فأتتها هذه الحادثة فازدادت خراباً [6]». وكما

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٢١٩.
(٢) الكامل ١١/٢١١، ابن شداد، سيرة ص ٤٦، ٤٧، ابن خلدون ٥/٥٨٣.
(٣) الكامل ١٢ / ٧٤. وينقل عنه أبو الفدا، المختصر ٣ / ١٠٨، ابن الوردي، تتمة ٢/١٢٠.
(٤) الكامل ١٢/١٧٦.
(٥) المصدر السابق ١٢/١٩٦.
(٦) الكامل ١٢/١٨٧، ابن خلدون ٥/٣٥٨ - ٣٥٩.

حدث عام (٦٢٨ هـ = ١٢٣٠م) عند قيام التتر بمطاردة جلال الدين خوارزمشاه في منطقة ديار بكر حيث أفسدوا في طريقهم ما قدروا عليه قتلاً ونهباً «وعاثوا بالفساد يميناً وشمالاً[١]» ومن ثم أعادوا الكرة عام (٦٥٠ هـ = ١٢٥٢م) فنهبوا وخربوا[٢] . وفي عام (٦٥٧ هـ = ١٢٥٨ م) سار هولاكو بنفسه من بغداد الى ديار بكر وعاثت قواته في البلاد[٣] . وبعد ذلك بثلاث سنوات قام سلطان الشام باتخاذ إجراء اقتصادي ضد تقدم التتر باتجاه الشام ، فأمر أتباعه بإحراق الزروع في المناطق التي اعتاد هولاكو أن يعسكر فيها فعمت النار مسيرة عشرة أيام في المنطقة الواقعة بين آمد وحلب ، وصارت الزروع رماداً ، وقطع السنبل وهو أخضر[٤] . ومن ثم غدت ديار بكر والمناطق المجاورة لها مسرحاً للغارات والتخريب والنهب طيلة الصراع بين التتر والمماليك[٥] . ففي عام (٦٨٥ هـ = ١٢٨٦ م) على سبيل المثال ، قام نواب حلب بتوجيه «الحشود الى الشرق ، وركنوا الى الجزيرة واتفقوا على شن الغارات ودرس الزروع ، وأغاروا على جبل ماردين الى الجزيرة وسنجار .. وأحرقوا ، وما أبقوا ممكناً إلا فعلوه مما يقضي بإضعاف العدو وإذهاب ميرته »[٦] . وقد تفنن التتر في تخريب الأراضي المزروعة في الجزيرة والتي تعود لأعدائهم وذلك عن طريق ترك خيولهم تعبث بها أو باحراقها ، وهنالك طرق عديدة ابتكرها

---

(١) ابن كثير ، البداية ١٢٨/١٣ - ١٢٩ ، الصائغ ، تاريخ الموصل ص ٢٣٣ .

(٢) ابن كثير ، البداية ١٨٢/١٣ .

(٣) المقريزي ، السلوك ٤١٩/١/٢ .

(٤) المصدر السابق ٤٧٣/١/٢ .

(٥) انظر الفصل الرابع .

(٦) عبد الظاهر ، تشريف الأيام ص ١٣٤ - ١٣٦ ، وانظر ص ١١١ - ١١٢ من نفس المصدر . وانظر كذلك زترستين ، تاريخ سلاطين المماليك ص ٥٤ .

هؤلاء لنشر الحريق في مساحات واسعة وبسرعة كبيرة[١] .

★ ★ ★

وعادت المنطقة للتعرض للتخريب ثانية على يد تيمورلنك وابنه أميران شاه منذ عام (٧٩٦ هـ = ١٣٩٣ م) وما تلاه ، ففي ذلك العام ترك تيمورلنك ابنه على الجزيرة لدى توجهه الى الشام ، وكان هذا أظلم من أبيه « فصبغ أرض هذه البلاد بدماء أهليها ، وخرب معمورها[٢] » ، وفي عـــام (٨٠٣ هـ = ١٤٠٠ م) عاد تيمورلنك الى ماردين فخرب عماراتها وترك قائده قرا عثمان على حصار القلعة ، ولكن هذا لم يستطع الاستمرار على الحصار بسبب الخراب الذي لحق البساتين والمراعي[٣] . وفي الفترة التي تلت ذلك – وسبقت سقوط ماردين – تعرضت المناطق الزراعية المحيطة بها الى عمليات تخريب مستمرة من قبل قرا يوسف أمير دولة القراقوينلو، وانتهى الأمر أخيراً باستسلام المدينة[٤]. ويذكر الظاهري (ت ٨٧٣ هـ) أن إقليم خرتبرت في شمال ديار بكر كان يضم عدداً من القرى الزراعية وأن معظمهـــا تحول الى خراب في عصره[٥] . ويشير ابن بطوطة ، لدى زيارته لديار بكر عـــام (٧٦٩ هـ = ١٣٦٧ م) الى بعض المناطق التي كانت قد تحولت الى خراب[٦] . وهكذا يمكن القول بأن

---

(١) العمري ، التعريف ص ٢٠١ – ٢٠٢ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ط ٢ ، ١٤ / ٤٠١ – ٤٠٢ .

(٢) الصائغ ، تاريخ الموصل ص ٢٥٣ - ٢٥٤ (عن السمعاني : المكتبة الشرقية ، مجلد ٣ جزء ٢ ص ١٣٤) .

(٣) التاريخ الغياثي ص ٢١١ ، الصائغ ، تاريخ الموصل ص ٢٥٣ – ٢٥٤ عن السمعاني .

(٤) التاريخ الغياثي ص ٢٣٠ . وانظر الفصل الرابع .

(٥) زبدة كشف الممالك ص ٥٢ .

(٦) رحلة ابن بطوطة ١٨٢/٢ .

المنحني العام للإنتاج الزراعي في ديار بكر كان يتجه نحو الانخفاض بمرور الزمن ، وأنه لعب دوراً كبيراً في توجيه الأحداث السياسية للمنطقة كما تأثر بها في نفس الوقت .

وما حدث للنشاط الزراعي في ديار بكر من تخريب، حدث كذلك في حلب في عهد حكم الأراتقة لها، بسبب ما تعرضت له في الربع الأول من القرن السادس الهجري من هجمات الصليبيين التخريبية ، وقيامهم بالقبض على الفلاحين ومعاقبتهم ومصادرة أموالهم وغلالهم، ونهب مزارعهم أو حرقها وتخريبها[1]، ونتج عن ذلك أن تحولت معظم مناطق حلب الزراعية الى « خراب مجدب » أدى الى زيادة أسعار المواد الغذائية زيادة كبيرة[2] . ولا ريب أن هذا أثر على موارد الأراتقة في ديار بكر ، حيث كانت الضرائب التي تؤخذ على الحلبيين تشكل جزءاً مهماً من موارد الخزينة الأرتقية .

وبالرغم من الخراب الذي لحق ديار بكر ، خصوصاً في الفترات المتأخرة ، فان كلاً من ماردين وحصن كيفا اصبحتا ، خلال القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ، مركزين مهمين للهجرة[3] ، حتى إن معظم أهالي حران انتقلوا الى ماردين فيما بين سنة (٦٦٠ – ٦٧٠ هـ = ١٢٦١ – ١٢٧١ م)، ولما عجز التتر عن حفظها نقلوا جلّ من بقي من سكانها الى ماردين وبعض المواقع الأخرى ، ثم خربوها[4] ، وقد اضطر الملك السعيد نجم الدين إيلغازي،

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٩٦ – ١٩٧ .

(٢) المصدر السابق ٢/١٨١ – ١٨٢ . انظر الفصل الثالث .

(٣) اليافعي ، مرآة الجنان ٤/٣٤ ، ابن حجر ، الدرر ٢/١٣٣ ،
Enc. Isl. art. Artukids, (New ed).

(٤) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ٢٠ ب) .

حاكم ماردين ، الى إقامة الجمعة في إحدى المدارس الواسعة بعد تحويلها الى مسجد جامع بسبب كثرة من انضوى الى ماردين من الناس عندما قصد التتر البلاد[1] . ولا ريب أن العامل الرئيسي لهذه الهجرة هو التدهور الزراعي الذي شهدته مناطق واسعة من الجزيرة بسبب هجمات التتر ، فضلاً عن الخراب الذي لحق بعض المراكز السكنية ، والغلاء الذي اجتاح عدداً من مناطق ديار بكر[2] . ويمكن القول – كذلك – بأن العناصر الرعوية بدأت تطغى على المنطقة بمرور الزمن وخاصة بعد قيام قواد دولتي الخروف الأبيض والأسود بمهاجمتها باستمرار والاستيلاء على معظم مواقعها ، ولا ريب في أن القاعدة البشرية لهاتين الإمارتين كانت من الرعاة بدليل الاسم ذاته[3] .

وفضلاً عن العوامل البشرية ، نجد أن العوامل الطبيعية والصحية لعبت دوراً كبيراً في تحديد مستوى الانتاج الزراعي في ديار بكر ، وبالتالي في تحديد مستوى المعيشة هناك . وقد تعرضت المنطقة ، بسبب تلك العوامل ، لفترات متعاقبة من الرخص والغلاء وارتفاع مستوى المعيشة أو انخفاضه . وفيما يلي استعراض لأهم تلك الفترات .

في عام (٥١٤ هـ = ١١٢٠ م) وقع بماردين برد عظيم «لم تجر بمثله عادة ولا أبصر أكثر منه » مما أدى الى إهلاك المواشي وإتلاف أكثر النبات والشجر[4] .

---

(١) المصدر السابق ١٣٠ ب .
(٢) المصدر السابق ٢٠ ب ، ابن العماد ، شذرات ٥/٤٥٧ – ٤٥٨ .
(٣) انظر التاريخ الغياثي (مخطوطة ص ٢١١) .
(٤) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٢ ، ابن الفرات ، تاريخ (مخطوطة ٢/٤٠) .

وفي صفر من عام (٥٣٢ هـ = ١١٣٧ م) حدثت في الجزيرة زلزلة عظيمة قيل إنها أهلكت عدة مواضع هناك وهلك فيهـــا عدد كبير من السكان[١] . وفي شوال من عـــام (٥٦٥ هـ = ١١٧٠ م) حدثت في نفس المنطقة زلازل أشد من سابقتها ، وبلغت من الخطورة بحيث « لم ير الناس مثلها »[٢] . وفي رمضان من عام (٥٦٩ هـ = ١١٧٤ م) توالت الأمطار في موسم الربيع في ديار بكر ودامت أربعين يوماً ، لم تظهر الشمس خلالها سوى مرتين ، حتى إن ذلك أدى الى خراب المساكن وانهيار بعضها وموت كثير من الناس تحت أنقاضهـــا ، كما أدى الى ازدياد دجلة زيادة كبيرة[٣]. وفي عام (٥٧٤ هـ = ١١٧٨ م) انقطعت الأمطار تماماً في سائر ديار بكر ، والمناطق المجاورة والشام والعراق والموصل وأرمينية ، فاشتد الغلاء في سائر البلاد وارتفعت أسعـــار الحنطة والشعير ، وندرت الأقوات وأكل الناس الميتة ، ودام ذلك الى نهاية عـــام (٥٧٥ هـ = ١١٨٠ م)، ثم تبع ذلك وباء عام شديد كثر فيه الموت . ثم ما لبثت الأمطار أن سقطت من جديد فرخصت الأسعار[٤] . وفي عام (٥٩٧ هـ = ١٢٠٠ م) حدثت زلازل عامـة شملت معظم أنحاء العـراق والجزيرة والشام وأدت الى تخريب عدد من البلدان[٥] . وفي عام (٦٠٠ هـ = ١٢٠٣ م) عادت الزلازل من جديد ، وبعنف أشد ، وشملت المناطق السالفة[٦] . وفي عام (٦٢٠ هـ =

---

(١) ابن القلانسي ، دمشق ص ٢٦٣ .

(٢) ابن الأثير ، الباهر ص ١٤٥ ، ابن قاضي شهبة ، السيرة النورية (مخطوطة ١٤٧).

(٣) الكامل ١١/ ١٦٦ ، ابن قاضي شهبة ، المصدر السابق ١٧٧ .

(٤) الكامل ١١/١٨٤ .

(٥) ابن الساعي ، الجامع المختصر ٥٣/٩ ، الغزي ، تاريخ حلب ١٠٩/٣ .

(٦) ابن واصل ، مفرج الكروب ١٦١/٣ ، الغزي ، تاريخ حلب ٢/ ١١٠ .

١٢٢٣ م) انتشر الجـراد في ديار بكر والمناطق المجـاورة فأهلك كثيراً من الغلال والخضر(١). وفي العام التالي أصيبت المناطق السالفة بغلاء شديد وجاءت موجة أخرى كثيفة من الجراد ، فزادت في ندرة الأقوات وارتفاع الأسعار(٢). ثم ما لبث الغلاء أن خف في العام التـالي (٦٢٢ هـ = ١٢٢٥ م) ، فرخصت الأسعار بسبب ما قام به الخليفة العباسي (الظاهر) من السماح بنقل الأطعمة والغلال الى الموصـل والجزيرة « فحمل منهـا الكثير الذي لا يحصى(٣) » . ويظهر أن هذا الإجراء لم يحل مشكلة الغلاء بشكل نهائي ، فاستفحل ثانية في العام التالي (٦٢٣ هـ) وأكل الناس الميتة والكلاب، وغلا مع الطعام كل شيء، وبلغ ما يزيد على أربعة أضعاف ثمنه القديم ، وبالرغم من تساقط الأمطـار من أول الشتاء الى نهايـة الربيـع ، فإن ضراوة الغـلاء لم تنكسر بسبب انتشار الأمراض واشتداد الوباء وكثرة الموت(٤) . وما أن بدأت الأسعار تتحسن حتى انتشر الجـراد وقضى على الغلال القليلة التي أنتجت ذلك الموسم ، فارتفعت الأسعار من جديد ، فضلاً عن تساقط برد كبير الحجم في كثير من القرى أهلك زروعها وقضى على عدد كبير من مواشيها ودواجنها ، وانتهت السنة دون أن تخف حدة الغـلاء(٥) ، واستمر طيلة السنة التاليـة (٦٢٤ هـ = ١٢٢٦ م) وتحركت الأسعار بنسبة ضئيلة ، زيادة ونقصاناً ، وتساقط الثلج في شهر آذار فأهلك أزهـار الفاكهة(٦) . وانخفضت الأسعار في العـام التالي (٦٢٥ هـ)

---

(١) الكامل ١٢/١٧٢ ، المقريزي ، السلوك ١/١/٢١٤ .
(٢) الكامل ١٢/١٧٤ .
(٣) المصدر السابق ١٢/١٨٣ .
(٤) المصدر السابق ١٢/١٨٤ – ١٨٥ .
(٥) المصدر السابق ١٢/١٩٣ .
(٦) المصدر السابق ١٢/١٩٥ – ١٩٦ ، ابن كثير ، البداية ١٣/١١٧ .

وجاءت الغلال (الحنطة والشعير) جيدة ، إلا أن الأسعار لم تبلغ مـــا كانت عليه قبل أزمة الغلاء[1] . وفي عام (٦٢٨ هـ = ١٢٣٠ م) قلت الأمطار في ديار بكر والمناطق المجاورة فارتفعت الأسعـــار من جديد ، إلا أنها لم تكن بالشدة التي كانت عليها طوال السنين الماضية[2] .

وفي عام (٦٤٩ هـ = ١٢٥١ م) انتشر (الطاعـون العظيم) في أنحـــاء الجزيرة وبضمنها ديار بكر[3] . وفي عام (٦٧٤ هـ = ١٢٧٥ م) حدث زلزال خطير بدأ بمنطقة أرمينية وامتد جنوبـــاً الى ديار بكر ، وأدى الى تخريب مناطق شاسعة من ماردين وميافارقين[4] .

ثم قلت حوادث الغلاء والأوبئة والمجاعات والزلازل ، بعد ذلك ، ولم تقع حوادث مشهورة من هـــذا النوع حتى عامـي (٧١٧ و٧١٨ هـ = ١٣١٧ ، ١٣١٨ م) ، ففي عام (٧١٧ هـ) حدث غلاء شديد في ديار بكر اضطر عدداً من سكان ماردين الى مغادرتها والتوجه الى الشام ، إلا أن قوة من التتر لحقت بهم وقتلت معظمهم وكانوا حوالي ستمائة تاجر ، وثلاثمائة من العامـــة[5] . وفي العام التالي اجتاح ديار بكر والمناطق المجاورة ، والعراق وشمالي بلاد فارس، غلاء شديد بسبب قلة الأمطـار ، والتخوف من التتر الذي لعب دوره في شل النشاط الاقتصادي ، فعدمت الأقوات وارتفعت الأسعار وتوفي الكثيرون

---

(١) الكامل ١٢/١٩٩ .

(٢) المصـــدر السابق ١٢ / ٢٠٨ ، ابن كثـــير ، البداية ١٣ / ١٢٨ ، الغزي ، حلب ٣/١١٤ .

(٣) العمري ، تاريخ الموصل ص ١٧١ .

(٤) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ٣/١٢٣ .

(٥) ابن الوردي ، تتمة ٢/٢٦٦ ، ابن كثير ، البداية ١٤/٨٣ .

جوعاً وأكل الناس الميتات والحيوانات وباعوا أولادهم، وحاول بعضهم الهروب إلا أن الصعوبات التي جابهتهم في الطريق قضت عليهم[١] . ثم كانت آخر نوبات الغلاء المشهورة في ديار بكر تلك التي حدثت عام (٧٤٣ هـ = ١٣٤٢م)، حيث بلغ حداً جاوز الوصف واستمر ستة أشهر[٢]. وبعد ذلك بخمس سنوات (جمادى الأولى ٧٤٨ هـ = ١٣٤٧ م) ، انتشر وباء الطاعون مبتدأً بحلب ، فغطى الشام ومصر وجميع أنحاء ديار بكر ، ولعب دوراً خطيراً في شل النشاط الاقتصادي ، كما أدى الى وفاة عدد هائل من السكان[٣] . وفي عام (٨٠٣ هـ = ١٤٠٠ م) ، انتشر الجراد في مناطق الشام وديار بكر وبغداد « فعرى كل شجراء ... وجرد ما على وجه الأرض جرداً[٤] » .

أما الفعاليات الاقتصادية الأخرى في ديار بكر ، وهي التجارة والصناعة ، فلا يوجد من الروايات الكافية المفصلة ما يلقي ضوءاً واضحاً عليها . وثمة إشارات متفرقة يمكن أن تستجمع لكي تعطي بعض المعالم الأساسية عن الموضوع . ولا ريب أن الإمكانيات الزراعية لديار بكر وكثرة إنتاجها من الغلال والثمار والزيتون والقطن والكروم ، من جهة ، وحاجتها الى بعض المصنوعات والأطعمة من جهة أخرى . لعبت دوراً هاماً في تنشيط الحركة التجارية فيها تصديراً واستيراداً ، كما ساعدت على نشوء عدد كبير من الأسواق في شتى أنحاء ديار بكر، كان يقصدها تجار الجملة والمفرد من شتى الجهات كالشام

---

(١) ابن الوردي ، تتمة ٢٦٦/٢ ، المقريزي ، السلوك ١٨٠/٢/١ ، اليافعي ، مرآة الجنان ٢٥٧/٤ ، ابن كثير ، البداية ٨٦/١٤ ، ابن العماد ، شذرات ٤٧/٦ .

(٢) ابن حجر ، الدرر الكامنة ٤٣٤/٢ .

(٣) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ١٩٧/١٠ ، الغزي، حلب ١٨٦/٣ - ١٨٧ .

(٤) ابن عربشاه ، أخبار تيمور ١١٥ - ١١٦ .

وبلاد الروم والمناطق المتطرفة من ديار بكر[١] .

وكانت أرباض المدن الكبرى في ديار بكر تزدحم بالأسواق كميافارقين[٢] ، وإرزن[٣] ، وحصن كيفا[٤] ، وماردين[٥] ، ودنيسر[٦] ، وصور[٧] . ويصف ابن جبير هذه الأسواق بأنها كانت حافلة وأرزاقها واسعة[٨] ، ولنتابع وصفه لهذه الأسواق حيث يقول : « كان مقامنا بدنيسر الى الجمعة الرابع من ربيع الأول عام (٥٨٠ ﻫ = ١١٨٤ م) – لرغبة أهل القافلة – لشهود سوقها ، لأن بها يوم الخميس والجمعة والسبت والأحد سوق حفيلة يجتمع لها أهل هذه الجهات المجاورة لها والقرى المتصلة بها ، لأن الطريق كلها يميناً وشمالاً قرى متصلة وخانات مشيدة ، ويسمون هذا السوق المجتمع اليها من الجهات (البازار) وأيام كل سوق معلومة ...[٩] . ويذكر ناسخ كتاب ابن حوقل والذي زار المنطقة في عهد الأراتقة ، بأن سوق دنيسر كانت واسعة ، وأن دنيسر كانت في بدء أمرها قرية يجتمع الناس في صحرائها كل يوم أحد للبيع والشراء ، ثم ما

---

(١) ابن جبير ، رحلة ص ٢٢٠ . وانظر ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٢٧ آ ، وابن بطوطة ، رحلة ١/١٨٢ .

(٢) ناسخ ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٢٠٢ ، لسترنج ص ١٤٣ عن ناصر خسرو .

(٣) لسترنج ، بلدان ص ١٤٤ (عن ناصر خسرو) .

(٤) ناسخ ابن حوقل ص ٢٠٢ ، لسترنج ص ١٤٥ (عن ناسخ ابن حوقل) .

(٥) ناسخ ابن حوقل ص ٢٠٢ ، ياقوت ، معجم البلدان ٤/٣٩٠ ، القزويني ، آثار ص ٢٥٩ – ٢٦٠ ، لسترنج ص ١٢٥ – ١٢٦ .

(٦) ناسخ ابن حوقل ص ٢٠٢ ، ياقوت ، معجم البلدان ٢/٦١٢ ، الطباخ ، تأريخ حلب ، ٤/٥٨٠ ، لسترنج ص ١٢٦ .

(٧) ياقوت ، معجم البلدان ٣/٤٣٥ .

(٨) رحلة ص ٢١٩ – ٢٢٠ .

(٩) المصدر السابق ص ٢٢٠ – ٢٢١ .

لبث أن انتشر فيها العمران ، كنتيجة لمستلزمات التجارة ، فنشأت الخانات والفنادق والحمامات والأسواق المختلفة لتسيير العمليات التجارية ، ومن ثم أصبحت مركزاً تجارياً كبيراً تجلب اليه البضائع المختلفة من سائر البلدان ، واستوطنها أناس من جهات شتى ، وكثر بها الارتفاع والضمانات والضرائب المختلفة على التجارة[١] . ويذكر ياقوت أنه زار دنيسر في عهد صباه وكانت قرية آنذاك ، ثم زارها بعد ثلاثين سنة (في عام ٦٢٣ هـ = ١٢٢٦ م) « وقد صارت مصراً لا نظير لها كبراً وكثرة أهل وعظم أسواق »[٢] ، مما يشير الى مدى تأثير النشاط التجاري على نشوء المدن واتساع العمران وزيادة كثافة السكان ، بسبب ما يستلزمه من مؤسسات وأيادي عاملة . كما أدى هذا النشاط التجاري الى رخص الأسعار في المنطقة[٣] .

وكان وقوع عدد من أهم مدن ديار بكر كدنيسر ونصيبين وغيرهما على الطرق التجارية الرئيسية لشمالي العراق والجزيرة وأرمينية وبلاد فارس والشام، من العوامل المهمة التي أدت الى انتعاش التجارة في ديار بكر[٤] . ويظهر أن التجارة في المنطقة اعتمدت أساساً على وسائط النقل البرية من الحيوانات ، ولم تستخدم الوسائل المائية على نطاق واسع ، ربما بسبب ضيق معظم المجاري المائية في المنطقة ، وعدم إمكان تسيير سفن النقل فيها . ومع ذلك فإن هناك مجار مائية واسعة كانت تستخدم سابقاً في تسيير السفن ، مثل تل فافان القريبة من آمد حيث يصير دجلة مجرى واحداً صالحاً لسير السفن[٥] . ويقول

---

(١) صورة الأرض ص ٢٠٢ ، وانظر الطباخ ، تاريخ حلب ٥٨٠/٤ .
(٢) معجم البلدان ٦١٢/٢ . ونقل عنه لسترنج ، بلدان ص ١٢٦ .
(٣) ناسخ ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٢٠٢ .
(٤) انظر : ياقوت ، معجم البلدان ٧٨٧/٤ – ٧٨٩ ، الطباخ ٥٨٠/٤ .
(٥) لسترنج ، بلدان ص ١٤٥ .

ياقوت : « لم أر في رأس عين سفينة ، ولا يعرفها أهل رأس عين ». ثم يتساءل: ولا أدري سبب ذلك ؟ لأن الماء كثير وهو يحمل سفناً صغيرة كما ذكروا ، ولعل المهم قصرت فعدم ذلك[1] . ولكن لا يمكن الجزم بأن ما أورده ياقوت ينطبق على كل الفترات الطويلة التي حكم فيها الأراتقة ، هذا الى أن مزارعي رأس عين كانوا يستخدمون هذه المجاري المتشابكة في تسيير زوارقهم الصغار التي كانت تحملهم الى بساتينهم[2] ، وربما أفادوا من هذه الزوارق ، كذلك ، في بعض عمليات نقل منتجاتهم الزراعية .

امتدت الجهات التي كان أهالي ديار بكر يتاجرون معها فشملت الشام والعراق والجزيرة والموصل وبلاد الأناضول وأرمينية وفارس (اذربيجان) والجهات الشمالية المتطرفة القريبة من بحر الخزر[3] ، كما شملت مصر أيضاً[4] . وقد تأثرت الفعاليات التجارية للمنطقة ، شأنها شأن الزراعة ، بما كان يحدث فيها وفي المناطق المحيطة بها من فتن واضطرابات وحروب كانت تعرقل حرية التجار في التنقل والأسفار[5] ، وقد لاقى تجار ديار بكر ، في بعض فترات السيطرة المغولية عليها ، أذى كبيراً ، وتعرضوا للمطاردة والقتل ، ولا ريب أن الحادثة ، التي سلف ذكرها ، من قيام المغول بقتل ستمائة تاجر لدى محاولتهم مغادرة ماردين ، في إحدى أزمات الغلاء ، تعطي مثلاً واضحاً على ما لحق بالتجار في تلك الفترات . وعندما ضعفت السيطرة المغولية على المنطقة ، عاد

---

(١) معجم البلدان ٧٣١/٢ – ٧٣٣ .

(٢) استرنج ، بلدان ص ١٢٥ .

(٣) الكامل ١٠١/١٢ Enc. Isl. art. Artukids, New ed.

(٤) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٤٤/١٠ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ٣٧٩/٢ .

(٥) الكامل ١٠١/١٢ ، ابن الوردي ، تتمة ٢٦٦/٢ ، ابن كثير ، البداية ٨٣/١٤ .

التجار ليأخذوا مكانتهم . وهنالك روايات تشير الى المكانة الكبيرة التي حصل عليها بعض التجار الذين كانوا يترددون الى ديار بكر[1] . هـذا وقد لعب قطاع الطرق واللصوص ، دوراً خطيراً في عرقلة سير القوافل التجاريـة في الفترات التي كان يحكم فيهـا أمراء ضعاف ، حيث كانت القوافـل أحياناً « لا تسير من ميافارقين الى آمد وإرزن وحاني وماردين وحصن كيفا ، إلا ومعهم خيل تخفرهم في هذه المسافة القريبة »[2] . وفي عام (٧٥١ هـ = ١٣٥٠ م) ، على سبيل المثال ، كثر طغيان العرب والتركمان في سنجار والمناطق المجاورة ، وتمادى بغيهم وفسادهم ، ونهبوا أموال التجار وقطعوا الطريق[3] ، دون أن يقدر حكام المنطقة على إيقافهم عند حدهم . أما في الفترات التي تولى الحكم فيها أمراء أقوياء ، فإن الأمن ساد الطرق التجارية ، وتضاءل خطر قطـاع الطرق واللصوص. فعندما استولى إيلغازي على ميافارقين عام (٥١٢ هـ = ١١١٨ م)، « كانت البلاد مخيفة من الحرامية والقوافل لا تسير ... إلا ومعهم خيـل تخفرهم في المسافة القريبة ، فحيث ملك إيلغازي أمنت البلاد والطرقـات ، وانهزمت الحرامية ، وعمرت الضياع ومدت ميافارقين في العمارة[4] » . ولدى دخول بلك بن بهرام حلب عام (٥١٨ هـ = ١١٢٤ م) تمكن – بمـا عرف من حزمه – من نشر الأمن الذي افتقد في الفترة السابقة، وقضى على قطاع الطرق، وأمر بفتح أبواب حلب ليلاً ونهاراً «وحسم مادة أرباب الفساد، وقال للحارس: إن عدت سمعتك تصيح ضربت عنقك[5] » . ويشير ابن الأثير الى أن الطريق

---

(١) ابن حجر ، الدرر الكامنة ٣٧٩/٢ – ٣٨١ ، ٤٤٣/٣ .
(٢) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقـة ١٠٢ آ .
(٣) الغزي ، تاريخ حلب ١٨٧/٣ – ١٨٨ .
(٤) ابن شداد ، الاعلاق ، ورقة ١٠٢ آ .
(٥) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢١٧/٢ .

بين الموصل وديار بكر – في عهده – كان آمنـــاً لا يحتـــاج السائر فيه الى حراسة[1] . وكان ذلك بفضل حزم بعض الأراتقة ورغبتهم في نشر الأمن . وفي أواخر عام (٧٥٤ هـ = ١٣٥٣ م) تمكن أمير ماردين من القضاء على محمة التركماني وهو أخطر قطـــاع الطرق في المنطقة ، وكان قد حظي بمعطف بعض أمرائها وبخاصة أمير الموصل[2] .



ولا ريب أن التجـــارة الأرتقية كانت تنشط – كذلك – اعتماداً على الاتفاقيات التجارية الدوليــة ، لا سيا تلك التي كانت تعقد بين المماليك وحكام الأناضول والتي كانت تشمل معظم المناطق ، التي كان الأراتقة يتاجرون معهــا ويسلكون طرقها . ونذكر – على سبيل المثال – تلك الاتفاقيــة التي عقدت عام (٦٨٤ هـ = ١٢٨٥ م) ، بين سلطان المماليك وبين (ليفون) ملك الأرمن وجاء في نصها « ... على أن التجــار المترددين من الجهتين لا يحدث عليهـــم حادث ، ولا تجدد عليهـــم مظلمة .. ويسلك بهم منهج العدل والإنصاف .. وعلى أنه من دخل بلد الأرمن من بلد الروم وبلد المشرق والمغرب والعـــراق وبغداد والعجم وسائر البلاد قاصداً البلاد السلطانية من التجار والرعيــة ... يفسح لهم بالحضور الى البلاد السلطانية – أي بلاد المماليك – ولا يعوقهم ولا يمنعهم ...![3] » .

شملت تجارة ديار بكر – في عهد الأراتقة – المنتجات الزراعيـــة والمواد

---

(١) المثل السائر ص ٢٠٥ .

(٢) ابن حجر ، الدرر الكامنة ٤٨/٢ .

(٣) عبد الظاهر ، تشريف الأيام ص ٩٩ – ١٠٠ .

الخام والمصنوعات . فكانت تستورد التمر والدبس والأرز والسمسم وسائر المنتجات الزراعية التي لا تتوفر فيها ، فضلاً عن الحنطة والشعير في مواسم الجفاف والمجاعات[1] ، وكذلك المواشي ، وبخاصة الأغنام لغرض الاستهلاك في بعض المواسم ، حيث كان الرعاة من التركمان والأكراد يتنقلون خلال الربيع في أنحاء الجزيرة لبيع أغنامهم ، مما يساعد على انخفاض أسعار اللحم في هذا الموسم[2] . كما كانت تستورد بعض المصنوعات من الجهات التي تجيد صناعتها كصابون حلب[3] وغيره ، فضلاً عن استيراد المواد الخام كالذهب والفضة من الموصل وبلاد فارس لغرض سك النقود ، بسبب قلة هذين المعدنين في المنطقة[4] .

ويستفاد مما ذكره ابن جبير ، وغيره من الرحالة والمؤرخين ، أن حركة المبيعات لمنتجات ديار بكر كانت تعتمد بالدرجة الأولى على الأسواق الداخلية ، ومع ذلك فقد كانت ديار بكر تصدر الى الخارج الكثير من منتجاتها الزراعية ومصنوعاتها الفائقة وبعض المواد الخام المتوفرة فيها . فكانت تصدر المنتجات الزراعية الفائضة بكميات كبيرة الى الخارج كالثمار ، ولا سيما البندق والفستق واللوز والشاه بلوط والبطم والزيتون والكروم . كما كانت تصدر الخمور المشهورة بجودتها والمصنوعة على نطاق واسع بسبب كثرة الكروم في المنطقة ،

---

(١) الكامل ١٢/١٨٣ .

(٢) المصدر السابق ١٢ / ١٩٥ - ١٩٦ ، وانظر ابن القلانسي ، دمشق ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .

(٣) ابن الشحنة ، المنتخب ص ٢٥٤ .

(٤) مجلة بغداد ، عدد ٢٥ سنة ٩٦٦ ، مقالة (المسكوكات التي ضربها بدر الدين لؤلؤ) لمحمد باقر الحسيني .

فضلاً عن نبات الزعفران ذي الشعر الفائق، والعسل حيث تكثر تربية النحل، وكذلك الكميات الفائضة من الغلال والخضر والبقول[١] . ومن المرجح أنها كانت تصدر الفائض عن حاجتها الصناعية من القطن الذي ينتج في المنطقة على نطاق واسع[٢] . ومن صادراتها كذلك المحلب الذي تتطيب به الأعراب[٣] ، وماء الورد الذي يصنع محلياً والذي يتصف بكونه لا نظير له في العطارة والطيب[٤] .

وكانت ديار بكر تصدر عدداً من منتجاتها الصناعية كذلك وعلى رأسها المنسوجات كالأزر والأبراد والنصافي والبطاين[٥] والثياب المنسوبة الى ماردين والمصنوعة من المرعز[٦] والفراند الحرزمية[٧] . كما اشتهرت المنطقة بتصدير القطيفة والطيالسة الصوفية والثياب الموشية والمنادل وشراشف الفرش والكلل وثياب الكتان والصوف التي تصدر الى بغداد وسائر الجهات[٨] ، كما أنها كانت تصدر البسط وأنواع أخرى من المنسوجات[٩] .

---

(١) الفارقي ، تاريخ آمد ص ٢٢٤ - ٢٢٦ ، ابن القلانسي ، دمشق ص ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ٩٦ آ - ب ، العمري ، مسالك الأبصار ١ / ٣٠٥ ، ٣١٠ ، ياقوت ، معجم البلدان ٦٤١/٢ - ٦٤٢ ، لسترنج ، بلدان ص ١٢٥ عن المستوفي .

(٢) الاصطخري ، مسالك ص ٧٤ ، لسترنج ، بلدان ص ١٢٥ - ١٢٦ عن المستوفي .

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ٥١٦/٢ ، لسترنج ، بلدان ص ١٢٦ .

(٤) لسترنج ، بلدان ص ١٢٤ .

(٥) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٢٨ ب .

(٦) ابن بطوطة ، رحلة ١٨٢/٢ .

(٧) ياقوت ، معجم البلدان ٢٣٩/٢ .

(٨) سعيد الديوه جي ، أتابكة الموصل ص ٤٥ - ٤٦ .

(٩) انظر ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٤٤/١٠.

كما كانت ديار بكر تصدر بعض المواد الخام المتوفرة فيها كالنحاس[١] ، والحديد الذي كان يكثر في بعض مناطقها وبخاصة حاني[٢]، لغرض استخدامها في صناعة الأواني وسك النقود في الجهات المصدر اليها . كما كانت تصدر جواهر الزجاج الذي يكثر في جبل ماردين[٣] ، والذي يصفه ابن حوقل بأنه « زجاج جيد » وأنه كان يحمل من ماردين الى سائر بلدان الجزيرة والعراق وبلد الروم، فيفضل على ما سواه بجوهرية فيه[٤] » ، كما كان الطلب الخارجي شديداً على الحجارة السوداء (الكرانيت) المتوفرة في آمد والتي تستخدم للأرحية وطحن الحبوب والبناء ، ويصفها ابن حوقل بأنها « ليس لها في الأرض نظير ، ومنها ما يساوي الحجر للطحن به في العراق خمسين ديناراً[٥] . ومن المرجح أنها كانت تصدر كذلك الفحم والحطب لكثرة توفره في المنطقة[٦] . وكانت المصنوعات التي تقوم على بعض المواد الأولية السالفة ، تشكل جزءاً من صادرات ديار بكر وبخاصة الأواني النحاسية وأقداح الشرب[٧] .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ٢٣٠ ، ابن قاضي شهبة ، السيرة النورية (مخطوطة ٨٠ – ٨١) ، ابن الفرات ، تاريخ (مخطوطة ٢/٥٩) .

(٢) الفارقي ، تاريخ آمد ، ورقة ١٢٩ ب ، ابن كثير ، البداية ١٢/١٩١ ، وانظر ياقوت ، معجم البلدان ١/٤٨٠ ، ٢/١٨٨ وهو يشير الى أن حديد خاني كان يجلب الى سائر البلاد ، القرماني ، تاريخ ص ٤٩٠ .

Enc. Isl. art. Artukids, New ed.

(٣) أبو الفدا ، تقويم ص ٢٧٩ ، الاصطخري ، المسالك ص ٧٣ ، القلقشندي ، صبح الاعشى ط ٢ ، ٤/٣١٦ .

(٤) صورة الأرض ص ١٩٤ .

(٥) المصدر السابق ص ٢٠١ .

(٦) الفارقي ، تاريخ آمد ص ٢٢٤ – ٢٢٦ ، ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ٩٦ آ – ب.

(٧) لسترنج ، بلدان ص ١٤٥ – ١٤٦ .

قام في ديار بكر عدد من الصناعات التي اعتمدت على المهارة الفنية وعلى ما توفر فيها من مواد اولية كمعدني النحاس والحديد والزجاج ، ومواد زراعية صالحة للتصنيع كالقطن والكتان والزعفران، فضلاً عن أصواف الغنم والماعز. وكانت المنسوجات (الملابس والبسط والشراشف ...الخ) تشكل أهم المنتجات الصناعية لديار بكر . فقد كانت بلاد الجزيرة مشهورة بمنسوجاتها منذ الفترة التي سبقت الفتح الإسلامي[1] ، وبقيت المنطقة بعد ذلك ، وبخاصة ديار بكر محافظة على صناعة الحياكة ، ومنها حياكة القطيفة[2] . وكانت آمد تصنع الطيالسة الصوفية والثياب الموشية والمنادل والمقارم (شراشف الفرش والكلل) وثياب الكتان والصوف[3] ، كما اشتهرت بصناعة البسط والخيام[4]، ولا ريب أن هذه الصناعات ازدهرت في عهد الأراتقة الذين بلغت صناعات النسيج في عهدهم أوج ازدهارها . فكانت ماردين تصنع الثياب المنسوبة اليها من الصوف المعروف بالمرعز (أي الصوف المنتشر تحت شعر العنز[5] وذلك لتوفر هذه المادة بسبب كثرة الماعز في المنطقة وجودة المراعي . وفي إرزن كانت تصنع الأزر الرفاع والأبراد والنصافي والبطاين[6] ، وفي حرزم القريبة

---

(١) مجلة سومر ٣/٨٠ – ٨٥ .

(٢) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ٢/٨٠ .

(٣) الجاحظ ، التبصر بالتجارة ص ٣٠ ، ٣٣ ، البشاري ، أحسن التقاسيم ص ١٤٥ ، الديوه جي ، أتابكة الموصل ص ٤٥ – ٤٦ ، ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق (مخطوطة ١٧٠) .

(٤) ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق (مخطوطة ص ١٧٠) . وانظر : ابن واصل ، مفرج الكروب (القسم المخطوط ٢/٢٧٨) .

(٥) ابن بطوطة ، رحلة ٢/١٨٢ .

(٦) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٢٨ ب .

من ماردين كانت تصنع الفراند الحرزميــــة التي اشتهر سكان حرزم بإجادة صنعها(١) .

وانتشرت في ديار بكر صناعة الخمور التي امتازت بجودتهـــا ، على أيدي المسيحيين وبخاصة سكان الأديرة والكنائس بسبب كثرة ما كان يمتلك هؤلاء من مزارع الكروم(٢) ، وخبرتهم العريقة في هذا المجال ، كما انتشرت صناعـة مـــاء الورد الذي كان يتصف « بكونه لا نظير له في العطارة والطيب(٣) » وصناعة الزجاج والأواني الزجاجية(٤) بسبب كثرة المواد الزجاجية في بعض مناطق ديار بكر . وقد اشتهرت اسعرت بصناعة أقداح الشرب(٥) . وبسبب كثرة المواد المعدنية الخام انتشر في المنطقة تعدين النحاس والحديد وعمل سبائك الصفر لاستخدامها في سك النقود(٦) ، كما أدى توفر النحاس الى ازدهار صناعة الأواني النحاسية(٧) . وقد اشتهرت اسعرت بأواني النحاس الفاخـرة التي كان يصنعها الصفارون هناك(٨) . ولا بد من الإشارة أخيراً الى أن أحد أبناء ديار بكر وهو عبد الله بن يوسف الأصطرلابي الأسعردي ، تمكن من إتقان صناعة

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ٢/٢٣٩ .

(٢) المصدر السابق ١٢/٦٤١ – ٦٤٢ ، العمري ، مسالك ١/٣١٠ .

(٣) لسترنج ، بلدان ص ١٢٤ .

(٤) انظر القلقشندي ، صبح الأعشى ط ٢ ، ٤/٣١٦ ، شيخ الربوة ، نخبـــة ص ١٩٢ ، البشاري ، أحسن التقاسيم ص ١٤٥ – ١٤٦ .

(٥) لسترنج ، بلدان ص ١٤٥ – ١٤٦.

(٦) ابن كثير ، البداية ١٢ /١٩١ ، ابن شداد ، الأعـــلاق ، ورقة ٦٥ ب ، الفارقي ، تاريخ آمد ، ورقة ١٢٩ ب .

Enc. Isl. art. Artukids, New ed.

(٧) انظر ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ١٠/٤٤ .

(٨) لسترنج ، بلدان ص ١٤٥ – ١٤٦ .

الأصطرلاب « ففاق فيه وعمل أوضاعاً حسنة »[1] والى أن أحد حكام الأراتقة (٥٩٧ هـ = ١٢٠٠ م) ، كان يمتلك ساعة مائية عجيبة ركبت له من قبل الميكانيكي الكبير الجزري[2] .

★ ★ ★

أدت هذه الإمكانيات الاقتصادية التي تمتعت بها ديار بكر الى ازدياد الموارد المالية للحكومات الأرتقية ، التي كانت تعتمد بالدرجة الأولى على الضرائب المفروضة على الزراعة والتجارة بشكل خاص[3] . وقد سبق استعراض عدد من الزوايات التي تشير الى الثروات الكبيرة التي كانت تنصب في خزائن أمراء ديار بكر الذين سبقوا الأراتقة . ويذكر الفارقي أن عميد الدولة بن جهير (أحد وزراء السلاجقة) ، اتفق مع نظام الملك عام (٤٨٢ هـ = ١٠٨٩ م) على ضمان ديار بكر لمدة ثلاث سنين بمليون دينار[4] ، وأن نصارى ميافارقين عرضوا على عميد الدولة مقدار خمسين ألف دينار مقابل إعادة أحد المساجد الى دير لهم كما كان سابقاً إلا أنه رفض[5] . وكانت الغرامات التي يقدمها الأراتقة في بعض الأحيان لأعدائهم ، كي يتخلصوا من خطرهم، تشير الى سعة إمكانياتهم المالية[6] . وكان في مدينة آمد وحدها، عندما فتحها صلاح الدين عام (٥٧٩هـ

---

(١) ابن حجر ، الدرر الكامنة ٢/٣٠٨ .

(٢) T. Rice, The seljuks, pp. 181—182.

(٣) الفارقي ، تاريخ آمد ص ٢٢٤ – ٢٢٦ ، ناسخ ابن حوقل، صورة الأرض ص ٢٠٢ ، ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ٩٦ آ – ب .

(٤) الفارقي ، تاريخ آمد ص ٢٢٤ – ٢٢٦ ، ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ٩٦ آ – ب.

(٥) الفارقي ، المصدر السابق ص ٢٢٢ ، ابن شداد ، المصدر السابق ، ورقة ٩٥ آ .

(٦) انظر ما يلي من الفصل .

= ١١٨٣ م) وسلمها للأراتقة ، أموالاً وذخائر تساوي ثلاثة ملايين دينار . ويقال إن ابن قرا أرسلان الأرتقي باع من ذخائرها وخزائنها مما لا حاجة له به مدة سبع سنين حتى امتلأت الأرض من ذخائرها(١) . وقدم الملك المظفر أمير ماردين هدية لهولاكو عام (٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م) من تحف ادخرها أبوه وأجداده من جملتها باطية مجوهرة قيمتها ، على ما ذكر ، أربع وثمانون ألف دينار(٢) . وبلغ ريع إحدى القرى الصغيرة في ديار بكر ، وهي حرزم القريبة من ماردين ، لمدة عشرين سنة ، مائتان وعشرة آلاف درهم(٣) .



ولا ريب في أن الضرائب كانت تشكل المورد الأساسي للخزانات الأرتقية ومع ذلك فإن المصادر لم تتطرق بالتفصيل الى تلك التي فرضها الأراتقة على رعاياهم(٤) . ويمكن القول – اعتماداً على الروايات القليلة – بأن أهم الضرائب التي كانت سائدة في ديار بكر ، في زمن الأراتقة وفي السنوات التي سبقتهم ، هي مؤونة الغريب والبلدي وهو ما يحصل ويدخل من البساتين التي حول المدن ، وما يدخل من الضياع من جميع الفاكهة والخضر والكروم والبقول – وكان على ذلك جميعه مؤونة – وكذلك الفحم والحطب . وكانت هذه الضريبة

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ٣٩/٢ (عن العماد الاصفهاني) .

(٢) ابن شداد، الأعلاق، ورقة ١٣٨ آ . ونقل عنه اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ٤٥٧/١ – ٤٥٨ .

(٣) المقريزي ، السلوك ٧٣٥/١/٣ – ٧٣٦ .

(٤) يشير كاهين الى أن الضرائب الأرتقية التي أشارت إليها الروايات القليلة هي نفسها المفروضة في كل المناطق آنذاك :

Enc. Isl. art. Artukids, New ed.

مفروضة على الجميع غنيهم وفقيرهم[١] . وهنالك ضرائب تدعى الكلف ويظهر أنها سميت بهذا الاسم ، لأنها كانت تكلف دافعيها فوق طاقتهم وأنها لم تكن مألوفة أو شرعيـــة ، وضرائب أخرى تدعى الأقساط (أي التي تقسط على دافعيها) ، والأعشار (اي العشور) ، وحشر السور[٢]، الذي لم تحدد المصادر طبيعته ، وضرائب على الأملاك والصناعات المختلفة ، وعدد من الرسوم غير الثابتة والتي تزيد أو تنقص حسب الحاجة السياسية الماليـة للحاكم الأرتقي ، وكان بضمن هذه (المكوس) المفروضة على التجارة وهو النظام المتبع آنذاك في مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، والذي كان يلقى معارضة شديدة من الأهالي والعلماء وبعض الحكام[٣] . وهنالك ضرائب مهمة كانت تؤخـذ على الأسواق تدعى الضمانات وهي أشبه بالأجرة التي يؤديها متضمنو الأسواق للحكومة ، كما كانت تؤخذ ضريبة الارتفاع على التجـارة وهي تزيد وتنقص حسب النشاط التجاري ونسب المبيعات[٤] . هذا فضلاً عن الخراج الذي يعد أكثر الضرائب أهميـــة في ديار بكر ، سواء ما كان يؤخذ من الفلاحـــين مباشرة أو من

---

(١) الفارقي ، تاريخ آمد ص ٢٢٤ ـ ٢٢٦ ، ابن شداد، الأعلاق ، ورقة ٩٦ آ - ب .

(٢) الفارقي ، المصدر السابق ص ٢٧٤ - ٥ / ، ابن شداد ، المصدر السابق ، ورقـة ١٠٠ آ - ١٠١ ب .

(٣) انظر ابن القلانسي ، دمشق ص ٢٠٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ٢٠٢/٢ - ٢٠٣ ، ٢٣٠ ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٩١/٨ . وعندما قام نور الدين محمود بإصلاحه المالي المشهور عام ٥٦٩ أسقط ضريبة المكوس من سائر أنحـاء الشام والجزيرة والموصـل التي خضعت لحكمه (ابن الأثير ، الباهر ص ١٦٦ ، ابن كثير ، البداية ٣١٣/١٢ - ٣١٤) ، ولم يبق من الضرائب سوى الجزية والخراج (سبط ، مرآة الزمان ٣١٢/٨) .

(٤) ناسخ ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٢٠٢ وهو يشير الى أن هذه الضريبة ، ازدادت في دنيسر - مثلاً - بسبب تضخم أعمالها التجارية .

المقطعين[١]، والجزية التي تؤخذ على أهل الذمة[٢]، والتي كانت تشكل مورداً لا بأس به بسبب كثرة المسيحيين في ديار بكر، هذا فضلاً عن المصادرات التي كان الأراتقة يقومون بها ضد كبار موظفيهم - لأسباب شتى - والتي كانت تشكل مورداً مهماً من مواردهم المالية . وكان الخراج والجزية يعدان أكثر الضرائب قبولاً لدى أهالي المنطقة بسبب صفتها الشرعية ، وما عداهما من المكوس والأعشار والأقساط والكلف والمؤن وغيرها ، فتعد كلها من (البوائق) والظلم الذي ينزله الحكام بالأهالي ، لذا كان رفع هذه الضرائب أو تقليصها يعد من الإصلاحات المهمة التي كان الحكام الجدد يفتتحون بها عهودهم[٣] .

وفي الرواية التي أوردها ابن الأثير إشارة الى الرفق الذي عومل به فلاحو ديار بكر على الأقل في عهد حسام الدين تمرتاش ، وهي فترة ليست بالقصيرة (٥١٨ - ٥٤٧ هـ = ١١٢٤ - ١١٥٢ م) حيث إن زنكي حاكم الموصل (٥٢١ - ٥٤١ هـ = ١١٢٧ - ١١٤٦ م) بلغه أن جماعة من فلاحي الموصل رحلوا الى بلد ماردين فأرسل الى حسام الدين تمرتاش يطلب منه أن يعيدهم ، فأجابه هذا « إننا نحن نحسن الى الفلاحين ونخفف عنهم ونأخذ منهم في القسمة

---

(١) الفارقي ، تاريخ آمد ص ٢٢٤ - ٢٢٦ ، ٢٧٤ - ٢٧٥ ، ناسخ ابن حوقل، صورة الأرض ص ٢٠٢ ، ابن الأثير ، الباهر ص ٧٩ ، ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ٩٦ آ - ب ، ١٠٠ آ - ١٠١ ب .

(٢) البدليسي ، شرف نامة ص ١٧٤ .

(٣) الفارقي ، تاريخ آمد ص ٢٣٦ - ٢٣٧ ، ٢٧٤ - ٢٧٥ ، ابن القلانسي ، دمشق ص ٢٠٢ ، ناسخ ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٢٠١ - ٢٠٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ١٩٦/٢ ، ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ٩٧ ب، ١٠٠ آ - ١٠١ ب ، ١٠٢ آ، ١٠٥ آ، ١٢٣ ب ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ٣١٢ ، ابن كثير ، البداية ١٢ / ٣١٣ - ٣١٤ .

من الغلال العشر ، فلو فعلتم أنتم مثلها فعلنا لم يفارقوكم ... »[1] . ولكن هل استمر حكام الأراتقة على نسبة العشر في جباية الخراج ؟ وبالرغم من أن كاهين يشير الى أنه يجب أن لا نعير اهتماماً كبيراً الى هذه الرواية التي تشير الى خفة العبء الملقى على كاهل العناصر الريفية في عهد تمرتاش[2] ، إلا أنها تعطينا صورة لا تقدمها بقية الروايات عن نسبة الخراج في بعض فترات الأراتقة . وفي الرد الذي بعث به زنكي الى تمرتاش توضيح للدافع الذي جعل هذا الحاكم الأرتقي يقتصر على هذه النسبة من ضريبة الخراج ، وهو عدم اهتمامه بالقضايا الدفاعية ضد الصليبيين وما تتطلبه من نفقات باهظة . فقد قال زنكي لرسول تمرتاش : « قل لصاحبك : اذا أخذت أنت من كل مائة سهم سهماً واحداً كان كثيراً لك لأنك مشغول بلذتك في ماردين ، وأما أنا فإذا أخذت الثلاثين كان قليلاً ، لما أنا بصدده من قصد الأعداء والجهاد ، ولولاي لطال عليك أن تشرب الماء آمناً في ماردين ، ولكان الفرنج قد ملكوها ...[3] » ، ويمكن القول ، على هذا الضوء ، إن نسبة الخراج في ديار بكر كانت تعتمد الى حد ما على السياسة العسكرية للحاكم الأرتقي ، وإنها - بناءا على ذلك - ربما كانت أعلى من نسبة العشر في عهد إيلغازي وسقمان بسبب اهتمامها الشديد في قتال الصليبيين .

* * *

قام الأراتقة ، في أحيان كثيرة ، بإصلاحات مالية ألغوا خلالها كثيراً من

---

(١) الباهر ص ٧٩ .

(٢) Enc. Isl. art. Artukids, New ed.

(٣) ابن الأثير ، الباهر ص ٧٩ .

الضرائب المجحفة وخففوا بعضها الآخر[1] . ومن أهم تلك الإصلاحات إصلاح عام (٥١٤ هـ = ١١٢٠ م) ، عندما قدم أهـــالي حلب شكوى الى إيلغازي حول « تجديد رسوم جددت عليهم في أيام رضوان بن تتش لم تجر بها عادة من قبل ، من مكوس ومؤن ومظالم ، فأمر إيلغازي بكشف مقدارهـا ، فأخبر أنها تبلغ اثنا عشر ألف دينار كل عام ، فأمر بحذفهـــا ، ووقع لهم بذلك ، وكتب لوحاً علقه بباب الجامع[2] » . فقوبل ذلك « بالشكر والثناء والاعتداد والدعاء[3] » . وإصلاح عام (٥٧٩ هـ = ١١٨٣ م) الذي قام به محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا في آمد لدى دخوله اليها عام ٥٧٩ . ويعقد أحد الرحالة ، الذين زاروا المدينة آنذاك ، مقارنة بين السياسة المالية الظالمـة التي كانت سائدة فيها على يد حكامها السابقين من بني ينال وبني نيسان ، وبين ما حققه الحاكم الأرتقي من إصلاحات أساسية في هذا المجـــال ، فيقول : « ... دخلت آمد عام (٥٣٤ هـ = ١١٣٩ م) ولم يكن بها إلا بقايا رمق ، وفيها من أرباب العلم والأدب .. وذوي الأفضال ومواساة الغريب جماعة ، ولكن جور بني نيسان والمصادرات وكثرة الرسوم والمؤن ألجـأهم الى التشتت .. فلم يبق بأسواقهم حانوت معمور .. الى أن فرج الله عمن بقي بها وافتتحها الملك ... محمد بن قرا أرسلان الأرتقي وذلك أول سنة ٥٧٩ هـ[4] فأطلق لهـم الأبواب

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٠٢ - ٢٠٣ ، ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٠٢ آ ، ١٠٥ آ ، ١٢٣ ب ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٩١/٨ .

(٢) ابن العديم ، زبـــدة الحلب ٢ /١٩٦ ، ابن القلانـسي ، دمشق ص ٢٠٢ ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٩١/٨ ، ابن الفرات ، تاريخ (مخطوطة ٤٠/٢ - ٤١) .

(٣) ابن القلانسي ، دمشق ص ٢٠٢ ، ابن الفرات ، تاريخ (مخطوطة ٤٠/٢ - ٤١) .

(٤) لم تفتح آمد على يد قرا أرسلان وإنما وهبت له من قبـــل الناصر صلاح الدين بعد أن حاصرها الأخير وتمكن من الاستيلاء عليها في تلك السنة . وانظر الفصل الثاني .

ورفع المكوس ومحى تلك الرسوم المذمومة وفعل فعــل الأكارم الأجواد .. مفتنماً للذكر الجميل والأجر الجزيل . والآن قد دبت الحياة في عروق أهلها اليها ، وإفاضة العدل من مالكها عليها إن شاء الله تعــالى[1] » . وقد لعبت هذه الإصلاحات دورها في تنشيط الحركة الاقتصادية في شتى مجالاتها التجارية والزراعية والصناعية بحيث بلغت مستويات عالية سبق واستعرضنا جوانبها المختلفة . وبالرغم من هذه الإصلاحات فان حكام الاراتقة وموظفيهم كثيراً ما اتبعوا سياسات مالية ظالمة للحصول على مزيد من الأموال ، إمـا لأغراض الشخصية ، أو لصرفها على قواتهـم الحاشدة من التركمان[2] ، فظلموا النـاس واغتصبوا أموالهم[3] ، وصادروا الخدم والموظفين[4] . إلا أن ذلـك لم يحدث دائماً بل اقتصر على بعض الأماكن والفترات والحكام ، ولا سيما حلب لما كان يتطلبه تنظيم شؤونها والدفاع عنها ضد الصليبيين من نفقات باهظة كانت تدفع حكام الأراتقة ونوابهم وموظفيهم هنـاك الى الحصول على المــال بأية وسيلة كانت .



وتعد المستلزمات العسكرية وما تتطلبه من نفقــات كبيرة ، أهم أبواب الصرف بالنسبة للخزانة الارتقية[5]، وتليها قضايا الإعمار والبناء التي تتطلب ه

---

(١) صورة الأرض ص ٢٠١ – ٢٠٢ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٨٠ ، ١٨٥ – ١٨٦ .

(٣) المصدر السابق ٢/٢٠٠ – ٢٠١ ، ٢٣٠ ، بغية الطلب ٤/٢٧٧ و ح ٢/٢٣٠ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٨٥ – ١٨٦ ، ٢٠٢ – ٢٠٣ ، الكامل ١٠/٥٠٠ أبو الفدا ، المختصر ٢/٢٤١ ، ابن الوردي ، تتمة ٢ / ٢٤ ، ابن خــلدون ٥ / ٣٢٦ – ٣٢٧ .

(٥) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٨٠ ، ١٨٥ – ١٨٦ .
Enc. Isl. art. Artukids, New ed.

الأخرى نفقات كبيرة . وقد اهتم الأراتقة بهذه الناحية اهتماماً كبيراً ، فبنوا المدارس والمساجد والربط والمارستانات وخانقاهات الصوفية والغرباء ، وشيدوا الجسور والخانات وزوايا إطعام الطعام ، واهتموا بالأعمال البلدية كإنشاء الحدائق ، والحمامات وتوزيع المياه على الأهالي وما يتطلبه ذلك من إنشاء القساطل وحفر مجاري المياه[1] . ويشير أحد الرحالة الى أن الأمير فخر الدين قرا أرسلان حاكم حصن كيفا بنى على دجلة تجاه الحصن قنطرة عالية حسنة البناء في سنة (٥١٠ هـ = ١١١٦ م)[2] . ويصفها ياقوت بأنه لم ير في البلاد التي زارها أعظم منها ، وهي طاق واحد يكتنفه طاقان صغيران[3] . ويذكر الفارقي أن حسام الدين تمرتاش أمير ماردين شرع في عام (٥٤١ هـ = ١١٤٦ م) ، ببناء جسر القرمان بالقيطوم القريبة من ميافارقين ، وكلف الزاهد أبا الحسن علي بالإشراف عليه ، فبدأ هذا العمل وأسس قواعد الجسر من الجانبين ، فجاء الماء فهدمه لضعف عمله ، فألزم الزاهد بالغرامة . ثم وليه سيف الدين محمود بن علي بن أرتق ، وابتدأ في عمله وعمارته بإشراف أبي الخير ابن الحكيم الفاسول ، فتم بناؤه في نهاية عام (٥٤٨ هـ = ١١٥٤ م)[4] .

---

(١) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٢٧ آ ، ١٣٠ ب ، ابن بطوطة ، رحلة ١/ ١٨٣ ، ابن جبير ، رحلة ص ٢٢٢ .

Enc. Isl. art. Artukids, New ed.

المارديني ، تاريخ ماردين (مخطوطة ص ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥/١٢٧) ، ياقوت ، معجم البلدان ٢/٢٧٧ ، ٤/٣٩٠ ، القزويني ، آثار ٢٥٩ - ٢٦٠ ، ناسخ ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٢٠٢ ، لسترنج ، بلدان ص ١٢٤ ، ١٤٥ .

T. Rice, The Seljuks, Appendix No. 111 pp. 196—209.

(٢) ناسخ ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٢٠٢ .

(٣) معجم البلدان ٢/٢٧٧ .

(٤) الفارقي ، تاريخ آمد ، ورقة ١٢٦ ب - ١٢٧ آ ، ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٠٤ آ - ب وانظر ورقة ١٢٧ آ .

ويشير النص آنف الذكر الى مدى اهتمام الأراتقة باختيار العناصر التي تتوفر فيها الأمانة والكفاءة للإشراف على عمليات البناء وتشددهم إزاء هؤلاء المشرفين، وتغريمهم في حالة عدم قيامهم بواجبهم على الوجه الأكمل ، مما يشير بدوره الى مدى حرص الأراتقة على أموال الدولة العامة . ومن الجسور المهمة التي شيدها الأراتقة ، ذلك الذي أقاموه على نهر الهرماس قرب نصيبين ، وكان معقوداً من صم الحجارة[1] التي تتوفر في المنطقة والتي لها القابلية على الصمود افترات طويلة .

وقد اهتم الأراتقة – كذلك – ببناء المدارس وأنفقوا عليها مبالغ كبيرة ورتبوا لها الأرزاق والوظائف والأوقاف[2] ، وأشهرها المدرسة الزجاجية التي أنشأها بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق في حلب عام (٥١٦ هـ = ١١٢٢ م) ، وهي من أولى المدارس التي بنيت في حلب ، وقد بذل جهوداً كبيرة لإتمام بنائها بسبب المعارضة الشديدة التي جوبه بها من قبل الحلبيين ، الذين كان يغلب عليهم التشيع آنذاك ، فكان كلما بنى فيها شيئاً نهاراً خربوه ليلاً إلى أن أعياه ذلك ، فأحضر الشريف زهرة بن علي بن محمد الأسحقي الحسيني والتمس منه أن يباشر بناءها بنفسه ليكف العامة عن هدم ما يبني منها . فباشر الشريف البناء وشدد المراقبة عليه حتى فرغ منه . وقد كان هذا الشريف من أكابر الأشراف وذوي الرأي والأصالة مقدماً في بلده ، يرجع اليه الناس[3] . كما قام عبد الجبار بن أرتق بتجديد المدرسة المعروفة في حلب

---

(١) لسترنج ، بلدان ص ١٢٤ .
(٢) المارديني ، تاريخ ماردين (مخطوطة ص ١٢٤ ، ١٢٥) .
(٣) ابن شداد ، الأعلاق (قسم حلب) ص ٩٦ – ٩٧ ، ابن الشحنة ، المنتخب ص ١٠٩ .

باسم بني العجمي ، وقرر أن يوقفها على الفرق الأربع ، وقام بنقل مواد بنائها من إحدى كنائس حلب[1] . ويذكر ابن شداد في الأعلاق عدداً من المدارس التي أنشأها الأراتقة في ماردين ، والتي لم يقتصر بناؤها على الأمراء أنفسهم بل ساهم فيه كبار المسؤولين والقضاة[2] . وقد أولى الأراتقة اهتمامهم كذلك ببناء المساجد وتجديدها ، ويذكر الفارقي أن جامع ميافارقين انهدم في ربيع الأول عام (٥٤٦ هـ = ١١٥١ م) وانهار مكان المنبر والأروقة ، فقام المسؤولون بهدم ما تبقى منه وحفر أساس القبة وإعادة البناء . وقد انجز العمل في أواخر عام (٥٤٧ هـ = ١١٥٣ م)[3] . كما كانت عمليات إصلاح الأسوار أو هدمها لأغراض دفاعية واستراتيجية تقتضي مصاريف من الخزانة الأرتقية[4] . وكانت القصور الخاصة بالطبقة الحاكمة تستنزف أموالاً طائلة . ويذكر شيخ الربوة (ت ٧٢٧ هـ) أنه كان في ماردين – على أيامه – « قصر مبني في الماء إذا أراد حاكمها أن يدخله أرسل الماء فطغى على القصر وغمره من سائر أنحائه ، وفيه كوى وصروح وأبواب ممردة من القوارير تشف بالماء والسمك ولا يتندى منها شيء . والدخول الى هذا القصر في المركب على وجه الماء ، والإقامة فيه في أوقات الحر الشديد ، وإذا انتهى موسم الحر صرفوا الماء عنه »[5] ولا ريب أن هذا يعطي مثلاً على التعقيدات العمرانية التي كانت تتميز بها بعض قصور

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٠٩ – ٢١٠ .

(٢) انظر ورقة ١٣٠ ب .

(٣) تاريخ آمد ، ورقة ١٣٣ ب ، ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٠٤ آ – ب . وانظر ورقة ١٣٠ ب .

(٤) ابن شداد ، الأعلاق (قسم حلب) ص ١٩ ، قسم الجزيرة ، ورقة ١٠٣ ب ، ابن الشحنة ، المنتخب ص ٣٥ – ٣٦ ، الغزي ، تاريخ حلب ٢/١٣ .

(٥) نخبة الدهر ص ١٩٢ .

الأراتقة ، مما كان يقتضي نفقات كبيرة من الخزانة العامة[1] . هذا فضلاً عن وجود عدد آخر من أبواب الصرف المعروفة كرواتب الموظفين والمنح والهبات، التي تعطى للأمراء والمقربين والأدباء والعلماء الذين يفدون الى عواصم الأراتقة ويمدحون أمراءهم أو يقدمون لهم خدمات في مجال اختصاصهم[2] . ويذكر ابن بطوطة أن الشاعر محمد بن جابر الأندلسي قصد الملك الصالح صاحب ماردين ومدحه ، فمنحه هذا عشرين ألف درهم[3] . كما أنهم خصصوا الجرايات لكبار الضيوف الذين كانوا يفدون لزيارة الأراتقة ، ويشير الفارقي – في هذا الصدد – الى أن جماعة من أرباب البيوتات كانوا يقصدون حسام الدين تمرتاش من جميع البلاد ، « فيحسن اليهم ويعطيهم ويقيم عليهم الإقامة والراتب مدة مقامهم لديه »[4] . كما كانت الصدقات تشكل إحدى الأبواب الواسعة للصرف[5] .



وكانت الغرامات التي يقدمها الأراتقة لأعدائهم لإيقاف مطامعهم، والأتاوات السنوية والهدايا التي يؤدونها للدول الكبرى التي فرضت عليهم سيطرتها، تشكل المصرف المهم الثاني بعد المصاريف العسكرية مباشرة ، ففي عام (٥٩٩ هـ = ١٢٠٢ م) – مثلاً – اضطر أمير ماردين الى دفع مبلغ قدره مائة وخمسون

---

(١) وعن منشآت الأراتقة بصورة عامة من مدارس ، طرق ، جسور ... الخ .
انظر : Tamara Rice, The Seljuks, Appendix No. 111 pp. 196—209.

(٢) انظر ما يلي من الفصل .

(٣) رحلة ١/١٨٣ وانظر الفارقي ، تاريخ آمد ، ورقة ١٣٦ ب ، ابن عربشاه ، أخبار تيمور ص ٥٢ .

(٤) تاريخ آمد ، ورقة ١٣٦ ب .

(٥) ابن بطوطة ، رحلة ١/١٨٣ .

ألف دينار للعادل الأيوبي ، لقاء انسحاب قواته عن ماردين[١] . وفي عـــام (٦٠٢ هـ = ١٢٠٥ م) اضطر أمير ماردين الى دفع مبلغ قدره مائـــة ألف دينار ، لقاء انسحاب الأشرف الأيوبي عن ماردين[٢] . وفي عـــام (٦٤٩ هـ) طلب المغول من أمير ماردين تقديم مائة ألف دينـــار ، ولكن وقوف سائر أمراء المنطقة ضد طلبات المغول المشابهة ساعدهم على التخلص من تأدية هذا المبلغ[٣] . وبعد أن خضعت إمادة ماردين للتتر ، منذ أواخر العقد السادس من القرن السابع الهجري ، أصبح على أمرائها أن يدفعوا لهم أتاوة سنويـــة يتسلمها موظف مختص يأتي الى المنطقة سنوياً ليكشف عنهـا ويقدر المبلغ على أساس هذا الكشف ، وقد حاول أمير ماردين في إحدى المرات ، بالاشتراك مع بعض أمراء المنطقة ، رشوة هذا الموظف كي لا يقوم بعملية الكشف على الوجه المطلوب ، إلا أن هولاكو سمع بالأمر فقتل الموظف المذكور وخمسين من أعوانه[٤] . ويذكر المقريزي في أحداث عـــام (٧١٥ هـ = ١٣١٥ م) ، ان قراوول[٥] التتـــار كان يأتي الى ماردين ، عـــلى عادته في كل سنة لجباية

---

(١) الكامل ١٢/٧٤ ، ابن الساعي ، الجامع المختصر ٩/٩٩ - ١٠٠ ، ابن العـــبري ، مختصر ص ٣٩٣ - ٣٩٤ ، أبو الفدا ، المختصر ٣/١٠٨ ، ابن الوردي ، تتمـــة ٢/١٢٠ ، المقريزي ، السلوك ١/١/١٦١ .

(٢) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨/٥٢٦ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٦/١٨٩ .

(٣) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ٦٢ ب - ٦٤ ب .

(٤) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ٢/٢٣٦ . وانظر رشيد الدين ، جامع التواريخ ٢/٧٦ ، والصائغ ، تاريخ الموصل ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٥) القراوول (أو القراغول) جماعة من العسكر كان يناط بهم حراسة الطرق :

Ceuxqui e'taient* preposes 6 lagarde de outes:

انظر : Dozy, sup. Dic. Art. حيث يوجد مثال لاستعمال هذا اللفظ بعد تحريفه قليلاً =

القطيعة [١] ، وهم في ألفي فارس [٢] . وهكذا نجد أن الخزانة الأرتقية كانت تتحمل صرف مبالغ نقدية كبيرة ، في شتى المجالات ، مما كان يوازي مواردها الغنية .

ولم تشر المصادر – بوضوح – الى الأجهزة الإدارية والموظفين الذين يقومون بالإشراف على تنظيم الشؤون المالية للأراتقة كجباية الضرائب ، وفرض الرسوم والغرامات ، وتنظيم رواتب الجند والموظفين ، وتحديد أبواب المصاريف الأخرى . ولكن ثمة إشارات محدودة وردت عن بعض موظفي المالية كناظر الديوان ، الذي يقوم بالإشراف على الشؤون المالية للدولة[٣] ، والمستوفي الذي كان يقوم بجباية الضرائب والرسوم وضبط حساباتها ويذكر اليونيني ، في معرض حديثه عن خطط حلب ، أن المستوفين هناك كانوا يرتبطون بالنائب ويناقشونه في القضايا التي تتعلق بعملهم ، وكان كل منهم يشرف على خزانة خاصة به ، ولكل منهم معاملات معلومة ، وكانوا يلازمون أشغالهم في الحسابات[٤] ، وربما كان في هذا ما يوضح طبيعة عمل المستوفي واختصاصاته[٥] ، وكانت مهمة المستوفي ، لدى حكومة المماليك هي الإشراف

= ونصه (وعند أرباب السياسة جماعة من الضابطين في أماكن معينة للمحافظة، وربما قالوا قراقون وكراكون) : المقريزي ، السلوك ح ٢، ٣/١/٩٧٩. وهناك القراغلامية وهم جماعات الضبطية ، وعملهم مراقبة الطرق أثناء سير الجيوش : المصدر السابق ح ٣ ، ١/١/٧٥ .

(١) انظر الفصل الرابع .

(٢) المقريزي ، السلوك ١/٢/١٤٧ .

(٣) القلقشندي ، صبح الاعشى ط ٢ ، ٤/١٨٨ – ١٨٩ ، ٥/٤٦٥ .

(٤) ذيل مرآة الزمان ١/٤٢٦ – ٤٢٨ .

(٥) انظر في هذا المجال : العمري ، التعريف ص ١١٥ – ١١٦ ، النابلسي ، لمع القوانين ص ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٥٩ ، ٦٢ – ٦٣ ، ٦٩ ، القلقشندي، صبح الاعشى ط ٢ ، ٤/٣٠ ، ١١/٣٥٥ – ٣٦١ ، النويري، نهاية الإرب ٨/٣٠١ – ٣٠٣ ، ابن مماتي، قوانين ص ٣٠١ .

على الديوان التابع له ، والسهر على تنفيــذ القوانين التي تكفل ضبط أموره وزيادة موارده[١] ، كما كان يقوم باستيفاء الحسابات[٢] . وهـذا يرجح أنه كان للأراتقة ، أسوة بغيرهم ، عدد من المستوفين يشرف كل منهم على شعبة مالية أو ديوان خاص به يرتبط في النهاية بالناظر . وكانت وظيفتا الاستيفـاء ونظر الديوان مرتبطتان ببعضها لدى الأراتقـة ، مما يشير الى أن ناظر الديوان كان يلعب دوراً خطيراً في القضايا المالية[٣] . ومن الجدير بالذكر أن ديوان النظر ، لدى حكومة المماليك ، كان أشبه بوزارة المالية اليوم ، حيث ترجع اليه سائر الدواوين في كل ما يتعلق بالمسائل الخاصة بالمتحصل والمتصرف من أموال الدولة، ولهذا الديوان الإشراف على حسابات الدولة وعلى أرزاق ومرتبـات الموظفين الدائمين والوقتيين والتي كانت تدفع عيناً وغلة معاً[٤] ، ويشرف على هـذا الديوان ناظر المال ويسمى أيضاً ناظر النظار وناظر الدواوين ، ويساعده عدد من الموظفين يدعون (المستوفون)[٥] . وكان لدى الأراتقة موظف آخـر يدعى كاتب عرصة الغلة[٦] ، ويظهـر أن مهمته هي تنظيم جبايـة وحفظ الضرائب العينية المفروضة على الغلال .

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى ٤٦٦/٥ .

(٢) ابن مماتي ، قوانين ص ٧ . وانظر العمري ، التعريف ص ١٤٩ ، علي حسن، المماليك البحرية ص ٢٥٥ — ٢٥٧ .

(٣) انظر ما سلف من صفحات هذا الفصل .

(٤) المقريزي ، خطط ٢٢٤/٢ .

(٥) المصدر السابق ، نفس الصفحة ، القلقشندي، صبح الأعشى ١٩/٤ — ٣٠، الخالدي ، المقصد الرفيع ص ١٣٥ . وانظر علي حسن ، المماليك البحرية ص ٢٥٥ — ٢٥٧ وهوامشها .

(٦) ابن الفرات ١٨٦/٨ .

الحياة الاجتماعية :

واذا ما انتقلنا الى الحياة الاجتماعية في ديار بكر في عهد الأراتقة ، فإن أول ما يجب أن نلاحظه هو التنوع في الأقوام والأديان التي سادت المنطقة ، وأهم تلك الأقوام التركمان والعرب والأكراد[١] . ويعود تجمع هذه الأقوام الثلاث واستقرارها في المنطقة إلى الظروف التاريخية والاقتصادية لديار بكر ، حيث إنها كانت في بادىء الأمر مسرحاً لاستقرار القبائل العربية[٢] ، ثم خضعت في الربع الأخير من القرن الرابع الهجري لإمارة بني مروان الكردية ، وما لبث الأتراك السلاجقة أن اكتسحوا المنطقة في عهد ملكشاه (٤٦٥ — ٤٨٥ هـ = ١٠٧٢ — ١٠٩٢ م) ، واتخذوها مجالاً للنشاطات المختلفة السياسية والعسكرية والاقتصادية .

ويشير استمرار الطابع العربي لقطاعات واسعة من حضارة الأراتقة[٣] .

---

(١) الكامل ١٠/٢٤٤ ، ١١/٢١١ ، ١٢/٧٤ ، ١٩٦ ، الفارقي ، تاريخ آمد ص ٢٤٩ — ٢٦٣ ، ابن شداد ، سيرة ص ٤٦ ، ٤٧ ، ابن العبري ، مختصر ص ٤٣١ — ٤٣٢ ، ٤٦٦ ، ابو الفدا ، المختصر ٣/١٠٨ ، ابن الوردي ، تتمة ٢/١٢٠ ، ابن خلدون ٥/٣٢٨ ، ٤٢٥ — ٤٢٦ ، ٤٦٦ — ٤٦٧ ، ٥٨٣ ، العماد الأصفهاني، الخريدة ٢/٥٤٨، القلقشندي، صبح الأعشى ط ٢ ، ٤/٢٣٢ ، البدليسي ، شرف نامة ص ١٧٤ — ١٧٥ ، الغزي ، تاريخ حلب ١/٥٦٤ ، برصوم ، دير الزعفران ص ٦٣ — ٦٤ ، العريني ، الحروب الصليبية ١/٢٢ — ٢٣ ، ٣٠ — ٣١ ،

Enc. Isl. art. Artukids, New ed.

Gibb, Damascus P. 23, cahen, La Syrie du Nord pp. 190—191.

(٢) الاصطخري ، مسالك ص ٧٧ ، ابن حوقل ، صورة الأرض ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ياقوت ، معجم البلدان ٢/٦٣٧ ، البشاري ، أحسن التقاسيم ص ١٤٥ — ١٤٦ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ط ٢ ، ٤/٢٣٢ .

Gibb, The Caliphate. P. 89, Damascus chron. P. 22.

(٣) Enc. Isl. art. Artukids, New ed.

وقيام بعض الأسر العربية العريقة بتسلم مناصب هامة ، الى مدى ما كان يتمتع به العرب في المنطقة من نفوذ . ويشير كاهين الى أن منطقة ديار بكر كانت تشكل ، فيما عدا خرتبرت ، المتطرفة باتجاه الشمال ، جزءاً من العالم الإسلامي منذ الفتح العربي ، وأن المناطق التي حكمها الأراتقة استمرت تحكم من قبل نفس السكان ، ويضرب مثلاً على ذلك عائلة (بنو نباتة) التي تولت الحكم في ميافارقين فترة طويلة[١] ، ويشير العماد الأصفهاني الى عائلة عربية أخرى وهي (بنو الكميت) الذين كان لهم في أطراف إرزن من ديار بكر « الفضل والرئاسة والمضيف للمسافرين من سائر الجهات » وأنجبوا عدداً من الشعراء[٢] ، فضلاً عن أن الشعر العربي لقي رواجاً واسعاً لدى الأراتقة[٣] ، فبالإضافة الى أن ديار بكر أنجبت عدداً من الشعراء غدا بلاط الأراتقة قبلة لكبار الشعراء المعاصرين في العالم الإسلامي مثل صفي الدين الحلي واسامة بن منقذ . وقد استمرت التقاليد الأدبية العربية على حيويتها البارزة بين سكان المنطقة ، حتى أواخر عهد الأراتقة ، حيث كانت تعقد الندوات الأدبية وتمنح الجوائز للشعراء الأكثر بلاغة[٤] . ولم يقتصر نفوذ العرب في المنطقة على القضاء والأدب ، والحفاظ على تقاليد الضيافة والكرم فحسب ، وإنما ساهموا كذلك في الحرب والقتال[٥] .

---

(١) Enc. Isl. art. Artukids, New ed.

(٢) الخريدة ، قسم الشام ٢/٥٤٨ .

(٣) ابن بطوطة ، رحلة ١/١٨٢ – ١٨٣ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ١/٩٢ – ٩٥ ، ٤١٢ – ٤١٣ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ٢/٣٧٩ – ٣٨١ . الكتبي ، فوات الوفيات ٢/١٩٣ ، إنسان العيون (لمجهول) ص ١٦٩ ، ابن عربشاه ، أخبار تيمور ص ٥٢ .
Enc. Isl. art. Artukids, New ed.

(٤) أنظر ما يلي من الفصل .

(٥) ابن العبري ، مختصر ص ٤٦٦ .

ولما كانت ديار بكر تتاخم في جهاتها الشمالية والشمالية الشرقية والشرقية مناطق كردية واسعة ، فقد فتح، هذا، المجال أمام هؤلاء للتدفق على المنطقة ، وازدياد نسبة السكان الأكراد فيها بمرور الزمن[١] . وقد توج النفوذ الكردي في المنطقة بقيام الإمــــارة الكردية المروانية ، التي حكمت طيلة ما يقرب من القرن (٣٨٠ - ٤٧٨ هـ = ٩٩٠ - ١٠٨٥ م) . وأتاحت للأكراد في ديار بكر مجالات واسعـــة للتمكن في شتى النواحي السياسية والاجتماعيـــة والإدارية والعسكرية[٢] . واستمر الأكراد يلعبون دوراً مهماً في المجالات العسكرية[٣] والاجتماعية والإدارية[٤] ، فضلاً عن نشاطهم في الزراعة وتفوقهم على جيرانهم العرب في هذا المجال[٥] ، حتى بعد سقوط إمارتهم وخضوع ديار بكر للأتراك والسلاجقة .

وقد بدأ هؤلاء يتدفقون على المنطقة منذ منتصف القرن الخامس الهجري ، واستقر قسم كبير منهم في ديار بكر ، كما استقدم مؤسسو الإمارات الأرتقية معهم عدداً كبيراً من مقاتلي التركمان[٦] ، الذين حاربوا تحت قيـــادة الأراتقة

(١) انظر أمين زكي ، تاريخ الكرد ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .
(٢) للاطلاع على قيام تلك الإمارة ، وفعالياتها المختلفة بتفصيل انظر :
القسم المنشور من كتاب تاريخ آمد وميافارقين لابن الازرق الفارقي .
(٣) ابن العبري ، مختصر ص ٤٣١ ، ٤٦٦ ، ابن خلدون ٥ / ٤٦٦ - ٤٦٧ ، رشيد الدين ، جامع التواريخ ص ٣٢٤ - ٣٢٥ ،
Cahen, La Syrie du Nord P. 190.
(٤) الفارقي ، تاريخ آمد ص ٢٤٩ ـــ ٢٦٣ ، الكامل ٢١١/١١ ، ابن شداد ، سيرة ص ٤٦ ، ٤٧ ، ابن خلدون ٥٨٣/٥ .
(٥) أمين زكي ، تاريخ الكرد ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .
(٦) Cahen, La Syrie du Nord P. 190, Gibb, Damascus, P. 23,
وانظر العيني ، الروض الزاهر ص ٤ .

وكانوا يكنون الطاعة المطلقة لهم ، فعوّل هؤلاء عليهم في تحقيق أهدافهم التوسعية في ديار بكر . وكان الأراتقة ينتمون الى قبيلة تركانية غزية هي قبيلة الدقر Doger [1] ، التي لعبت دوراً هاماً في غزوات السلاجقة ، والتي استقر أهم فرع منها في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري جنوبي الرها وحول قلعة جعبر على الفرات ، وكان زعيم هؤلاء في حدود عام (٧٧٣ هـ = ١٣٧١ م). يدعى سالم الدوقري ، الذي لعب دوراً في الأحداث التي وقعت شمالي بلاد الشام ، وتوفي في نهاية القرن وترك ثلاثة أبناء خدموا المماليك في جهات الفرات، واستفادوا من الفوضى التي أحدثها تيمورلنك في المنطقة ، واستولوا على بعض المواقع مثل سروج وحران والرقة ... وقد ساعدوا قبيلة القراقوينلو (الخروف الأسود) وزعيمهم قره يوسف في غزواته[2] . ومن الواضح إذاً أن الأراتقة ، باستقرارهم في ديار بكر وتأسيسهم إماراتهم هناك ، أصبحوا يمثلون الجناح المتحضر من قبيلة الدقر ، ذلك الجناح الذي اكتسب ، بتفتحه على التيارات الحضرية والبشرية ، مميزات جديدة أفقدته طابعه الأصلي ، بينما مثّل أتباعُ سالم الجناح البدوي الذي حافظ على مميزاته الأصيلة .

ويشير كاهين الى ان ديار بكر كانت إحدى نقاط البدء الكبيرة للهجرة التركانية الواسعة التي احتضنت في الفترة بين (١١٨٥ – ١١٩٠ م = ٥٨١ – ٥٨٦ هـ) معظم من كان في أواسط آسيا أو شرقيها[3] ، ومع ذلك فإن

---

(١) انظر F. Su mer, Oguzlarait destani mahiyette eserler, in Ank, un, DTCFD 405n. 171.

(٢) Enc. Isl. art. Diyarbaker, New ed. by: M. canard and c. cahen.

(٣) Enc. Isl. art. Artukids, New ed.

وانظر عن الترك : أصلهم ، حضارتهم ، هجرتهم : الرمزي ، وقائع قزان ٤٦/١ فما بعد ، المروزي ، الصين (مخطوطة) ص ١٧ – ٢٦ ، الغزي ، تاريخ حلب ١١٧/٣ – ٢٥١ ، بارتولد ، الترك في آسيا الوسطى .

التركمان لم يشكلوا الأغلبية الساحقة في الجهات التي استقروا فيها[١] . وتركز نفوذهم في الجهات الوسطى والجنوبية من ديار بكر ، بينما بقيت الجهات الشمالية تحت سيطرة أغلبية من الأكراد بشكل دائم[٢] . وقد بقي التركمان حتى النهاية عنصراً مهماً في نواحي الحياة المختلفة في ديار بكر[٣] . ومن جهة أخرى ، كان تدفقهم على المنطقة عاملاً من عوامل الاضطراب والقلق السياسي بما اشتهروا به من فروسية ورغبة في المخاطرات ، وزاد من ذلك ما اشتهر به قادتهم من الطيش والتهور والمطامع السياسية[٤] وقد أدى قيام الإمارات الأرتقية الى الحد من هذا الاضطراب ، إلا أنه لم يستطع إيقافه عند حده ، فضلاً عن أن توجيه الطاقات التركمانية الحربية ضد الأعداء والمنافسين خارج ديار بكر وبخاصة الصليبيين[٥] والبيزنطيين[٦] ، لعب دوراً كبيراً في تخليص ديار بكر من التعرض لكثير من الأعمال الحربية والتخريبية على يد مقاتلي التركمان ، لتحقيق أطماعهم وتطمين حاجاتهم المعاشية .

وقد أدى خضوع جهات واسعة من شمالي ديار بكر للأكراد الأيوبيين في أواخر القرن السادس الهجري والنصف الأول من القرن السابع ، الى تزايد

---

(١) Cahen, La Syrie dn Nord, P. 190.

(٢) Enc. Isl. art. Artukids, New ed.

(٣) Ibid.

(٤) العريني ، الحروب الصليبية ٢٢/١ ،

Gibb, Damascus chron. P. 23.

(٥) الكامل ٢٤٤/١٠ ، ابن خلدون ٣٢٨/٥ ، ٤٢٥ – ٤٢٦ وانظر فصل الأراتقة والصليبيون .

(٦) Cahen, Turkish Invations, 1 P. 147,

Churanis: The Byzantine Empire, P. 191.

عدد الأكراد في المنطقة[١] . وقد كان لتوزيع السكان في ديار بكر وتركز الأكراد في الشمال أثر في تمكن الأيوبيين من السيطرة على تلك الجهات ، بينما بقيت الجهات الجنوبية ، التي قام أهاليها بمساندة حكامهم الأراتقة ، بقيت بعيدة عن نفوذ الأيوبيين،بالرغم من وجود عدد كبير من الأتراك في قواتهم[٢]. وبالرغم من ذلك فإن الأراتقة لم يتبعوا سياسة ظالمة تجاه رعاياهم من الأكراد ، وبالرغم من أن علاقاتهم مع بقايا الإمارات المروانية (الكردية) لم تكن طيبة. ولكن هذه المعاملة لم تمنع الأراتقة من ابتلاع الولايات الكردية ذات الاستقلال الذاتي في المنطقة[٣] .

وقد أدى وجود التركمان والأكراد ، جنباً الى جنب في ديار بكر ، الى حدوث عدد من الفتن والحروب الأهلية بين الطرفين ، كتلك التي حدثت عام (٥٧٦ هـ = ١١٨٠ م) ، حيث تذابح الأكراد والتركمان في الجهات الشمالية من ديار بكر[٤]، وقامت فتنة أخرى عام (٥٨١ هـ = ١١٨٥م)، وشملت مناطق واسعة من الجزيرة والشام وشمالي العراق والأناضول ، ودامت عدة سنين « قتل فيها من الخلق ما لا يحصى ، وتقطعت الطرق ونهبت الأموال وأريقت الدماء[٥] » ... وشهدت نصيبين في تلك السنة مصادمات كثيرة بين الترك

---

(١) يشير البدليسي (شرفنامة ص ١٧٤) الى ان عدد القبائل الكردية الكبيرة التي قطنت حصن كيفا – على سبيل المثال – بلغت ثلاثة عشر ، ويورد أسماءها .

(٢) Enc. weN Isl. art. Artukids, ed.

(٣) Ibid.

(٤) Ibid.

(٥) الكامل ٢١١/١١ ، ابن خلدون ٥٨٣/٥ وانظر :
Enc. Isl. art. Artukids, New ed.

والأكراد ، وعدد كبير من القتلى من الفئتين[١] . وقد أسهم تركمان ديار بكر – أحياناً – في عرقلة أعمـــال الأيوبيين العسكرية في المنطقة[٢] . كما كانت الفتن تثار أحياناً من جانب واحد ، وذلك عندما كان الأكراد يقومون بغاراتهـم المستمرة للنهب والسلب[٣] .

وقد استفاد بعض قادة التركمان من العداء بين الأتراك والأكراد ، فاستمال الأكراد لتحقيق أطماعه السياسية[٤] . وبصورة عامة ، كان للحروب الأهلية في ديار بكر أثر في هجرة بعض تركمان المنطقة الى جهات أخرى[٥] ، كما أنهـا أوضحت أن كلاً من الأتراك والأكراد في ديـــار بكر كانا يشكلان قوتين متكافئتين لم تكن لأيّ منهما إمكانية القضاء الحاسم على الأخـــرى ، حتى إن أمراء الأراتقة وهم من التركمان ، لم يستطيعوا وقف تلك المذابح ، وإيقـــاف الأكراد عند حدهم[٦] . ولم يكن للعرب في المنطقة دور يذكر في تلك الحروب الأهلية بسبب ضعف إمكانياتهم البشرية والحربية بالنسبة للتركمان والأكراد من جهة ، وانشغالهم بالأمور الإدارية والأدبية والمعاشية ، وتجمعهـم في المدن وعدم اهتمامهم بالحرب والقتال من جهة أخرى .



---

(١) ابن شداد ، سيرة ص ٤٦ ، ٤٧ وانظر ما سلف للاطلاع على استعراض لأهم الفـتن في المنطقة .

(٢) الكامل ٧٤/١٢ ، أبو الفدا ، المختصر ١٠٨/٣ ، ابن الوردي ، تتمة ١٢٠/٢ .

(٣) ابن خلدون ٤٦٦/٥ – ٤٦٧ .

(٤) ابن خلدون ٤٦٦/٥ – ٤٦٧ .

(٥) Enc. Isl. art. Artukids, New ed.

(٦) Ibid.

وما يقال عن العناصر التي قطنت ديار بكر في عهد الأراتقة ، يقـــال عن الأديان والمذاهب التي انتشرت هناك . فقـــد شهدت المنطقة في هذه الفترة انتشار عدد كبير من الأديان والمذاهب ، وكان المسلمون والمسيحيون على رأس معتنقيها ، ولم يرد ما يشير الى وجود عدد يذكر من اليهود ، ففي الإحصائية التي قدمها بنيامين التطيلي اليهودي لدى رحلته الى المنطقة عـــام (٥٦١ – ٥٦٩ هـ = ١١٦٥ – ١١٧٣ م)، إشارة الى أن اليهود تمركزوا في موقعين فقط من ديار بكر ، ففي نصيبين كان يقطن ألفا يهودي تقريباً وفي رأس عين مائتان فقط[١] ، كما كان لهم في ميافارقين محلة تعرف بزقـــاق اليهود وكنيسة خاصة بهم[٢] . ولم يكن في المنطقة مجوس ، وكان هنالك جماعة من الصابئين تمركزوا في الرها وحران[٣] .

أما المسيحيون فكانوا ينتمون الى طوائف عديدة ، كالنساطرة والسريان والرهبان الجرجان واليونانيين الروم والملكانيين ، الذين انتشرت بينهم اللغـة العربية لأنهم لم يكونوا من العنصر اليوناني بل من السوريين الهلنيين ، وهنالك الأرمن الجرجان واليماقبة، وكان لهؤلاء الأخيرين عدد من الأساقفة في المواضع التي تمركزوا فيها من ديار بكر كماردين والرها وسروج وطورعبدين ، وكان اليعاقبة يشكلون أعداداً كبيرة في الجزيرة بصفة عامة ، ويعدون أكبر طائفة مسيحية في ديار بكر بشكل خاص . وهنالك – فضلاً عما سبق – المارونيون الذين بقوا على استعمالهم للغة السريانية ، والأرمن الكاثوليك الذين أقاموا لهم

---

(١) رحلة التطيلي ص ١٢٥ .

(٢) ياقوت ٤/٧٠٣ – ٧٠٧ ، لسترنج ص ١٤٤ .

(٣) البشاري ، أحسن التقاسيم ص ١٤٢ ، الغزي ، تاريخ حلب ١/١٨٨ .

كنائس في جهات متفرقة من ديار بكر كإرزن وحرزم والرها وخرتبرت[1] . وبصورة عامة كان عدد المسيحيين في المنطقة كبيراً[2] .

كانت بعض المواقع والقرى العامـرة في ديار بكر خاصة ببعض الطوائف المسيحية ، كجبل جور الذي كان يقطنه نصارى أرمن ، وكان يرتبط به عدد من القلاع المجاورة[3] ، وكقريتي العقاب والجسر القريبتين من دنيسر[4] . وكان جل أهالي طور عبدين من اليعاقبة[5] . كما ازدادت كثافة المسيحيين في بعض المراكز مثل إرزن التي كان يقطنها اثنـا عشر ألف مسيحي من الأرمن[6] ، وحرزم القريبة من ماردين والتي كان الأرمن يشكلون أغلبيتها الساحقة[7] ، كما كان المسيحيون يشكلون أغلب سكان الرها[8] ، وجزءاً كبيراً من سكان

---

(١) ابن جبير ص ٢٢٠ – ٢٢١ ،

Cahen, la Syrie du Nord, pp. 191—192.

ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ٦٥ ب ،

Gibb, Damascus chronicle, P. 23.

و ٩٥ آ ، ابن الفرات ، تاريخ (مخطوطة ٣/٦٤)،

Encyclopeadia of,

Islam, D'ohsson, Hist. des Mongols, 11/356, 2 ed.

سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨/٦٧٠ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمـان ٣/١٨٦ – ١٨٧ ، الفارقي ، القسم المنشور ص ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، لسترنج ، بلدان ص ١٢٤ ، وانظر كتاب برصوم : تاريخ دير الزعفران وأبرشية ماردين .

(٢) ابن الوردي ، خريدة العجائب ص ٢٦ .

(٣) ياقوت ٢/٢٠ .

(٤) ابن جبير ص ٢٢٠ – ١٢١ . وانظر سبط بن الجوزي ، مرآة الزمـان ٨/٦٧٠.

(٥) لسترنج ، بلدان ص ١٢٤ ،

Encyclopeadia of Islam.

(٦) البدليسي ، شرف نامة ص ١٧٤ . وانظر ياقوت ١/٢٠٥ – ٢٠٦ .

(٧) ياقوت ٢/٢٣٩ .

(٨) لسترنج ص ١٣٥ .

خرتبرت ، وفي ماردين نفسها كان يسكن عدد كبير من المسيحيين[١] .

لذا انتشرت مراكز العبــادة المسيحية كالأديرة والكنائس والصوامع في مختلف أنحاء ديار بكر، وكانت تقام أحياناً في أماكن وعرة وتحاط « بحصون مانعة »[٢] ، كما كانت لهم أديرة أخرى داخل المدن الشهيرة ، فكان في مدينة الرها وحدها حوالي ثلاثمائة كنيسة[٣]، وكانت منطقة حصن كيفا تضم كنائس عديدة[٤] ، وفي قلعة الإمراة بين ماردين ودير الزعفران كانت تقبع كنــائس كثيرة ظهر منها جماعــة من رؤساء الكهنة[٥] . وكان في جبــل نصيبين عدد كبير من الأديرة والصوامع[٦] وفي اسعرت كان يقبع دير احويشا وهو كبير جداً فيه أربعمائة راهب وحوله البساتين والكروم[٧] ، وكان في آمد ثمه كنيسة عظيمــة جميلة[٨] ، وفي ميافارقين بيعة تعود الى عهد المسيح - كما يذكــر المسيحيون - وأحد المزارات المقدسة لديهم[٩] .

---

(١) قاموس الأمكنة والبقاع ص ١٧٨ .

(٢) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ٦٥ ب ، العمري ، مسالك الأبصار جـ ١ ص ٣٠٥ ، ٣١٠ ، ياقوت ٢/٦٩٧ ، البشاري ، أحسن التقاسيم ص ١٤٦ .

(٣) ابن الوردي ، خريدة ص ٢٦ ، ابن شيخ الربوة ، نخبة الدهر ص ١٩١ ، أبو الفدا ، تقويم ص ٢٧٧ ، ابن الفقيه ، البلدان ص ١٣٤ ، القرماني ص ٤٥١ .

(٤) البشاري ص ١٤١ .

(٥) برصوم ، دير الزعفران ، هــامش رقم ١ ص ١٣ - ١٤ عن ابن العبري ، تاريخ الدول السرياني ص ٣٠٨ . وانظر ما يلي من الفصل .

(٦) ياقوت ٢/٦٦٣ ، الاصطخري ، مسالك ص ٧٢ - ٧٣ .

(٧) ياقوت ٢/٦٤١ - ٦٤٢ .

(٨) استرنج ، بلدان ص ١٤١ - ١٤٢ .

(٩) المصدر السابق ص ١٤٤ ، ياقوت ٤/٧٠٣ - ٧٠٧ ، القرماني، تاريخ ص ٤٨٧ .=

وكان أهالي ديار بكر قد اتخذوا بعض تلك الأديرة متنزهات لهم، يقضون في حدائقها وبساتينها أوقات فراغهم ويجتمعون فيها خلال أعيادهم. ويذكر ياقوت أن دير الزعفران «كان ديراً نزِهاً لأهل اللهو فيه مشاهد»[1]، وأن لدير مار توما القريب من ميافارقين «عيد يجتمع الناس خلاله اليه وهو مقصود لذلك، وتنذر له النذور وتحمل له من كل موضع ويقصده أهل البطالة والخلاعة»[2].

وقد أسهم مسيحيو ديار بكر الى حد كبير في النشاط الاقتصادي للمنطقة ولا سيما الزراعة وغدت قراهم من أهم المراكز الزراعية هناك، ويصف ابن جبير بعضها فيقول بأنها ذكرته «بقرى الأندلس حسناً ونضارة، وكانت تحفها البساتين والكروم وأنواع الأشجار» وكانت أراضيها واسعة قد انتظمتها البساتين[3]. ويصف العمري بعض أديرتهم بأنها كانت محاطة بجنات، فدير الزعفران المطل على نصيبين «فيه جنات حسنة نضرة مملوءة بشجر البندق والفستق... إلخ[4]»، وكانت تحيط بدير عمر احويشا المطل على إرزن «بساتين وكروم وهو في نهاية العمارة والنزهة وحسن الموقع وكثرة الفواكه والخمر[5]»

=وانظر، حول الأديرة الأخرى في المنطقة برصوم، تاريخ دير الزعفران، حيث يشير الى أسماء ما يزيد على الخمسة وعشرين ديراً وعدد من الأبرشيات والكنائس والبيع، البكري، معجم ما استعجم ٢/٥٧٥ - ٥٧٧. وانظر ما يلي من الفصل.

(١) ياقوت ٢/٦٦٣.

(٢) المصدر السابق ٢/٦٩٧، القزويني، آثار ص ٣٧٢.

(٣) رحلة ابن جبير ص ٢٢١.

(٤) مسالك ص ٣٠٥.

(٥) المصدر السابق ص ٣١٠، ياقوت ٢/٦٤١ - ٦٤٢ وانظر: برصوم، دير الزعفران ص ٦٨، ١٤٩ - ١٥١.

وقد بذل رهبان الأديرة جهوداً كبيرة للإرواء فأنشؤوا الصهاريج التي يجتمع فيها ماء المطر ونقروها في الصخور [1] كما أقاموا الأرحـــاء عند بعض المصادر المائية [2] . وقد أدى هـــذا النشاط الى ازدياد ثروة المسيحيين وإمكانياتهم المالية[3] بسبب ما كانوا يتاجرون به من منتجاتهم ، فكانوا يحملون الخمر الجيد الى البلدان[4] ، ويذكر العمري أن أكثر غنى رهبـــان دير الزعفران ، هـو بسبب تجارتهم بنبات الزعفران ذي الشعر الفائق ، وكذلك العسل[5] . كما اهتم النصارى ببعض الصناعات المحليـــة ، ففي حرزم اشتهروا بنسيج الفرانـــد الحرزمية[6] . ويشير كاهين الى أن من أسباب تشابه العملة الأرتقيـــة بالعملة البيزنطية هو النفوذ المسيحي في المناطق التي حكمها الأراتقة[7] .

وقد عامل الأراتقة رعاياهم من المسيحيين معاملة طيبة وتسامحوا معهـــم ، بالرغم من أنهـم لم يستطيعوا اتخاذ أي إجراء ضد مـا لحقهم من أضرار ، من جراء الفتن والقلاقل التي كان الأكراد يقومون بها ولا سيما في النصف الثاني من القرن السادس الهجري[8] . وهنالك إشارات عديدة الى ما كان يتمتع به بعض رجالات المسيحيين من مكانـــة لدى الأراتقة منهم الحسن بن خالد بن محضر

---

(١) العمري ، مسالك ص ٣٠٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٣١٠ .

(٣) الفارقي ، القسم المنشور ص ٢٢٠ – ٢٢٢ ، ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ٩٥ آ .

(٤) العمري ، مسالك ص ٣١٠ ، ياقوت ٢/٦٤١ – ٦٤٢ .

(٥) العمري ص ٣٠٥ ، ياقوت ٢/٦٦٣ ، برصوم ، دير الزعفران ص ٤٣ .

(٦) ياقوت ٢/٢٣٩ .

(٧) Encyclopeadia of Islam.

(٨) Ibid.

النصراني الماريني الملقب بالوحيد ، وكان قد واظب على الاشتغال بالعلم في أول شبابه ، وأتقن علم الأوائل وبرز فيه ، كما نظم الشعر ، وكان بينه وبين قطب الدين إيلغازي بن أرتق ، أمير ماردين ، صحبة في عهد الطفولة فكان إيلغازي يعاتبه على الانقطاع عنه ويندبه لخدمته الى أن استجاب لدعوته وسرعان ما تقدم عنده « وصارت له المنزلة الرفيعة والاحترام والتقدم » . وسافر الى بغداد ثم عاد الى ماردين حيث توفي عام (٦٠٠ هـ = ١٢٠٣ م)[١] . كما قام الأراتقة بتولية بعض المسيحيين كبرى المناصب ، فكان وزير صاحب رأس عين نصرانياً من آل عبدون[٢] . كما أنهم منحوا الاستقلال الذاتي لبعض المناطق المسيحية في إماراتهم[٣] .

وبالرغم من هذه المكانة التي حظي بها المسيحيون في ديار بكر ، والتسامح الذي عوملوا به من قبل الأراتقة إلا أنهم لم يكفوا عن تدبير الدسائس ضد الأراتقة بالاشتراك مع ملوك أرمينية من الأرمن ، ولذا وقع هؤلاء المسيحيون فريسة لأعمالهم ، وهكذا نجد أن العقاب الذي أنزل بهم كان ذا طابع سياسي وليس بدافع التعصب الديني[٤]. وقد لعب المسيحيون في ماردين دوراً خطيراً في سقوط هذه المدينة الحصينة بأيدي التتر عام (٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م)[٥] ، ولذا

---

(١) ابن الساعي ، المختصر ٩/١٤١ - ١٤٢ ، ابن كثير ، البداية ١٣/٤٠ .

(٢) برصوم ، دير الزعفران ص ٥٦ - ٥٧ .

(٣) Enc. Isl. art. Artukids, by cahen (New ed).

(٤) Ibid.

(٥) لدى هجوم التتر على ماردين اتخذوا من الكنائس مراكز للاحتماء قبل أن تعلن المدينة استسلامها وذلك « لباطن كان لأصحاب هذه الكنائس مع التتر » كما ذكر ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٣٧ آ - ب) .

فإن التتر ، عندما أخضعوا ديار بكر لحمايتهم ، عاملوا المسيحيين معاملة طيبة وإن كان بعض أخلافهم قد أساؤوا - أحيانـاً - تلك المعاملة[1] . كما أن المسيحيين تعرضوا ، خلال الفترات المتأخرة من حكم الأراتقة ، لهجمات عديدة كانت تقوم بها عصابات من شمالي الشام بتوجيه من المماليك مما كان يؤدي الى مقتل وأسر عدد من نصارى المنطقة ، فضلاً عن تخريب مزارعهم[2] . وقد دمرت حروب تيمورلنك في ديار بكر عدداً كبيراً من الأديرة ولم ينج من غائلتها أكبر الأديرة كدير الزعفران القريب من ماردين وغيره[3] .

استطاعت المسيحية في ديار بكر أن تحافظ على نشاطها طيلة الحكم الأرتقي، بفضل ما أقامته من تنظيمات دينية كنيسية أتاح لها الأراتقة حرية واسعة ولا سيا طائفة اليعاقبة التي غدت لها بتريار كية في المنطقة وعدداً كبيراً من كبار الأساقفة . وكانت ماردين قد غدت منذ أواسط القرن السادس الهجري من أول الأبرشيات ، وديرها من أجل الأديار بفضل الإصلاحـات الكنسية التي قام بها مار يوحنا الذي عينه البطريرك اثناسيوس السادس مطراناً على ماردين لمـا يتمتع به من فضل ولياقة وذلك سنة (١١٢٥ م = ٥١٩ هـ) ، ومن ثم انهمك بالبحث ومطالعة الكتب الدينية والعلمية وبخاصة الهندسة والمساحـة وذاع صيته في تحويل مياه العيون والأنهار. وسرعان ما نال الحظوة لدى أمراء المنطقة وحصل على ثروة طائلة أنفقها في الإصلاح الكنسي ، فقام بإنشاء وترميم عدد من الأديار والكنائس الخربة ، وأقام لها الكهان والرهبان كما سعى لبناء

---

(١) Enc. Isl., art : Artukids.

(٢) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ١٨٦/٣ - ١٨٧.

(٣) برصوم ، دير الزعفران ص ٤١ ، ٧٧ - ٧٨ (عن مخطوطات دير مار مرقس عدد ٢٣٢) .

المعاهد الدينية والمكتبات وزودها بالكتب الدينية واللاهوتية المختلفة وأوقف لها الأوقاف . وعندما اطلع على ما لحق بالقوانين الكنسية من إهمال منذ عهد بعيد ، أبدى همة كبيرة وجمع في ديره مجمعاً برئاسة إغناطيوس الثاني مفريان المشرق حيث قام الآباء بسن أربعين قانوناً عـام (١١٥٣ م = ٥٤٨ هـ) . وقد ضمت أبرشية يوحنا كلاً من ماردين ودارا والخابور وكفرتوثا وبعض المواقـع المجاورة الاخرى ، وقد رسم لها سبعمائة من القسس والشمامسة وتوفي يوحنا عام (١١٦٥ م = ٥٦١ هـ) بعد أن جعـل من دير الزعفران القريب من ماردين أهلاً لأن يكون كرسي البطركة[١] .

وعند ذلك أشار بعضهم على إثناسيوس السابع أن يتخذ ماردين كرسياً لبطريركيته بدلاً من أنطاكية ، فوافق على ذلك ولكنه توفي في العام التالي ، فتم ذلك على يد خليفته ميخائيل الاول الذي انتقـل الى ماردين حيث احتفل بجلوسه على الكرسي البطريركي ، وخطب ابن الصليبي العلامـة خطبة بليغـة بالسريانية[٢] وكان ذلك يومـاً مشهوداً من أهم الايام التاريخية التي شهدتهـا المنظمات الكنسية في المنطقة. ولكن ميخائيل لم يتخذ من ماردين مقراً دائماً له واكتفى بالتردد اليها في السنوات (١١٧٠ م = ٥٦٦ هـ ، ١١٧٢ م = ٥٦٨ هـ ، ١١٧٤ م = ٥٧٠ هـ ، ١١٨٥ م = ٥٨١ هـ) وكان يستثقل أعباء هذه الابرشية فأقام فيها نائباً عنه أخاه المطران صليبا ، ثم رسم لها المطران يوحنا موريانا ، ثم عهد بها الى ابن أخيه المفريان غريغوريوس . وبعد وفاة ميخائيل عين ابن أخيه بطريركاً دخيلاً سنة (١٢٠٠ م = ٥٩٧ هـ) وقد استمر هـذا ، والبطاركة

---

(١) برصوم ، دير الزعفران ص ٥٣ – ٥٦ ، ٥٨ ، ٦٠ – ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ – ٦٨ ، ٧٠ – ٧٧ .

(٢) نشرها الأب شابو ونقلها الى الفرنسية : باريس سنة ١٩٠٠ م.

الذين أعقبوه ، على اتباع سياسة سلفهم في التنقل بين ماردين وملطية وسيس وضواحيها ، وقد بقي بعضهم في ماردين مدة لا بأس بها ، كإثناسيوس الثامن الذي أقام فيها مدة سنتين ، ويوحنـــا بن المعدني ، وبعضهم الآخـــر اكتفى بالزيارات العابرة كيوحنـــا الثاني عشر وإغناطيوس الرابع ، وكانت ماردين تدار في فترات تغيب هؤلاء من قبل الكرسي الاسقفي . واستمر الوضع على هذا النظام حتى كان عام (١٢٩٢ م = ٦٩٢ هـ) ، حيث توفي البطريرك فلكسين نمرود وأعقب وفاته انشقاق كنسي حيث جلس ثلاثة بطاركة وهم ميخائيل في سيس وقسطنطين في ملطيـة وإغناطيوس بن وهيب في ماردين ، وكان جلوس هذا في غرة كانون الثاني عام (١٢٩٣ م = ٦٩٣ هـ) ، ومن ثم أصبحت ماردين كرسياً بطريركياً فعلياً لا سيا بعد أن قام مفريان المشرق بالخطبة لبطريركها سالف الذكر ، وعين خلفـه متى الاول . ومن ثم استمرت ماردين مقـــراً بطريركياً طيلة عهد الاراتقة مما كان له أثره الفعال في نشاط المسيحية في المنطقة طيلة تلك الفترة واتساع مؤسساتها الكنسية[١] .

كان دير الزعفران في ماردين هو المقر الذي اتخذته البطريركية كرسياً لها ومن ثم شهد نشاطاً دينياً واسع النطاق ، وعقد فيه عدد من المجامع الانتخابية وأهمها مما تم في عهد الاراتقة : المجمع الاول حيث انتخب اغناطيوس مطراناً لماردين سنة (١٢٩٣ م = ٦٩٣ هـ) والمجمع الثاني عام (١٣٣٣ م = ٧٣٤ هـ) حيث اختير إياونيس إسماعيل مطرانـاً لآمد والهتاخ . والمجمع الثالث عـام (١٣٣٦ م = ٧٣٧ هـ) ، وفيه قدم باسيليوس شهاب مطران ملطية فطركاً . والمجمع الرابع سنة (١٣٨١ م = ٧٨٣ هـ) ، ويقـال إنه عقد في آمـد حيث

---

(١) برصوم ، دير الزعفران ص ١٠٠ - ١٠٣ .

انتخب قورلس إبراهيم بن غريب مطراناً لآمد[١] . كما تم في هذا الدير عقد المفريانية لغالب أحبار المشرق وأولهم غريغوريوس متى الاول سنة (١٣١٧ م = ٧١٧ هـ)[٢] كما تخرج منه عدد كبير من الكهنة لاسيما بعد أن أضحى كرسياً بطريركياً وكان جلهم من العلماء والادباء المتمكنين الذين اسهموا في النشاط الثقافي الكنسي بحظ وفير[٣] . وكان دير الزعفران ، فضلاً عن ذلك مؤسسة لتخريج عدد كبير من المطارنة والأساقفة المشهورين ، الذين شغلوا مناصب دينية هامة في ديار بكر والجزيرة والشام[٤] ، وقد دفن في هذا الدير عدد من الآباء من بطاركة أنطاكية وماردين ومن المطارنة الآخرين ، طيلة العهد الأرتقي[٥] .

وفضلاً عن المجامع الانتخابية السالفة ، شهد دير الزعفران – طيلة الحكم الأرتقي – عدداً آخر من المجامع العامة التي اتخذت فيها قرارات على درجة كبيرة من الأهمية وسنت قوانين كنسية عديدة ، وأهم تلك المجامع : المجمع الأول عام (١١٥٣ م = ٥٤٨ هـ) ، الذي عقده يوحنا الرابع مطران ماردين، حيث جدد الآباء خلاله القوانين الرسولية ووضعوا أربعين قانوناً في الأسرار الدينية والوعظ وتعليم السريانية وإنشاء الملاجىء للفقراء والغرباء . والمجمع الثاني الذي عقد عام (١١٦٦ – ١١٦٧ م = ٥٦٢ – ٥٦٣ هـ) ، برئاسة

---

(١) المصدر السابق ١٠٤ ، وكان انتخاب البطاركة يتم برخصة من الأراتقة :
Enc. Isl. art. Artukids.

(٢) دير الزعفران ص ١١٠ .

(٣) المصدر السابق ص ١١٠ – ١١١ .

(٤) برصوم ، دير الزعفران ص ١١٨ – ١٢١ . وانظر حاشية ابن الساعي ، المختصر ، رقم ١ ص ١٤١ تعليق الأب انستاس ماري الكرملي .

(٥) المصدر السابق ص ١٢٧ ، ١٢٩ .

البطريرك ميخائيل الأول حيث تم سن تسعة وعشرين قانوناً . والمجمع الرابع عام (١١٧٤ م = ٥٧٠ هـ) برئاسة ميخائيل ، حيث تم وضع ستة وثلاثين قانوناً ، وتقرر أن تكون إقامة رئيس الدير المذكور بأمر المفريان ، وأن يخضع هو ورهبانه له في كل شيء ، كما حلت في هذا المجمع بعض الانشقاقات والخلافات الكنسية . والمجمع السادس (عام ١٣٠٣ م = ٧٠٣ هـ) برئاسة البطريرك إغناطيوس بن وهيب ، حيث تم سن عشرة قوانين حول اجتماع الأساقفة السنوي ونظام الكهنة وخدمة الهياكل والصلاة وغير ذلك[١] .

وقد رافق هذا النشاط الكنسي عمليات إنشاء وإصلاح عمراني واسعة النطاق لعدد كبير من الأديرة في ديار بكر خلال العهد الأرتقي ، على يد كبار المسؤولين الدينيين هناك ، ومن أشهر تلك الأديرة : دير مار اسطفانس شمالي ماردين ، دير مار جرجس على جانب سور ماردين ، دير مار الياء النبي في لحف جبل ماردين ، دير مارابای ومارثا ووطا شرقي قلعة الصور ، دير مار حنانيا قرب ماردين ، دير العذراء قرب قلعة الصور ، دير إثناسيوس السندلي فوق تلّبسم ، دير ماردانيال المشرف على قلعة البارعية ، دير مار برصوم قرب ماردين ، دير الشميطيين الى جانب تلّبسم ، وعدد آخر من الأديرة[٢]. كما تم تشييد ما يزيد على الخمس كنائس والأربع وعشرين بيعة خلال هذه

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٠ - ١٣٣ (عن نسخة قديمة في طور عبدين) وانظر الصفحات ١٦٤ - ١٦٩ من نفس المصدر (نقلاً عن النسخ الخطية للرهاوي وميخائيل) للاطلاع على تفاصيل تطور أبرشية ماردين في عهد الأراتقة وقائمة المطارنة الذين تعاقبوا عليها طيلة تلك الفترة .

(٢) برصوم ، دير الزعفران ص ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ - ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٦٣ - ٦٨ .

الفترة[1] ، هذا فضلاً عن الإصلاحات الواسعة التي أجريت على دير الزعفران في ماردين والتي أهلته لأن يكون كرسي البطريركية[2] . وقد أوقفوا لهذه الأديرة والمؤسسات الدينية عدداً كبيراً من مرافق الوقف لسد حاجات أهلها وضيوفها ، وقد ازدادت هذه الأوقاف إثر انتقال كرسي البطريركية الى ماردين ، وأصبحت تشمل رحى عديدة وأراضي واسعة مغطاة بأشجار الفاكهة والكروم التي عمل البطاركة على تشجيع زراعتها . كما كانت الضرائب والرسوم تجمع لهذه المؤسسات كالعشور ، وهي الحقوق الشرعية التي تجمع من سائر الأبرشيات ، وكالمؤونة التي تجمع من ماردين وبعض نواحيها ، وهي عادة قديمة[3] .

أسهمت المؤسسات الكنسية خلال العهد الأرتقي بنصيب وافر في الحركة الثقافية التي ازدهرت في ديار بكر آنذاك فألف رجال الدين المسيحيون الكتب واستنسخوها وجمعوها[4] ، وأنشؤوا المكتبات والمعاهد الدينية في أماكن عديدة من ديار بكر ، وقد ضمت تلك المكتبات بشكل خاص الكتب المقدسة وكتب الدين والمنطق واللاهوت والفلسفة والهيئة ، فضلاً عن الكتب الأدبية والتاريخية والعلمية[5] . وكانت مكتبة دير الزعفران تضم عدداً كبيراً من الكتب ، ولكن الفتن والأحداث التي شهدتها المنطقة أدت الى ضياع

---

(١) المصدر السابق ص ٦٨ — ٧٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٧٦ — ٧٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٦٨ ، ١٤٩ — ١٥١ .

(٤) المصدر السابق ص ٤٥ هامش ١ ، ٤٩ — ٥١ ، ٧١ — ٧٥ ، ٧٧ — ٧٨ ، ١٣٦ — ١٣٩ ، ١٤٤ — ١٤٦ ، ١٦٩ .

(٥) المصدر السابق ص ٥٣ — ٥٦ ، ٧١ — ٧٥ ، ٧٧ — ٧٨ ، ١٤٤ — ١٤٦ .

معظمها[١] ، ومع ذلك فقد بقي فيها لحد الآن نيف وثلاثمائة مجلد مخطوط سرياني وعربي تشمل المواضيع الفقهية واللغوية واللاهوتية والنحوية والطقسية والأدبية والنسكية والتاريخية وغيرها من تأليف عدد من كبار العلماء من السريان والأقباط والنساطرة[٢] .

وقد لعبت المناقشات الدينية في المنطقة ، والجهات المجاورة، دوراً هاماً في الحركة الثقافية وتأليف الكتب الجدلية واللاهوتية وعقد المجامع الثقافية ، مما تحفل بتفاصيلها مكتبات الأديرة في المنطقة[٣] . وقد قامت هذه النهضة العلمية على أكتاف عدد من كبار العلماء الذين تخرجوا من المؤسسات الدينية في المنطقة والذين لم يصرفوا اهتمامهم نحو العلوم اللاهوتية فحسب ، بل اهتموا كذلك بالآداب والعلوم التطبيقية والفنون واللغات (وبخاصة السريانية) ، والتاريخ والفلك[٤] . وأبرز الأمثلة على ذلك أهمية تضلع مار يوحنا بعلوم الهندسة والمساحة وذيوع صيته في مجالات الري مما أكسبه الحظوة لدى أمراء المنطقة وهيأ له ثروة طائلة[٥] .

وهكذا أتاح الأراتقة لمسيحي المنطقة فرصة ذهبية للنشاط الديني والكنسي

---

(١) وبخاصة الهجوم الذي قام به تيمورلنك على المنطقة خلال عامي ٧٩٦ و ٨٠٣ هـ. والذي أدى الى تدمير المؤسسات الدينية وضياع الكتب الثمينة : المصدر السابق ص ٧٧ – ٧٨ .

(٢) برصوم ، دير الزعفران ص ١٤٤ – ١٤٦ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٩ – ٥١ ، ٧١ – ٧٥ .

(٤) المصدر السابق هامش ١ صفحة ٤٥ ، ٥٣ – ٥٦ ، ١١٠ – ١١١ ، ١٣٦ – ١٣٩ ، ١٦٨ – ١٦٩ ، مجلة الشرق المسيحي ١٠/٣١٤ – ٣١٧ ، الآداب السريانية ص ٣٩٨ ، التراجم السنية ص ١٥١ – ١٧٠ ، ابن الساعي ، المختصر حاشية رقم ١ ص ١٤١ . تعليق الأب انستاس الكرملي .

(٥) برصوم ، دير الزعفران ص ٥٣ – ٥٦ .

والثقافي ، مما أدى الى نمو واتساع مؤسساتهم الدينية ومعطياتهم العلمية في جو من الحرية وعدم الاضطهاد بشكل لم يشهده هؤلاء في بلاد أوربا نفسهـا حيث يسود التعصب الديني وتنتشر الفتن المذهبية .



وبالرغم من ظهور طوائف عديدة بين المسلمين في ديار بكر في عهد الأراتقة كالسنة والشيعة والباطنية ... الخ إلا أن التزام الأراتقة بالمذهب السني ووجود أكثرية سنية ساحقة من أهالي المنطقة[1] قلل الى حد كبير من أهمية الطوائف الأخرى وأدى الى القضاء على بعضها الآخر قضاءً نهائياً . وقد سلك الأراتقـة سبيل أسلافهم السلاجقة في الدفاع عن المذهب السني وتنشيط مؤسساته الدينية والفكرية شأنهم في ذلك شأن معظم الإمارات والدول التركية والكردية التي قامت حينذاك في العالم الإسلامي[2] .

وبالرغم من اعتناق الأراتقة المذهب الحنفي أسوة بالسلاجقة إلا أنهـــم لم يتعصبوا له ، وقاموا بإنشاء عدد كبير من المدارس خصص معظمهـا لتدريس

---

(١) البشاري ، أحسن التقاسيم ص ١٤٢ .

(٢) بارتولد ، الترك ص ١٠٨ - ١٠٩ ،

Wiet : Le Egypte Arabe P. 330.

ابن الفرات ، تاريخ (مخطوطة ٧٧/٢ - ٧٨) .

وحول موقف السلاجقة عامة من السنة انظر :

C. Cahen : Turkish Invation P. 144—145.

العريني ، الحروب الصليبية ٢ - ٣ ، ٤ - ٥ .

وانظر ما سلف من الفصل حول اهتمام الأراتقة بالمؤسسات سالفة الذكر .

المذاهب الثلاث الأخرى ، فضلاً عن الحنفية ، وبخاصة الشافعية[1] ، وربما كان ذلك بسبب اعتناق رعاياهم تلك المذاهب ، ولا سيما الشافعية التي راجت على أيدي الأكراد والأيوبيين كما أن الأراتقة عينوا في المناصب القضائية قضاة من شتى المذاهب ، حتى إن سقمان بن أرتق اضطر الى عزل قاضيه على القدس البلاساغوني الحنفي ، بسبب تعصبه ضد المذاهب الأخرى[2] . وقد تمكن الأراتقة بهذه السياسة أن يدعموا القوى السنية في المنطقة وأن يكسبوا رضى رعاياهم ، بحيث إننا لم نسمع عن أية فتنة أو تمرد قام ضدهم من قبل القوى السنية في ديار بكر ، فيما عدا فتن الأكراد التي لم تكن بدافع مذهبي على الإطلاق .

وبالرغم مما سبق فإن بعض حكام الأراتقة انساق وراء بعض المذاهب الفلسفية والكلامية المتطرفة[3] ، إلا أن هذه المحاولات كانت محدودة ولم تلق أي تشجيع يذكر ، وبقيت الغالبية العظمى من حكام الأراتقة على تمسكها وتشجيعها للمذهب السني .

وفي هذا الجو الملائم ظهر على مسرح ديار بكر عدد من المتصوفة والطرق الصوفية والشيوخ ، لقوا تشجيعاً كبيراً من أهالي المنطقة وحكامها الذين بنوا

---

(١) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٣٠ ب ، قسم حلب (المنشور) ص ٩٦ - ٩٧ . وانظر قسم دمشق (المنشور) ص ٢٢٢ ، ابن العديم ٢/٢١٠ ، ابن الشحنة ، المنتخب ص ١٠٩ .

(٢) انظر ما سلف من الفصل .

(٣) Enc. Isl. art: Artukids.
ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٢٤ آ .

لهم الربط والخانقاهات[1] ، فالتف الناس حولهم وافتتنوا بهم وراجت على الألسنة كرامات هؤلاء الشيوخ ومعجزاتهم وخوارقهم ، وأشهر هؤلاء الشيخ حسن بن السيد عبد الرحمن الذي نزح الى ماردين من الشام وانصرف الى الزهد والتقوى ، مما أدى الى أن يجتمع حوله سكان ماردين ، ولا سيما وجهاؤها وأعيانها ، ويعتقدون فيه الخير والصلاح ، واتفق أن ابتليت ابنة امير ماردين آنذاك[2] بمرض السوداء (الماليخوليا) حتى كاد يؤدي بها الى الجنون ولم تُجْدها معالجة الأطباء . وأخيراً أوفد من يأتيه بالشيخ حسن وطلب منه أن يكتب لها (حرزاً) فتلى الشيخ بعض التعاويذ والرقى على جرعة من الماء ورشها عليها فسببت أنفاسه الطاهرة شفاءها العاجل ، فرغب الامير بتزويجه منها مكافاءة له فرفض ، فتزوجها ابنه وأنعم عليه بإحدى المقاطعات حيث ظل هو وأحفاده يحكمونها من بعد[3] . ومن هؤلاء الشيوخ الذين شهدتهم ديار بكر : سلمان العلوي الاسعردي الذي وصل الى ميافارقين سنة (٥٤٠ هـ = ١١٤٥ م) فخرج الناس للقائه ، واستقبله الامير حسام الدين تمرتاش وحاشيته « وكان فيه من العلم ما لا يوصف . وقد اتجه الى الجامع ووعظ الناس وكان يوماً مشهوداً وافتتن به الناس ، وبلغ من تمرتاش منزلة عالية وأسكنه معه في قصره . وكان مقامه حيث أقام الأمير ، وكان إذا دخل الامير لا يقوم له ،

---

(١) ابن جبير ، رحلة ص ٢٢٢ .

(٢) يخطىء البدليسي الذي أورد هذه الرواية في الشرفنامة ، غالباً في ضبط الأعلام والتواريخ فيقول مثلاً بأن أمير آمد وماردين آنذاك كان أرتق بن أكسب ، بينما كان هذا قد توفي قبل أن تغدو هذه المواقع تحت سيطرة أبنائه .

(٣) البدليسي ، شرفنامة ص ٢٤٤ ، ٢٥٢ . وفي الرواية تفاصيل أخرى أعرضنا عن ذكرها لما فيها من أخطاء تاريخية واضحة ، وانظر هذه الأخطاء ، كذلك ، نفس المصدر ص ١٩٧ - ١٩٨ .

وتحكم على الامراء أوفى تحكم »[1]، وما لبث أن قتل على يد اثنين من الإسماعيلية في ربيع الاول عام (٥٤٦ هـ = ١١٥١ م) ، وألقي القبض على قاتليه وأعدما[2] .

ومنهم الشيخ محمد بن السماع ، الذي كانت له زاوية الى جانب مسجد الخضر في حصن كيفا ، يصفه ابن منقذ بأنه رجل من الأولياء ، وأن كرامات عديدة حدثت على يديه ، وأن أكابر حصن كيفا كانوا يتقربون اليه ، حتى إن أحدهم بنى له زاوية في بستان وهبه له[3] . ومنهم الشيخ يونس بن يوسف الشيباني القني – نسبة الى القنية وهي قرية في نواحي ماردين – وهو شيخ الطائفة اليونسية الذين يصفهم ابن العماد بأنهم « أولي الشطح وقلة العقل وكثرة الجهل وكان الشيخ صاحب حال وكشف وكرامات »[4] . ورافق كل ذلك قصصاً كثيرة عن الجن لقيت رواجاً لدى أهالي المنطقة[5] وارتفعت مكانة المنجمين[6] .

وقد حاول الباطنية (الاسماعيلية) أن ينشروا دعوتهم في ديار بكر منذ النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، وقضى داعيتهم الحسن بن صباح فترة من الوقت داعياً في ديار بكر الى مذهبه الباطني[7] . ومن ثم تمكن دعاة

---

(١) الفارقي ، تاريخ آمد ، ورقة ١٢٥ ب – ١٢٦ آ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٣) الاعتبار ص ١٧١ – ١٧٢ .

(٤) شذرات الذهب ٥/٨٧ .

(٥) اليونيني ذيل مرآة الزمان ٣/٣٠٩ – ٣١٠ وانظر القرماني ، تاريخ ص ١٨٤ .

(٦) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٢٤ ب – ١٢٥ آ .

(٧) القلقشندي ، صبح الأعشى ط ٢ ، ١/١٢٠ .

الباطنية هناك من تحقيق نجاح كبير بسبب كثرة دعاتهم وتحمسهم[١] . إلا أن ازدياد عـــدد هؤلاء في بعض مناطق ديار بكر استفز السكان فثـــاروا ضدهم وقضوا على نشاطهم ، كما حدث عام (٥١٨ هـ = ١١٢٤ م) حينما ثار أهالي آمد على من بها من الباطنية الإسماعيلية « وكانوا قد كثروا »[٢] فقتلوا منهم حوالي سبعمائة رجل فضعف أمرهم إثر هذه الثورة[٣] .

وقد اتبع الأراتقة إزاءهم سياسات مختلفة فوقف بلك بن بهرام منهم موقفاً صلباً حتى إنه ألقى القبض على نائب بهرام داعي الباطنية في حلب في أواخـــر ذي القعدة من عام (٥١٧ هـ = ١١٢٣ م) ، كما أمـــر بإخراجهم من حلب فباعوا أموالهم ورحالهم وخرجوا منها[٤] . ويبدو أن القوى الإسماعيليـــة اقتربت من نهايتها في حلب إثر هذا الإجراء[٥] . أمـــا إيلغازي فقد تجنب التشاحن معهم ، واتبع إزاءهم أسلوبـــاً دبلوماسياً وبذا جنب نفسه عنـــاء الاصطدام بهم[٦]، فضلاً عن أنه حاول استمالتهم للإفادة منهم في تحقيق أهدافه، ولذا عول هؤلاء عليه واتخذوه سنداً لهم . ففي عام (٥١٣ = ١١١٩ م) ،

---

(١) C. Cahen, La Syrie du Nord, P. 191.

(٢) الكامل ١٠/٢٣٨ .

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة ، ابن الجوزي ، المنتظم ٩/٢٤٩ ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨/١١٣ ، ابن كثير ، البداية ١٢/١٩٤ ، ابن الفرات ، تاريخ (مخطوطة ٢/٨٩) ،ابن قاضي شهبـة ، السيرة النورية (مخطوطة ٥٩) ،

B. Lewis: The Ismailites and Assassins, estton 1/114—115.

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢١٦

B. Lewis, The Ismailites, 1/114—115.

(٥) B. Lewis. Ibid.

(٦) ابن القلانسي ، دمشق ص ٢١٥ ، الكامل ١٠/٢٤١

B. Lewis, Ibid.

عندما نفي زعيمهم سعيد بن بادي من حلب ، من قبل أميرهـا المتهور ألب أرسلان ، قرر الهرب الى إيلغازي في ماردين ليرجوه العمل على إعادتـه الى حلب ولكنه قتل في الطريق . وفي السنة التالية أصبح الباطنية ثانية على درجة من القوة أتاحت لهم مطالبة إيلغازي بمنحهم قلعة الشريف الصغيرة القريبة من حلب ، ولم يكن إيلغازي يرغب بالتنازل عنها لهم ، ولكنه خاف في الوقت نفسه نتائج رفضه ، فقرر اتباع الحيلة وأعلن عن رغبته في تدمير القلعة بسرعة ، محتجاً بأنه اتخذ هذا القرار منذ السابق ، وأنه يخاف استيلاء الصليبيين عليها لقربها من مواقعهم ، وقد قام القاضي ابن الخشاب بتخريبها[1] . وكان هـذا سبباً في قتله على يد الإسماعيلية فيما بعد[2] .

وبالرغم من ذلك فقد دأب إيلغازي على سياسته المرنة تجاههـم حتى إنه توسط لدى طغتكين حاكم دمشق لقبول إقامة بهرام داعي الباطنية في دمشق ، وكان هذا قد اتجه من بغداد الى الشام وأصبح داعي الإسماعيلية هنـاك وأخذ يتنقل في البلاد ، ويدعو أوباش الناس الى مذهبه فاستجاب له عدد كبير وكثر جمعه ، وكان يخفي اسمه الحقيقي . وما لبث أن أقام في حلب فترة من الوقت في عهد إيلغازي الذي لم يقم بأية محاولة لإيقاف نشاطه بـل على العكس ، حاول أن يصطنعه ويعتضد به ليتخلص هو وأهالي حلب بذلك من مكائـد بهرام وأصحابه الذين دأبوا على اغتيال كل مخالف لهم . وتمكن إيلغازي أخيراً ، وبعد مراسلات طويلة مع طغتكين من إقنـاع الأخير بالسماح لبهرام بدخول

---

(١) ابن الفرات تاريخ (مخطوطة ٢/٣٩ - ٤٠)

Enc. Isl., art : Artukids.
B. Lewis, Ibid.

(٢) ابن الفرات تاريخ (مخطوطة ٢/٣٩ - ٤٠) .

دمشق بحجة أن ذلك سيخلص طغتكين من نقمة الباطنية ويكسبه معاضدتهم[١] وهكذا ظهر بهرام في دمشق في نهاية عام (٥٢٠ هـ = ١١٢٦ م)، مع رسالة توصية من إيلغازي فاستقبل بحفاوة ومنح الحماية . ويضع ابن الأثير لومة، إزاء المشاكل التي أحدثها بهرام في دمشق، على عاتق طغتكين وإيلغازي بالذات الذي أتاح لبهرام ، لدى إقامته في حلب ، إتصالات واسعة النطاق[٢] . ولم يرد بعد ذلك ما يشير الى وجود نشاط ملحوظ للباطنية في إمارات الأراتقة، ولا الى طبيعة الموقف الذي اتخذه هؤلاء ضدهم ، فيما عدا عملية اغتيال لأحد الشيوخ المقربين لدى حسام الدين على يد اثنين من الإسماعيلية اللذين تم القبض عليهما وأعدما[٣] .

وظهر في ديار بكر بعض المتشيعين ، ويعود ظهورهم هناك الى فترة متقدمة[٤] وقد غالى بعضهم في تشيعه[٥] ، وتميز الآخرون بالاعتدال في حبهم لآل البيت رضي الله عنهم . وأبرز من يمثل هؤلاء الشاعر الديار بكري المشهور يحيى بن سلامة الحصكفي ، الذي برع في فنون عديدة ولا سيما الشعر ، وله مدائح في أهل البيت ، وقد زار بغداد ، وتوفي في ميافارقين عام (٥٥٣ هـ

---

(١) ابن القلانسي ، دمشق ص ٢١٥ ، الكامل ٢٤١/١٠ .

(٢) B. Lewis. The Ismailites 1/116.

وانظر في هذا المجال

Defremery, Ismae Liens de Syrie, J. A. 111/398—408.
Qnatremere, Notice Historique surles Ismaeliens, P. 345—349, C. Cahen, La Syrie du Nord, pp. 347—348 and Note 2 p. 348.

(٣) الفارقي ، تاريخ آمد ، ورقة ١٢٥ ب – ١٢٦ آ .

(٤) البشاري ، أحسن التقاسيم ص ١٤٢ .

(٥) ابن الجوزي ، المنتظم ١٨٣/١٠ – ١٨٨ .

=١١٥٨ م)[١]. إلا أن نشاط هؤلاء جميعاً كان محدوداً ولم يشكلوا قوة مذهبية تذكر في ديار بكر ، فضلاً عن أن تمسك حكام الأراتقة بالسنة سد الطرق على نشاط الشيعة . وقد تمكن هؤلاء الحكام ، خلال الفترة التي حكموا فيها حلب ، أن يقفوا بوجه النفوذ الشيعي المتزايد فيها آنذاك وبنوا عدداً من المدارس لتعضيد الاتجاهات السنية ، رغم المعارضة الشديدة التي جوبهوا بها من قبل العدد الكبير من سكان حلب المتشيعين[٢] .

★ ★ ★

تميزت حياة الأراتقة الاجتماعية باهتمامهم بالحفلات العامة ووسائل اللهو المختلفة ، فاتخذوا المغنين والموسيقيين والجواري ، وقاموا برحلات خاصة للصيد ، وأقاموا الاحتفالات في المناسبات والأعياد[٣] . ويذكر المقريزي أن صاحب ماردين قام بشراء جارية جنكية من بلاد التتر في المشرق من اللواتي يجدن اللعب على الجنك[٤] وبذل على ذلك أموالاً طائلة ، وعندما سمع سلطان

---

(١) الكامل ٩٧/١١ ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٢٣٢/٨ ، ابن الوردي ، تتمة ٥٩/٢ - ٦٠ .

(٢) ابن شداد ، الأعلاق (قسم حلب) ص ٩٦ - ٩٧ ، ابن الشحنة ، المنتخب ١٠٩ ، ابن الفرات ، تاريخ (مخطوطة ٤٩/٢) ، الطباخ ، تاريخ حلب ٤٤٥/١ - ٤٤٦ .

(٣) انظر ديوان صفي الدين الحلي ، ومحمود رزق سليم ، صفي الدين الحلي ص ٢٦ - ٢٧ ، ٣٦ ، ٣٧ - ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢ - ٤٣ ، ٥١ - ٥٢ ، ٦٧ .

(٤) آلة موسيقية محدثة اختصت العجم منها بما لم يعهد العرب (العمري ، التعريف ص ٢١٥) . وأصل اللفظ فارسي معرب (محيط المحيط) ولا يشترط في الجنكي الضرب على الجنك فحسب وإنما على غيرها من الآلات الموسيقية أيضاً . وقد أطلق لفظ الجنكي أيضاً في عصر المماليك على رقاص المنتديات والأفراح ، وجمعه جنك ، وكان أولئك الرقاصون من غلمان وشباب الأرمن واليهود واليونان والترك ، وبعض ثيابهم من لبوس الرجال وبعضها من لبس النساء وكانوا يرسلون شعورهم ويضفرونها : (.Dozy : sup السلوك للمقريزي ، حاشية رقم ٣ ، ٢٧٥/١/٢) .

مصر بذلك أرسل الى صاحب ماردين عام (٧٢٣ هـ = ١٣٢٣ م) . يطلب منه إرسالها اليه . وقد حاول هذا أن يخدع السلطان بإرسال جارية غيرها ، ولكن ذلك لم يخف عليه ، وأرسل ثانيـــة الى صاحب ماردين يقول « متى لم يبعث بالجارية خربت ماردين على رأسه » فلم يجد هذا بداً من إرسالها ، ومن ثم أنعم عليه السلطان لقـــاء ذلك بهدايا جليلة[1] . وكان (كتيلة بن قرانغان) المغني الجنكلي المارديني ، أحد ندماء الملك الصالح في ماردين ، وكان قد انتهى اليه حسن الطرب بالجنك العجمي ، وعندما سمع به الناصر قلاوون سلطان مصر أرسل يستدعيه فتوجه الى مصر ولزم تعليم الجواري وخرّج الكثيرات منهن . وكان يتجه من آن لآخر الى ماردين ، فيقضي هنـاك مدة ثم يعود الى مصر بطلب من السلطان . وكان كامل الأدب وافر المروءة حسن الخلق جميـل العشرة[2] . وكان علي بن عبد الله الماريني من مماليك صاحب ماردين ، وكان يجيد الضرب على العود وقد بلغ الناصر قلاوون خبره – هو الآخر – فاستهداه من صاحب ماردين عام (٧٢٨ هـ = ١٣٢٧ م) فأرسله هذا اليه[3] . وقد بلغ أحمد بن أسعد المعروف بابن العالمة مكانة كبيرة لدى الملك المسعود صاحب آمد، وحظي عنده واستوزره وكان له معرفـــة بالضرب على العود[4] . ويذكـــر الماريني أن الملك المنصور (ت سنة ٧١١ هـ = ١٣١١ م) ، كان يعشق اللذة والغناء ، وكان يسكن خلال الربيـع روضة الفردوس شرقي ماردين ، أمـا في

---

(١) المقريزي ، السلوك ١/٢/٢٤١ .

(٢) ابن حجر ، الدرر الكامنة ٣/٢٦٤ – ٢٦٥ .

(٣) ابن حجر ، الدرر الكامنة ٣/٧٧ – ٧٨ ، ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (القسم المخطوط ٢/٤٤٨) .

(٤) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ١/٩٢ .

الصيف والخريف والشتاء فكان يسكن أماكن أخرى أعدت للهو ، وكان يصحبه في هذه الأماكن العلماء والظرفاء(١) .

وهذه الروايات تشير الى المكانة التي بلغها الفنانون لدى الأراتقة ، والى مدى تشجيع هؤلاء لفنون الطرب والغناء . وفضلاً عن ذلك اهتم الأراتقة بالفعاليات الأخرى كالصيد . ويذكر ابن منقذ أنه صحب الأمير فخر الدين قرا أرسلان بن داود أمير حصن كيفا مراراً عديدة في رحلات صيده وشهد معه صيد الحجل والدراج وطير الماء الذي يكثر في دجلة ، وأن هذا كان كبير الحجم بحيث يجد الباز صعوبة في صيده . وكان أكثر صيدهم الأراوي ومعزى الجبل وكانوا يصطادونها عن طريق نصب شباك واسعة في عرض الوديان ومن ثم يقومون بطرد الأراوي واستفزازها فتقع في تلك الشباك ، وكانت كثيرة العدد سهلة الصيد ، كما كانوا يصيدون الأرانب بكثرة(٢) .

واقام الأراتقة الاحتفالات الشعبية في المناسبات ، ويذكر الفارقي أن حسام الدين تمرتاش حينما أمر بختان أولاد وزيره جمال الدين وزعت الخلع واجتمع الناس(٣) ولم يرد في مجال اللهو والأعياد ما يشير الى الفعاليات الاجتماعية لسكان المنطقة وأعيادهم وملاهيهم وكيفية قضاء أوقات فراغهم ، ولا ريب أنهم في هذا كانوا كبقية شعوب المنطقة في تلك الفترة . وتجدر الإشارة هنا الى أن موقع ديار بكر بين القوى العسكرية والسياسية المتنافسة ، كالسلاجقة والصليبيين والتركمان والأكراد والأمراء المحليين والأيوبيين والتتر

---

(١) تاريخ ماردين (مخطوطة ص ١٢٥ - ١٢٦) .
(٢) الاعتبار ص ١٩٦ - ١٩٧ .
(٣) تاريخ آمد ورقة ١٣٣ ب .

والمماليك ، لم يتح المنطقة استقراراً طويل المدى يساعد على ازدهار الحيـــاة الاجتماعية في أبعادها المختلفة آنفة الذكر .

النشاط الثقافي :

وإذا ما انتقلنا الى الناحية الثقافية ، فإننا نجد كيف أن ديار بكر غدت في عهد الأراتقة مدرسة كبيرة ، خرجت واستقبلت عدداً كبيراً من العلمـــاء والادباء والمفكرين في شتى مجالات المعرفـــة ، وكان للتشجيع المادي والأدبي الذي قدمه الأراتقة لهؤلاء أثر كبير في ازدهار الحركة الثقافية هنـاك[1] ، إذ كانوا ينفقون المبالغ الطائلة على الشعراء[2] ، ويقيمون الندوات العلمية والأدبية والمباريات الشعرية ويمنحون الجوائز خلالها للمبرزين من الشعراء[3]، كما خصصوا

---

(١) ابن بطوطة ، رحلة ١٨٢/١ – ١٨٣ ، ابن الأثير ، رسائل ص ٧٧ – ٧٩ و ٢٠٤ – ٢٠٧ ، إنسان العيون لمؤلف مجهول ص ١٦٩ ، ٢٧٧ – ٢٨٨ ، ابن أبي أصيبعة ، طبقات الأطباء ٣٢٨/٢ ، ٢٧٠/٣ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٣١٦/٣ ، ٣٦٣ ، القفطي ، أخبار الحكماء ص ١٢٢ ، ١٦١ ، ١٨٩ – ١٩٠ ، الكتبي ، وفيـــات ١٩٣/٢ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ٩٢/١ – ٩٥ ، ٤١٢ – ٤٢٦ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهـــرة ٣٢٨/٥ – ٣٢٩ ، ابن العماد ، شذرات ١٢٥/٥ ، ١١/٦ ، ٢٥١ ، ٣٠١ – ٣٠٢ ، ٣١٣ – ٣١٤ ، ٣٥٨ – ٣٦٥ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ٢٧٧/٢ – ٢٧٨ ، ٣٧٩ – ٣٨١ ، ٢٦٤/٣ – ٢٦٥ ، ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (المخطوط ٢١١/٢) ، القرشي ، طبقات الحنفية ١٩٩/٢ ، سليم ، صفي الدين الحلي ص ٢٦ – ٢٧ ، ٤٠ .

(٢) ابن بطوطة ، رحلة ١٨٣/١ ، ابن عربشاه أخبار تيمورلنك ص ٥٢ ، الماردينى ، تاريخ ماردين (مخطوطة ص ١٢٣) سليم ، صفي الدين الحلي ص ٢٥ – ٢٦ ، ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (القسم المخطوط ٢١١/٢) .

(٣) ابن عربشاه ، المصدر السابق ، نفس الصفحة ، ابن العماد ، شذرات ٢٠/٧ – ٢١ ، الماردينى ، تاريخ ماردين (مخطوطة ص ١٢٣) .

لبعض العلماء والأطبـــاء رواتب دائمة بسبب خدمتهم للأراتقـة[1] ، ولولا المناصب لأولئك الذين ألموا بأطراف عديدة من الثقافة[2] . لذا قصدهم عدد من مشاهير العلماء والأدباء والأطباء ، وعلى رأسهم أسامة بن منقذ الأديب الشاعر ، أحد أمـــراء شيزر في الشام ، والذي بقي عشرة أعوام (٥٦٠ – ٥٦٩ هـ = ١١٦٤–١١٧٣م) في بلاط الأراتقة في حصن كيفا انهمك خلالها بالتأليف[3] . وصفي الدين الحلي الشاعر المشهور الذي انقطع مدة ليست بالقصيرة الى ملوك ماردين ، ومدحهم بعدد كبير من غرر قصائده التي حفل بها ديوانه ، وبخاصة تلك المجموعة التي سماها الأرتقيات والتي نظمها حسب تسلسل الحروف الأبجدية وألحقها بديوانه[4] . وأبو عبد الله محمد بن جابر الأندلسي المروي الذي قدم الى

---

(١) ابن أبي أصيبعة ، الأطباء ٣/٣٦٣ .

(٢) ابن بطوطة ، رحلة ١/١٨٣ ، القفطي ، الحكماء ص ١٦١ ، ياقوت ، معجم الأدباء ٢٠/١٨ – ١٩ ، ١٨٩ – ١٩٠ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ١/٩٢ – ٩٥ ، ٤١٢ – ٤٢٦ ، انسان العيون ، مجهول ص ١٦٩ ، ٢٧٧ – ٢٨٨ ، الكتبي ، وفيات ٢/١٩٣، ابن العماد ، شذرات ٥/١٢٥ . وانظر ما سلف من الفصل . عن قضاة الأراتقة وثقافتهم .

(٣) Enc. Isl. art: Artukids.

أحمد بدوي ، الحياة العقلية في عهد الحروب الصليبية ص ٢٧٠ – ٢٧١ . وانظـــر عن أسامة بن منقذ

Cahen, la Syrie du Nord P. 44—45, Derenbourgh, H., lavie d'Ousama, pp. 336—338, 543—562,

ياقوت ، معجم الأدباء ٥/١٨٨ – ٢١٤ ، الطباخ ، تاريخ حلب ٤/٢٧٦ – ٢٧٨ .

(٤) ديوان الحلي ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ٢/٣٧٩ – ٣٨١ ، ابن بطوطة ، رحلة ١/ ١٨٢–١٨٣ . وانظر : الشوكاني ، البدر الطالع ١/٣٥٨ – ٣٥٩ ، سليم ، صفي الدين الحلي ٢٦–٢٧ ، ٣٧–٣٩ ، ٤٠–٤٢–٤٣ ، ٥١–٥٢ ، ٦٧ ، ابن تغري بردي، المنهل الصافي (القسم المخطوط ٢/٣٢٢–٣٢٥) .

ماردين ومدح حاكمها الملك الصالح فوهبه هذا عشرين ألف درهم[1] . وجمال الدين السنجاري « الإمام العالم وحيد الدهر وفريد العصر » الذي درس في تبريز ببلاد فارس وأدرك العلماء الكبار وقدم الى ماردين فولاه حاكمها الوزارة[2] . وبرهان الدين الموصلي الإمام الكامل الذي قدم الى ماردين فعينه الأراتقة قاضياً لقضاتها[3] . وأبو المجد الربعي ، من أهل تكريت ، درس في بغداد على كبار مشايخها وقدم الى ماردين فولي قضاءها[4] . وأحمد بن أسعد نجم الدين المعروف بابن العالمة الذي ولد بدمشق عام (٥٩٤ هـ = ١١٩٧ م) ، ونبغ في الطب وألف فيه عدداً كبيراً من البحوث القيمة ، ثم قدم الى آمد وبلغ لدى صاحبها الملك المسعود منزلة كبيرة ،وانتهى الأمر بتوليته الوزارة[5]. وشهاب الدين السهروردي المتصوف الإشراقي المشهور الذي قضى فترة مهمة من حياته في ديار بكر وألف كتاب (الألواح العمادية) لعماد الدين أبي بكر قرا أرسلان الأرتقي صاحب خرتبرت[6] . وعز الدين يوسف بن الحسن التبريزي الحلاوي ، الذي رحل الى بغداد ودرس فيها ، ثم عاد الى تبريز وأقام هناك ينشر العلم ، وعندما ساءت علاقته مع صاحبها اتجه الى ماردين فأكرمه صاحبها وعقد له مجلساً حضره علماؤها مثل شريح والهمام والصدر فأقروا له بالفضل ، وأخذ يعمل هناك في التأليف لشرح منهاج البيضاوي ، وعمل حواشي على

---

(١) ابن بطوطة ، رحلة ١/١٨٣ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٤) إنسان العيون ، مجهول ص ١٦٩ .

(٥) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ١/٩٢–٩٥ .

(٦) ابن أبي أصيبعة ، الأطباء ٣/٢٨٠ . وانظر نفس المصدر ٣/٢٧٧ وياقوت معجم الأدباء ١٩/٣١٤–٣٢٠ .

الكشاف ، .... الخ ثم انتقل الى الجزيرة وتوفي عام (٨٠٢ هـ = ١٣٩٩ م)[١]. وزين الدين بن سريجا الملطي البارودي الذي قضى فترة من الوقت في ماردين الى وفاته عـــام (٧٨٨ هـ = ١٣٨٦ م) ، وكان من أعيان ملطة في الفقـــه والقراءات والأدب[٢] . والعلاء بن محمد بن أحمد السيرالي ، الذي أقام بماردين مدة وأفاد الناس في علوم عديدة ، وبلغ المنتهى في المعاني والبيان ، وتوفي بمصر عام (٧٩٠ هـ = ١٣٨٨ م)[٣] . وعبد الرزاق بن أبي بكر بن خلف الرسعني الذي ولد في رأس أعين من ديار بكر عـــام (٥٨٩ هـ = ١١٩٣ م) « وكان محدثاً أديباً شاعراً صدراً رئيساً » أقام بماردين مدة من الزمن بلغ خلالها لدى صاحبها مكانة عليّة[٤] . وقام نجم الدين إيلغازي الأرتقي باستدعاء أبي الفتح أحمد بن سري وكان عجمياً من بلاد همذان ، وكان مشهوراً بالحكمة وتتلمذ عليه في ماردين فخر الدين المارديني الذي برع في الطب ، ودخـــل في خدمة نجم الدين بن أرتق ردحاً من الزمن[٥] . وقدم بدر الدين بن هبل البغدادي الطبيب الى ماردين في أواخر القرن السادس وأقام هنالك مدة ليست بالقصيرة[٦] .

---

(١) ابن العماد ، شذرات ٧/٢٠-٢١ .

(٢) المصدر السابق ٦/٣٠١-٣٠٢ .

(٣) المصدر السابق ٦/٣١٣-٣١٤ .

(٤) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ١/٥٤٥ .

(٥) ابن أبي أصيبعة ، الأطباء ٢/٣٢٨ وانظر نفس المصدر ٣/٢٧٠ حيث يذكر أن الذي استدعاه هو حسام الدين تمرتاش وأكرمه غاية الإكرام وبقي في صحبته مدة .

(٦) ابن أبي أصيبعة ، الأطباء ٢/٣٣٤-٣٣٥ . وانظر - في هذا المجال - الدبيثي تتمة المختصر ١/٢٣٩ ، وابن النجار البغدادي ، التاريخ المجدد لمدينة السلام (نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ٢١٣١) ، القرشي ، طبقات الحنفية ٢/٧٩ - ٨٠ ، ١٦٣ - ١٦٤ ، ١٨٤ ، ١٩٩ .

وهنالك عدد كبير من الذين قصدوا الأراتقة فلقوا منهم كل ترحيب وتشجيع. ومن هنا يتضح خطأ كاهين في القول بأننا لا نعرف أي كاتب ذي شهرة عاش داخل المنطقة الارتقية أو في أطرافها[1] . وهكذا صرنا نجد مثقفين من شتى الاصناف كالشعراء والفقهاء والاطباء ... الخ يقصدون ديار بكر من العراق والشام وبلاد فارس والاندلس ، مما يشير الى مدى ما كانت تتمتع به المنطقة في عهد الاراتقة من ازدهار علمي وأدبي . حتى إنه كان في إحدى خزانات الكتب في آمد وحدها ، لدى فتحها من قبل صلاح الدين عام (٥٧٩ هـ = ١١٨٣ م) ، مليون وأربعون ألف كتاب[2] ، وبالرغم مما في ذلك من مبالغة ، إلا أنه يدل على ما بلغت اليه حركة التأليف والنسخ واقتناء الكتب في المنطقة . وكان قسم من العلماء والادباء يقفون كتبهم بعد وفاتهم في المشاهد التي وقفها الاراتقة والتي كانت أشبه بالمكتبات العامة[3] .

ولم يقف الامر عند حد استقبال ديار بكر لكبار الادباء والعلماء ، وإنما قامت - كذلك - بتخريج عدد كبير منهم عمّ نشاطهم العلمي والأدبي مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، حيث انتشروا في الجزيرة والموصل وبغداد والشام ومصر ، وتولوا المقاعد التدريسية وحلقات الطلبة ، وأسهموا في تنشيط الحركة الثقافية في تلك الجهات ، ووكلت اليهم كبرى المناصب القضائية والإدارية بما عرف عنهم من مقدرة علمية وأدبية ، رشحتهم لاسمى المناصب

---

(١) Enc. Isl. art: Artukids.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ٣٨/٢ - ٤٠ (عن ابن أبي طي) .

(٣) ابن أبي أصيبعة ، الأطباء ٣٢٨/٢ .

في تلك المناطق الواسعة من العالم الإسلامي[١] . وتحفل كتب التراجم بعدد كبير من العلماء والأدباء الذين تخرجوا من ديار بكر ، أو قدموا اليها ومارسوا فيها نشاطهم فترة من الزمن[٢] .

---

(١) انظر في هذا المجال : ابن أبي أصيبعة ، الأطباء ٢٨٥/٣ - ٢٨٧ ، ٣٣٧ - ٣٤٣، ابن طولون ، قضاة دمشق ص ٤٩ ، ٥٣ ، ٨٤ ، ١٠٤ ، ١١٣ ، ابن صصري الدرة المضنية ص ١٨٤ ، ١٨٧ - ١٨٨ ، القرشي ، طبقات الحنفية ١٨٥/٢-١٨٦ ، ٢٩٩، المقريزي، السلوك ١٣/٢/١ ، ١٤ ، ٨٤ ، ١٣٣ ، ٣٩٦/١/٢ ، ٤١٤ ، ٤٤٢ ، ٥٠٢ ، ٧٣٠/١/٣، ٧٥٩ ، ٨١٧ ، ٨٣٠ ، ٩٥٧ ، ابن الفرات ، تاريخ ٦٢/٧ ، ٧٠ ، ٤١٧/٩ ، ابن العماد ، شذرات ٦٥/٦ ، ٦٦ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ٢٥٥، ٣٢٣ ، ٣٤٧ ، ٣٥٨- ٣٥٩ ، ٨٣/٧ ، ٨٤ اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ٥٤٥/١ ، ٣٨٢/٣ ، ابن قطلوبغا ، تاج التراجم ص ١٧ - ١٨ ، القفطي ، الحكماء ص ١٦١ ، إنسان العيون ، مجهول ص ٢٢٧ - ٢٨٨ ، الدبيثي ، تتمة المختصر ١٠/١ ، ٢٣٢ ، ٢٧٩ - ٢٨٠ ، المستدرك عليه ٢٧١/٢ - ٢٧٢ ، ٢٨٣- ٢٨٤ ، ٣٠٥ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ٣٤٥/٢ ونشير في هذا المجال الى علي بن أحمد زين الدين الآمدي، الذي يرجع اليه الفضل في اختراع الطريقة التي يقرأ العميان بموجبها، وهي الكتابة البارزة (الصفدي نكت الهميان ص ٢٠٦-٢٠٨) ، وبهذا يكون قد سبق براي(Braille) الفرنسي في هذا المجال (انظر مقدمة نكت الهميان ص ج) وانظر كذلك نفس المصدر ص ٢٥٥-٢٥٧ ، أحمد بدوي ، الحيـاة العقلية ص ١٩٣-١٩٦ ، ٣٢٨ ، Zettersteen ، تاريخ سلاطين المماليك ص ١٩١ ، ١٩٣ ، السبكي ، طبقات الشافعية ٨١/٤ ، ١٢٩/٥ - ١٣٠ ، الجزري ، تاريخ (مخطوطة ٣/١-٦ ، ١٣-١٥ ، ١٦ ، ٧٠ ، ١٣٨ ، ٣٦/٢ ، ٣٩) ، ابن تغري بردي، المنهل الصافي (القسم المخطوط ١١/٢، ٢٧ ، ٢٠٩ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٣٢٢ - ٣٢٥ ، ٣٢٩ ، ٣٦٩ ، ٤٦٥ ، ٤٧١) .

(٢) فيما عدا الإشارات التي سبق ذكرها يمكن للباحث أن ينظر في هذا المجال :

ابن حجر ، الدرر الكامنة ١٦/٢ ، ٤٧ ، ٧٤ ، ١١٤ ، ١١٩، ١٣٠ ، ١٣٣، ١٦٩، ١٧٠ ، ١٧٤ ، ٢١٣ ، ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، ٣٠٤ ، ٣٦٩، ٣٧٧ ، ٤١٦، ٤٤٩ ، ٢١/٣، ٤٣ ، ٧٧ ، ٢١٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٦ ، ٢٦١ ، ٣١٥ ، ٣٢٥، ٣٣٠ ، ٣٣٦ ، ٤١٦ ،=

ولا ريب أن الاراتقة ، في قيامهم ببناء عدد كبير من المدارس ، تمكنوا من إرساء النشاط الثقافي في بلادهم على أسس منظمة ، إذ غدت تلك المدارس مؤسسات ثقافية لتخريج واستقبال عدد من الشيوخ والمدرسين والطلاب داخل المنطقة وخارجها . وقد رأينا فيما سبق كيف أن الاراتقة خصصوا جزءاً من مواردهم المالية لشؤون بناء المدارس وأشرفوا بأنفسهم على ذلك البناء . كما بلغ بعضهم درجة كبيرة في بعض جوانب الثقافة كحسام الدين تمرتاش الذي برع في الحكمة والفلسفة ، ووقف في المشهد الذي بناه كتباً حكمية[1] .

= ٤٣٨ ، ٤٨٩ ، ١٧/٤ ، ١٤٨ ، ١٩٨ ، ٢٤٦ ، ٢٥٣ ، ٢٧٥ ، ٢٩٧ ، ٣٤٢ ، ٣٥٩ ، ٣٨٦ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٥١ ، ابن الساعي ، المختصر ١٨٨/٢ ، ابن العماد ، شذرات ٨٥/٤ ، ١٦٨ – ١٦٩ ، ٢١٤ ، ٢٤٠ ، ٢٧٩ ، ٢٨٥ ، ٣٠٤ ، ٤/٥ – ٥ ، ٥٠ – ٥١ ، ٨١ ، ١٠١ – ١٠٢ ، ١٣٣ – ١٣٤ ، ١٤٤ – ١٤٥ ، ١٦٠ ، ٢٠٤، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٨٤ ، ٣٠٥ – ٣٠٦ ، ٣٩٢ ، ٣٩٧، ٤٠٩ ، ٤١٠، ٤٢٠ ، ٤٢١، ٤٢٨ ، ٤٤٥ ، ٤٤٩ ، ٤٥١ ، ٤٥٧ – ٤٥٨، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ٢٤/٧، ٥٠/٨ ، ٢١٧ ، ٢٩٠/٩ – ٢٩١ ، ٩٥/١١ – ٩٦ ، ٩٩، ١١٠ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ٣١١ – ٣١٢ ، ابن العبري ، المختصر ص ٤٧٩ – ٤٨٠ ، أبو شامة ، ذيل الروضتين ص ٨٦ ، ١٥٨ – ١٥٩ ، ١٦١ ، ٢١٠ ، ٢٤٠ ، أبو الفدا ، المختصر ٣٥/٣ ، ٥١ ، ١٦٣، فوات الوفيات ٢١٣/١ ، ٢٢٩ ، ٥٧٩ ، ٢٠٣/٢ ، ٣٢٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٦ ، ٥٣٨ ، ابن كثير ، البداية ١٢٨/١٣ ، ٣١٨ ، ٣٠/١٤ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٥٦ ، ١٦٨ ، ٢٩٣ ، الذهبي ، العبر ١٣/٤ ، ٧٤ ، ١٨٨ – ١٨٩ ، ابن الأثير ، اللباب ٧٩/٣ ، ٢٢٧، الصفدي ، الوافي بالوفيات ١٨٨/١ – ١٨٩، السمعاني، الانساب ٨٢/١ – ٨٣ ، هامش ١ ، ١٧٠/٢ – ١٧١ ، هامش ١ ، ٣٨٥/٥ – ٣٨٦، ياقوت، معجم الأدباء ١٢٦/١٠ – ١٣٠، معجم البلدان ٦٦/١ – ٦٨ ، ١٨٨/٢ ، ٣٨٠ ، ٨٧٧ ، ٥٥١/٣ – ٥٥٢ ، ٧٨٧/٤ – ٧٨٩ ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ١٧٧/٤ – ١٧٨ وغيرهم .

(١) ابن أبي أصيبعة ، طبقات ٢٢٨/٢ .

كان الادب ، والشعر بشكل خاص ، والخط وعلوم اللغة والكلام والفقه وعلوم القرآن والحديث والفلسفة والتصوف والحكمة ، تشكل أهم مجالات النشاط الثقافي في ديار بكر ، فضلاً عن العلوم المحضة وخاصة الطب والهيئة والفلك والرياضيات ، والعلوم التطبيقية التي ساعدت على ازدهار الصناعة في المنطقة[١] . أما في علم التاريخ فلم يبرز أي مؤرخ مشهور فيما عدا الفارقي (٥١٠ - ٥٧٢ ﻫ = ١١١٦ - ١١٧٦ م) ، الذي عاصر الاراتقة في بداية تكوينهم السياسي ودرس مختلف العلوم وخاصة التاريخ ، وتسلم عدداً من المناصب في ميافارقين ، كما قام برحلات وسفارات عديدة الى الخارج مما مكنه من إخراج كتابه المشهور (تاريخ آمد وميافارقين) ، الذي تميز بتقديمه تفاصيل دقيقة عن الفترة التي عاصر أحداثها وعن نظم الأراتقة وعلاقاتهم السياسية والحربية[٢] . هذا وقد زار ديار بكر ، في عهد الأراتقة عدد من الرحالة والجغرافيين والمؤرخين ودونوا ما شاهدوه من مظاهر طبيعية واجتماعية وعمرانية وثقافية وسياسية ، وأشهر هؤلاء ابن جبير (ت ٦١٤ ﻫ = ١٢١٧ م) ، وابن بطوطة (ت ٧٧٩ ﻫ = ١٣٧٧ م) ، وناسخ كتاب صورة الأرض لابن حوقل الذي زار المنطقة في منتصف القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ، وكتب تعليقات كثيرة الأهمية عن نظم الأراتقة ، وبنيامين التطيلي وغيرهم . ولا بد من الإشارة هنا الى محمد بن طلحة النصيبي صاحب كتاب (العقد الفريد) الذي تناول فيه ، من الناحية النظرية ، قوانين الحكم والنظم السائدة آنذاك ، وقد توفي عام (٦٥٢ ﻫ = ١٢٥٤ م)[٣] .

---

(١) أنظر ما سلف من الفصل .

(٢) انظر مقدمة محمد عوض في تحقيقه للقسم الأول من كتاب الفارقي (تاريخ آمد) .

(٣) بدوي ، الحياة العقلية ص ٣٢٨ وانظر

Enc. Isl., art : Artukids.

كان طابع الثقافة في عهد الأراتقة ، كما يتضح مما سبق ، عربياً في لغته وأسلوبه، خاصة وأن أهم مجالات تلك الثقافة المؤثرة في صبغة الحضارة ، ذات مصادر وجذور عربية كالأدب عامة ، والشعر بشكل خاص ، حيث كانت تقام الندوات والمباريات الشعرية في حضرة أمراء الأراتقة ، وكان هؤلاء يمنحون الجوائز للأكثر بلاغة وتمكناً في النواحي الأدبية(١) ، هذا فضلا عن الفقه وعلوم القرآن والحديث واللغة والكلام ، والفلسفة الى حد ما ، بسبب من ارتباطها بالتصوف كمصدر ديني ، فضلا عن أن قسماً ممن تخصصوا في المواضيع العلمية ، التي لا علاقة لها بالعربية ، كانوا قد أتقنوا العربية(٢) . كما أن اللغة السائدة في المنطقة كانت عربية ، بسبب استعمالها من قبل قطاعات واسعة من السكان كالمسلمين من غير الأتراك والمسيحيين اليعاقبة واليونانيين(٣) . وكانت أهم اللغات التي تليها في الأهمية هي التركية ، فالأرمنية التي اختص بها الأرمن دون غيرهم(٤) ، فضلا عن الكردية .

ويشير كاهين الى أن الحفاوة والتقدير التي لقيهما كل من صفي الدين الحلي وأسامة بن منقذ لدى الأراتقة ، تدل على الحيوية التي كانت تتمتع بها التقاليد الأدبية العربية ، وعلى أن الحضارة العربية كانت تحتل موضع شرف هناك(٥) ، خاصة وأن كلاً من هذين الشاعرين كان يمثل النزعة العربية الأصيلة في العطاء

---

(١) انظر : ابن عربشاه ، أخبار تيمور ، ص ٥٢ ، وسليم ، صفي الدين الحلي ص ٢٣ ، ٢٥ - ٢٦ ، ٤٢ - ٤٣ .

(٢) ابن أبي أصيبعة ، طبقات ٢/٣٢٨ .

(٣) C. Cahen, La Syrie du Nord. pp. 190—193.

(٤) Ibid.

(٥) Enc. Isl., art : Artukids, C. Cahen, La Syrie du Nord, P. 44.

الادبي ، والتي اصطبغت أحياناً بروح البداوة . ولكن ذلك كله لم يمنع من أن تكون المنطقة الارتقيـة المعين الاول للأبيات الشعريـة القليلة ، التي تكون النماذج الاولى للأدب الشعبي في اللغة التركية غربي آسيا[١] ، ومن أن يحتفظ كثير من الاتراك ، الذين دخلوا الإسلام ، بلغتهم ، الامر الذي أحدث انسجاماً بمرور الوقت بين الإسلام ولغة الاهالي [٢] .

---

(١) Enc. Isl. art. Artukids,

(٢) بارتولد ، الترك ص ١١٠ .

قائمة المصادر والمراجع

المصادر القديمة

آ - المخطوطة

ابن بهادر – محمد بن محمد المؤمني (ت ٨٧٧ هـ) .

فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر ، مجلدان ، مصور في دار الكتب رقم ٢٣٩٩ .

ابن تغري بردي – جمال الدين أبي المحاسن الاتابكي (ت ٨٧٤ هـ) .

المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، المجلدان الثاني والثالث ، مخطوطة في دار الكتب رقم ١١١٣ .

الجزري – محمد بن إبراهيم (ت ٧٣٩ هـ) .

تاريخ ابن الجزري ، مجلدان في دار الكتب رقم ٢١٥٩ (صوراً عن خزانة باريس سنة ١٣٤٥ هـ) ، وثلاث مجلدات أخرى تبدأ بأحداث سنة ٧٢٦ هـ في دار الكتب رقم ٩٩٥ (صورت عن نسخة في مكتبة كوبرلي زادة بالاستانة).

ابن دقماق – صارم الدين إبراهيم بن إيدمر (ت ٨٠٩ هـ) .

الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ، مجلد واحد ، دار الكتب رقم ١٥٢٢ .

نزهة الانام في تاريخ الإسلام ، مجلدان (مصوران) في دار الكتب رقم ١٧٤٠ .

سبط بن الجوزي – شمس الدين بن يوسف بن قزا وغلي التركي (ت ٦٥٤ هـ).

مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ، ١٧ مجلداً (مصورة في دار الكتب رقم ٥٥١) .

ابن شاهنشاه – الملك المنصور محمد بن عمر الايوبي (اواخر ق ٦) .

مضمار الحقائق وسرّ الخلائق، مخطوطة معدة للنشر من قبل الدكتور حسن حبشي . (نشرت أخيراً) .

ابن شداد – عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم (ت ٦٨٤ هـ) .

الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، (قسم الجزيرة)، مخطوطة أكسفورد رقم (Bodl. Marsh 33) .

ابن العديم – كمال الدين عمر بن هبة الله (ت ٦٦٠ هـ) .

بغية الطلب في تاريخ حلب ، ٣ مجلدات (مصورة) في دار الكتب رقم ١٥٦٦ .

العمري – شهاب الدين أحمد بن فضل الله (ت ٧٤٩ هـ) .

مسالك الابصار في ممالك الامصار ، ٣٠ جزءاً (مصورة) في دار الكتب رقم ٢٥٦٩ .

العيني – بدر الدين محمود بن أحمد (ت ٨٥٥ هـ) .

عقد الجمان في تاريخ أهل الزمـان ، ٦٩ مجلداً (مصورة) في دار الكتب رقم ١٥٨٤ .

الغياث – عبد الله بن فتح الله البغدادي (كان حياً سنة ٨٩٠ هـ) .

التاريخ الغياثي ، مخطوطة في مكتبة معهد الدراسات الإسلامية العليـا – بغداد .

الفارقي – أحمد بن يوسف بن علي بن الازرق (ت ٥٧٢ هـ).

تاريخ آمد وميافارقين ، مخطوطة : Oxford. 6, 310 .

ابن الفرات – ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم الحنفي المصري (ت ٩٠٧ هـ).

تاريخ الدول والملوك ، ١٨ مجلداً (مصورة) في دار الكتب رقم ٣١٩٧ .

ابن قاضي شهبة – تقي الدين أبو بكر بن أحمد بن محمد الاسدي الدمشقي (ت ٨٥١هـ) .

الاعلام بتاريخ أهل الإسلام ، ٧ مجلدات (مصورة) في دار الكتب رقم ٣٩٢ .

ابن قاضي شهبة – بدر الدين محمد بن أحمد الاسدي الشافعي (ت ٨٧٤ هـ) .

الدر الثمين في سيرة نور الدين ، ويسمى (الكواكب الدرية في السيرة النورية) ، مجلد واحد (مصور) في دار الكتب رقم ٢١١ .

القدسي – محمد أبي حامد الشافعي (ت ٨٩٣ هـ) .

دول الإسلام الشريفة البهية ، مجلد واحد (مخطوطة) في دار الكتب رقم ١٠٣٣ .

ابن قطلوبغا – القاسم بن عمر بن منصور الواسطي (ت ٦٢٦ هـ) .

تاج التراجم في طبقات الحنفية ، مخطوطة في مكتبة معهد الدراسات الإسلامية العليا – بغداد .

المارديني – عبد السلام بن عمر بن محمد المفتي (ت ١٢٥٩ هـ) .

تاريخ ماردين ، مجلد واحد (مخطوط) في دار الكتب رقم ٨١٣ .

المقريزي – تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ) .

السلوك لمعرفة دول الملوك ، مجلدان (مصوران) دار الكتب رقم ٤٦٤ .

مؤلف مجهول – ؟

إنسان العيون في مشاهير سادس القرون ، مجلد واحد (مخطوط) في مكتبة معهد الدراسات الإسلامية العليا – بغداد .

النويري – شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢ هـ) .

نهاية الإرب في فنون الادب ، ١٨ جزءاً (مصورة) دار الكتب رقم ٥٤٩ .

ابن واصل – جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧ هـ) .

تاريخ الواصلين في أخبار الخلفاء والملوك والسلاطين ، (ويسمى مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) ، مجلدان (مصوران) في دار الكتب رقم ٥٣١٩ .

ب ـ المطبوعة

ابن أبي أصيبعة ـ أحمد بن القاسم الخزرجي (ت ٦٦٨ هـ) .

عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ٣ أجزاء ، دار الفكر، بيروت ٩٥٧ م.

ابن الأثير ـ أبو الحسن عز الدين بن علي الشيباني الجزري (ت ٦٣٠ هـ) .

التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (بالموصل) ، تحقيق ، عبد القادر أحمد طليمات ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ـ ٩٦٣ م .

الكامل في التاريخ ، ١٢ جزءاً ، دار الطباعة ، القاهرة ـ ١٢٩٠ هـ .

اللباب في تهذيب الأنساب ، ٣ أجزاء، مكتبة القدسي ، القاهرة ١٣٥٧هـ.

ابن الأثير ـ ضياء الدين (ت ٦٣٧ هـ) .

رسائل ابن الأثير ، تحقيق انيس المقدسي ، دار العلم للملايين بيروت ـ ١٩٥٩ م .

الأصطخري ـ أبو اسحق محمد بن إبراهيم الفارسي (ت ٣٤٦ هـ) .

مسالك الممالك ، ليدن ، بريل ـ ١٩٢٧ م .

ابن إياس ـ محمد بن أحمد الحنفي المصري (ت ٩٣٠ هـ) .

بدائع الزهور في وقائع الدهور ، المجلد الأول ، المطبعة الأميرية بولاق مصر ـ ١٣١١ هـ .

البدليسي – شرف خان (ألـّف في أواخر عام ١٠٠٥ هـ) .

الشرفنامة، ترجمه عن الفارسية ملا جميل بندي روزبياني، مطبعة النجاح ، بغداد – ١٩٥٣ م .

البشاري – أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي (ت ٣٧٥ هـ) .

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ليدن ، بريل – ١٩٠٦ م . (أعادت مكتبة المثنى في بغداد طبعه) .

ابن بطوطة – محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩ هـ) .

تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، جزءان تحقيق أحمد العوامري ومحمد أحمد جاد المولى ، المطبعة الأميرية ، القاهرة – ١٩٣٤ م .

البكري – عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت ٤٨٧ هـ) .

معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، ٤ أجزاء ، تحقيق مصطفى السقا ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة – ١٩٤٥ م .

البنداري – الفتح بن علي الأصفهاني (ت ٦٤٣ هـ) .

تاريخ دولة آل سلجوق ، من إنشاء عماد الدين محمد بن محمد الأصفهاني (ت ٥٩٧ هـ) واختصار البنداري ، مطبعة الموسوعات مصر – ١٩٠٠ م .

التطيلي – بنيامين بن يونة الأندلسي (ر ٥٦١ – ٥٦٩ هـ) .

رحلة بنيامين ، ترجمها عن الأصل العبري وحققها عزرا حداد ، المطبعة الشرقية ، بغداد – ١٩٤٥ م .

ابن تغري بردي – جمال الدين أبي المحاسن الأتابكي (ت ٨٧٤ هـ) .

المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، الجزء الأول ، تحقيق أحمد يوسف

الحلي – صفي الدين عبد العزيز بن سرايا (ت ٧٥٢ هـ) .

ديوان الحلي ، مكتبة المطبعة الأدبية ، بيروت – ١٨٩٢ م .

ابن حوقل – أبو القاسم النصيبي (ت ٣٦٧ هـ) .

صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة ، بيروت (عن ليدن ١٩٣٨ م) .

ابن خرداذبة – أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت في حدود سنة ٣٠٠ هـ).

المسالك والممالك ، أعادت طبعه مكتبة المثنى في بغداد عن طبعة بريل عام ١٨٨٩ م .

ابن خلدون – عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ) .

العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ٦ مجلدات ، دار الكاتب اللبناني بيروت – ١٩٥٦ – ١٩٥٩ م .

ابن خلكان – أبو العباس أحمد (ت ٦٨١ هـ) .

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، مجلدان ، المطبعة الميمنية، القاهرة – ١٣١٠ هـ .

خواندمير – غياث الدين بن همام الدين (ت ٩٤٢ هـ) .

حبيب السير في أخبار أفراد البشر (بالفارسية) ، طبع بمباني ١٨٥٨ م .

ابن الدبيثي – محمد بن سعيد بن محمد (ت ٦٣٧ هـ) .

المختصر المحتاج اليه من تاريخ الحافظ بن الدبيثي ، انتقاء محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، تحقيق مصطفى جواد ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، بغداد ١٩٥١ ، ١٩٦٣ م .

نجاتي ، دار الكتب المصرية ، القاهرة – ١٩٥٦ م .

النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ، ١٣ جزءاً ، طبعة سلسلة تراثنا عن مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٩ – ١٩٥٦ م .

مورد اللطافة ، تحقيق Cantabridgie — 1792, J. D. Carlyle.

ابن جبير – محمد بن أحمد الكناني الأندلسي (ت ٦١٤ ، رحلته ٥٧٨ – ٥٨٠ هـ) .

رحلة ابن جبير ، مطبعة السعادة ، مصر – ١٩٠٨ م (عن النسخة المطبوعة بليدن) .

ابن الجوزي – عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧ هـ) .

المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، ٥ أجزاء ط ١ ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ، الهند – ١٣٥٩ هـ .

حاجي خليفة – مصطفى بن عبد الله (ت ١٠٦٧ هـ) .

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، مجلدان ، مطبعة وكالة المعارف ، استانبول – ١٩٤١ – ١٩٤٣ م .

ابن حجر – شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) .

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ٤ أجزاء ط ١ دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، الدكن ، الهند – ١٣٤٩ هـ .

الحسيني – أبو الحسن علي بن أبي الفوارس (ت ٦٢٢ هـ) .

أخبار الدولة السلجوقية (المسمى زبدة التواريخ في أخبار الأمراء والملوك السلجوقية) ، تحقيق محمد إقبال ، نشريات كلية فنجاب ، لاهور – ١٩٣٣ م .

دحلان – أحمد بن زيني (ت ١٣٠٤ هـ) .

الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ، جزءان ، المكتبة التجارية ، القاهرة – ١٣٥٤ هـ .

الدواداري – أبو بكر بن عبد الله بن إيبك (حوالي ٧٣٥ هـ) .

كنز الدرر وجامع الغرر ، جزء ٩ (وهو باسم الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر) ، تحقيق هانس روبرت رويمر ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة – ١٩٦٠ م .

الديار بكري – حسين بن محمد بن الحسن (ت ٩٨٢ هـ) .

تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ، جزءان ، المطبعة الوهبية القاهرة – ١٢٨٣ هـ .

الذهبي – الحافظ شمس الدين محمد بن عثمان بن قايماز التركماني (ت ٧٤٨ هـ)

دول الإسلام ، جزءان ، ط ٢ ، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ، الهند – ١٣٦٤ هـ .

العبر في خبر من غبر ، ٤ أجزاء (الجزءان الأول والرابع تحقيق صلاح الدين المنجد ، دار المطبوعات والنشر ، الكويت ١٩٦٠ ، والجزءان الثاني والثالث تحقيق فؤاد السيد مطبعة حكومة الكويت ، الكويت – ١٩٦١) .

رشيد الدين – فضل الله الهمذاني (ت ٧١٨ هـ) .

جامع التواريخ ، تاريخ المغول (المجلد الثاني ، الجزء الأول والثاني) ، (الإيلخانيون – تاريخ هولاكو) ترجمة محمد صادق نشأت ورفاقه عن الطبعة التي نشرها كاترمير ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٦٠ م .

الرمزي – م . القيصري (ت ١١٣٠ هـ) .

تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار، جزءان، المطبعة الكريمية والحسينية ، أورنبورغ – ١٣٢٥ هـ .

ابن الساعي – أبو طالب علي بن إنجب تاج الدين (ت ٦٧٤ هـ) .

الجامع المختصر في عنوان التواريـــخ وعيون السير ، عني بنشره مصطفى جواد ، المطبعة السريانية الكاثوليكية ، بغداد ١٣٥٣ هـ .

مختصر أخبار الخلفاء ، (اختصر من قبل مؤرخ مجهول من أهـــل القرن السابع للهجرة في أواخر سنة ٦٦٦ هـ) ، المطبعة الأميرية ببولاق ، مصر – ١٣٠٩ هـ .

سبط بن الجوزي – شمس الدين يوسف بن قزا وغلي التركي (ت ٦٥٤ هـ) .

مرآة الزمـــان في تاريخ الأعيان ، جزءان ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ، الهند – ١٣٧٠ هـ .

السبكي – تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين (ت ٧٧١ هـ) .

طبقات الشافعية الكبرى ، ٦ أجزاء ، المطبعة الحسينيـــة ، القاهرة – ١٣٢٤ هـ .

معيد النعم ومبيد النقم ، (في هامش كتـــاب تفريج المهج لابن قضيب البان) ، مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة .

السمعاني – عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي (ت ٥٦٢ هـ) .

الأنساب ، تعليق عبد الرحمن بن يحيى اليماني ، خمسة أجـــزاء ، دائرة المعاوف العثمانية ، حيدرأباد الهند ١٩٦٢ – ١٩٦٦ .

السيوطي – جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ) .

تاريخ الخلفاء ، ط ٢ ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، مصر – ١٣٧٨ هـ .

أبو شامة – شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥ هـ) .

تراجم رجال القرنين السادس والسابع (المعروف بالذيل على الروضتين) ، تحقيق محمد زاهد الكوثري وعزت الحسيني ، مكتب نشر الثقافة الإسلامية ، دمشق – ١٩٤٧ م .

كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، جزءان ، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة – ١٩٥٦ م .

ابن الشحنة – محمد الحلبي الحنفي (ت ٩٢١ هـ) .

الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، تعليق يوسف بن إليان سركيس الدمشقي ، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، بيروت – ١٩٠٩ .

ابن شداد – القاضي بهاء الدين (ت ٦٣٢ هـ) .

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، القاهرة – ١٩٦٢ م .

ابن شداد – عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم (ت ٦٨٤ هـ) .

الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، قسم حلب تحقيق دومينيك سورديل ، المعهد الفرنسي ، دمشق – ١٩٥٣ ، قسم دمشق ، تحقيق سامي الدهان ، المعهد الفرنسي ، دمشق – ١٩٥٦ م .

الشوكاني – محمد بن علي (ت ١٢٥٠ هـ) .

البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، جزءان ، نشرة معروف عبد الله باسندوه ، مطبعة السعادة ، القاهرة – ١٣٤٨ هـ .

شيخ الربوة – شمس الدين محمد الأنصاري الدمشقي (ت ٧٢٧ هـ) .

نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، لإيبزك – ١٩٢٣ (أعادت طبعه مكتبة المثني – بغداد) .

الصالحي – محمد بن علي بن طولون الدمشقي (ت ٩٥٣ هـ) .

القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، مكتبة الدراسات الإسلامية ، دمشق – ١٩٤٩ م .

ابن صصري – محمد بن محمد (كان حياً فيما بعد ٨٠٠ هـ) .

الدرة المضية في الدولة الظاهرية (مخطوط ش . لود ١١٢ – مكتبة بودليان ، اكسفورد) ، تحقيق د . وليم م . برينر ، جامعة كاليفورنيا بركلي ولوس انجلس ١٩٦٣ م .

الصفدي – صلاح الدين خليل بن إيبك (ت ٧٦٤ هـ) .

نكت الهميان في نكت العميان ، تحقيق أحمد زكي ، المطبعة الجمالية ، القاهرة – ١٩١١ ، (أعادت طبعه مكتبة المثني – بغداد) .

الوافي بالوفيات ، باعتناء هـ . ريترر ، النشريات الإسلامية مطبعة الدولة ، استانبول – ١٩٣١ م .

ابن الطقطقي – محمد بن علي بن طباطبا العلوي (ت ٧٠٩ هـ) .

الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، مطبعة محمد علي صبيح ، الأزهر – ١٩٦٢ م .

ابن طولون – شمس الدين (ت ٩٥٣ هـ) .

قضاة دمشق (الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام) ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، دمشق – ١٩٥٦ م .

الظاهري – غرس الدين خليل بن شاهين (ت ٨٧٣ هـ) .

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، صححه بولس راويس ، المطبعة الجمهورية ، باريس – ١٨٩٤ م .

الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية تحقيق

H. Moller, A. Moberg — 1902

ابن عبد الظاهر – محي الدين عبد الله بن نشوان المصري (ت ٦٩٢ هـ) .

تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور (وتناول الحقبة ما بين ٦٧٨ – ٦٨٩ هـ) ، تحقيق مراد كامل ، سلسلة تراثنا .

الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر (بيبرس) ، منشور في كتاب

Baybars the First of Egypte, by S. F. sadeque, öxford univ. pr., Pakistan, 1956.

ابن العبري – غريغوريوس الملطي (ت ٦٨٥ هـ) .

تاريخ مختصر الدول ، وقف على طبعه الأب انطوان صالحاني اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين بيروت – ١٨٩٠ م .

ابن العديم – كمال الدين عمر بن هبة الله (ت ٦٦٠ هـ) .

زبدة الحلب من تاريخ حلب ، جزءان ، تحقيق سامي الدهان ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق – ١٩٥٤ م .

ابن عربشاه – شهاب الدين أحمد بن عبد الله الدمشقي الأنصاري (ت ٨٥٤هـ).

عجائب المقدور في أخبار تيمور ، المطبعة العثمانية ، القاهرة – ١٣٠٥ هـ .

ابن عساكر – أبو القاسم علي بن الحسن الدمشقي (ت ٥٧١ هـ) .

التاريخ الكبير ، ٥ مجلدات ، تصحيح عبد القادر بدران ، مطبعة روضة

الشام ، دمشق – ١٣٢٩ هـ .

العظيمي – محمد بن علي (ت ٥٥٦ هـ) .

تاريخ العظيمي ، مخطوطة ، نشر سامي الدهان بعض أقسامها المهمة في حاشية زبدة الحلب لابن العديم (انظر ابن العديم) .

العماد الأصفهاني – محمد بن محمد بن حامد (ت ٥٩٧ هـ) .

خريدة القصر وجريدة العصر ، جـزء ٢ ، قسم شعراء الشام ، تحقيق شكري فيصل ، المطبعة الهاشمية ، دمشق – ١٩٥٩ ، قسم شعراء العراق ، تحقيق محمد بهجت الأثري وجميل سعيد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ١٩٥٥ .

تواريخ آل سلجوق (وهو الجزء المشتمل على كتاب زبدة النصرة ونخبة العصرة) ، اختصره الفتح بن علي البنداري (ت ٦٤٣ هـ) ، تحقيق (Th. Houtsma, Leiden — Brill — 1889)

الفيح القسي في الفتح القدسي ، مطبعة الموسوعات ، القاهرة – ١٣٢١ هـ .

ابن العماد – أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ) .

شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ٨ أجزاء ، مكتبة القدسي القاهرة – ١٣٥٠ هـ .

العمري – شهاب الدين أحمد بن فضل الله (ت ٧٤٩ هـ) .

التعريف بالمصطلح الشريف ، مطبعة العاصمة ، القاهرة – ١٣١٢ هـ .

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، الجزء الأول ، تحقيق أحمد زكي ، دار الكتب العربية ، القاهرة – ١٩٢٤ م .

العمري – ياسين بن خير الله ، الخطيب (ت ١٢٣٢ هـ) .

منية الأدباء في تاريخ الموصل الحدباء ، تحقيق سعيد الديوه جي ، مطبعة الهدف ، الموصل – ١٩٥٥ م .

العيني – محمود بن أحمد المعروف بالبدر العيني (ت ٨٥٥ هـ) .

الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر (ططر) ، تحقيق هانس ارنست ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة – ١٩٦٢ م .

الغزي – كامل بن حسين بالي الحلبي (١٢٧١ هـ) .

نهر الذهب في تاريخ حلب ، جزءان ، المطبعة المارونية ، حلب ١٣٤٢ هـ .

الفارقي – أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق (ت ٥٧٢ هـ) .

القسم المنشور بواسطة بدوي عبد اللطيف عوض ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، القاهرة – ١٩٥٩ م .

أبو الفدا – عماد الدين إسماعيل بن محمد (ت ٧٣٢ هـ) .

تقويم البلدان ، دار الطباعة السلطانية ، باريس – ١٨٤٠ (أعادت طبعه مكتبة المثني – بغداد) .

المختصر في أخبار البشر ، دار الطباعة الشاهانية ، القسطنطينية – ١٢٨٦هـ .

ابن الفرات – ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٩٠٧ هـ) .

تاريخ ابن الفرات ، المجلدات ٧ ، ٨ ، ٩ تحقيق قسطنطين زريق ، الجامعة الأمريكية ، المطبعة الأميركانية ، بيروت – ١٩٤٢ م (منشورات كلية العلوم والآداب) .

ابن الفقيه – أحمد بن محمد الهمذاني (ت ٣٦٥ هـ) .

مختصر كتاب البلدان ، ليدن ، بريل – ١٣٠٢ هـ (أعادت طبعه مكتبة المثني – بغداد) .

ابن الفوطي – كمال الدين أبي الفضل عبد الرزاق البغدادي (ت ٧٢٣ هـ) .

الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائـــة السابعة ، تحقيق مصطفى جواد ، المكتبة العربية ، بغداد – ١٣٥١ هـ .

القرشي – محيي الدين أبي محمد عبد القـــادر بن أبي الوفاء الحنفي (ت ٧٧٥ هـ) .

الجواهر المضية في طبقات الحنفية ، جزءان ، دائرة المعارف النظامية حيدر آباد الدكن ، الهند – ١٣٣٢ هـ .

القرماني – أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي (ت ١٠١٩ هـ) .

أخبار الدول وآثار الأول ، بغداد – ١٢٨٤ هـ .

القزويني – زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢ هـ) .

آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر – دار بيروت ، بيروت – ١٩٦٠م .

القفطي – جمال الدين علي بن يوسف (ت ٦٤٦ هـ) .

إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، تصحيح محمد أمين الخانجي الكتبي ، مطبعة السعادة ، مصر – ١٣٢٦ هـ .

ابن القلانسي – أبو يعلي حمزة (ت ٥٥٥ هـ) .

ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق آمد روز ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت

- ١٩٠٨ م (أعادت طبعه مكتبة المثنى - بغداد) .

القلقشندي - أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١ هـ) .

صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ١٤ جزءاً ، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، القاهرة ١٩٦٣ م (سلسلة تراثنا) .

مآثر الانافة في معالم الخلافة ، ٣ أجزاء ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، وزارة الارشاد والأنباء ، الكويت - ١٩٦٤ م ، (سلسلة التراث العربي) .

الكتبي - محمود بن شاكر بن أحمد (ت ٧٦٤ هـ) .

فوات الوفيات ، جزءان ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة - ١٩٥١ م .

ابن كثير - اسماعيل بن عمر الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ) .

البداية والنهاية في التاريخ ، ١٤ جزءاً ، مطبعة السعادة ، القاهرة - ١٩٣٢ م .

المروزي - شرف الزمان طاهر (حوالي سنة ٥١٤ هـ) .

أبواب في الصين والترك والهند منتخبة من كتاب طبائع الحيوان ، صورة عن مخطوطة ، تحقيق مينورسكي ، الجمعية الآسيوية الملكية ، لندن - ١٩٤٢ م .

المقريزي - تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ) .

السلوك لمعرفة دول الملوك ، ٦ أجزاء ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، دار الكتب المصرية ، القاهرة - ١٩٣٦ م .

المواعظ والاعتبار ، بذكر الخطط والآثار ، جزءان ، مطبعة بولاق ، القاهرة - ١٢٧٠ هـ .

ابن مماتي – الأسعد (ت ٦٠٦ هـ) .

قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، مطبعة مصر – ١٩٤٣ م .

ابن منقذ – أسامة بن مرشد الكناني الشيرزي (ت ٥٨٤ هـ) .

كتاب الاعتبار ، تحقيق فيليب حتي ، مطبعة جامعة برنستون ، الولايات المتحدة – ١٩٣٠ م (أعادت طبعه مكتبة المثنى – بغداد) .

ابن ميسر – محمد بن علي بن يوسف المصري (ت ٦٧٧ هـ) .

أخبار مصر ، الجزء الثاني ، تحقيق هنري ماسيه ، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي ، القاهرة – ١٩١٩ م .

النابلسي – عثمان بن إبراهيم (كان حياً سنة ٦٣٢ هـ) .

لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية ،

Edition Préparee Par C. Becker et mise an Point par C. Cahen, Extrait du Builetin d'Etudes onien—tales de L'Institute Francaise De Damas, Tome Xvi, 1958—1960.

النسوي – محمد بن أحمد بن علي (كان حياً قبل سنة ٦٣٩ هـ) .

سيرة السلطان جلال الدين منكوبرتي ، تحقيق حافظ أحمد حمدي ، دار الفكر العربي ، القاهرة – ١٩٥٣ م .

النعيمي – عبد القادر بن محمد الدمشقي (ت ٩٢٧ هـ) .

الدارس في تاريخ المدارس ، جزءان ، تحقيق جعفر الحسني ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ، دمشق – ١٩٤٨ – ١٩٥١ م .

النويري – شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢ هـ) .

نهاية الإرب في فنون الأدب ، ١٨ جزءاً ، نسخة مصورة عن طبعة دار

الكتب ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، القاهـــرة – ١٩٥٤ م . (سلسلة تراثنا) .

ابن واصل – جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧ هـ) .

مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، ٣ أجزاء ، تحقيق جمال الدين الشيال جامعة فؤاد الأول ، القاهرة – ١٩٥٣ م .

ابن الوردي – سراج الدين أبو حفص عمر (ت ٧٤٩ هـ) .

خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، مطبعة عثمان عبد الرزاق ، القاهـــرة – ١٣٠٦ هـ .

تتمة المختصر في تاريخ البشر ، جزءان ، المطبعـــة الوهبية ، القاهرة – ١٢٨٥ هـ .

اليافعي – عبد الله بن أسعد عفيف الدين اليمني المكي (ت ٧٦٨ هـ) .

مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، ٤ أجزاء ، دائرة المعارف النظامية ، حيدر آباد الدكن – الهند – ١٣٣٨ هـ .

ياقوت الحموي – شهاب الدين بن عبد الله الحمـــوي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦ هـ) .

معجم الأدباء ، عشرون جزءاً ، مكتبة عيسى البابي الحلبي ، القاهـــرة ١٩٣٨ م (مطبوعات دار المأمون) .

معجم البلدان ، ٦ اجزاء ، تحقيق فستنفلد ، ليبزك – ١٨٦٦ م .

ابن يحيى – صالح (أواسط القرن التاسع الهجري) .

كتاب تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بني الغرب ، الطبعـــة

الثانية ، تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت – ١٩٢٧ م .

اليونيني – موسى بن محمد بن أحمد بن قطب الدين البعلبكي (ت ٧٢٦ هـ) .

ذيل مرآة الزمان ، أربعة أجزاء ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ، الهند – ١٩٥٤ – ١٩٦١ م .



المراجع الحديثة

بارتولد – و .

تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، ترجمة أحمد السعيد سليمان ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة – ١٩٥٨ م .

بدوي – أحمد أحمد .

الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، مكتبة النهضة المصريه ، القاهرة – ؟

برصوم – الأب أفرام .

نزهة الأذهان في تاريخ دير الزعفران، المطبعة السريانية،ماردين– ١٩١٧م.

بروكلمان – كارل .

تاريخ الشعوب الإسلامية ٥ أجزاء ، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ط ٣ ، دار العلم للملايين ، بيروت – ١٩٦١ .

حبشي – حسن .

أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، مترجم عن مؤلف مجهول ، دار الفكر العربي ، القاهرة – ١٩٥٨ .

الحرب الصليبية الأولى ، ط ٢ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٥٨ .

نور الدين والصليبيون ، دار الفكر العربي ، القاهرة – ١٩٤٨ .

حسن – علي إبراهيم .

دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص، ط٢ مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة – ١٩٤٨ .

الديوه جي – سعيد

الموصل في العهد الأتابكي ، مطبعة شفيق ، بغداد – ١٩٥٨ .

زامباور – إدواردفون .

معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، جزءان ، ترجمة وإخراج زكي محمد حسن ورفاقه ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، القاهـــرة – ١٩٥١ م .

زترستين – ك . ف .

تاريخ سلاطين المماليك ، قام بنشره

K. F. Zetter — Steen, London, 1919.

زقلمة – أنور .

المماليك في مصر ، مطبعة المجلة الجديدة ، القاهرة – ؟

زكي – محمد أمين .

خلاصة تاريخ الكرد وكردستان من أقدم العصور التاريخية حتى الآن ، المجلد الأول ، ترجمة محمد علي عوني ط ٢ ، مطبعـــة صلاح الدين ، بغداد – ١٩٦١ .

تاريخ الدول والإمارات الكردية في العهد الإسلامي (وهو المجلد الثاني من خلاصة تاريخ الكرد) ، ترجمة محمد علي عوني ، مطبعة السعادة ، القاهـــرة – ١٩٤٨ م .

سامي – ش .

قاموس الأعلام التركي (بالتركية) ، ٦ أجزاء ، مهران مطبعة سي ، استانبول – ١٣٠٦ – ١٣١٦ هـ .

سرور – محمد جمال الدين .

دولة بني قلاوون في مصر ، دار الفكر العربي ، القاهرة – ١٩٤٧ م .

سليم – محمود رزق .

صفي الدين الحلي ، دار المعارف (نوابغ الفكر العربي رقم ٢٧) ، القاهرة – ١٩٦٠ .

الصابوني – أحمد (ت ١٩١٦ م) .

تاريخ حماة ، ط ٢ ، شرح وتعليق قدري الكيلاني ، المطبعة الأهلية ، حماة – ١٩٥٦ م .

الصائغ – سليمان الموصلي .

تاريخ الموصل ، الجزء الأول ، المطبعة السلفية ، مصر – ١٩٢٣ م .

الطباخ – محمد راغب بن محمود بن هاشم الحلبي .

أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، سبعة أجزاء ، المطبعة العلمية ، حلب – ١٩٢٣ – ١٩٢٦ م .

طرخان – إبراهيم علي .

مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، مكتبة النهضة المصرية (سلسلة الألف كتاب رقم ٢٧٩) ، القاهرة – ١٩٦٠ م .

طلس – محمد أسعد .

تاريخ الأمة العربية ، عصر الانحدار ، دار الاندلس ، بيروت – ١٩٦٣ م.

عاشور – سعيد عبد الفتاح .

الحركة الصليبية ، جزاءن ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة – ١٩٦٣ م .

العصر المماليكي في مصر والشام ، دار النهضة العربية ، القاهرة – ١٩٦٥ م .

العريني – السيد الباز .

الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، الجزء الأول ، دار النهضة العربية ، القاهرة – ١٩٦٣ م .

مؤرخو الحروب الصليبية ، دار النهضة العربية ، القاهرة – ١٩٦٢ م .

العزاوي – عباس .

تاريخ العراق بين احتلالين ، ٨ اجزاء ، مطبعة بغداد والتفيض وشركة الطباعة ، بغداد – ١٩٣٥ – ١٩٥٥ م .

تاريخ النقود العراقية لما بعد العهود العباسية ، شركة التجارة والطباعة ، بغداد – ١٩٥٨ م .

التعريف بالمؤرخين ، القسم الأول في عهد المغول والتركمان ، شركة التجارة والطباعة ، بغداد – ١٩٥٧ م .

فيشل – والترج .

لقاء ابن خلدون لتيمورلنك ، ترجمة محمد توفيق ، تعليق مصطفى جواد ، دار مكتبه الحياة ، بيروت – ١٩٦٥ م .

كحالة – عمر رضا .

معجم المؤلفين ، ١٥ جزءاً ، المكتبة العربية ، دمشق – ١٩٥٧ – ١٩٦١ م .

لسترانج – كي .

بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة وتحقيق ، بشير فرنسيس وكوركيس عواد ،

مطبوعات المجمع العلمي ، بغداد — ١٩٥٤ م .

النقاش — زكي

العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خـــلال الحروب الصليبية ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت — ١٩٥٨ م .

هامرتن — جون آ . (اعداد) .

تاريخ العالم ، ترجمة إدارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .

مجلة سومر — المجلد السابع سنة ١٩٥١ ، بغداد .
المجلد العشرون سنة ١٩٦٤ ، بغداد .

مجلة المجمع العلمي العربي — المجلد الثالث والثلاثون سنة ١٩٥٨ ، دمشق .

مجلة الاقلام — الجزء التاسع ، السنة الثانية .

مجلة بغداد — العدد الرابع والعشرون سنة ١٩٦٥ ، العدد الخامس والعشرون سنة ١٩٦٦ .

Archer, T., Kingsford, C.
The Crusaders, London, 1894.
Baldwin, M.W.
Raymond 111, of Tripolis and the Fall of Jerusalem, Princeton, 1936.
Brehier, L.
1- Vie et Mort de Byzance, Paris, 1947.
2- L'Eglise et L'Orient an Moyen Age, Les Croisades, Paris, 1928.
Browne, E.G.
Account of a Rare Manuscript History of Selijugs, London, 1966.
Cahen, Claude.
1- La Syrie du Nord a L'Epoque des Croisades, Paris, 1940.
2- Monvements Populaires et Antonomisme Urbaine dans L'Asie Musulmane du Moyen Age, Leiden, 1959.
Chalandon, F.
1- Essai sur la Regne d'Alexis Comnene, Paris, 1900.
2- Histoire de la Premiere Croisade, Paris, 1925.
3- Les Comnenes, Paris, 1910.
Demombynes, G.
La Syrie à L'Epoque des Memelouks, Paris, 1922.
D'Ohsson, Baron.
Histoire des Mongols Depuis Techinguiz Khan Jusqu'à Timour Bey ou Tamer Lan, Vol. 111, Amsterdam, 1834-1835.
Dozy, R.
Supplement aux Dictionnaires Arabes, Leiden, 1927.
Dussaud, R.
Topographie Historique de La Syrie Artique et Medievale, Paris, 1927.
Gibb, H.A.R.
The Damascus Chronicle of the Crusades, London, 1932.
Grousset, Rene.
Histoire des Croisades et du Royaume France de Jerusalem, 3 Vols., Paris, 1934-1936.

Hagenmeyer, H.
La vrai et le Faux sur Pierre L'Bermite, (tr. Fury Raynand, Paris, 1883).

Howorth, Henry H .
History of the Mongols from the 9th to the 19th Century, 3 parts, London, 1876-1888.

Joinville
Hist. de Saint Louis, (ed. N. de Wailly), Paris, 1874.

King, E.J.
The Knights Hospitallers in the Holy Land, London, 1931.

Lane-Poole, S.
1- A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1901.
2- Saladin and the Fall of the Kingdom of ~~the~~ Jerusalem, New York, 1898.
3- The Mohammedan Dynasties, Paris, 1925.
4- The Coins of the Urtukis, in Marsden Numismatic Chronicle, 1875.

Michaud, J.F.
Hist. des Croisades, 5 Vols. Paris, 1817-22.

Ostrogorosky, G.
Hist. of the Byzantine State, Oxford, 1956.

Quatrmiere, E.
Hist. des Sultans Mamlouks de L'Egypte, 2 Vols, Paris, 1837-1845.

Recueil des Histriens des Croisades, bub. by Academie des Inscriptions et Belles Lettres, Paris, 1841-1906. (Albert d'Aix, Guillaum de Tyr, Mathieu d'Edessa, Michel le Syrien).

Rice, Tamara T.
The Seljuks in Asia Minor, London, 1961.

Runciman, Steven.
A History of the Crusades, 3 Vols, Cambridge, 1957.

Setton, Kenneth, M.
A History of the Crusades, Vol. I, Pennsylvania, 1955, 1958.

1- Runciman, S.
The Pilgrimages to Palestine before 1095.
2- Gibb, A.R.
The Caliphate and the Arab States.
Zengi and the Fall of Edessa.
The Career of Nur-ad-Din.
The Rise of Saladin.
3- Lewis, B.
The Ismailites and the Assassins.
4- Cahen, C.
The Turkish Invation : The Selchukids.
5- Fink, H.S.
The Foundation of the Latin States, 1099-1118.
6- Nicholson, R.L.
The Grouth of the Latin States, 1118-1144.
7- Baldwin, M.W.
The Latin States under Baldwin 111 and Amalric 1, 1143-1174.
The Decline and Fall of Jerusalem, 1174-1189.

Stevenson, W.B.
The Crusaders in the East, Cambridge, 1907.

Tanner, J.R. (ed.)
The Cambridge Medieval History; Planned by J.B. Bury, ed. by J.R. Tanner and Others, Vol. V., Cambridge Univ., 1929.

Vasiliev, A.A.
History of the Byzantine Empire, 2 Vols.
Madison, 1961.

Wiet, G.
L'Egypte Arabe, Paris, 1937.

Wright, Th.
Early Travellers in Palestine, London, 1848.

The Encyclopaedia of Islam :
1ed. art : Amida, Ortokids.
2ed. art : Artukids, Diyar Bakr.

The Journal of the Royal Asiatik Society (J.A.)
Vol. 1895, 1902, 1903, 1935, 1955.



كتب للمؤلف

آ أبحاث تاريخية

(١) ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز	الطبعة الرابعة	مؤسسة الرسالة ــ بيروت
(٢) عماد الدين زنكي	نافد	الدار العلمية ــ بيروت
(٣) التفسير الإسلامي للتاريخ	الطبعة الثانية	دار العلم للملايين ــ بيروت
(٤) الحصار القاسي (ملامح مأساتنا في افريقيا)	الطبعة الأولى	مؤسسة الرسالة
(٥) دراسة في السيرة	الطبعة الثالثة	مؤسسة الرسالة ــ دار النفائس
(٦) الامارات الأرتقية في ديار بكر (أضواء جديدة على المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي والتتري)	الطبعة الأولى	مؤسسة الرسالة
(٧) نور الدين محمود : الرجل والتجربة	الطبعة الأولى	دار القلم ــ دمشق

ب ــ أبحاث اسلامية

(١) لعبة اليمين واليسار	الطبعة الثانية	مؤسسة الرسالة
(٢) تهافت العلمانية	الطبعة الثالثة	مؤسسة الرسالة
(٣) مقال في العدل الاجتماعي	الطبعة الثانية	مؤسسة الرسالة
(٤) مع القرآن في عالمه الرحيب	الطبعة الأولى	دار العلم للملايين
(٥) آفاق قرآنية	الطبعة الأولى	دار العلم للملايين

حـ ـ أعمال أدبية

(١)	المأسورون (مسرحية)	نافد	دار الارشاد ـ بيروت
(٢)	في النقد الإسلامي المعاصر (نقد)	نافد	مؤسسة الرسالة
(٣)	الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي (نقد)	الطبعة الأولى	مؤسسة الرسالة
(٤)	فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر (نقد)	الطبعة الأولى	مؤسسة الرسالة
(٥)	جداول الحب واليقين (شعر)	الطبعة الأولى	مؤسسة الرسالة
(٦)	رحلة في المصير (شعر)	الطبعة الأولى	مؤسسة الرسالة
(٧)	معجزة في الضفة الغربية (مسرحيات ذات فصل واحد)	الطبعة الأولى	مؤسسة الرسالة
(٨)	الشمس والدنس (مسرحية)	قيد الطبع	



الفهرست

المقدمة ٧

١ – نطاق البحث ٩

٢ – تحليل المصادر والمراجع ٢٥

الفصل الاول

ظهور بني أرتق وعلاقاتهم بالسلاجقة ٥٧

الفصل الثاني

علاقات بني أرتق بالزنكيين والأيوبيين ١١١

الفصل الثالث

بنو أرتق والصليبيون ١٩٧

الفصل الرابع

علاقات بني أرتق بالتتر والمماليك وسقوط آخر إماراتهم ٣١٣

الفصل الخامس

النظم والحضارة الأرتقية ٣٩٧

قائمة المصادر والمراجع ٥١٣